

الكامل في التاريخ

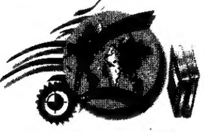
للإمام العلامة عمدة المؤرخين أبي الحسن علي بن أبي الكرم
محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني
المعروف "بابن الأثير" الجزري الملقب بعز الدين
المتوفى سنة "٦٣٠" هـ

من سنة ٣٠ لغاية سنة ٦٤ للهجرة

تحقيق
أبي الفداء عبد الله القاضي

المجلد الثالث

منشورات
لنشر كتب السنة والجماعة
بيروت - لبنان

منشورات محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية

الطبعة الرابعة
٢٠٠٣ م - ١٤٢٤ هـ

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

رمل الظريف - شارع البحتري - بناية ملكارت
الإدارة العامة: عرمون - القبة - مبنى دار الكتب العلمية
هاتف وفاكس: ٨٠٤٨١٠/١١/١٢/١٣ (٥ ٩٦١+)
صندوق بريد: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beirut - Lebanon
Raml Al-Zarif, Bohtory Str., Melkart Bldg. 1st Floor
Head office
Aramoun - Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
P.O.Box: 11-9424 Beirut - Lebanon

Dar Al-Kutub Al-ilmiyah
Beyrouth - Liban
Raml Al-Zarif, Rue Bohtory, Imm. Melkart, 1er Étage
Administration général
Aramoun - Imm. Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
P.P: 11-9424 Beyrouth - Liban

ISBN 2-7451-0046-7
90000>
9 782745 100467

http://www.al-ilmiyah.com/

e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

ثم دخلت سنة ثلاثين

ذكر عزل الوليد عن الكوفة وولاية سعيد

في هذه السنة عزل عثمان الوليد بن عقبة عن الكوفة وولاّها سعيد بن العاص، وقد تقدم سبب ولاية الوليد على الكوفة في السنة الثانية من خلافة عثمان وأنه كان محبوباً إلى الناس فبقي كذلك خمس سنين وليس لداره باب

ثم إنّ شباباً من أهل الكوفة نقبوا على ابن الحيسمان الخزاعي وكاثروه فندر بهم وخرج عليهم بالسيف وصرخ، فأشرف عليهم أبو شريح الخزاعي، وكان قد انتقل من المدينة إلى الكوفة للقرب من الجهاد فصاح بهم أبو شريح فلم يتلفتوا وقتلوا ابن الحيسمان وأخذهم الناس، وفيهم زهير بن جندب الأزدي. ومورع بن أبي مورع الأسدي، وشبيل بن أبي الأزدي، وغيرهم فشهد عليهم أبو شريح، وابنه فكتب فيهم الوليد إلىٰ عثمان فكتب عثمان بقتلهم فقتلهم علىٰ باب القصر ولهذا السبب أخذ في القسامة بقول ولي المقتول عن ملأ من الناس ليفطم الناس عن القتل.

وكان أبو زبيد الشاعر في الجاهلية والاسلام في بني تغلب وكانوا أخواله فظلموه ديناً له فأخذ له الوليد حقه إذ كان عاملاً عليهم فشكر أبو زبيد ذلك له، وانقطع إليه، وغشيه بالمدينة والكوفة، وكان نصرانياً فأسلم عند الوليد وحسن إسلامه، فبينماهو عنده أتى آت أبا زينب، وأبا مورع، وجندباً وكانوا يحفرون للوليد منذ قتل أبناءهم ويضعون له العيون فقال لهم: إنّ الوليد، وأبا زبيد يشربان الخمر فثاروا وأخذوا معهم نفراً من أهل الكوفة فاقتحموا عليه فلم يروا فأقبلوا يتلاومون وسبّهم الناس، وكتم الوليد ذلك عن عثمان.

وجاء جندب، ورهط معه إلى ابن مسعود فقالوا له: إن الوليد معتكف على الخمر وأذاعوا ذلك، فقال ابن مسعود: « من آستتر عنا [بشيء] لم نتبع عورته [ولم نهتك

ستره] ». فعاتبه الوليد على قوله حتى تغاضبا، ثم أتىٰ الوليد بساحر، فأرسل إلى ابن مسعود يسأله عن حده واعترف الساحر عند ابن مسعود، وكان يخيل إلى الناس أنه يدخل في دبر الحمار ويخرج من فيه فأمره ابن مسعود بقتله، فلما أراد الوليد قتله أقبل الناس ومعهم جندب فضرب الساحر فقتله فحبسه الوليد، وكتب إلى عثمان فيه وأمره بإطلاقه وتأديبه فغضب لجندب أصحابه وخرجوا إلى عثمان يستعفون من الوليد فردهم خائبين.

فلما رجعوا أتاهم كل موتور فاجتمعوا معهم على رأيهم، ودخل أبو زينب، وأبو مورع وغيرهما على الوليد فتحدثوا عنده فنام فأخذا خاتمه وسارا إلى المدينة واستيقظ الوليد فلم ير خاتمه فسأل نساءه عن ذلك فأخبرنه أنّ آخر من بقي عنده رجلان صفتهما كذا وكذا، فأتهمهما وقال: « هما أبو زينب، وأبو مورع، » وأرسل يطلبهما فلم يوجدا. فقدما علىٰ عثمان ومعهما غيرهما وأخبراه أنه شرب الخمر فأرسل إلى الوليد فقدم المدينة ودعا بهما عثمان فقال: أتشهدان أنكما رأيتماه يشرب؟ فقالا: لا. قال: فكيف؟ قالا: اعتصرناها من لحيته وهو يقيء الخمر.

فأمر سعيد بن العاص فجلده فأورث ذلك عداوة بين أهليهما، فكان على الوليد خميصة فأمر علي بن أبي طالب بنزعها لما جُلد هكذا في هذه الرواية، والصحيح أنّ الذي جلده عبد الله بن جعفر بن أبي طالب لأن علياً أمر آبنه الحسن أنْ يجلده فقال الحسن: ولّ حارها من تولى قارها[1] فأمر عبد الله بن جعفر فجلده أربعين. فقال علي: أمسك جلد رسول الله ﷺ، وأبو بكر أربعين، وجلد عمر ثمانين وكلٌ سُنّة، وهذا أحب إلي. وقيل: إن الوليد سكر وصلىٰ الصبح بأهل الكوفة أربعاً ثم آلتفت إليهم وقال: أزيدكم؟ فقال له ابن مسعود: مازلنا معك في زيادة منذ اليوم. وشهدوا عليه عند عثمان، فأمر علياً بجلده فأمر عليّ عبد الله بن جعفر فجلده، وقال الحطيئة:

شهد الحطيئة يوم يلقى ربه	أنّ الوليد أحق بالعذر
نادىٰ وقد تمت صلاتهم	أأزيدكم؟ سكراً وما يدري
فأبوا أبا وهب ولو أذنوا	لقرنت بين الشفع والوتر
كفوا عنانك إذْ جريت ولو	تركوا عنانك لم تزل تجري

(١) أي: وَلِّ مكروه الأمر مَنْ تَولى محبوبه.

فلما علم عثمان من الوليد شرب الخمر عزله، وولى سعيد بن العاص بن أمية، وكان سعيد قد رُبِّيَ في حجر عثمان، فلما فتح الشام قدمه فأقام مع معاوية فذكر عمر يوماً قريشاً فسأله عنه فأخبر أنه بالشام فآستقدمه فقدم عليه فقال له: قد بلغني عنك بلاءٌ وصلاح فآزدد يزدك الله خيراً. وقال له: هل لك من زوجة؟ قال:لا. وجاء عمر بنات سفيان بن عويف ومعهن أمهن فقالت أمهن: هلك رجالنا وإذا هلك الرجال ضاع النساء فضعهن في أكفائهن. فزوّج سعيداً أحداهن، وزوج عبد الرحمن بن عوف الأخرىٰ [والوليد بن عقبة الثالثة]، وأتاه بنات مسعود بن نعيم النهشلي فقلن له: قد هلك رجالنا وبقي الصبيان فضعنا في أكفائنا. فزوج سعيداً إحداهن، وجبير بن مطعم الأخرى [فشارك سعيد هؤلاء وهؤلاء]، وكان عمومته ذوي بلاء في الإسلام وسابقة فلم يمت عمر حتى كان سعيد من رجال قريش، فلما استعمله عثمان سار حتى أتى الكوفة أميراً ورجع معه الأشتر، وأبو خشة الغفاري، وجندب بن عبد الله، وجثامة بن صعب بن جثامة وكانوا ممن شخص مع الوليد يعينونه[1] فصاروا عليه، فقال بعض شعراء الكوفة:

فررت من الوليد إلى سعيد ... كاهل الحجر إذ جزعوا فباروا

يلينا من قريش كل عام ... أمير محدث أو مستشار

لنا نار نخوفها فنخشى ... وليس لهم فلا يخشون نار

فلما وصل سعيد الكوفة صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: والله لقد بعثت إليكم وأني لكاره ولكني لم أجد بداً إذا أمرت أن أتمر إلا أن الفتنة قد اطلعت خطمها وعينيها ووالله لأضربن وجهها حتى أقمعها وتعييني وإني لرائد نفسي اليوم، ثم نزل وسأل عن أهل الكوفة فعرف حال أهلها فكتب إلى عثمان أنّ أهل الكوفة قد آضطرب أمرُهُم وغُلِبَ أهل الشرف منهم والبيوتات والسابقة، والغالب علىٰ تلك البلاد روادف قدمتْ، وأعراب لحقت، حتى لا يُنظر إلىٰ ذي شرف وبلاء من نابتتها ولا نازلتها.

فكتب إليه عثمان: أمّا بعد ففضِّلْ أهل السابقة والقدمة ومن فتح الله عليه تلك البلاد، وليكن من نزلها من غيرهم تبعاً لهم إلا أنْ يكونوا تثاقلوا عن الحق وتركوا القيام به وقام به هؤلاء واحفظ لكلٍ منزلته، وأعطهم جميعاً بقسطهم من الحق فإنّ المعرفة

---

(١) الذي يؤخذ من الطبريّ أنهم لم يكونوا يعينونه ولكنهم كانوا عليه من أول الأمر (م).

بالناس بها يصاب العدل، فأرسل سعيد إلىٰ أهل الايام والقادسية فقال: «أنتم وجوه الناس والوجه ينبىء عن الجسد فأبلغونا حاجة ذي الحاجة [وخلة ذي الخلة].

وأدخل معهم مَنْ يحتمل من اللواحق والروادف، وجعل القراء في سمره [فكأنما كانت الكوفة يبساً شملته نار فانقطع إلىٰ ذلك الضرب ضربهم] ففشت القالة في أهل الكوفة، فكتب سعيد إلىٰ عثمان بذلك فجمع الناس وأخبرهم بما كتب إليه فقالوا له: أصبتَ [فلا تسعفهم في ذلك]، ولا تطمّعهم فيما ليسوا له بأهل، فإنه إذا نهض في الأمور مَنْ ليس بأهل لها لم يحتملها وأفسدها. فقال عثمان: يا أهل المدينة استعدوا واستمسكوا فقد دبتْ إليكم الفتن وإنّي والله لأتخلصنّ لكم الذي لكم حتى أنقله إليكم إنْ رأيتم، حتى يأتي من شهد مع أهل العراق سهمه فيقيم معه في بلاده، فقالوا: كيف تنقل إلينا سهمنا من الأرضين؟ فقال: يبيعها من شاء بما كان له بالحجاز واليمن وغيرهما من البلاد، ففرحوا وفتح الله لهم أمراً لم يكن في حسابهم، وفعلوا ذلك واشتراه رجال من كل قبيلة وجاز لهم عن تراضٍ منهم ومن الناس وإقرار بالحقوق.

ذكر غزو سعيد بن العاص طبرستان(١)

في هذه السنة غزا سعيد بن العاص طبرستان فإنها لم يغزها أحدٌ إلىٰ هذه السنة، وقد تقدم في أيام عمر الخلاف في ذلك، وأن أصبهبذها صالح سويد بن مقرن أيام عمر على مال بذله، وأما على هذا القول فإنّ سعيداً غزاها من الكوفة سنة ثلاثين ومعه الحسن، والحسين، وابن عباس، وابن عمر بن الخطاب، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وحذيفة بن اليمان، وابن الزبير، وناس من أصحاب النبي ﷺ، وخرج ابن عامر من البصرة يريد خراسان فسبق سعيداً ونزل نيسابور، ونزل سعيد قُومِس(٢) وهي

(١) قال ياقوت الحموي في معجم البلدان:

«كانت بلاد طبرستان في الحصانة والمنعة على ما هو مشهور من أمرها، وكانت ملوك الفرس يولونها رجلاً ويسمونه «الأصبهبذ» فإذا عقدوا له عليها لم يعزلوه عنها حتىٰ يموت، فإذا مات أقاموا مكانه ولده إنْ كان له ولد وإلّا وجهوا بأصبهبذ آخر، فلم يزالوا على ذلك حتى جاء الإسلام وفتحت المدن المتصلة بطبرستان، وكان صاحب طبرستان يصالح على الشيء اليسير فيُقبل منه لصعوبة المسلك، فلم يزل الأمر على ذلك حتىٰ وَلّىٰ عثمان بن عفان رضي الله عنه سعيد بن العاص الكوفة ...» ـ على ما تجد خبره ها هنا.

(٢) قومس: كورة كبيرة واسعة بها مدن وقرىٰ ومزارع في ذيل جبل طبرستان، فصبتها دامغان بين الري ونيسابور.

صلح صالحهم حذيفة بعد نهاوند فأتى جُرْجَان فصالحوه على مائتي ألف. ثم أتى طُمِيْسَة[١] وهي كلها من طبرستان متاخمة جرجان [وهي مدينة على ساحل] البحر، فقاتله أهلها، فصلّى صلاة الخوف أعلمه حذيفة كيفيتها وهم يقتتلون، وضرب سعيد يومئذ رجلاً بالسيف على حبل عاتقة فخرج السيف من تحت مرفقه، وحاصرهم فسألوا الأمان فأعطاهم على أن لا يقتل منهم رجلاً واحداً، ففتحوا الحصن فقتلوا أجميعن إلا رجلاً واحداً ففتحوا الحصن وحوىٰ ما في الحصن، فأصاب رجلٌ من بني فهد سفطاً عليه قفل فظن أنّ فيه جوهراً وبلّغ سعيداً فبعث إلىٰ النهدي فأتاه بالسفط فكسروا قفله فوجدوا فيه سفطا ففتحوه فوجدوا خرقة [سوداء مدرجة فنشروها فوجدوا خرقة] حمراء، فنشروها فإذا خرقة صفراء وفيها أيران كميت وورد. فقال شاعرٌ يهجو بني نهد:

آب الكرام بالسبايا غنيمة ... وآب بنو نهد بأيرين في سفط
كميت وورد وافرين كلاهما ... فظنوهما غنماً فناهيك من غلط

وفتح سعيد نامية[٢] وليست بمدينة هي صحارى. ومات مع سعيد محمد بن الحكم بن أبي عقيل جد يوسف بن عمر، ثم رجع سعيد [إلىٰ الكوفة]، فمدحه كعب بن جعيل فقال:

فنِعم الفتى إذ حال جيلان دونه ... وإذْ هبطوا من دستبي وأبهرا

في أبيات[٣]

ولما صالح سعيد أهل جرجان كانوا يجبون أحياناً مائة ألف، وأحياناً مائتي ألف، وأحياناً ثلاثمائة ألف ويقولون: هذا صلح صلحنا وربما منعوه، ثم امتنعوا، وكفروا فانقطع طريق خراسان من ناحية قومس إلا علىٰ خوف شديد منهم ـ كان الطريق إلى خراسان من فارسٍ إلى كرمان إلى خراسان، وأول من صيّر الطريق من قومس قتيبة بن مسلم حين ولي خراسان، وقدمها يزيد بن المهلب فصالح صُوْلاً[٤] وفتح البحيرة

---

(١) مدينة مشهورة من سهول طبرستان.
(٢) نَامِيَة: ماء لبني جعفر بن كلاب ولهم جبال يقال لها جبال النامية.
(٣) أنظر الأبيات في الطبري ٤/٢٧٠ : ٢٧١.
(٤) صُوْلا: مدينة في نواحي باب الأبواب بفارس.

ودِهِسْتَان[1] وصالح أهل جرجان علىٰ صلح سعيد.

ذكر غزو حذيفة الباب وأمر المصاحف

وفيها صُرِف حذيفة عن غزو الري إلىٰ غزو الباب مدداً لعبد الرحمن بن ربيعة، وخرج معه سعيد بن العاص فبلغ معه أذربيجان، وكانوا يجعلون الناس رداً فأقام حتى عاد حذيفة ثم رجعا، فلما عاد حذيفة قال لسعيد بن العاص: لقد رأيت في سفرتي هذه أمراً لئن ترك الناس ليختلفن في القرآن ثم لا يقومون عليه أبداً. قال: وما ذاك؟ قال: رأيتُ أناساً من أهل حِمْص يزعمون أنّ قراءتهم خيرٌ من قراءة غيرهم وأنّهم أخذوا القرآن عن المقداد، ورأيت أهل دمشق يقولون: إنّ قراءتهم خيرٌ من قراءة غيرهم، ورأيتُ أهل الكوفة يقولون مثل ذلك وأنهم قرأوا على ابن مسعود، وأهل البصرة يقولون مثل ذلك وأنهم قرأوا على أبي موسى ويسمون مصحفه « لُبَاب القُلُوب ».

فلما وصلوا إلىٰ الكوفة أخبر حذيفة الناس بذلك وحذّرهم ما يخاف، فوافقه أصحاب رسول الله ﷺ وكثيرٌ من التابعين، وقال له أصحاب ابن مسعود: ما تنكر؟ ألسنا نقرأه على قراءة ابن مسعود؟ فغضب حذيفة ومن وافقه، وقالوا: إنما أنتم أعراب فآسكتوا فإنكم علىٰ خطأ. وقال حذيفة: والله لئِن عشتُ لآتين أمير المؤمنين، ولأشيرن عليه أنْ يَحُول بين الناس وبين ذلك. فأغلظ له ابن مسعود، فغضب سعيد وقام، وتفرّق الناس وغضب حذيفة وسار إلى عثمان فأخبره بالذي رأى وقال: « أنا النذير العريان، فأدركوا الأمة ».

فجمع عثمان الصحابة وأخبرهم الخبر فأعظموه ورأوا جميعاً ما رأى حذيفة، فأرسل عثمان إلى حفصة بنت عمر أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها، وكانت هذه الصحف هي التي كُتبت في أيام أبي بكر، فإنّ القتل لما كثر في الصحابة يوم اليمامة قال عمر لأبي بكر: إنّ القتل قد كثر واستحرّ بقُراء القرآن يوم اليمامة وإنّي أخشى أنْ يستحرّ القتل بالقراء فيذهب من القرآن كثير، وإني أرىٰ أنْ تأمرَ بجمع القرآن.

فأمر أبو بكر زيد بن ثابت فجمعه من الرقاع والعسب وصدور الرجال، فكانت الصحف عند أبي بكر ثم عند عمر، فلما توفي عمر أخذتها حفصة فكانت عندها،

---

(١) الدِّهِسْتَان: بلد مشهور في طريق مازَنْدان قرب خوارزم وجرجان.

فأرسل عثمان إليها أخذها منها وأمر زيد بن ثابت، وعبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها في المصاحف، وقال عثمان: إذا اختلفتم فاكتبوها بلسان قريش فإنّما نزل بلسانهم.

ففعلوا، فلما نسخوا الصحف ردّها عثمان إلىٰ حفصة وأرسل إلى كل افق بمصحف، وحرق ما سِوَىٰ ذلك، وأمر أنْ يعتمدوا عليها ويَدَعُوا ما سِوَىٰ ذلك، فكل الناس عرف فضل هذا الفعل إلا ما كان من أهل الكوفة فإنّ المصحف لما قدِم عليهم فرح به أصحاب النبي ﷺ وإنّ أصحاب عبد الله ومَنْ وافقهم امتنعوا من ذلك وعابوا الناس فقام فيهم ابن مسعود وقال: ولا كل ذلك فإنّكم والله قد سبقتم سبقاً بَيِّناً فأربعوا على ظلعكم، ولما قدم على الكوفة قام إليه رجلٌ فعاب عثمان بجمع الناس على المصحف فصاح وقال: آسكت فعن ملأٍ منا فعل ذلك فلو وليت منه ما ولي عثمان لسلكتُ سبيله.

ذكر سقوط خاتم النبي ﷺ في بئر أُرِيْس(١)

وفيها وقع خاتم النبي ﷺ من يد عثمان في بئر أريس وهي على ميلين من المدينة وكانت قليلة الماء فما أدرك قعرها بعد. وكان رسول الله ﷺ اتخذه لمّا أراد أنْ يكاتب الأعاجم يدعوهم إلى الله تعالى فقيل له: إنهم لا يقبلون كتاباً إلّا مختوماً، فأمر رسول الله ﷺ أنْ يُعمل له خاتم من حديد، فلما عُمل جعله في إصبعه، فأتاه جبريل فنهاه عنه فنبذه، وأمر فعمل له خاتم من نحاس وجعله في اصبعه فقال [له] جبريل: آنبذه. فنبذه وأمر رسول الله ﷺ بخاتم من فضة، فصنع له فجعله في إصبعه فأمره جبريل أنْ يقرّه فأقرّه وكان نقشه ثلاثة أسطر « محمد » سطر « ورسول » سطر « والله » سطر، فتختم به رسول الله ﷺ حتى توفي، ثم تختم به أبو بكر حتى توفي، ثم عمر حتى توفي، ثم تختّم به عثمان ست سنين فحفروا بئراً بالمدينة شرباً للمسلمين فقعد علىٰ رأس البئر فجعل يعبث بالخاتم [ويديره بإصبعه] فسقط من يده في البئر فطلبوه فيها، ونزحوا ما فيها من الماء فلم يقدروا عليه، فجعل فيه مالا عظيماً لمن جاء به واغتمّ لذلك غمّاً شديداً، فلما يئس منه صنع خاتماً آخر على مثاله ونقشه فبقي في إصبعه حتىٰ هلك، فلما قُتِل ذهب الخاتم فلم يُدْرَ من أخذه.

---

(١) بئر أُرِيْس: بئر بالمدينة بقباء مقابل مسجدها.

ذكر تسيير أبي ذر إلى الربذة

وفي هذه السنة كان ما ذكر في أمر أبي ذر وإشخاص معاوية إياه من الشام إلى المدينة، وقد ذكر في سبب ذلك أمور كثيرة مِنْ سبّ معاوية إياه، وتهديده بالقتل، وحمله إلى المدينة من الشام بغير وطاء، ونفيه من المدينة على الوجه الشنيع لا يصح النقل به ولو صح لكان ينبغي أنْ يعتذر عن عثمان فإنّ للإمام أنْ يؤدب رعيته وغير ذلك من الأعذار لا أنْ يجعل ذلك سبباً للطعن عليه ـ كرهتُ ذكرها.

وأما العاذرون فإنّهم قالوا: لما ورد ابن السوداء إلىٰ الشام لقي أبا ذر فقال: يا أبا ذر ألا تعجب من معاوية يقول: « المال مالُ الله إلاَّ إنّ كلَ شيءٍ لله كأنه يريد أنْ يحتجنه دون الناس ويمحو اسم المسلمين. فأتاه أبو ذر فقال: ما يدعوك إلىٰ أنْ تسمي مال المسلمين مال الله الساعة؟ قال: يرحمك الله يا أبا ذر ألسنا عباد الله، والمال ماله [والخلق خلقه، والأمر أمره]! قال: فلا تقله. قال: سأقول مال المسلمين. وأتىٰ ابنُ السوداء أبا الدرداء فقال له مثل ذلك فقال [له من أنت ؟] أظنك والله يهودياً فأتىٰ عبادة بن الصامت فتعلّق به عُبادة، وأتى به معاوية فقال: هذا والله الذي بعث عليك أبا ذر.

وكان أبو ذر يذهب إلىٰ أنّ المسلم لا ينبغي له أنْ يكون في ملكه أكثر من قوت يومه وليلته أو شيءٌ ينفقه في سبيل الله أو يعده لكريم ويأخذ بظاهر القرآن ﴿ الذِيْنَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ والفِضَّةَ وَلاَ يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيْلِ اللهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيم ﴾[1] فكان يقوم بالشام ويقول: « يا معشرَ الأغنياء واسوا الفقراء بشِّر الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله بمكاوٍ من نار تكوىٰ بها جباهُهُم وجنوبهم وظهورهم ». فما زال حتى وَلِعَ الفقراء بمثل ذلك وأوجبوه على الأغنياء، وشكا الأغنياء ما يلقون منهم، فأرسل معاوية إليه بألف دينار في جَنَح الليل فأنفقها، فلما صلى معاوية الصبح دعا رسوله الذي أرسله إليه فقال: آذهب إلىٰ أبي ذر فقل له: « انقِذْ جسدي من عذاب معاوية فإنّه أرسلني إلىٰ غيرك، وإنّي أخطأتُ بك » ففعل ذلك فقال له أبو ذر: يا بني قُلْ له: والله ما أصبح عندنا من دنانيرك دينار، ولكن أخِّرْنَا ثلاثة أيام حتىٰ نجمَعَهَا.

---

(١) التوبة: ٣٤.

فلما رأى معاوية أنّ فعله يصدِّق قوله كتب إلى عثمان أنّ أبا ذر قد ضيّق عليّ، وقد كان كذا كذا ـ للذي يقوله الفقراء، فكتب إليه عثمان أنّ الفتنة قد أخرجت خطمها وعينيها، ولم يبق إلا أنْ تِثب، فلا تنكأ القرح، وجَهِّز أبا ذر إليّ وآبعث معه دليلاً، [وزوده، وآرفق به]، وكفكف الناس ونفسك ما آستطعت. وبعث إليه بابني ذرّ فلما قدم المدينة ورأىٰ المجالس في أصل جبل سلع قال: بشر أهل المدينة بغارة شعواء وحرب مذكار.

ودخل علىٰ عثمان فقال له: ما لأهل الشام يشكون ذرب لسانك؟ فأخبره فقال: يا أبا ذر عليّ أنْ أقضي ما عليّ وأنْ ادعو الرعية إلىٰ الأجتهاد والاقتصاد وما عليّ أن أجبرهم على الزهد فقال أبو ذر: لا ترضوا من الأغنياء حتىٰ يبذلوا المعروف ويحسنوا إلى الجيران والاخوان، ويَصِلوا القرابات. فقال كعب الأحبار وكان حاضراً: مَنْ أدىٰ الفريضة فقد قضىٰ ما عليه. فضربه أبو ذر فشجّه، وقال له: يا بن اليهودية ما أنت وما ها هنا؟ فاستوهب عثمان كعباً شجته فوهبه، فقال أبو ذر لعثمان: تأذن لي في الخروج من المدينة فإنّ رسول الله ﷺ أمرني بالخروج منها إذا بلغ البناء سلعاً.

فأذن له، فنزل الربذة وبنى بها مسجداً، وأقطعه عثمان صرمة من الابل، وأعطاه مملوكَيْن، وأجرىٰ عليه كل يوم عطاء، وكذلك على رافع بن خديج ـ وكان قد خرج أيضاً عن المدينة لشيءٍ سمعه. وكان أبو ذر يتعاهد المدينة مخافة أن يعود أعرابياً، وأخرج معاوية إليه أهله فخرجوا ومعهم جراب مثقل يد الرجل فقال: انظروا إلى هذا الذي يزهد في الدنيا ما عنده؟ فقالت امرأته: والله ما هو دينار ولا درهم ولكنها فلوس كان إذا خرج عطاؤه ابتاع منه فلوساً لحوائجنا. ولما نزل الربذة أُقيمت الصلاة وعليها رجل يلي الصدقة فقال: تقدم يا أبا ذر فقال: لا تقدمْ أنت فإنّ رسول الله ﷺ قال لي: أسمع وأطع وإنْ كان عليك عبدٌ مجدّع فأنت عبدٌ ولستَ بأجدع. وكان من رقيق الصدقة اسمه مجاشع.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة زاد عثمان النداء الثالث يوم الجمعة على الزوراء [١].

---

(١) الزَّوْراء: دار عثمان بن عفان بالمدينة، وقيل موضع عند سوق المدينة قرب المسجد.

وفيها مات حَاطِب بن أبي بَلْتَعَة اللخمي [١] وهو من أهل بدر (حاطب) بالحاء المهملة (وبلتعة) بالباء الموحدة ثم التاء المثناة من فوق بوزن مقرعة. وفيها مات عمرو بن أبي سرح الفهري [٢] وكان بدرياً. وفيها مات مسعود بن الربيع [٣]، وقيل: ابن ربيعة بن عمرو القاري من القارة. أسلم قبل دخول النبي ﷺ دار الأرقم وشهد بدراً وكان عمره قد جاوز الستين. وفيها مات عبد الله بن كعب بن عمرو الأنصاري شهد بدراً وكان على غنائم النبي ﷺ فيها وفي غيرها. وفيها مات عبد الله بن مظعون [٤] أخو عثمان وكان بدرياً.

وجبار بن صخر [٥] وهو بدري أيضاً (جبار) بالجيم وآخره راء.

---

(١) هو حاطب بن أبي بلتعة عمرو بن عمير بن مسلمة اللخمي، حليف بني أسد، أبو عبدالله، وقيل أبو محمد.
شهد بدراً، والحديبية، وشهد الله له بالإيمان في قوله ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء﴾ وفي قصته المعروفة أرسله النبي ﷺ إلى المقوقس صاحب الاسكندرية سنة ٦، وتوفي سنة ٣٠ وصلى عليه عثمان وكان عمره ٦٥ سنة.

(٢) هو عمرو بن أبي سرح بن ربيعة بن هلال بن مالك الفهريّ، أبو سعيد.
من مهاجرة الحبشة، شهد بدراً، وأحداً، والخندق والمشاهد كلها.
وقيل مات بالمدينة سنة ٣٠.

(٣) هو مسعود بن ربيعة ـ وقيل ابن الربيع ـ بن عمرو بن سعد بن عبد العزىٰ حليف بني زهرة.
أسلم بمكة قديماً، وهاجر للمدينة، وآخى النبي ﷺ بينه وبين عبيد بن التّيهان.
شهد بدراً، وتوفي سنة ٣٠ هـ.

(٤) هو عبدالله بن مظعون بن حبيب بن وهب بن جمح القرشي الجمحي، أبو محمد.
هاجر للحبشة، وشهد بدراً.
توفي سنة ٣٠ هـ.

(٥) هو جبار بن صخر بن أمية بن خنساء بن سنان ـ الخزرجيّ أبو عبدالله.
شهد العقبة وبدراً وأحداً والمشاهد كلها.

ثم دخلت سنة أحدى وثلاثين

ذكر غزوة الصواري

قيل: وفي هذه السنة كانت غزوة الصواري، وقيل: كانت سنة أربع وثلاثين، وقيل: في سنة إحدىٰ وثلاثين كانت غزوة الأساورة، وقيل: كانتا معاً سنة أحدى وثلاثين.

وكان على المسلمين معاوية، وكان قد جُمِعَ الشامُ له أيام عثمان، وسبب جمعه له أنّ أبا عبيدة بن الجراح لما حضر استخلف على عمله عياض بن غنم وكان خاله وابن عمه وكان جواداً مشهوراً، وقيل: استخلف معاذ بن جبل على ما تقدم فمات عياض واستخلف عمر بعده سعيد بن حذيم الجمحي، ومات سعيد [بعد] وأمّر عمر مكانه عمير بن سعد الأنصاري، ومات عمر وعمير على حمص، وقنسرين، ومات يزيد بن أبي سفيان فجعل عمر مكانه أخاه معاوية [ونعاه لابي سفيان فقال: مَنْ جعلت على عمله يا أمير المؤمنين؟ فقال: معاوية فقال: وصلتك رحم].

فاجتمعت لمعاوية الأردن، ودمشق، ومرض عمير بن سعد فاستعفىٰ عثمان وآستأذنه في الرجوع إلىٰ أهله فأذِن له، وضمّ عثمان حمص وقنسرين إلى معاوية، ومات عبد الرحمن بن علقمة ـ وكان على فلسطين ـ فضم عثمان عمله إلىٰ معاوية فآجتمع الشام لمعاوية لسنتين من إمارة عثمان، فهذا كان سبب اجتماع الشام له.

وأما سبب هذه الغزوة فإنّ المسلمين لما أصابوا من أهل إفريقية وقتلوهم وسبوهم خرج قسطنطين بن هرقل في جمعٍ له لم تجمع الروم مثله مُذ كان الإسلام فخرجوا في خمسمائة مركب أو ستمائة، وخرج المسلمون وعلى أهل الشام معاوية بن أبي سفيان، وعلى البحر عبد الله بن سعد بن أبي سرح، وكانت الريح على المسلمين لما شاهدوا الروم فأرسىٰ المسلمون والروم وسكنت الريح، فقال المسلمون: الأمان بيننا وبينكم

فباتوا ليلتهم والمسلمون يقرأون القرآن ويصلّون ويدعون، والروم يضربون بالنواقيس وقرّبوا من الغد سفنهم وقرب المسلمون سفنهم فربطوا بعضها مع بعض واقتتلوا بالسيوف والخناجر وقتل من المسلمين بشرٌ كثير. وقتل من الروم ما لا يحصىٰ، وصبروا يومئذ صبراً لم يصبروا في موطن قط مثله، ثم أنزل الله نصره على المسلمين فآنهزم قسطنطين جريحاً ولم ينج من الروم إلا الشريد، وأقام عبد الله بن سعد بذات الصواري بعد الهزيمة أياماً ورجع، فكان أول ما تكلم به محمد بن أبي حذيفة، ومحمد بن أبي بكر في أمر عثمان في هذه الغزوة وأظهرا عيبه وما غيّر وما خالف به أبا بكر، وعمر، ويقولان: آستعمل عبد الله بن سعد رجلاً كان رسول الله ﷺ قد أباح دمه، ونزل القرآن بكفرِهِ؛ وأخرج رسول الله ﷺ قوماً أدخلهم، ونزع أصحاب رسول الله ﷺ، واستعمل سعيد بن العاص، وابن عامر.

فبلغ ذلك عبد الله بن سعد فقال: لا تركبا معنا فركبا في مركب ما معهما إلا القبط فلقوا العدو فكانا أقل المسلمين نكاية وقتالاً فقيل لهما في ذلك فقالا: كيف نقاتل مع عبد الله بن سعد؟ استعمله عثمان وعثمان فعل كذا وكذا فأرسل اليهما عبد الله ينهاهما ويتهددهما ففسد الناس بقولهما، وتكلموا ما لم يكونوا ينطقون به.

وأما قسطنطين فإنّه سار في مركبه إلىٰ صِقِلِّيَة [1] فسأله أهلها عن حاله فأخبرهم فقالوا: أُهلكتَ النصرانية وأفنيتَ رجالها لو أتانا العرب لم يكن عندنا مَنْ يمنعهم، ثم أدخلوه الحمام وقتلوه وتركوا من كان معه في المركب، وأذنوا لهم في المسير إلى القسطنطينية.

وقيل: في هذه السنة فتحت أرمينية على يد حبيب بن مسلمة وقد تقدم ذكر ذلك.

* * *

ذكر مقتل يزدجرد بن شهريار

في هذه السنة هرب يزدجرد من فارس إلى خُرَاسَان في قولِ بعضهم، وقد تقدم الخلاف فيه، وكان ابن عامر قد خرج من البصرة حينَ وِلِيَهَا إلى فارس فآفتتحها وهرب

---

(١) جزيرة من جزر بحر المغرب مقابلة أفريقية.

يزدجرد من جور وهي أردشير خره في سنة ثلاثين فوجّه ابن عامر في أثره مجاشع بن مسعود، وقيل: هرم بن حيان العبدي، وقيل: هرم بن حيان اليشكري فاتبعه الى كرمان فهرب يزدجرد الى خراسان وأصاب مجاشع بن مسعود ومن معه الثلج والدمق واشتد البرد وكان الثلج قيد رمح فهلك الجند وسلم مجاشع ورجل معه جارية فشق بطن بعير فادخلها فيه وهرب فلما كان الغد جاء فوجدها حية فحملها فسمى ذلك القصر «قصر مجاشع» لأن جيشه هلكوا فيه وهو على خمسة فراسخ أو ستة من السيرجان من أعمال كرمان هذا على قول من يقول إن هرب يزدجرد من فارس كان هذه السنة.

وأما سبب قتله على ما تقدم ذِكْرُه من فتح فارس، وخراسان فقد آختلف الناسُ في سبب قتله فقيل: إنه هرب من كرمان في جماعة [يسيرة] إلى مرو ومعه خرزاد أخو رستم فرجع عنه إلى العراق ووصىٰ به ماهويه مرزبان مرو فسأله يزدجرد مالاً فمنعه، فخافه أهل مرو علىٰ أنفسهم فأرسلوا إلىٰ الترك يستنصرونهم عليه، فأتوه فبيّتوه فقتلوا أصحابه، فهرب يزدجرد ماشياً إلىٰ شطّ المرغاب فأوىٰ إلىٰ بيت رجل ينقر الأرحاء، فلما نام قتله.

وقيل: بل بيّته أهل مرو ولم يستنصروا بالترك فقتلوا أصحابه وهرب منهم فقتله النقار، وتبعوا أثره إلى بيت الذي ينقر الأرحاء فأخذوه وضربوه فأقرّ بقتله فقتلوه وأهله، وكان يزدجرد قد وطيء آمرأةً بها فولدتْ له غلاماً ذاهب الشق ولدته بعد قتله فسمي «المخدّج» فولد له أولاد بخراسان، فوجد قتيبة بن مسلم حين افتتح الصعد. وغيرها جاريتين من ولد المخدج فبعث بهما أو بإحداهما إلى الحجاج فبعث بها إلى الوليد بن عبد الملك، فولدت للوليد يزيد بن الوليد الناقص.

وأُخرج يزدجرد من النهر وجُعل في تابوت وحمل إلى إصطخر فوضع في ناووس هناك.

وقيل: إنّ يزدجرد هرب بعد وقعة نهاوند إلى أرض أصبهان وبها رجل يقال له: مطياز [١] كان قد أصاب من العرب شيئاً يسيراً فصار له بها محل كبير فأتىٰ مطيار يزدجرد

---

(١) الطبري: (.. وبها رجل يقال له مطيار من دهاقينها وهو المنتدب كان لقتال العرب حين نكلت الأعاجم).

ذات يوم [زائراً] فحجبه بوابه ليستأذن له فضربه وشَجَّه [أنفةً وحميةً لحجبه إياه] فدخل البواب على يزدجرد مُدمىً [فلما نظر إليه أفظعه ذلك] فرحل عن أصبهان من ساعته فأتىٰ الري، فخرج إليه صاحب طبرستان وعرض عليه بلاده، وأخبره بحصانتها [وقال له: إنْ أنت لم تُجِبْني يومك هذا ثم أتيتني بعد ذلك فلم أقبلك ولم أراك]. فلم يجبه.

وقيل: مضى من فوره ذلك إلىٰ سجستان، ثم سار إلىٰ مَرْو في ألف فارس، وقيل: بل قصد فارس فأقام بها أربع سنين، ثم أتى كرمان فأقام بها سنتين أو ثلاثاً فطلب إليه دهقانه شيئاً فلم يجبه فجرّه برجله وطرده عن بلاده، فسار إلىٰ سجستان فأقام بها نحواً من خمس سنين، ثم عزم على قصد خراسان ليجمع الجموع ويسير بهم إلىٰ العرب فسار إلىٰ مرو ومعه الرهن من أولاد الدهاقين ومعه [في رؤسائهم] فرخزاد، فلما قدِمَ مَرْو كاتب ملوك الصين وملك فرغانة، وملك كابل، وملك الخزر يستمدهم » وكان الدهقان يومئذ بمرو ماهويه أبو براز فوكل ماهويه بمرو ابنه براز ليحفظهما ويمنع عنها يزدجرد خوفاً من مكره، فركب يزدجرد يوماً وطاف بالمدينة وأراد دخولها من بعض أبوابها فمنعه براز، فصاح به أبوه ليفتح الباب فلم يفعل وأومأ إليه أبوه أنْ لا يفعل ففطن له رجلٌ من أصحاب يزدجرد فأعلمه بذلك وآستأذنه في قتله [وقال: إنْ فعلتُ صفت لك الأمور بهذه الناحية] فلم يأذن له. وقيل: أراد يزدجرد صرف الدهقنة عن ماهويه إلى صنجان [1] ابن أخيه فبلغ ذلك ماهويه فعمل في هلاك يزدجرد، فكتب إلى نيزك طرخان [يخبره أنّ يزدجرد وقع إليه مفلولاً] يدعوه إلىٰ القدوم عليه ليتفقا علىٰ قتله، ومصالحة العرب عليه وضمن له إنْ فعل أن يعطيه كل يوم ألف درهم. فكتب نيزك إلىٰ يزدجرد يعده المساعدة على العرب وأنّه يقدم عليه بنفسه إنْ أبعد عسكره وفرخزاد عنه فآستشار يزدجرد أصحابه فقال له سنجان: لست أرى أن تبعد عنك أصحابك وفرخزاد. وقال أبو براز: أرى أن تتألف نيزك وتجيبه إلىٰ ما سأل. فقبل رأيه وفرّق عنه جنده [وأمر فرخزاد أنْ يأتي أجمة سرخس]، فصاح فرخزاد وشق جيبه [وتناول عموداً بين يديه يريد ضرب أبي براز به وقال: يا قتلة الملوك قتلتم ملكَيْن]. وقال: أظنكم قاتلي هذا.

ولم يبرح فرخزاد حتى كتب له يزدجرد بخط يده أنه آمن وأنّه قد أسلم يزدجرد

---

(١) الطبري : سنجان ـ بالسين .

وأهله وما معه إلى ماهويه وأشهد بذلك.

وأقبل نيزك فلقيه يزدجرد بالمزامير والملاهي أشار عليه بذلك أبو براز فلما لقيه تأخر عنه أبو براز فٱستقبله نيزك ماشياً [ويزدجرد على فرس له] فأمر له يزدجرد بجنيبة من جنائبه فركبها، فلما توسط عسكره تواقفا فقال له نيزك. فيما يقول: زوّجني إحدىٰ بناتك حتى أناصحك في قتال عدوك.

فسبّه يزدجرد فضربه نيزك بمقرعته وصاح يزدجرد [غَدَرَ الغادر]، وركض منهزماً وقتل أصحاب نيزك أصحاب يزدجرد وانتهى يزدجرد [من هزيمته إلىٰ مكان من نواحي مرو فنزل عن فرسه ودخل] إلىٰ بيت طحان فمكث فيه ثلاثة أيام لم يأكل طعاماً. فقال له الطحان: أخرج أيها الشقي فكُل طعاماً فقد جُعت.

فقال: لستُ أصل إلى ذلك إلا بزمزمة.

وكان عند الطحان رجل يزمزم فكلّمه الطحان في ذلك ففعل وزمزم له فأكل، فلما رجع المزمزم سمع بذكر يزدجرد فسأل عن حليته فوصفوه له، فأخبرهم به وبحليته، فأرسل إليه أبو براز رجلًا من الأساورة وأمره بخنقه وإلقائه في النهر، وأتىٰ الطحان فضربه ليدلّه عليه فلم يفعل وجَحَده، فلما أراد الانصراف عنه قال له بعض أصحابه: إني لاجد ريح مسك، ونظر إلى طرف ثوبه من ديباج في الماء فجذبه فإذا هو يزدجرد فسأله أنْ لا يقتله ولا يدل عليه وجعل له خاتمه ومنطقته وسواره فقال له: اعطني أربعة دراهم وأخلّي عنك. فلم يكن معه وقال: إنّ خاتمي لا يَحصى ثمنه فخُذْه فأبىٰ عليه فقال له يزدجرد: قد كنتُ أخبر أني سأحتاج إلىٰ أربعة دراهم [وأضطرُّ إلى أنْ يكون أكلي أكل الهرّ]، فقد رأيتُ ذلك، ثم نزع أحد قرطيه فأعطاه الطحان ليستر عليه وأرادوا قتله فقال: ويحكم إنّا نجد في كتبنا أنّه من قتل الملوك عاقبه الله بالحريق في الدنيا، فلا تقتلوني واحملوني إلى الدهقان أو إلى العرب فإنهم يستبقون مثلي.

فأخذوا ما عليه [من الحلى]، وخنقوه بوتر القوس وألقوه في الماء. [فجرى به الماء حتى انتهى إلى فوهة الرزيق فتعلّق بعود] فأخذه أسقف مرو وجعله في تابوت ودفنه.

وسأل أبو براز عن أحد القرطين وأخذ الذي دلّ عليه فضربه حتى أتى علىٰ نفسه.

وقيل: بل سار يزدجرد من كرمان قبل ورود العرب إليها نحو مرو على الطبسين، وقهستان في أربعة آلاف فلما قارب مرو لقيه قائدان يقال لأحدهما، براز وللآخر سنجان ـ وكانا متباغضين، فسعى براز بسنجان حتى همّ يزدجرد بقتله وأفشىٰ ذلك إلىٰ آمرأةٍ من نسائه [كان براز واطأها] ففشا الحديث فجمع سنجان أصحابه وقصد قصر يزدجرد فهرب براز، وخاف يزدجرد فهرب أيضاً إلىٰ رحى على فرسخين من مرو، فدخل بيت نقار الرحى فأطعمه الطحان فطلب منه شيئاً فأعطاه منطقته فقال: إنما يكفيني أربعة دراهم فلم يكن معه ثم نام يزدجرد فقتله الطحان بفأسٍ كان معه وأخذ ما عليه وألقىٰ جيفته في الماءِ وشقّ بطنه وثقّله، وسمع بقتله مطران كان بمرو فجمع النصارى وقال: قتل ابن شهريار، وإنما شهريار بن شيرين المؤمنة التي قد عرفتم حقها وإحسانها إلىٰ أهل ملتنا مع ما نال النصارى في مُلك جده أنو شروان من الشرف فينبغي أن نحزن لقتله ونبني له ناووساً فأجابوه إلىٰ ذلك وبنوا له ناووساً وأخرجوا جثته وكفّنوها ودفنوها في الناووس.

وكان ملكه عشرين سنة منها أربع سنين في دعة، وست عشرة سنة في تعب من محاربة العرب إياه وغلظتهم عليه، وكان آخر من ملك من آل أردشير بن بابك وصفا المُلك بعده للعرب.

ذكر مسير ابن عامر إلىٰ خُرَاسَان وفتحها

لما قُتل عمر بن الخطاب نقض أهلُ خراسان وغدروا، فلما افتتح ابن عامر فارس قام إليه حبيب بن أوس التميمي فقال له: أيها الأمير إنّ الأرض بين يديك ولم يفتح منها إلّا القليل فسِر فإنّ الله ناصِرُك.

قال: أو لم نؤمر بالمسير. وكره أن يظهر أنه قَبِلَ رأيه.

وقيل: إن ابن عامر لما فتح فارس عاد إلى البصرة واستخلف على إصطخر شريك بن الأعور الحارثي فبنى شريك مسجد إصطخر، فلما دخل البصرة أتاه الأحنف بن قيس ـ وقيل: غيره فقال له: إنّ عدوك منك هارب، ولك هائب، والبلاد واسعة فسِر فإنّ الله ناصِرُك، ومعز دينه ـ فتجهّز وسار، واستخلف علىٰ البصرة زياداً، وسار إلىٰ كرمان فآستعمل عليها مجاشع بن مسعود السلمي وله صحبة وأمره بمحاربة أهلها وكانوا

قد نكثوا أيضاً، واستعمل علىٰ سجستان الربيع بن زياد الحرثي وكانوا أيضاً قد غدروا ونقضوا الصلح، وسار ابن عامر إلىٰ نيسابور وجعل على مقدمتِهِ الأحنف بن قيس فأتىٰ الطبسين وهما حصنان وهما بابا خراسان فصالحه أهلهما، وسار إلىٰ قهستان فلقيه أهلها وقاتلهم حتى ألجأهم إلى حصنهم وقدم عليها ابن عامر فصالحه أهلها على ستمائة ألف درهم. وقيل: كان المتوجّه إلى قهستان أُمَيْر بن أحمر اليشكري، وهي بلاد بكر بن وائل، وبعث ابن عامر سرية إلىٰ رستاق زام من أعمال نيسابور ففتحه عنوة وفتح باخرز من أعمال نيسابور أيضاً، وفتح جُوَيْن من أعمال نيسابور أيضاً.

ووجّه ابن عامر الأسود بن كلثوم العدوي من عدي الرباب وكان ناسكاً إلى بَيْهَق [١] من أعمالها أيضاً فقصَد قصبته، ودخل حيطان البلد من ثَلمة كانت فيه، ودخلت معه طائفة من المسلمين فأخذ العدو عليهم تلك الثلمة فقاتل الأسود حتى قتل هو وطائفة ممن معه وقام بأمر الناس بعده أخوه أدهم بن كلثوم فظفر، وفتح بيهق، وكان الأسود يدعو الله أنْ يحشره من بطون السباع والطير فلم يوارِهِ أخوه، ودَفَنَ من استشهد من أصحابه، وفتح ابن عامر بُشْت [٢] من نيسابور وهذه بشت بالشين المعجمة وليست بُسْت التي بالسين المهملة تلك من بلاد الداون وهذه من خراسان من نيسابور.

وافتتح خَوَاف، واسفراين، وارغيان، ثم قصد نيسابور بعدما استولىٰ على أعمالها، وآفتتحها فحصر أهلها أشهراً، وكان على كل ربع منها مرزبان للفرس يحفظه، فطلب صاحب ربع من تلك الارباع الأمان علىٰ أنْ يدخل المسلمين المدينة فأجيب إلىٰ ذلك، فأدخلهم ليلاً ففتحوا الباب وتحصن مرزبانها الأكبر في حصنها، ومعه جماعة وطلب الامان، والصلح على جميع نيسابور، فصالحه على ألف ألف درهم، وولى نيسابور قيس بن الهيثم السلمي.

وسيّر جيشاً إلى نسا وأَبِيْوَرْد [٣] فآفتتحوها صلحاً، وسَيّر سرية أخرى إلى سَرْخَس [٤] مع عبد الله بن خازم السلمي فقاتلوا أهلها ثم طلبوا الأمان والصلح علىٰ

---

(١) بَيْهَق : ناحية كبيرة ، وكورة واسعة كثيرة البلدان والعمارة من نواحي نيسابور .

(٢) بُشْت: بلد بنواحي نيسابور .

(٣) نَسَا : مدينة بخراسان .

أَبِيْوَرْد : مدينة بخراسان بين سرخس ونسا .

(٤) سَرْخَس : مدينة قديمة من نواحي خراسان كبيرة بين نيسابور ومرو .

أمان مائة رجل فأجيبوا إلىٰ ذلك فصالحهم مرزبانها على ذلك، وسمَّى مائة رجل ولم يذكر نفسه فقتله ودخل سرخس عَنوَة، وأتى مرزبان طوس إلى ابن عامر فصالحه عن طوس على ستمائة درهم، وسيّر جيشاً إلى هراة عليهم عبد الله بن خازم، وقيل: غيره، فبلغ مرزبان هراة ذلك فسار إلى ابن عامر فصالحه عن هراة، وباذغيس، وبوشنج.

وقيل: بل سار ابن عامر في الجيش إلى هراة فقاتله أهلها ثم صالحه مرزبانها على ألف ألف درهم، ولما غلب ابن عامر على هذه البلاد أرسل إليه مرزبان مرو فصالحه على ألفي ألف ومائتي ألف درهم، وقيل: غير ذلك.

وأرسل ابن عامر حاتم بن النعمان الباهلي إلى مرزبانها وكانت مروُ كلها صلحاً إلّا قرية منها يقال لها: « سِنْج » فإنّها أخذت عَنْوَة وهي بكسر السين المهملة والنون الساكنة وآخرها جيم.

ووجه ابن عامر الأحنف بن قيس إلى طخارستان، فمرّ برستاق يعرف برستاق الأحنف ويدعى سوانجرد فحصرها أهلها فصالحوه على ثلاثمائة ألف درهم، فقال الأحنف: أصالحكم على أن يدخل رجلٌ منا القصر فيُؤَذِّنُ فيه ويقيم فيكم حتى ينصرف.

فرضوا بذلك ومضىٰ الأحنف إلى مَرْو الروذ فقاتله أهلها فقتلهم، وهزمهم، وحصرهم، وكان مرزبانها من أقارب باذان صاحب اليمن فكتب إلىٰ الاحنف أنه دعاني إلى الصلح إسلام باذان، فصالحه على ستمائة ألف وسيّر الأحنف سرية فٱستولتْ علىٰ رِسْتَاق بغ وٱستاقتْ منه مواشي، ثم صالحوا أهله وجمع له أهل طخارستان، فٱجتمع أهلُ الجَوْزِجَان (١) والطالقان، والفارياب، ومَنْ حولهم في خلق كثير فٱلتقوا، وٱقتتلوا، وحمل ملك الصغانيان علىٰ الاحنف فٱنتزع الاحنف الرمح من يده وقاتل قِتَالاً شديداً فٱنهزم المشركون وقتلهم المسلمون قَتْلاً ذريعاً كيف شاؤوا، وعاد إلى مرو الروذ، ولحق بعض العدو بالجوزجان، فوجّه إليهم الأحنفُ الأقرع بن حابس التميمي في خيل وقال: يا بني تميم تحابُّوا وتباذَلُوا تعدل أموركم، وٱبدأوا بجهاد بطونكم وفروجكم يصلح لكم دينكم، ولا تغلوا يسلم لكم جهادكم.

---

(١) جَوْزَجان: اسم كورة واسعة من كور بلخ بين مرو والروذ وبلخ.

فسار الأقرع فلقي العدو بالجوزجان فكانتْ بالمسلمين جولة ثم عادوا فهزموا المشركين وفتحوا الجوزجان عنوة، فقال ابن الغريزة النهشلي:

سقىٰ صوب السحاب إذا استهلت ... مصارع فتية بالجوزجان
إلى القصرين من رستاق خوت ... أقادهم هناك الأقرعان

وفتح الأحنف الطالقان صلحاً وفتح الفارياب، وقيل: بل فتحها أُمَيْر بن أحمر ثم سار الاحنف إلى بلخ وهي مدينة طخارستان فصالحه أهلها على أربعمائة ألف، وقيل: سبعمائة ألف، واستعمل على بَلْخ أسيد بن المتشمس ثم سار إلى خوارزم وهي علىٰ نهر جيحون فلم يقدر عليها فآستشار أصحابه فقال له حضين بن المنذر: قال عمرو بن معد يكرب:

إذا لم تستطع أمراً فدعه ... وجاوزه إلى ما تستطيع

فعاد إلىٰ بلخ وقد قبض أُسَيْد صلحها ووافق وهو يجبيهم المهرجان فأهدوا له هدايا كثيرة من دراهم، ودنانير، ودواب، وأواني، وثياب، وغير ذلك.

فقال لهم: ما صالحناهم على هذا. فقالوا: لا ولكن هذا شيء نفعله في هذا اليوم بأمرائنا. فقال: ما أدري ما هذا ولعله من حقي ولكن أقبضه حتى أنظر.

فقبضه حتى قدم الأحنف فأخبره فسألهم عنه فقالوا ما قالوا لأسيد، فحمله إلى ابن عامر وأخبره عنه فقال: خذه يا أبا بحر.

قال: لا حاجة لي فيه.

فأخذه ابن عامر. قال الحسن البصري: فضمّه القرشي وكان مضماً، ولما تمّ لابن عامر هذا الفتح قال له الناس: ما فتح لأحد ما فتح عليك فارس، وكرمان، وسجستان، وخراسان.

فقال: لا جَرَم لاجعلنّ شكري لله علىٰ ذلك أنْ أخرج مُحْرِماً مِنْ موقفي هذا.

فأحرم بعمرةٍ من نيسابور، وقدم على عثمان، وآستخلف على خراسان قيس بن الهيثم فسار قيس بعد شخوصه في أرض طخارستان فلم يأت بلداً منها إلا صالحه أهله

وأذعنوا له حتى أتى سِمِنْجان [١] فآمتنعوا عليه فحصرهم حتى فتحها عنوة.

(أَسِيْد) بفتح الهمزة وكسر السين (حضين بن المنذر) بالضاد المعجمة.

ذكر فتح كِرْمَان

لما سار ابن عامر عن كِرْمَان إلىٰ خُرَاسَان وآستعمل مجاشع بن مسعود السلمي علىٰ كرمان على ما ذكرناه قبل أمره أنْ يفتحها، وكان أهلها قد نكثوا وغدروا، ففتح هميد عنوة وآستبقىٰ أهلها وأعطاهم أماناً، وبنىٰ بها قصراً يعرف بقصر مجاشع، وأتى السِّيْرجان وهي مدينة كرمان فأقام عليها أياماً يسيرة وأهلها متحصنون فقاتلهم وفتحها عنوة فجلا كثيراً من أهلها وفتح جِيْرَفْت [٢] عنوة، وسار في كرمان فدّوخ أهلها وأتى القفص وقد تجمّع له خلقٌ كثير من الأعاجم الذين جَلُوا فقاتلهم فظفر بهم وظَهَرَ عليهم، وهرب كثيرٌ من أهل كرمان فركبوا البحر ولحق بعضهم بمكران، وبعضهم بسجستان فأقطعت العرب منازلهم وأراضيهم فعمروها واحتفروا لها القنى في مواضع منها وأدوا العشر منها.

ذكر فتح سجستان، وكابل وغيرهما

قد تقدم ذكر فتح سجستان أيام عمر بن الخطاب، ثم إن أهلها نقضوا بعده فلما توجه ابن عامر إلىٰ خراسان سيّر إليها من كرمان الربيع بن زياد الحارثي فقطع المفازة حتى أتى حصن زالق فاغار على أهله يوم مهرجان وأخذ الدهقان فافتدى نفسه بأن غرز عنزة وغمرها ذهباً وفضة وصالحه على صلح فارس، ثم أتى بلدة يقال لها: كركويه [٣] فصالحه أهلها وسار إلى زرنج فنزل على مدينة روشت بقرب زَرَنْج [٤] فقاتله أهلها وأصيب رجال من المسلمين، ثم انهزم المشركون، وقتل منهم مقتلة عظيمة، وأتى الربيع ناشروذ [٥] ففتحها، ثم أتى شرْواذ [٦] فغلب عليها، وسار منها إلى زرنج فنازلها

---

(١) سِمِنْجَان : بلدة من طخرستان ، وراء بلخ .

(٢) جِيْرَفْت : مدينة بكرمان من أعيان مدنها وأنزهها .

(٣) مدينة من نواحي سجستان .

(٤) زَرَنْج : مدينة هي قصبة سجستان .

(٥) نَاشِرُوذ : ناحية بسجستان .

(٦) شرْواذ : ناحية بسجستان .

وقاتله أهلها فهزمهم وحصرهم فأرسل إليه مرزبانها ليصالحه وآستأمنه على نفسه ليحضر عنده فأمّنه، وجلس له الربيع على جسد من أجساد القتلى وآتكأ على آخَر، وأمر أصحابه ففعلوا مثله. فلما رآهم المرزبان هاله ذلك فصالحه علىٰ ألف وصيف [١] مع كل وصيف جام من ذهب، ودخل المسلمون المدينة ثم سار منها إلى سناروذ [٢] وهي وادٍ فعبره، وأتى القرية التي بها مربط فرس رستم الشديد فقاتله أهلها فظفر بهم، ثم عاد إلى زرنج وأقام بها نحو سنة، وعاد إلى ابن عامر، واستخلف عليها عاملاً فأخرج أهلها العامل وامتنعوا، فكانت ولاية الربيع سنة ونصفاً.

وسبى فيها أربعين ألف رأس، وكان كاتبه الحسن البصري، فآستعمل ابن عامر عبد الرحمن بن سمرة بن حبيب بن عبد شمس على سجستان فسار إليها فحصر زرنج فصالحه مرزبانها علىٰ ألفي ألف درهم وألفي وصيف.

وغلب عبد الرحمن على ما بين زرنج والكَشّ [٣] من ناحية الهند. وغلب مِنْ ناحية الرُّخَّج [٤] على ما بينه وبين الداون فلما انتهى إلى بلد الداون حصرهم في جبل الزوز، ثم صالحهم ودخل على الزوز، وهو صنم من ذهب عيناه ياقوتتان فقطع يده وأخذ الياقوتتين، ثم قال للمرزبان: دونك الذهب، والجوهر وإنما أردتُ أنْ أعلمك أنّه لا يضر ولا ينفع، وفتح كابل، وزَابُلِسْتان [٥] وهي ولاية غزنة، ثم عاد إلىٰ زرنج فأقام بها حتىٰ آضطرب أمرُ عثمان فآستخلف عليها أُمَيْر بن أحمر اليشكري وآنصرف فأخرج أهلها أُمَيْر بن أحمر وامتنعوا.

ولأُمَيْر يقول زياد بن الأعجم:

لـولا أمـيـر هـلكـت يـشـكـر ويشكـر هلكىٰ علىٰ كـل حـال

---

(١) الوصيف: الخادم، وجمعه: وُصَفَاء.

(٢) سناروذ: اسم لنهر سجستان يأخذ من نهر هند مند ـ فيجري على قدر فرسخ من سجستان فيتفرغ منه أنهر يسقي الرساتيق وتجري فيه السفن أيام المد.

(٣) قرية على ثلاثة فراسخ من جرجان على الجبل.

(٤) الرُّخَّج: كورة من أعمال سجستان ومدينة من نواحي كابل.

(٥) زَابُلِسْتان: كورة واسعة جنوبي بلخ قصبتها غزنة.

ذكر عدة حوادث

وحج بالناس في هذه السنة عثمان.

وفيها مات أبو الدرداء الأنصاري [١] وهو بدري، وقيل: سنة اثنتين وثلاثين.
وفيها مات أبو طلحة الأنصاري [٢] وهو بدري، وقيل: سنة اثنتين وثلاثين. وقيل: سنة أحدى وخمسين. وفيها مات أبو أسيد الساعدي [٣]، وقيل: مات سنة ستين، وهو على هذا القول آخر مَنْ مات من البدريين.

(أسيد) بضم الهمزة.

وفيها مات أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب بن هاشم.

وأخوه الطفيل [٤].

وأبو سفيان بن حرب بن أمية وهو ابن ثمان وثمانين سنة.

---

(١) هو عويمر بن عامر بن مالك بن زيد بن قيس الأنصاري الخزرجيّ شهد ما بعد أحد من المشاهد وولي قضاء دمشق في خلافة عثمان.
توفي قبل مقتل عثمان بسنتين.

(٢) هو زيد بن سهيل الأنصاري البخاري.
عقبي، بدريّ، نقيب.
كان من الرماة المذكورين من الصحابة ومن الشجعان المعْروفين وله يوم أحد مقام مشهود، كان يقي رسول الله ﷺ بنفسه.
قَتَل يوم حنين عشرين رجلاً وأخذ أسلابهم مات سنة ٣١ هـ.

(٣) هو مالك بن ربيعة الأنصاري الخزرجي من بني ساعدة، شهد بدراً، ويعد في أهل الحجاز.
قيل توفي سنة ٦٠، وقيل ٦٥، وقيل ٣٠.

(٤) هو الطفيل بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف القرشي المطلبي شهد بدراً وأحداً والمشاهد كلها.
وتوفي سنة ٣١، وقيل ٣٢.

ثم دخلت سنة اثنتين وثلاثين

قيل: في هذه السنة غزا معاوية بن أبي سفيان مضيق القسطنطينية ومعه زوجته عاتكة بنت قرظة وقيل: فاختة.

ذكر ظفر الترك، وقتل عبد الرحمن بن ربيعة

في هذه السنة انتصرت الخزر، والترك على المسلمين.

وسببه أنّ الغزوات لما تتابعت عليهم تذامروا [وتعايروا] وقالوا: كنا [أمة] لا يقرن بنا أحد حتى جاءت هذه الأمة القليلة فصِرْنا لا نقوم لها! فقال بعضهم: إنّ هؤلاء لا يموتون، وما أصيب منهم أحدٌ في غزوهم، وقد كان المسلمون غزوهم قبل ذلك فلم يقتل منهم أحدٌ، فلهذا ظنوا أنّهم لا يموتون فقال بعضهم: أفلا تجربون؟

فكمنوا لهم في الغياض فمرّ بالكمين نفرٌ من الجند فرموهم منها فقتلوهم، فتواعد رؤوسهم إلى حربهم ثم آتعدوا يوماً، وكان عثمان قد كتب إلىٰ عبد الرحمن بن ربيعة وهو علىٰ الباب أنّ الرعية قد أبطرها البطنة فلا تقتحم بالمسلمين فإنّيْ اخشى أنْ يقتلوا.

فلم يُرجع [ذلك] عبد الرحمن عن مقصده فغزا نحو بلنجر وكان الترك قد اجتمعت مع الخزر فقاتلوا المسلمين قتالاً شديداً، وقتل عبد الرحمن وكان يقال له « ذو النور » وهو اسم سيفه، فأخذ أهل بلنجر جسده وجعلوه في تابوت فهم يستسقون به [ويستنصرون به]، فلما قتل آنهزم الناس وافترقوا فرقتين: فرقة نحو الباب فلقوا سلمان بن ربيعة أخا عبد الرحمن كان قد سيَّره سعيد بن العاص مدداً للمسلمين بأمر عثمان، فلما لقوه نجوا معه وفرقة نحو جيلان، وجرجان فيهم سلمان الفارسي، وأبو هريرة، وكان في ذلك العسكر يزيد بن معاوية النخعي، وعلقمة بن قيس، ومعضد

الشيباني، وأبو مفرز التميمي في خباء واحد، وعمرو بن عتبة، وخالد بن ربيعة، والحلحال بن درى، والقرثع في خباء فكانوا متجاورين في ذلك العسكر وكان القرثع يقول: ما أحسن لمع الدماء على الثياب.

وكان عمرو بن عتبة يقول لقباء عليه: ما أحسن حُمَرة الدماء على بياضك.

ورأى يزيد بن معاوية أنّ غزالاً جِيْءَ به [إلى خبائه] لم ير أحسن منه فلف في ملحفة ثم دفن في قبر لم ير أحسن منه عليه ثلاثة نفر قعود، فلما استيقظ واقتتل الناس رمى بحجر فهشم رأسه فمات فكأنما زين ثوبه بالدماء وليس بتلطيخ فدفن في قبرٍ على الصورة التى رأى.

وقال معضد لعلقمة: أعِرني بردك أعصب به رأسي. ففعل فأتى برج بلنجر الذي أصيب فيه يزيد فرماهم فقتل منهم وأتاه حجر عرادة ففضخ هامته فأخذه أصحابه فدفنوه إلىٰ جنب يزيد، وأخذ علقمة البرد فكان يغسله فلا يخرج أثَر الدم منه وكان يشهد فيه الجمعة ويقول: يحملني على هذا أنّ دم معضد فيه.

وأصاب عمرو بن عتبة جراحة فرأى قباءة كما اشتهى ثم قتل.

وأما القرثع فإنّه قاتل حتى خرق بالحراب [وما زال الناس ثبوتاً حتى أصيب، وكانت هزيمة الناس مع مقتله] فبلغ الخبر بذلك عثمان فقال: إنّا لله [وإنّا إليه راجعون]. أتنكث أهل الكوفة! اللهم تُبْ عليهم وآقبل بهم.

وكان عثمان قد كتب إلىٰ سعيد بن العاص أنْ ينفذ سلمان إلىٰ الباب للغزو فسيّره فلقى المهزومين على ما تقدم فنجاهم الله به، فلما أصيب عبد الرحمن استعمل سعيد سلمان بن ربيعة على الباب، وآستعمل علىٰ الغزو بأهل الكوفة حذيفة بن اليمان وأمدّهم عثمان [في سنة عشر] بأهل الشام عليهم حبيب بن مسلمة فتأمّر عليهم سلمان وأبو حبيب حتى قال أهل الشام؛ لقد هممنا بضرب سلمان.

فقال الكوفيون: إذن والله نضرب حبيباً ونحبسه وإنْ ابيتم كثرت القتلىٰ فينا وفيكم. وقال أوس بن مغراء في ذلك:

إنْ تضربوا سلمان نضرب حبيبكم وإنْ ترحلوا نحو ابن عفان نرحل

وأن تقسطوا فالثغر ثغر أميرنا وهذا أمير في الكتائب مقبل
ونحن ولاةُ الأمر كنا حماته ليالي نرمي كل ثغر ونعكل[١]

وأراد حبيب أنْ يتأمّر على صاحب الباب كما يتأمر أمير الجيش إذا جاء من الكوفة فكان ذلك أول اختلاف وقع بين أهل الكوفة والشام.

وغزا حذيفة ثلاث غزوات فقُتل عثمان في الثالثة، ولقيهم مقتل عثمان، فقال حذيفة بن اليَمان: اللهم ٱلعن قَتَلَته وشُتَّامَه اللهم إنّا كنا نعاتبه ويعاتبنا فٱتخذوا ذلك سلماً إلىٰ الفتنة، اللهم لا تُمِتْهُم إلا بالسيوف.

ذكر وفاة أبي ذر

وفيها مات أبو ذر وكان قد قال لابنته: استشرفي يا بنية هل ترين أحداً؟

قالت: لا. قال: فما جاءت ساعتي بعد.

ثم أمرها فذبحتْ شاة ثم طبختها ثم قال: إذا جاءك الذين يدفنوني فإنّه سيشهدني قومٌ صالحون فقولي لهم: يُقسم عليكم أبو ذر أنْ لا تركبوا حتى تأكلوا.

فلما نضجت قدرها قال لها: انظري هل ترين أحذ؟ قالت: نعم هؤلاء ركب [مقبلون]. قال: استقبلي بي الكعبة. ففعلت فقال: بسم الله وبالله وعلى ملة رسول الله ﷺ. ثم مات فخرجْت ابنته فتلقتهم وقالت: رحمكم الله آشهدوا أبا ذر. قالوا: وأين هو؟ فأشارت إليه. قالوا: نعم ونعمة عين لقد أكرمنا الله بذلك. وكان فيهم ابن مسعود فبكىٰ وقال: صدق رسولُ الله ﷺ «يموت وحده ويبعث وحده».

فغسلوه وكفّنوه، وصلوا عليه، ودفنوه، وقالت لهم ابنته: إنّ أبا ذر يقرأ عليكم السلام، وأقسم عليكم أنْ لا تركبوا حتىٰ تأكلوا.

ففعلوا، وحملوا أهله معهم حتىٰ أقدموهم مكة، ونعوه إلىٰ عثمان، فضمّ ابنته إلىٰ عياله وقال: يرحم الله أبا ذر ويغفر له نزوله الربذة.

---

(١) انظر الطبري ٤/٣٠٧، وفيه (ولاة الثغر)، (ننكل).

ولما حضروا شموا من الخباء ريح مسك فسألوها عنه فقالت: إنه لما حُضِرَ قال: إنّ الميت يحضره شهودٌ يجدون الريح لا يأكلون فدوفي (١) لهم مِسْكاً بماء ورش به الخباء، وكان النفر الذين شهدوه: ابن مسعود، وأبا مفرز، وبكر بن عبد الله التميميين، والأسود بن يزيد، وعلقمة بن قيس، ومالك الأشتر النخعيين، والحلحال الضبي، والحارث بن سويد التميمي، وعمرو بن عتبة السلمي، وابن ربيعة السلمي، وأبا رافع المزني، وسويد بن شعبة التميمي، ويزيد بن معاوية النخعي وأخا القرثع الضبي، وأخا معضد الشيباني.

وقيل: كان موته سنة احدى وثلاثين، وقيل: إنّ ابن مسعود لم يحمل أهل أبي ذر معه إنما تركهم حتىٰ قدِم علىٰ عثمان بمكة فأعلمه بموته فجعل عثمان طريقه عليهم فحملهم معه.

ذكر خروج قارن

ثم جمع قارن جمعاً كثيراً من ناحية الطبسين، وأهل باذغيس، وهراة، وقهستان، وأقبل في أربعين ألفاً فقال قيس لابن خازم: ما ترى؟

قال: أرىٰ أنْ تخلي البلاد فإنّي أميرها ومعي عهد من ابن عامر إذا كانت حرب بخراسان فأنا أميرها، وأخرج كتاباً كان قد افتعله عمداً فكره قيس منازعته وخلاه والبلاد، وأقبل إلىٰ ابن عامر فلامه ابن عامر وقال: قد تركت البلاد خراباً وأقبلت. قال: جاءني بعهد منك. قال: فصار ابن خازم إلىٰ قارن في أربعة آلاف وأمر الناس فحملوا الودك، فلما قرب من قارن أمر الناس أن يدرج كل رجل منهم على زج رمحه خرقة أو قطناً ثم يكثروا دهنه، ثم سار حتى أمسى فقدم مقدمته ستمائة، ثم أتبعهم وأمر الناس فأشعلوا النيران في أطراف الرماح فأنتهت مقدمته إلىٰ معسكر قارن نصف الليل فناوشوهم وهاج الناس على دهش وكانوا آمنين من البيات.

ودنا ابن خازم منهم فرأوا النيران يمنة ويسرة تتقدم وتتأخر وتنخفض وترتفع [ولا يرون أحداً] فهالهم ذلك ومقدمة ابن خازم يقاتلونهم، ثم غشيهم ابن خازم بالمسلمين فقتل قارن فأنهزم المشركون واتبعوهم يقتلونهم كيف شاؤوا، وأصابوا سبياً كثيراً، وكتب

---

(١) أي: بلي المسك بالماء.

ابن خازم بالفتح إلىٰ ابن عامر فرضي وأقرّه علىٰ خراسـان فلبث عليها حتىٰ انقضىٰ أمرالجمل وأقبل إلىٰ البصرة فشهد وقعة ابن الحضرمي وكان معه في دار سنبيل وقيل: لما جمع قارن استشار قيس بن الهيثم عبد الله بن خازم فيما يصنع فقال: أرىٰ أنّك لا تطيق كثرة مَنْ قد أتانا فأخرج بنفسك إلى ابن عامر فتخبره بكثرة العدو، ونقيم نحن في الحصون، ونطاولهم [حتى تقدم]، ويأتينا مددكم.

فخرج قيس فلما أمعن أظهر ابن خازم عهداً وقال: قد وَلّاني ابن عامر خراسان وسار إلى قارن فظفر به وكتب بالفتح إلى ابن عامر فأقره على خراسان ولم يزل أهل البصرة يغزون مَنْ لم يكن صالح من أهل خراسان فإذا عادوا تركوا أربعة آلاف نجدة.

* * *

ذكر عدة حوادث

وفي هذه السنة مات العباس عم النبي ﷺ وكان عمره يوم مات ثمانياً وثمانين سنة، كان أسن من رسول الله ﷺ بثلاث سنين.

وفيها مات عبد الرحمن بن عوف وعمره خمس وسبعون سنة.

وعبد الله بن مسعود وصلى عليه عمار بن ياسر وقيل عثمان، وتوفي عبد الله بن زيد بن عبد ربه الذي أرى الاذان.

ثم دخلت سنة ثلاث وثلاثين

في هذه السنة كانت غزوة معاوية حصن المرأة مِنْ أرض الروم بناحية ملطية.

وفيها كانت غزوة عبد الله بن سعد أفريقية الثانية حين نقض أهلها العهد. وفيها كان مسير الأحنف إلىٰ خراسان وفتح المَرْوَيْن[١] ومسير ابن عامر إلىٰ نيسابور وفتحها في قول بعضهم، وقد تقدم ذكر ذلك. وفيها كانت غزوة قبرس في قول بعضهم، وقد تقدم ذكرها مستوفىٰ، وقيل إنّ فتحها كان سنة ثمان وعشرين، فلما كان سنة اثنتين وثلاثين أعان أهلها الروم على الغزاة في البحر بمراكب أعطوهم إياها فغزاهم معاوية سنة ثلاث وثلاثين ففتحها عنوة فقتل وسبى، ثم أقرهم علىٰ صلحهم وبعث إليهم اثني عشر ألفاً فبنوا المساجد وبنى مدينة.

وقيل: كانت غزوته الثانية سنة خمس وثلاثين.

ذكر تسيير مَنْ سُيّر من أهل الكوفة إلىٰ الشام

وفي هذه السنة سيّر عثمان نفراً من أهل الكوفة إلىٰ الشام، وكان السبب في ذلك أنّ سعيد بن العاص لَمّا ولاه عثمان الكوفة حين شهد علىٰ الوليد بشرب الخمر أمره أنْ يسيّر الوليد إليه، فقدم سعيد الكوفة [٢] وسيّر الوليد وغسل المنبر فنهاه رجالٌ من بني أمية كانوا قد خرجوا معه عن ذلك فلم يُجِبْهُم، وآختار سعيد وجوه الناس، وأهل

---

(١) تثنية مرو وهما مرو الشاهجان، ومرو الروذ.

(٢) هذه العبارة تفيد أنّ سعيداً ذهب أولاً إلى الكوفة أميراً وسيَّر الوليد إلى عثمان، وما تقدم قبل هذا يفيد أن الوليد قدم على عثمان وسعيد بالمدينة، وشهد عليه الشهود، وحَدَّه عثمان، وفي رواية لم تصحّ أنّ الذي تولىٰ ضربه الحد سعيد بن العاص وأنّ ذلك سبب العدواة بين ذريتيهما، والصحيح أنّ الذي تولى ضربه عبدالله بن جعفر حين امتنع الحسن بن علي من ذلك (م).

القادسية، وقُرّاء أهل الكوفة فكان هؤلاء دخلته داخلاً[١]، وأما إذا خرج فكل الناس يدخل عليه، فدخلوا عليه يوماً فبيناهم يتحدّثون قال حبيش[٢] بن فلان الأسدي: ما أجود طلحة بن عبيد الله.

فقال سعيد: «إنّ مَنْ له مثل النّشاسْتَج[٣] لحقيق أنْ يكون جواداً، والله لو أنّ لي مثله لأعاشكم الله به عيشاً رَغَداً». فقال عبد الرحمن بن حبيش وهو حَدَث: والله لوددتُ أنّ هذا الملطاط لك ـ يعني سعيد ـ وهو ما كان للأكاسرة علىٰ جانب الفرات الذي يلي الكوفة. فقالوا: فَضّ الله فاك، والله لقد هَمَمْنَا بك. فقال أبوه: غلامٌ فلا تجـاوزوه. فقالوا: يتمنىٰ له سوادنا! قال: ويتمنىٰ لكم أضعافه.

فثـار به الأشتـر، وجندب، وابن ذي الحنكـة[٤]، وصعصعة، وابن الكـواء، وكميل، وعمير بن ضابىء، فأخذوه فثار أبوه ليمنع عنه فضربوهما حتىٰ غُشي عليهما، وجعل سعيد يناشدهم ويأبون حتىٰ قضوا منهما وَطَراً، فسمعتْ بذلك بنو أسد فجاؤوا وفيهم طليحة فأحاطوا بالقصر، وركبتْ القبائلُ فعاذوا بسعيد، فخرج سعيد إلىٰ الناس فقال: أيها الناس قومٌ تنازعوا وقد رزق الله العافية. فردّهم.

فتراجعوا، وأفاق الرجلان فقالا: قاتلنا غاشيتك.

فقال: « لا يغشوني أبداً، فكُفَّا ألسنتكما ولا تُحَزِّبَا الناس ». ففعلا، وقعد أولئك النفر في بيوتهم وأقبلوا يقعون في عثمان.

وقيل: بل كان السبب في ذلك أنّه كان يسمر عند سعيد بن العاص وجوهُ أهل الكوفة منهم مالك بن كعب الأرحبي، والأسود بن يزيد، وعلقمة بن قيس النخعيان، ومالك الأشتر، وغيرهم فقال سعيد: «إنما هذا السواد بستان قريش». فقال الأشتر: أتزعم أنّ السواد الذي أفاءه الله علينا بأسيافنا بستانٌ لك ولقومك؟.

---

(١) كذا، وفي الطبري (دَخْلته إذا خلا).

(٢) الطبري: خنيس بن فلان.

(٣) ضيعة أو نهر بالكوفة كانت لطلحة بن عبيدالله التيمي أحد العشرة، وكانت عظيمة كثيرة الدخل اشتراها من أهل الكوفة المقيمين بالحجاز وعمرها فعظم دخلها.

(٤) الطبري: (الحبكة) بالباء.

وتكلّم القوم معه فقال عبد الرحمن الأسدي وكان علىٰ شُرْطَة سعيد: أتردُّون علىٰ الأمير مقالته! وأغلَظَ لهم؟

فقال الأشتر: مِنْ ها هنا لا يفوتنكم الرجل.

فوثبوا عليه فوطأوه وَطْأً شديداً حتى غشي عليه، ثم جروا برجله فنضج بماء فأفاق فقال: قتلني مَنْ انتخبت.

فقال: والله لا يسمر عندي أحدٌ أبداً.

فجعلوا يجلسون في مجالسهم يشتمون عثمان، وسعيداً، وآجتمع إليهم الناس حتى كثروا فكتب سعيد وأشراف أهل الكوفة إلىٰ عثمان في إخراجهم، فكتب إليهم أنْ يلحقوهم بمعاوية، وكتب إلى معاوية: إنّ نفراً قد خلقوا للفتنة فأقم عليهم وآنههم، فإنْ آنستَ منهم رُشْداً فآقبل وإنْ أعيوك فآرْدُدْهَم عليّ.

فلما قدموا علىٰ معاوية أنزلهم كنيسة مريم وأجرى عليهم ما كان لهم بالعراق بأمر عثمان وكان يتغذى ويتعشىٰ معهم فقال لهم يوماً: إنكم قومٌ من العرب لكم أسنان وألسنة وقد أدركتم بالإسلام شرفاً، وغلبتم الأمم، وحويتم مواريثهم، وقد بلغني أنكم نقمتم قريشاً ولو لم تكن قريش كنتم أذلة، إنّ أئمتكم لكم جُنَّة فلا تفترقوا عن جُنَّتِكم، وإنّ أئمتكم يصبرون لكم علىٰ الجور ويحتملون منكم المؤنة، والله لتنتهُنّ أو ليبتلينّكم الله بمن يسومكم السوء ولا يحمدكم علىٰ الصبر ثم تكونون شركاءهم فيما جررتم علىٰ الرعية في حياتكم وبعد وفاتكم.

فقال رجل منهم وهو صعصعة: أمّا ما ذكرت من قريش فإنّها لم تكن أكثر العرب ولا أمنعها في الجاهلية فتخوفنا، وأما ما ذكرت مِن الجنّة فإنّ الجُنّة إذا آخترِقَتْ خُلِصَ إلينا. فقال معاوية:

« عرفتكم الآن وعلمتُ أنّ الذي أغراكم على هذا قلة العقول، وأنت خطيبهم ولا أرىٰ لك عقلاً. أَعَظُمَ عليك أمرُ الإسلام [وأُذكّرك به] وتذكرني بالجاهلية! أخزىٰ الله قوماً عَظَّموا أمركم، افقهوا عني ولا أظنّكم تفقهون: إنّ قريشاً لم تعز في جاهلية ولا إسلام إلا بالله تعالى، لم تكن بأكثر العرب ولا أشدهم، ولكنهم كانوا أكرمهم أحساباً، وأمحضهم أنساباً، وأكملهم مروءة، ولم يمتنعوافي الجاهليةوالناس يأكل بعضهم بعضاً

إلاّ بالله فبوّأهم حَرَماً آمناً يُتخطف الناس مِنْ حولهم، هل تعرفون عربياً، أو عجمياً، أو أسود، أو أحمر إلاّ وقد أصابه الدهر في بلده وحُرمته إلاّ ما كان من قريش فإنّهم لم يُرِدْهم أحدٌ من الناس بكيد إلاّ جعلَ اللهُ خَدّه الأسفل، حتىٰ أراد اللهُ أنْ يستنقذ مَنْ أكرم واتبع دينه مِنْ هوان الدنيا وسوء مردّ الآخرة فآرتضى لذلك خير خلقه ثم آرتضى له أصحاباً فكان خيارهم قريشاً ثم بنىٰ هذا الملك عليهم وجعل هذه الخلافة فيهم فلا يصلح ذلك إلاّ عليهم، فكان الله يحوطهم في الجاهلية، وهم على كفرهم آفتراءً لا يحوطهم وهم علىٰ دينه أُفٍّ لك ولأصحابك، أمّا أنت يا صعصعة فإنّ قريتك شر القُرَىٰ أنتنها بيتاً وأعمقها وادياً وأعرفها بالشر وألأمها جيراناً، لم يسكنها شريف قط، ولا وضيعٌ إلاّ سبّ بها ثم كانوا ألأم العرب ألقاباً وأصهاراً نزاع الأمم، وأنتم جيران الخط، وفعلة فارس حتى أصابتكم دعوة النبي ﷺ، لم تسكن البحرين فتشركهم في دعوة النبي ﷺ، فأنت شر قومك، حتى إذا أبرزك الاسلام، وخلطك بالناس أقبلتَ تبغي دين الله عَوَجاً، وتنزع إلىٰ الذلة، ولا يضر ذلك قريشاً ولا يضعهم وإن يمنعهم من تأدية ما عليهم، إنّ لشيطان عنكم غير غافل، قد عرفكم بالشر فأغرى بكم الناس وهو صارعكم ولا تدركون بالشر أمراً أبداً إلاّ فتح الله عليكم شراً منه وأخزى».

ثم قام وتركهم، فتقاصرتْ إليهم أنفسهم، فلما كان بعد ذلك أتاهم فقال: إنّي قد أذنتُ لكم فآذهبوا حيثُ شئتم، لا ينفع الله بكم أحداً أبداً، ولا يضره، ولا أنتم برجال منفعة ولا مضرّة، فإنْ أردتم النجاة فآلزموا جماعتكم، ولا يبطرنّكم الأنعام فإنّ البطر لا يعتري الخيار، آذهبوا حيث شئتم فسأكتب إلى أمير المؤمنين فيكم.

فلما خرجوا دعاهم وقال لهم: إنّي مُعِيْدٌ عليكم أنّ رسول الله ﷺ كان معصوماً فولّاني وأدخلني في أمره، ثم استُخلف أبو بكر فوّلاني، ثم استُخلف عمر فولاني، ثم استخلف عثمان فولاني، ولم يولني أحدٌ إلاّ وهو عني راض، وإنّما طلب رسول الله ﷺ للأعمال أهل الجزاء من المسلمين والغناء، وإنّ الله ذو سطوات ونقمات، يمكر بمن مكر به، فلا تعرضوا الأمر وأنتم تعلمون من أنفسكم غير ما تُظهِرُون، فإنّ الله غير تارككم حتىٰ يختبركم ويبدي للناس سرائركم.

وكتب معاوية إلىٰ عثمان: «إنّه قَدِم عليّ أقوام ليست لهم عقول ولا أديان، أضجرهم العدل، لا يريدون الله بشيء، ولا يتكلمون بحجة، إنما همهم الفتنة وأموال

أهل الذمة، والله مبتليهم ومختبرهم، ثم فاضحهم ومخزيهم، وليسوا بالذين ينكون أحداً إلا مع غيرهم فأَنْهَ سعيداً ومَنْ عنده عنهم فإنّهم ليسوا لأكثر مِنْ شغب ونكير».

فخرجوا من دمشق فقالوا: لا ترجعوا بنا إلىٰ الكوفة فإنّهم يشتمون بنا، ولكن ميلوا إلىٰ الجزيرة». فسمع بهم عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ـ وكان على حمص ـ فدعاهم فقال:

« يا آلة الشيطان لا مرحباً بكم ولا أهلاً، قد رجع الشيطان محسوراً وأنتم بعد نِشاط! خَسّر الله عبد الرحمن إنْ لم يؤدبكم يا معشر مَنْ لا أدري أعربٌ هم أم عَجَم، لا تقولوا لي ما بلغني أنّكم قلتم لمعاوية [١]، أنا ابن خالد بن الوليد، أنا ابن مَنْ قد عجمته العاجمات، أنا ابن فاقىء الردة، والله لئن بلغني يا صعصعة أنّ أحداً ممن معي دقّ أنفك ثم غمصك [٢] لأطيرنّ بك طَيْرة بعيدة المهوَى ».

فأقامهم شهراً كلما ركب أمشاهم فإذا مر به صعصعة قال: « يا بن الخطيئة [٣] أعلمتَ أنّ مَنْ لم يُصلحه الخير أصلحه الشر؟ مالك لا تقول كما بلغني أنـك قلت لسعيد ومعاوية »؟ فيقولون: نتوب إلىٰ الله أَقِلْنَا أقالك الله. فما زالوا به حتىٰ قال: « تاب الله عليكم ». وسرّح الأشتر إلىٰ عثمان فقَدِم إليه تائباً [٤] فقال له عثمان: آحلل حيث شئت.

فقال: مع عبد الرحمن بن خالد. فقال: ذلك إليك. فرجع إليه. قيل: وقد روى أيضاً نحو ما تقدم وزادوا فيه أنّ معاوية لما عاد إليهم مِن القَابلة وذكّرهم كان مما قال لهم: «وإنّي والله لا آمركم بشيء إلا وقد بدأتُ فيه بنفسي وأهل بيتي، وقد عـرَفْت قريشٌ أنّ أبا سفيان كان أكرمها، وابن أكرمها إلا ما جعل الله لنبيـه ﷺ فإنّـه انتخبه وأكرمه، وإنّي لأظنُّ أنّ أبا سفيان لو ولد الناس لم يلد إلا حازماً ».

فقال صعصعة: قد كذبتَ قد ولدهم خيرٌ من أبي سفيان مَنْ خلقه الله بيده، ونفخ

---

(١) الطبري: لكي لا تقولوا الى ما يبلغني أنكم تقولون لمعاوية.

(٢) الطبري: (ثم امصّك).

(٣) الطبري: (الحطيئة).

(٤) المطبوعة: (نائيا) وهو تحريف وما أثبتناه بنحوه في الطبري.

فيـه مِن رُوحه، وأمـر الملائكـة فسجدوا لـه، وكان فيهم البرُّ والفـاجر، والأحمق والكَيِّس».

فخرج تلك الليلة مِنْ عندهم ثم أتاهم القابلة فتحدّث عندهم طويلاً ثم قال: «أيها القوم ردوا خيراً أو اسكتوا، وتفكـروا، وانظروا فيمـا ينفعكم وينفع أهـاليكم والمسلمين فاطلبوه.

فقال صعصعة: لستَ بأهلِ ذلك ولا كرامة لك أنْ تطاع في معصية الله. فقال: أليس أوّل ما ابتدأتكم به أنْ أمرتكم بتقوىٰ الله وطاعة نبيه، وأن تعتصمـوا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا؟ قالوا: بل أمرتَ بالفرقة وخلاف ما جـاء به النبي ﷺ فقـال: إني آمركم الآن إنْ كنتَ فعلتُ فأتـوب إلى الله وآمركم بتقـواه وطاعتـه وطاعـة نبيه ﷺ، ولـزوم الجماعـة، وأنْ توقّـروا أئمتكم وتدلـوهم علىٰ أحسن ما قـدرتم عليه. فقـال صعصعة: فإنَّا نأمرك أنْ تعتزل عملك فإنّ في المسلمين مَنْ هو أحقّ به منك: مَنْ كان أبوه أحسن قِدَماً في الاسلام مِنْ أبيك وهو أحسن في الاسلام قدماً منك. فقال: والله إنّ لي في الإسلام قدماً ولغيري كان أحسن قدماً منّي، ولكنه ليس في زماني أحدٌ أقوى علىٰ ما أنا فيه مني، ولقد رأىٰ ذلك عمر بن الخطاب فلو كان غيري أقوىٰ منيّ لم تكن عند عمر هوادة لي ولا لغيري ولم أحدث من الحدث ما ينبغي لي أنْ اعتزل عملي، ولو رأىٰ ذلك أمير المؤمنين لكتب إليّ فاعتزلتُ عمله. فمهلاً فإنّ في ذلك وأشباهه ما يتمنىٰ الشيطانُ ويأمر، ولعمري لو كانت الأمورُ تُقْضَىٰ علىٰ رأيكم وأمانِيِّكم ما استقامت لأهل الإسلامِ يوماً ولا ليلة، فعاوِدوا الخير وقولوه، وإنّ لله لسطوات، وإنّي لخائفٌ عليكم أنْ تتابعوا في مطاوعة الشيطان ومعصية الـرحمنٰ فيحلكم ذلك دار الهـوان في العاجـل والآجل.

فوثبوا عليه وأخذوا رأسه ولحيته [1].

فقال: مه إنّ هذه ليست بأرض الكوفة، والله لو رأىٰ أهلُ الشام ما صنعتم بي ما ملكتُ أنْ انهاهم عنكم حتى يقتلوكم، فلعمري إنّ صنيعكم ليشبه بعضه بعضاً.

---

(١) قال محقق المنيرية: (إني اشك في حصول هذه الجرأة منهم وهم يعلمون أنهم سُيِّرُوا إليه لتـولي تاديبهم).

ثم قام من عندهم، وكتب إلىٰ عثمان نحو الكتاب المتقدم، فكتب إليه عثمان يأمره أنْ يردّهم إلىٰ سعيد بن العاص بالكوفة، فردّهم فأطلقوا ألسنتهم، فضجّ سعيد منهم إلىٰ عثمان، فكتب إليه عثمان أنْ يُسَيِّرهم إلىٰ عبد الرحمن بن خالد بحمص فسيّرهم إليها فأنزلهم عبد الرحمن وأجرىٰ عليهم رِزْقاً، وكانوا: الأشتر، وثابت بن قيس الهمداني، وكميل بن زياد، وزيد بن صوحان، وأخاه صعصعة، وجُنْدب بن زهير الغامدي، وجندب بن كعب الأزدي، وعُروة بن الجَعْد، وعمرو بن الحمق الخزاعي، وابن الكواء.

قيل: سأل معاوية ابن الكواء عن نفسه فقال: أنْت بعيدُ الثرىٰ، كثيرُ المرعىٰ، طيب البديهة، بعيد الغوري، الغالب عليك الحلم، ركنٌ من أركان الإسلام، سُدَّتْ بك فُرجة مخوفة.

قال: فأخبرني عن أهل الأحداث مِنْ الأمصار فإنك أعقل أصحابك. قال: أما أهل المدينة فهم أحرص الأمة علىٰ الشر وأعجزهم عنه، وأما أهل الكوفة فإنهم يَرِدُون جميعاً ويصدُرون شتى، وأما أهل مِصْر فهم أوفىٰ الناس بِشَرٍّ وأسرعهم ندامة، وأما أهل الشام فهم أطوع الناس لمرشدهم وأعصاهم لمغويهم.

ذكر تسيير من سير من أهل البصرة إلى الشام

ولما مضت ثلاث سنين من إمارة عبد الله بن عامر بلغه أنّ رجلاً نزل على حُكَيْم بن جَبَلَة العبدي وكان عبد الله بن سبأ المعروف «بابن السوداء» هو الرجل النازل عليه واجتمع إليه نفرٌ فطرح إليهم ابن السوداء ولم يصرح فقبِلُوا منه، فأرسل إليه ابن عامر فسأله: من أنت؟

فقال: رجلٌ من أهل الكتاب رغبتُ في الإسلام وفي جِوَارِك. فقال: ما يبلغني ذلك، آخرجْ عنّي.

فخرج حتىٰ أتىٰ الكوفة فأُخرج منها، فقصد مصر فاستقرّبها وجعل يكاتبهم ويكاتبونه وتختلِف الرجال بينهم.

وكان حُمران بن أبان قد تزوج امرأة في عِدَّتها ففرّق عثمان بينهما وضربه وسيّره إلىٰ البصرة فلزم ابن عامر فتذاكروا يوماً المرور بعامر بن عبد القيس فقال حمران: ألا

أسبقكم فأخبره؟

فخرج فدخل عليه وهو يقرأ في المصحف فقال: الأمير يريد المرور بك فأحببت أنْ أعلمك. فلم يقطع قراءته، فقام مِنْ عنده، فلما انتهى إلىٰ الباب لقيه ابن عامر فقال: إنّه لا يرىٰ لآل إبراهيم عليه فضلاً.

ودخل عليه ابن عامر فأطبق المصحف وحدّثه فقال له ابن عامر: ألا تغشانا؟

فقال: سعد بن أبي القرحاء [١] يحب الشرف. فقال: ألا نستعملك؟ فقال: حصين بن الحر يحب العمل. فقال: ألا نزوجك؟ فقال ربيعة بن عِسْل يعجبه النساء. فقال: إنّ هذا يزعم أنّك لا ترىٰ لآل إبراهيم عليك فضلاً.

ففتح المصحف فكان أول ما وقع عليه ﴿ إنّ الله آصطفى آدم ونوحاًوآل إبراهيم وآل عمران على العالمين ﴾ [٢].

فسعى حمران، وأقام حمران بالبصرة ما شاء الله، وأذن له عثمان فقدِم المدينة ومعه قوم فسعَوا بعامر بن عبد القيس أنه لا يرىٰ التزويج، ولا يأكل اللحم [٣] ولا يشهد الجمعة.

فألحقه بمعاوية، فلما قدم عليه رأىٰ عنده ثريداً فأكل أكلاً عربياً فعرف أنّ الرجل مكذوبٌ عليه، فعرّفه معاوية سببَ إخراجه فقال: أمّا الجمعة فإنّي أشهدها في مؤخّر المجلس ثم أرجع في أوائل الناس، وأما التزويج فإنّي خرجت وأنا يخطب عليّ، وأمّا اللحم فقد رأيت ولكني لا آكل ذبائح القصابين منذ رأيتُ قصاباً يجر شاة إلىٰ مذبحها ثم وضع السكين على حلقها فما زال يقول: النَّفَاق النَّفَاق حتى ذبحها قال: فآرجع قال: لا أرجعْ إلىٰ بلدٍ آستحل أهلُه مني ما آستحلوا. فكان يكون في السواحل فكان يلقىٰ معاوية فيكثر معاوية أنْ يقول: ما حاجتك؟ فيقول: لا حاجة لي. فلما أكثر عليه قال:

---

(١) الطبري: (العرجاء).

(٢) آل عمران: ٣٣.

(٣) قال محقق المنيرية: (لا أرى أحداً أشد سماجة وفضولاً من قوم يدخلون بين الرجل وبين فرجه وبطنه رجل لا يرى نفسه أهلاً لا يرضى امرأته إن تزوج مثلاً فما شأن الناس وما شأنه، ورجل لا يريد أن يترفه بأكل اللحمان فما يهمهم من شأنه) أ هـ.

ترد عليّ مِنْ حَرّ البصرة شيئاً لعل الصوم أنْ يشتد عليّ فإنه يخف عليّ في بلادكم.

ذكر عدة حوادث

وحج بالناس عثمان.

وفيها مات المقداد بن عمرو المعروف بالمقداد بن الأسود [1] صاحب رسول الله ﷺ، وأوصىٰ أنْ يصلي عليه الزبير. وفيها توفي الطفيل، والحصين ابنا الحارث بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف شهدا بدراً وأحداً، وقيل: ماتا سنة احدى وثلاثين، وقيل: اثنتين وثلاثين.

---

(١) هو المقداد بن عمرو بن ثعلبة بن مالك ربيعة المعروف بالمقداد بن الأسود ، والأسود هو الأسود بن عبد يغوث الزهري ، وإنما نسب إليه لأنّ المقداد تبناه فنسب إليه .
قديم الإسلام من السابقين ، هاجر للحبشة وشهد بدراً ، وله فيها مقام مشهور ، وشهد أحداً والمشاهد كلها ، ومناقب كثيرة .
وكان أول من أظهر الإسلام بمكة .توفي بالمدينة في خلافة عثمان وهو في السبعين .

ثم دخلت سنة أربع وثلاثين

قيل: فيها كانت غزوة الصواري في قول بعضهم، وقد تقدم ذكرها.[1]

وفيها تكاتب المنحرفون عن عثمان للاجتماع لمناظرته فيما كانوا يذكرون أنهم نقموا عليه.

ذكر الخبر عن ذلك وعن يوم الجَرَعَة

قد ذكرنا خبر المسير من الكوفة ومقامهم عند عبد الرحمن بن خالد بن الوليد. ووفد سعيد بن العاص إلى عثمان سنة أحدى عشرة من خلافة عثمان، وكان سعيد قد وَلَّى قبل مخرجه إلى عثمان بسنة وبعض أخرىٰ الأشعث بن قيس أذربيجان، وسعيد بن قيس الريّ، والنُّسَيْر العجلي همذان، والسائب بن الأقرع أصبهان، ومالك بن حبيب ماه، وحكيم بن سلام الخزامي [2] الموصل، وجرير بن عبد الله قرقيسيا، وسلمان بن ربيعة الباب، وجعل القعقاع بن عمرو علىٰ الحرب، وعلىٰ حُلْوان عُتَيْبة بن النهاس، وخلت الكوفة من الرؤساء فخرج يزيد بن قيس وهو يريد خلع عثمان ومعه الذين كان ابن السوداء يكاتبهم فأخذه القعقاع بن عمرو فقال: إنما نستعفي من سعيد. فقال: أما هذا فنَعَم، فتركه.

وكاتب يزيد المسيرين في القدوم عليه فسار الأشتر والذين عند عبد الرحمن بن خالد فسبقهم الأشتر فلم يفجأ الناس يوم الجمعة إلاّ والأشتر علىٰ باب المسجد يقول: «جئتكم من عند أمير المؤمنين عثمان وتركتُ سعيداً يريده علىٰ نقصان نسائكم علىٰ

---

(١) أنظر ص ٩٩، ١٠٠.

(٢) الطبري ٤/ ٣٣٠: حكيم بن سلامة الحزاميّ.

مائة درهم، وردّ أولي البلاء منكم إلىٰ ألفين، ويزعم أنّ فيئكم بستان قريش ».

فآستخفّ الناسَ، وجعل أهلُ الرأي ينهونهم فلا يُسمع منهم، فخرج يزيد وأمر منادياً ينادي: من شاء أنْ يلحق بيزيد لردّ سعيد فليفعل. فبقي أشراف الناس وحلماؤهم في المسجد وعمرو بن حريث يومئذ خليفة سعيد فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه وأمرهم بالاجتماع والطاعة [١] فقال له القعقاع: « أترد السيل عن أدراجه [٢] ! هيهات، لا والله لا يُسَكّن الغوغاء إلا المشرفية [٣] ويوشك أن تُنْتَضى [٤] ويَعِجُّون عجيجَ العتدان [٥] ويتمنون ما هم فيه اليوم فلا يرده الله عليهم أبداً فآصبر.

قال: أَصْبِر. وتحول إلىٰ منزله، وخرج يزيد بن قيس فنزل الجَرَعَة [٦] وهي قريب من القادسية ومعه الأشتر، فوصل إليهم سعيد بن العاص فقالوا: لا حاجة لنا بك. قال: إنّما كان يكفيكم أنْ تبعثوا إلىٰ أمير المؤمنين رجلاً وإليّ رجلاً، وهل يخرج الألف لهم عقول إلىٰ رجلٍ واحد.

ثم آنصرف عنهم، وأحسوا بمولى له علىٰ بعير قد حُسِر [٧] فقال [٨]: والله ما كان ينبغي لسعيد أنْ يرجع. فقتله الأشتر ومضىٰ سعيد حتى قدم علىٰ عثمان فأخبره بما فعلوا وأنهم يريدون البَدَل، وأنهم يختارون أبا موسىٰ، فجعل أبا موسىٰ الأشعريّ أميراً، وكتب إليهم: أمّا بعد فقد أَمَّرْتُ عليكم مَنْ آخترتم، وأعفيتكم من سعيد، ووالله لاقرضنكم [٩] عِرْضي، ولابذُلَنّ لكم صبري، ولاستصلحنكم بجهدي، فلا تَدَعُوا شيئاً أحببتموه لا يعصى الله فيه إلا سألتموه، ولا شيئاً كرهتموه لا يعصىٰ الله فيه إلا ما استعفيتم منه انزل

---

(١) أنظر خطبته في الطبري ٤/٣٣٢ .

(٢) الطبري ٣٣٢/١ ، أترد السيل عبابه ! فاردد الفرات عن أدراجه .

(٣) المشرفية: سيوف نسبت إلى قَيْن كان يعمل السيوف.

(٤) أي: تنتزع . يقال: انتضىٰ السيف : أخرجه من غمده .

(٥) عتدان: جمع عتود وهو الجدي الذي استكرش .

وفي المطبوعة بالمثناة التحتية (العيدان) ! وما اثبتناه من الطبري ٤/٣٣٢ .

(٦) بالتحريك وقيل بسكون الراء: موضع قرب الكوفة ، وقيل : بين النجفة والحيرة .

(٧) الحَسِير: البعير المعيى الذي كَلّ من كثرة السير .

(٨) القائل هو ذلك المولىٰ .

(٩) الطبري : لأفْرشنكم .

فيه عندما أحببتم حتى لا يكون لكم على الله حجة، ولنصبرن كما أُمرنا حتىٰ تبلغوا ما تريدون ».

ورجع من الأمراء مَنْ قرب من الكوفة فرجع جرير من قرقيسيا وعتيبة بن النهاس من حُلوان، وخطبهم أبو موسىٰ وأمرهم بلزوم الجماعة، وطاعة عثمان (١) ، فأجابوا إلى ذلك وقالوا: صَلِّ بنا.

فقال: لا إلا علىٰ السمع والطاعة لعثمان. قالوا: نعم. فصلَّىٰ بهم، وأتاه ولاته فولّاهم. وقيل (٢) : سبب يوم الجَرَعَة أنه كان قد آجتمع ناسٌ من المسلمين فتذاكروا أعمال عثمان فأجمع رأيهم فأرسلوا إليه عامر بن عبد الله التميمي ثم العنبري وهو الذي يدعى عامر بن عبد القيس فأتاه فدخل عليه فقال له: إنّ ناساً من المسلمين آجتمعوا ونظروا في أعمالك فوجدوك قد ركبتَ أموراً عِظَاماً فآتقِ الله [عز وجل] وتُبْ إليه . فقال عثمان : آنظروا إلىٰ هذا فإنّ الناس يزعمون أنه قارىء ثم هو يجيء يكلمني في المُحَقَّرَات! ووالله ما يدري أين الله. فقال عامر: [إني لأدري أين الله. قال: نعم والله ما تدري أين الله. قال عامر :] بلىٰ والله إني لأدري إنّ الله لبالمرصاد [لك](٣).

فأرسل عثمان إلىٰ معاوية، وعبد الله بن سعد، وإلىٰ سعيد بن العاص، وعَمْرو بن العاص، وعبد الله بن عامر فجمعهم فشاورهم وقال لهم:

إنّ لكل آمرءٍ وزراء ونصحاء وإنّكم وزرائي ونصحائي وأهل ثقتي وقد صنع الناسُ ما قد رأيتم وطلبوا إليَّ أن أعزل عُمّالي وأنْ أرجع عن جميع ما يكرهون إلىٰ ما يحبّون فآجتَهِدُوا رأيكم، [وأشيروا عليّ].

فقال له ابن عامر: أرىٰ لك يا أمير المؤمنين أنْ تشغلهم بالجهاد عنك حتىٰ يذلّوا لك، ولا يكون همّة أحدهم إلا في نفسه وما هو فيه مِنْ دبر(٤) دابته وقَمْل فروته. وقال سعيد: احسم عنك الداء فآقطع عنك الذي تخاف، إنّ لكل قوم قادة متىٰ تهلك يتفرقوا

---

(١) الخطبة مبسوطة .

(٢) هذه الرواية غريبة لا يمكن التسليم بقبولها .

(٣) قال محقق المنيرية : (لا يخفى على القارىء أنّ عامر بن عبد قيس كان عثمان قد سيَّره إلى الشام من قبل وأنه أقام بالشام ولم يرجع إلى العراق فهذه الرواية واهنة). .

(٤) الطبري : (دبرة) . ويقال : دَبِر الحيوان دَبَراً أصيب ظهره بقروح فهو دَبِر . أهـ .

ولا يجتمع لهم أمر. فقال عثمان: إنّ هذا هو الرأي لولا ما فيه. وقال معاوية: أُشير عليك أنْ تأمر أمراء الأجناد فيكفيك كل رجل منهم ما قِبَله وأكفيك أنا أهلَ الشام. وقال عبدالله بن سعد: إنّ الناس أهلُ طَمَع فأعطهم مِنْ هذا المال تعطف عليكقلوبُهم(١).

ثم قام عمرو بن العاص فقال: يا أمير المؤمنين: إنك قد ركبتَ الناس بمثل بني أمية فقلت وقالوا، وزِغْتَ وزاغوا، فاعتدلْ أو آعتزلْ، فإنْ أبيت فآعتزم عزماً وآقدم قدماً.

فقال له عثمان: مالك قَمِلَ فَرْوُك؟ هذا الجدُّ منك!

فسكت عمرو حتى تفرقوا فقال: « والله يا أمير المؤمنين لأنت أكرم عليّ مِنْ ذلك، ولكنِّي علمتُ أنّ بالباب مَنْ يبلّغ الناس قول كل رجل منا فأردْتُ أنْ يَبْلُغَهم قولي فيثقوا بي فأقود إليك خيراً وأدفع عنك شراً.

فرد عثمان عُمّاله إلى أعمالهم، وأمرهم بتجهيز الناس في البعوث، وعزم علىٰ تحريم أعطياتهم ليطيعوه، وردّ سعيداً إلىٰ الكوفة، فلَقِيَه الناسُ مِنْ الجَرَعَة وردُّوه كما سبق ذِكره.

قال أبو ثور الحدائي: جلستُ إلىٰ حذيفة، وأبي مسعود الأنصاريّ بمسجد الكوفة يوم الجَرَعَة فقال أبو مسعود: ما أرىٰ أنْ تُرَدَّ علىٰ عقبيها حتى يكون فيها دماء.

فقال حذيفة: والله لَتُرَدَّنَّ علىٰ عَقِبَيْهَا ولا يكون فيهَا محجمة (٢) دم، وما أرىٰ اليوم شيئاً إلا وقد عَلِمتُه والنبي ﷺ حَيّ (٣). فرجع سعيد إلى عثمان ولم يُسْفَك دم، وجاء أبو موسىٰ أميراً.

وأمر عثمان حذيفة بن اليَمَان أنْ يغزُوَ الباب فسار نحوَه.

---

(١) يعني: تُميل إليك قلوبهم.

(٢) المِحْجَم: أداة الحَجْم، وهو القارورة التي يجمع فيها دم الحجامة.

(٣) يريد فيما أخبر به النبي ﷺ من الفتن بعده.

ذكر ابتداء قتل عثمان

في هذه السنة تكاتب نفرٌ من أصحاب رسول الله ﷺ وغيرهم بعضهم إلىٰ بعض أنْ آقدموا فإنّ الجهاد عندنا[1] وعظم الناس علىٰ عثمان، ونالوا منه [أقبح ما نيلٍ مِنْ أحد]، وليس أحدٌ من الصحابة ينهىٰ ولا يذبّ إلا نفرٌ منهم زيد بن ثابت، وأبو أُسَيْد السَّاعِدِيّ، وكعب بن مالك، وحسان بن ثابت، فآجتمع الناس فكلّموا علي بن أبي طالب فدخل علىٰ عثمان فقال له: « الناس ورائي، وقد كلموني فيك، والله ما أدري ما أقول لك، ولا أعرف شيئاً تجهله، ولا أدلك علىٰ أمرٍ لا تعرفه، إنّك لتعلم ما أعلم ما سبقناك إلىٰ شيءٍ فنخبرك عنه، ولا خلونا بشيء فنبلغكه، وما خُصِصنا بأمرٍ دونك، وقد رأيتَ، وصحبتَ رسولَ الله ﷺ وسمعتَ منه، ونلْتَ صهره، وما ابن أبي قحافة بأولىٰ بالعمل منك بالحق، ولا ابن الخطاب بأولى بشيءٍ من الخير منك، وأنت أقرب إلىٰ رسول الله ﷺ رَحِماً، ولقد نلتَ مِنْ صهر رسول الله ﷺ ما لم ينالاه، وما سبقاك إلىٰ شيءٍ، فالله الله في نفسِك، فإنّك والله ما تُبَصَّر مِنْ عمًى، ولا تُعَلَّم من جهالة، وإنّ الطريق لواضحٌ بيِّن، وإنّ أعلامَ الدين لقائمة، آعلمْ يا عثمان أنّ أفضل عباد الله [عند الله] إمامٌ عادلٌ هُدِيَ وهَدَىٰ فأقام سُنَّةً معلومة، وأماتَ بدعةً متروكة فوالله إنّ كُلًّا لَبَيِّن، وإنّ السنن لقائمة لها أعلام، وإنّ البدع لقائمة لها أعلام، وإنّ شَرَّ الناس عند الله إمامٌ جائر ضَلَّ وأَضَلَّ فأمات سُنَّةً معلومة، وأحيا بدعةً متروكة، [وإنّي سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: « يؤتى يوم القيامة بالإمام الجائر وليس معه نصير ولا عاذر فيلقى في جهنم فيدور

---

(١) هذه القصة باطلة رواها الواقدي الكذاب .

وفي البداية والنهاية (٧/١٩٠) : .

« تكاتبت أهل مصر وأهل الكوفة وأهل البصرة وتراسلوا وزُوِّرَت كتب على لسان الصحابة الذين بالمدينة ، وعلىٰ لسان عليّ وطلحة والزبير يدعون الناس إلى قتال عثمان ونصر الدين وأنه أكبر الجهاد اليوم » أ هـ .

في جهنم كما تدور الرحىٰ ثم يرتطم في غَمْرة جهنم] ». وإني أحذرك الله وسطواته ونقماته فإنّ عذابه شديدٌ أليم، وأحذّرك أنْ تكون إمام هذه الأمة الذي يُقْتل فيفتح عليها القتل والقتال إلىٰ يوم القيامة ويلبِّس أمورها عليها، ويتركها شِيَعاً لا يبصرون الحق لعلوِّ الباطل، يموجون فيها مَوْجاً، ويمرجون فيها مَرجاً.

فقال عثمان : قد علمتُ واللهليقولُنَّ الذي قلتَ أما والله لو كنت مكاني ما عنَّفتك، ولا أسلمتك، ولا عِبْتُ عليك، ولا جئتُ مُنْكِراً أنْ وصلتُ رَحِماً، وسَدَدتُ خَلَّة، وآويتُ ضائعاً، ووَلَّيْتُ شبيهاً بمن كان عمر يولي، أنشدك الله يا عليّ: هل تعلم أنّ المغيرة بن شعبة ليس هناك؟ قال: نعم. قال: فتعلم أنّ عمر ولّاه؟ قال: نعم. قال: فلِمَ تلومني أنْ وَلَّيْتُ ابن عامر في رحمه وقرابته؟ قال علي : إنّ عمر كان يطأ علىٰ صماخ[1] مَنْ وَلَّى إنْ بلغه عنه حرفٌ جلبه ثم بلغ به أقصىٰ العقوبة، وأنت لا تفعل ضعفتَ ورققتَ علىٰ أقربائك.

قال عثمان : وهم أقرباؤك أيضاً. قال: أجل، إنّ رحمهم مني لقريبة، ولكن الفضل في غيرهم، قال عثمان : هل تعلم أنّ عمر ولّىٰ معاوية؟ فقد ولَّيْتُه فقال علي : أنشدك الله هل تعلم أنّ معاوية كان أخوف لعمر من « يرفأ » غلام عمر له؟ قال: نعم. قال علي : فإنّ معاوية يقتطع الأمور دونك، ويقول للناس هذا أمرُ عثمان، وأنت تعلم ذلك فلا تغيّر عليه.

ثم خرج عليٌّ من عنده وخرج عثمان علىٰ أثره فجلس على المنبر ثم قال: « أما بعد فإنّ لكل شيء آفة، ولكل أمرٍ عاهة، وإنّ آفة هذه الأمة وعاهة هذه النعمة عَيَّابون طعانون يُرونكم ما تحبون، ويسترون عنكم ما تكرهون، يقولون لكم ويقولون أمثال النعام، يتبعون أول ناعق، أحب مواردهم إليهم البعيد، لا يشربون إلاّ نَغَصاً، ولا يَرِدون إلا عَكَراً [لا][2]، يقوم لهم رائد وقد أعيتهم الأمور. ألا فقد والله عِبْتُم عليَّ ما أقررتم لابن الخطاب بمثله ولكنه وَطِئكم برجله، وضربكم بيده، وقمعكم بلسانه فدنتم له على ما أحببتم وكرهتم، ولنتُ لكم وأوطأتكم كَتِفِي، وكففت يدي ولساني عنكم فاجترأتم عليَّ، أما والله لأنا أعزّ نفراً، وأقرب ناصراً، وأكثر عدداً، واحرىٰ إنْ قلتُ هَلُمَّ أتى إليَّ،

---

(١) الصِّمَاخ: قناة الأذن التي تفضىٰ إلى طلبتها.

(٢) زيادة زدناها من الطبري ٣/٣٣٨.

ولقد عددتُ لكم أقراناً وأفضلتُ عليكم فضولاً، وكشرتُ لكم عن نابي، وأخرجتم مني خُلُقاً لم أكن أحسنه، ومَنْطِقاً لم أنطق به، فكُفُّوا عني ألسنتكم وعيبكم وطعنكم ولاتكم فإنّي كففتُ عنكم مَنْ لو كان هو الذي يكلمكم لرضيتم منه بدون منطقي هذا. ألا فما تفقدون من حَقِّكُم؟ والله ما قصَّرْتُ عن بلوغ ما بلغ مَنْ كان قبلي، ولم تكونوا تختلفون عليه. فقام مروان بن الحكم فقال: إنْ شئتم حَكَّمنا والله ما بيننا وبينكم السيف نحن وأنتم والله كما قال الشاعر:

فَـرَشْنَـا لَكُمْ أَعْـرَاضَنَـا فَنَبَتْ بِكُمْ   مَغَـارِسُكُم[1] تَبْنُونَ فِي دِمَنِ الثَّـرَىٰ

فقال عثمان: اسكتْ لا سكتَّ دعني وأصحابي. ما منطقك في هذا؟ألم أتقدم إليك أنْ لا تنطق؟ فسكت مَرْوان، ونزل عثمان عن المنبر. فاشتد قوله علىٰ الناس، وعَظُم، وزاد تألُّبهم عليه.

ذكر عدة حوادث

وحج هذه السنة بالناس عثمان. وفي هـذه السنة تُـوفي كعب الأحبار[2] وهـو كعب بن ماتع وأسلم أيام عمر.وفيها مات أبو عَبْس عبد الرحمن بن جَبْر الأنصاري شهد بدراً. وفيها مات مِسْطَح بن أثاثة المطَّلبيّ وهو ابن ست وخمسين سنة، وقيل: بل عاش وشهد صفين مع علي وهو الأكثر وكان بدرياً. وفيها توفي عُبَادة بن الصامت الأنصاري وهو ممن شهد العقبة وكان نقيباً بدرياً، وعاقل بن البُكَير وهو بدري أيضاً.

---

(١) الطبري ٤/٣٣٩ (معارسكم) بالعين المهملة.

(٢) هو كعب بن ماتع الحميري أبو اسحاق المعروف بكعب الأحبار.
يقال أدرك الجاهلية، وأسلم في ايام أبي بكر وقيل عمر.
كان على دين يهود فأسلم وقدم المدينة، ثم خرج إلى الشام فسَكن حمص حتى توفي بها سنة ٣٢، وقيل ٣٤ وقد بلغ ١٠٤ سنة.

ثم دخلت سنة خمس وثلاثين

ذكر مسير من سار إلى حَصْر عثمان [١]

قيل :في هذه السنة كان مسير مَنْ سار مِنْ أهل مصر إلىٰ ذي خُشُب[٢] ومسير مَنْ سار مِنْ أهل العراق إلىٰ ذي المروة، وكان سبب ذلك أنّ عبد الله بن سبأ كان يهودياً [من أهل صنعاء أمه سوداء] وأسلم أيام عثمان ثم تنقل في الحجاز ثم بالبصرة ثم بالكوفة ثم بالشام يريد إضلال الناس فلم يقدر منهم علىٰ ذلك فأخرجه أهل الشام، فأتىٰ مصر فأقام فيهم وقال لهم: « العجبُ ممّن يصدق أنّ عيسىٰ يرجع ويُكذِّب أنَّ محمداً يَرْجِع [وقد قال الله عز وجل : ﴿إِنَّ الذي فَرَضَ عَلَيْكَ القُرآن لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَاد ﴾[٣] محمدٌ أحق بالرجوع من عيسى]». فوضع لهم الرجعة فقُبلت منه.

ثم قال لهم بعد ذلك: « إنه كان لكل نبيٍّ وَصِيٌّ، وعليٌّ وصيُّ محمد، فمن أظلم ممن لم يُجز وصية رسول الله ﷺ ووثب علىٰ وَصِيِّهِ! وإنّ عثمان أخذها بغير حق فأنهضوا في هذا الأمر وآبدؤا بالطعن علىٰ أمرائكم، وأظهِرُوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تستميلوا به الناس ». وبثّ دُعَاته، وكَاتَبَ مَنْ استفسد في الأمصار وكاتبوه، ودعوا في السر إلىٰ ما عليه رأيهم، وصاروا يكتبون إلى الأمصار بكتب يضعونها في عَيْب وُلاتهم، ويكتب أهلُ كل مِصْرٍ منهم إلىٰ مِصْرٍ آخر بما يصنعون حتى تناولوا بذلك المدينة وأوسعوا بذلك الأرض إذاعة فيقول أهل كل مصر: « إنا لفي عافيةٍ مما آبتلي به هؤلاء» إلاّ أهلُ المدينة فإنهم جاءهم ذلك عن جميع الأمصار فقالوا: إنّا لفي عافية مما فيه الناس فأتوا عثمان فقالوا: يا أمير المؤمنين أيأتيك عن الناس الذي يأتينا؟ فقال: «[لا

---

(١) يجد القاريء في هذا الفصل من الروايات الباطلة الكثير مما لا يُقبل إلا أنْ يصحّ فيه دليل فليحذر .

(٢) خُشُب : واد على مسيرة ليلة من المدينة ، وقيل : جبل .

(٣) القصص: ٨٥.

والله] ما جاءني إلاّ السلامة، وأنتم شركائي وشهود المؤمنين. فأشيروا عليّ». قالوا: نشير عليك أنْ تبعث رجالاً ممن تثقُ بهم إلىٰ الأمصار حتىٰ يرجعوا إليك بأخبارهم. فدعا محمد بن مسلمة فأرسله إلى الكوفة، وأرسل أسامة بن زيد إلى البصرة، وأرسل عمار بن ياسر إلىٰ مصر، وأرسل عبد الله بن عمر إلى الشام، وفرّق رجالاً سِواهم فرجعوا جميعاً قَبْل عمار فقالوا: ما أنكرنا شيئاً أيها الناس، ولا أنكره أعلامُ المسلمين ولا عَوَامُّهم. وتأخر عمار حتى ظنوا أنه قد آغتيل، فوصل كتاب من عبد الله بن أبي سرح يذكر أنّ عماراً قد آستماله قومٌ وانقطعوا إليه منهم: عبد الله بن السوداء، وخالد بن مُلَجم، وسُودان بن حُمْران، وكِنانة بن بِشْر، فكتب عثمان إلىٰ أهل الأمصار.

«[أمّا بعد] فإنّي آخِذُ عُمالي بموافاتي كل موسم، وقد رفع إليّ أهل المدينة أنّ أقواماً يُشْتَمُون ويُضْرَبُون، فمن آدّعىٰ شيئاً مِنْ ذلك فليوافِ الموسم يأخذ حقه حيثُ كان مني أو مِنْ عمالي، أو تَصَدَّقُوا فإنّ الله يجزي المتصدقين.

فلما قُرِىءَ في الأمصار بكىٰ الناس، وَدَعوا لعثمان وبعث إلىٰ عُمّال الأمصار فَقَدِموا عليه في المَوْسِم: عبدالله بن عامر، وعبدالله بن سعد، ومعاوية، وأدخل معهم [في المشورة] سعيد بن العاص، وعَمْراً. فقال: ويحكم ما هذه الشكاية والإذاعة إني والله لخائفٌ أنْ تكونوا مَصْدُوقاً عليكم وما يُعْصَب هذا إلاّ بي. فقالوا له: ألم تبعث؟ ألم يرجع إليك الخبر عن العَوَامّ؟ ألم يرجع رُسُلُك ولم يشافههم أحدٌ بشيء؟ والله ما صدقوا، ولا بَرُّوا، ولا نعلم لهذا الأمر أصلاً، ولا يحل الأخذ بهذه الإذاعة. فقال أشيروا علي. فقال سعيد: هذا أمرٌ مصنوع يُلقَى في السر فيتحدث به الناس، ودواءُ ذلك طلبُ هؤلاء، وقَتْل الذين يَخْرُج هذا من عندهم. وقال عبد الله بن سعد: خُذْ من الناس الذي عليهم إذا أعطيتهم الذي لهم فإنّه خيرٌ مِنْ أنْ تَدَعَهُم. وقال معاوية: قد وليتني فوليتُ قوماً ولا يأتيك عنهم إلا الخير والرجلان أعلم بناحيتهما[1]، والرأي حُسْنُ الأدب. وقال عَمرو: أرىٰ أنك قد لِنْتَ لهم، ورخيتَ عليهم وزدتهم علىٰ ما كان يصنع عُمر،فأرىٰ أنْ تلزم طريقة صاحبيك [فتشتد] في موضع الشدة وتلين في موضع اللين.

---

(١) الطبري: بناحيتيها.

فقال عثمان : « قد سمعتُ كلَّ ما أشرتم به عليَّ ولكلِ أمرٍ بابٌ يؤتى منه، إنّ هذا الأمر الذي يُخاف على هذه الأمة كائنٌ[١]، وإنّ بابه الذي يُغْلَقُ عليه ليفتحن، فنكفكفه باللين والمواتاه إلا في حدود الله، فإنْ فُتح فلا يكون لأحدٍ عليّ حُجّة، وقد علم الله أنّي لم آلُ الناس[٢] خيراً وإنّ رحىٰ الفتنة لدائرة، فطوبىٰ لعثمان إنْ مات ولم يُحرِّكْهَا. سَكِّنوا الناس، وهِبُوا لهم حقوقهم، فإذا تُعُوطِيَتْ حقوقُ الله فلا تُدْهِنُوا[٣] فيها فلما نفر عثمان وشخص معاوية والأمراء معه، واستقل علىٰ الطريق رجز به الحادي فقال:

قَـدْ عَلِمَتْ ضَـوَامِـرُ المَـطِيِّ ... وضَـامِـرَاتُ عَـوَجِ القِسِـيِّ
أنَّ الأمِـيْـرَ بـعـدَه عَـلِـيُّ ... وفـي الـزُّبَـيْـرِ خَـلَفٌ رَضِـيُّ
طَـلحـةُ الـحـامـي لـهـا وَلِـيُّ

فقال كعب : كذبتَ بل يلي بعده صاحبُ البغلةَ الشهباء ـ يعني معاوية ـ فطمع فيها من يومئذ. فلما قدم عثمان المدينة، دعا علياً، وطلحة، والزبير، وعنده معاوية فحمد الله معاوية ثم قال[٤]: أنتم أصحاب رسول الله ﷺ وخيْرَتِهِ مِنْ خلقه وولاة أمر هذه الامة، لا يطمع فيه أحدٌ غيركم، آخترتم صاحبكم عن غير غَلَبَة ولا طمع، وقد كبر وولّىٰ عُمُره، ولو انتظرتم به الهَرَم لكان قريباً مع أنّي أرجو أنْ يكون أكرم علىٰ الله أنْ يبلِّغه ذلك، وقد فشَتْ مقالةٌ خِفْتَها عليكم فما عتبتم فيه من شيء، فهذه يدي لكم به، ولا تُطَمِّعُوا الناس في أمركم، فوالله إنْ طَمِعُوا فيه لا رأيتم منها أبداً إلاَّ إدباراً.

قال علي : مالك ولذلك لا أُمَّ لك. قال: دَعْ أمي فإنّها ليستْ بشر أمهاتِكُمْ، قد أسلمتْ، وبايعت النبي ﷺ، وأجبني عما أقول لك.

فقال عثمان : « صَدَقَ ابنُ أخي أنا أخبركم عني وعما وليتُ إنّ صاحبيَّ اللذَين

---

(١) مراده الفتنة وهو ما في حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه .

(٢) أي : لم أقصرّ .

(٣) مراده المداهنة : وهو إظهار خلاف ما يضمر .

(٤) القائل هو معاوية ـ كما في الطبري .

كانا قَبلي ظَلَمَا أَنْفُسَهُمَا ومَنْ كان منهما بسبيلِ احتساباً[١]، وإنّ رسول الله ﷺ كان يُعْطِي قرابته وأنا في رهطٍ أهلِ عَيْلَة وقلة معاش فبسطتُ يديّ في شيء من ذلك [المال] لما أقوم به فيه[٢]، فإن رأيتم ذلك خَطَأً فرُدُّوه فأمري لأمركم تَبَعٌ فقالوا له: قد أصبتَ وأحسنتَ، قد أعطيتَ عبد الله بن خالد بن أسيد خمسين ألفاً، وأعطيتَ مروان خمسة عشر ألفاً[٣]فأخذ منهما ذلك فَرَضُوا وخرجوا راضين.

---

(١) مراده أنّ ما فعله الشيخان أبو بكر وعمر، وكذلك مَنْ تشبّه بهما من الصحابة قبله من الزهد والتقشف وشظف العيش كان منهم تطوع وزيادة ورع، وليس الخليفة بملزم بذلك.

(٢) في الطبري ٤/٣٤٥ زيادة (ورأيت أنّ ذلك لي).

(٣) قال القاضي ابن العربي في العواصم (٨٩).

مروان رجلٌ عَدْل من كبار الأمة عند الصحابة والتابعين وفقهاء المسلمين.

أما الصحابة فإن سهل بن سعد الساعدي روىٰ عنه.

وأما التابعون فأصحابه في السن وإن جازهم باسم الصحبة في أحد قولين.

وأما فقهاء الامصار فكلهم على تعظيمه واعتبار خلافته والتلفت إلى فتواه والانقياد إلى روايته.

وأما السفهاء من المؤرخين والأدباء فيقولون على أقدارهم أ هـ.

وقال الأستاذ محب الدين الخطيب في تحقيقه للعواصم (ص ٨٩ هـ ٢):

« وفي طليعة مَنْ روىٰ عنه من كبار التابعين زين العابدين علي بن الحسين السبط نَصّ على ذلك شيخ الاسلام ابن تيمية في منهاج السنة (٢/١٢٣)، والحافظ ابن حجر في الإصابة، وترىٰ تفصيله في طبقات الشافعية الكبرى للتاج السبكيّ (في ترجمة اللغوي الشهير أبي منصور محمد بن أحمد بن الأزهر صاحب تهذيب اللغة ٢٨٢ : ٣٧٢)، وممن نَصّ الحافظ ابن حجر علىٰ روايتهم عن مروان: سعيد بن المسيب رأس علماء التابعين وإخوانه من الفقهاء السبعة أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزوميّ، وعبيدالله بن عبدالله بن عتبة بن مسعود، وعروة بن الزبير، وأضرابهم كعراك بن مالك الغفاريّ المدنيّ فقيه أهل دهلك وكان يصوم الدهر، وكعبدالله بن شداد بن الهاد أحد الرواة عن عمر وعليّ ومعاذ، وأمّا أنّ رواية عروة بن الزبير عن مروان في كتاب الوكالة من صحيح البخاري(ك ٤٠ ب ٧ ـ ٣/٦٢)، وفي مسند الإمام أحمد (الطبعة الأولى ٤/٣٢١، ٣٢٣، ٣٢٦، ٣٢٨، ٥/١٨٩).

ورواية عراك عن مروان نقلها إمام أهل مصر الليث بن سعد عن يزيد بن أبي حبيب في مسند أحمد (٤/٣٢٨).

ورواية عبدالله بن شداد بن الهاد عن مروان في مسند أحمد (٧/٣١٧، ٣٢٣).

والذي يتأمل الأحاديث المروية عن مروان يجد جملتها من الأئمة الثقات تتسلسل روايتهم عنه مدة جيلين وأكثر وكلهم أعلىٰ مرتبة في الإسلام من الذين يبردون الغِلّ الذي في قلوبهم بالطعن في مروان ومَنْ هو خير من مروان بل في رواة أحاديث مروان عبد الرزاق إمام أهل اليمن وكانت فيه نزعة تشيع.

وفي مسند أحمد (٦/٢١٢) حديث عبد الرحمن بن الحارث بن هشام أنه كان رسول مروان إلى أم المؤمنين أم سلمة في تحقيق بعض الأحكام الشرعية.

=

وقال معاوية لعثمان: اخرج معي إلىٰ الشام فإنّهم علىٰ الطاعة قبل أنْ يهجم عليك مَنْ لا قِبَل لك به. فقال: لا أبيع جِوَار رسول الله ﷺ بشيء وإنْ كان فيه خبط عنقي[1] قال: إنْ بعثتُ إليك جنداً منهم يقيم معك لنائبة إنْ نابت؟ قال: لا أُضَيِّقُ علىٰ جيران رسول الله ﷺ. فقال: والله لَتُغْتَالَنَّ ولَتُغْزَيَنَّ. فقال: حسبيَ اللّهُ ونعم الوكيل.

ثم خرج معاوية فمرّ علىٰ نفر من المهاجرين فيهم علي، وطلحة، والزبير، وعليه ثياب السفر. فقام عليهم وقال: «إنّكم قد علمتم أنّ هذا الأمر كان الناس يتغالبون عليه حتىٰ بَعَثَ اللّهُ نبيه ﷺ وكانوا يتفاضلون بالسابقة، والقدمة، والاجتهاد، فإنْ أخذوا بذلك فالأمر أمرهم والناس لهم تَبَع، وإنْ طلبوا الدنيا بالتغالب سُلِبُوا ذلك وَرَدَّه الله إلىٰ غيرهم، وإنّ الله علىٰ البدل لقادر، وإنّي قد خَلَّفْتُ فيكم شيخاً فآستوصوا به خيراً، وكاتفوه[2] تكونوا أسعد منه بذلك». ثم ودّعهم ومضىٰ فقال علي: [ما][3] كنتُ أرىٰ في هذا خيراً. فقال الزبير: والله ما كان قط أعظم في صدرك وصدورنا منه اليوم، واتّعد المنحرفون عن عثمان يوماً يخرجون فيه بالأمصار جميعها إذا سار عنها الأمراء فلم يتهيأ لهم ذلك، ولما رجع الأمراء ولم يتم لهم الوثوب صاروا يكاتبون في القدوم إلى المدينة لينظروا فيما يريدون، ويسألوا عثمان عن أشياء لتطير في الناس، وكان بمصر محمد بن أبي بكر، ومحمد بن أبي حذيفة يُحَرِّضان على عثمان.

فلما خرج المصريون خرج فيهم عبد الرحمن بن عُدَيْس البلويّ في خمسمائة، وقيل: في ألف، وفيهم كنانة بن بشر الليثي، وسُودان بن حُمران السكونيّ، وقُتيرة بن فلان السَّكُوني، وعليهم جميعاً الغافقي بن حرب العَكّي، وخرج أهل الكوفة وفيهم: زيد بن صُوحان العبدي، والأشتر النخعي، وزياد بن النضر الحارثي، وعبدالله بن الأصمّ العامري وهم في عِدَاد أهل مصر [وعليهم جميعاً عَمْرو بن الأصم]، وخرج أهلُ البصرة فيهم حَكِيْم بن جبلة العبديّ، وذُرَيح بن عباد، وبشر بن شُرَيْح القيسيّ،

= وفي (٦/٢٩٩) من مسند أحمد نموذج لعظيم عناية مروان بسنة رسول الله ﷺ بأقصى ما يمكن أن يصدر عن أئمة المسلمين وأمرائهم . أ هـ .

(١) الطبري ٣/٣٤٥ : (وإن كان فيه قطع خيط عنقي) .

(٢) كذا في المطبوعة ، وفي الطبري بالنون بدون التاء المثناة .

(٣) زيادة يقتضيها السياق .

وابن المحترش وهم بِعدَاد أهل مصر وأميرهم حُرقوص بن زهير السعديّ، فخرجوا جميعاً في شوال، وأظهروا أنّهم يريدون الحجّ، فلما كانوا من المدينة على ثلاثٍ تقدّم ناسٌ مِنْ أهل البصرة فنزلوا ذا خُشب وكان هَوَاهُم في طلحة، وتقدم ناسٌ مِنْ أهل الكوفة وكان هواهم في الزبير ونزلوا الأعْوص[١]، وجاءهم ناس من أهل مصر وكان هواهم في عليّ ونزلوا عامتهم بذي المرْوَة[٢]، ومشىٰ فيما بين أهل مصر وأهل البصرة زياد بن النضر، وعبد الله بن الأصم وقالا لهم: « لا تعجلوا حتى ندخل المدينة ونرتاد لكم فقد بلغنا أنّهم عسكروا لنا[٣]، فوالله إنْ كان هذا حقاً واستحلوا قتالنا بعد عِلْمِ حالنا إنّ أمرنا لباطل، وإنْ كان الذي بلغنا رجعنا إليكم بالخبر »[٤].

قالوا: آذهبا. فذهبا، فدخلا المدينة فلقيا أزواج النبي ﷺ، وعَلِيًّا، وطلحة، والزبير فقالا: «إنما نـريد هـذا البيت ونستعفي مِنْ بعض عُمَّالنـا»، واستأذنـاهم في الدخول، فكلمهما أُبيّ ونهاهما، فرجعا إلى أصحابهما فآجتمع نفرٌ من أهل مصر فأتوا عليًّا ونفر من أهل البصرة فأتوا طلحة ونفر من أهل الكوفة فأتوا الزبير وقال كل فريق منهم: إنْ بايَعَنَا صاحِبُنا وإلاّ كذبناهم وفرّقنا جماعتهم، ثم رجعنا عليهم حتى نبغتهم..

فأتىٰ المِصْريون علياً وهو في عسكر عند أحجار الزيت متقلداً سيفه وقد أرسل ابنه الحسن إلى عثمان فيمن آجتمع إليه فسلّموا عليه، وعرضوا عليه، فصاح بهم وطردهم وقال: « لقد علم الصالحون أنّ جيش ذي المروة، وجيش ذي خُشُب، والأعوَص ملعونون علىٰ لسان محمد ﷺ». فانصرفوا عنه، وأتىٰ البصريون طلحة فقال لهم مثل ذلك، وكان قد أرسل آبنيه إلىٰ عثمان، وأتىٰ الكوفيون الزبير فقال لهم مثل ذلك وكان قد أرسل ابنه عبد الله إلىٰ عثمان، فرجعوا وتفرقوا عن ذي خُشُب وذي المروة، والأعوص إلى عسكرهم ليتفرق أهل المدينة ثم يرجعوا إليهم، فلما بلغوا عسكرهم تفرّق أهل المدينة فرجعوا بهم فلم يشعر أهلُ المدينة إلاّ والتكبير في نواحيها ونزلوها وأحاطوا

(١) الأعوص: موضع قرب المدينة على بعد أميال منها يسيرة.

(٢) ذو المروة: قرية بوادي القرىٰ.

(٣) وهذا من الكذب.

(٤) عبارة الطبري ٤/٣٤٩:.

« فوالله إنْ كان أهل المدينة قد خافوا واستحلوا قتالنا ولم يعلموا علمنا فهم إذا علموا علمنا أشد وإنّ أمرنا هذا لباطل. وإنْ لم يستحلوا قتالنا ووجدنا الذي بلغنا باطلاً لنرجعن إليكم بالخبر».

بعثمان وقالوا: مَنْ كفَّ يده فهو آمن

وصلىٰ عثمان بالناس أيّاماً ولزم الناسُ بيوتَهم، ولم يمنعوا الناس مِنْ كلامه، وأتاهم أهلُ المدينة وفيهم عليّ فقال لهم: ما ردكم بعد ذهابكم؟ فقالوا: أخذنا مع بريدٍ كِتاباً بقتلنا[١]. وأتىٰ طلحة الكوفيين فسألهم عن عودهم فقالوا مثل ذلك، وأتىٰ الزبير البصريين فقالوا مثل ذلك، وكلٍ منهم يقول: نحن نمنع إخواننا وننصرهم، كأنما كانوا علىٰ ميعاد. فقال لهم علي: «كيف علمتم يا أهل الكوفة ويا أهل البصرة بما لقي أهلُ مصر وقد سرتم مراحل حتىٰ رجعتم علينا هذا والله أمرٌ أبرم بليل. فقالوا: ضعوه كيف شئتم، ولا حاجة لنا في هذا الرجل، ليعتزل عنا وعثمان يصلي بهم، وهم يصلون خلفه وهم أدق في عينه من التراب، وكانوا [لا][٢] يمنعون الناس مِن الاجتماع.

وكتب عثمان إلىٰ أهل الأمصار يستنجدهم ويأمرهم بالحث للمنع عنه، ويعرفهم ما الناس فيه، فخرج أهل الأمصار علىٰ الصعب والذلول، فبعث معاوية حبيب بن مسلمة الفهريّ، وبعث عبد الله بن سعد معاوية بن حديج، وخرج من الكوفة القعقاع بن عمرو، وقام بالكوفة نفرٌ يحضُّون علىٰ إعانة أهل المدينة منهم عقبة بن عامر، وعبدالله بن أبي أوفىٰ، وحنظلة الكاتب، وغيرهم من أصحاب النبي ﷺ، ومن التابعين: مسروق، والأسود، وشريح، وعبد الله بن عكيم[٣]، وغيرهم، وقام بالبصرة عمران بن حصين، وأنس بن مالك، وهشام بن عامر، وغيرهم من الصحابة، ومن التابعين كعب بن سور، وهرم بن حيان، وغيرهما، وقام بالشام جماعة من الصحابة والتابعين وكذاك بمصر.

ولما جاءت الجمعة التي علىٰ أثر دخولهم المدينة خرج عثمان فصلىٰ بالناس ثم قام على المنبر فقال: «يا هؤلاء: الله الله، فوالله إنّ أهل المدينة ليعلمون أنّكم ملعونون على لسان محمد ﷺ، فآمحوا الخطأ بالصواب». فقام محمد بن مسلمة فقال: أنا أشهد بذلك. فأقعده حُكَيم بن جبلة، وقام زيد بن ثابت فأقعده محمد بن أبي قتيرة، وثار القوم بأجمعهم، فحصبوا الناس حَتّىٰ أخرجوهم من المسجد، وحصبوا

---

(١) وهذا أيضاً من الكذب.

(٢) زيادة من الطبري ٤/٣٥١.

(٣) في الأصل: (وعبدالله بن حكيم) بالحاء المهملة، وهو غلط وصوابه بالعين المهملة (م).

عثمان حَتَّىٰ صُرع[١] عن المنبر مغشيًّا عليه، فأدخِل داره، واستقتل نفرٌ مِنْ أهل المدينة مع عثمان منهم سعد بن أبي وقاص، والحسين بن علي، وزيد بن ثابت، وأبو هريرة فأرسل إليهم عثمان يعزم عليهم بالأنصراف[٢] فانصرفوا، وأقبل عليّ، وطلحة، والزبير فدخلوا علىٰ عثمان يعودونه مِنْ صرعته ويشكون إليه ما يجدون، وكان عند عثمان نفرٌ مِنْ بَني أمية فيهم مَرْوان بن الحَكم فقالوا كلهم لعلي: أهلكتنا وصنعتَ هذا الصنيع، والله لئن بلغتَ الذي تريد لتمرنَّ[٣] عليك الدنيا. فقام مغضباً وعاد هو والجماعة إلى منازلهم، وصلىٰ عثمان بالناس بعد ما نزلوا به في المسجد ثلاثين يوماً، ثم منعوه الصلاة، وصلى بالناس أميرهم الغافقي، [ودان له المصريون، والكوفيون، والبصريون]، وتفرّق أهل المدينة في حيطانهم، ولزموا بيوتهم، لا يجلس أحدٌ ولا يخرج إلّا بسيفه ليتمنع به، وكان الحصار أربعين يوماً، ومَنْ تعرّض لهم وضعوا فيه السلاح.

وقد قيل إنّ محمد بن أبي بكر، ومحمد بن أبي حذيفة كانا بمصر يحرّضان علىٰ عثمان، وسار محمد بن أبي بكر مع مَنْ سار إلىٰ عثمان، وأقام ابن أبي حذيفة بمصر وغلب عليها لما سار عنها عبد الله بن سعد علىٰ ما يأتي، فلمّا خرج المصريون إلىٰ قصد عثمان أظهروا أنهم يريدون العُمرة، وخرجوا في رجب وعليهم عبد الرحمن بن عديس البلويّ، ويعث عبد الله بن سعد رسولاً إلىٰ عثمان يخبره بحالهم وأنهم قد أظهروا العمرة وقصدهم خلعه أو قتله فخطب عثمان الناس وأعلمهم حالهُم وقال لهم: « إنهم قد أسرعوا إلىٰ الفتنة، وآستطالوا عمري، والله لئن فارقتهم ليتمنون أنّ عمري كان عليهم مكان كل يوم سنة بما يرون من الدماء المسفوكة، والإحن، والأثرة الظاهرة، والأحكام المغيَّرة ».

وكان عبد الله بن سعد خرج إلى عثمان في آثار المصريين بإذنه له، فلما كان بأيْلة[٤] بلغه أنّ المصريين رجعوا إلىٰ عثمان فحصروه وأنّ محمد بن أبي حذيفة غلب

---

(١) أي طُرِح على الأرض.

(٢) وما ذلك إلا لأنه لا يريد قتالاً في المدينة حَرَم الله وحَرَم رسوله.

(٣) مادة الطعم المُرّ.

(٤) أَيْلَة: مدينة على ساحل البحر الأحمر مما يلي الشام.

علىٰ مصر واستجابوا له فعاد عبد الله إلىٰ مصر فمُنِعَ عنها فأتىٰ فلسطين فأقام بها حتىٰ قُتِلَ عثمان.

فلما نزل القوم ذا خُشُب يريدون قتل عثمان إنْ لم ينزع عما يكرهون، ولما رأىٰ عثمان ذلك جاء إلىٰ عليّ فدخل عليه بيته فقال له: «يا بن عم إنّ قرابتي قريبة، ولي عليك حقٌّ عظيم، وقد جاء ما ترىٰ مِنْ هؤلاء القوم وهم مُصَبِّحِيَّ ولك عند الناس قَدْرٌ، وهم يسمعون منك، وأُحِبُّ أنْ تركب إليهم فتردَّهُم عني فإنّ في دخولهم عليّ توهينا لأمري، وجُـرأة علي». فقال علي: علىٰ أي شيء أردهم عنك؟ قال: علىٰ أنْ أصير إلى ما أشرتَ إليه ورأيتَه لي. فقال علي: إنّي قد كلمتُك مرةً بعد أخرى فَكُلّ ذلك نخرج ونقول ثم ترجع عنه وهذا مِنْ فِعل مروان وابن عامر، ومعاوية، وعبدالله بن سعد[١] فإنك أطعتهم وعصيتني. قال عثمان: فأنا أعصيهم وأطيعُك. فأمر الناس فركب معه مِنْ المهاجرين والأنصار ثلاثون رجلاً فيهم سعيد بن زيد، وأبو جهم العدوي، وجُبَيْر بن مطعَم، وحكيم بن حزام، ومَرْوان، وسعيد بن العاص، وعبد الـرحمن بن عتاب بن أَسِيْد، ومِن الأنصار أبو أُسَيْد الساعدي، وأبـو حميد، وزيـد بن ثابت، وحسـان بن ثابت، وكعب بن مالك، ومن العرب نيار بن مكرز فأتوا المصريين فكلّموهم وكان الذي يكلمهم عليّ، ومحمد بن مسلمة فسمعوا مقالتهما ورجعوا إلىٰ مصر فقال ابن عديس لمحمد بن مسلمة: أتوصينا بحاجة؟ قال: نعم تتقي الله، وتردّ مَنْ قبلك عن إمامهم، فإنّه قد وعدنا أنْ يرجع وينزع. قال ابن عديس: أفعلْ إنْ شاء الله. ورجع عليّ ومَنْ معه إلىٰ المدينة فدخل علىٰ عثمان فأخبره برجوعهم وكلّمه بما في نفسه ثم خرج مِنْ عنده، فمكث عثمان ذلك اليوم وجاءه مَرْوان بُكرة الغد فقال له: «تكلم، وأعلِم الناس أنّ أهل مصر قد رَجِعُوا، وأنّ ما بلغهم عن إمامهم كان باطلاً قبل أنْ يجيء الناس إليك مِنْ أمصارهم ويأتيك ما لا تستطيع دفعه». ففعل عثمان، فلما خطب الناس قال له عمرو بن العاص: آتقِ الله يا عثمان فإنّك قد ركبتَ أموراً وركبناها معك فَتُبْ إلىٰ الله نَتُب. فناداه عثمان: «وإنك هناك يابن النابغة؟ قملتْ والله جُبَّتُك منذ عزلتك عن العمل».

فنوديَ مِن ناحيةٍ أخرىٰ تُبْ إلىٰ الله فرفع يديه وقال: اللهم إني أوّل تائب[٢].

---

(١) الطبري: (وسعيد بن العاص) بدل عبدالله بن سعد.

(٢) لا تُتّخذ هذه المقولة أبداً دليلاً على أنّ الرجل مخطيء ورسول الله ﷺ كان يستغفره ويتوب إليه في اليوم =

[ورجع إلىٰ منزله]، وخرج عمرو بن العاص إلىٰ منزله بفلسطين، وكان يقول: والله إني كنت لألقىٰ الراعي فأحرّضه علىٰ عثمان[١]. وأتىٰ علياً، وطلحة، والزبير فحرّضهم علىٰ عثمان فبينما هو بقصره بفلسطين ومعه ابناه محمد، وعبد الله[٢]، وسلامة بن روح الجذامي إذْ مَرّ بهم راكبٌ من المدينة، فسأله عَمرو عن عثمان فقال: هو محصور. قال عمرو: أنا أبو عبد الله قد يضرط العير والمكواة في النار[٣].

ثم مرّ به راكب آخر فسأله فقال: قُتل عثمان. فقال عمرو: أنا أبو عبد الله إذا حَكَكْتُ قَرْحَة نكأتها[٤] فقال له سلامة بن روح: يا معشر قريش كان بينكم وبين العرب بابٌ [وَثِيْق] فكسرتموه، [فما عملكم على ذلك؟] فقال: أردنا أنْ نُخْرِجَ الحقَّ مِنْ خاصرة الباطل[٥] ليكون الناس في الحق شرعاً سواء.

وقيل: إنّ عَلِيًّا لما رجع مِنْ عند المِصْريين بعد رجوعهم إلىٰ عثمان فقال له: تكلمْ كلاماً يسمعه الناس منك، ويشهدون عليك، ويشهد الله علىٰ ما في قلبك من النزوع، والامانة، [٦] فإن البلاد قد تمخضتْ عليك فلا آمن أنْ يجيء رَكْبٌ آخر من الكوفة والبصرة، فتقول: يا عليّ آركبْ إليهم، فإنْ لم أفعل رأيتني قد قطعتُ رَحِمَك، واستخففتُ بحقّك. فخرج عثمان فخطب الخطبة التي نزع فيها وأعطىٰ الناسَ مَنْ نفسه التوبة وقال: « أنا أول من اتعظ، أستغفرُ الله مما فعلتُ وأتوبُ إليه، فمثلي نزع وتاب فإذا نزلتُ فليأتني أشرافُكم فليرَوا فيّ رأيهم فوالله لئن ردني الحقُّ عبداً لأستَنَّ بسنةِ العبد ولأذلنّ ذُلّ العبد وما عن الله مذهب إلا إليه، فوالله لأعطينكم الرضا، ولأنحيّن مروان وذويه، ولا أحتجب عنكم»، فرقّ الناسُ وبكوا حتىٰ أخضلوا لحاهم وبكى هو أيضاً.

= أكثر من مائة مرة .

وهكذا لا يستطيع أن يفهم أهل الإيمان أولئك المستشرقون والمتغربون الذين تربوا على موائد الغرب بعيداً على كتاب الله وهدى نبيه ﷺ .

(١) وما أظن هذه الرواية تصح أبداً فلتنظر.

(٢) في الأصل : (ابناه ومحمد بن عبدالله) وهو غلط (م) .

(٣) مثل يضرب للرجل يخاف الأمر فيجزع قبل وقوعه فيه (انظر مجمع الأمثال ٢/٩٥) .

(٤) أي : قَشَرْتُها .

(٥) في الأصل : (حاصرة الباطل) بالحاء وصوابه بالخاء المعجمة وفي الطبري (من حافرة الباطل) .

(٦) في الطبري : (والانابة) .

فلما نزل عثمان وجد مروان، وسعيداً، ونفراً من بني أمية في منزله لم يكونوا شهوداً خطبته فلما جلس قال مروان: يا أمير المؤمنين أتكلمُ أم أسكت؟ فقالت نائلة بنت الفرافضة آمرأة عثمان: لا بل آصمُتْ فإنهم والله قاتِلُوه ومؤثموه، إنّه قد قال مقالة لا ينبغي له أن ينزع عنها فقال لها مَرْوان: ما أنتِ وذاك! فوالله قد مات أبوك وما يحسن يتوضأ؟ فقالت: مهلا يا مروان عَنْ ذكر الآباء تخبرُ عن أبي وهو غائب تكذِبُ عليه وإنّ أباكَ لا يستطيع أنْ يدفعَ عن نفسه أما والله لولا أنه عمه وأنه يناله غمه لأخبرتك عنه ما لن أكذب عليه. قالت: فأعرض عنها مروان فقال: يا أمير المؤمنين أتكلم أم أسكت؟ قال: تكلم. فقال مروان: بأبي أنت وأمي والله لوددتُ أنّ مقالتَك هذه كانت وأنت ممتنع فكنتُ أوّل مَنْ رضيَ بها وأعان عليها ولكنّك قلتَ ما قلتَ وقد بلغ الحزامُ الطُّبْيَيْن[١]، وبلغ السيلُ الزُّبَىٰ[٢]، وحين أعطىٰ الخطة الذليلةَ الذليلُ والله لإقامةٌ علىٰ خطيئةٍ ويستغفرُ منها أجملُ مِنْ توبةٍ يخوف عليها وأنت إنْ شئتَ تَقربتَ بالتوبة ولم تقرر[٣] بالخطيئة وقد آجتمع بالباب أمثالُ الجبال من الناس. فقال عثمان: فـآخرجْ إليهم فكلِّمْهُم فـإني أستحي أنْ أكلمهم فخرج مروان إلىٰ الباب والناس يركب بعضهم بعضاً فقال: «ما شأنكم قد آجتمعتم كأنكم قد جئتم لنهبٍ! شـاهت الوجـوهُ إلىٰ[٤] مَنْ أريد، جئتم تريدون أن تنزِعُوا مُلْكَنا مِنْ أيدينا! أخرجوا عنا. والله لئن رمتمونا ليمرنّ عليكم منا أمر لا يسركم ولا تحمدوا غبّ رأيكم، آرجعوا إلىٰ منازلكم فإنّا والله ما نحن بمغلوبين علىٰ ما في أيدينا.

فرجع الناسُ، وأتىٰ بعضهم علياً فأخبره الخبر فأقبل عليٌّ علىٰ عبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث فقال: أَحَضْرتَ خطبة عثمان؟ قال: نعم. قال: أفحضرتَ مقالةَ مَرْوان للناس؟ قال: نعم. فقال علي: أيْ عباد الله: يا للمسلمين إنّي إنْ قعدتُ في بيتي قال لي: تركتني وقرابتي وحقي، وإنّي إنْ تكلمتُ فجاء ما يريدُ يلعبُ به مَرْوان فصار سَيْقة له يسوقه حيث يشاء بعد كبر السن وصُحبة رسول الله ﷺ». وقام مغضباً حتىٰ دخل علىٰ عثمان فقال له: «أما رضيت مِنْ مروان ولا رضيَ منك إلا بتحرّفك عن دينك

---

(١) الطُّبْيُ: حلمة الضَّرْع للحيوان أو الضَّرْع نفسه.

(٢) الزُّبية: الرابية لا يعلوها الماء.

(٣) طـ ٣٦٢/٤: شاهت الوجوه، كل إنسان آخِذٌ بأُذن صاحبه، الا من أريد.

(٤) في الأصل: (ولم تقربت) (مـ) والمثبت في الطبري ٣٦٢/٣.

وعن عقلك مثل جمل الظعينة يقادُ حيثُ يشاء ربه والله ما مروان بذي رأيٍ في دينه ولا نفسه، وأيم الله إني لأراه يوردك ولا يصدرك، وما أنا عائد بعد مقامي هذا لمعاتبتك، أذهبتَ شرفَك، وغُلبتَ علىٰ رأيك ».

فلما خرج عليٌّ دخلتْ عليه امرأته نائلة ابنة الفرافصة فقالت: « قد سمعتُ قولَ عليّ لك وليس يُعاودك، وقد أطعتَ مروان يقودك حيث شاء. قال: فما أصنع؟ قالت: تتقي الله وتتبع سنة صاحبَيْك [من قبلك] فإنك متىٰ أطعتَ مروان قتلك، ومروان ليس له عند الناس قدْر، ولا هَيْبَة، ولا محبة، وإنما تركك الناسُ لمكانه، فأرسِلْ إلىٰ عليّ فاستصلحه فإنّ له قرابةً [منك] وهو لا يُعْصَىٰ. فأرسل عثمان إلىٰ عليّ فلم يأته وقال: « قد أعلمتُه أنّي غير عائد ». فبلغ مروان مقالة نائلة فيه فجلس بين يدي عثمان فقال. « يا ابنة الفرافصة » فقال عثمان: « لا تَذْكُرَنَّها بحرفٍ فأُسَوِّدُ وجهك، فهي والله أنصحُ لي [منك] ». فكفّ مروان.

وأتى عثمان إلىٰ عليّ بمنزله لَيْلاً وقال له: إنّي غير عائد، وإنّي فاعل. فقال له علي: بعد ما تكلمت علىٰ منبرِ رسول الله ﷺ وأعطيتَ مِنْ نفسِك ثم دخلتَ بيتك فخرج مروان إلى الناس يشتمهم علىٰ بابك ويؤذيهم!

فخرج عثمان من عنده وهو يقول: [قطعتَ رَحِمِي، و] خذلتِنِي، وجَرَّأْتَ الناس عليّ. فقال عليّ: « والله إني لأكثر الناس ذَبًّا عنك، ولكني كلما جئتَ بشيءٍ أظنه لك رضا جاء مروان بأخرىٰ فسمعتَ قوله وتركتَ قولي ». ولم يَعُدْ عليّ يعمل ما كان يعمل إلىٰ أنْ مُنع عثمان الماء فقال عليّ لطلحة: أريد أنْ تُدخل عليه الروايا[1] وغضب غضباً شديداً حتى دخلت الروايا علىٰ عثمان. قال: وقد قيل إنّ علياً كان عند حَصْر عثمان بخيبر فقدِم المدينة والناس مجتمعون عند طلحة وكان ممن له فيه أثر، فلما قدم عليّ أتاه عثمان وقال له: أما بعد فإنّ لي حق الاسلام، وحق الإخاءِ والقرابة، والصهر، ولو لم يكن من ذلك شيءٌ وكنا في الجاهلية لكان عاراً علىٰ بني عبد مناف أنْ ينتزع أخوبني تيم[2] ـ يعني طلحة ـ أمرهم. فقال له عليّ: سيأتيك الخبر. ثم خرج إلىٰ المسجد فرأىٰ أسامة فتوكأ علىٰ يده حتى دخل دار طلحة وهو في خلوة من الناس فقال له: يا

---

(١) في الأصل: (تميم) وهو غلط (م).

طلحة ما هذا الأمر الذي وقعتَ فيه. فقال: يا أبا الحسن بعد ما مس الحزام الطبيين!

فانصرف عليّ حتى أتى بيت المال فقال: افتحوه، فلم يجدوا المفاتيح فكسر الباب وأعطى الناس فآنصرفوا مِنْ عند طلحة حتى بقيَ وحده، وسُرّ بذلك عثمان، وجاء طلحة فدخل على عثمان وقال له: يا أمير المؤمنين أردتُ أمراً فحال الله بيني وبينه. فقال عثمان: والله ما جئت تائباً، ولكن جئتَ مغلوباً الله حسيبك يا طلحة[١].

ذكر مقتل عثمان

قد ذكرنا سبب مَسِير الناسُ إلى قتل عثمان، وقد تركنا كثيراً من الأسباب التي جعلها الناس ذريعة إلى قتله لِعِلَلٍ دعت إلى ذلك، ونذكر الآن كيف قُتِل وما كان بدء ذلك وابتداء الجُرأة عليه قبل قتله، فكان من ذلك أنّ إبلاً من إبل الصدقة قُدِم بها على عثمان فوهبها لبعض بني الحكم، فبلغ ذلك عبد الرحمن بن عوف فأخذها وقسّمها بين الناس وعثمان في الدار.

قيل: وكان أول مَنْ آجترأ على عثمان بالمنطق جبلة بن عمرو الساعديّ مَرّ به عثمان وهو في نادي قومه وبيده جامعة فسلّم فردّ القومُ فقال جبلة: «لم تردون على رجل فعل كذا وكذا؟ ثم قال لعثمان: والله لأطرحنّ هذه الجامعة في عنقك أو لتتركن بطانتك هذه الخبيثة مروان، وابن عامر، وابن سعد، مِنْهم مَنْ نزل القرآن بذمِّهِ وأباحَ رسُولُ الله ﷺ دَمَه». فآجترأ الناسُ عليه، وقد تقدم قول عمرو بن العاص له في خطبته.

قيل: وخطب يوماً وبيده عصا كان النبي ﷺ، وأبو بكر وعمر يخطبون عليها فأخذها جهجاه الغفاري من يده وكسرها على ركبته [اليمنى] فرُمي في ذلك المكان بأكلة.

وقيل: كتب جمْعٌ من أهل المدينة من الصحابة وغيرهم إلى مَنْ بالآفاق منهم: «إنْ أردتم الجهاد فهلُمّوا إليه فإنّ دين محمد ﷺ قد أفسَدَه خليفتكم فأقيموه»[٢].

---

(١) ينبغي التحقق من صحة مثل هذه الروايات ولا تقبل قبل ذلك أبداً.

(٢) وهذه كما تقدّم رسائل مزورة ما أرسلها الصحابة وقد أقسموا ما كتبوها.

فاختلفتْ قلوبُ الناس على ما تقدم ذِكْره. وجاء المصريون كما ذكرنا إلى المدينة فخرج إليهم عليّ، ومحمد بن مسلمة كما تقدم فكلماهم فعادوا ثم رجعوا فلما رجعوا انطلق إليهم محمد بن مسلمة يسألهم عن سبب عودهم فأخرجوا صحيفة في أنبوبة رصاص وقالوا: وجدنا غلام عثمان بالبويب على بعير من إبل الصدقة ففتشنا متاعه فوجدنا فيه هذه الصحيفة يأمر فيها بجَلْد عبد الرحمن بن عديس، وعمرو بن الحمق، وعروة بن البياع وحبسهم وحَلْق رؤوسهم ولِحَاهُم وصَلْب بعضهم[١].

وقيل: إنّ الذي أُخِذَتْ منه الصحيفة «أبو الأعور السلمي» فلما رأوه سألوه عَنْ مسيره، وهل معه كتابٌ فقال: لا. فسألوه: في أيّ شيءٍ هو؟[٢] فتغيّر كلامه، فأنكروه، وفتشوه، وأخذوا الكتاب منه، وعادوا، وعاد الكوفيون والبصريون[٣].

فلما عاد أهلُ مصر أخبروا بذلك محمد بن سلمة وقالوا له: قد كلّمنا علياً ووعدنا أنْ يكلّمه، وكلّمنا سعد بن أبي وقاص، وسعيد بن زيد فقالا: لا ندخل في أمركم. وقالوا لمحمد بن مسلمة: لتحضر مع عليّ عند عثمان بعد الظهر. فوعدهم بذلك، فدخل علي، ومحمد بن مسلمة علىٰ عثمان فآستأذنا للمِصريين عليه وعنده مَرْوان فقال: دعني أُكلِّمهم. فقال عثمان: آسكتْ فَضّ اللّهُ فاك. ما أنتْ وهذا الأمر! آخرجْ عني. فخرج مروان، وقال علي ومحمد لعثمان ما قال المصريون، فأقسم بالله ما كتبتُه، ولا عِلْم لي به فقال محمد: «صَدَق. هذا مِنْ عمل مروان»[٤].

---

(١) وهذه الرسالة مزورة باطلة، وقد أقسم لهم عثمان ما كتبها، وما عملها وقال لهم: إنما هما اثنتان أن تقيموا عليّ رجلَيْن من المسلمين أو يمين بالله الذي لا إله إلا هو ما كتبتُ ما أمليتُ ولا علمتُ». قال: «وقد تعلمون أنّ الكتاب يكتب على لسان الرجل، وقد يُنْقَش الخاتم على الخاتم» (الطبري ٤/٣٥٦).
كما قال لهم عليّ رضي الله عنه: «كيف علمتم يا أهل الكوفة ويا أهل البصرة بما لقي أهل مصر وقد سرتم مراحل هذا والله أمرٌ أُبرم بليل».
فما وجدوا إلا أن يقول له:
(ضعوه كيف شئتم، لا حاجة لنا في هذا الرجل». فأقروا بذلك ببطلان قصة الكتاب وإنما هي رغبتهم في إقالة عثمان رضي الله عنه.. أمرٌ دُبِّرَ بليل وإنا لله وإنا إليه راجعون).

(٢) أي: إلى أي جهة يسافر.

(٣) وهي قصة سخيفة باطلة كما قدّمنا.

(٤) وما هي من عمل مروان ولا غيره بل هي باطلة مختلقة.

ودخل عليه المصريون فلم يسلِّموا عليه بالخلافة، فعرفوا الشرَّ فيهم، وتكلّموا فذكر ابنُ عديس ما فعل عبد الله بن سعد بالمسلمين وأهلِ الذمة والاستئثار في الغنائم فإذا قيل له في ذلك قال: « هذا كتاب أمير المؤمنين [إليّ] ». وذكروا شيئاً مما أحدث بالمدينة، وقال له: وخرجنا من مصر ونحن نريدُ قَتْلك فردنا عليّ، ومحمد بن مسلمة وضَمِنَا لنا النزوع عن كُلِّ ما تكلمنا فيه فرجعنا إلىٰ بلادنا فرأينا غلامك وكتابك وعليه خاتمك تأمر عبد الله بجلدنا والمثلة بنا وطول الحبس.

فحلف عثمان أنّه ما كتب، ولا أَمَرَ، ولا عَلِم. فقال عليّ، ومحمد: صَدَقَ عثمان. قال المصريون: فمن كتبه؟ قال: لا أدري قالوا: فيجتَرَأُ عليك، ويُبْعَثُ غلامك، وجملٌ من الصَّدَقة، ويُنْقَشُ علىٰ خاتمك، ويبعث إلىٰ عامِلِك بهذه الأمور العظيمة وأنت لا تعلم! قال: نعم. قال: ما أنت إلّا صادق أو كاذب، فإنْ كنت كاذباً فقد استحققتَ الخَلْعَ لما أمرتَ به مِنْ قَتْلِنا بغير حق، وإنْ كنتَ صادقاً فقد استحققتَ أنْ تخلع نفسك لضعفك عن هذا الأمر، وغفلتك، وخُبْث بِطَانَتِك، ولا ينبغي لنا أنْ نترك هذا الأمر بيد مَنْ تُقْطَعُ الأمور دونه لضعفه وغفلته. فاخلَع نفسك منه كما خلعك الله.

فقال: لا أنزع قميصاً ألبسنيه الله[1] ولكني أتوبُ وأنزع قالوا: لو كان هذا أوّل ذنب تبتَ

---

(١) لحديث ابن ماجة (١١٢):

عن عائشة قالت قال رسول الله ﷺ:

« يا عثمان إنْ وَلَّاك اللهُ هذا الأمر يوماً فأرادك المنافقون أنْ تخلع قميصك الذي قَمَّصَكَ اللهُ فلا تخلعه ».

يقول ذلك ثلاث مرات.

قال النعمان: فقلت لعائشة: ما منعكِ أنْ تُعْلِمِي الناس بهذا؟

قالت: أُنْسِيتُهُ.

كما أورد البلاذري في أنساب الأشراف (٥/٧٦) من حديث نافع عن ابن عمر أنه دخل على عثمان فقال له عثمان:

أنظر ما يقول هؤلاء يقولون آخلعْ نفسك أو نقتلك!

فقال له ابن عمر: أَمُخَلَّدٌ أنت في الدنيا؟

قال: لا.

قال: هل يزيدون علىٰ أنْ يقتلوك؟

قال: لا.

قال: هل يملكون لك جنة أو نار؟

قال: لا.

قال: فلا تخلع قميص الله عنك فتكون سُنَّة كلما كره قومٌ خليفتهم خلعوه أو قتلوه.

منه قَبِلْنا ولكنّا رأيناك تتوبُ ثم تعود، ولسنا منصرفين حتىٰ نخلعك، أو نقتلك، أو تلحق أرواحنا بالله تعالى ، وإنْ منعك أصحابك وأهلك قاتلناهم حتى نخلص إليك . فقال : أما أنْ أتبرأ من خلافة الله فالقتل أحبُّ إليّ مِنْ ذلك ، وأما قولكم تقاتلون مَنْ منعني فإنّي لا آمرُ أحداً بقتالكم فمن قاتلكم فبغير أمري قـاتل ، ولـو أردتُ قِتالكم لكتبتُ إلى الأجناد فقدموا عليّ أو لحقتُ ببعض أطرافي .

وكثرت الأصوات واللغط فقـام عليّ فخرج وأخـرج المصريين، ومضىٰ عليّ إلى منزله، وحصر المصريون عثمان، وكتب إلىٰ معاوية، وابن عامر وأمـراء الأجناد يستنجدهم ويأمرهم بالعَجَل وإرسال الجنود إليه، فتربّص به معاوية فقام في أهل الشام يزيد بن أسد القسري ـ جد خالد بن عبد الله القسري ـ فتبعه خلقٌ كثير، فسار بهم إلىٰ عثمان فلما كانوا بوادي القرى بَلَغَهُم قَتْل عثمان فرَجِعُوا .

وقيل : بل سار مِنْ الشام حبيب بن مسلمة الفهري ، وسار مِن البصرة مجاشع بن مسعود السلمي فلما وصلوا الربذة ونزلتْ مُقَدِّمَتُهُم صراراً بناحية المدينة أتاهم قَتْـل عثمان فرجعوا. وكان عثمان قد استشار نُصَحَاءه في أمره فأشاروا عليه أنْ يرسل إلىٰ عليّ يطلب إليه أنْ يَرُدَّهم ويعطيهم ما يرضيهم ليطاوِلَهم حتىٰ يأتيه أمدادُه فقال: «إنهم لا يَقْبَلُون التعلل، وقد كان مِنّي في المرة الأولى ما كان ». فقال مروان: أعطهم ما سألوك وطاولهم ما طاولوك، فإنهم قومٌ بَغوا عليك ولا عَهْدَ لهم. فدعا علياً فقال له: قد ترىٰ ما كان من الناس، ولستُ آمنهم علىٰ دمي فاَردُدهم عني فإني أُعطيهم ما يريدون من الحقّ من نفسي وغيري. فقال علي : الناس إلى عدلك أحوج منهم إلى قتلك، ولا يرضون إلّا بالرضا، وقد كنتَ أعطيتهم أولاً عهداً فلم تفِ به فلا تعوزني هذه المرة فإنّي معطيهم عليك الحق. فقال: أعطهم فوالله لأفينّ لهم .

فخرج عليّ إلىٰ الناس فقال لهم: إنّما طلبتم الحق وقد أُعطيتموه، وقد زعم أنّه منصفكم من نفسه. فقال الناس: قَبِلْنا، فاستوثِقْ منه لنا فإنّا لا نرضىٰ بقولٍ دون فِعْل. فدخل عليه عليّ فأعلمه فقال: اضربْ بيني وبينهم أَجَلاً فإنّي لا أقدرُ علىٰ أنْ أردّ ما كَرِهُوا في يومٍ واحد. فقال علي: أمّا ما كان بالمدينة فلا أَجَلَ فيه، وما غاب فأجله وصول أمرك. قال: نعم فأجِّلني فيما في المدينة ثلاثة أيام. فأجابه إلىٰ ذلك، وكتب بينهم كتاباً علىٰ ردّ كل مظلمة وعزل كل عامل كرهوه، فكفّ الناسُ عنه فجعل يتأهّب

للقتال ويستعد بالسلاح واتّخذ جُنْداً.

فلما مضتْ الأيامُ الثلاثة ولم يتغيّر شيئاً ثار به النـاس، وخرج عَمْـرو بن حزم الأنصاري إلىٰ المصريين فأعلمهم الحال وهم بذي خُشُب، فقدِموا المدينة وطلبوا منه عزل عُمّاله، وردّ مظالمهم فقال: **إنْ كنتُ مستعملاً مَنْ أردتم وعازلاً مَنْ كرِهْتُم فلستُ في شيءٍ والأمر أمركم**. فقالوا: والله لتفعلنَّ، أو لتخلعنّ، أو لتقتلنّ. فـأبىٰ عليهم وقال: لا أنزِع سِرْبَالاً سربلنيه اللهُ فحصروه واشتد الحصار عليه فـأرسل إلىٰ علي، وطلحة، والزبير، فحضروا فأشرف عليهم فقال: « يا أيها الناس اجلسوا ». فجلسوا المُحَارِب والمُسَالم . فقال لهم: « يا أهل المدينة استودعكم الله وأسـأله أنْ يُحْسِن عليكم الخلافة مِنْ بعدي ».

ثم قال: «أنشدكم بالله هل تعلمون أنكم دعوتم الله عند مصاب عُمر أنْ يختار لكم ويجمعكم علىٰ خَيْركم؟ أتقولون أنّ الله لم يستجب لكم وهُنْتُم عليه وأنتم أهل حَقّه؟ أم تقولون هان علىٰ الله دِينَهُ فلم يُبال ِ مَنْ وَلّىٰ والدين لم يتفرق أهله يومئذ؟ أم تقولون: لم يكن أخذ عن مشورة إنما كان مُكَابرة فوكل الله الأمة إذ عصته ولم يشاوِرُوا في الإمامة ؟ أم تقولون : إنّ الله لم يعلم عاقبة أمري ؟ وأنشدكم بالله أتعلمون لي مِنْ سابقة خير وقَدَم خيرِ قدمه الله لي يحق على كل مَنْ جاء بعدي أنْ يعرفوا لي فضلها ؟ فمهلاً لا تقتلوني فإنّه لا يحل إلاّ قتل ثلاثة رجل زنىٰ بعد إحصانه ، أو كفر بعد إيمانه ، أو قتل نفساً بغير حق ، فإنكم إذا قتلتموني وضعتم السيف علىٰ رِقَابِكُم ثم لم يرفع الله عنكم الإختلاف أبداً .

قالوا: « أما ما ذكرت مِن استخارة الناس بعد عمر ثم وُلُوِّك فإنّ كل ما صنع اللّهُ خيرة، ولكن الله جعلك بلية ابتلى بها عباده. وأما ما ذكرتَ مِنْ قدمك وسلفك مع رسول الله ﷺ فقد كنتَ كذلك وكنتَ أهلاً للولاية، ولكن أحدثتَ ما علمته ولا نترك إقامة الحق عليك مخافة الفتنة عاماً قابلا، وأما قولك: إنه لا يحل إلا قتل ثلاثة فإنا نجد في كتاب الله قتل غير الثلاثة الذين سميت: قتل مَنْ سعىٰ في الأرض فساداً، وقَتْل من بغىٰ ثم قاتل علىٰ بغيه، وقتل مَنْ حال دون شيء من الحق ومنعه وقاتل دونـه، وقد بغيتَ، ومنعتَ، وحلتَ دونه، وكابرتَ عليه، ولم تقد مِنْ نفسك مَنْ ظلمت، وقد تمسكتَ بالإمارة علينا، فإنْ زعمتَ أنّك لم تُكَابرنا عليها فإنّ الذين قاموا دونك ومَنَعُوك منا إنّما

يقاتلون لتمسكك بالامارة فلو خلعتَ نفسك لانصرفوا عن القتال معك. فسكت عثمان ولزم الدار وأمر أهل المدينة بالرجوع وأقسم عليهم فرجعوا إلا الحسن بن علي، وابن عباس، ومحمد بن طلحة، وعبد الله بن الزبير وأشباهاً لهم، واجتمع إليه نـاسٌ كثير فكانت مدة الحصار أربعين يوماً.

فلما مضت ثمان عشرة ليلة قدِم رُكبان مِن الأمصار فأخبروا بخبر مَنْ تهيّأ إليهم من الجنود، وشجّعوا الناس فعندها حالوا بين الناس وبين عثمان ومنعوه كُلَّ شيءٍ حتىٰ الماء، فأرسل عثمان إلى عليّ سِرًّا، وإلىٰ طلحة، والزبير، وأزواج النبي ﷺ أنّهم قد منعوني الماء فإنْ قدرتم أنْ تُرْسِلوا إلينا ماءً فافعلوا. فكان أوّلهم إجابةً علي، وأم حبيبة زوج النبي ﷺ فجاء عليّ في الغلس فقال: « يا أيها الناس إنّ الذي تفعلون لا يشبه أمر المؤمنين ولا أمر الكافرين فلا تقطعوا عن هذا الرجل الماء ولا المادة، فإنّ الـروم، وفارس لتأسر فتُطْعِم وتسقي ». فقالوا: لا والله ولا نِعْمَة عين. فرمىٰ بعمامته في الدار بأني قد نهضت ورجعت، وجاءت أمّ حبيبة علىٰ بغلة لها مشتملة علىٰ إداوة فضربوا وجه بغلتها فقالت: إنّ وصايا بني أمية عند هذا الرجل فأحببتُ أنْ أسأله عنها لئلا تهلك أموال الأيتام، والأرامل.

فقالوا: كاذِبة، وقطعوا حبل البغلة بالسيف فنفرتْ وكادت تسقط عنها، فتلقاها الناسُ فأخذوها وذهبـوا بها إلىٰ بيتهـا، فأشـرف عثمان يـوماً فسلم عليهم ثم قـال: «أنشدكم الله هل تعلمون إنِّي آشتريتُ بئر رومة بمالي ليُسْتَعذب بها فجعلتُ رشائي فيها كرجلٍ من المسلمين؟ قالوا: نعم. قال: فلم تمنعوني أنْ أشرب منها حتىٰ أُفطر علىٰ ماءِ البحر!

ثم قال: أنشدكم بالله هل تعلمون أنّي اشتريتُ أرض كذا فزدتها في المسجد؟ قيل: نعم. قال: فهل علمتِم أنّ أحداً مُنع أن يصلي فيه قبلي؟ ثم قال: أنشدكم بالله أتعلمون أنّ النبي ﷺ قال عني كذا وكذا ـ أشياء في شأنـه ـ ففشىٰ النهيُ في الناس يقولون: مهلاً عن أمير المؤمنين، فقام الأشتر فقال: لعله مكربه وبكم.

وخرجت عائشة إلىٰ الحج واستتبعتْ أخاها محمداً فأبىٰ فقالت:[1] «والله لئن

---

(١) في الأصل: (فقال) وصوابها (فقالت) أي عائشة ـ انظر الطبري (م). (الطبري ٣٨٦/٤).

استطعتُ أن يحرمهم الله ما يحاولون لأفعلن». فقال له حنظلة الكاتب: تستتبُعُك أم المؤمنين فلا تتبعها وتتبع ذؤبان العرب إلى ما لا يحل! وإنّ هذا الأمر إنْ صار إلىٰ التَّغَالِبُ غلبك عليه بنو عبد مناف! ثم رجع حنظلة إلىٰ الكوفة وهو يقول:

عجِبْتُ لِمَا يَخُوضُ النَّاسُ فيهِ ... يَرُومُونَ الخِلَافَةَ أنْ تَزُولَا
وَلَوْ زَالَتْ لَزَالَ الخَيْرُ عَنْهُمْ ... وَلَاقَوْا بَعْدَهَا ذُلًّا ذَلِيْلَا
وَكَانُوا كَاليَهُودِ وَكَالنَّصَارَىٰ[1] ... سَواءً كُلُّهُمْ ضَلُّوا السَّبِيْلَا

وبلغ طلحة، والزبير ما لقي عليّ، وأم حبيبة فلزِموا بيوتهم وبقي عثمان يسقيه آلُ حزم في الغفلات، فأشرف عثمان علىٰ الناس فٱستدعىٰ ابنَ عباس فأمره أنْ يحجَّ بالناس ـ وكان ممن لزم الباب ـ فقال: «جهادُ هؤلاء أحبُّ إليَّ مِن الحج». فأقسمَ عليه فٱنطلق.

قال عبدالله بن عباس بن أبي ربيعة: دخلتُ علىٰ عثمان فأخذ بيدي فأسمعني كلام مَنْ علىٰ بابه فمنهم من يقول: ما تنتظرون به؟ ومنهم مَنْ يقول: انظروا عسىٰ أنْ يراجع قال: فبينما نحن واقفون إذ مرّ طلحة فقال: أين ابن عديس؟ فقام إليه فناجاه ثم رجع ابن عديس فقال لأصحابه: لا تتركوا أحداً يدخل علىٰ عثمان ولا يخرج من عنده. فقال لي عثمان: هذا ما أمر به طلحة اللهم اكفني طلحة فإنّه حمل علىٰ هؤلاء وألبهم علي، والله إني لأرجو أن يكون منها صفراً وأن يسفك دمه. قال: فاردتُ أن أخرج فمنعوني حتى أمرهم محمد بن أبي بكر فتركوني أخرج[2].

وقيل: إن الزبير خرج من المدينة قبل أن يقتل عثمان، وقيل: أدرك قتله.

ولما رأىٰ المصريون أنّ أهل المَوْسم يريدون قصدهم وأنْ يجمعوا ذلك إلىٰ حجهم مع ما بلغهم من مسير أهل الأمصار قالوا: لا يُخرجنا مِنْ هذا الأمر الذي وَقَعْنَا فيه إلّا قَتْلَ هذا الرجل فيشتغل الناس عنا بذلك، فراموا الباب فمنعهم الحسن، وابن الزبير، ومحمد بن طلحة، ومَرْوان، وسعيد بن العاص، ومن معهم مِنْ أبناء الصحابة،

---

(١) الطبري ٤/٣٨٦: أو النصارى.
(٢) وهذه القصة من البهتان العظيم.

واجتلدوا(١) فزجرهم عثمان وقال: « أنتم في حِلٍّ مِنْ نُصْرَتِي ». فأبَوا فَفَتَح الباب لمنعهم، فلما خرج ورآه المصريون رجعوا فركبهم هؤلاء، وأقسم عثمان علىٰ أصحابه ليدخُلُنّ فدخلوا فأغلق الباب دون المصريين، فقام رجلٌ من أسلم يقال له نيار بن عياض ـ وكان من الصحابة ـ فنادىٰ عثمان فبينا هو يناشده أنْ يعتزلهم إذْ رماه كثير بن الصلت الكندي بسهم فقتله.

فقالوا لعثمان عند ذلك: ادفع إلينا قاتله لنقتله به. قال: لم أكن لأقتل رجلاً نَصَرَني وأنتم تريدون قتلي. فلما رأوا ذلك ثاروا إلى الباب فلم يمنعهم أحدٌ منه والبابُ مغلق لايقدرون علىٰ الدخول منه فجاؤوا بنارٍ فأحرقوه والسقيفة التي على الباب وثار أهلُ الدار، وعثمان يُصَلِّي قد آفتتح (طه) فما شغله ما سمع ما يُخطىء وما يتتعتع حتى أتىٰ عليها، فلمّا فرغ جلس إلىٰ المصحف يقرأ فيه، وقرأ ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَٱخْشَوْهُم فَزَادَهُم إِيْماناً وَقَالُوا حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلوَكِيْلُ ﴾(٢) فقال لمن عنده بالدار: «إنّ رسول الله ﷺ قد عَهدَ عهداً فأنا صابرٌ عليه، ولم يحرقوا الباب إلاّ وهم يطلبون ما هو أعظم منه، فأحرّج(٣) علىٰ رجلٍ أنْ يستقتل(٤) أو يقاتل»، وقال للحسن: « إنّ أباك الآن لفي أمرٍ عظيمٍ مِنْ أمرك، فأقسمتُ عليك لما خرجتَ إليه ». فتقدموا فقاتلوا ولم يسمعوا قوله، فبرز المغيرة بن الأخنس بن شريق(٥) وكان قد تعجل من الحج في عصابة لينصروا عثمان وهو معه في الدار وارتجز يقول:

قَدْ عَلِمَتْ ذَاتُ القُرُونِ الميلِ   والحَلْي والأنامِلِ الطُّفُولِ
لَتَصْدُقَنَّ بَيْعَتِي خَلِيلي   بِصَارِمٍ ذي رَوْنَقٍ مَصْقُولِ
لا أَسْتَقِيلُ إذ أَقَلْتُ قِيلي(٦)

وخرج الحسن بن علي وهو يقول:

---

(١) اجتلدوا بالسيوف ونحوها : تضاربوا .

(٢) آل عمران : ١٧٣ .

(٣) في الأصل بالخاء المعجمة وهو غلط وهو بالحاء المهملة من التحريج . (م) .

(٤) أي : يشتد ويمعن في القتال .

(٥) هو المغيرة بن الأخنس بن شريق الثقفيّ ، حليف بني زهرة ، قتل يوم الدار وأبلىٰ يومئذ بلاءً حسناً .

(٦) في الطبري ٤/ ٣٨٩ : (إنْ) .

لَا دِيْنُهُمْ دِيْنِي وَلَا أَنَا مِنْهُمُ ... حَتَّىٰ أَسِيْرَ إِلَى طَمَارِ شَمَامِ [١]

وخرج محمد بن طلحة وهو يقول:

أَنَا ٱبْنُ مَنْ حَامَىٰ عَلَيهِ بِأُحُدْ ... وَرَدَّ أَحْزَاباً عَلَىٰ رَغْمِ مَعَدّ

وخرج سعيد بن العاص وهو يقول:

صَبَرْنَا غَدَاةَ الدَّارِ وَالمَوْتُ وَاقِفٌ [٢] ... بِأَسْيَافِنَا دُونَ ٱبْنِ أَرْوَىٰ نُضَارِبُ
وَكُنَّا غَدَاةَ الرَّوْعِ فِي الدَّارِ نُصْرَةً ... نُشَافِهُهم [٣] بِالضَّرْبِ والمَوْتُ نائب [٤]

وكان آخر مَنْ خرج عبد الله بن الزبير فكان يحدث عن عثمان بأخر ما كان عليه. وأقبل أبو هريرة والناس محجمون فقال: هذا يومٌ طاب فيه الضربُ، ونادىٰ: يا قوم مالي أدعوكم إلىٰ النجاة وتدعونني إلى النار. وبرز مروان وهو يقول:

قَدْ عَلِمَتْ ذَاتُ القُرُونِ المِيلِ ... وَالكَفِّ والأنامِلِ الطُّفُولِ
أَنِّي أَرُوعُ أَوَّلَ الرَّعِيلِ ... بِغَارةٍ [٥] مِثْلِ القَطَا الشُّلِيْلِ [٦]

فبرز إليه رجل من بني ليث يدعى النباع فضربه مَرْوان، وضرب هو مَرْوان علىٰ رقبته فأثبته وقطع أَحَدَ علباويه [٧] فعاش مروان بعد ذلك أوقص، وقام إليه عبيد بن رفاعة الزرقي ليذفف عليه فقامت فاطمة أمُّ إبراهيم بن عدي - وكانت أرضعت مروان وأرضعت له - فقالت: «إنْ كنتَ تريدُ قتله فقد قُتِل، وإنْ كنتَ تريدُ أنْ تلعبَ بلحمه

---

(١) طمار: المكان العالي من الجبل وغيره.
شمام: إسم جبل بالعالية.
(٢) في الطبري ٤/٣٨٩: واقب.
(٣) في المطبوعة: نشافقهم!
(٤) الطبري: والموت ثاقب.
(٥) الطبري ٤/٣٨٠: بفارةٍ - بفاء.
(٦) الطبري: قطا الشليل.
وفي الكتاب: بشين معجمة ولامين بينهما ياء مثناة من تحت ولم أر في معاني الشليل ما يستقيم عليه المعنىٰ والأنسب أنْ تكون بالسين المهملة وهو مجرى الماء في الوادي إذ القطا تقصده للشرب في مثل الغارة عليه. (م).
(٧) أي عَصَبا عنقه.

فهذا قبيح » فتركه، وادخلته بيتها، فعرف لها بنوه ذلك، واستعملوا ابنها إبراهيم بعد.
ونزل إلىٰ المغيرة بن الأخنس بن شريق رجلٌ فقتل المغيرة قال: فلما سمع الناس يذكرونه قال: إنا لله وإنا إليه راجعون.

فقال له عبد الرحمن بن عديس : مالك؟ فقال: رأيتُ فيما يرىٰ النائم هاتفاً يهتفُ فقال: بَشِّرْ قاتلَ المغيرة بن الأخنس بالنار فآبتليتُ به واقتحم الناس الدارَ مِن الدورِ التي حولها ودخلوا مِنْ دار عمرو بن حزم إلىٰ دار عثمان حتى ملؤها ولا يشعر مَنْ بالباب، وغلب الناس علىٰ عثمان وندبوا رجلاً يقتله، فانتدب له رجلٌ فدخل عليه البيت فقال: اخلعها وندعك. فقال: ويحك، والله ما كشفتُ امرأةً في جاهلية ولا إسلام، ولا تَغَنَّيْتُ، ولا تَمَنَّيْتُ، ولا وضعتُ يميني علىٰ عَوْرَتِي منذ بايعت رسول الله ﷺ، ولستُ خالعاً قميصاً كسانيه الله تعالى، [وأنا علىٰ مكاني] حتى يكرم الله أهل السعادة ويُهين أهل الشقاوة. فخرج عنه فقالوا: ما صنعت؟ فقال: والله لا ينجينا من الناس إلا قتله، ولا يحل لنا قتله.

فأدخلوا عليه رجلاً من بني ليث فقال : [ممن الرجل ؟ فقال : ليثي فقال] له: لست بصاحبي لأنَّ النبي ﷺ دعا لك أن تُحفظ يوم كذا وكذا ولن تُضَيَّع فرجع عنه وفارق القوم، ودخل عليه رجلٌ من قريش فقال له: إنَّ رسول الله ﷺ آستغفرَ لك يوم كذا وكذا فلن تُقَارِفَ دماً حراماً فرجع وفارق أصحابه. وجاء عبد الله بن سلام ينهاهم عن قتله فقال: « يا قوم لا تَسُلُّوا سيف الله فيكم فوالله إنْ سللتموه لا تغمدوه، ويلكم إن سلطانكم اليوم يقومُ بالدرة فإنْ قتلتموه لا يقوم إلاّ بالسيف، ويلكم إنّ مدينتكم محفوفة بالملائكة فإنْ قتلتموه لتتركنها، فقالوا: يا بن اليهودية ما أنت وهذا. فرجع عنهم.

وكان آخر مَنْ دخل عليه ممن رجع محمد بن أبي بكر فقال له عثمان : ويلك أعلىٰ الله تغضب؟ هل لي إليك جُرم إلا حقه أخذته منك؟ نأخذ محمد لحيته وقال: قد أخزاك الله يا نعثل(١) فقال: لست بنعثل ولكني عثمان وأمير المؤمنين. وكانوا يلقبون به عثمان. فقال محمد: ما أغنى عنك معاوية، وفلان وفلان. فقال عثمان: يا بن أخي

---

(١) في الأصل : (يا عثل) ـ وهو غلط ، وهو اسم رجل قبطي كان بالمدينة عظيم اللحية يشبّهون به عثمان رضي الله عنه لعظيم لحيته. أهـ.

فما كان أبوك ليقبض عليها. فقال محمد: لو رآك أبي تعمل هذه الأعمال أنكرها عليك، والذي أريد بك أشد من قبضي عليها. فقال عثمان: أستنصرُ الله عليك، واستعينُ به فتركه وخرج، وقيل: بل طعن جبينه بمشقص كان في يده. والأول أصح.

قال: فلما خرج محمد وعرفوا انكساره ثار قتيرة، وسودان بن حمران، والغافقي فضربه الغافقي بحديدة معه، وضرب المصحف برجله فاستدار المصحف واستقرّ بين يديه، وسالت عليه الدماء، وجاء سودان ليضربه فأكبّت عليه امرأته، واتّقت السيف بيدها فنفح أصابعها فأطنّ أصابع يدها وولّت فغمز أوراكها وقال: «إنها لكبيرة العجز»، وضرب عثمان فقتله.

وقيل الذي قتله كنانة بن بشر التجيبي وكان عثمان رأى النبي ﷺ تلك الليلة يقول له: «إنّك تُفْطِرُ الليلة عندنا». فلما قُتل سقط من دمه على قوله تعالى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ﴾[1] ودخل غِلمة لعثمان مع القوم لينصروه وكان عثمان قد اعتق مَنْ كفّ يده منهم، فلما ضربه سودان ضرب بعض الغلمان رقبة سودان فقتله، ووثب قتيرة على الغلام فقتله، وانتهبوا ما في البيت وخرجوا ثم أغلقوه على ثلاثة قتلى، فلما خرجوا وثب غلامٌ لعثمان على قتيرة فقتله، وثار القومُ فأخذوا ما وجدوا حتى أخذوا ما على النساء، وأخذ كلثوم التجيبي ملاءة من على نائلة فضربه غلامٌ لعثمان فقتله، وتنادَوا: «أدركوا بيتَ المال، ولا تُسْبَقُوا إليه». فسمع أصحابُ بيت المال كلامهم وليس فيه إلا غِرارَتَان فقالوا: النجاة فإنّ القوم إنما يحاولون الدنيا. فهربوا وأتوا بيت المال فانتهبوه، وماج الناس.

وقيل: إنهم ندموا على قتله، وأما عمرو بن الحمق فوثب على صدره وبه رمق فطعنه تِسْع طعنات قال: «فأما ثلاث منها فإني طعنتهنّ إياه لله تعالى، وأمّا ستٌّ فلِمَا كان في صدري عليه، وأرادوا قطع رأسه فوقعتْ نائلة عليه، وأمّ البنين فصِحْن وضربن الوجوه فقال ابن عديس: اتركوه. وأقبل عمير بن ضابىء فوثب عليه فكسر ضِلْعاً مِنْ أضلاعه، وقال: سجنتَ أبي حتى مات في السجن.

وكان قتله لثماني عشرة خلت من ذي الحجة سنة خمس وثلاثين يوم الجمعة،

---

(١) البقرة: ١٣٧.

وكانت خلافته اثنتي عشرة سنة إلاّ أثني عشر يوماً، وقيل: إلا ثمانية أيام، وقيل: بل كان قتله سنة ست وثلاثين لثماني عشرة خلت من ذي الحجة سنة ست وثلاثين، وقيل: بل قتل أيام التشريق وكان عمره اثنتين وثمانين سنة، وقيل: ثمانياً وثمانين سنة، وقيل: تسعين سنة، وقيل: خمساً وسبعين سنة، وقيل: ستاً وثمانين سنة[١].

ذكر الموضع الذي دفن فيه ومن صلى عليه

قيل: بقيَ عثمان ثلاثة أيام لا يُدْفن ثم إنّ حكيم بن حزام القرشي، وجبير بن مطعم كُلِّمَا عليه في أنْ يَأْذن في دفنه ففعل، فلما سمِع مِنْ قصده بذلك قعدوا له في الطريق بالحجارة، وخرج به ناسٌ يسير من أهله وغيرهم وفيهم الزبير، والحسن، وأبو

(١) قال الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية ٢١٦/٤ : ٢١٧ : «إنْ قال قائل: كيف وقع قَتْل عثمان رضي الله عنه بالمدينة وفيها جماعة من كبار الصحابة رضي الله عنهم؟ فجوابه من وجوه:

* أحدها: أنّ كثيراً منهم بل أكثرهم أو كلهم لم يكن يظنّ أن يبلغ الأمر إلى قتله فإنّ أولئك الأحزاب لم يكونوا يحاولون قتله عَيْناً بل طلبوا منه أحد أمورٍ ثلاثة: إمّا أن يعزل نفسه، أو يسلّم إليهم مروان بن الحكم أو يقتلوه فكانوا يرجون أنْ يسلّم إلى الناس مروان أو يعزل نفسه فيستريح من هذه الطائفة الشديدة.

وأما القتل فما كان يظن أحد أنه يقع ولا أنّ هؤلاء يجترءون عليه إلىٰ ما هذا حده حتى وقع ما وقع والله أعلم.

* الثاني: أنّ الصحابة مانعوا دونه أشد الممانعة ولكن لمّا وقع التضييق الشديد عزم عثمان على الناس أنْ يكفوّا أيديهم ويغمدوا أسلحتهم ففعلوا فتمكن أولئك مما أرادوا، ومع هذا ما ظنّ أحد من الناس أنه يُقْتَل بالكلية.

* الثالث أنّ هؤلاء الخوارج لَمّا اغتنموا غيبة كثير من أهل المدينة في أيام الحج ولم تقدم الجيوش من الآفاق للنصرة، بل لَمّا اقترب مجيئُهم انتهزوا فرصتهم - قبّحهم الله - وصنعوا ما صنعوا من الأمر العظيم.

* الرابع: أنّ هؤلاء الخوارج كانوا قريباً من ألفي مقاتل من الأبطال وربّما لم يكن في أهل المدينة هذه العُدَّة من المقاتلة لأنّ الناس كانوا في الثغور وفي الأقاليم في كل جهة ومع هذا كان كثير من الصحابة اعتزل هذه الفتنة ولزموا بيوتهم، ومَنْ كان يحضر منهم المسجد لا يجيء إلاّ ومعه السيف ويضعه على حبوته إذا احتبىٰ والخوارج محدقون بدار عثمان وربما لو أرادوا صرفهم عن الدار لَمّا أمكنهم ذلك ولكن كبار الصحابة قد بعثوا أولادهم إلى الدار يحاجون عن عثمان رضي الله عنه لكي تقدم الجيوش من الأمصار لنصرته فما فجيء الناس إلا وقد ظفر أولئك بالدار من خارجها وأحرقوا بابها وتسوروا عليه حتىٰ قتلوه.

وأمّا ما يذكره بعضُ الناس من أنّ بعض الصحابة أسلمه ورضي بقتله لا يصحّ عن أحدٍ من الصحابة أنه رضي بقتل عثمان بل كلهم كرهه ومقته وسبَّ مَنْ فعله ولكن بعضهم كان يودّ لو خلع نفسه من الأمر كعمّار بن ياسر ومحمد بن أبي بكر وعمرو بن الحمق وغيرهم». اهـ.

جهم بن حذيفة، ومَرْوان بين المغرب والعشاء فأتوا به حائطاً من حيطان المدينة يسمى حَشّ كوكب(١) وهو خارج البقيع فصلّىٰ عليه جبير بن مطعم، وقيل: حكيم بن حزام، وقيل: مروان، وجاء ناس من الأنصار ليمنعوا من الصلاة عليه ثم تركوهم خوفاً من الفتنة، وأرسل عليّ إلى من أراد أنْ يرجم سريره ممن جلس علىٰ الطريق لَمّا سمع بهم فمنعهم عنه، ودُفن في حش كوكب فلما ظهر معاوية بن أبي سفيان علىٰ الناس أمر بذلك الحائط فَهُدِم، وأُدخل في البقيع، وأمر الناس فدفنوا أمواتهم حول قبره حتىٰ آتصل الدفنُ بمقابر المسلمين. وقيل: إنما دفن بالبقيع مما يلي حش كوكب. وقيل: شهد جنازته علي، وطلحة، وزيد بن ثابت، وكعب بن مالك، وعامة مَنْ ثم مِن أصحابه قال: وقيل لم يغسل وكُفّن في ثيابه.

ذكر بعض سيرة عثمان

قال الحسن البصريّ: دخلتُ المسجد فإذا أنا بعثمان متكئاً علىٰ ردائه فأتاه سَقَّاءان يختصمان إليه فقضىٰ بينهما. وقال الشعبي: لم يمت عمر بن الخطاب حتى مَلّته قريش وقد كان حصرهم بالمدينة [فآمتنع عليهم] وقال: «أَخْوَفُ ما أخافُ علىٰ هذه الأمة آنتشاركم في البلاد»، فإنْ جاء الرجلُ منهم ليستأذنه في الغزو فيقول: «قد كان لك في غزوك مع رسول الله ﷺ ما يُبَلِّغُك؛ وخيرٌ لك مِنْ غزوك اليوم أنْ لا ترىٰ الدنيا ولا تراك». وكان يفعل هذا بالمهاجرين من قريش ولم يكن يفعله بغيرهم من أهل مكة، فلما وُلي عثمان خَلّىٰ عنهم فآنتشروا في البلاد وآنقطع إليهم الناس وكان أحب إليهم من عمر. قيل: وحج عثمان بالناس سنوات خلافته كلها. وحج بأزواج النبي ﷺ كما كان يصنع عمر، وكتب إلى الأمصار أن يوافيه العمال في الموسم ومن يشكومنهم، وأنْ يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر، وأنّه مع الضعيف علىٰ القَوِيّ ما دام مظلوماً، وقيل: كان أول مُنْكَر ظهر بالمدينة حين فاضت الدنيا طيران الحمام والرمي علىٰ الجلاهقات ـ وهي قوس البندق ـ، واستعمل عليها عثمان رجلاً من بني ليث سنة ثمان من خلافته فقصّ الطيور، وكسر الجلاهقات.

قيل: وسأل رجلٌ سعيد بن المسيب عن محمد بن أبي حذيفة ما دعاه إلىٰ

---

(١) حش كوكب: موضع إلى جانب بقيع الغرقد بالمدينة.

الخروج على عثمان؟ فقال: كان يتيماً في حِجْر عثمان وكان والي أيتام أهل بيته ومحتملاً كلهم فسأل عثمان العمل فقال: يا بنيّ لو كنتَ رضا لاستعملتك. قال: فأذنْ لي فأخرج فأطلب الرزق قال: اذهب حيثُ شئت. وجهَّزه مِنْ عنده، وحمله، وأعطاه، فلما وقع إلىٰ مصر كان فيمن أعان عليه حيث منعه الإمارة، قيل: وعمار بن ياسر كان بينه وبين عباس بن عتبة بن أبي لهب كلام فضربهما عثمان فأورث ذلك تعادياً بين أهل عمار وأهل عباس وكان تقاذفاً[1].

---

(١) روىٰ الطبري ٥/٩٩ عن سعيد بن المسيب أنّه كان بين عمار وعباس بن عتبة بن أبي لهب خلاف حمل عثمان على أن يؤدبهما عليه بالضرب .

قال محب الدين الخطيب في تحقيقه للعواصم (ص ٦٤ هـ ١) .

وهذا مما يفعله وليّ الأمر في مثل هذه الأحوال قبل عثمان وبعده وكما فعل عمر مثل ذلك لأمثال عمار ومَنْ هم خير من عمار لما له من حق الولاية على المسلمين ، ولما نَظّم السبأيون حركة الاشاعاتٰ وصاروا يرسلون الكتب من كل مصر إلى الأمصار الأخرىٰ بالأخبار الكاذبة فأشار الصحابة علىٰ عثمان بأنْ يبعث رجالاً ممن يثق بهم إلى الأمصار حتى يرجعوا إليه بحقيقة الحال تناسىٰ عثمان ما كان من عَمّار وأرسله إلى مصر ليكون موضع ثقته في كشف حالها فأبطأ عمار في مصر والتفّ به السبأيون ليستميلوه إليهم فتدارك عثمان وعامله على مصر هذا الأمر وجيء بعَمار إلى المدينة مكرماً وعاتبه لما قدم عليه ـ على ما رواه الحافظ ابن عساكر في تاريخ دمشق ٧/٤٢٩ ـ : « يا أبا اليقظان قذفت ابن أبي لهب أنْ قذفك وغضبتَ عليّ أنْ أخذتُ لك بحقك وله بحقه ، اللهم قد وهبتُ ما بيني وبين أمتي مِنْ مظلمة . . اللهم إني متقربٌ إليك بإقامة حدودك في كل أحد ولا أُبالي . . اخرج عنّي يا عمار . فخرج .

فكان إذا لقي العوام نضع عن نفسه انتفىٰ من ذلك وإذا لقي من يأمنه بذلك وأظهر النوم فلامه الناس وهجروه وكرهوه » .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في منهاج السنة (٣/١٩٢ : ١٩٣) :

« عثمان أفضل من كل تكلّم فيه ، هو أفضل من ابن مسعود ، وعَمّار ، وأبي ذَرّ ، ومن غيرهم من وجوهٍ كثيرة كما ثبت ذلك بالدلائل فليس جعل كلام المفضول قادحاً في الفاضل بأولىٰ من العكس .

وكذلك ما نقل من تكلم عمار في عثمان وقول الحسن فيه ـ أي في عمار ـ نقل أنّ عمار قال : « لقد كفر عثمان كفرة صلعاء » فانكر الحسن بن علي ذلك عليه ، وكذلك عليّ وقال له : يا عمار . أتكفر برب آمن به عثمان .

قال ابن تيمية : وقد تبين من ذلك أنّ الرجل المؤمن الذي هو وليّ الله قد يعتقد كفر الرجل المؤمن الذي هو وليّ لله ويكون مخطئاً في هذا الاعتقاد ولا يقدح هذا في إيمان واحد منهما ولايته كما ثبت في الصحيح أن اسيد بن حضير قال لسعد بن عبادة بحضرة النبي ﷺ (إنك منافق تجادل عن المنافقين).

كما قال عمر بن الخطاب لحاطب بن أبي بلتعة : (دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق) فقال رسول الله ﷺ : (إنّه قد شهد بدراً ، وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم) فعمر أفضل من عمار وعثمان أفضل من حاطب ومع هذا فكلاهما من أهل الجنة فكيف لا يكون =

قيل: سُئل سالم بن عبد الله عن محمد بن أبي بكر ما دعاه إلىٰ ركوب عثمان؟ قال: الغضب والطمع كان مِنَ الاسلام بمكان فغرّه أقوامٌ فطمع، وكانت له دالة فلزمه حق فأخذه عثمان من ظهره، فآجتمع هذا إلىٰ ذلك فصار مذمماً بعد أنْ كان محمداً، قيل: واستخف رجل بالعباس بن عبد المطلب فضربه عثمان فاستحسن منه ذلك، وقال: « أيفخِّمُ رسولُ الله ﷺ عَمَّه وأُرَخِّصُ في الاستخفاف به لقد خالف رسول الله ﷺ من فعل ذلك ورضي به »! قيل: وكان كعب بن ذي الحبكة[1] النهدي يلعب بالنارنجيات فبلغ عثمان فكتب إلىٰ الوليد أن يُوجعه ضرباً فعزَّره وأخبر الناس خبره وقرأ عليهم كتاب عثمان، وفيه: إنّه قد جَدّ بكم فجدوا، وإياكم والهزل» فغضب كعب وكان في الذين خرجوا عليه وكان سَيّره إلى دُنْباوَنْد[2] فقال في ذلك للوليد:

لَعَمْـرِي لَئِنْ طَردتَني مَـا إلىٰ الَّتِي	طَمِعْتَ بِهَـا مِنْ سَقْـطَتِي لَسَبِيْـلُ[3]
رَجَوْتُ رُجُوعِي يَا بن أرْوَىٰ وَرَجْعَتِي	إلىٰ الحقِّ دَهْـراً غَـال ذلـك غُـولُ
فـإنّ آغْتِـرَابِي فِي البِـلَادِ وَجَفْـوَتِي	وَشَـتْـمِي فِي ذَاتِ الإلَـهِ قَـلِيْـلُ
وَإِنّ دُعَـائِـي كُـلَّ يَـوْمٍ وَلَـيْـلَةٍ	عَلَيْـكَ بِـدُنْبـاوَنْـدِكُمْ لَـطَوِيْـلُ

قال: وأما ضابىء بن الحارث البرجمي فإنه استعار في زمن الوليد بن عقبة مِنْ

= عثمان وعمّار من أهل الجنة إنْ قال أحدهما للآخر ما قال:

مع أنّ طائفة من العلماء أنكروا أن يكون عمار قد قال ذلك . .

ثم قال شيخ الإسلام :

وفي الجملة فإذا قيل أنّ عثمان ضرب ابن مسعود أو عمّار فهذا لا يقدح في أحدٍ منهم فإنّا نشهد أنّ الثلاثة في الجنة وأنهم من أكابر أولياء الله المتقين وأنّ ولي الله قد يصدر عنه ما يستحق عليه العقوبة الشرعية فكيف بالتعزير . وقد ضرب عمر بن الخطاب أُبيّ بن كعب بالدرة لمّا رأى الناس يمشون خلفه وقال (هذا ذِلّة للتابع وفتنة للمتبوع) فإنْ كان عثمان أدّب هؤلاء فإمّا أنْ يكون عثمان مصيباً في تعزيرهم ويكون ذلك الذي عزروا عليه تابوا منه وكُفّر عنه بالتعزير وغيره من المصائب أو بحسناتهم العظيمة أو بغير ذلك وإما أنْ يقال كانوا مظلومين حَقّاً فالقول في عثمان كالقول فيهم وزيادة فإنه أفضل منهم وأحق بالمغفرة والرحمةً أ هـ .

(١) في الأصل : (الحنكة) وهو خطأ وصحته بحاء مهملة مضمومة وباء موحدة فكاف فهاء والحبكة هي أنْ ترخي من أثناء حجزتك من بين يديك لتحمل فيه الشيء ما كان . (م) .

(٢) دُنْباوَنْد : جبل بنواحي الريّ ذكر في دُبَاوند وهو أيضاً جبل بكرمان ذكر في دَمِيْذان .

(٣) في الأصل : (سبيل) صححناه من الطبري (م) .

قوم من الأنصار كلباً يدعىٰ قرحان يصيد الظباء فحبسه عنهم فآنتزعه الأنصاريون منه[١] قهراً فهجاهم وقال:

تَجَشَّمَ[٢] دُونِي وَفْدُ قرحانَ خطةً ... تَضِلُّ لَهَا الوَجْنَاءُ وَهْيَ حَسِيْرُ[٣]
فَبَاتُوا شِباعاً طَاعِمِيْن[٤] كأنّما ... حَبَاهُم[٥] بَيتِ المرزُبان أميرُ
فَكَلْبُكُمُ لَا تَتْرُكُوا فَهوَ أُمُّكُمْ ... فَإنَّ عُقُوقَ الأُمَّهَاتِ كبيرُ

فاستعدَوْا عليه عثمان فعزره وحبسه فما زال في السجن حتى مات فيه. وقال في الفتك معتذراً إلىٰ أصحابه:

هَمَمْتُ وَلَمْ أَفْعَلْ وَكِدْتُ وَلَيْتَنِي ... تركتُ علىٰ عُثْمَانَ تَبْكِي حَلَائِلُهُ[٦]
وَقَائِلَةٍ قَدْ مَاتَ فِي السِّجْنِ ضابىءٌ ... أَلَا مَنْ لَخصْمٍ لم يَجِدِ مَنْ يُحاوِلُه[٧]

فلذلك صار ابنه عمير سبئيًّا، قال: وأما كُمَيْل بن زياد، وعمير بن ضابىء فإنّهما سارا إلىٰ المدينة لقتل عثمان، فأما عمير فإنه نكل عنه؛ وأما كميل فإنه جسر وثاوره فوجأ عثمان وَجْهَه فوقع علىٰ إسته فقال: أوجعتني يا أمير المؤمنين قال: أولست بفاتك؟ قال: لا والله فقال عثمان: فآسْتَقِدْ منِّي وقال دونك. فعفا عنه. وبقيا إلىٰ أيام الحجاج فقتلهما، وسَيَرِد ذكر ذلك إنْ شاء الله تعالى.

قيل: وكان لعثمان علىٰ طلحة بن عبيد الله خمسون ألفاً فقال له يوماً: قد تهيأ مالِكُ فآقبضْه. قال: هولك معونة علىٰ مُرُوءتك، قيل: فلما حُصر عثمان قال عليّ لطلحة: أنشدك الله إلا رددتَ الناس عن عثمان. قال: لا والله حتى تعطيني بنو أمية الحق من أنفسها وكان عثمان يلقب ذا النورين لأنّه جمع بين آبنتي النبي ﷺ. قال الأصمعي:

---

(١) في النسخة الكبرى (منهم) وهو غلط. (م).
(٢) في الطبري (تحشم) ـ بالحاء.
(٣) انظر خزانة الآداب ٤ / ٨٠ وفيها تظل به.
(٤) في الطبري (ناعمين) بدل طاعمين.
(٥) في الأصل (جناهم) بالخاء وهو خطأ والصحيح حباهم بالحاء المهملة (م).
(٦) في الطبري ٤ / ٤٠٢ بدل الشطر الثاني من البيت (فعلت ووليت البكاء حلائله). والأنسب ما هنا لأنه لا اعتراض عليه (م).
(٧) في الطبري: (من يجادله)، ثم ذكر بعده بيتاً آخر.

استعمل عبد الله بن عامر قطن بن عبد عوف علىٰ كِرْمان فأقبل جيشٌ للمسلمين فمنعهم سيلٌ في وادٍ من العبور وخشى قطن الفوت فقال: « مَنْ عبر له ألف درهم ». فحملوا أنفسهم وعبروا وكانوا أربعة آلاف فأعطاهم أربعة آلاف درهم، فأبى ابن عامر أنْ يجري ذلك له وكتب إلىٰ عثمان فكتب عثمان أنْ أحسبها له فإنّه إنّما أعان بها في سبيل الله فلذلك سميت « الجوائز » لإجازة الوادي. وقال حسان بن زيد: سمعتُ عليًّا وهو يخطب الناس ويقول بأعلى صوته: « يا أيها الناس إنكم تُكْثِرُون فيَّ وفي عثمان فإنَّ مَثَلِي ومَثَله كما قال الله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَاناً عَلَىٰ سُرُرٍ مُتَقَابِلِين ﴾[1]. وقال أبو حميد الساعدي ـ وهو بدري وكان مجانباً لعثمان ـ فلما قتل عثمان قال: « والله ما أردنا قتله، اللهم لك عليّ أنْ لا أفعل كذا وكذا، ولا أضحك حتى ألقاك».

ذكر نَسَبِهِ وصِفَتِهِ وكُنْيَتِهِ

أما نسبه فهو عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف. وأمه: أروىٰ بنت كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس بن عبد مناف، وأمها: أم حكيم بنت عبد المطلب. وأمّا صِفته: فإنّه كان رجلاً ليس بالطويل، ولا بالقصير، حَسَن الوجه، رقيق البشرة، بوجهه أثَر جدري، كبير اللحية عظيمها أسمر اللون، أصلع، عظيم الكراديس، عظيم ما بين المنكبين، يصفّر لحيته، وقيل: كان كثير شعر الرأس، أروح الرجلين.

وأما كنيته: فإنه كان يكنى أبا عبد الله بولد جاءه مِنْ رقية بنت رسول الله ﷺ اسمه عبد الله توفي وعمره ست سنين نقره ديكٌ في عينه فمرض فمات في جمادى الأولى سنة أربع من الهجرة، وقيل: كان يكنى أبا عمرو.

ذِكْر وَقْت إسلامه وهجرته

قيل: كان إسلامه قديماً قبل دخول رسول الله ﷺ دار الأرقم، وكان ممن هاجر [من مكة] إلى الحبشة الهجرة الأولى والثانية ومعه فيهما أمرأته رُقَيّة بنت رسول الله ﷺ.

---

(١) الحجر: ٤٧.

ذكر أزواجه وأولاده

تزوج رقية؛ وأم كلثوم ابنتي رسول الله ﷺ فولدت له رقية : عبد الله، وتزوج فاختة بنت غزوان فولدت له: عبد الله الأصغر هلك، وتزوج أم عمرو بنت جندب بن عمرو بن حممة الدوسية ولدت له: عَمْراً، وخالداً، وأَبَاناً، وعُمر، ومَـرْيم، وتزوج فاطمة بنت الوليد بن المغيرة المخزومية ولدت له: الوليد، وسعيداً، وأم سعيد، وتزوج أم البنين بنت عُيينة بن حصن الفزارية ولدت له عبد الملك هلك، وتزوج رملة بنت شيبة بن ربيعة ولدت له: عائشة، وأم أبان، وأم عمرو، وتزوج نائلة بنت الفـرافصة الكلبية ولدت له: مريم بنت عثمان، وقيل: ولدت له أم البنين بنت عيينة عبد الملك، وعتبة، وولدت له نائلة عنبسة، وكان له منها أيضاً ابنة تدعى أم البنين، وكانت عند عبد الله بن يزيد بن أبي سفيان. وقتل عثمان وعنده رملة ابنة شيبة، ونائلة، وأم البنين ابنة عيينة، وفاختة بنت غزوان غير أنه طلق أم البنين وهو محصور، فهؤلاء أزواجه في الجاهلية والإسلام، وأولاده.

ذكر أسماء عماله في هذه السنة

كان عماله في هذه السنة: علىٰ مكة عبـد الله بن الحضرمي، وعلىٰ الـطائف القاسم بن ربيعة الثقفي، وعلى صنعاء يعلى بن مُنْية، وعلى الجَنَـد [1] عبد الله بن ربيعة، وعلى البصرة عبد الله بن عامر خرج منها، ولم يول عثمان عليها أحداً، وعلىٰ الشام معاوية بن أبي سفيان، وعامل معاوية علىٰ حِمْص عبد الرحمن بن خالد [بن الوليد]، وعلى قنسرين حبيب بن مسلمة الفهري، وعلىٰ الأردن أبو الأعور السلمي، وعلىٰ فلسطين علقمة بن حكيم الكناني، وعلىٰ البحر[2] عبد الله بن قيس الفزاريّ، وعلىٰ القضاء أبو الدرداء في قول بعضهم: والصحيح أنه كان قد توفي قبل قتل عثمان. وكان عامل عثمان علىٰ الكوفة أبو موسىٰ علىٰ الصلاة، وعلىٰ خَرَاج السواد جابر بن فلان المزني، وهو صاحب المسناة إلىٰ جانب الكـوفة، وسِمـاك الأنصاري، وعلى حربها القعقاع بن عمرو، وعلى قرقيسيا جرير بن عبد الله، وعلى أذربيجان الأشعث بن قيس الكنـديّ، وعلىٰ حُلْوان عتيبة بن النهـاس، وعلى ماه مـالك بن حبيب، وعلى همذان النسير، وعلىٰ الريّ سعيد بن قيس، وعلىٰ أصبهان السائب بن الأقرع، وعلىٰ

(١) الجَند : بلد باليمن .

(٢) المراد من قوله (على البحر) الأمير علىٰ الأسطول .

ماسبذان حبيش[1] وعلى بيت المال عقبة بن عامر، وكان علىٰ قضاء عثمان زيد بن ثابت.

(عتيبة بن النهاس) بالتاء فوقها نقطتان وبعدها ياء تحتها نقطتان وآخره باء موحدة، (عيينة بن حصن) بالياء تحتها نقطتان وياء ثانية وآخره نون تصغير عين [والنسير] بالنون والسين المهملة تصغير نسر.

ذكر الخبر عمن كان يصلي في مسجد النبي ﷺ حين حصر عثمان

قيل: وجاء ذلك اليوم الذي منع فيه عثمان الصلاة سعد القرظ وهو المؤذن إلىٰ علي بن أبي طالب فقال: من يصلي بالناس؟ فقال: ادع خالد بن زيد. فدعاه فصلىٰ بالناس، فهو أول يوم عرف أنّ اسم أبي أيوب الأنصاري خالد بن زيد فصلىٰ أياماً ثم صلىٰ بعد ذلك بالناس. وقيل: بل أمر عليّ سهل بن حنيف فصلىٰ بالناس مِنْ أول ذي الحجة إلىٰ يوم العيد، ثم صلىٰ عليّ بالناس العيد، ثم صلىٰ بهم حتىٰ قُتل عثمان؛ وقد تقدم غير ذلك في ذِكْر قتله.

ذكر ما قيل فيه من الشعر

قال حسان بن ثابت الأنصاري:

أَتـرَكْتُم غَـزْوَ الـدُّرُوبِ وَرَاءكُمْ ... وَغَـزَوْتُمُـونَـا عِنْـدَ قَبْـرِ مُحَمَّـدِ!
فَلَبِئْسَ هَـدْيُ المُسْلِمِيْنَ هَـدَيْتُمُ ... وَلَبِئْسَ أَمْـرُ الفَـاجِـرِ المُتَعَمِّـدِ!
إنْ تُقْدِمُوا نَجْعَلْ قِرَىٰ سَرَوَاتِكُمْ ... حَـوْلَ المَدِيْنَـةِ كُلَّ لَيْنٍ مِـذْوَدِ[2]
أَوْ تُـدْبِـرُوا فَلَبِئْسَ مَـا سَافَـرْتُم ... وَلَمِثْـلُ أَمْـرِ أميـركم لَم يَـرْشَـدِ
وَكَـأَنَّ أَصْحَـابَ النَّبِيِّ عَـشِيَّـةً ... بُـدْنٌ تُذَبَّـحُ عِنْدَ بَـابِ المَسْجِـدِ
أَبْكِي أَبَـا عَمْرٍو لحُسْنِ بَـلائِـهِ ... أَمْسَىٰ ضَجِيْعاً[3] في بَقِيْعِ الغَرْقَدِ[4]

---

(١) في الأصل (جنيس) بجيم فنون فياء مثناة فسين مهملة ، وفي نسخة (خنيس) بالخاء المعجمة والصواب (حبيش) بحاء مهملة فباء موحدة فياء مثناة فشين معجمة . (م) .

(٢) الديوان : كل لَذْنٍ .

(٣) في الطبري : أمسى مقيماً .

(٤) ديوان حسان ص ١٠١ .

وقال أيضاً:

إنْ تُمسِ دارُ ابنِ أروى اليومَ خاويةً[1] ... بابٌ صريعٌ وبابٌ مُحْرَقٌ خَرِبُ
فقدْ يُصادِفُ باغي الخيرِ حاجتَهُ ... فيها ويهوي إليها الذِّكْرُ والحَسَبُ
يا أيُّها النّاسُ أبدُوا ذاتَ أنفُسِكُمْ ... لاَ يَسْتَوِي الصِّدْقُ عِنْدَ اللهِ والكَذِبُ
قُومُوا بحَقِّ مَلِيْكِ الناسِ تَعْتَرِفُوا ... بِغارةٍ عُصَبٍ مِنْ خَلفِهَا عُصَبُ
فيهم حبيبٌ شِهَابُ الموتِ يَقْدُمُهُمْ ... مُسْتَلْئِماً قَدْ بَدَا فِي وَجْهِهِ الغَضَبُ[2]

وقال أيضاً :

مَنْ سَرَّهُ الموتُ صِرْفاً لاَ مِزَاجَ لَهُ ... فليأتِ مَأْسَدَةً فِي دَارِ عُثْمَانَا
مُسْتَشْعِرِي حَلَقِ الماذِيّ قَد شُفِعَتْ ... قبلَ المخاطِمِ بَيْضٌ زَانَ أبْدَانَا
صَبْراً فِدًى لَكُم أُمِّي وَمَا وَلَدَتْ ... قَدْ يَنْفعُ الصَّبْرُ في المَكْرُوهِ أحْيَانَا
لَقَدْ[3] رَضِيْنَا بأهْلِ الشَّأمِ نَافِرَةً ... وبالأمير وبالإخوانِ إخْوَانَا
إنِّي لَمِنْهُم وإنْ غابُوا وإنْ شَهِدُوا ... ما دُمْتُ حيًا وَمَا سُمِّيْتُ حَسَّانَا
لَتَسْمَعَنَّ وَشِيْكاً فِي دِيَارِهِمْ ... اللّهُ أكْبَرُ يَا ثَارَاتِ عُثْمَانَا
ضَحُّوا بأشْمَط عنوان السُّجُودِ بِهِ ... يُقَطِّعُ اللَّيْلَ تَسْبِيحاً وَقُرآنَا[4]

وقال أبو عمر بن عبد البر : وقد ذكر بعض هذه الأبيات وقد زاد فيها أهل الشام ولم أر لذكره وجهاً يعني ما فيها من ذكر علي وهو:

يَا لَيْتَ شِعْرِي وَلَيْتَ الطَّيْرَ تُخْبِرُني ... مَا كَانَ بَيْنَ عَلِيٍّ[5] وَابْن عَفَّانَا

وقال الوليد بن عقبة بن أبي مُعَيْط يحرض أخاه عمارة.

ألاَ إنّ خَيْرَ النَّاسِ بَعْدَ ثَلاَثَةٍ ... قَتِيلُ التُّجَيْبِيِّ الذي جَاءَ مِنْ مِصْرِ
فَإنْ يَكُ ظَنِّي بابْنِ أُمِّي صَادِقاً ... عُمَارَةَ لاَ يَطْلُبْ بِذَحْلٍ وَلاَ وِتْرِ

---

(١) الطبري : أروىٰ منه خاوية .
(٢) الديوان : ص ٢٢ .
(٣) الطبري : فقد .
(٤) الديوان : ص ٤٠٩ : ٤١٠ .
(٥) في الطبري : ما كان شان علي.

يَبِيْتُ أَوْتَارُ ابْنِ عَفَّانَ عِنْدَه مخيَّمةُ بين الخورْنَقِ وَالقَصْرِ

فأجابه الفضل بن العباس :

أَتَطْلُبُ ثَأراً لَسْتَ مِنْهُ وَلَالَهُ وَأَيْنَ ابْنُ ذَكْوَانَ الصَّفوريّ مِنْ عَمْرو[1]
كما اتَّصَلَتْ بِنْتُ الحِمَارِ بِأُمِّهَا وَتَنْسَى أَبَاهَا إِذْ تَسَامَىٰ أُولي الفَخْرِ
أَلَا إنَّ خَيْرَ النَّاسِ بَعْدَ ثَلاثَةٍ[2] وَصيّ النَّبيّ المصطفى عِنْدَ ذِي الذِّكْرِ
وَأَوَّلُ مَنْ صَلَّى وصِنْوَ نَبِيِّه وَأَوَّلُ مَنْ أَرْدَى الغُوَاةَ لَدَىٰ بَدْرِ
فَلَوْ رأتِ الأَنْصَارُ ظُلْمَ آبْنِ أُمِّكُم[3] ـ بِزَعْمِكُم ـ كَانُوا لَهُ حَاضِرِي النَّصْرِ[4]
كَفَىٰ ذَاكَ عَيْباً أَنْ يُشِيْرُوا بِقَتْلِهِ وَأَنْ يُسْلِمُوهُ لِلْأَحَابِيْشِ مِنْ مِصْرِ[5]

(قوله : وأين ابن ذكوان) فإنّ الوليد بن عقبة بن أبي معيط بن أبي عمرو اسمه ذكوان بن أمية بن عبد شمس، ويذكر جماعة من النسابين أنّ ذكوان مولى لأمية فتبناه وكناه أبا عمرو، ويعني أنّك مولى لست من بني أمية حتى تكون ممن يطلب بثأر عثمان، وقال بعضهم من الشعراء أيضاً غيرهم بعد مقتله فمن بين مادح وهاج ومن ناع وباك، ومن سار فرح، فممن مدحه حسان كما تقدم. وكعب بن مالك في آخرين غيرهم كذلك[6].

---

(١) كان أمية بن عبد شمس بن عبد مناف قد نافر عمه هاشماً إلى أحد الكهان فنفر هاشماً على أمية وكان الشرط أنّ مَنْ يحكم عليه الكاهن ينحر مائة من الإبل في مكة ويتركها عشر سنين فكان الحكم لهاشم على أمية فوفّى بالشرط وهجر مكة عشر سنين أقامها في صفورية من فلسطين .
قالوا : وقد وقع على يهودية من صفورية فجاءت بولد فادّعاه أمية وألحقه بنسبه واسمه ذكوان ـ يعني : أبا عَمْرو ـ وهو ولد أبي معيط جد الوليد بن عقبة (م) .

(٢) الطبري : بعد محمد .

(٣) الطبري : عمكم .

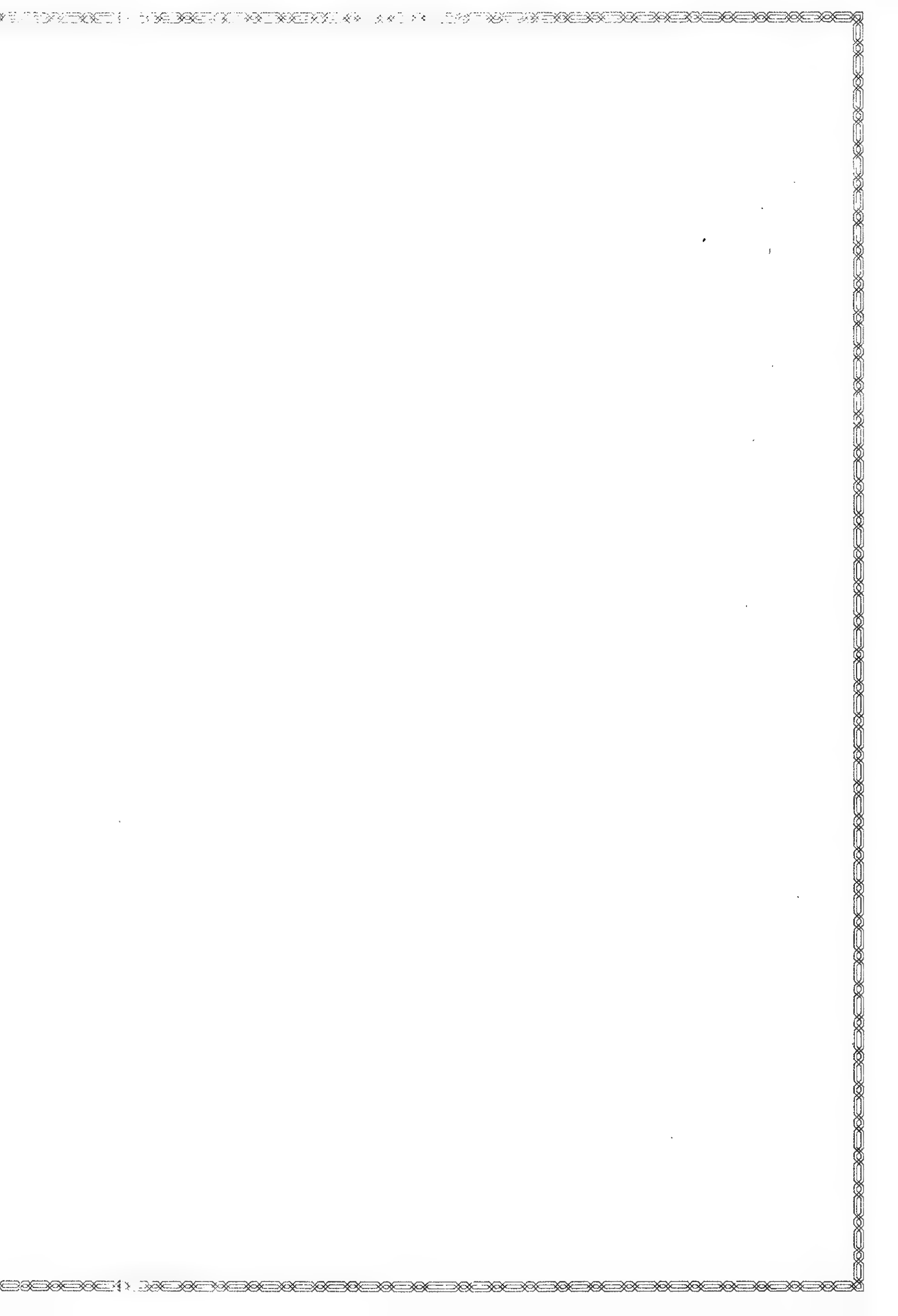
(٤) الطبري : لكانوا له من ظلمه حاضري النصر .

(٥) أنظر الأغاني ٤/١٧٤ (ط . ساسي) .

(٦) قال مجالد عن الشعبيّ : ما سمعت من مراثي عثمان أحسن من قول كعب بن مالك :

فكف يديه ثم أغلق بابه وايقن أن الله ليس بغافل
وقال لأهل الدار لا تقتلوهم عفا الله عن كل امرىء لم يقاتل
فكيف رأيت الله صب عليهم الـ ـعداوة والبغضاء بعد التواصل
وكيف رأيت الخير أدبر بعده عن الناس ادبار النعام الجوافل

خلافــة
عَـليّ بـن أبـي طالـب
رضـي الله عنه
وأرضـاه



ذكر بيعة أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب

وفي هذه السنة بويع أميرُ المؤمنين عليّ بن أبي طالب. وقد اختلفوا في كيفية بيعته فقيل: إنّه لما قتل عثمان اجتمع أصحابُ رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار وفيهم طلحة، والزبير فأتوا عَلِياً فقالوا له: « إنّه لا بد للناس من إمام ». قال: « لا حاجة لي في أمركم. فمن آخترتم رضيتُ به ».

فقالوا: « ما نختار غيرك »، وترددوا إليه مراراً، وقالوا له في آخر ذلك: « إننا لا نعلم أحداً أحق به منك، ولا أقدم سابقة، ولا أقرب قرابة من رسول الله ﷺ ». فقال: « لا تفعلوا فإنّي أكون وزيراً خيراً مِنْ أن أكون أميراً».

فقالوا: « والله ما نحن بفاعلين حتى نبايعك ». قال: « ففي المسجد، فإنّ بيعتي لا تكون خفية، ولا تكون إلا في المسجد » ـ وكان في بيته، وقيل في حائط لبني عمرو بن مبذول، ، فخرج وعليه إزار، وطاق، وعمامة خز، ونعلاه في يده متوكئاً على قوس، فبايعه الناس. وكان أول مَنْ بايعه من الناس: طلحة بن عبيد الله فنظر إليه حبيب بن ذؤيب فقال: إنا لله، أول مَنْ بدأ بالبيعة يد له شَلَّاء! لا يتم هذا الأمر [1]:

---

(١) قال ابن العربي في العواصم (١٤٤) :

وأما من قال يَدٌ شَلَّاء وأمرٌ لا يتم فذلك ظنٌّ من القائل أنّ طلحة أول من بايع ولم يكن كذلك أ هـ .

وقال : وأما قولهم يد شلاء لو صح فلا متعلق لهم فيه فإنّ يداً شُلّت في وقاية رسول الله ﷺ يتم لها كل أمر ويتوقىٰ بها من كل مكروه ، وقد تم الأمر على وجهه ، ونفذ القدر بعد ذلك على حكمه وجهل المبدع ذلك فاخترع ما هو حجة عليه .

قال محب الدين (١٤٤ ها ٢): وقد علمت أنّ أهل الكوفة يقولون أنّ الأشتر كان أول مَنْ بايع ولو كانت يد طلحة هي الأولى في البيعة لكانت أعظم بركة لأنها يد دافعت عن رسول الله ﷺ ويد الأشتر لا تزال رطبة من دم إمامه الشهيد المبشر بالجنة . أ هـ .

وبايعه الزبير. وقال لهما عليٌّ: « إنْ أحببتما أن تُبَايعاني، وإنْ أحببتما بايعتكما ». فقالا: « بل نبايعك ». وقالا بعد ذلك: « إنما فعلنا ذلك خشية عليّ على نفوسنا، وعَرِفْنَا أنه لا يبايعنا، وهربا إلى مكة بعد قتل عثمان بأربعة أشهر.

وبايعه الناس، وجاؤوا بسعد بن أبي وقاص فقال علي: بايعْ. فقال: لا حتى يبايعَ الناسُ، والله ما عليك مني بأس. فقال: خلُّوا سبيله [١].

وجاؤوا بابن عمر فقالوا: بايعْ. قال: لا، حتى يبايع الناسُ. قال: ائتني بكفيل. قال: لا أرىٰ كفيلاً. قال الأشتر: دعني أضرب عنقه. قال عليّ: دعوه، أنا كفيله إنّك ما علمت لسيء الخُلُق صغيراً وكبيراً [٢].

وبايعت الأنصارُ إلّا نضيراً يسيراً منهم حسان بن ثابت، وكعب بن مالك، ومسلمة بن مخلد، وأبو سعيد الخدري، ومحمد بن مسلمة، والنعمان بن بشير، وزيد بن ثابت، ورافع بن خديج، وفضالة بن عبيد، وكعب بن عجرة ـ وكانوا عثمانية، فأما حسان فكان شاعراً لا يبالي ما يصنع، وأما زيد بن ثابت فولّاه عثمان الديوان وبيت المال فلما حصر عثمان قال: « يا معشر الأنصار كونوا أنصار الله » ـ مرتين. فقال له أبو أيوب: ما تنصره إلا لأنه أكثر لك من العبدان [٣].

وأما كعب بن مالك فاستعمله على صدقة مزينة وترك له ما أخذ منهم، ولم يبايعه عبد الله بن سلام، وصهيب بن سنان، وسلمة بن سلامة بن وقش، وأسامة بن زيد، وقدامة بن مظعون، والمغيرة بن شعبة.

فأما النعمان بن بشير فإنه أخذ أصابع نائلة امرأة عثمان التي قطعت، وقميص عثمان الذي قتل فيه، وهرب به فلحق بالشام، فكان معاوية يعلق قميص عثمان وفيه الأصابع فإذا رأى ذلك أهل الشام ازدادوا غيظاً وجِدّاً في أمرهم، ثم رفعه، فإذا أحس

---

(١) ينبغي على القارىء أنْ يفهم هذه القصة وما يليها على أنّ علياً رضي الله عنه يعلم أنّ هؤلاء هم رؤوس الناس فإنْ بايعوا اجتمع الناس وزالت الفرقة والفتنة وإنْ لم يبايعوا فهو يخشى أنْ يجتمع حول كل منهم جماعة وهنا تقع الفتنة.

(٢) حاشا الله أن يتفوّه بها وإنّ هذا الكذب على صحابة الحبيب ﷺ لتقشعرّ منه الأبدان.

(٣) في الطبري: (أكثر لك من العضدان) وعلى نسختنا يكون جمع عبد وعليها المعنى ظاهر (م). وأنظر التعليق السابق.

بفتور يقول له عمرو بن العاص: « حرك لها حوارها تحن » فيعلوها.

وقد قيل: إنّ طلحة والزبير إنما بايعا علياً كُرْهاً. وقيل: لم يبايعه الزبير ولا صهيب، ولا سلمة بن سلامة بن وقش، وأسامة بن زيد.

فأمّا علىٰ قول مَنْ قال: إنّ طلحة، والزبير بايعا كرهاً فقال: إنّ عثمان لما قُتل بقيت المدينة خمسة أيام وأميرُها الغافقي بن حرب يلتمسون مَنْ يجيبهم إلى القيام بالأمر فلا يجدونه، ووجدوا طلحة في حائط له، ووجدوا سعداً، والزبير قد خرجا مِن المدينة، ووجدوا بني أمية قد هربوا إلاّ مَنْ لم يُطِق الهرب؛ وهرب سعيد، والوليد، ومَروان إلىٰ مكة، وتبعهم غيرهم.

فأتىٰ المصريون علياً فباعدهم، وأتىٰ الكوفيون الزبير فباعدهم، وأتىٰ المصريون طلحة فباعدهم، وكانوا مجتمعين علىٰ قتل عثمان مختلفين، فيمن يلي الخلافة فأرسلوا إلىٰ سعد يطلبونه فقال: « إنّي وابن عمر لا حاجة لنا فيها ». فأتوا ابن عمر فلم يُجبهم، فبقوا حَيَارَىٰ قال بعضهم لبعض: لئن رجع الناس إلىٰ أمصارهم بغير إمام لم نأمن الاختلاف وفساد الأمة فجمعوا أهل المدينة فقالوا لهم: « يا أهل المدينة أنتم أهل الشورى، وأنتم تعقدون الإمامة، وحكمكم جائزٌ علىٰ الأمة فآنظروا رجلاً تنصبونه ونحن لكم تَبَعٌ وقد أجّلناكم يومكم فوالله لئن لم تفرغوا لنقتلن غداً علياً، وطلحة، والزبير، وأناساً كثيراً ». فغشى الناسُ علياً فقالوا: « نبايعك فقد ترىٰ ما نزل بالإسلام وما ابتلينا به من بين القرى »(١).

فقال عليّ: «دعوني وآلتمسوا غيري، فإنّا مستقبلون أمراً له وجوه وله ألوان لا تقوم به القلوب ولا تثبت عليه العقول». فقالوا: ننشدك الله ألا ترىٰ ما نحن فيه! ألا ترىٰ الاسلام! ألا ترىٰ الفتنة! ألا تخاف الله! فقال: قد أجبتكم. وآعلموا أني إنْ أجبتكم ركبتُ بكم ما أعلم، وإنْ تركتموني فإنما أنا كأحدكم إلاّ أنّي مِنْ أسمعكم وأطوعكم لمن ولّيتموه».

---

(١) في الطبري: من ذوي القربى.

ثم افترقوا علىٰ ذلك، واتّعدوا الغد، وتشاور الناسُ فيما بينهم وقالوا: إنْ دخل طلحة، والزبير فقد استقامتْ. فبعث البصريون إلىٰ الزبير حكيم بن جبلة وقالوا: آحذرْ لا تُحَابِه ومعه نفر، فجاؤوا به يحذونه بالسيف فبايع، وبعثوا إلىٰ طلحة الأشتر ومعه نفر فأتى طلحة فقال: دعني أنظر ما يصنع الناس. فلم يدعه فجاء به يتله تلا عنيفاً، وصعد المنبر فبايع، وكان الزبير يقول: جاءني لِصٌّ مِنْ لُصُوص عبد القيس فبايعتُ والسيفُ علىٰ عُنُقِي، وأهل مصر فرحون فلما [١] اجتمع عليه أهل المدينة وقد خشع أهل الكوفة والبصرة أنْ كانوا اتباعاً لأهل مصر وازدادوا بذلك علىٰ طلحة، والزبير غيظاً.

ولما أصبحوا يوم البيعة ـ وهو يوم الجمعة ـ حضر الناس المسجد وجاء عليّ فصَعِد المنبر وقال: « أيها الناس عن ملأ وإذن إنّ هذا أمرَكم ليس لأحد فيه حق إلاّ مَنْ أمرتم، وقد افترقنا بالأمس علىٰ أمر وكنتُ كارهاً لأمركم فأبيتم إلاّ أنْ أكون عليكم. ألا وإنه ليس لي دونكم إلا مفاتيح مالكم معي، وليس لي أنْ آخذ دِرْهَماً دونكم، فإنْ شئتم قعدتُ لكم وإلاّ فلا آخذ [٢] علىٰ أحد.

فقالوا: نحن علىٰ ما فارقناك عليه بالأمس. فقال: اللهم أشهد.

ولما جاؤوا بطلحة ليبايع فقال: « إنّما أبايع كرهاً». فبايع، وكان به شَلَل فقال رجلٌ يعتاف: « إنّا لله وإنا إليه راجعون أول يَد بايعتْ يدٌ شَلاَّء لا يتم هذا الأمر ».

ثم جيء بالزبير فقال مثل ذلك وبايع، وفي الزبير اختلاف، ثم جيء بعده بقَوْمٍ كانوا قد تخلّفوا فقالوا: نبايع علىٰ إقامة كتاب الله في القريب، والبعيد، والعزيز، والذليل. فبايعهم، ثم قام العامة فبايعوا، وصار الأمر أمر أهل المدينة وكأنّهم كما كانوا فيه وتفرقوا إلى منازلهم.

وبويع يوم الجمعة لخمس بقين من ذي الحجة والناس يحسبون بيعته مِنْ قتل عثمان[٣]، وأول خطبة خطبها علىٰ حين استخلف حمد الله، وأثنىٰ عليه ثم قال: «إنّ الله أنزل كتاباً هادياً يُبَيِّنُ فيه الخيرَ والشرَّ فخذوا بالخير ودَعُوا الشرّ،

---

(١) في الطبري فرحون بما اجتمع وهي أوضح .

(٢) في الطبري : فلا أجد .

(٣) في المطبوعة : (قبل) وما أثبتناه من الطبري .

الفرائضُ أدوها إلى الله تعالى يؤدكم إلى الجنة، إنّ الله حَرَّمَ حُرُماتٍ غير مجهولة، وفَضّل حرمة المسلم علىٰ الحرم كلها، وشدّ بالإخلاص والتوحيد حقوق المسلمين، فالمسلم مَنْ سلم المسلمون مِنْ لسانه ويده إلا بالحق، لا يحل دم امرىء مسلم إلاّ بما يجب، بادروا أمر العامة وخاصة أحدكم الموت فإنّ الناس أمامكم وإنّ ما خلفكم الساعة تحدوكم، فخففوا تلحقوا فإنّما ينتظر بالناس أخراهم، اتقوا الله عباد الله في بلاده وعباده إنّكم مسؤولون حتىٰ عن البقاع والبهائم، أطيعوا الله [عز وجل] فلا تعصوه، وإذا رأيتم الخير فخذوا به وإذا رأيتم الشرّ فدَعُوه، واذكروا إذ أنتم قليلٌ مستضعفون في الأرض ».

ولما فرغ من الخطبة وهو على المنبر قالت السبئية:

خُذْهَا إلَيْكَ وَٱحْذَرَنْ أَبَا حسنْ ... إنّا نُمِرُّ الأمرَ إمْرَار الرَّسَنْ
صَوْلَةَ أَقْوَامٍ كَأَشْدَادِ[1] السُّفُنْ ... بِمَشْرَفِيَّاتٍ كغُدرَانِ اللّبَنْ
ونَطعن المُلْكَ بِلَيْنٍ كالشَّطَنْ ... حتىٰ يُمَرَّنَّ عَلَىٰ غَيْرِ عَنَنْ

فقال علي:

إنِّي عجزتُ عجزةً لا أعْتَذِرْ ... سَوْفَ أكيسُ بَعْدَها وأستمِرّ
أرْفَعُ مِنْ ذَيْلِيَ مَا كُنْتُ أجُرّ ... وَأجْمَعُ الأمْرَ الشَّتِيتَ المُنْتَشِرْ
إنْ لم يُشَاغِبْني العَجُولُ المُنْتَصِر ... ان تتركوني[2] والسِّلاحُ يُبْتَدَرْ

ورجع عليّ إلىٰ بيته فدخل عليه طلحة، والزبير في عَدَدٍ من الصحابة فقالوا: يا عليّ إنّا قد اشترطنا إقامة الحدود، وإنّ هؤلاء القوم قد اشتركوا في قَتْل هذا الرجل وأحلوا بأنفسهم.

فقال: يا إخوتاه إنّي لستُ أجهل ما تعلمون، ولكن كيف أصنعُ بقومٍ يملكوننا ولا نملكهم؟ ها هم هؤلاء قد ثارت معهم عبدانكم، وثابت إليهم أعرابُكم وهم خلاطكم[3] يسومونكم ما شاؤوا، فهل تَرَوْن موضعاً لقُدْرَةٍ علىٰ شيءٍ مما تريدون؟

---

(١) في الطبريّ بالسين المهملة .
(٢) في الطبري ٤/٤٣٧ : (أو يتركوني) .
(٣) في الطبري : وهم لكم .

قالوا: لا.

قال: «فلا والله أرىٰ إلاّ رأياً ترونه أبداً إلاّ أنْ يشاء الله، إنّ هذا الأمر أمر جاهلية، وإنّ لهؤلاء القوم مادّة وذلك أنّ الشيطان لم يشرع شريعة قط فيبرح الأرض آخذ بها أبداً إنّ الناس مِنْ هذا الأمر إنْ حرك علىٰ أمور: فرقة ترى ما ترون، وفرقة ترىٰ ما لا ترون، وفرقة لا ترىٰ هذا ولا هذا حتىٰ يهدأ الناس وتقع القلوب مواقعها وتؤخذ الحقوق فآهدأوا عني وانظروا ماذا يأتيكم ثم عودوا».

واشتدّ علىٰ قريش وحال بينهم وبين الخروج وتركها علىٰ حالها، وإنّما هَيّجه علىٰ ذلك هَرَب بني أمية وتفرّق القوم فبعضهم يقول ما قال عليّ وبعضهم يقول نقضي الذي علينا ولا نؤخره، والله إنّ علياً لمستغن برأيه وليكونن أشدّ علىٰ قريش من غيره، فسمع ذلك بخطبهم، وذكر فضلهم وحاجته إليهم، ونظره لهم، وقيامه دونهم، وأنّه ليس له مِنْ سلطانهم إلاّ ذاك والأجر من الله عليه، ونادى: «برئت الذمةُ مِنْ عبدٍ لا يرجعُ إلىٰ مولاه». فتذامرت السبئية والأعراب وقالوا: لنا غداً مثلها ولا نستطيع نحتج فيهم بشيء، وقال: «أيها الناس أخرجوا عنكم الأعراب فليلحقوا بمياههم». فأبت السبئية وأطاعهم الأعراب، فدخل عليّ بيته، ودخل عليه طلحة، والزبير، وعدّة مِنْ أصحاب ﷺ فقال: «دونكم ثأركم فاقتلوه». فقالوا: عتوا عن ذلك. فقال: هم والله بعد اليوم أعتىٰ. وقال:

وَلَـو أنّ قَـوْمِي طَـاوَعَتْني سُـرَاتُهُم　　　أمـرتُهم أمـراً يـديـخ الأعـاديـا

وقال طلحة: دعني آتي البصرة فلا يفجؤك إلاّ وأنا في خَيْل، وقال الزبير: دعني آتي الكوفة فلا يفجؤك إلاّ وأنا في خيل. فقال: حتىٰ أنظر في ذلك.

قيل: وقال ابن عباس: «أتيتُ علياً بعد قتل عثمان عند عودي مِنْ مكة فوجدتُ المغيرة بن شعبة مستخلياً به فخرج من عنده فقلت له: ما قال لك هذا؟

فقال: قال لي قَبْلَ مَرَّته هذه: «إنّ لك حق الطاعة والنصيحة وأنت بقية الناس، وإنّ الرأيَ اليوم تحرز به ما في غد، وإنّ الضياعَ اليوم يضيّع به ما في غد. أقرر معاوية، وابن عامر، وعمال عثمان علىٰ أعمالهم حتىٰ تأتيك بيعتهم ويسكن الناس، ثم آعزل مَنْ شئتَ». فأبيتُ عليه ذلك وقلت: لا أُداهِنُ في دِيني، ولا أعطي في الدنية أمري.

قال: « فإنْ كنتَ أبيتَ عليّ فآنزع مَنْ شئتَ وآتركْ معاوية فإنّ في معاوية جُرْأة وهو في أهل الشام يستمع منه ولك حجة في إثباته كان عمر بن الخطاب قد ولّاه الشام ».

فقلت: لا والله لا أستعمل معاوية يومين. ثم انصرف مِنْ عندي وأنا أعرف فيه أنه يود أنّي مخطىء. ثم عاد إليّ الآن فقال: إنّي أشرتُ عليك أوّل مرة بالذي أشرتُ وخالفتني فيه، ثم رأيتُ بعد ذلك أنْ تصنع الذي رأيتَ فتعزلهم وتستعين بمن تثق به فقد كفى الله وهم أهون شوكة مما كان. قال ابن عباس: فقلت لعلي: أمّا المرة الأولى فقد نَصَحَك، وأما المرة الثانية فقد غَشَك. قال: ولم نصحني؟..

قلت: «لأنّ معاوية وأصحابه أهلُ دنيا فمتىٰ ثَبّتّهم لا يُبالون منْ وَلِيَ هذا الأمر، ومتىٰ تعزلهم يقولون: أُخذ هذا الأمر بغير شورىٰ، وهو قَتَلَ صاحبنا، ويؤلّبون عليك فتنتقض عليك الشام وأهل العراق، مع أنّي لا آمن طلحة، والزبير أنْ يكرا عليك، وأنا أشيرُ عليك أنْ تثبت معاوية فإنْ بايع لك فعليّ أن أقلعه مِنْ منزله». وقال علي: واللهلا أعطيه إلّا السيف. ثم تمثل:

وَمَـا ميتـةٌ أنْ متُّهَـا غَيْـرَ عـاجـزٍ   بِعـارٍ إذا مـا غَـالَـتِ النَّفْسَ غـولُهـا

فقلت: يا أمير المؤمنين أنت رجلٌ شجاع لستَ صاحب رأي في الحرب، أما سمعت رسول الله ﷺ يقول: « الحرب خَدْعَة »[1]؟ فقال: بلى فقلت: أما والله لئن أطعتني لأصدرنّهم بعدَ ورد ولأتركنّهم ينظرون في دبر الأمور لا يعرفون ما كان وجهها في غير نقصان عليك ولا إثم لك. فقال: يا بن عباس لستُ مِنْ هَنَّاتِك ولا مِنْ هَنَّات معاوية في شيء.

قال ابن عباس: فقلت له: أطعني وآلحق بمالك بينبع وأغلق بابك عليك فإنّ العرب تجول جولة وتضطرب ولا تجد غيرك، فإنّك والله لئن نهضت مع هؤلاء اليوم ليُحَمِّلَنّك الناسُ دمَ عثمان غداً.

فأبىٰ عليّ. فقال: تشير عليَّ وأرىٰ فإذا عصيتُك فأطعني.

---

(١) متفق عليه أخرجه البخاري ٦/١١٠، ومسلم (١٧٣٩).

قال فقلت: أفعلْ إنّ أيسر مالك عندي الطاعة. فقال له علي: تسيرُ إلىٰ الشام فقد وَلَّيْتُكَها.

فقال ابن عباس: « ما هذا برأي. معاوية رجلٌ من بني أمية، وهو ابن عم عثمان وعامله، ولستُ آمَن أنْ يضرب عنقي بعثمان، وإنّ أدنىٰ ما هو صانع أنْ يحبسني فيتحكّم عليّ لقرابتي منك، وإنّ كل ما حمل عليك حمل عليّ ولكن آكْتُبْ إلىٰ معاوية فمنه وعده ». فقال: لا والله لا كان هذا أبداً.

وكان المغيرة يقول: « نصحته فلما لم يَقْبَلْ غششتُه ». وخرج فلحق بمكة.

ذكر عدة حوادث

وفي هذه السنة ـ أعني سنة خمس وثلاثين ـ سار قسطنطين بن هرقل في ألف مركب يريد أرض المسلمين قبل قَتْل عثمان فسلّط الله عليهم ريحاً عاصفاً فغرقهم، ونجا قسطنطين فأتىٰ صقلية، فصنعوا له حماماً فدخله فقتلوه فيه وقالوا: قتلتَ رجالنا.

هكذا قال أبو جعفر [١]. وهذا قسطنطين هو الذي هزمه المسلمون في غزوة الصواري سنة أحدى وثلاثين وقتله أهل صقلية في الحمام، وإنْ كانوا قد اختلفوا في السنة التي كانت الوقعة فيها فلولا قوله: (إن المراكب غرقتْ) لكانت هذه الحادثة هي تلك فإنها في قول بعضهم كانت سنة خمس وثلاثين.

وفي خلافة عثمان مات أوس بن خولي الانصاري [٢]. وفي خلافة عثمان أيضاً مات الجلاس بن سويد الأنصاري [٣] وكان من المنافقين علىٰ عهد رسول الله ﷺ

---

(١) تاريخ الطبري ٤/٤٤١.

(٢) هو أوس بن خوليّ بن عبدالله بن الحارث بن عبيد بن مالك الحبليّ الأنصاري الخزرجي السالمي، أبو ليلى. شهد بدراً وأحداً والمشاهد. آخى النبي ﷺ بينه وبين شجاع بن وهب الأسديّ. توفي بالمدينة في خلافة عثمان رضي الله عنه.

(٣) هو الجلاس بن سويد بن الصامت بن خالد بن عطية الأنصاري الأوسي. كان من المنافقين ثم تاب وحسنت توبته.

وحسنتْ توبته.

وفيها مات الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب (١) وهو الملقب بَبَّة (٢) وفي آخرها مات الحكم بن أبي العاص (٣) وهو والد مروان وعم عثمان. وفيها مات حبان بن منقذ الانصاري (٤) وهو والد يحيى بن حَبَّان ـ بفتح الحاء المهملة وبالباء الموحدة. وفيها مات عبد الله بن قيس بن خالد الانصاري (٥)، وقيل: بل قتل بأحد شهيداً.

وفي خلافته مات قطبة بن عامر الأنصاري (٦) وهو عَقَبِيّ بدريّ. وفي خلافته مات زيد بن خارجة بن زيد الأنصاري (٧) وهو الذي تكلم بعد موته.

وفيها قتل معبد بن العباس بن عبد المطلب (٨) بافريقية في آخر خلافة عثمان.

---

(١) هو الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطّلب القرشي الهاشمي. اسلم عند إسلام أبيه نوفل، واستعمله أبو بكر رضي الله عنه على مكة ثم انتقل إلى البصرة من المدينة.
قيل مات في آخر خلافة عمر وقيل في خلافة عثمان وهو ابن سبعين سنة.

(٢) في المطبوعة (يبة) بمثناة فموحدتين، وما أثبتناه في الإصابة ٢٩٢/١ (١٥٠٠)، أسد الغابة ٤١٩/١. ونَصَّ الحافظ على ضبطه فقال (بموحدتين الثانية ثقيلة).

(٣) هو الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف القرشي الأموي ـ أبو مَرْوان بن الحكم، يعد في أهل الحجاز، عم عثمان بن عفان. أسلم يوم الفتح. وتوفي في خلافة عثمان رضي الله عنه.

(٤) هو حَبَّان بن منقذ بن عمرو بن عطية بن خنساء بن مبذول الأنصاري الخزرجي المازنيّ.
له صحبة، وشهد أحداً وما بعدها. توفي في خلافة عثمان بن عفان رضي عنه.

(٥) هو عبدالله بن قيس بن خالد بن خَلْدَة بن الحارث الأنصاري النجاريّ. شهد بدراً، وقيل فيه شهد أحداً وقتل فيها. وقيل بل شهد المشاهد كلها وتوفي في خلافة عثمان رضي الله عنهما.

(٦) هو قطبة بن عامر بن حديدة بن عمرو الأنصاري الخزرجي السلمي، أبو زيد.
شهد العقبة الأولى والثانية، وبدراً وأحداً، والخندق، والمشاهد كلها. وتوفي في خلافة عثمان رضي الله عنه.

(٧) هو زيد بن خارجة بن زيد بن أبي زهير بن مالك بن امرؤ القيس الخزرجي الأنصاريّ الحارثيّ.

(٨) هو معبد بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم القرشي الهاشمي أبو العباس. ولد على عهد رسول الله ﷺ. قتل بإفريقية سنة ٣٥ هـ وكان غزاها مع عبدالله بن سعد بن أبي سرح.

وفيها مات معيقيب بن أبي فاطمة [١] وكان من مهاجرة الحبشة وكان على خاتم رسول الله ﷺ، وقيل: بل مات سنة أربعين في خلافة علي. وفيها مات مطيع بن الأسود العدوي [٢] وكان إسلامه يوم الفتح.

وفي خلافته مات نعيم بن مسعود الأشجعي [٣]، وقيل: بل قُتل في وقعة الجمل مع مجاشع بن مسعود. وفي خلافته مات عبد الله بن حذافة السهمي [٤] وهو بدري وكان فيه دعابة.

وفيها مات عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي [٥] والدُ عَمر الشاعر وكان قد جاء من اليمن لينصر عثمان لَمّا حُصر فسقط عن راحلته فمات.

وأبو رافع مولى رسول الله ﷺ [٦]، وقيل: مات في خلافة عليّ وهو أصح.

---

(١) هو معيقيب بن أبي فاطمة الدوسي، حليف آل سعيد بن العاص بن أمية.
أسلم قديماً بمكة، وهاجر إلى الحبشة الهجرة الثانية ثم هاجر إلى المدينة. استعمله عمر خازناً على بيت المال.
وهو الذي سقط من يده خاتم عثمان في بئر أريس ـ فيما قيل وقد حققنا هذه القصة في تحقيقنا على أحكام الخواتيم لابن رجب الحنبلي ـ طـ. دار الكتب العلمية ـ فلتراجع.
توفي آخر خلافة عثمان، وقيل سنة ٤٠.

(٢) هو مطيع بن الأسود بن حارثة بن نضلة بن عوف القرشي العدويّ. كان من المؤلفة قلوبهم، وحسن إسلامه ولم يدرك من عصاة قريش الإسلام فأسلم غيره. توفي بمكة، وقيل بالمدينة في خلافة عثمان رضي الله عنه.

(٣) هو نعيم بن مسعود بن عامر بن أنيس بن ثعلبة الأشجعي، الغطفاني.
أسلم في وقعة الخندق وهو الذي أوقع الخلف بين قريظة وغطفان وقريش يوم الخندق وخَذَّل بعضهم عن بعض في القصة المشهورة. توفي في خلافة عثمان، وقيل بل قتل يوم الجمل قبل قدوم علي البصرة مع مجاشع بن مسعود.

(٤) هو عبدالله بن حذافة بن قيس بن عدي القرشي السهميّ، أسلم قديماً، وصَحِبَ النبي ﷺ وهاجر إلى الحبشة الهجرة الثانية، أرسله النبي ﷺ إلى كسرىٰ. توفي بمصر في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه وأرضاه.

(٥) هو عبدالله بن أبي ربيعة بن المغيرة بن عبدالله بن القرشي المخزوميّ، أبو عبد الرحمن.

(٦) أبو رافع مولىٰ رسول الله ﷺ اختلف في اسمه فقيل: أسلم، وقيل: إبراهيم.
أسلم مع العباس بن عبد المطلب وكان مولىً له. توفي في خلافة عثمان، وقيل في خلافة علي ورجح المصنف في أسد الغابة (٦ / ١٠٧) الأخير.

وفي خلافته توفي أبو سبرة بن أبي رهم العامري [١] من عامر بن لؤي وهو بدريّ .

وفيها مات هاشم بن عتبة بن ربيعة خال معاوية أسلم يوم الفتح وكان صالحاً .
وفيها مات أبو الدرداء، وقيل: عاش بعده والأول أصح .

(١) هو أبو سبرة بن أبي رهم بن عبد العزى بن أبي قيس القرشي العامريّ .
قديم الإسلام ، هاجر الهجرتين معاً ، شهد بدراً وأحداً والخندق والمشاهد كلها .
توفي في خلافة عثمان رضي الله عنه .

ثم دخلت سنة ست وثلاثين

ذكر تفريق عليّ عماله وخِلاف معاوية

وفي هذه السنة فرّق عليّ عماله علىٰ الأمصار فبعث عثمان بن حنيف علىٰ البصرة، وعمارة بن شهاب علىٰ الكوفة وكان له هجرة، وعبيد الله بن عباس علىٰ اليمن، وقيس بن سعد علىٰ مصر، وسهل بن حنيف علىٰ الشام.

فأما سهل فإنه خرج حتىٰ إذا كان بتبوك لقيته خيل فقالوا: مَنْ أنت؟ قال: أمير.

قالوا: علىٰ أي شيء؟ قال: علىٰ الشام. قالوا: إنْ كان بعثك عثمان فحيَّهلاً بك، وإنْ كان بعثك غيره فآرجع. قال: أو ما سمعتم بالذي كان؟ قالوا: بلى. فرجع إلىٰ علي.

وأما قيس بن سعد فإنّه لما انتهى إلى أيْلَة لقيته خيلٌ فقالوا له: من أنت؟ قال: مِنْ فالَّة عثمان فأنا أطلب مَنْ آوي إليه فأنتصر به لله. قالوا: من أنت؟ قال: قيس بن سعد. قالوا: امض.

فمضىٰ حتىٰ دخل مصر فآفترَق أهلُ مصر فِرَقاً فِرْقة دخلت في الجماعة فكانوا معه، وفِرْقة اعتزلتْ بخَرْنَبا (١) وقالوا: إنْ قُتِلَ قَتَلَةَ عثمان فنحن معكم وإلاّ فنحن علىٰ جديلتنا حتى نحرك أو نصيب حاجتنا. وفرقة قالوا: نحن مع عليّ ما لم يُقِدْ من إخواننا وهم في ذلك مع الجماعة. وكتب قيس إلىٰ عليّ بذلك.

وأما عثمان بن حنيف فسار ولم يردّه أحدٌ عن دخول البصرة ولم يجد لابن عامر في ذلك رأياً ولا آستقلالاً بحرب، وافترق الناس بها فاتبعت فرقةٌ القومَ، ودخلت فرقةٌ

---

(١) في الطبري: خَرْبِتا.

ضبط المصنف (خرنبا) كما ترىٰ ولا يُعرف في مصر بلد بهذا الضبط وإنما هي (خربتا) بالخاء المفتوحة والعامة تكسرها فراء فباء موحدة فتاء مثناة من فوق بعدها ألف (م).

في الجماعة، وقالتْ فِرْقَةٌ: ننظر ما يصنع أهلُ المدينة فنصنع كما صنعوا. وأما عُمارة بن شهاب فلما بلغ « زُبَالة » [(١)] لقيه طليحة بن خُويلد وكان خرج يطلب بثأر عثمان وهو يقول: « لهفي علىٰ أمرٍ لم يسبقني ولم أُدْرِكْه ». وكان خروجه عند عَوْد القعقاع مِنْ إغاثة عثمان، فلما لقي عُمارة قال له: آرجع فإنّ القومَ لا يريدون بأميرهم بدلاً، فإنْ أبيتَ ضربت عنقك. فرجع عُمارة إلىٰ عليّ بالخبر.

وانطلق عبيد الله بن عباس إلىٰ اليمن فجمع يعلىٰ بن منية كل شيء مِن الجبَايَة وخرج به إلىٰ مكة فقدِمَهَا بالمال، ودخل عبيد الله اليمن ولما رجع سهل بن حنيفٍ مِن الشام وأتتْ عليّاً الأخبارُ دعا طلحة، والزبير فقال: « إنّ الأمر الذي كنتُ أحذركم قد وقع، وإنّ الذي قد وقع لا يدرك إلا بإماتته، وإنّها فتنة كالنار كلما سُعِّرَتْ آزدادتْ واستشارتْ ».

فقالا له: ائذن لنا نخرج من المدينة فإما أن نكاثر وإما أنْ تدعنا. فقال: سأمسك الأمر ما استمسك فإذا لم أجد بُدّاً فآخرُ الداء الكَيّ.

وكتب إلىٰ معاوية، وإلىٰ أبي موسىٰ فكتب إليه أبو موسىٰ بطاعة أهل الكوفة وبيعتهم وبين الكاره منهم للذي كان والراضي ومَنْ بين ذلك حتى كان عليّ كأنه يشاهدهم، وكان رسولُ عليّ إلىٰ أبي موسىٰ معبداً الأسلمي، وكان رسوله إلىٰ معاوية سبرة الجهني فقدِم عليه فلم يُجِبْه معاوية بشيء كلما تَنَجَّزَ [(٢)] جوابه لم يزد على قوله:

أدِمْ إدَامَةَ حِصْنٍ أو خُذا [(٣)] بِيَدِي ... حَرْباً ضَرُوساً تَشُبُّ الجَزْلَ والضِّرَمَا

في جَارِكُم وآبْنِكُم إذْ كان مَقْتَلَهُ ... شَنعاءَ شيَّبَتِ الأصداغَ واللِّمَمَا

أعْيا المَسودُ بها والسَّيِّدون فلَم ... يوجَدْ لنا غَيْرُنَا مولىً ولا حَكَما

حتى إذا كان الشهر الثالث مِنْ مقتل عثمان في صفر دعىٰ معاوية رجلاً مِنْ بني عبس يدعىٰ قبيصة فدفع إليه طُوماراً مختوماً عنوانه (من معاوية إلىٰ عليّ) وقال له:

---

(١) زُبَالة : موضع معروف بطريق مكة .

(٢) في الأصل (يتجز) بياء مثناة من تحت فتاء مثناة من فوق فجيم فزاي معجمة وهو خطأ ، والصحيح تنجز بتاء مثناة من فوق فنون فجيم فزاي (م) .

(٣) في الطبري (٤/٤٤٣) : (أو خذاً) .

(إذا دخلتَ المدينة فآقبضْ علىٰ أسفل الطومار) ثم أوصاه بما يقول، وأعاد رسول عليّ معه، فخرجا فقدِما المدينة في ربيع الأول [بغُرَّتِهِ] فدخلها العبسي كما أمره قد رفع الطومار، فتبعه الناس ينظرون إليه وعَلِموا أنَّ معاوية مُعْتَرِضٌ ودخل الرسول علىٰ عليّ فدفع إليه الطومار ففَضَّ ختمه فلم يجد فيه كتاباً فقال للرسول: ما وراءك؟ قال: آمنٌ أنا؟ قال: نعم. إنّ الرسولَ لا يُقْتَلُ.

قال: ورائي أنّي تركتُ قوماً لا يرضون إلا بالقَوْد. قال: ممن؟ قال: مِنْ خيط رقبتك. وتركتُ ستين ألف شيخ تبكي تحت قميص عثمان وهو منصوبٌ لهم قد ألبسوه منبر دمشق. قال: « أمِنّي يطلبون دم عثمان! ألستُ موتوراً كتِرَة عثمان؟! اللهم إنّي أبرأ إليك مِنْ دم عثمان. نجا والله قتلةُ عثمان إلا أنْ يشاء الله، فإنّه إذا أراد أمراً أصابه. أخرج. قال: وإنّي آمن. قال: وأنت آمن.

فخرج العبسيّ وصاحت السبئيةُ وقالت: هذا الكلبُ رسولُ الكلاب، اقتلوه.

فنادىٰ [1]: « يا آل مضر، يا آل قيس: الخيل والنبل أُقسم بالله ليردنها عليكم أربعة آلاف خصيّ، فانظروا كم الفحول والركاب ».

وتعاوَوا[2] عليه، فمنعته مُضر فجعلوا يقولون له: آسكتْ، فيقول: لا. والله لا يفلح هؤلاء أبداً أتاهم ما يوعَدون، لقد حلَّ بهم ما يجدون، انتهتْ والله أعمالُهم، وذهبتْ ريحُهم. فوالله ما أمسَوا حتىٰ عُرف الذل فيهم.

وأحب أهل المدينة أنْ يعلموا رأيَ عليّ في معاوية وقِتَاله أهل القبلة أيجسُر عليه أم ينكلُ عنه، وقد بلغهم أنّ ابنه الحسن دعاه إلىٰ القُعُود وتَرْك الناس فدسُّوا زياد بن حنظلة التميمي وكان منقطعاً إلى علي فجلس إليه ساعة فقال له عليّ: يا زياد تيَّسر.

فقال: لأي شيء؟ فقال: لغزو الشام. فقال زياد: الأناةُ والرفق أمثلُ وقال:

وَمَنْ لَمْ يُصَانِعْ فِي أُمُورٍ كَثِيْرَة ... يُضَرَّسْ بِأنيابٍ ويُوطَأ بمنسِمِ [3]

---

(١) المنادي رسول معاوية.

(٢) في المطبوعة (تعاونوا) ، وما أثبتناه من الطبري وهو الموافق للسياق.

(٣) البيت لزهير ، انظر ديوانه ٢٩ .

فتمثل عليّ وكأنه لا يريده:

مَتَىٰ تَجْمَعِ القَلْبَ الزَّكِيَّ(١) وصَـارِمـاً وَأَنْفـاً حَمِيّاً تَجْتَنِبْـكَ المَـظَالِمُ (٢)

فخرج زياد والناس ينتظرونه وقالوا: ما وراءك؟ فقال: السيفُ يا قوم. فعرفوا ما هو فاعل.

وآستأذنه طلحة، والزبير في العُمْرة فأذِنَ لهما فَلحِقَا بمكّة.

ودعا عليٌّ محمد بن الحنيفة فدفع إليه اللواء، وولى عبد الله بن عباس ميمنته، وعمر بن أبي سلمة ـ أو عَمْرو بن سفيان بن عبد الأسد ـ ولّاه ميسرته، ودعا أبا ليلىٰ بن عمر بن الجراح ابن أخي أبي عبيدة بن الجرّاح فجعله علىٰ مقدمته، واستخلف علىٰ المدينة قثم بن العباس، ولم يول ممن خرج علىٰ عثمان أحداً. وكتب إلى قيس بن سعد، وإلى عثمان بن حنيف، وإلىٰ أبي موسىٰ أنْ يندبوا الناس إلى أهل الشام، ودعا أهل المدينة إلىٰ قتالهم، وقال لهم: «إنّ في سلطان الله عصمةُ أمركم فأعطوه طاعتكم غير ملوية ولا مستكره بها، والله لَتَفْعَلُنَّ أو لينقُلَنَّ اللَّهُ عنكم سلطان الإسلام ثم لا ينقله إليكم أبداً حتى يأزر الأمرُ إليها.

انهضوا إلىٰ هؤلاء القوم الذين يريدون تفريق جماعتكم لعلّ اللهَ يُصْلِحُ بكم ما أفسد أهلُ للآفاقِ وتقضون الذي عليكم».

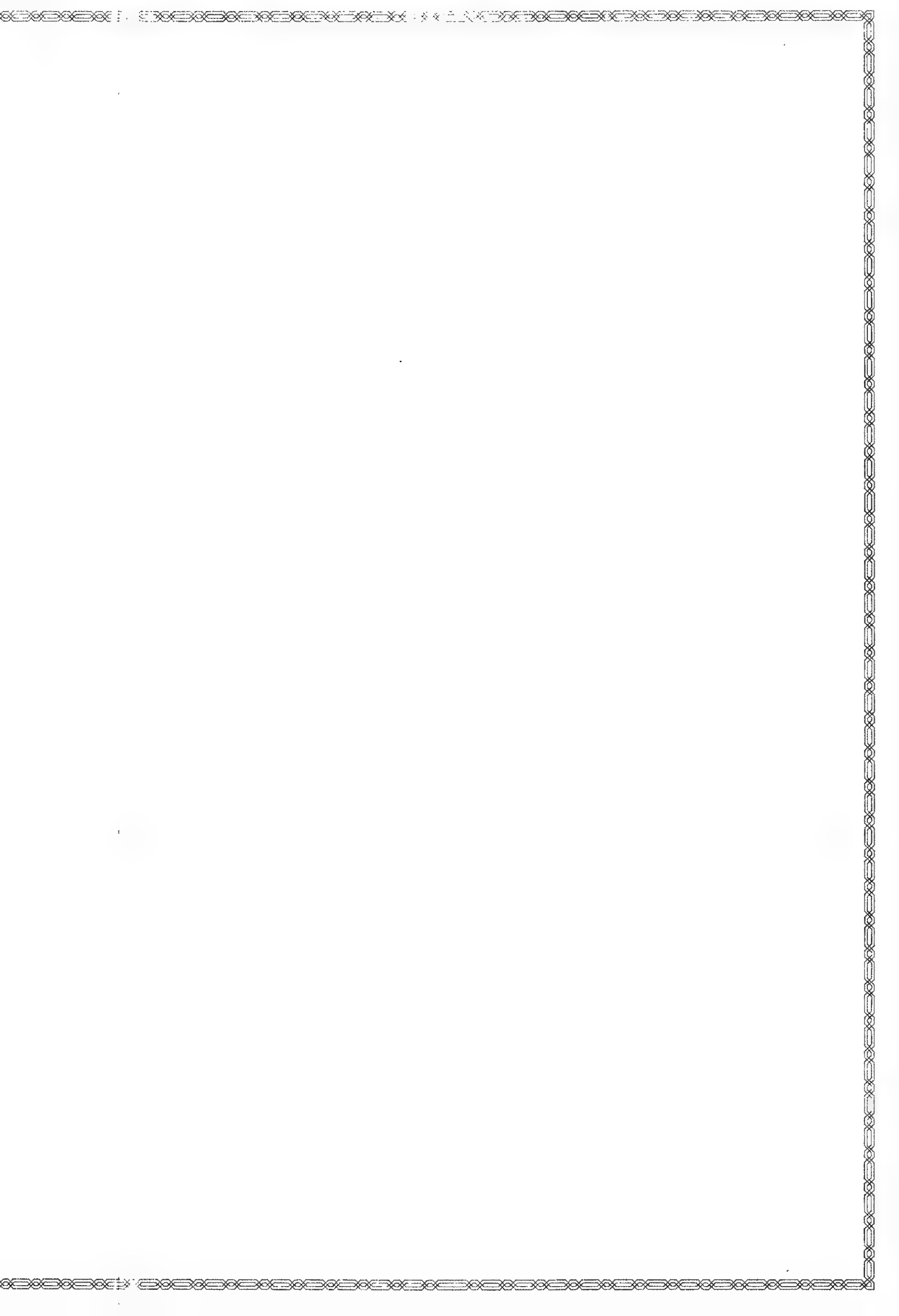
(خَرْنَبَا) بفتح الخاء المعجمة وسكون الراء وفتح النون وَالباء الموحدة وآخره ألف(٣).

---

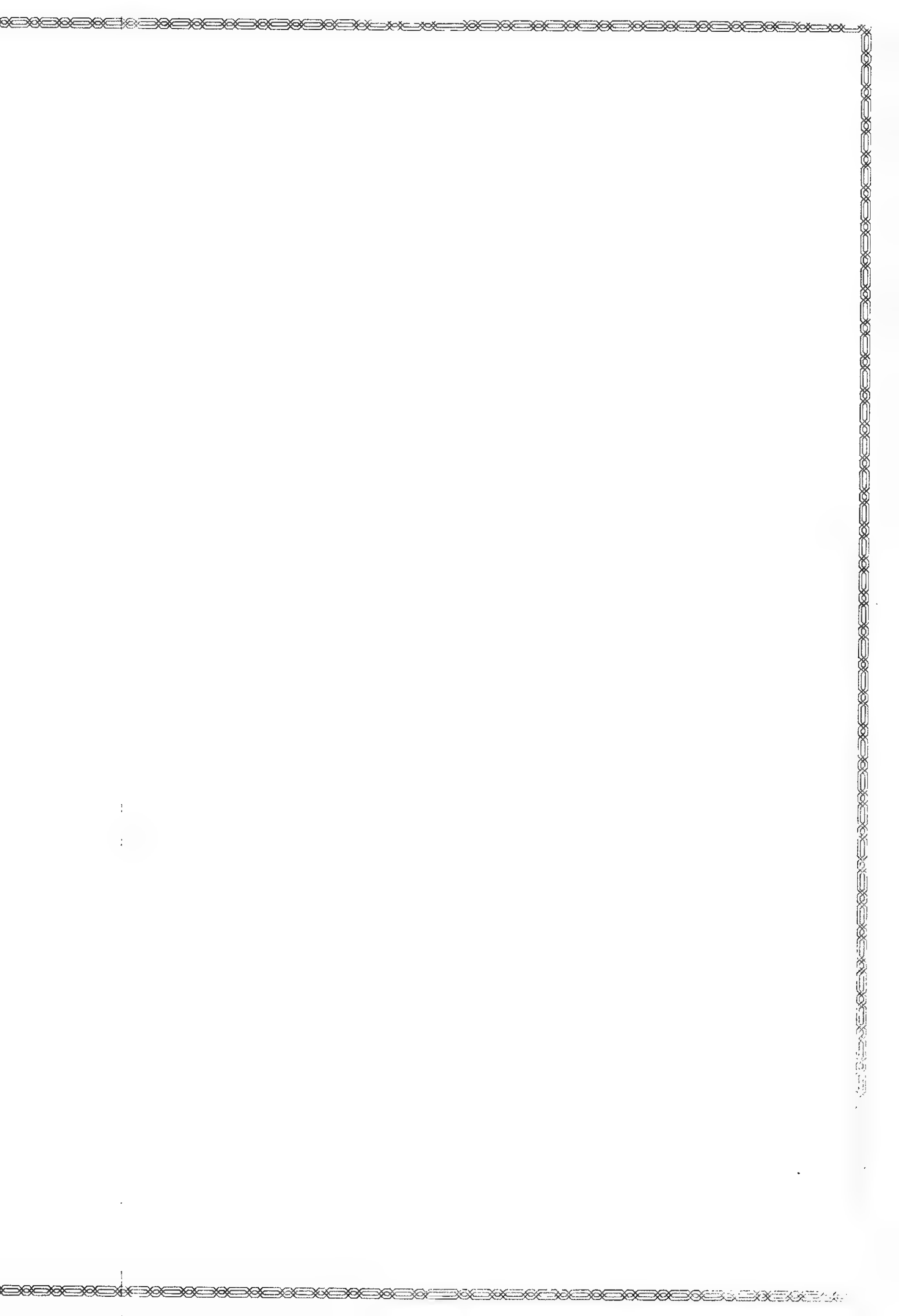
(١) في الديوان: الذكي ـ بالذال.

(٢) البيت لابن براقة الهمذاني ـ انظر الكامل ٢٧/١.

(٣) أنظر التعليق المتقدم صفحة ١٧٨ هامش ١ـ



وَقْعَـــةُ الجَمَـــل



ذكر ابتداء أمر وقعة الجمل

فبينما هم كذلك علىٰ التجهز لأهلِ الشام أتاهم الخبرُ عن طلحة، والزبير، وعائشة، وأهل مكة بنحوٍ آخر وأنّهم علىٰ الخِلاف، فأعلَم عليّ الناسَ ذلك وأنّ عائشة، وطلحة، والزبير قد سخطوا إمارته ودعوا الناس إلىٰ الإصلاح وقال لهم: سأصبرُ ما لم أَخَفْ علىٰ جماعتكم، وأكفُّ إنْ كَفُّوا، واقتصرُ علىٰ ما بلغني.

ثم أتاه أنّهم يريدون البصرة فسُّره ذلك وقال: « إنَّ الكوفة فيها رجالُ العرب وبيوتاتهم ».

فقال له ابن عباس: إنّ الذي سَرَّك مِنْ ذلك ليسؤني. إنّ الكوفة فسطاطٌ فيه مِنْ أعلام العرب، ولا يحملهم عِدّة القوم، ولا يزال فيها مَنْ يسمو إلىٰ أمرٍ لا يناله، فإذا كان كذلك شَغَّب علىٰ الذي قد نال ما يريد حتى تكسر حدته ». فقال علي: « إنّ الأمر ليشبه ما تقول». وتهيأ للخروج إليهم، فندب أهلَ المدينة للمسير معهم فتثاقلوا فبعث إلى عبد الله بن عمر كميلاً النخعي فجاء به فدعاه إلىٰ الخروج معه فقال: إنما أنا مِنْ أهل المدينة وقد دخلوا في هذا الأمر فدخلتُ معهم فإنْ يخرجوا أخرجْ معهم وإنْ يقعدوا أقعد.

قال: فاعطني كفيلاً. قال: لا أفعل.

فقال له عليّ: لولا ما أعرفُ مِنْ سوء خلقك صغيراً وكبيراً لأنكرتني، دعوه فأنا كفيله [١]. فرجع ابنُ عمر إلىٰ المدينة وهم يقولون: والله ما ندري كيف نصنع، إنّ الأمر لمشتبهٌ علينا ونحن مقيمون حتى يضيء لنا.

---

(١) قدمنا أن مثل هذا الكلام لا يمكن أن يتفوّه به أمير المؤمنين أبداً، وأنما هو باطل اختلقه القصاص والكذابون.

فخرج من تحت ليلته وأخبر أم كلثوم ابنة علي وهي زوجة عمر بالذي سَمِع وأنّه يخرج معتمراً مقيماً علىٰ طاعة عليّ ما خلا النهوض، فأصبح عليّ فقيل له: حدث الليلة حَدَثٌ هو أشدُّ مِنْ طلحة، والزبير ، وعائشة، ومعاوية.

قال: وما ذاك؟ قالوا: خرج ابن عمر إلى الشام. فأتىٰ السوق وأعدّ الظهر، والرجال، وأخذ لكل طريق طلاباً، وماج الناس، فسمعت أم كلثوم فأتت علياً فأخبرته الخبر فطابت نفسُه وقال: «آنصرفوا والله ما كَذَبَتْ ولا كذب. والله إنّه عندي ثقة». فآنصرفوا.

وكان سبب اجتماعهم بمكة أنّ عائشة كانت خرجتْ إليها ـ وعثمان محصور ـ، ثم خرجتْ من مكة تريد المدينة فلما كانت بِسَرِف[1] لقيها رجلٌ من أخوالها مِنْ بني ليث يقال له عبيد بن أبي سلمة وهو ابن أم كلاب فقالت له: مهيم ؟

قال: قُتِلَ عثمان وبقوا ثمانياً. قالت: ثم صنعوا ماذا؟ قال: اجتمعوا علىٰ بيعة عليّ. فقالت: ليت هذه انطبقت علىٰ هذه إنْ تَمَّ الأمرُ لصاحبك. رُدُّوني رُدّوني. فانصرفت إلى مكة وهي تقول: «قُتل والله عثمان مظلوماً، والله لأطلبن بدمه». فقال لها: ولم؟ والله إنّ أول من أمال حرفه لأنت، ولقد كنت تقولين: اقتلوا نعثلاً فقد كفر. قالت: إنهم استتابوه ثم قتلوه وقد قلت وقالوا وقولي الأخير خيرٌ مِنْ قولي الأول. فقال لها ابن أم كلاب:

فمنْـك البَـداءُ ومِنْـك الغِيَـرْ ومِنْـك الـرِّيَـاحُ ومِنْـك الـمَـطَرْ
وأنتِ أَمَـرْت بـقَـتْـل الإِمَـام وقُـلْـت لَـنَـا إنَّـهقدْ كَـفَـرْ
فَهَبْـنَـا أَطَعْـنَـاك في قَـتْـلِه وَقـاتِـلُهُ عِـنْـدَنَـا مَـنْ أَمَـرْ
ولَمْ يَسْقُطِ السقفُ مِنْ فَـوْقَـنـا ولـم يَنْكَسِـف شَمْسُنَـا وَالـقَـمَـرْ
وقَـدْ بَـايَـعَ الـنَـاسُ ذا تُـدْرَأ يُـزيـل الشَّبَـا ويـقيـم الـصَّغَـرْ
ويَـلْبِسُ لـلـحَـرْبِ أثْـوَابَـهَـا وَمَـا مَنْ وَفَى مِثْـل مَنْ قَـدْ غَـدَرْ

فانصرفتْ إلى مكة فقصدت الحِجْر فسترتْ فيه، فآجتمع الناسُ حولها فقالت:

---

(١) سَرِف ، موضع على ستة أميال من مكة من طريق مَرْو ، بنى به ﷺ بميمونة بنت الحارث وفيه ماتت .

« أيها الناسُ إنَّ الغوغاءَ من أهل الامصار، وأهل المياه، وعبيد أهل المدينة اجتمعوا علىٰ هذا الرجل المقتول ظلماً بالأمس ونقموا عليه استعمال مَنْ حَدَثَتْ سِنُّه، وقد استعمل أمثالهم قبله، ومواضع من الحمىٰ حماها لهم فتابعهم ونزع لهم عنها، فلما لم يجدوا حُجَّة ولا عُذْراً بادروا بالعُدوان فسفكوا الدم الحرام، واستحلوا البلد الحرام، والشهر الحرام، وأخذوا المال الحرام والله لأصبع من عثمان خيرٌ من طِبَاق الأرض أمثالهم، ووالله لو أنَّ الذي اعتدوا به عليه كان ذنباً لخلص منه كما يخلص الذهب مِنْ خبثه أو الثوب مِنْ دَرَنِه إذْ ماصوه كما يماص الثوب بالماء ـ أي يغسل ـ.

فقال عبد الله بن عامر الحضرمي ـ وكان عامل عثمان علىٰ مكة ـ: ها أنا أول طالب. فكان أول مجيب، وتبعه بنو أميّة علىٰ ذلك. وكانوا هربوا مِنْ المدينة بعد قتل عثمان إلىٰ مكة، ورفعوا رؤوسهم، وكان أول ما تكلموا بالحجاز، وتبعهم سعيد بن العاص، والوليد بن عقبة، وسائر بني أمية، وقدم عليهم عبد الله بن عامر من البصرة بمالٍ كثير، ويعلى بن أمية ـ وهو ابن منية ـ من اليمن ومعه ستمائة بعير وستمائة ألف درهم فأناخ بالأبطح، وقدم طلحة، والزبير من المدينة فلقيا عائشة فقالت: ما وراءكما؟

فقالا: إنّا تحملنا هراباً من المدينة مِنْ غوغاء، واعراب، وفارقنا قوماً حيارىٰ لا يعرفون حقاً ولا ينكرون باطلاً ولا يمنعون أنفسهم. فقالت: **انهضوا إلىٰ هذه الغوغاء. فقالوا: نأتي الشام.** فقال ابن عامر: قد كفاكم الشام معاوية، فأتوا البصرة فإنَّ لي بها صنائع، ولهم في طلحة هوىٰ.

قالوا: قبّحك الله، فوالله ما كنتَ بالمُسَالم ولا بالمحارب، فهلّا أقمتَ كما أقام معاوية فنكفىٰ بك ثم نأتي الكوفة فنسد علىٰ هؤلاء القوم المذاهب. فلم يجدوا عنده جواباً مقبولاً فآستقام الرأي علىٰ البصرة، وقالوا لها: نترك المدينة فإنا خرجنا فكان معنا من لا يطيق مَنْ بها من الغوغاء ونأتي بلداً مضيعاً سيحتجون علينا ببيعة عليّ فتنهضينهم كما أنهضت أهل مكة [ثم تقعدين] فإنْ أصلح اللّهُ الأمرَ كان الذي أردنا، وإلّا دفعنا بجهدنا حتىٰ يقضي اللّهُ ما أراد.

فأجابتهم إلىٰ ذلك، ودعوا عبد الله بن عمر ليسير معهم فأبىٰ وقال: أنا مِنْ أهل المدينة أفعلُ ما يفعلون. فتركوه، وكان أزواج النبي ﷺ معها علىٰ قصد المدينة فلّما تغير رأيها إلىٰ البصرة تركن ذلك وأجابتهم حفصة إلى المسير معهم فمنعها أخوها

عبد الله بن عمر، وجهزهم يعلى بن منية بستمائة بعير وستمائة ألف درهم، وجهزهم ابن عامر بمال كثير، ونادىٰ مناديها إنّ أم المؤمنين وطلحة، والزبير شاخِصُون إلى البصرة فَمَنْ أراد إعزاز الاسلام وقتال المحلين والطلب بثأر عثمان [ومَنْ] [1] ليس له مركب وجهاز فليأت.

فحملوا ستمائة علىٰ ستمائة بعير وساروا في ألف، وقيل: في تسعمائة من أهل المدينة ومكة، ولحقهم الناس فكانوا في ثلاثة آلاف رجل، وبعثت أم الفضل بنت الحارث أم عبد الله بن عباس رجلاً مِنْ جهينة يدعى ظفراً فاستأجرته علىٰ أنْ يأتي علياً بالخبر، فقدِم علىٰ عليّ بكتابها، وخرجت عائشة ومَنْ معها مِنْ مكة فلمّا خرجوا منها أذِن مَرْوان بن الحكم ثم جاء حتىٰ وقف علىٰ طلحة، والزبير فقال: «على أيكما أسلّم بالإمرة وأؤذن بالصلاة».

فقال عبد الله بن الزبير: علىٰ أبي عبد الله ـ يعني أباه الزبير ـ، وقال محمد بن طلحة علىٰ أبي محمد ـ يعني أباه طلحة ـ [2]، فأرسلتْ عائشة إلىٰ مروان وقالت له: أتريدُ أنْ تفرّق أمرنا! ليصلِّ بالناس ابن اختي ـ تعني عبد الله بن الزبير.

وقيل: بلْ صلىٰ بالناس عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد حتىٰ قُتل فكان معاذ بن عبيد [الله] يقول: والله لو ظفرنا لاقتتلنا، ما كان الزبير يترك طلحة والأمر، ولا كان طلحة يترك الزبير والأمر.

وتبعها أمهات المؤمنين إلى ذات عرق فبكوا علىٰ الاسلام فلم ير يوم كان أكثر باكياً وباكية من ذلك اليوم فكان يسمى « يوم النحيب »، فلما بلغوا ذات عرق لقي سعيد بن العاص مَرْوان بن الحكم وأصحابه بها فقال: أين تذهبون وتتركون ثأركم علىٰ أعجاز الإبل وراءكم؟ يعني عائشة، وطلحة، والزبير ؟ آقتلوهم ثم ارجعوا إلى منازلكم.

فقالوا: نسير فلعلنا نقتل قَتَلَة عثمان جميعاً. فخلا سعيد بطلحة، والزبير فقال: إنْ ظفرتما لمن تجعلان الأمر؟ أصدقاني. قالا: نجعله لأحدنا أينا آختاره الناس. قال: بل تجعلونه لولد عثمان، فإنكم خرجتم تطلبون بدمه.

---

(١) من زيادتنا.

(٢) وهذه ايضاً رواية زائفة باطلة.

فقالا: نَدَعُ شيوخ المهاجرين ونجعلها لأيتام! قال: فلا أراني أسعىٰ إلّا لإخراجها مِنْ بني عبد مناف. فرجع ورجع عبد الله بن خالد بن أسيد، وقال المغيرة بن شعبة: الرأي ما قال سعيد من كان ههنا من ثقيف فليرجع. فرجع ومضىٰ القومُ ومعهم أبان، والوليد ابنا عثمان، وأعطى يعلى بن منية عائشة جملاً اسمه « عسكر » اشتراه بثمانين ديناراً فركبته، وقيل: بل كان جملها لرجل من عرينة قال العرني: بينما أنا أسير على جمل إذ عرض لي راكب فقال: أتبيع جملك، قلت: نعم قال: بكم؟ قلت: بألف درهم. قال: أمجنون أنت؟ قلت: ولم؟ والله ما طلبتُ عليه أحداً إلا أدركته، ولا طلبني وأنا عليه أحدٌ إلا فُتُّه. قال: لو تعلم لمن نريده، إنما نريده لأم المؤمنين عائشة. فقلت: خذه بغير ثمن. قال: بل ترجع معنا إلى الرحل فنعطيك ناقة ودراهم قال: فرجعتُ معه فأعطوني ناقة مهرية وأربعمائة درهم أو ستمائة وقالوا لي: يا أخا عرينة هل لك دلالة بالطريق؟ قلت: أنا مِنْ أدلّ الناس.

قالوا: فسِرْ معنا. فسرتُ معهم فلا أمر علىٰ واد [ولا ماء] إلا سألوني عنه، حتى طَرَقْنا « الحوأب » (١) وهو ماء فنبحتنا كلابه فقالوا: أي ماء هذا؟ فقلت: هذا ماء الحوأب. فصرختْ عائشة بأعلىٰ صوتها [ثم ضربت عضد بعيرها فأناخته] وقالت: « إنّا لله وإنّا إليه راجعون إنّي لهية سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول وعنده نساؤه: « ليت شعري أيتكن تنبحها كلاب الحوأب». ثم ضربت عضد بعيرها فأناخته وقالت: «ردوني أنا والله صاحبة ماء الحوأب ».

فأناخوا حولها يوماً وليلة فقال لها عبد الله بن الزبير: « إنه كَذب » ولم يزل بها وهي تمتنع فقال لها: « النجاء النجاء قد أدرككم عليّ بن أبي طالب ».

فأرتحلوا نحو البصرة، فلما كانوا بفنائها لقيهم عمير بن عبد الله التميمي، وقال: يا أم المؤمنين أنشدك الله أن تقدمي اليوم على قوم لم تراسلي منهم أحداً فعجلي ابن عامر فإنّ له بها صنائع فليذهب إليهم ليلقوا الناس إلىٰ أن تقدمي ويسمعوا ما جئتم به. فأرسلته فأندسّ إلىٰ البصرة فأتىٰ القوم، وكتبتْ عائشةُ إلى رجال من أهل البصرة وإلى الأحنف بن قيس، وصبرة بن شيمان، وأمثالهم، وأقامت « بالحَفِيْر » (٢) تنتظر

---

(١) الحَوْأب : موضع في طريق البصرة محاذي البَقرة ، ماء من مياههم .

(٢) الحَفِيْر ، موضع بين مكة والمدينة .

الجواب.

ولما بلغ ذلك أهلُ البصرة دعا عثمان بن حنيف [١] عِمْران بن حُصَيْن وكان رجل عامة وألزمه بأبي الأسود الدُّؤَليّ وكان رجل خاصة وقال لهما: « آنطلقا إلىٰ هذه المرأة فآعلما عِلْمَهَا وعِلْم من معها ».

فخرجا فانتهيا إليها بالحفير فأذنت لهما فدخلا وسلَّما وقالا: « إنّ أميرنا بعثنا إليك لنسألك عن مسيرك فهل أنت مخبرتنا »؟

فقالت: والله ما مثلي يغطي لبنيه الخبر، إنَّ الغوغاء، ونُزّاع القبائل غزوا حرم رسول الله ﷺ وأحدثوا فيه وآووا المحدثين فاستوجبوا لعنة الله ولعنة رسول الله ﷺ مع ما نالوا مِنْ قَتْل إمام المسلمين بلا ترة ولا عذر فاستحلوا الدم الحرام، وسفكوه، وانتهبوا المال الحرام، وأحلُّوا البلد الحرام والشهر الحرام، فخرجتُ في المسلمين أعلمهم ما أتىٰ هؤلاء، وما الناس فيه وراءنا، وما ينبغي لهم من إصلاح هذه القصة وقرأت ﴿ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُم ﴾ [٢] الآية فهذا شأننا إلى معروف نأمركم به ومنكرٍ ننهاكم عنه.

فخرج عمران، وأبو الأسود مِن عندها فأتيا طلحة وقالا: ما أقدمك؟ فقال: الطلب بدم عثمان. فقالا: ألم تبايع علياً؟ فقال: بلىٰ والسيفُ علىٰ عُنُقِي وما أستقيل علياً البيعة إنْ هو لم يَحُلْ بيننا وبين قَتَلَة عثمان.

ثم أتيا الزبير فقالا له مثل قولهما لطلحة وقال لهما مثل قول طلحة فرجعا إلىٰ عثمان بن حنيف ونادىٰ مناديها بالرحيل فدخلا علىٰ عثمان فبادر أبو الاسود عمران فقال:

يَا بْنَ حُنَيْفٍ قَدْ أتيتَ فَآنْفِرِ ... وَطَاعِنِ القَوْمَ وجالِدْ وَآصْبِرِ
وَآبْرُزْ لَهُمْ مُسْتَلئِماً وَشَمِّرْ

---

(١) هو عثمان بن حنيف الأنصاري الأوسيّ ، أبو عمرو ، وقيل : أبو عبدالله شهد أحداً والمشاهد بعدها ، واستعمله عمر على مساحة سواد العراق ، واستعمله عليّ علىٰ البصرة إلى أن قدمها طلحة والزبير مع عائشة في وقعة الجمل .

(٢) النساء : ١١٤ .

فقال عثمان: « إنا لله وإنّا إليه راجعون دارت رحىٰ الإسلامِ وربِ الكعبة فانظروا بأي زَيَفَان[١] تَزِيْف » فقال عمران : أي والله لتعرُكُنَّكم عركاً[٢] طويلاً . فقال : فأشر عليّ يا عمران . فقال : آعتزلْ فإنّي قاعدٌ . قال عثمان : بل أمنعهم حتىٰ يأتيَ أمير المؤمنين .

فانصرف عمران إلىٰ بيته، وقام عثمان في أمره فأتاه هشام بن عامر فقال: إنّ هذا الأمر الذي تريده يسلم إلىٰ شَرٍّ مما تكره، إنّ هذا فَتْقٌ لا يُرْتَق، وصَدْعٌ لا يُجْبَر فآرفق بهم وسامحهم حتى يأتيَ أمرُ عليّ. فأبىٰ، ونادىٰ عثمان في النـاس، وأمَرَهُم بلبس السلاح فآجتمعوا إلى المسجد، وأمرهم بالتجهز، وأمر رجلاً دسه إلى الناس خَدِعاً كوفيّاً قيسيّاً فقام فقال: أيها الناس أنا قيس بن العقدية الحميسي إنّ هؤلاء القوم إنْ كانوا جاءوا خائفين فقد أتوا من بلدٍ يأمن فيه الطير، وإنْ كانوا جاءوا يطلبون بدم عثمان فما نحن بقَتَلَة عثمان فأطيعوني ورُدُّوهم مِنْ حيث جاءوا.

فقام الأسود بن سريع السعدي فقال: أو زعموا أنّا قتلة! إنما أتوا يستعينون بنا علىٰ قتلة عثمان منا ومن غيرنا.

فحصبه الناس، فعرف عثمان أنّ لهم بالبصرة ناصراً فكسره ذلك، فأقبلت عائشة فيمن معها حتىٰ آنتهوا إلىٰ المِرْبَد[٣] فدخلوا من أعلاه ووقفوا حتىٰ خرج عثمان فيمن معه، وخرج إليها مِنْ أهل البصرة مَنْ أراد أنْ يكون معها، فآجتمع القوم بالمِرْبَد فتكلّم طلحة وهو في ميمنة المربد وعثمان في ميسرته فأنصتوا له، فحمد الله، وأثنى عليه، وذكر عثمان وفَضْله، وما استحل منه، ودعا إلىٰ الطلب بدمه، وحثّهم عليه، وكذلك الزبير فقال مَنْ في ميمنة المِرْبد: صدقا وبرا. وقال مَنْ في ميسرته: فَجَرا وغَدَرا وأمرا بالباطل فقد بايعا علياً ثم جاءا يقولان، وتحاثى النـاس، وتحاصبـوا[٤]، وارهجوا، فتكلمت عائشة وكانت جـهورية الصوت فحمدت الله وقالت: كان الناسُ يتجنّون علىٰ عثمان، ويزرون علىٰ عُمّاله، ويأتوننا بالمدينة فيستشيروننا فيما يخبروننا عنهم، فننظر

---

(١) في الأصل بالراء والفاء بعدها ألف وتاء مثناة من فوق والصحيح بزاي في أوله ونون في آخره أي بأي جري تجري الأمور (م) .

(٢) يقال عرَكَ الجلد ونحوه عَرْكاً دَلَكه ، وعَرَكَ الشيء حَكّه حتىٰ محاه .

(٣) المِرْبَد : محبس الإبل ، وبه سمي مكان في البصرة لأنه كان سوق الإبل .

(٤) أي تضاربوا بالحصباء .

في ذلك فنجده بريئاً تقيّاً وفيّاً ونجدهم فجرة، غَدَرَة، كَذَبَة، وهم يحاولـون غير مـا يُظْهِرُون، فلما قووا كاثروه، واقتحموا عليه داره، واستحلوا الـدم الحرام، والشهـر الحرام، والبلد الحرام بلا ترة ولا عذر. ألا إنّ ممّا ينبغي لا ينبغي لكم غيره أَخْذ قَتَلَة عثمان، وإقامة كتاب الله. وقرَأَتْ ﴿ أَلَمْ تَرَ إلى الَّذِيْنَ أُوتُوا نَصِيْباً مِن الكِتَاب يُدْعَوْن إِلَىٰ كِتَابِ اللهِ ﴾ (١). الآية.

فآفترق أصحاب عثمان فِرقتين: فرقة قالت: صَدَقَتْ وبرّت، وقال الآخرون: كذبتم والله ما نعرف ما جئتم به.

فتحاثوا وتحاصبوا، فلمـا رأَتْ عائشـة ذلك آنحـدرتْ، وانحدر أهـلُ الميمنة مفارقين لعثمان بن حنيف حتىٰ وقفوا في المِرْبَد في موضع الدباغين، وبقي أصحابُ عثمان علىٰ حالهم، ومال بعضُهم إلىٰ عائشة وبقي بعضُهم مع عثمان، وأقبل جارية بن قدامة السعدي وقال: « يا أم المؤمنين: والله لَقَتْل عثمان أهون مِنْ خُرُوجِك مِنْ بيتك علىٰ هذا الجمل الملعون عرضة للسلاح. إنّه قد كان لكِ مِن الله ستر وحُرْمة، فهتكتِ سترك، وأبحتِ حرمتك. إنّه مَنْ رأىٰ قتالك يرىٰ قَتْلَك، لئن كنتِ أتيتِنا طائعةً فآرجِعي إلىٰ منزلِكِ، وإنْ كنتِ أتيتِنا مكرهة فآستعيني بالناس ».

وخرج غلامٌ شاب من بني سعد إلى طلحة، والزبير فقال: « أما أنت يا زبيـر فحواريّ رسول الله ﷺ، وأمّا أنت يا طلحة فَوَقَيْت رسولَ الله ﷺ بيدك، وأرىٰ أُمّكما معكما فهل جئتما بنسائكما؟ قالا: لا.

قال: « فما أنا منكم في شيء ». وآعْتَزَلَ وقال في ذلك:

صُنْتُمْ حَـلاَلكم وقُـدْتُم أُمّكُمْ (٢)	هَـذَا لَـعَـمْـرُكَ قِلَّةُ الإنْـصَـافِ
أُمِـرَتْ بجَرِّ ذُيُـولِهَا فِي بَيْتِهَـا	فَهَـوَتْ تَشُقُّ البِيْـدَ بـالإِيْجَـافِ
غَـرَضـاً يُقَـاتِـلُ دونَهـا أَبْنَاؤهـا	بـالنَّبْـلِ والـخَـطِّيِّ والأَسْيَـافِ
هُتِكَتْ بطَلْحَة والزُّبَيْرِ سُتُورُهَا	هَـذَا المُخبـرُ عَنْـهُم وَالـكَـافِي

---

(١) آل عمران: ٢٣.

(٢) الطبري ٤/٤٦٥: حلائلكم.

وأقبل حكيم بن جبلة العبدي وهو علىٰ الخيل فأنشب القتال (١) وأشرع أصحابُ عائشة رماحهم وأمسكوا ليُمْسك حكيم وأصحابه فلم ينتهِ وقاتلهم أصحاب عائشة كافُون يدفعون عن أنفسهم وحكيم يذمر خيله ويركبهم بها فٱقتتلوا علىٰ فم السكة، وأمرتْ عائشة أصحابها فتيامنوا إلىٰ مقبرة بني مازن وحجز الليل بينهم، ورجع عثمان إلىٰ القصر، وأتىٰ أصحاب عائشة إلىٰ ناحية دار الرزق وباتوا يتأهّبون، وبات الناسُ يأتونهم، واجتمعوا بساحة دار الرزق فغاداهم حكيم بن جبلة وهو يسبّ وبيده الرمح، فقال له رجلٌ من عبد القيس: مَنْ هذا الذي تسبه؟ قال: عائشة: قال: يا بن الخبيثة ألأم المؤمنين تقول هذا؟ فطعنه حكيم فقتله، ثم مرّ بٱمرأة وهو يسبّها أيضاً فقالت له: ألأم المؤمنين تقول هذا يا بن الخبيثة؟ فطعنها فقتلها، ثم سار فٱقتتلوا بدار الرزق قتالاً شديداً إلىٰ أنْ زال النهار، وكثر القتل في أصحاب عثمان بن حنيف، وكثر الجراح في الفريقين، فلما عضّتهم الحرب تنادَوا إلىٰ الصلح، وتوادعوا فكتبوا بينهم كتاباً (٢) على أنْ يبعثوا رسولاً إلىٰ المدينة يسأل أهلها فإنْ كان طلحة، والزبير أُكرها خرج عثمان بن حنيف عن البصرة وأخلاها لهما، وإنْ لم يكونا أُكرِهَا خرج طلحة، والزبير، وكتبوا بينهم كتاباً بذلك، وسار كعب بن سور إلىٰ أهل المدينة يسألهم، فلما قدمها اجتمع الناس إليه وكان يوم جمعة فقام وقال: «يا أهل المدينة أنا رسولُ أهل البصرة نسألكم هل أُكرِه طلحة والزبير علىٰ بيعة عليّ أم أتياها طائعين (٣)؟ فلم يجبه أحد إلا أسامة بن زيد فإنّه قام وقال: إنهما بايعا وهما مُكْرهان. فأمر به تمام بن العباس فواثبه سهل بن حنيف والناس، وثار صهيب، وأبو أيوب في عدة من أصحاب النبي ﷺ فيهم محمد بن مسلمة حين خافوا أنْ يُقتل أسامة فقالوا: «اللهم نعم». فتركوه، وأخذ

---

(١) يلاحظ القارىء أنّ أيّ من الطرفين جيش عائشة وعثمان بن حنيف لم يكونا ينويان قتالاً أبداً لكن السبئيّة لِمَا يرمون إليه من أغراض خبيثة في الكيد للمسلمين أنشبوا القتال لإشعال الفتنة وهي كما وصفها هشام بن عامر (فتقٌ لا يرتق وصدع لا يجبر).

(٢) عثمان بن حنيف ليس إلا أميراً للبصرة من قِبَل أمير المؤمنين عليّ وليس له أنْ يتصرّف مِنْ تِلْقَاء نفسه وكان عليه أن يرسل إلى أمير المؤمنين ليخبره بالخبر ويستأمره لا أن يكتب معهم كتاباً دون مشورة من عليّ رضي الله عنه.

(٣) هذا التصرف عجيب فإنّ علي هو أمير المؤمنين بيده تصريف الأمور وحلها، وليس لكعب هذا أنْ يذهب إلى المدينة ويعلو المنبر ويستفتي الناس من تلقاء نفسه أبداً.

صهيب أسامة بيده إلىٰ منزله وقال له: أما وَسِعَك ما وَسِعَنا من السكوت. قال: ما كنت أظنّ أنّ الأمر كما أرىٰ.

فرجع كعب وبلّغ علياً الخبر، فكتب إلىٰ عثمان يحجزه وقال: «والله ما أُكرها علىٰ فرقة، ولقد أُكرها علىٰ جَمَاعةٍ وفَضْل (١) فإنْ كانا يريدان الخلع فلا عُذْر لهما، وإنْ كانا يريدان غير ذلك نَظَرْنَا ونظروا.

فقدم الكتابُ علىٰ عثمان، وقدم كعب بن سور فأرسلوا إلى عثمان ليخرج فآحتجّ بالكتاب وقال: «هذا أمرٌ آخر غير ما كنا فيه». فجمع طلحة والزبير الرجال في ليلة مظلمة ذات رياح ومطر ثم قصدا المسجد فوافقا صلاة العشاء وكانوا يؤخرونها فأبطأ عثمان فقدَّما عبد الرحمن بن عتاب فشهر الزط والسيابجة السلاح ثم وضعوها فيهم فأقبلوا عليهم فآقتتلوا في المسجد فقتلوا وهم أربعون رجلاً فأدخلا الرجال علىٰ عثمان فأخرجوه إليهما فما وصل إليهما وقد بقي في وجه شعرة فاستعظما ذلك، وأرسلا إلىٰ عائشة يعلمانها الخبر، فأرسلت إليهما أن خَلُّوا سبيله.

وقيل: لَمّا أُخذ عثمان أرسلوا إلىٰ عائشة يستشيرونها في أمره فقالتْ: آقتلوه. فقالت لها امرأة: نشدتُك الله في عثمان وصحبته لرسول الله ﷺ فقالت لهم: احبسوه. فقال لهم مجاشع بن مسعود: آضربوه وانتفوا لحيته وحاجبيه وأشفار عينيه.

فضربوه أربعين سوطاً ونتفوا لحيته، وحاجبيه، وأشفار عينيه، وحبسوه ثم أطلقوه، وجعلوا علىٰ بيت المال عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق.

وقد قيل في إخراج عثمان غير ما تقدم، وذلك أنّ عائشة وطلحة والزبير لما قَدِموا البصرة كتبت عائشة إلى زيد بن صُوْحَان (٢): «من عائشة أم المؤمنين حبيبة رسول الله ﷺ إلىٰ ابنها الخالص زيد بن صوحان أما بعد: فإذا أتاك كتابي هذا فاقدم فآنصرنا فإنْ لم تفعل فخذِّل الناسَ عن عليّ.

---

(١) للإمام أن يُكرِهَ فرداً أو أفراداً على البيعة إنْ خشيَ وقوع الفتنة، فإنْ ثبت أنهما قد أُكرِهَا فهو من هذا الباب لا يضير أمير المؤمنين، ولا يثبت ذلك أبداً.

(٢) هو زيد بن صوحان بن الحارث بن الهجرس الربعي العبديّ، أبو سلمان، وقيل أبو عائشة.
أسلم في عهد النبي ﷺ.
ديناً فاضلاً، دَيِّناً، سيداً في قومه، وقتل يوم الجمل.

فكتب إليها « أمّا بعد: فأنا آبنك الخالص إنْ اعتزلتِ ورجعتِ إلىٰ بيتك وإلاّ فأنا أول مَنْ نابذك ».

وقال زيد: « رَحِمَ الله أم المؤمنين أُمِرَتْ أنْ تلزم بيتها وأُمِرْنَا أنْ نقاتل فتركت ما أُمِرَتْ به وأمرتنا به، وصنعتْ ما أُمرنا به ونهتنا عنه ».

وكان علىٰ البصرة عند قدومها « عثمان بن حنيف » فقال لهم: ما نَقِمْتم على صاحبكم؟

فقالوا: لم نره أولىٰ بها مِنَّا، وقد صنع ما نصع. قال: فإنّ الرجل أَمَّرَني فاكتب إليه فأعلمه ما جئتم به علىٰ أن أصليَ أنا بالناس حتىٰ يأتينا كتابَه.

فوقفوا عنه، فكتب فلم يلبث إلا يومين أو ثلاثة حتىٰ وثبوا علىٰ عثمان عند مدينة الرزق فظفروا به، وأرادوا قتله ثم خشوا غضب الأنصار فنتفوا شعر رأسه ولحيته وحاجبيه، وضربوه، وحبسوه، وقام طلحة والزبير خطيبَيْن فقالا: يا أهلَ البصرة توبة لَحِوْبَة [1] إنما أردنا أنْ نستعتب أميرَ المؤمنين عثمانَ فغلب السفهاء الحلماء فقتلوه.

فقال الناس لطلحة: يا أبا محمد قد كانت كُتُبُكَ تأتينا بغير هذا. فقال الزبير: هل جاءكم مني كتاب في شأنه؟ ثم ذكر قَتْل عثمان وأظهر عَيْب عليّ، فقام إليه رجلٌ مِنْ عبد القيس فقال: « أيها الرجل انصت حتىٰ نتكلم ». فأنصت فقال العبدي:

« يا معشر المهاجرين أنتم أول من أجاب رسول الله ﷺ فكان لكم بذلك فضل، ثم دخل الناس في الإسلام كما دخلتم، فلما تُوُفيَ رسول الله ﷺ بايعتم رجلاً منكم فرضينا وسلَّمنا ولم تستأمرونا في شيء من ذلك فجعل الله للمسلمين في إمارته بركة، ثم مات واستخلف عليكم رجلاً فلم تشاورونا في ذلك فرضينا وسلَّمنا، فلما توفي جعل أمركم إلىٰ ستة نفر فآخترتم عثمان وبايعتموه عَنْ غير مشورتنا، ثم أنكرتم منه شيئاً فقتلتموه عن غير مشورة منا، ثم بايعتم علي عن غير مشورة منا فما الذي نقمتم عليه فنقاتله؟ هل استأثر بفَيءٍ أو عمل بغير الحق أو أتىٰ شيئاً تُنكرونه فنكون معكم عليه وإلاّ فما هذا؟

---

(١) الحوبة : الإثم .

فهمُّوا بقَتْل ذلك الرجل فمنعته عشيرتُه، فلما كان الغد وثبوا عليه وعلىٰ مَنْ معه فقتلوا منهم سبعين، وبقي طلحة والزبير بعد أخذ عثمان بالبصرة ومعهم بيت المال والحرس والناس معهما ومَنْ لم يكن معهما آستتر [١]

وبلغ حُكيم بن جبلة ما صُنِعَ بعثمان بن حنيف فقال: لستُ أخاف الله إنْ لم أنصره. فجاء في جماعة من عبد القيس ومَنْ تبعه من ربيعة وتوجّه نحو دار الرزق وبها طعام أراد عبد الله بن الزبير أنْ يرزقه أصحابَه، فقال له عبد الله: مالك يا حكيم؟

قال: نريد أنْ نرتزق من هذا الطعام، وأن تُخَلُّوا عثمان فيقيم في دار الامارة علىٰ ما كتبتم بينكم حتىٰ يقدم عليّ، وأيم الله لو أجدُ أعواناً عليكم ما رضيتُ بهذه منكم حتى أقتلكم بمن قَتَلْتُم، ولقد أصبحتُم وإنّ دماءكم لنا لحلال بمن قتلتم، أما تخافون الله! بم تستحلون الدم الحرام؟ قال: بدم عثمان. قال: فالذين قتلتم هم قَتَلُوا عثمان! أما تخافون مقتَ الله؟

فقال له عبد الله: لا نرزقكم من هذا الطعام ولا نُخَلِّي سبيلَ عثمان حتىٰ تخلع علياً. فقال حكيم: اللهم إنّك حَكَمٌ عدل فآشهد. وقال لأصحابه: لستُ في شكٍّ مِنْ قتال هؤلاء القوم، فمن كان في شَكٍ فلينصرف. وتقدَّم فقاتلهم، فقال طلحة والزبير: «الحمد لله الذي جمع لنا ثأرنا مِن أهل البصرة، اللهم لا تُبْقِ منهم أحداً».

فآقتتلوا قتالاً شديداً ومع حُكَيم أربعة قواد، فكان حُكَيْم بحيال طلحة وذُرَيْح بحيال الزبير، وابن المحترش [٢] بحيال عبد الرحمن بن عتاب، وحرقوص بن زهير بحيال عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، فزحف طلحة لحكيم وهو في ثلاثمائة وجعل حكيم يضرب بالسيف ويقول:

أَضْـرِبُـهُـمْ بِـالـيَـابِسِ ضَـرْبَ غُـلَامٍ عَـابِس
مِـن الـحـيـاةِ آيِس فِـي الـغُـرُفَـاتِ نَـافِس

---

(١) إذا صحت هذه الرواية كانت على طلحة والزبير إذ لا حقّ لهما في ثار عثمان «وقد كانا عليه مع الناس وقد خرجا للطلب بدمه كما يقولان وليسا من أولياء الدم ولا لهما ولاية الأمر، وقد تمت بيعة علي رَضِيًا أو سَخِطَا فما شأنهما في هذا الأمر» (م).

(٢) الطبري: ابن المحرّش.

فضرب رجلٌ رِجْلَه فقطعها فحبا حتىٰ أخذها فرمىٰ بها صاحبه فصرعَـه، وأتاه فقتله، ثم آتكأ عليه وقال:

يَـا سَـاقي (١) لَـنْ تُـرَاعِـي   إنَّ   مَـعِـيَ   ذِرَاعِـي
أحْـمِـي   بِـهَـا   كُـرَاعِـي

وقال أيضاً:

لَـيْسَ عَـلـيَّ أنْ أَمُـوتَ عَـار   وَالـعَـارُ في الـنَّـاسِ هُـو الفـرار
وَالمَجْـدُ لا يفضـحـه الـدَّمَـار

فأتىٰ عليه رجلٌ وهو رثيث رأسه علىٰ آخر فقال: مالك يا حكيم؟

قال: قُتِلْتُ. قال: مَنْ قتلك؟. قال: وسادتي. فاحتمله وضمّه في سبعين مِنْ أصحابه، وتكلّم يومئذ حكيم وإنّه لقائم علىٰ رِجْلٍ واحدة وإنّ السيوف لتأخذهم وما يتتعتع ويقول: « إنّا خَلَّفْنَا هذان، وقد بايعا علياً وأعطياه الطاعـة ثم أقبلا مخـالِفَيْن محاربَيْن يطلبان بدم عثمان ففرقا بيننا ونحن أهل دارٍ وجوار! اللهم إنهمـا لم يُرِيْـدَا عثمان ».

فناداه مُنَادٍ: « يا خبيث جزعتَ مِنْ نصبك وأصحابك حين عَضَّك نَكَالُ الله بمَا ركبتم من الإمَام المظلوم، وفرّقتم الجماعة وأصبتم من الدماء، فَذُقْ وَبَالَ الله وآنتقامِهِ إلى كلام » (٢).

وقتلوا وقتل معهم قتله « يزيد بن الأسحم الحداني » فوجد حُكيم قتيلاً بين يزيد وأخيه كعب.

وقيل: قتله رجلٌ يقال له « ضخيم » وقُتل معه ابنه الأشرف، وأخوه الرعل بن جبلة.

ولما قُتِلَ حُكيم أرادوا قتل عثمان بن حنيف فقال لهم: أما إنّ سهلاً بالمدينة فإنْ

---

(١) الطبري: (يا فخذ).

(٢) عبارة الطبري ٤/٤٧١:

(. . . جزعت حين عضك نكالُ الله عز وجل إلى كلام من نصبك وأصحابك بما ركبتم من الإمام . .)

قتلتموني انتصر فخلوا سبيله، فقصد علياً، وقُتل ذَرِيح ومَنْ معه، وأفلت حُرْقُوص بن زهير في نفر من أصحابه فلجأوا إلىٰ قومهم، فنادىٰ منادي طلحة والزبير: مَنْ كان فيهم أحدٌ ممن غزا المدينة فليأتنا بهم. فجيء بهم فقُتِلُوا ولم ينج منهم إلاّ حُرْقوص بن زهير فإنّ عشيرته بني سعد منعوه ـ وكان منهم ـ فنالهم من ذلك أمرٌ شديد وضربوا فيه أجلاً وخشنوا صدور بني سعد وكانوا عثمانية فاعتزلوا، وغضبتْ عبدُ القيس حين غضبت سعد لمن قُتِلَ منهم بعد الوقعة ومن كان هرب إليهم إلىٰ ما هم عليه مِنْ لزوم الطاعة لعليّ، فأمر طلحة والزبير للناس بأعطياتهم وأرزاقهم وفَضَّلا أهل السمع والطاعة فخرجت عبدُ القيس وكثيرٌ مِنْ بكر بن وائل حين منعوهم الفُضُول فبادروهم إلىٰ بيت المال، وأكب عليهم الناس فأصابوا منهم، وخرجوا حتىٰ نزلوا علىٰ طريق عليّ، وأقام طلحة والزبير وليس معهما ثار إلا حرقوص بن زهير وكتبوا إلى أهل الشام بما صنعوا وصاروا إليه.

وكتبت عائشة إلى أهل الكوفة بما كان منهم وتأمرهم أنْ يُثَبِّطُوا الناس عن عليّ وتحثهم علىٰ طلب قتلة عثمان، وكتبت إلىٰ أهل اليمامة وإلىٰ أهل المدينة بما كان منهم أيضاً، وسيَّرتَ الكتبَ[١]. وكانت هذه الوقعة لخمس ليال بقين من شهر ربيع الآخر سنة ست وثلاثين.

وبايع أهلُ البصرة طلحة والزبير فلما بايعوهما قال الزبير: «إلا ألف فارس أسيرُ بهم إلىٰ عليّ أقتله بياتاً أو صباحاً قبل أنْ يَصِلَ إلينا». فلم يُجِبْه أحدٌ فقال: «إنّ هذه لَلْفِتنة التي كنا نُحَدَّثُ عنها». فقال له مولاه: «أتسميها فتنة وتقاتِلُ فيها»؟

قال: ويلك إنّا نُبَصَّر ولا تبصر[٢]! ما كان أمرٌ قط إلاّ وأنا أعلم موضع قدمي فيه غير هذا الأمر فإنّي لا أدري أمقبلٌ أنا فيه أم مدبر؟

وقال علقمة بن وَقَّاص الليثي: لما خرج طلحة والزبير وعائشة رأيتُ طلحة وأحب المجالس إليه أخلاها وهو ضارب بلحيته علىٰ صدره[٣] فقلت: يا أبا محمد أرى أحبَّ المجالس إليك أخلاها وأنت ضاربٌ بلحيتك علىٰ صدرك[٤]، إنْ كرهتَ شيئاً

---

(١) انظر نصّ هذه الرسالة في تاريخ الطبري ٤/٤٧٢ : ٤٧٣ .

(٢) في الطبري: بالنون (نبصر) ٤/٤٧٦ .

(٣) ، (٤) في الطبري ٤/٤٧٦ : على زَوْرِه .

فاجلس. قال: فقال لي: يا علقمة بينا نحن يدٌ واحدة على مَنْ سِوَانا أذْ صِرْنَا جبلين مِن حديد يطلبُ بعضنَا بعضاً، إنَّه كان مني في عثمان شيءٌ ليس توبتي إلا أنْ يُسْفَكَ دمي في طلب دمه. قال: فقلت: فردَّ ابنك محمداً فإنَّ لك ضيعة وعيالاً فإن يك شيء يخلفك. قال: فأمنَعْه. قال: فأتيتُ محمداً ابنه فقلتُ له: لو أقمتَ فإنْ حدث به حدث كُنْتَ تخلفه في عياله وضيعته. قال: ما أُحب أنْ أسأل عنه الركبان.

(يعلى بن مُنْيَة) بضم الميم وسكون النون والياء المعجمة باثنتين من تحتها وهي أمه، وأسم أبيه أمية.

(عبد الله بن خالد بن أَسِيْد) بفتح همزة أَسِيْد.

(جارية بن قدامة) بالجيم.

(حُكَيْم بن جبلة) بضم الحاء وفتح الكاف، وقيل بفتح الحاء وكسر الكاف.

(وصُوحان) بضم الصاد وآخره نون.

ذكر مسير عليّ إلى البصرة والوقعة

قد ذكرنا فيما تقدم [1] تجهز عليّ إلى الشام فبينما هو على ذلك أتاه الخبر عن طلحة والزبير وعائشة من مكة بما عزموا عليه فلما بلغه ذلك دعا وجوه أهل المدينة وخَطَبَهم فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

« إنَّ آخرَ هذا الأمر لا يصلحُ إلاّ بما صلح أوله فانصروا الله ينصركم ويصلح لكم أمركم ». فتثاقلوا، فلما رأى زياد بن حنظلة تثاقل الناس انتدب إلى علي وقال له: مَنْ تثاقل عنك فإنّا نخفُّ معك فنقاتل دونك، وقام رجلان صالحان من أعظم الأنصار، أحدهما أبو الهيثم بن التَّيِّهَان وهو بدري؛ والثاني خزيمة بن ثابت، قيل: هو ذو الشهادتين وقال الحكيم: ليس بذي الشهادتين مات ذو الشهادتين أيام عثمان فأجابه إلى نُصْرته. قال الشعبي: ما نهض في تلك الفتنة إلاّ ستة نفر بدريون ما لهم سابع. وقال سعيد بن زيد: ما اجتمع أربعة مِنْ أصحاب النبي ﷺ لخيرٍ يعملونه إلا وعليّ أحدهم.

---

(١) راجع ص ١٨٥ من هذا الجزء.

قيل: وقال أبو قتادة الأنصاري لعليّ: يا أمير المؤمنين إنّ رسول الله ﷺ قلدني هذا السيف وقد أغمدته زماناً، وقد حان تجريده علىٰ هؤلاء القوم الظالمين الذين يألون الأمة غشاً، وقد أحببتُ أنْ تَقَدِّمَنِي فقدِّمني.

وقالت أم سلمة: « يا أمير المؤمنين لولا أنْ أعصي اللّهَ وأنّك لا تقبله مني لخرجتُ معك، وهذا ابنُ عمي ـ وهو والله أعز عليّ مِنْ نفسي ـ يخرج معك ويشهد مشاهدك ». فخرج معه وهو لم يزل معه، واستعمله عليّ علىٰ البحرين، ثم عزله واستعمل النعمان بن عجلان الزرقي.

فلما أراد عليّ المسير إلىٰ البصرة ـ وكان يرجو أن يدرك طلحة والزبير فيردهما قبل وصولهما إلى البصرة أو يوقع بهما ـ فلما سار آستخلف علىٰ المدينة تمام بن العباس، وعلىٰ مكة قثم بن العباس، وقيل: أمّر علىٰ المدينة سهل بن حنيف.

وسار عليّ من المدينة في تعبئته التي تعبأها لأهل الشام آخر شهر ربيع الآخر سنة ست وثلاثين فقالت أخت عليّ بن عديّ من بني عبد شمس:

لا هُمَّ(١) فـاَعْقِـرْ بِـعَـلِيّ جَـمَـلَهْ ... ولا تُـبَـارِكْ فِي بَـعِـيْـرٍ حَـمَـلَهْ

أَلَا عَـلِيّ بـنُ عَـدِيّ لَـيْـسَ لَـهْ

وخرج معه مَنْ نشط مِن الكوفيين والبصريين متخففين في تسعمائة (٢)وهو يرجو أنْ يدركهم فيحول بينهم وبين الخروج أو يأخذهم فلقيه عبد الله بن سلام فأخذ بعنانه وقال: « يا أمير المؤمنين لا تخرج منها فوالله إنْ خرجتَ منها لا يعودُ إليها سلطانُ المسلمين أبداً فسبوه فقال: دعوا الرجل مِن أصحاب محمد(٣) ﷺ وسار حتى انتهى إلىٰ « الرَّبَذَة »، فلما انتهىٰ إليها أتاه خبر سبقهم فأقام بها يأتمر ما يفعل، وأتاه ابنه الحسن في الطريق فقال له: لقد أمرتُك فعصيتني فتقتل غداً بمضيعة (٤) لا ناصر لك.

---

(١) أي: اللهم.

(٢) في الطبري ٤/٤٨٠: سبعمائة.

(٣) الطبري: فنعم الرجل من أصحاب محمد..

(٤) في الأصل هنا: (فتقتل غداً بمعصية) وفي الطبري (بمصبعة) بميم فصاد مهملة فباء موحدة فعين مهملة ـ وهو خطأ هنا وفي الطبري والصحيح (بمضيعة) بميم فضاد معجمة فياء مثناة من تحت فعين مهملة فتاء مربوطة (م).

فقال له عليّ: إنك لا تزال تخن خنين[١]، الجارية[٢]،وما الذي أمرتني فعصيتك؟ قال: أمرتُك يوم أُحِيْطَ بعثمان أنْ تخرج مِن المدينة فيُقْتَل ولستَ بها، ثم أمرتُك يومَ قُتل أنْ لا تبايع حتىٰ تأتيك وفودُ العرب وبيعةُ أهل كُلِّ مِصْر فإنهم لن يقطعوا أمراً دونك فأبيت عليّ.

وأمرتُك حين خَرَجَتْ هذه المرأة وهذان الرجلان أنْ تجلس في بيتك حتىٰ يصطلحوا فإنْ كان الفساد كان علىٰ يد غيرك فعصيتني في ذلك كله.

فقال: أيْ بُنَي أمّا قولك: لو خرجت من المدينة حين [٣] أحيط بعثمان فوالله لقد أُحيط بنا كما أُحِيْط به، وأما قولُك لا تبايع حتىٰ يبايعَ أهلُ الأمصار فإنّ الأمر أمرُ أهل المدينة. وكرهنا أنْ يضيَع هذا الأمرُ، ولقد مات رسول الله ﷺ وما أرىٰ أحداً أحق بهذا الأمر مني فبايع الناسُ أبا بكر الصديق فبايعته، ثم أنّ أبا بكر انتقل إلى رحمة الله وما أرىٰ أحداً أحق بهذا الأمر مني فبايع الناسُ عمر فبايعته، ثم إنّ عمر انتقل إلىٰ رحمة الله وما أرىٰ أحداً أحق بهذا الأمر مني فجعلني سهماً مِنْ ستة أسهم فبايع الناسُ عثمان فبايعته، ثم سار الناس إلىٰ عثمان فقتلوه وبايعوني طائعين غير مُكْرَهِيْن فأنا مقاتل مَنْ خالفني بمن أطاعني حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين. وأما قولك أنْ أجلس في بيتي حين خرج طلحة والزبير فكيف لي بما قد لزمني أومن تريدني! أتريدني أنْ أكون كالضَّبُع التي يحاط بها ويقال [دباب دباب] ليست ههنا حتى يحل عرقوباها حتى يخرج[٤]! وإذا لم أنظر فيما يلزمني منْ هذا الأمر ويعنيني فمن ينظر فيه؟ فكُف عنك يا بني.

ولما قدم عليّ الرَّبَذَة وسمع بها خبر القوم أرسل منها إلىٰ الكوفة محمد بن أبي بكر الصديق، ومحمد بن جعفر، وكتب إليهم: (إنيّ اخترتكم علىٰ الأمصار، وفزعت إليكم لما حدث، فكونوا لدين الله أعواناً وأنصاراً، وانهضوا إلينا فالإصلاح نريد لتعود هذه الأمة إخواناً) فمضينا وبقي عليّ بالربذة [يتهيأ]، وأرسل إلى المدينة فأتاه ما يريده

---

(١) في الطبري بحاء مهملة وهو خطأ، والصحيح ما هنا، والخنين ضرب من البكاء دون الانتحاب ـ انظر النهاية (م).

(٢) في صحة هذا الخبر نظر.

(٣) عبارة الأصل (حتى) وهو غلط. (م).

(٤) في الطبري (حتى يحل عرقوباها ثم تخرج).

مِنْ دابة وسلاح، وأمر أمره [١]، وقام في الناس فخطبهم وقال:

«إنّ الله تبارك وتعالى أعزنا بالإسلام ورفعنا به، وجعلنا به إخواناً بعد ذلة وقلة وتباغض وتباعد فجرىٰ الناس علىٰ ذلك ما شاء الله الإسلامُ دِينهم، والحق فيهم، والكتاب إمامهم حتىٰ أصيب هذا الرجل بأيدي هؤلاء القوم الذين نزغهم الشيطان لينزغ بين هذه الأمة، ألا إنّ هذه الأمة لا بد مفترقة كما افترقتْ الأممُ قبلها فنعوذ بالله من شر ما هو كائن».

ثم عاد ثانية وقال: «إنه لا بد مما هو كائن أنْ يكون ألا وإنّ هذه الأمة ستفترق علىٰ ثلاثٍ وسبعين فِرْقة شَرُّهَا فرقة تنتحلني ولا تعمل بعملي، وقد أدركتهُم ورأيتُهم فآلزموا دينكم وأهدوا بهديي فإنه هَدْي نبيكم وآتبعوا سنته وأعرِضُوا عما أشكل عليكم حتىٰ تعرضوه علىٰ القرآن فما عرفه القرآن فآلزموه، وما أنكره فردوه، وارضوا بالله رباً، وبالإسلام ديناً، ومحمد نبياً، وبالقرآن حَكَماً وإماماً».

فلما أراد المسير مِن الربذة إلى البصرة قام إليه ابنٌ لرفاعة بن رافع فقال: «يا أمير المؤمنين أيَّ شيءٍ تريدُ؟ وأين تذهب بنا؟ فقال: أمّا الذي نريد وننوي فالإصلاحُ إنْ قَبِلُوا منا وأجابونا إليه. قال: فإنْ لم يُجيبونا إليه؟ قال: نَدَعُهُم بعذرِهم ونعطيهم الحقَّ ونصبر. قال: فإنْ لم يرضَوا قال: نَدَعُهم ما تركونا قال: فإنْ لم يتركونا قال: آمتنعنا منهم قال: فنَعم إذن. وقام الحجاج بن غزية الأنصاري فقال: لأرضينك بالفعل كما أرضيتني بالقول وقال:

دَرَاكِهَا دَرَاكِهَا قَبْلَ الفَوْتْ   فآنْفِرْ بِنا وَآسْمُ بِنَا نحو الصَّوْتْ
لا وَأَلَتْ نفسي إنْ تكرهت المَوْتَ [٢]

والله لننصرنّ الله كما سمانا أنصاراً. ثم أتاه جماعةٌ من طيىء وهو بالرَّبَذَة فقيل لعلي: هذه جماعةٌ قد أتتك منهم مَنْ يريدُ الخروج معك، ومنهم مَنْ يريدُ التسليم عليك. قال: جزىٰ اللّهُ كليهما خيراً، وفَضَّلَ اللّهُ المجاهدين علىٰ القاعدين أجراً

---

(١) أي: عَظَّمَ.

(٢) في الأصل (لا زلت)، والصحيح كما في الطبري ٤/٤٧٨: (لا وألت نفسي) (م) وفيه: (إنْ هبتُ الموت).

عظيماً.

فلما دخلوا عليه قال لهم: ما شهدتمونا به؟ قالوا: شهدناك بكل ما تحب. فقال: جزاكم الله خيراً فقد أسلمتم طائعين، وقاتلتم المرتدين، ووافيتم بصدقاتكم المسلمين فنهض سعيد بن عبيد الطائي فقال: يا أمير المؤمنين إنّ من الناس مَنْ يُعَبِّرُ لسانُه عما في قلبه، وإنّي والله ما أجدُ لساني يُعَبِّرُ عما في قلبي، وسأجهد وبالله التوفيق: أما أنا فسأنصح لك في السر والعلانية، وأقاتل عدوك في كل موطنٍ، وأرىٰ من الحق لك ما لا أراه لأحدٍ غيرك من أهل زمانك لفضلك وقرابتك. فقال: رحمك الله قد أدىٰ لسانُك عما يجن ضميرُك. فقتل معه بصفين، وسار عليّ من الربذة وعلىٰ مقدمته أبو ليلىٰ بن عمر بن الجراح، والراية مع محمد بن الحنفية، وعليّ علىٰ ناقة حمراء يقودُ فرساً كميتاً.

فلما نزل بفَيْد أتته أَسَد وطيىء فعرضوا عليه أنفسهم فقال: ألزموا قراركم. في المهاجرين كفاية. وأتاه رجلٌ بفيد مِن الكوفة فقال له: من الرجل؟ قال: عامر بن مطر الشيباني قال: أخبرْ عما وراءك. فأخبره فسأله عن أبي موسىٰ فقال: إنْ أردتَ الصلح فأبو موسى صاحبه، وإن أردتَ القتال فليس بصاحبه. فقال علي: والله ما أريدُ إلّا الصلح حتىٰ يرد علينا. ولما نزل علىٰ الثعلبية أتاه الذي لقي عثمان بن حنيف وحرسه فأخبر أصحابه الخبر فقال: «اللهم عافني مما ابتليت به طلحة والزبير». فلما انتهى إلى الإساد أتاه ما لقي حُكَيْم بن جبلة وقتلة عثمان فقال: الله أكبر ما ينجيني مِنْ طلحة والزبير إنْ أصابا ثأرهما وقال:

دَعَا حُكَيْمُ دَعْوَةَ الزِّمَاع حَلَّ بهـا مَنْزِلَـةَ النُّزاع

فلما انتهى إلى «ذي قار» أتاه فيها عثمان بن حنيف وليس في وجهه شعرة ـ وقيل: أتاه بالربذة ـ وكانوا قد نتفوا شعر رأسه ولحيته على ما ذكرناه فقال: يا أمير المؤمنين بعثتني ذا لحية وقد جئتك أمرد! فقال: أصبتَ أجراً وخيراً. إنّ الناسَ وَلِيَهُم قبلي رجلان فعملا بالكتاب والسنة ثم وليهم ثالثٌ فقالوا وفعلوا، ثم بايعوني وبايعني طلحة والزبير، ثم نَكَثَا بيعتي وألّبا الناس عليّ، ومِنْ العجب انقيادهما لأبي بكر، وعمر، وعثمان، وخلافهما عليَّ. والله إنهما ليعلمان أني لستُ بدون رجل ممن تقدم، اللهم فاحلل ما عَقَدا، ولا تبرم ما احكما في أنفسهما، وأرِهِمَا المساءةَ فيما قد عملا. وأقام بذي قار

ينتظر محمداً أو محمداً فأتاه الخبر بما لقيت ربيعة وخروج عبد القيس فقال: «عبد القيس خير ربيعة وفي كل ربيعة خير، وقال:

يَـا لَهْفَ نَفْسِي[1] عَلَىٰ رَبِيْعَـهْ ... رَبِيعَـهْ السَّـامِعَـةَ الـمُـطِيْعَـهْ
قَـدْ سَبَقَتْنِي فِيْهِمُ الـوَقِيْعَـهْ ... دَعَـا عَـلِيٌّ دَعْوَةً سَمِـيْعَـهْ
حَلُّوا بِهَـا الـمَنْـزِلَـةَ الـرَّفِيْعَـهْ

وعُرضت عليه بكر بن وائل فقال لها ما قال لطيىء وأسد.

وأما محمد بن أبي بكر، ومحمد بن جعفر فأتيا أبا موسىٰ بكتاب عليّ وقاما في الناس بأمره فلم يُجَابا إلىٰ شيءٍ فلما أمسوا دخل ناسٌ مِنْ أهل الحجىٰ علىٰ أبي موسىٰ فقالوا: ما ترىٰ في الخروج فقال: «كان الرأيُ بالأمس ليس اليوم! إنّ الذي تهاونتم [به] فيما مضىٰ هو الذي جَرَّ عليكم ما تَرون، إنّما هما أمران القعود سبيلُ الآخرة والخروج سبيلُ الدنيا فاختاروا». فلم ينفر إليه أحدٌ فغضب محمدٌ، ومحمدٌ، وأغلظا لأبي موسىٰ فقال لهما: «والله إنّ بيعة عثمان لفي عُنُقِي وعُنُق صاحبكما، فإنْ لم يكن بُدٌّ مِنْ قتال لا نقاتل أحداً حتى نفرغ مِنْ قَتَلَة عثمان حيث كانوا.

فانطلقا إلىٰ عليّ فأخبراه الخبر وهو بذي قار فقال للأشتر ـ وكان معه ـ: أنت صاحبنا في أبي موسى والمعترض في كل شيء، اذهبْ أنت وابن عباس فأصلح ما أفسدتَ. فخرجا فقدِما الكوفة فكلّما أبا موسىٰ واستعانا عليه بنفر مِنْ أهل الكوفة فقام لهم أبو موسىٰ وخطبهم وقال: «أيها الناس إنّ أصحابَ النبي ﷺ الذين صَحِبُوه أعلمُ بالله وبرسوله ممن لم يصحبه، وإنّ لكم علينا لحقاً وأنا مؤدٍ إليكم نصيحة: كان الرأيُ أنْ لا تستخفوا بسلطان الله وأنْ لا تجترئوا علىٰ الله وأنْ تأخذوا مَنْ قَدِم عليكم مِن المدينة فتردوهم إليها حتىٰ يجتمعوا فهم أعلم بمن تصلح له الإمامة، وهذه فتنةٌ صماء، النائمُ فيها خيرٌ من اليقظان، واليقظانُ خيرٌ من القاعد، والقاعدُ خيرٌ من القائم، والقائمُ خيرٌ من الراكب، والراكبُ خيرٌ من الساعي، فكونوا جرثومة من جراثيم العرب فأغمدوا السيوف، وانصلوا الأسنَّة، واقطعوا الأوتار، وآووا المظلوم والمضطهد حتىٰ يلتئم هذا

---

(١) في الأصل: (يا لهف ما نفسي على ربيعة) بزيادة ما وفيها يختل وزن البيت، وفي الطبري بحذفها. (م).

الأمر وتنجلي هذه الفتنة ».

فرجع ابن عباس، والأشتر إلىٰ عليّ فأخبراه الخبر فأرسل ابنه الحسن، وعمار بن يسار وقال لعمار: « انطلق فأصلح ما أفسدتَ ». فأقبلا حتىٰ دخلا المسجد وكان أول من أتاهما المسروق بن الأجدع فسلّم عليهما وأقبل علىٰ عمار فقال: يا أبا اليقظان علام قتلتم عثمان؟ قال: علىٰ شَتْم أعراضنا وضَرْب أبشارنا. قال: فوالله ما عاقبتم بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لكان خيراً للصابرين. فخرج أبو موسى فلقي الحسن، فضمَّه إليه، وأقبل علىٰ عمار فقال: يا أبا اليقظان أَعَدَوْتَ علىٰ أمير المؤمنين فيمن عدا فأحللتَ نفسك مع الفجار؟ فقال: لم أفعل ولم يسؤني.

فقطع الحسن عليهما الكلام وأقبل علىٰ أبي موسىٰ فقال له: لم تثبط الناس عنا؟ فوالله ما أردنا إلّا الإصلاح، ولا مِثْل أمير المؤمنين يُخَافُ علىٰ شيءٍ. فقال: صدقتَ بأبي أنت وأمي، ولكنّ المستشار مؤتمن، سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: « إنّها ستكونُ فِتْنَةٌ القاعدُ فيها خيرٌ مِنْ القَائِمِ، وَالقَائِمُ خَيْرٌ مِن المَاشِي، والمَاشِي خَيْرٌ مِن الراكب »،[1] وقد جعلنا اللّهُ إخواناً، وقد حَرَّمَ علينا دماءنا وأموالنا. فغضب عمار وسَبَّه، وقام، وقال: « يا أيها الناس إنما قال له وحده: أنت فيها قاعداً خيرٌ منك قائماً».

فقام رجلٌ مِن بني تميم فسبَّ عماراً، وقال: « أنت أمس مع الغوغاء، واليوم تسافه أميرنا ». وثار زيد بن صوحان وطبقتُه، وثار الناس، وجعل أبو موسىٰ يكفكفُ الناسَ، ووقف زيدٌ علىٰ باب المسجد ومعه كتابٌ إليه مِن عائشة تأمره فيه بملازمة بيته أو نُصْرَتَها وكتاب إلىٰ أهل الكوفة بمعناه، فأخرجهما فقرأهما علىٰ الناس، فلما فرغ منهما قال: «أُمِرَتْ أنْ تقرَّ في بيتها وأُمِرْنَا أنْ نقاتل حتىٰ لا تكون فتنة فأمرتنا بما أُمرتْ به وركبتْ ما أُمرنَا به! »

فقال له شبث بن ربعي: يَا عُمَانِيّ ـ لأنّه مِنْ عبد القيس وهم يسكنونَ عُمَان ـ سرقتَ بجلولاء فقطعتْ يدُك، وعصيتَ أم المؤمنين[فقتلك الله] وتهاوىٰ الناسُ، وقام أبو موسىٰ وقال: أيها الناس أطيعوني، وكونوا جرثومة مِنْ جراثيم العرب يأوي اليكم المظلوم، ويأمن فيكم الخائف، إنّ الفتنة إذا أقبلت فقد شبهت فإذا أدبرتْ بينت، وإنَّ

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري ٢/١٥٤، ومسلم الفتن رقم ١٣.

هذه الفتنة فاقرة[١] كداء البطن تجري بها الشمال، والجنوب، والصبا، والدبور تَذَرُ الحليمَ وهو حيران كابن أمس، شيموا سيوفكم، وقصدوا[٢] رماحكم ، وقطعوا أوتاركم، وآلزموا بيوتكم. خلوا قريشاً إذا أبوا إلاّ الخروج مِنْ دار الهجرة وَفِراق أهل علم بالأمراء استنصحوني ولا تستغشوني، أطيعوني يَسْلَم لكم دينكم ودنياكم ويشقىٰ بِحَرِّ هذه الفتنة مَنْ جناها.

فقام زيد فشال يده المقطوعة فقال: يا عبدالله بن قيس رد الفرات على أدراجه أردده مِنْ حيثُ يجيء حتىٰ يعود كما بدأ فإنْ قدرتَ علىٰ ذلك فستقدر علىٰ ما تريد. فدعْ عنك ما لستَ مدركه، سيروا إلىٰ أمير المؤمنين وسيد المسلمين، آنفروا إليه أجمعين تصيبوا الحق، فقام القعقاع بن عمرو فقال: إنّي لكم ناصحٌ وعليكم شَفِيق أُحِبُّ لكم أنْ ترشدوا ولأقولنّ لكم قولاً وهو الحق: أمّا ما قال الأمير فهو الحق لو أنّ إليه سبيلاً، وأما ما قال زيد فزيد عدو هذا الأمر فلا تستنصحوه، والقولُ الذي هو الحق أنّه لا بد من إمارة تنظم الناس، وتزع الظالم، وتعِزُّ المظلوم، وهذا أميرُ المؤمنين ولي بما ولي. وقد أنصف في الدعاء وإنما يدعو إلى الإصلاح فانفِرُوا وكونوا مِنْ هذا الأمر بمرأىٰ ومسمع.

وقال عبد الخير الخيواني : يا أبا موسىٰ هل بايع طلحة، والزبير؟ قال: نعم. قال: هل أحدث عليّ ما يحل به نقض بيعته؟ قال: لا أدري. قال: لا دريتُ نحن نتركك حتى تدري، هل تعلم أحداً خارجاً من هذه الفتنة! إنما الناسُ أربعُ فِرَق: عليٌّ بظهر الكوفة، وطلحة، والزبير بالبصرة، ومعاوية بالشام، وفِرْقَةٌ بالحجاز لا غناء بها ولا يقاتَلُ بها عدوّ. فقال أبو موسى: أولئك خيرُ الناس، وهي فتنة. فقال عبد الخير: غلب عليك غِشُّك يا أبا موسى فقال سَيْحَان بن صوحان: أيها الناس لا بد لهذا الأمر وهؤلاء الناس مِنْ وَالٍ يَدْفَعُ الظالم ويعزّ المظلوم ويجمع الناس، وهذا واليكم يدعوكم لتنظروا فيما بينه وبين صاحبيه وهو المأمون علىٰ الأمة، الفقيهُ في الدين، فمن نهض إليه فإنّا سائرون معاً.

فلما فرغ سيحان قال عمار: هذا ابنُ عمِّ رسول الله ﷺ يستنفركم إلى زوجة رسول الله

---

(١) الطبري : باقرة.

(٢) أي : اجعلوا رماحكم قَصْداً ، ومراده: آكسروها.

ﷺ وإلىٰ طلحة والزبير، وإني أشهدُ أنّها زوجته في الدنيا والآخرة فآنظروا، ثم آنظروا في الحق فقاتِلوا معه فقال له رجلٌ: أنا مع مَنْ شهدتَ له بالجنة علىٰ مَنْ لم تشهد له. فقال له الحسن: آكففْ عنا فإنّ للإصلاح أهلاً، وقام الحسن بن علي فقال: أيها الناس أجيبوا دعوة أميركم، وسيروا إلى إخوانكم فإنه سيوجد لهذا الأمر مَنْ ينفر إليه، ووالله لأن يليه أولو النهي أمثل في العاجِل والآجل وخير في العاقبة فأجيبوا دعوتنا وأعينونا علىٰ ما آبتُلينا به وابتليتم، وإنّ أمير المؤمنين يقول: قد خرجتُ مخرجي هذا ظالماً أو مظلوماً، وإنّي أُذَكِّرُ الله رجلاً رعىٰ حَقَّ الله إلا نَفَرَ فإنْ كنتُ مظلوماً أعانني، وإنْ كنتُ ظالماً أخذ مني. والله إنّ طلحة، والزبير لأوّل مَنْ بايعني وأوّل مَنْ غدر! فهل استأثرتُ بمالٍ، أو بدّلتُ حكماً فانفروا فمُرُوا بالمعروف وآنهوا عن المنكر فسامح الناس وأجابوا ورضوا.

وأتى قوم من طيىء عَدِيّ بن حاتم فقالوا: ماذا ترىٰ وما تأمر؟ فقال: قد بايعنا هذا الرجل وقد دعانا إلىٰ جميلٍ وإلىٰ هذا الحدث العظيم لننظر فيه ونحن سائرون وناظرون، فقام هند بن عمرو فقال: إنّ أمير المؤمنين قد دعانا وأرسل إلينا رُسُلَه حتىٰ جاءنا ابنه فآسمعوا إلىٰ قوله، وانتهوا إلىٰ أمره، وانفروا إلىٰ أميركم، فانظروا معه في هذا الأمر وأعينوه برأيكم، وقام حُجْر بن عَدِيّ فقال: أيها الناس أجيبوا أمير المؤمنين وانفروا خِفَافاً وثِقَالاً، مُرُّوا وأنا أوّلكم فأذعن الناسُ للمسير فقال الحسن: أيها الناس إنّي غادٍ فَمَن شاءَ منكم أنْ يخرج معي علىٰ الظَّهْر، ومَنْ شاء في الماء. فنفر معه قريبٌ من تسعة آلاف أخذ في البرستة آلاف ومائتان، وأخذ في الماء ألفان وأربعمائة.

وقيل: إنّ علياً أرسل الأشتر بعد ابنه الحسن، وعمار إلىٰ الكوفة فدخلها والناسُ في المسجد وأبو موسىٰ يخطبهم ويثبِّطهم والحسن، وعمار معه في منازعة وكذلك سائر الناس كما تقدم فجعل الأشتر لا يمر بقبيلة فيها جماعة إلاّ دعاهم ويقول: آتبعوني إلىٰ القصر، فآنتهى إلىٰ القصر في جماعة الناس فدخله وأبو موسىٰ في المسجد يخطبهم ويثبّطهم والحسن يقول له: « اعتزل عملنا لا أمَّ لك وتنحَّ عن منبرنا ». وعمار ينازعه، فأخرج الأشتر غلمان أبو موسىٰ من القصر فخرجوا يَعْدُون وينادون: « يا أبا موسى هذا الأشتر قد دخل القصر فضربنا وأخرجنا »، فنزل أبو موسىٰ فدخل القصر فصاح به الأشتر: آخرجْ لا أم لك. أخرجَ اللّهُ نفسك. فقال: أَجِّلْني هذه العشية. فقال: هي

لك ولا تبيتنَّ في القصر الليلة. ودخل الناس ينهبون متاع أبي موسىٰ فمنعهم الأشتر وقال: أنا له جار. فكفوا عنه فنفر الناسُ في العـدد المذكور.

وقيل: إنّ عدد مَنْ سار من الكوفة اثنا عشر ألف رجل ورجل، قال أبو الطفيل: سمعتُ علياً يقول ذلك قبل وصولهم فقعدت فأحصيتهم فما زادوا رجلاً ولا نقصوا رجلاً. وكان علىٰ كنانة، وأسد، وتميم، والرباب، ومزينة. معقل بن يسار الرياحي، وكان علىٰ سبع قيس سعد بن مسعود الثقفي عم المختار، وعلىٰ بكر، وتغلب، وعلة بن محدوج الذهلي، وكان علىٰ مذحج، والأشعريين حُجْر بن عديّ، وعلىٰ بجيلة، وأنمار، وخثعم، والأزد، مخنف بن سليم الأزدي فقدموا علىٰ أمير المؤمنين بذي قار فلقيهم في ناس معه فيهم ابن عباس فرحب بهم وقال: يا أهل الكوفة أنتم قاتلتم ملوك العجم وفضضتم جموعهم حتىٰ صارتْ إليكم مواريثهم فمنعتم حوزتكم، وأعنتم الناس علىٰ عدوهم، وقد دعوتكم لتشهدوا معنا إخواننا من أهل البصرة فإنْ يرجعوا فذاك الذي نريد، وإنْ يلجوا داويناهم بالرفق حتى يبدأونا بظلم، ولم ندع أمراً فيه صلاح إلّا آثرناه علىٰ ما فيه الفساد إنْ شاء الله. واجتمعوا عنده بذي قار وعبد القيس بأسرها في الطريق بين عليّ، والبصرة ينتظرونه وهم ألوف.

وكان رؤساء الجماعة من الكوفيين القعقاع بن عمرو، وسِعْر[1] بن مالك، وهند بن عمرو، والهيثم بن شهاب، وكان رؤساء النُّفَّار زيد بن صُوحان، والأشتر وعَدِيّ بن حاتم، والمسيب بن نَجَبَة[2]، ويزيد بن قيس، وأمثال لهم ليسوا دونهم إلا أنهم لم يؤمروا منهم حُجْر بن عدي، فلما نزلوا بذي قار دعا عليّ القعقاع فأرسله إلى أهل البصرة وقال: «آلقَ هٰذين الرجلين ـ وكان القعقاع من أصحاب النبي ﷺ ـ فادعهما إلىٰ الألفة والجماعة وعَظِّمْ عليهما الفُرْقَة، وقال له: «كيف تصنع فيما جاءك منهما وليس عندك فيه وصاة؟ قال: نلقاهم بالذي أمرتَ به، فإذا جاء منهم ما ليس عندنا منك فيه رأي اجتهدنا رأينا وكلّمناهم كما نسمع ونرىٰ أنه ينبغي. قال: أنْتَ لها فخرج القعقاع حتىٰ قدم البصرة فبدأ بعائشة فسلّم عليها وقال: أي أمَّهْ ما أشخصك وما أقدمك

---

(١) في المطبوعة: سعد ـ بالدال المهملة، وما أثبتناه من الطبريّ ٤/٤٨٨.

(٢) في المطبوعة بالتاء بالمثناة في أوله، وقد نبه ص ٢٣٥ أنها بالنون فظهر أنّ ما ها هنا تصحيف، وكذا هو في الطبريّ.

هذه البلدة؟ قالت: أيْ بني الإصلاح بين الناس. قال: فابعثي إلىٰ طلحة ، والزبير حتى تسمعي كلامي وكلامهما.

فبعثت إليهما فجاءا فقال لهما: إنّي سألتُ أم المؤمنين ما أقدمها فقالت: الإصلاحُ بين الناس، فما تقولان أنتما؟ أمتابعان أم مخالفان؟ قالا: متابعان. قال: فأخبراني ما وجه هذا الإصلاح؟ فوالله لئن عرفناه لنصلحن ولئن أنكرناه لا يصلح قالا: قَتَلَة عثمان فإنّ هذا إنْ تُرِك كان تركاً للقرآن. قال: قد قتلتما قتلة عثمان مِنْ أهل البصرة وأنتم قبل قَتْلِهم أقرب إلى الاستقامة منكم اليوم، قتلتم ستمائة رجل[1] فغضب لهم ستة آلاف واعتزلوكم وخرجوا مِنْ بين أظهركم، وطلبتم حُرْقُوص بن زهير فمنعه ستة آلاف فإنْ تركتموهم كنتم تاركين لما تقولون وإنْ قاتلتموهم والذي اعتزلوكم فأديلوا عليكم فالذي حذرتم وقويتم به هذا الأمر أعظم مما أراكم تكرهون، وإنْ أنتم منعتم مضر، وربيعة مِنْ هذه البلاد اجتمعوا علىٰ حربكم وخُذلانكم نُصْرةً لهؤلاء كما اجتمع هؤلاء لأهل هذا الحَدَث العظيم والذنب الكبير.

قالت عائشة: فماذا تقول أنت؟ قال: أقول: إنّ هذا الأمر دواؤه التسكين فإذا سكن اختلجوا، فإنْ أنتم بايعتمونا فعلامة خير وتباشير رحمة ودرك بثأر، وإنْ أنتم أبيتم إلّا مكابرة هذا الأمر واعتسافه كانت علامة شر وذهاب هذا المال. فآثِرُوا العافية تُرْزَقُوهَا، وكونوا مفاتيح الخير كما كنتم ولا تُعَرِّضونا للبلاء فتعرضوا له فيصرعنا وإياكم. وأيم الله إنّي لأقول هٰذا القول وأدعوكم إليه وإني لخائف أن لا يتم حتىٰ يأخذَ اللّٰهُ حاجته مِنْ هذه الأمة التي قَلَّ متاعها ونزل بها ما نزل، فإنّ هذا الأمر الذي حدث أمرٌ

---

(١) في الطبري: ستمائة إلا رجلاً ، وغير خاف علىٰ مَنْ قرأ التاريخ أنّ أهل البصرة لم يقتلوا عثمان وإنما أجلبوا عليه وأعانوا غيرهم وأنّ الذي تولى حصاره وقتله إنما هم المجلبون من أهل مصر قال الطبري في رواية عن يزيد بن أبي حبيب : (ولي قتل عثمان نهران الأصبحيّ) ، وفي رواية له عن المسور بن مخرمة قال: (ما زال المصريون كافين عن دمه وعن القتال حتىٰ بلغهم أنّ البعوث قد فصلت).
وقال في موضع آخر : (ضرب كنانة بن بشر جبينه ومقدّم رأسه بعود حديد فخرّ لجبينه ، فضربه سودان بن حمران المرادِيّ بعدما خَرَّ على جبينه) وهما مصريان وكل الذين لهم شركة مباشرة بدمه مصريون ، وأما الكوفيون الذين أحدثوا في جسمه حدثاً كعمير بن ضابىء فإنما كان ذلك بعد قتله ولكن القوم يسمون كل مَنْ كان في المجلبين قاتلاً ويستحلون دمه وحكم الشرع الذي سار عليه فقهاء الإسلام أنّ القو د إنما يكون على مَنْ باشر القتل (م) .

ليس يقدر وليس كقتل الرجل الرجل، ولا النفر الرجل، ولا القبيلة الرجل. قالوا: قد أصبتَ وأحسنتَ فارجعْ فإنْ قَدِمَ عليّ وهو علىٰ مثل رأيك صلح هذا الأمر.

فرجع إلىٰ عليّ فأخبره فأعجبه ذلك، وأشرف القوم علىٰ الصلح كَرِهَ ذلك مَنْ كرهه ورضيه مَنْ رضيه، وأقبلت وفودُ العرب مِنْ أهل البصرة نحو عليّ بذي قار قبل رجوع القعقاع لينظروا ما رأي إخوانهم مِنْ أهل الكوفة وعلىٰ أي حال نهضوا إليهم، وليعلموهم أنّ الذي عليه رأيهم الإصلاح ولا يخطر لهم قِتَالُهم علىٰ بال، فلما لقوا عشائرهم مِنْ أهل الكوفة قال لهم الكوفيون مثل مقالتهم وأدخلوهم علىٰ عليّ فأخبروه بخبرهم، وسأل عليّ جرير بن شرس عن طلحة، والزبير فأخبره بدقيق أمرهما وجليله وقال له: أما الزبير فيقول: بايعنا كُرْهاً، وأما طلحة فيتمثل الأشعار ويقول:

أَلَا أَبْـلِغْ بَنِـي بَـكْـرٍ رَسُـولاً ... فَـلَيْس إِلىٰ بَنِي كَـعْـب سَبيـلُ
سَيَـرْجِـعُ ظُلْمَكُم مِنْكُمْ عَلَيْكُم ... طَـوِيْـلُ السـاعِـدَيْنِ لَـه فُضـولُ

فتمثل عليّ عندها:

أَلَـمْ تَـعْـلَـمْ أبـا سَـمْـعَـانَ أَنَّـا ... نَـرُدُّ الشَّيْـخَ مِثْلَكَ ذا الصُّـدَاعِ
وَيَـذْهَـلُ عَقْلُه بـالحَـرْبِ حَتىٰ ... يَـقُـومَ فَيَسْتَـجيبَ لـغَـيْـرِ دَاعِ
فَـدَافَـعَ عَنْ خُـزَاعَـةَ جَمْـعُ بَكْـرٍ ... ومـا بـك يـا سُـرَاقَـةُ مِنْ دِفَـاعِ

ورجعتْ وفود أهل البصرة برأي أهل الكوفة، ورجع القعقاع من البصرة فقام عليّ خطيباً فحمد الله وذكر الجاهلية وشقاءها والإسلام والسعادة، وإنعام الله علىٰ الأمة بالجماعة بالخليفة بعد رسول الله ﷺ ثم الذي يليه ثم الذي يليه ثم حدث هذا الحدث الذي جَرَّه علىٰ هذه الأمة أقوامٌ طلبوا هـذه الدنيا حسدوا مَنْ أفاءها اللّهُ عليه وعلى الفضيلة، وأرادوا رَدَّ الإسلام، والأشياء علىٰ أدبارها والله بالغٌ أمره، «ألا وإني راحلٌ غداً فارتحلوا، ولا يـرتحلنَّ أحدٌ أعـان علىٰ عثمان بشيءٍ مِنْ أمـور الناس، وليغن السفهاء عني أنفسهم».

فـاجتمـع نفـرٌ منهم علباء بن الهيثم، وعَـدِيّ بن حـاتم، وسـالم بن ثعلبة القيسي[١]، وشريح بن أوفىٰ، والأشتر في عدة ممن سار إلىٰ عثمان ورضيَ بسير مَنْ

---

(١) الطبري ٤/٤٩٣: العبسي.

سار وجاء معهم المصريون، وابن السوداء، وخالد بن ملجم فتشاوروا فقالوا: ما الرأي وهذا عليّ وهو والله أبصر بكتاب الله ممن يطلب قَتَلَة عثمان وأقرب إلىٰ العمل بذلك وهو يقول ما يقول ولم ينفر إليه سواهم والقليل مِنْ غيرهم فكيف به إذا شام القوم وشاموه ورأوا قِلَّتَنَا في كثرتهم وأنتم واللّهُ تَرادُون وما أنتم بالحي من شيء[1].

فقال الأشتر: قد عرفنا رأيَ طلحة، والزبير فينا وأمّا عليّ فلم نعرف رأيه إلى اليوم ورأي الناس فينا واحد فإنْ يصطلحوا مع عليّ فعلىٰ دمائنا فهلمُّوا بنا نثب علىٰ عليّ وطلحة فنلحقهما بعثمان فتعود فتنة يُرْضَىٰ منا فيها بالسكون. فقال عبد الله بن السوداء: بئس الرأي رأيتَ، أنتم يا قتلة بذي قار ألفان وخمسمائة أو نحو من ستمائة وهذا ابن الحنظلية ـ يعني طلحة وأصحابه ـ في نحو من خمسة آلاف بالأشواق إلى أنْ يجدوا إلى قِتَالِكم سبيلاً فقال علباء بن الهيثم: انصرفوا بنا عنهم ودعوهم فـإنْ قَلُّوا كان أقـوىٰ لعدوهم عليهم وإنْ كثروا كان أحرىٰ أنْ يصطلحوا عليكم، دَعُوهم وارجعوا فتعلّقوا ببلدٍ من البلدان حتى يأتيكم فيه مَنْ تقوون به وامتنعوا من الناس. فقال ابن السوداء: بئس ما رأيتَ، وَدَّ والله الناسُ أنكم آنفردتم ولم تكونوا مع أقوامٍ بُرَآء، ولو انفردتم لتخطفكم الناس كل شيء فقال: عديّ بن حاتم: والله ما رضيتُ ولا كرهتُ، ولقد عجبتُ مِنْ تردد مَنْ تردد عن قتله في خوض الحديث، فأمّا إذا وقع ما وقع ونزل مِن الناس بهذه المنزلة فإنّ لنا عتاداً من خيول وسلاح فإنْ أقدمتم أقدمنا وإنْ أمسكتم أمسكنا.

فقال ابن السوداء: أحسنتَ. وقال سالم بن ثعلبة: مَنْ كان أراد بما أتىٰ الدنيا فإني لم أُرِد ذلك، واللهِ لئن لقيتُهم غداً لا أرجع إلى شيء، وأحلفُ بالله إنكم لتفرقن السيف فَرَق قوم لا تصير أمورُهم إلاّ إلى السيف. فقال ابن السوداء: قد قال قولاً، وقال شريح بن أوفى: أبرموا أموركم قبل أن تحرجوا ولا تؤخروا أمراً ينبغي لكم تعجيله، ولا تعجلوا أمراً ينبغي لكم تأخيره فإنّا عند الناس بشَرِّ المنازل، وما أدري ما الناس صانعون إذا ما هم التقوا، وقال ابن السوداء: يا قوم إنَّ عِزَّكم في خلطة الناس [فصانعوهم] فإذا آلتقىٰ الناسُ غداً فأنشبوا القتال، ولا تفرغوهم للنظر، فمن أنتم معه لا يجدُ بُدًّا مِنْ أنْ يمتنع، ويشغل اللّهُ علياً، وطلحة، والزبير، ومَنْ رأىٰ رأيهم، عما تكرهون، فأبصروا الرأيَ وتَفرقوا عليه والناس لا يشعرون.

---

(١) الطبري: وما أنتم بأنجىٰ من شيء.

وأصبح عليّ علىٰ ظهر ومضىٰ ومضىٰ معه الناسُ حتىٰ نزل علىٰ عبد القيس فآنضموا إليه، وسار مِنْ هناك فنزل الزاوية، وسار من الزاوية يريد البصرة، وسار طلحة والزبير وعائشة من الفُرْضَة فآلتقوا عند موضع قصر عبيد الله بن زياد فلما نزل الناسُ أرسل شقيق بن ثور إلىٰ عمرو بن مرحوم العبديّ أن أخرج فإذا خرجت فمِلْ بنا إلىٰ عسكر عليّ فخرجا في عبد القيس وبكر بن وائل فعدلوا إلىٰ عسكر عليّ فقال الناس: مَنْ كان هؤلاء معه غَلَبَ. وأقاموا ثلاثة أيام لم يكن بينهم قتال فكان يُرْسِل عليٌّ إليهم يُكَلِّمهم ويدعوهم وكان نزولهم في النصف من جمادىٰ الآخرة سنة ست وثلاثين ونزل بهم عليّ وقد سبق أصحابَه وهم يتلاحقون به، فلما نزل قال أبو الجرباء للزبير: « إنّ الرأيَ أنْ تبعث ألف فارس إلىٰ عليّ قبل أنْ يوافي إليه أصحابه. فقال: إنّا لنعرف أمور الحرب ولكنهم أهل دعوتنا وهذا أمر حدث لم يكن قبل اليوم مَنْ لم يلق الله فيه بعذر آنقطع عُذْرُه يوم القيامة وقد فارقنا وفدهم علىٰ أمرٍ وأنا أرجو أنْ يتمَّ لنا الصلحُ فأبشروا وآصبروا.

وأقبل صَبْرَة بن شَيْمان فقال لطلحة والزبير: انتهزا بنا هذا الرجل فإنّ الرأيَ في الحرب خيرٌ مِن الشدة. فقالا: إنّ هذا أمرٌ لم يكن قبل اليوم فينزل فيه قرآن أو يكون فيه سُنّة مِنْ رسولِ الله ﷺ، وقد زعم قومٌ أنّه لا يجوز تحريكه وهم عليّ ومن معه، وقلنا نحن: إنه لا ينبغي لنا أنْ نتركه ولا نؤخره، وقد قال عليّ تَرْكُ هؤلاء القوم شرٌّ وهو خَيْرٌ مِنْ شَرٍّ منه وقد كاد يتبين لنا وقد جاءت الأحكام بين المسلمين بأعمّها منفعة. وقال كعب بن سور: يا قوم اقطعوا هذا العُنُق مِنْ هؤلاء القوم. فأجابوه بنحو ما تقدم.

وقام عليّ فخطب الناس، فقام إليه الأعور بن بنان المنقري فسأله عن إقدامهم علىٰ أهل البصرة فقال له عليّ: علىٰ الإصلاح وإطفاء النائرة لعل الله يجمع شمل هذه الأمة بنا ويضع حربهم. قال: فان لم يجيبونا. قال: تركناهم ما تركونا. قال: فإنْ لم يتركونا؟ قال: دفعناهم عن أنفسنا قال: فهل لهم من هذا مثل الذي عليهم؟ قال: نعم. وقام إليه أبو سلامة الدَّالاني فقال: أترى لهؤلاء القوم حجة فيما طلبوا من هذا الدم إنْ كانوا أرادوا الله بذلك. قال: نعم قال أَفَتَرَىٰ لك حُجّة بتأخير ذلك؟ قال نعم إنّ الشيءَ إذا كان لا يُدْرَكُ إنّ الحكَم فيه أحوطه وأعمّه نفعاً قال: فما حالنا وحالهم إنْ ابتلينا غداً؟ قال: إنّي لأرجو أنْ لا يُقْتَل منا ومنهم أحدٌ نَقِيٌّ قلبه لله إلا أدخله الله الجنة.

وقال في خطبته: أيها الناس املكوا عن هؤلاء القوم أيديكم وألسنتكم، وإياكم أنْ تسبقونا فإنَّ المخصوم غدا مَنْ خصم اليوم. وبعث إليهم حكيم بن سلامة، ومالك بن حبيب: إنْ كنتم علىٰ ما فارقتم عليه القعقاع فكُفُّوا حتىٰ ننزل وننظر في هذا الأمر. وخرج إليه الأحنف بن قيس، وبنو سعد مشمِّرين قد منعوا حُرقوص بن زهير وهم معتزلون .

وكان الأحنف قد بايع علياً بالمدينة بعد قَتْلِ عثمان لأنه كان قد حج وعاد مِن الحج فبايعه، قال الأحنف: ولم أبايع علياً حتى لقيتُ طلحة، والزبير، وعائشة بالمدينة وأنا أريد الحج وعثمان محصور فقلتُ لكلٍ منهم: إنّ الرجلَ مقتول فمن تأمرونني أبايع؟ فكلهم قال: بايعْ علياً. فقلتُ: أترضونه لي؟ فقالوا: نعم. فلما قضيتُ حَجِّي ورجعتُ إلىٰ المدينة رأيتُ عثمان قد قُتل فبايعتُ علياً ورجعتُ إلىٰ أهلي ورأيتُ الأمرَ قد استقام فبينما أنا كذلك إذْ أتاني آتٍ فقال: هذه عائشة، وطلحة، والزبير بالخريبة يدعونك. فقلت: ما جاء بهم؟ قال: يستنصرونك علىٰ قتال عليّ في دم عثمان. فأتاني أفظعُ أمر فقلت: « إنّ خُذْلاني أمَّ المؤمنين وحواريّ رسول الله ﷺ لشديد، وأنّ قِتَال ابن عم رسول الله ﷺ وقد أمروني ببيعته أشد ».

فلما أتيتهم قالوا: جئنا لكذا وكذا. قال: فقلت: يا أم المؤمنين، ويا زبير، ويا طلحة نشدتكم الله أقلتُ لكم: مَنْ تأمرونني أبايع؟ فقلتم: بايع علياً فقالوا: نعم ولكنه بَدَّل وغيّر. فقلتُ: والله لا أقاتلكم ومعكم أم المؤمنين ولا أقاتل ابن عم رسول الله ﷺ وقد أمرتموني ببيعته ولكني أعتزل. فأَذِنُوا له في ذلك فاْعتزل بالجلحاء ومعه زهاء ستة آلاف وهي من البصرة على فرسخين؛ فلما قدم عليّ أتاه الأحنف فقال له: إنّ قومنا بالبصرة يزعمون أنك إنْ ظهرتَ عليهم غداً قتلتَ رجالهم وسبيتَ نساءهم قال: ما مِثْلِي يُخَافُ هذا منه، وهل يحل هذا إلا لمن تَوَلَّى وكَفَروهم قوم مسلمون. قال: اختر مني واحدةً من اثنتين إما أنّ أقاتل معك وإما أنْ أكفّ عنك عشرة آلاف سيف. قال: فكيف بما أعطيتَ أصحابك مِن الاعتزال؟ قال: إنّ من الوفاء لله قتالهم. قال: فاكفف عنا عشرة آلاف سيف. فرجع إلىٰ الناس فدعاهم إلىٰ القعود ونادى: يا آل خندف فأجابه ناسٌ، ونادىٰ: «يا آل تميم». فأجابه ناسٌ، ثم نادى: «يا آل سعد». فلم يبق سعديّ إلاّ أجابه، فاْعتزل بهم ونظر ما يصنع الناس، فلما كان القتال وظفر عليّ دخلوا فيما دخل فيه الناس وافرين .

فلما تراءى الجمعان خرج الزبير علىٰ فَرَسٍ عليه سلاح فقيل لعليّ : هذا الزبير فقال: «أما إنه أحرىٰ الرجلين إنْ ذُكِّر بـالله تعالى أنْ يـذكر». وخـرج طلحة فخـرج إليهما عليّ حتى اختلفت أعناق دوابهم فقال عليّ : « لَعَمْري قد أعددتما سلاحاً وخيلاً ورجالاً، إنْ كنتما أعددتما عند الله عُذْراً فاتقيا الله ولا تكونا كالتي نقضتْ غَزْلَهَا من بَعْد قُوَّةٍ أَنْكَاثاً ألم أكن أخاكما في دينكما تحرمان دمي وأُحَرِّمُ دَمَكُما؟ فهل مِنْ حَدَثٍ أحلّ لكما دمي؟ قال طلحة: ألَّبْتَ [الناس] علىٰ عثمان. قال عليّ : يومئذ يوفيهم الله دينَهم الحق. يا طلحة تطلبُ بدم عثمان فلَعَن اللّهُ قتلة عثمان. يا طلحة أجئتَ بعرس رسول الله ﷺ تقاتل بها وخبَّأتَ عرسك في البيت! أما بايعتني قال: بايعتُـك والسيفُ علىٰ عُنُقي.

فقال عليّ للزبير : يا زبير ما أخرجك؟ قال: أنتَ، ولا أراك لهذا الأمر أهلاً، ولا أولى به منا فقال له عليّ : ألستُ له أهلاً بعد عثمان؟ قد كنّا نعدك مِنْ بني عبد المطلب حتىٰ بلغ ابنُك ابنُ السوء ففرّق بيننا ـ وذكّره أشياء، وقال له: تذكرُ يومَ مررت مع رسول الله ﷺ في بني غنم فنظر إليّ فضحك وضحكت إليه فقلتَ له : لا يَدَع ابن أبي طالب زَهْوَه. فقال لك رسول الله ﷺ: ليس بِمُزْهٍ لتقاتلنّه وأنت ظالمٌ له قال: اللهم نعم، ولو ذَكَرْتُ ما سرتُ مسيري هذا، والله لا أقاتِلُك أبداً. فانصرف عليّ إلىٰ أصحابه فقال: « أما الزبير فقد أعطىٰ الله عَهْداً أنْ لا يقاتلكم ». ورجع الزبير إلىٰ عائشة فقال لها: ما كنتُ في موطن عقلتُ إلاّ وأنا أعرف فيه أمري غير موطني هذا. قالت: فما تريد أنْ تصنع؟ قال: أريدُ أنْ أدعهم وأذهب. قال له ابنه عبد الله : جمعتَ بين هذين الفئتين حتىٰ إذا حدد بعضُهم لبعضِهم أردتَ أنْ تتركهم وتذهب! لكنك خشيتَ رايات ابن أبي طالب وعلِمتَ أنّها تحملها فتية أنجاد وأنّ تحتها الموتَ الأحمر فجبنتَ. فأحفظه ذلك وقال: إنّي حلفتُ أنْ لا أقاتله. قال: كَفِّرْ عن يمينك وقاتِله فأعتق غلامـه مكحولاً ـ وقيل: سَرْجَس[١] فقال عبد الرحمن بن سليمان التميمي :

لَـمْ أَرَ كَـالـيَـوْمِ أَخَـا إخْـوانِ   أَعْجَبُ مِنْ مُكَفِّـرِ الأيمـانِ[٢]

... الأبيات

---

(١) والظاهر أنّه إنما قدم لأنه لم يكن يتوقّع وقوع قتال .

(٢) في المطبوعة : (عن يكفر) وما أثبتناه من الطبري وهو الأقرب .

وقيل: إنما عاد الزبيرُ عن القتال لمّا سمع أنّ عمارَ بن ياسر مع عليّ فخاف أنْ يَقْتُلَ عماراً وقد قال النبي ﷺ: «يا عمار تقتُلُك الفئةُ الباغية»[1] فردّه ابنُه عبد الله كما ذكرناه.

وافترق أهلُ البصرة ثلاثَ فِرَق: فِرْقَة مع طلحة والزبير، وفِرْقة مع علي، وفِرْقة لا ترىٰ القتال منهم الأحنف، وعِمْران بن حُصَيْن وغيرهما، وجاءتْ عائشةُ فنزلتْ في مسجد الحدان في الأزد ورأس الأزد يومئذٍ صبرة بن شيمان فقال له كعب بن سور: إنّ الجموع إذا تراءت لم تستطع، إنّما هي بحورٌ تدفق فأطِعْني ولاِ تَشْهدهم، وآعتزِلْ بقومِك فإنّي أخافُ أنْ لا يكون صُلْحٌ، ودَعْ مُضَر وربيعة فهما أخوان فإن آصطلحا فالصلحُ أردنا وإنْ آقتتلا كُنّا حكاماً عليهم غداً ـ وكان كعب في الجاهلية نصرانياً فقال له صبرة: أخشىٰ أنْ يكون فيك شيءٌ مِن النصرانية. أتأمرني أنْ أغيبَ عن إصلاح بين الناس وأنْ أخذلَ أمَّ المؤمنين وطلحة والزبير إنْ ردوا عليهم الصلح، وأدع الطلب بدم عثمان! واللهِ لا أفعل هذا أبداً. فأطبق أهلُ اليمن علىٰ الحضور.

وحضر مع عائشة المنجاب بن راشد في الرباب وهم تيم وعدي، وثور، وعكل بنو عبد مناف بن أد بن طابخة بن إلياس بن مُضَر، وضبة بن أد بن طابخة، وحضر أيضاً أبو الجرباء في بني عمرو بن تميم، وهلال بن وكيع في بني حنظلة، وصبرة بن شيمان علىٰ الأزد، ومجاشع بن مسعود السلمي علىٰ سليم، وزفر بن الحارث في بني عامر، وغطفان، ومالك بن مسمع علىٰ بكر، والخريت بن راشد علىٰ بني ناجية، وعلىٰ اليمن ذو الآجرة الحميري.

ولما خرج طلحة والزبير نزلت مُضَر جميعاً وهم لا يَشُكُّون في الصُّلْح، ونزلت ربيعة فَوْقهم وهم لا يَشكُّون في الصلح، ونزلت اليمن أسفلَ منهم ولا يشكّون في الصلح، وعائشة في الحدان والناس بالزابوقة[2] على رؤسائهم هؤلاء وهم ثلاثون ألفاً، وردُّوا حكيماً، ومالكاً إلىٰ عليّ: «إنّنا علىٰ ما فارقنا عليه القعقاع». ونزل عليّ بحيالِهم فنزلت مُضر إلىٰ مضر، وربيعة إلى ربيعة، واليمن إلى اليمن فكان بعضهم يخرجُ إلىٰ بعض لا يذكرون إلاّ الصُّلح، وكان أصحاب عليّ عشرين ألفاً، وخرج عليّ وطلحة

---

(١) أخرجه البخاري ١/١٢٢، ٤/٢٥ بلفظ (ويح عمار تقتله الفئة الباغية).

(٢) الزابوقة: موضع قرب من البصرة.

والزبير فتواقفوا(١) فلم يروا أمراً أمثل مِن الصلح ووَضْع الحرب فافترقوا علىٰ ذلك .

وبعث عليّ مِن العَشيّ عبد الله بن عباس إلىٰ طلحة والزبير وبعثاهما محمد بن أبي طلحة إلىٰ عليّ، وأرسل عليّ إلىٰ رؤساء أصحابه، وطلحة، والزبير ألىٰ رؤساء أصحابهما بذلك فباتوا بليلة لم يبيتوا بمثلها للعافية التي أشرفوا عليها والصلح .

[وقوع القتال](٢)

وبات الذين أثاروا أمرَ عثمان بشرٍّ ليلةٍ وقد أشرفوا علىٰ الهلكة، وباتوا يتشاوَرُون [ليلتهم] فاجتمعوا علىٰ إنشاب الحرب [في السرِّ] فغدوا مع الغَلَس وما يُشْعَرُ بهم فخرجوا متسللين وعليهم ظُلْمة فقصد مُضَرُهُم إلىٰ مضرهم وربيعتُهم إلىٰ ربيعتِهم ويَمَنِهم إلىٰ يمنهم فوضعوا فيهم السلاح، فثار أهلُ البصرة، وثار كلُّ قومٍ في وجوهِ أصحابهم الذين أتَوْهم، وبعث طلحة والزبير إلىٰ الميمنة وهم ربيعة أميراً عليها عبد الرحمن بن الخارث، وإلى الميسرة عبد الرحمن بن عتاب، وثبتا في القلب وقالا: ما هذا؟ قالوا: طَرَقَنَا أهلُ الكوفة ليلاً. فقالا: قد علمنا أنّ علياً غير مُنْتَهٍ حتىٰ يَسْفِكَ الدماء وأنه لن يطاوعنا. فرد أهلُ البصرة أولئك الكوفيين إلىٰ عسكرهم، فسمع عليّ وأهلُ الكوفة الصوتَ وقد وضع السبئيةُ رجلاً قريباً منه يخبره بما يريد، فلما قال علي: ما هذا؟

قال ذلك الرجل: ما شعرنا إلاّ وقومٌ منهم قد بَيَّتُونَا فرددناهم فوجدنا القومَ علىٰ رجلٍ فركبونا وثار الناس، فأرسل عليّ صاحب الميمنة إلىٰ الميمنة، وصاحب الميسرة إلى الميسرة وقال: لقد علمتُ أنّ طلحة والزبير غير منتهين حتىٰ يسفكا الدماء وأنّهما لن يطاوعانا والسبئية لا تفتر.

ونادىٰ عليّ في الناس: « كُفُّوا فلا شيء ». وكان من رأيهم جميعاً في تلك الفتنة أنْ لا يقتتلوا حتىٰ يبدأوا يطلبون بذلك الحُجّة وأنْ لا يقتلوا مُدْبِراً، ولا يُجْهِزُوا علىٰ جريح، ولا يستحلوا سَلْباً، ولا يرزأوا بالبصرة سلاحاً ولا ثياباً ولا متاعاً.

وأقبل كعبُ بن سور حتىٰ أتىٰ عائشة فقال: أدركي فقد أبىٰ القومُ ألاّ القتالَ لعل اللّهَ أنْ يصلَح بكِ. فركبتْ وألبسوا هودجها الأدراع، فلما برزتْ من البيوت وهي علىٰ

(١) في المطبوعة (فتوافقوا) وما أثبتناه من الطبري .

(٢) عنوان زدناه من عندنا .

الجمل بحيثُ يسمع الغوغاء وقفت، واقتتل الناسُ، وقاتل الزبير فحمل عليه عمار بن ياسر فجعل يحوزه بالرمح والزبير كافٌّ عنه ويقول: أتقتلني يا أبا اليقظان؟

فيقول: لا يا أبا عبد الله. وإنما كَفَّ الزبيرُ عنه لقول رسول الله ﷺ: « تقتل عماراً الفئةُ الباغية » ولولا ذلك لقتله.

وبينما عائشةُ واقفةُ إذْ سمعتْ ضجةً شديدة فقالتْ: ما هذا؟ قالوا: ضجة العسكر قالت: بخيرٍ أو بشر؟ قالوا: بشر فما فجأها إلاّ الهزيمة، فمضىٰ الزبير مِنْ وجهه إلىٰ وادي السباع [١] وإنّما فارق المعركة لأنه قاتل تعذيراً لما ذكر له عليّ.

وأما طلحة فأتاه سَهْمُ غَرْب [٢] فأصابه فشك رجله بصفحة الفرس وهو ينادي: إليّ إليّ عبادَ الله. الصبر الصبر.

فقال له القعقاع بن عَمْرو: « يا أبا محمد إنّك لجريح، وإنّك عما تريدُ لعليل، فأدخلْ البيوت ». فدخل وَدَمُهُ يسيل وهو يقول: « اللهم خُذْ لعثمان مني حتىٰ ترضىٰ ». فلما آمتلأ خُفُّهُ دماً وثَقُلَ قال لغلامه: أردفني، وأمسكني، وأبلغني مكاناً أنزل فيه.

فدخل البصرة فأنزله في دار خربة فمات فيها.

وقيل: إنه اجتاز به رجلٌ من أصحاب علي فقال له [٣]: أنت من أصحاب أمير المؤمنين؟ قال: نعم قال: أمدْد يدك أبايعك له. فبايعه فخاف أنْ يموتَ وليس في عُنُقِهِ بيعة. ولما قضى دفن في بني سعد، وقال: لم أر شيخاً أضيع دَماً مِنّي، وتمثل عند دخول البصرة مثله ومثل الزبير:

فَـإنْ تَـكُنِ الـحَـوَادِثُ أقْصَـدَتْـنِي ... وَأخْـطَاهُـنَّ سَـهْـمِي حِيْـنَ أرْمِـي
فَقَـد ضُيِّعْتُ حِيْنَ تَـبِعْتُ سَهْمـاً ... سَفَـاهاً [٤] مـا سَفِهْتُ وَضَلَّ حِلْمِي
نَـدِمْـتُ نَـدَامَـةَ الكُسَعِيِّ لَـمَّـا ... شَـرَيْتُ رِضَـا بني سَهْم بِـرَغْمِي
أَطَـعْـتـهُـمُ بِـفُـرْقَـةِ آلِ لأيٍ ... فَـألْـقَـوا لِلسِّبَـاعِ دَمِي وَلَـحْـمِي

---

(١) موضع في طريق البصرة الى المدينة.

(٢) وهو السهم الذي لا يعرف مصدره.

(٣) القائل طلحة رضي الله عنه.

(٤) في المطبوعة (سفاهة) وما أثبتناه من الطبري ٤/٥٠٨.

وكان الذي رمىٰ طلحة مَرْوان بن الحكم، وقيل غيره.

وأما الزبير فإنه مَرّ بعسكر الأحنف بن قيس فقال: « والله ما هذا انحيازُ جمع بين المسلمين حتىٰ ضرب بعضُهم بعضاً لحق ببيته.

وقال الأحنف للناس: مَنْ يأتيني بخبره؟ فقال عمرو بن جرموز لأصحابه: أنا. فاتبعه، فلما لحقه نظر إليه الزبير قال: ما وراءك؟ قال: إنما أريد أنْ أسألك. فقال غلامٌ للزبير اسمه عطية: إنّه معد. قال: ما يهولك مِنْ رجلٍ وحضرتْ الصلاة. فقال ابن جرموز: الصلاة! فقال الزبير: الصلاة!

فلما نزلا استدبره ابن جرموز فطعنه في جربان دِرْعه فقتله وأخذ فَرَسَه وسِلاَحه وخاتمه وخلّىٰ عن الغلام فدفنه بوادي السباع ورجع إلىٰ الناس بالخبر، وقال الأحنف لابن جرموز: والله ما أدري أحسنتَ أمْ أسأتَ.

فأتىٰ ابن جرموز عَلِياً فقال لحاجبه: استأذن لقاتل الزبير.

فقال علي: ائذنْ له وبَشِّرْه بالنار.

وأُحضِر سيفُ الزبير عند عليّ فأخذه فنظر إليه وقال: « طالما جَلّىٰ به الكُرَب عن وَجْه رسول الله ﷺ »! وبَعَثَ به إلىٰ عائشة لما آنجلتْ الوقعة وانهزم الناسُ يريدون البصرة، فلما رَأوا الخيل أطافت بالجمل عادوا قلباً كما كانوا حيث آلتقوا وعادوا في أمرٍ جَدِيد ووقفتْ ربيعة بالبصرة ميمنة وبعضهم ميسرة، وقالت عائشة لما انجلت الوقعة وانهزم الناس لكعب بن سور: « خَلِّ عن الجمل وتقدم بالمصحف فآدعُهُم إليه » وناولته مصحفاً، فاستقبل القومَ والسبئيةُ أمامهم فرموه رشقاً واحداً فقتلوه، ورَمُوا أمَّ المؤمنين في هَوْدجها فجعلتْ تنادي: « البقية البقية يا بنيَّ » ويعلو صوتها كثرة الله الله آذكروا الله والحساب فيأبون إلاّ إقداماً، فكان أول شيء أحدثته حين أبوا أنْ قالت: « أيها الناس آلعنوا قَتَلَة عثمان وأشياعَهم » وأقبلتْ تدعُو، وضَجَّ الناسُ بالدعاء، فسمع عليّ فقال: ما هذه الضجة؟

قالوا: عائشة تدعو علىٰ قَتَلَة عثمان وأشياعهم. فقال علي: اللهم آلعنْ قتلة عثمان.

فأرسلت إلىٰ عبد الرحمن بن عتاب، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام أنْ

آثبتا مكانكما، وحَرَّضَتْ الناسَ حين رأتْ القومَ يريدونها ولا يَكُفُّون فَحَمَلَتْ مُضَر البصرة حتىٰ قصفتْ مضر الكوفة حتىٰ زُحم عليّ فَنَخَسَ [عليٌّ] قفا ابنه « محمد » - وكانت الرايةُ معه - وقال له: آحمل، فتقدَّمَ حتىٰ لم يجد متقدَّماً إلاّ علىٰ سِنَان رمح فأخذ عليٌّ الراية مِنْ يده وقال « يا بُنَيّ: بين يدي ».

وحملتْ مضر الكوفة فآجتلدوا قدّام الجمل حتىٰ ضرسوا [1] والمجنبتان علىٰ حالهما لا تصنع شيئاً ومع عليّ قومٌ مِنْ غير مضر منهم زيد بن صوحان طلبوا ذلك منه فقال له رجل: تنح إلىٰ قومك مالك ولهذا الموقف؟ ألست تعلم أنّ مضر بحيالِك والجملُ بين يديك وأنّ الموت دُونه؟

فقال: الموت خيرٌ من الحياة، الموتُ أريد.

فأصيب هو وأخوه سيحان وأرتثَّ صعصعة أخوهما وآشتدتْ الحربُ. فلما رأىٰ عليٌّ ذلك بعث إلىٰ ربيعة وإلىٰ اليمن أنْ آجمعوا مَنْ يليكم، فقام رجل مِنْ عبد القيس من أصحاب علي فقال: ندعوكم إلىٰ كتاب الله. فقالوا: وكيف يدعونا إليه مَنْ لا يستقيمُ ولا يقيم حدودَ الله، وقد قتل كعب بن سور داعي الله؟ ورمته ربيعة رشقاً واحداً فقتلوه، فقام مسلم بن عبد الله العجلي مكانه فرشقوه رشقاً واحداً فقتلوه، ودَعَتْ يَمَنُ الكوفة يمنَ البصرة فرشقوهم، وأبىٰ أهلُ الكوفة إلاّ القتال ولم يريدوا إلا عائشة فذكرتْ أصحابها فاقتتلوا حتىٰ تنادوا فتحاجزوا، ثم رجعوا فآقتتلوا وتزاحف الناسُ وظهرتْ يَمَنُ البصرة علىٰ يَمَنِ الكوفة فهزمتهم، وربيعة البصرة علىٰ ربيعة الكوفة فهزمتهم، ثم عاد يَمَنُ الكوفة فقُتِلَ علىٰ رايتهم عشرة خمسة مِنْ هَمْدان وخمسة مِنْ سائر اليمن فلمّا رأىٰ ذلك يزيدُ بن قيس أخذها فثبتت في يده وهو يقول:

قَـدْ عِشْتِ يَـانَفْسي وَقَـدْ عشيت   دهـراً فـقـدك اليـوم مـا بـقيت
أطلب طـول العمـر مـا حَييتِ [2]

وإنما تمثلها، وقال ابن أبي نِمْران الهَمْداني:

---

(١) أي حتى اشتدت عليهم وكادت تهلكهم.

(٢) الطبري ٤/٥١٥:

قـد عشت يـا نـفس وقـد غنيتِ   دهراً فقطك..........

جَـرَّدْتُ سَيْفِي فِي رِجَـالِ الأَزْدِ أَضْـرِبُ فـي كُـهُـولِـهِـمْ والـمُـرْدِ
كُـلَّ طَـوِيـلِ السـاعِـدَيْن نَهْـدِ

ورجعتْ ربيعةُ الكوفة فاَقتتلوا قتالاً شديداً فقتل علىٰ رايتهم وهم في الميسرة زيد، وعبد الله بن رقبة، وأبوعبيدة بن راشد بن سلمى وهويقول: اللهم أنت هديتنا من الضلالة، واستنقذتنا مِن الجهالة، واَبتليتنا بالفِتْنَة فكنا في شبهة وعلىٰ ريبة وقتل.

واشتدّ الأمرُ حتىٰ لزقتْ ميمنةُ أهل الكوفة بقلبهم وميسرة أهـل البصرة بقلبهم ومنعوا ميمنة أهل الكوفة أنْ يختلطوا بقلبهم وإنْ كانوا إلى جنبهم وفَعَل مثل ذلك ميسرة أهل الكوفة بميمنة أهل البصرة، فلما رأىٰ الشجعان مِنْ مضر الكوفة والبصرة الصبر تنادُوا: طَرِّفُوا [1] إذا فرِغ الصبر. فجعلوا يقصِدون الأطراف الأيدي والأرجل رُؤي وقعة كانت أعظم منها قبلها ولا بعدها ولا أكثر ذراعاً مقطوعة ولا رِجْلاً مقطوعة، وأصيبت يدُ عبد الرحمن بن عتاب قبل قتله فنظرتْ عائشةُ مِنْ يسارِها فقالت: مَنْ القوم عن يساري؟ قال صبرة بن شيمان: بَنُوكِ الأزد. فقالت: يا آل غسان حافِظوا اليوم فجلادكم الذي كنا نسمع به. وتمثلت:

وَجَـالَـدَ مِنْ غَسَّـانَ أَهْـلُ حِفـاظِهَـا وَكَعْبٌ [2] وأَوْسٌ جـالَـدَتْ وشَبيبُ

فكان الأزدُ يأخذون بعر الجمل يشمونـه ويقولون: بعـر جمل أمّنـا ريحه ريح المسك. وقالت لمن عن يمينها: مَنْ القوم عن يميني؟ قال: بكر بن وائل. قالت: لكم يقول القائل:

وجـاؤوا إِلَيْنَـا فِي الحَـدِيْـد كَـأَنَّهُمْ مِنَ العِـزَّةِ القَعْسـاء بكْـرُ بنُ وائـلِ

إنما بإزائكم عبد القيس فاقتتلوا أشدَّ من قتالهم قبل ذلك.

وأقبلت علىٰ كتيبةٍ بين يديها فقالت: من القوم؟ قالوا: بنو ناجية. قالت: بَخٍ بَخٍ سيوفٌ أبطحيّة قرشيّة فجالِدوا جلاداً يُتفادىٰ منه.

ثم أطافتْ بها بنو ضبّة فقالت: ويهاً جمْرَةَ الجمرات. فلما رقُّوا خالطهم بنـو

---

(١) أي: اضربوا الأطراف وهي الأيدي والأرجل.

(٢) الطبري ٤/٥١٦: وهنب ـ بدل (وكعب).

عدي بن عبد مناة وكثروا حولها فقالت: من أنتم؟ قالوا: بنو عدي خالطنا إخوتنا. فأقاموا رأس الجمل وضربوا ضرباً شديداً ليس بالتعذير ولا يعدلون بالتطريف حتى إذا كثر ذلك وظهر في العسكرين جميعاً راموا الجمل وقالوا: لا يزال القوم أو يُصرعَ الجملُ وصار مجنبتا عليّ إلى القلب، وفعل ذلك أهلُ البصرة، وكَرِهَ القومُ بعضهم بعضاً، وأخذ عميرة بن يثربي برأس الجمل وكان قاضي البصرة قَبْل كعب بن سور فشهد الجمل هو وأخوه عبد الله فقال عليّ: مَنْ يحمل علىٰ الجمل؟ فانتدب له هند بن عمرو الجملي المرادي فاعترضه ابن يثربي فاختلفا ضربتين فقتله ابن يثربي، ثم حمل عِلْباء بن الهيثم فاعترضه ابن يثربي فقتله وقتل سَيْحان بن صوحان وارتث صعصعة، وقال ابن يثربي:

أنـا لِمنْ يُنْكِـرُني ابنُ يَثْـربي قـاتِـلُ عِلْبـاءَ وهِنْـدِ الجـملي
وابْنٍ لِصُـوحَـانَ عَلَىٰ دِيْنِ عَـلِيّ

وقال ابن يثربي أيضاً:

أَضْـرِبُـهُـم وَلا أَرَىٰ أبـا حَـسَـنْ كَفَىٰ بَهَـذا حَـزَنـاً مِن الحَـزَنْ
إنّـا نُمِـرُّ الأمْـرَ إمـرارَ الـرَّسَنْ

فناداه عمار: لقد عُذْتَ بحريزٍ وما إليك مِنْ سبيل فإنْ كنتَ صادقاً فاْخرجْ مِنْ هذه الكتيبة إليّ.

فترك الزمامَ في يدِ رجلٍ مِنْ بني عدي حتىٰ إذا كان بين الصفين تقدّم عمار ـ وهو ابن تسعين سنة، وقيل: أكثر من ذلك ـ عليه فرو قد شَدّ وسطه بحبل ليف وهو أضعف مِنْ مبارزة واسترجع الناسُ وقالوا: هذا لاحقٌ بأصحابه وضربه ابن يثربي فاْتقاه عمار بدرقته فنشب سيفَه فيها فعالجه فلم يخرج وأسفّ عمار لرجليه فضربه فقطعهما فوقع علىٰ إسته وأُخِذَ أسيراً فأُتيَ به إلىٰ عليّ فقال: استبقني. فقال: أبعد ثلاثة تقتلهم! وأمر به فَقُتِل وقيل: إنّ المقتول عمرو بن يثربي وأن عميرة بقي حتىٰ ولي قضاءَ البصرة مع معاوية. ولما قُتل ابن يثربي تولىٰ ذلك العدوي الزمام فتركه بيد رجلٍ من بني عدي وبرز فخرج إليه ربيعة العقيلي يرتجز ويقول:

يَـا أُمَّـنَـا أَعَـقّ أُمّ نَـعْـلَمُ وَالأُمُّ تَـغْـذو وَلَـداً وَتَـرْحَـمُ

أَلا تَــرَيْـنَ كَـمْ شجَـاعٍ يُكْـلَمُ   وَتُـخْـتَـلَىٰ مِنْـهُ يَـدٌ وَمِـعْـصَـمُ

(كذب فهي من أبّر أم نعلم) ثم اقتتلا فاثخن كُلُّ واحدٍ منهما صاحبه فماتا جميعاً، وقام مقام العدوي الحارث الضبّي فما رُؤِيَ أشد منه وجعل يقول:

نَحْنُ بَنو[1] ضَبّة أَصْحَابُ الجَمَلْ   نُبَـارِزُ القَـرْنَ إذا الـقَـرْنُ نَـزَلْ
نَنْعي ابنَ عَفّـانَ بـأَطْـرَاف الأَسَلْ   الـموتُ أَحْلَىٰ عِنْدَنَـا مِن العَسَـلْ
رُدُّوا عَلَيْنَـا شَـيْخَـنَـا ثُمَّ بَـجَـلْ

وقيل: إن هذه الأبيات لوسيم بن عَمْرو الضبيّ وكان عمرو يُحرّض أصحابه يوم الجمل وقد أخذ الخطام ويقول:

نـحـن بـنـو ضـبـة لا نَـفِـرُّ   حَـتَّىٰ نَـرَىٰ جـمـاجـمـاً تَـخِـرُّ
يَخِـرُّ[2] منهـا العَلَقُ المُـحْـمَـرُّ

ويقول:

يـا أُمَّتـا[3] يـا عَيْشُ لـن تُـراعي   كُـلُّ بَـنِـيـكِ بَـطَـلٌ شُـجَـاعُ

ويقول:

يـا أُمَّـتـا يَـا زَوْجَـةَ الـنَّـبِـيّ   يَـا زوجـة المـبـارك الـمَـهْـدِيِّ

ولم يزل الأمر كذلك حتىٰ قُتِلَ عَلىٰ الخطام أربعون رجلاً: قالت عائشة: «ما زال جملي معتدلاً حتى فقدتُ أصواتَ بني ضبة».

قال: وأخذ الخطام سبعون رجلاً مِنْ قريش كلهم يُقْتل وهو آخِذٌ بخطام الجمل - وكان ممن أخذ بزمام الجمل محمد بن طلحة وقال: يا أمتاه مريني بأمرك. قالت: آمرك أنْ تكونَ خير بني آدم إنْ تركْتَ.

فجعل لا يحمل عليه أحدٌ إلاّ حمل [عليه] وقال: حاميم لا يُنْصَرُون. وآجتمع

---

(١) في الطبري ٤/٥١٨ : بني .

(٢) في المطبوعة: يحز ، وما أثبتناه في الطبري .

(٣) الطبري : يا أمنا - بالنون في البيتين.

عليه نفرٌ كلهم ادعىٰ قتله: المكْعبر الأسدي، والمكعبر الضبّي، ومعاوية بن شداد العَبْسي، وعفار (١) السعدي النصري فأنفذَه بعضهم بالرمح ففي ذلك يقول:

وَأَشْعَثَ قَوَّامٍ بآياتِ رَبِّهِ   قَليلِ الأذىٰ فيما تَرىٰ العَيْنُ مُسْلمِ
هَتَكْتُ له بالرمحِ جَيْبَ قَميْصِهِ   فَخَرَّ صَرِيْعاً لليَدَيْنِ ولِلفَمِ
يُذَكِّرُني حَاميم والرمحُ شاجِرٌ   فَهَلاَّ تَلاَ حَاميمَ قَبْلَ التَّقَدُّمِ
عَلَىٰ غَيْرِ شَيْءٍ غيرَ أنْ ليسَ تَابِعاً   عَلِيّاً وَمَنْ لاَ يَتْبَعِ الحَقَّ يَنْدَمِ

وأخذ الخطام عمرو بن الأشرف فجعل لا يدنو منه أحدٌ إلا خبطه بالسيف، فأقبل إليه الحارث بن زهير الأزدي وهو يقول:

يَا أُمَّنَا يَا خَيْرَ أُمٍّ نَعْلَمُ   أَمَا تَرَيْنَ كَمْ شُجَاعٍ يُكْلَمُ
وتَخْتَلِي هَامَتُهُ وَالمِعْصَمُ

فاختلفا ضربتين فقتل كُلُّ واحدٍ منهما صاحبه، وأحدق أهل النجدات والشجاعة بعائشة فكان لا يأخذ الخِطَام أحدٌ إلاّ قُتِلَ، وكان لا يأخذه والراية إلا معروفٌ عند المطيفين بالجمل فينتسب: أنا فلان بن فلان، فوالله إنْ كان ليقاتِلون عليه وإنه لَلْمَوْت لا يُوصَل إليه إلا بطلبة وعَنَت، وما رامه أحدٌ مِنْ أصحاب عليّ إلا قُتل أو أفلت ثم لم يعد، وحَمَلَ عَدِيّ بن حاتم الطائي عليهم فَفُقِئَتْ عينه.

وجاء عبدالله بن الزبير ولم يتكلم فقالت: مَنْ أنت؟ فقال: ابنُك ابنُ أختك. قالت: واثُكل أسماء.

وانتهىٰ إليه الأشتر فاقتتلا فضربَه الأشترُ علىٰ رأسه فجرحه جُرْحاً شديداً، وضربه عبدُ الله ضربةً خفيفة، واعتنق كلُّ رجلٍ منهما صاحبه وسقطا إلىٰ الأرض يعتركان فقال ابن الزبير:

اُقْتُلُونِي وَمَالِكاً   وَاقْتُلُوا مَالِكاً مَعِي (٢)

---

(١) الطبري ٤/٥٢٦ : عفان بن الأشتر.

(٢) حاصل القصة أن الأشتر النخعيّ ـ واسمه مالك بن الحارث ـ كان من الشجعان الأبطال المشهورين وكان من أصحاب علي رضي الله عنه، وكان عبدالله بن الزبير من الشجعان المشهورين أيضاً ومن حزب أبيه وخالته عائشة أم المؤمنين رضي الله عنهم فتماسكا يوم وقعة الجمل الأشتر وعبدالله بن الزبير كل واحد =

فلو يعلمون مَنْ مالكٌ لقتلوه إنما كان يعرف بـالأشتر، فحمـل أصحابُ عليٍّ وعائشة فخلّصوهما.

قال الأشتر: لقيتُ عبد الرحمن بن عتاب فلقيتُ أشدّ الناس وأخرقه ما لبثته أنْ قتلته، ولقيتُ الأسود بن عوف فلقيتُ أشدّ الناس وأشجعه فما كدتُ أنجو منه فتمنيتُ أنّي لم أكن لقيته، ولحقني جندب بن زهير الغامدي فضربتـه فقتلته. قـال: ورأيت عبد الله بن حكيم بن حزام وعنده راية قريش وهو يقاتل عَدِيّ بن حاتم وهما يتصاولان تصاول الفَحْلَين فتعاورناه فقتلناه [يعني عبد الله]. قال: وأخذ الخِطَام الأسود بن أبي البختري فقُتل وهو قرشي أيضاً، وأخذه عمرو بن الأشرف فقُتل وقُتلِ معه ثلاثة عشر رجلاً من أهل بيته وهو أزديّ، وجُرح مَرْوان بن الحكم، وجُرح عبد الله بن الزبير سبعاً وثلاثين جراحة مِنْ طعنةٍ ورَمْية. قال: وما رأيتُ مثل يوم الجمل ما ينهزمُ منا أحدٌ وما نحن إلاّ كالجبل الأسود، وما يأخذُ بخِطام الجملِ أحدٌ إلاّ قُتلِ حتىٰ ضاع الخطام، ونادىٰ عليّ: « اعقروا الجمل فإنه إنْ عُقِر تفرقوا ». فضربه رجلٌ فسقط، فما سمعتُ صوتاً قط أشد مِنْ عجيج الجمل، وكانت راية الأزد من أهل الكوفة مع محنف بن سليم فقُتل وأخذها الصقعب وأخوه عبد الله بن سليم فقتل، وأخذها العلاء بن عروة فكان الفتح وهي بيده.

وكانت رايةُ عبد القيس من أهل الكوفة معِ القاسم بن سليم [1] فقتل، وقتل معه زيد، وسيحان ابنا صوحان، وأخذها عدة نفر فقُتِلوا منهم عبد الله بن رقية، ثم أخذها منقذ بن النعمان فدفعها إلىٰ ابنه مُرَّة بن منقذ فانقضىٰ الحربُ وهي في يده. وكانت راية بكر بن وائل في بني ذهل مع الحارث بن حسان الذهلي فأقدم وقال: يا معشر بكر لم

= منهم إذا قوىٰ علىٰ الآخر جعله تحته وركب صدره وفعلا ذلك مراراً وابن الزبير يقول :

اقتلوني ومالكا واقتلوا مالكاً معي

يريد بذلك قتل الأشتر والمساعدة عليه حتىٰ افترقا بغير أنْ يقتل أحدهما الآخر .

قال عبدالله بن الزبير : لقيت الأشتر النخعيّ يوم الجمل فما ضربته ضربة إلا ضربني ستاً أو سبعاً ثم أخذ رجلي وألقاني في الخندق وقال : والله لولا قرابتك من رسول الله ﷺ ما اجتمع منك عضو إلى عضو أبداً . (م) .

(١) في الطبري: القاسم بن مسلم .

يكن أحدٌ له من رسول الله ﷺ مِثل منزلة صاحبكم [فانصروه] . فتقدّم وقاتلهم فقُتل ابنه وخمسة من بني أهله ، وقُتل الحارث ، فقيل فيه :

أنْعَى الـرئيسَ الحارب بنَ حَسَّـان ... لِآلِ ذُهْـلٍ وَلآلِ شَـيْـبَـانَ

وقال رجلٌ من بني ذُهْل :

تَنْعَى لنـا خيرَ آمـرىءٍ مِنْ عَدْنَـانْ ... عنـد الطِّعَـانِ وَنـزالِ الأقْـرَانْ[1]

وقال أخوه بشر بن حسان :

أنـا ابنُ حَسَّـانَ بنِ خُـوطٍ وَأبِي ... رسـولُ بَـكْـرٍ كلّهـا إلىٰ النَّبيّ

وقتل رجال من بني محدوج، وقتل من بني ذهل خمسة وثلاثون رجلاً .

وقالَ رجل لأخيه وهو يقاتل : يا أخي ما أحسن قتالنا إنْ كُنّا علىٰ الحق؟ قال : فإنّا علىٰ الحق إنّ الناسَ أخذوا يميناً وشمالاً وإنّا تمسّكنا بأهل بيت نبينا فقاتلا حتىٰ قُتِلا .

وجرح يومئذ عمير بن الأهلب الضبّي فمر به رجلٌ من أصحاب علي وهـو في الجرحىٰ يفحص برجليه ويقول :

لَقَـدْ أَوْرَدَتْنَا حَـوْمَـةَ المَـوْتِ أُمُّنَـا ... فَـلَمْ نَـنْـصَـرِفْ إلاَّ وَنَـحْـنُ رِواءُ

لَقَـد كَان فِي نَصْـر ابن ضَبَّـةَ أمَّـهُ ... وَشِـيعَـتَهـا مَـنـدوحـةٌ وغَـنَـاءُ

أطَعنـا قُـريشـاً ضلة من حلومنـا ... ونصـرتنـا أهـلُ الحِجَـاز عنـاءُ

أَطَعْنَـا بني تَيم بـن مُـرَّة شَقْـوَةً ... وَهَـل تَـيْـمٌ إلا أعْـبُـدٌ وإمَـاءُ

فقال له الرجل: قل لا إله إلا الله. قال: آدن مني فلقّني فبي صَمَمٌ. فدنا منه الرجلُ فوثب عليه فعضَّ أُذُنَه فقطعها.

وقيل في عَقْر الجمل: إنّ القعقاع لقي الأشتر وقد عاد مِن القتال عند الجمل فقال: هل لك في العَوْد؟ فلم يُجبه فقال: يا أشتر بعضنا أعلم بقتال بعض منك، وحمل القعقاع والزمام مع زفر بن الحارث وكان آخر مَنْ أخذ الخطام فلم يبق شيخٌ من بني عامر إلا أصيب قدام الجمل وزفر بن الحارث يرتجز ويقول:

---

(١) في نسخة: (عند النزال والطعان والإقران).

يـا أمتـا مـثـلك لا يـراع كـل بـنـيـك بـطل شـجـاع

لـيس بـوهـواه[١] ولا بـراع

وقال القعقاع:

إذا وَرَدْنـا آجِـنـاً جَـهَـرْنَـاهْ ولا يُـطاقُ وِرْدُ مـا مـنـعـنـاه

وزحف إلىٰ زفر بن الحارث الكلاعي وتسرعتْ عامر إلىٰ حربه فأصيبوا فقال القعقاع لبجير بن دلجة ـ وهو مِنْ أصحاب علي ـ: يا بجير بن دلجة صِحْ بقومك فليعقروا الجمل قبل أنْ تصابوا وتصاب أمُّ المؤمنين.

فقال بجير: يا آل ضبة، يا عمرو بن دلجة: ادع بي إليك. فدعاه فقال: أنا آمن حتى أرجع عنكم. قال: نعم. فاجتثَّ ساق البعير فرمىٰ نفسه علىٰ شِقِّه وجرجر البعير فقال القعقاع لمن يليه: أنتم آمنون. واجتمع هو وزفر علىٰ قَطْع بطان البعير، وحَمَلاَ الهودج فوضعاه وإنَّه كالقنفذ لما فيه مِن السِّهَام، ثم أطافا به وفَرَّ مَنْ وراء ذلك مِن الناس.

فلما انهزموا أمر عليّ منادياً فنادىٰ: «ألا لا تتبعوا مـدبِراً، ولا تُجْهِـزُوا علىٰ جريح، ولا تدخلوا الدُّور».

وأمر عليّ نفراً أن يحملوا الهودج مِنْ بين القتلىٰ، وأمر أخاها محمد بن أبي بكر أنْ يضرب عليها قُبَّة وقال: «انظرْ هل وَصَلَ إليها شيءٌ مِنْ جراحة».

فأدخل رأسه في هودجها فقالت: من أنت؟ فقال: أبغضُ أهلِك إليك. قالت: ابن الخثعمية؟ قال: نعم. قالت: يا بأبي الحمد الله الذي عافاك. وقيل: لما سقط الجمل أقبل محمد بن أبي بكر إليه ومعه عَمّار فآحتملا الهودج فنَحياه فأدخل محمد يده فيه فقالت: مَنْ هذا؟ فقال: أخوك البَرّ. قالت: عقق[٢]. قال: يا أُخَيَّة هل أصابكِ شيءٌ؟ قالت: ما أنتَ وذاك. قال: فَمنْ إذاً الضُّلَّال! قالت: بل الهُدَاة. وقال لها عمار: كيف رأيتِ ضَرْب بَنْيك اليوم يا أمَّه؟ قالت: لستُ لك بأمّ. قال: بلىٰ وإنْ كرهتِ.

---

(١) الطبري: بوَهّام.

(٢) الطبري: عقوق.

قالت: فخرتم أنْ ظفرتم! وأتيتم مثل الذي نقمتم! هيهات والله لن يظفر مَنْ كان هذا دأبه! فأبرزوا[١] هودجها فوضعوها ليس قُرْبَها أحدٌ.

وأتاها عليّ فقال: كيف أنت يا أُمّه؟ قالت: بخير. قال: يغفُر الله لكِ. قالت: ولَك.

وجاء أعيَن بن ضُبيعة بن أعين المجاشعي حتىٰ آطلع في الهَوْدَج فقالت: إليكَ لعنك الله.

فقال: واللهِ ما أرىٰ إلا حُمَيْرَاء. فقالت له: هتك الله سترك، وقطع يدك، وأبدىٰ عورتك. فقُتل بالبصرة، وسُلب، وقطعتْ يده، ورُمِيَ [به] عُرياناً في خَرِبة من خرابات الأزد.

ثم أتىٰ وجوهُ الناس عائشة وفيهم القعقاع بن عَمرو فسلّم عليها فقالتْ: إني رأيتُ بالأمس رجلين اجتلدا وارتجزا بكذا فهل تعرف كوفيك؟

قال: نعم ذاك الذي قال: أَعَقّ أُمّ نعلم وكذب إنك لأبرّ أُمّ نعلم ولكن لم تُطاعي. قالت: والله لوددتُ أني متُ قبل هذا اليوم بعشرين سنة.

وخرج من عندها فأتىٰ علياً فقال له عليّ: والله لوددتُ أني مِتُّ مِنْ قبل اليوم بعشرين سنة. وكان عليّ يقول ذلك اليوم بعد الفراغ من القتال:

إليك أشكو عُجَري وبُجَري ... ومَعْشَراً أغْشَوا عَليّ بَصَري
قَتَلْتُ مِنهم مُضَراً بمضري ... شَفَيْتُ نفسي وقَتَلْتُ مَعْشَرِي

فلما كان الليل أدخلها أخوها محمد بن أبي بكر البصرة فأنزلهافي دار عبدالله بن خلف الخزاعي علىٰ صفية بنت الحارث بن أبي طلحة بن عبد العزىٰ بن عثمان بن عبد الدار وهي أمّ طلحة الطلحات بن عبد الله بن خلف، وتسلل الجرحىٰ مِنْ بين القتلىٰ ليلاً فدخلوا البصرة فأقام عليّ بظاهر البصرة ثلاثاً.

---

(١) أي: اخرجوا الهودج من بين القتلىٰ.

[دفن القتلىٰ][1]:

وأذِنَ للناس في دفن موتاهم فخرجوا إليهم فدفنوهم، وطاف عليّ في القتلى فلما اتىٰ علىٰ كعب بن سور قال: « أزعمتم أنّه خرج معهم السفهاء وهذا الحَبْر قد ترون ».

وأتىٰ علىٰ عبد الرحمن بن عتّاب فقال: هذا يَعْسُوبُ القوم ـ يعني أنهم كانوا يطيفون به ـ واجتمعوا علىٰ الرضابة (٢) لصلاتهم.

ومَرّ علىٰ طلحة بن عبيد الله وهو صريع فقال: « لهفي عليك يا أبا محمد، إنّا لله وإنّا إليه راجعون. والله لقد كنتُ أكرهُ أنْ أرىٰ قُرَيشاً صرعىٰ، أنتَ واللهِ كما قال الشاعر:

فتى كـان يـدنيـه الغنى مِنْ صـديقـه ... إذا مـا هـو استغنىٰ ويبعـده الفقـر

وجعل كلما مرّ برجلٍ فيه خير قال: « زعم مَنْ زعم أنّه لم يخرج إلينا إلاّ الغوغاء وهذا العابد المجتهد فيهم ».

وصلىٰ عليّ علىٰ القتلى مِنْ أهل البصرة والكوفة، وصلىٰ علىٰ قريش مِنْ هؤلاء وهؤلاء، وأَمَرَ فدُفنت الأطراف في قبر عظيم، وجمع ما كان في العسكر شيء وبعث به إلىٰ مسجد البصرة وقال: « مَنْ عرف شيئاً فليأخذه إلاّ سلاحاً كان في الخزائن عليه سِمة السلطان ».

[عدد قتلىٰ الوقعة][3]

وكان جميع القتلى عشرة آلاف نِصْفهم مِنْ أصحاب عليّ ونصفهم مِنْ أصحاب عائشة، وقيل: غير ذلك.

وقُتل مِنْ ضبّة ألف رجل، وقُتل مِنْ بني عدي حول الجمل سبعون رجلاً كلهم قد قرأ القرآن سوىٰ الشباب ومَنْ لَمْ يقرأ.

ولَمّا فرغ عليّ مِن الوقعة أتاه الأحنف بن قيس في بني سعد وكانوا قد اعتزلوا القتال فقال له عليّ: تربصتَ؟

---

(١) عنوان زدناه من عندنا.

(٢) في المطبوعة: (على الرصافة) ـ تحريف.

(٣) عنوان زدناه من عندنا.

فقال: ما كنتُ أراني إلّا وقد احسنتُ وبأمرك كان ما كان يا أمير المؤمنين، فآرفق فإنّ طريقك الذي سلكتَ بعيد، وأنتَ إليّ غداً أحوج منك أمس فآعرفْ إحساني، واستصف مودّتي لغدٍ، ولا تَقُلْ مثل هذا فإنّي لم أزل لك ناصحاً.

ثم دخـل عليٌّ البصرة يـوم الاثنين فبايعـه أهلها علىٰ رايـاتهم حتى الجـرحى والمستأمنة، وأتاه عبد الرحمن بن أبي بَكْرَة في المستأمنين أيضاً فقال له علي: وما عمل المتربص المتقاعد بي أيضاً ـ يعني أباه أبا بكرة ـ فقال: والله إنّه لمريض، وإنه علىٰ مسرّتك لحريص.

فقال علي: امشِ أمامي. فمشىٰ معه إلىٰ أبيه فلما دخل عليه عليّ قال لـه: تقاعدت بي وتربصتَ؟ ووضع يده علىٰ صدره وقال: « هذا وَجَعٌ بيِّن »، واعتذر إليه فَقَبِل عُذْرَه، وأراده علىٰ البصرة فامتنـع، وقال: رجـلٌ مِنْ أهلك يسكنُ إليه النـاس وسأشير عليه. فافترقا علىٰ ابن عباس.

وولي زياداً علىٰ الخراج وبيت المال، وأمر ابن عباس أنْ يسمع منه ويطيع، وكان زياد معتزلاً ثم راح إلىٰ عائشة وهي في دار عبد الله بن خلف وهي أعظم دار بالبصرة فوجد النساء يبكين علىٰ عبد الله، وعثمان ابني خلف ـ وكان عبد الله قُتل مع عائشة، وعثمان قُتل مع علي ـ وكانت صفية زوجة عبد الله مختمرة تبكي فلما رأته قالت له: « يا عليّ: يا قاتل الأحبّة، يا مفرّق الجمع أيتم اللهُ منك بنيك كما أيتمتَ ولد عبد الله منه ». فلم يردّ عليها شيئاً، ودخل علىٰ عائشة فسلّم عليها وقعد عندها، ثم قال: جبهتنا صفية. أما إنّي لم أرها منذ كانت جارية. فلما خرج عليّ أعادْت عليه القول فكفّ بغلته وقال: « لقد هممتُ أنْ أفتح هذا الباب ـ وأشار إلى بابٍ في الدار ـ وأقتُل مَنْ فيه » وكان فيه ناسٌ مِن الجرحىٰ فأخبر عليّ بمكانهم فتغافل عنهم فسكت، وكان مذهبه أنْ لا يقتل مُدْبِراً، ولا يذفف علىٰ جريح، ولا يكشف ستراً ولا يأخذ مالاً.

ولما خرج عليّ مِنْ عند عائشة قال له رجل مِنْ أزد: والله لا تغلبنا هذه المرأة. فغضب وقال: « مَهْ لا تهتكن ستراً، ولا تدخلنّ داراً، ولا تُهَيّجَنّ امرأة بأذىٰ وإنْ شتمنَ أعراضكم وسفهن أمراءكم وصلحاءكم فإنّ النساءَ ضعيفات، ولقـد كنا نُؤْمَـر بالكفّ عنهن وهن مشركات فكيف إذا هن مسلمات.

ومضىٰ علي فلحقه رجلٌ فقال له: يا أمير المؤمنين قام رجلان علىٰ الباب فتناوَلاَ مَنْ هو امض شتيمة لك مِنْ صفية.

قال: ويحك لعلها عائشة؟ قال: نعم قال أحدهما: جزيت عنا أمنا عقوقنا. وقال الآخر: يا أمي توبي فقد أخطأتِ (١).

فبعث القعقاع بن عمرو إلىٰ الباب فأقبل بمن كان عليه فأحالوا علىٰ رجلين من أزد الكوفةِ وهما عجلان (٢)، وسعد ابنا عبد الله فضربهما مائة سوط وأخرجهما مِنْ ثيابهما.

وسألتْ عائشةُ يومئذ عَمّن قُتل مِن الناس منهم معها ومنهم عليها والناس عنده فَكُلَّمَا نعي واحد مِن الجميع قالت: « يرحمه الله ». فقيل لها: كيف ذلك؟

قالت: كذلك قال رسول الله ﷺ فلان في الجنة، وفلان في الجنة. وقال علي: إنّي لأرجو أنْ لا يكون أحدٌ نقيٌّ قلبه لله مِنْ هؤلاء إلاّ أدخله الله الجنة.

ثم جهّز عليٌّ عائشة بكل ما ينبغي لها من مركب، وزاد، ومتاع، وغير ذلك، وبعث معها كُلَّ مَنْ نجا ممن خرج معها إلاّ مَنْ أحبَّ المقام، واختار لها أربعين امرأة مِنْ نساء البصرة والمعروفات، وسَيَّر معها أخاها محمد بن أبي بكر، فلما كان اليوم الذي ارتحلتْ فيه أتاها عليّ فوقف لها وحضر الناسُ فخرجتْ وودَّعتهم وقالت: يا بني لا يعتب بعضُنا علىٰ بعض، إنّه والله ما كان بيني وبين عليّ في القديم إلاّ ما يكون بين المرأة وبين أحمائها، وإنه علىٰ معتبتي لمن الأخيار.

وقال عليّ: « صدقتْ واللهِ ما كان[بيني](٣)وبينها إلا ذاك وإنها لزوجة نبيكم في الدنيا والآخرة ».

وخرجتْ يوم السبت غرة رجب وشَيَّعَهَا أميالاً وسرّح بنيه معها يوماً فكان وجهها إلى مكة فأقامتْ إلى الحج ثم رجعت إلى المدينة وقال لها عمار حين وَدّعها: « ما أبعد هذا المسير من العهد الذي عُهد إليك.

---

(١) الطبري ٤/٥٤٠ : خطئت.

(٢) الطبري : وهما عجل . .

(٣) زيادة من الطبري ٤/٥٤٤.

قالت: والله إنك ما علمتُ لقوّال بالحق. قال: الحمد لله الذي قضىٰ علىٰ لسانِك لي.

وأما المنهزمون فقد ذكرنا حالهم وكان منهم عتبة بن أبي سفيان فخرج هو، وعبد الرحمن، ويحيى ابنا الحكم فساروا في البلاد فلقَيهم عصمة بن أبير التيمي فقال لهم: هل لكم في الجوار؟ فقالوا: نعم. فأجارهم وأنزلهم حتىٰ برأتْ جراحُهم وسَيَّرهم نحو الشام في أربعمائة راكب، فلما وصلوا إلى دَوْمة الجَنْدل قالوا: قد وَفَّيْتَ ذمتك وقضيتَ ما عليك. فرجع.

وأما ابن عامر فإنه خرج أيضاً فلقيه رجلٌ من بني حرقوص يدعى مُرِّي فأجاره وسيّره إلى الشام.

وأما مَرْوان بن الحكم فاستجار بمالك بن مسمع فأجاره، ووَفَّىٰ له، وحَفِظَ له بنو مَرْوان ذلك في خلافتهم، وانتفع بهم وشرّفوه بذلك.

وقيل: إنّ مروان نزل مع عائشة بدار عبد الله بن خلف وصحبها إلىٰ الحجاز، فلما سارتْ إلىٰ مكة سار إلى المدينة.

وأما عبد الله بن الزبير فإنه نزل بدار رجل من الأزد يدعىٰ وزيراً فقال له: ائتِ أمَّ المؤمنين فأعلمها بمكاني ولا يعلم محمد بن أبي بكر. فأتىٰ عائشة فأخبرَها فقالت: عليَّ بمحمد.

فقال لها إنّه قد نهاني أنْ يعلم محمد. فلم تسمع قوله وأرسلت إلى محمد وقالت: اذهب مع هذا الرجل حتى تأتيني بابن أختك. فانطَلقَ معه وخرج عبد الله ومحمد حتىٰ انتهيا إلى دار عائشة في دار عبد الله بن خلف.

ولما فرغ عليّ مِنْ بيعة أهل البصرة نظر في بيت المال فرأىٰ فيه ستمائة ألف وزيادة فقسّمها علىٰ مَنْ شهد معه فأصاب كل رجل منهم خمسمائة خمسمائة فقال لهم: أنْ أظفركم الله بالشام فلكم مثلها إلى أعطياتكم فخاض في ذلك السبئية وطعنوا علىٰ عليّ مِنْ وراء وراء، وطعنوا فيه أيضاً حين نهاهم عن أخذ أموالهم فقالوا: ما يحل لنا دماءهم ويحرم علينا أموالهم؟ فقال لهم علي: القوم أمثالكم مَنْ صفح عنا فهو منا ومَنْ لجّ حتىٰ يصاب فقتاله مني علىٰ الصدر والنحر.

وقال القعقاع: ما رأيتُ شيئاً أشبه بشيء مِنْ قتال القلب يوم الجمل بقتال صفين، لقد رأيتُنا ندافعهم بأسنتنا ونتكىء علىٰ أزجتنا وهم مثل ذلك حتىٰ لو أنّ الرجال مشتْ عليها لاستقلّت بهم وقال عبدالله بن سنان الكاهلي: لما كان يوم الجمل ترامينا بالنبل حتىٰ فنيت، وتطاعنا بالرماح حتى تكسّرت وتشبكت في صدورنا وصدورهم حتىٰ لو سيّرتْ عليها الخيل لسارتْ، ثم قال عليّ: «السيوف يا بني المهاجرين» فما شبهتُ أصواتها إلّا بضربِ القصارين، وعَلِم أهلُ المدينة بالوقعة يوم الحرب قبلَ أنْ تغرب الشمس مِنْ نِسْرٍ مَرّ بماءٍ حول المدينة ومعه شيء معلّق فسقط منه فإذا كفٌّ فيه خَاتَم نقشه: «عبد الرحمن بن عتاب»، وعلم مَنْ بين مكة والمدينة والبصرة بالوقعة بما ينقل إليهم النسور من الأيدي والأقدام.

وأراد عليّ المقام بالبصرة لإصلاح حالها فأعجلته السبئية عن المقام فإنهم ارتحلوا بغير إذنِهِ فارتحل في آثارهم ليقطع عليهم أمراً إنْ أرادوه.

وقد قيل في سبب القتال يوم الجمل غير ما تقدم مع الاتفاق علىٰ مسير أصحاب عائشة ونزولهم البصرة والوقعة الأولى مع عثمان بن حنيف وحُكَيْم.

وأما مسير عليّ، وعزل أبي موسى فقال فيه: إنّ علياً لَمّا أرسل محمد بن أبي بكر إلىٰ أبي موسى وجرىٰ له ما تقدّم سار هاشم بن عتبة بن أبي وقاص إلىٰ عليّ بالربذة فأعلمه الحال فأعاده عليّ إلىٰ أبي موسىٰ يقول له: أرسل الناس فإني لم أُوَلِّك إلّا لتكون مِنْ أعواني علىٰ الحق. فامتنع أبو موسىٰ، فكتب هاشم إلىٰ علي: إني قدمتُ علىٰ رجل غالّ، مشاقق، ظاهر الشنئان وأرسل الكتاب مع المحل بن خليفة الطائي فبعث عليّ الحسن ابنه، وعمار بن ياسر يستنفران الناس، وبعث قرظة بن كعب الأنصاري أميراً، وكتب معه إلىٰ أبي موسىٰ: إني قد بعثتُ الحسن وعماراً يستنفران الناس، وبعثتُ قرظة بن كعب والياً علىٰ الكوفة فأعتزلْ عملنا مذموماً مدحوراً وان لم تفعل فإني قد أمرته أنْ ينابذك فإنْ نابذتَه فظفر بك يقطعك إرباً إرباً فلما قدم الكتاب علىٰ أبي موسىٰ اعتزل، واستنفر الحسنُ الناس فنفروا نحو ما تقدم، وسار عليّ عن نحو البصرة فقال جون بن قتادة: كنتُ مع الزبير فجاء فارس يسير فقال: السلام عليك أيها الأمير. فرد عليه فقال: إنّ هؤلاء القوم قد أتوا مكان كذا وكذا فلم أر أَرَثّ سلاحاً، ولا أقلّ عدداً، ولا أرعب قلوباً منهم. ثم انصرف عنه وجاء فارس آخر فقال له: إنّ القوم قد

بلغوا مكان كذا وكذا فسمِعوا بما جمع اللَّهُ لكم مِن العدد والعدة فخافوا فولّوا مدبرين.

فقال الزبير: أيها عنك فوالله لو لم يجد علي بن أبي طالب إلا العرفج[1] لدب إلينا فيه فانصرف.

وجاء فارس وقد كادت الخيلُ تخرج مِن الرهج فقال: هؤلاء القوم قد أتوك فلقيت عمار فقلت له وقال لي فقال الزبير: إنه ليس فيهم. فقال الرجل: بلىٰ والله إنه لقيهم. فقال الزبير: والله ما جعله الله فيهم. فقال الرجل: بلىٰ والله. فلما كرّر عليه أرسل الزبير رجلين ينظران فانطلقا ثم رجعا فقالا: صدق الرجلُ. فقال الزبير: يا جَدْع أنفاه، يا قَطْع ظهراه. ثم أخذته رِعْدَة فجعل السلاح ينتفض قال جون: فقلت: «ثكلتني أمي! هذا الذي كنتُ أريد أنْ أموت معه أو أعيش! ما أخذه هذا الأمر إلا لشيءٍ سمعه مِن رسول الله ﷺ». وانصرف جون فاعتزل، وجاء عليّ فلما تواقف الناسُ دعا الزبير وطلحة فتوافقوا... وذكر مِنْ أمر الزبير وعَوده وتكفيره عن يمينه مثل ما تقدم، فلما أبوا إلا القتال قال علي: أيكم يأخذ هذا المصحف يدعوهم إلىٰ ما فيه فإنْ قطعت يده أخذه بيده الأخرى فإنْ قطعت أخذه بأسنانه وهو مقتول فقال شاب: أنا. فطاف به علىٰ أصحابه فلم يُجبه إلاّ ذلك الشاب ثلاث مرات فسلّمه إليه فدعاهم فقُطعت يَدُه اليُمْنَىٰ فأخذه باليسرىٰ فقطعتْ فأخذه بصدره والدماء تسيل علىٰ قبائه فقُتل فقال عليّ: الآن حلّ قِتَالُهم. فقالت أم الفتىٰ:

لا هُمَّ[2] إنّ مسلماً دعاهم ... يتلو كِتَابَ الله لا يخشاهم
وَأُمُّهُم قائِمَة تُرَاهم ... تأمُرُهم بالقتلِ لا تنهاهم[3]
قَدْ خضبت مِنْ علق لحاهم

وحملت ميمنة عليّ علىٰ ميسرتهم فاقتتلوا فلاذ الناسُ بعائشة وكان أكثرهم مِنْ ضبة والأزد، وكان قتالهم مِن ارتفاع النهار إلىٰ قريبٍ مِنْ العصر ثم انهزموا، ونادىٰ رجلٌ منْ الأزد: «كروا» فضربه محمد بن عليّ فقطع يده فقال: «يا معشر الأزد فِروا».

---

(١) العرفج: ضرب من النبات سريع الاتقاد.

(٢) يعني: اللهم.

(٣) الطبري: يأتمرون الغي لا تنهاهم.

واستحرّ القتلَ في الأزد فنادَوا: «نحن علىٰ دين عليّ» فقال رجل من بني ليث:

سائل بنا حين لقينا الأزدا ... والخيل تعدو أشقراً ووردا
لما قطعنا[1] كبدهم والزندا ... سُحْقاً لهم في رأيهم وبُعْداً

وحمل عمار بن ياسر علىٰ الزبير فجعل يحوزه بالرمح فقال: أتريدُ أنْ تقتلني يا أبا اليقظان؟ فقال: لا يا أبا عبدالله انصرفْ. فانصرف.

وجرح عبدالله بن الزبير فألقىٰ نفسه في الجرحىٰ ثم برأ.

وعُقر الجمل، واحتمل محمد بن أبي بكر عائشة فأنزلها وضرب عليها قُبّة فوقف عليٌّ عليها وقال لها: استنفرتِ الناسَ وقد فروا. وألبّتِ بينهم حتىٰ قَتَل بعضُهم بعضاً! في كلام كثير.

فقالت عائشة: ملكتَ فاسجع. نعم ما ابتليت قومك اليوم. فسرّحها وأرسل معها جماعة مِن رجال ونساء وجهزها بما تحتاج.

لم أذكر في وقعة الجمل إلاّ ما ذكره أبو جعفر إذ كان أوثق مَنْ نقل التاريخ فإنّ الناس قد حشوا تواريخهم بمقتضىٰ أهوائِهم.

[من قتلى يوم الجمل]

وممن قتل يوم الجمل: عبد الرحمن بن عبيدالله أخو طلحة له صحبة.

وعمرو بن عبدالله بن أبي قيس بن عامر بن لُؤَيّ له صُحبة.

وفيها قتل المحرز بن حارثة بن ربيعة بن عبد العزىٰ بن عبد شمس له صحبة واستعمله عمر علىٰ مكة ثم عزله. وفيها قتل معرض بن علاط السلمي أخو الحجاج بن علاط قتل مع عليّ. وفيها قتل مجاشع، ومجالد ابنا مسعود السلميان مع عائشة لهما صحبة، فأما مجاشع فلا شك أنه قتل في الجمل.

وقتل عبدالله بن حكيم بن حزام الأسدي القرشي مع عائشة وكان إسلامه يوم

---

(١) في الأصل: (لما قطعوا) ـ وهو غلط لفظاً ومعنى. (م).

الفتح . وفيها قتل هند بن أبي هالة الأُسَيِّدِيّ أمه خديجة بنت خويلد زوج النبي ﷺ مع علي ـ وقيل : مات بالبصرة والأول أصح .

(الأُسَيْدِيّ) بضم الهمزة منسوب إلى أُسَيِّد بتشديد الياء وهم بطن من تيم .

وقتل هلال بن وكيع بن بشر التميمي مع عائشة له صحبة. وفيها قتل معاذ بن عفراء أخو معوذ وهما ابنا الحارث بن رفاعة الأنصاريان وشهدا بدراً وقتل مع علي وقيل : عاش وقتل في وقعة الحرة .

(التَّيِّهانَ) بفتح التاء فوقها نقطتـان وتشديـد الياء تحتهـا نقطتـان وآخره نـون . و (شَبث) بفتح الشين المعجمة والباء الموحدة وآخره ثاء مثلثة . و (سَيْحَان) بفتح السين المهملة وسكون الياء تحتها نقطتان وفتح الحاء المهملة وآخره نون . و (نَجَبَة) بفتح النون والجيم والباء الموحدة . و (عَمِيْرة) بفتح العين وكسر الميم . و (أُبَيْر) بضم الهمزة وفتح الباء الموحدة . و (الخِرِّيْت) بكسر الخاء المعجمة والراء المشددة وسكون الياء المثناة من تحتها نقطتان وفي آخره تاء فوقها نقطتان .

ذكر قصد الخوارج سجستان

في هذه السنة بعد الفراغ من وقعة الجمل خرج حسكة بن عتاب الحبطي، وعمران بن الفضيل البرجمي في صعاليك مِن العرب حتىٰ نزلوا «زالق» مِن سجستان وقد نكث أهلها فأصابوا منها مالاً ثم أتوا «زرنج» وقد خافهم مرزبانها فصالحهم ودخلوها فقال الراجز:

بَشِّرْ سِجِسْتَانَ بِجُوعٍ وَحَرْبٍ ... بابْنِ الفضيل وَصَعَالِيْكِ العَرَبِ
لا فِضَّةٌ تُغْنِيْهِم وَلاَ ذَهَبْ

فبعث عليّ عبد الرحمن بن جرو الطائي فقتله حسكة، فكتب عليّ إلىٰ عبدالله بن العباس يأمره أنْ يولّي سجستان رجلاً ويُسَيّره إليها في أربعةِ آلاف فوَجّه ربعي بن كاس العنبري ومعه الحصين بن أبي الحر العنبري فلما ورد سجستان قاتلهم حسكة وقتلوه وضبط ربعي البلاد وكان فيروز حصين ينسب إلىٰ الحصين بن أبي الحر هذا وهو من سجستان

ذكر قتل محمد بن أبي حذيفة

في هذه السنة قُتل محمد بن أبي حُذيفة وكان أبوه أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس قد قُتل يوم اليمامة وترك ابنه محمداً هذا فكفله عثمان بن عفان وأحسن تربيته وكان فيما قيل أصاب شراباً فَحَدَّه عثمان ثم تنسك محمد وأقبل علىٰ العبادة، وطلب مِن عثمان أنْ يوليه عملاً فقال: لو كنت أهلاً لذلك لوليتك. فقال له: إنّي قد رغبتُ في غَزْو البحر فأْئذنْ لي في إتيان مصر. فأذن له وجهزه، فلما قدِمها رأىٰ الناس عبادته فلزموه وعَظّموه، وغزا مع عبدالله بن سعد غزوة الصواري، وكان محمد يعيبه ويعيب عثمان بتوليته ويقول: استعمل رجلاً أباح رسولُ الله دَمَه! فكتب عبدالله إلىٰ

عثمان: «إنّ محمداً قد أفسدَ عليَّ البلاد هو ومحمد بن أبي بكر».

فكتب إليه: «أمّا ابن أبي بكر فإنه يوهب لأبيه ولعائشة، وأما ابن أبي حذيفة فإنه ابني وابن أخي وتربيتي وهو فرخ قريش». فكتب إليه: «إن هذا الفرخ قد استوىٰ ريشُه ولم يبق إلاّ أنْ يطير».

فبعث عثمان إلىٰ ابن أبي حذيفة بثلاثين ألف درهم وبجمل عليه كسوة فوضعها محمد في المسجد ثم قال: «يا معشر المسلمين ألا ترون إلىٰ عثمان يخادعني عن ديني ويرشوني عليه». فازداد أهلُ مصر تعظيماً له وطَعْناً علىٰ عثمان وبايعوه علىٰ رياستهم، فكتب إليه عثمان يذكِّره بره به وتربيته إياه وقيامه بشأنه ويقول: «إنك كفرتَ إحساني أحوج ما كنتُ إلىٰ شكرِك». فلم يرده ذلك عن ذمه وتأليب الناس عليه، وحثهم علىٰ المسير إلىٰ حصره ومساعدة مَنْ يريد ذلك.

فلما سار المصريون إلىٰ عثمان أقام هو بمصر وخرج عنها عبدالله بن سعد بن أبي سرح فاستولىٰ عليها وضبطها فلم يزل بها مقيماً حتىٰ قُتل عثمان وبويع عليّ، واتفق معاوية وعمرو بن العاص علىٰ خلاف عليّ فسارا إلىٰ مصر قبل قدوم قيس بن سعد إليها أميراً فأراد دخولها فلم يقدر على ذلك فخدع محمداً حتى خرج منها إلى العريش في ألف رجل فتحصن بها فنصب عليه المنجنيق حتىٰ نزل في ثلاثين مِنْ أصحابه فقُتل.

وهذا القولُ ليس بشيء لأن علياً استعمل قيساً علىٰ مصر أول ما بويع له، ولو أنّ ابن أبي حذيفة قتله معاوية وعمرو قبل وصول قيس إلىٰ مصر لاستوليا عليها لأنه لم يكن بها أمير يمنعهما عنها ولا خلاف أنْ استيلاء معاوية وعَمْرو عليها كان بعد صفين والله أعلم.

وقيل: غير ذلك وهو أنّ محمد بن أبي حذيفة سَيّر المصريين إلىٰ عثمان فلّما حصروه أخرج محمد عبدَالله بن سعد عن مصر وهو عامل عثمان واستولىٰ عليها فنزل عبدُالله علىٰ تخوم مصر وانتظر أمرَ عثمان فطلع عليه راكب فسأله فأخبره بقَتْل عثمان فاسترجع، وسأله عما صنع الناس بعده فأخبره ببيعة عليّ فاسترجع فقال له: كأنَّ إمرة عليّ تعدِل عندك قَتْل عثمان.

قال: نعم. قال: أظنك عبدالله بن سعد. فقال: نعم. فقال له: إنْ كانت لك في

نفسك حاجة فالنجاء النجاء فإنّ رَأيَ أمير المؤمنين عليّ فيك وفي أصحابك إنْ ظفر بكم أنْ يقتلكم أو ينفيكم، وهذا بَعْدِي أمير يقدم عليك. فقال: من هـو؟ قال: قيس بن سعد بن عبادة قال عبدالله بن سعد: أبعد الله محمد بن أبي حذيفة فإنّه بغىٰ علىٰ ابن عمه، وسعىٰ عليه، وقد كفله، وربّاه، وأحسن إليه فأساء جواره، وجهز إليه الرجال حتىٰ قتل، ثم ولى عليه من هو أبعد منه ومن عثمان ولم يمتعه بسلطان بلاده شهراً ولم يره لذلك أهلاً.

وخرج عبدالله هارباً حتى قدِم علىٰ معاوية. وهذا القول يدل علىٰ أنّ قيساً ولي مصر ومحمد بن أبي حذيفة حي وهو الصحيح.

وقيل: إنّ عَمْراً سار إلىٰ مصر بعد صفين فلقيَه محمد بن أبي حذيفة في جيش، فلما رأىٰ عمرو كثرة من معه أرسل إليه فالتقيا واجتمعا فقال له عَمرو: «إنه قد كان ما ترىٰ وقد بايعتُ هذا الرجل - يعني معاوية - وما أنـا براض بكثيـر من أمره وإنّي لأعلم أنّ صاحبك علياً أفضل من معاوية نفساً وقديماً، وأولىٰ بهذا الأمر، فواعِدْنِي موعداً ألتقي معك فيه في غير جيش تأتي في مائة وآتي في مثلها وليس معنا إلاّ السيوف في القرب». فتعاهدا وتعاقدا علىٰ ذلك واتّعدا العريش، ورجع عَمْرو إلىٰ معاوية فأخبره الخبر فلما جاء الأجل سار كلُّ واحدٍ منهما إلىٰ صاحبه في مائة، وجعل عَمْرو لـه جيشاً خلفـه لينطوي خبره، فلما ٱلتقيا بالعريش قدِم جيشُ عَمْرٍو علىٰ أثره فعلم محمد أنّه قد غدر به فدخل قصراً بالعريش فتحصّن به فحصره عَمْرو ورماه بالمنجنيق حتىٰ أُخِذَ أسيراً وبعث به عَمْرو إلىٰ معاوية فسجنه، وكانت ابنة قرظة امرأة معاوية ابنة عمة محمـد بن أبي حذيفة أمها فاطمة بنت عتبة فكانت تصنع له طعاماً ترسله إليه فأرسلتْ إليه يومـاً في الطعام مبارد فبرد بها قيوده وهرب فاختفىٰ في غارٍ فأُخِذَ وقُتل والله أعلم.

وقيل: إنه بقي محبوساً إلىٰ أنْ قُتل حُجْر بن عَدِيّ ثم إنه هرب فطلبه مالك بن هبيرة السكوني فظفر به فقتله غضباً لحجر وكان مالك قد شفع إلىٰ معاوية في حُجْر فلم يشفعه. وقيل: إنّ محمد بن أبي حذيفة لما قتل محمد بن أبي بكر خرج في جمعٍ كثير إلىٰ عَمرو فأمّنه عَمْرو ثم غدر به وحمله إلىٰ معاوية بفِلَسْطِين فحبسه، ثم إنه هرب فأظهر معاوية للناس أنه كره هربه وأمر بطلبه فسار في أثره عبدالله بن عَمْرو بن ظلام الخثعمي فأدركه بحَوْرَان في غار وجاءت حُمُرٌ تدخلُ الغار فلمّا رأتْ محمداً نَفَرَتْ منه وكان هناك

ناس يحصدون فقالوا: «والله إنّ لِنفرة هذه الحمر لشأناً» فذهبوا إلىٰ الغار فرأوه فخرجوا مِنْ عنده فوافقهم عبيدالله فسألهم عنه ووصفه لهم فقالوا: هو في الغار فأخرجه وكره أن يأتي به معاوية فيخلي سبيله فضرب عنقه وكان ابن خال معاوية.

ذكر ولاية قيس بن سعد مصر

وفي هذه السنة في صَفَر بعث عليّ قيس بن سعد أميراً علىٰ مِصْر وكان صاحب راية الأنصار مع رسول الله ﷺ ـ وكان من ذوي الرأي والبأس ـ فقال له: سِر إلىٰ مصر فقد وليتكها واخرج إلىٰ رحلك وأجمع إليك ثقاتك ومِنْ أحببتَ أنْ يصحبك حتىٰ تأتيها ومعك جند فإنّ ذلك أرعب لعدوك، وأعزّ لوليك. وأحْسِنْ إلىٰ المحسِن وآشتدّ علىٰ المريب، وأرفق بالعامة والخاصة فإنّ الرِّفْقَ يُمْن.

فقال له قيس: أما قولك: أخرج إليها بجند: فوالله لئن لم أدخلها إلّا بجندٍ آتيها به من المدينة لا أدخلها أبداً فأنا أدع ذلك الجند لك فإنْ كنت احتجت إليهم كانوا منك قريباً، وإنْ أردت أن تبعثهم إلىٰ وجه مِن وجوهك كانوا عدّة [لك].

فخرج قيس حتىٰ دخل مصر في سبعة مِنْ أصحابه علىٰ الوجه الذي تقدم ذكره فصعد المنبر فجلس عليه وأمر بكتاب أمير المؤمنين فقُرىء علىٰ أهل مصر بإمارته ويأمرهم بمبايعته ومساعدته وإعانته على الحق[1].

ثم قام قيس خطيباً وقال: «الحمد لله الذي جاء بالحق، وأمات الباطل، وكبتَ الظالمين. أيها الناس: إنّا قد بايعنا خيرَ مَنْ نعلم بعد نبينا ﷺ فقوموا أيها الناس فبايعوه علىٰ كتاب الله، وسنة رسوله فإنْ نحن لم نعمل لكم بذلك فلا بيعةَ لنا عليكم». فقام الناس فبايعوا واستقامت [له] مصر، وبعث عليها عُمّاله إلا قرية منها يقال لها «خربتا» فيها ناسٌ قد أَعْظَمُوا قَتْلَ عثمان، عليهم رجلُ مِنْ بني كنانة ثم من بني مدلج اسمه يزيد بن الحارث فبعثَ إلىٰ قيس يدعو إلىٰ الطلب بدم عثمان، وكان مسلمة بن مخلد قد أظهر الطلب أيضاً بدم عثمان فأرسل إليه قيس: ويحك أَعَلَيَّ تثب! فوالله ما أحب أنّ لي مُلك الشام إلىٰ مصر وأنى قتلتك. فبعث إليه مسلمة: إنّي كافّ عنك ما دمت وأنت والي مصر.

---

(١) أنظر بسطه في الطبري.

وبعث قيس ـ وكان حازماً ـ إلىٰ أهل «خربتا»: إني لا أُكرهكم علىٰ البيعة وإني كافّ عنكم. فهادنهم وجبىٰ الخراج ليس أحد ينازعه، وخرج أمير المؤمنين إلىٰ الجمل ورجع وهو بمكانه فكان أثقل خلق الله علىٰ معاوية مخافة أنْ يُقْبل عليّ في أهل العراق وقيس في أهل مصر فيقع بينهما معاوية، فكتب معاوية إلىٰ قيس: «سلام عليك أما بعد فإنكم نقمتم علىٰ عثمان ضربةً بسوط، أو شتيمة رجل، أو تسيير آخر، واستعمال فتى، وقد علمتم أنّ دمه لا يحل لكم فقد ركبتم عظيماً، وجئتم أمراً إدًّا فتب إلىٰ الله يا قيس فإنك من المجلبين علىٰ عثمان فأما صاحبك فإنّا استيقنا أنه الذي أغرىٰ [به] الناس، وحملهم حتىٰ قتلوه، وأنه لم يَسْلَم من دمه عُظْم قومك فإن استطعتَ يا قيس أنْ تكون ممن يطالب بدم عثمان فافعل وتابعنا علىٰ أمرنا ولك سلطان العراقَيْن إذا ظهرت ما بقيتُ، ولمن أحببتَ مِنْ أهلك سلطان الحجاز ما دام لي سلطان، وسَلْني ما شئتَ فإنّي أُعطيك واكتبْ إليّ برأيك.

فلما جاءه الكتاب أحب أن يدافعه ولا يبذي له أمره ولا يتعجل إلىٰ حربه فكتب إليه: «أما بعد فقد فهمتُ ما ذكرتَه مِن قتلة عثمان فذلك شيءٌ لم أقاربه[1]، وذكرتَ أنّ صاحبي هو الذي أغرىٰ به حتىٰ قتلوه وهذا مما لم أطلع عليه، وذكرتَ أنّ عُظْم عشيرتي لم تَسْلَم [مِنْ دم عثمان] فأوّل الناس كان فيه قياماً عشيرتي، وأما ما عرضته مِنْ متابعتك فهذا أمرٌ لي فيه نظر وفِكرة وليس هذا مما يسرع إليه، وأنا كافّ عنك، وليس يأتيك مِنْ قبلي شيءٌ تكرهه حتىٰ ترىٰ ونرىٰ إنْ شاء الله تعالى».

فلما قرأ معاوية كتابه رآه مقارباً مباعداً فكتب إليه: «أما بعد فقد قرأتُ كتابك فلم أرك تدنو فأعِدَّك سِلْماً، ولا متباعداً فأعدك حرباً، وليس مثلي يصانع المخادِع وينخدعُ للمكايِد ومعه عدد الرجال و[بيده] أعنّة الخيل والسلام».

فلما قرأ قيس كتابه ورأىٰ أنه لا يفيد معه المدافعة والمماطلة أظهر له ما في نفسه فكتب إليه: «أما بعد: فالعجب مِنْ اغترارك بي، وطمعك فيّ، واستسقاطك إياي. أتسومني الخروج عن طاعة أولىٰ الناس بالإمارة، وأقوَلهم بالحق، وأهداهم سبيلاً، وأقربهم مِنْ رسول الله ﷺ وسيلة، وتأمرني بالدخول في طاعتك طاعة أبعد الناس من

---

(١) الطبري: لم أقارفه.

هذا الأمر، وأقولهم بالزور، وأضلهم سبيلاً، وأبعدهم مِنْ رسول الله ﷺ وسيلة ولد ضالين مضلين طاغوت من طواغيت إبليس.

وأما قولك إني مالىءٌ عليك مصر خيلاً ورجالاً فوالله إنْ لم أشغلك بنفسك حتىٰ تكون أهم إليك إنك لذو جد والسلام».

فلما رأى معاوية كتابه أيس منه وثقل عليه مكانه ولم تنجع حيله فيه فكاده مِنْ قِبَل علي فقال لأهل الشام: لا تسبوا قيس بن سعد، ولا تدعوا إلىٰ غزوة فإنه لنا شيعة قد تأتينا كتبه ونصيحته سِرًّا. ألا ترون ما يفعل بإخوانكم الذين عنده مِن أهل خربتا يجري عليهم أعطياتهم وأرزاقهم ويحسِن إليهم، وافتعل كتاباً عن قيس إليه بالطلب بدم عثمان والدخول معه في ذلك، وقرأه علىٰ أهل الشام، فبلغ ذلك علياً أبلغه ذلك محمد بن أبي بكر ومحمد بن جعفر بن أبي طالب وأعلمته عُيُونه بالشام فأعظمه وأكبره فدعا ابنيه، وعبدالله بن جعفر فأعلمهم ذلك فقال ابن جعفر: «يا أمير المؤمنين دع ما يريبك إلىٰ ما لا يريبك. اعزلْ قيساً عن مصر. فقال علي: إنّي والله ما أُصَدِّقُ بهذا عنه. فقال عبدالله: اعزله فإنْ كان هذا حقاً لا يعتزل لك.

فبينا هم كذلك إذ جاءهم كتاب من قيس يخبر أمير المؤمنين بحال المعتزلين وكَفِّه عن قتالهم فقال ابن جعفر: ما أخوفني أنْ يكون ذلك ممالأة منه، فمره بقتالهم.

فكتب إليه يأمره بقتالهم، فلما قرأ الكتاب كتب جوابه: «أما بعد فقد عجبتُ لأمرك تأمرني بقتال قوم كافّين عنك مفرغيك لعدوّك ومتى حاددناهم ساعدوا عليك عدوك فأطعني يا أمير المؤمنين وآكفف عنهم فإنّ الرأيَ تَرْكَهم والسلام».

فلما قرأ عليّ الكتاب قال ابن جعفر: يا أمير المؤمنين ابعثْ محمد بن أبي بكر علىٰ مصر واعزلْ قيساً فقد بلغني أن قيساً يقول: إن سلطاناً لا يستقيم إلا بقتل مسلمة بن مخلد لسلطان سوء ـ وكان ابن جعفر أخا محمد بن أبي بكر لأمه ـ فبعث عليّ محمد بن أبي بكر إلىٰ مصر ـ وقيل: بعثِ الاشتر النخعي فمات بالطريق فبعث محمداً ـ فقدِم محمد علىٰ قيس بمصر فقال له قيس: ما بال أمير المؤمنين ماغيّره؟ أَدَخَلَ أحدٌ بيني وبينه؟

قال: لا. وهذا السلطان سلطانك؟ قال: لا والله لا أقيم. وخرج منها مقبِلاً إلىٰ

المدينة وهو غضبان لِعَزْله فجاءه حسان بن ثابت ـ وكان عثمانياً يشمت به ـ فقال له: قتلتَ عثمان وَنَزَعك عليّ فبقي عليك الإثم ولم يُحْسِن لك الشكر. فقال له قيس: يا أعمىٰ القلب والبصر والله لو ألقي بين رهطي ورهطك حرباً لضربتُ عنقك. أخرجْ عني.

ثم أخاف مَرْوان بن الحكم قيساً بالمدينة فخرج منها هو وسهل بن حنيف إلىٰ عليّ فشهدا معه صفين فكتب معاوية إلىٰ مَرْوان يتغيظ عليه ويقول له: «لو أمددتَ علياً بمائة ألف مقاتل لكان أيسر عندي مِنْ قيس بن سعد في رأيه ومكانه».

فلما قَدِم قيس علىٰ عليّ وأخبره الخبر علم أنه كان يقاسي أموراً عظاماً من المكايدة، وجاءهم خبر قتل محمد بن أبي بكر فعظم محل قيس عنده وأطاعه في الأمر كله.

ولما قدم محمد مصر قرأ كتاب عليّ علىٰ أهل مصر ثم قام فخطب فقال: «الحمد لله الذي هدانا وإياكم لِمَا آختُلف فيه من الحق، وَبصَّرَنَا وإيّاكم كثيراً مما كان عمي عنه الجاهلون. ألا إنّ أمير المؤمنين وَلاّني أمركم وعَهِد إليّ ما سمعتم، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلتُ وإليه أنيب، فإنْ يكن ما ترَوْن مِنْ إمارتي وأعمالي طاعة لله فاحمدوا الله علىٰ ما كان مِنْ ذلك فإنه هو الهادي له، وإنْ رأيتم عاملاً لي عمل بغير الحق فارفعوه إليّ وعاتبوني فيه فإني بذلك أسعد وأنتم [بذلك] جديرون. وفقنا الله وإياكم لصالح الأعمال برحمته».

ثم نزل، ولبث شهراً كاملاً حتىٰ بعث إلىٰ أولئك القوم المعتزلين الذين كانوا قد وادعهم قيس فقال لهم: «إمّا أنْ تدخلوا في طاعتنا وإمّا أنْ تخرجوا عن بلادنا». فأجابوه: «إنا لا نفعل فدَعْنا حتىٰ ننظر إلى ما يصير إليه أمرنا فلا تعجل لحربنا». فأبىٰ عليهم فآمتنعوا [منه] وأخذوا حذرهم فكانت وقعة صفين وهم هائبون لمحمد، فلما رجع عليّ عن معاوية وصار الأمرُ إلىٰ التحكيم طمعوا في محمد وأظهروا له المبارزة فبعث محمد الحارث بن جمهان الجعفي إلىٰ أهل خربتا وفيها يزيد بن الحارث مع بني كنانة ومن معه فقاتلهم فقاتلوه وقَتلوه، فبعث محمد إليهم أيضاً ابن مضاهم الكلبي فقتلوه.

وقد قيل: إنه جرىٰ بين محمد ومعاوية مكاتبات كَرِهْتُ ذكرها فإنّها مما لا يحتمل سماعها العامة[١].

وفيها قدم ابراز بن مرزبان مرو إلىٰ عليّ بعد الجمل مقرًّا بالصلح، فكتب له كتاباً إلىٰ دهاقين مرو، والاساورة، ومَنْ بمرو، ثم إنهم كفروا وأغلقوا نيسابور فبعث عليّ خليد بن قرة، وقيل: ابن طريف اليربوعي إلىٰ خراسان.

ذكر قدوم عمرو بن العاص على معاوية ومتابعته له

قيل: كان عمرو بن العاص قد سار عن المدينة قبل أنْ يقتل عثمان نحو فِلَسْطِين، وسبب ذلك أنه لمّا أُحيط بعثمان قال: «يا أهل المدينة لا يقيمُ أحدٌ فيدركه قَتْل هذا الرجل إلاّ ضربه الله بذل. مَنْ لم يستطع نصره فليهرب». فسار، وقيل: غير ذلك وقد تقدم.

وسار معه ابناه عبدالله، ومحمد فسكن فلسطين فمرّ به راكبٌ من المدينة فقال له عمرو: ما اسمك؟

قال: حصيرة. قال عمرو: حُصِرَ الرجل. فما الخبر؟ قال: تركتُ عثمان محصوراً. ثم مر به راكب آخر بعد أيام فقال له عمرو: ما اسمك؟ قال: قتال. قال: قُتل الرجل. فما الخبر؟ قال: قُتل عثمان ولم يكن شيء إلىٰ أنْ سرت.

ثم مرّ به راكب من المدينة فقال له عمرو: ما اسمك؟ قال: حرب. قال عمرو: لَيَكُون حرب. وقال له: ما الخبر؟ فقال: بَايَعَ الناسُ علياً. فقال سلم بن زنباع: يا معشر العرب كان بينكم وبين العرب باب فكُسِر فاتخذوا باباً غيره. فقال عمرو: ذلك الذي نريده. ثم ارتحل عَمْرو راجلاً معه ابناه يبكي كما تبكي المرأة[٢] وهو يقول: «واعثماناه. انعي الحياءَ والدين». حتىٰ قدِم دمشق، وكان قد علم الذي يكون فعمل عليه لأن النبي ﷺ كان قد بعثه إلىٰ عمان فسمع مِنْ حَبْرٍ هناك شيئاً عرف مصداقه، فسأله عن وفاة النبي ﷺ ومَنْ يكون بعده. فأخبره بأبي بكر وأنّ مدته قصيرة، ثم يلي بعده رجلٌ من قومه مثله تطول مدته ويقتل غيلة، ثم يلي بعده رجلٌ مِنْ قومه تطولُ مُدَّتُه ويُقتل

---

(١) علل الطبري ٤/٥٥٧ أيضاً في كتابه عدم ذكر المكاتبات بذلك.

(٢) بعيدٌ أنْ يكون ذهاب عمرو علىٰ هذه الصورة (م).

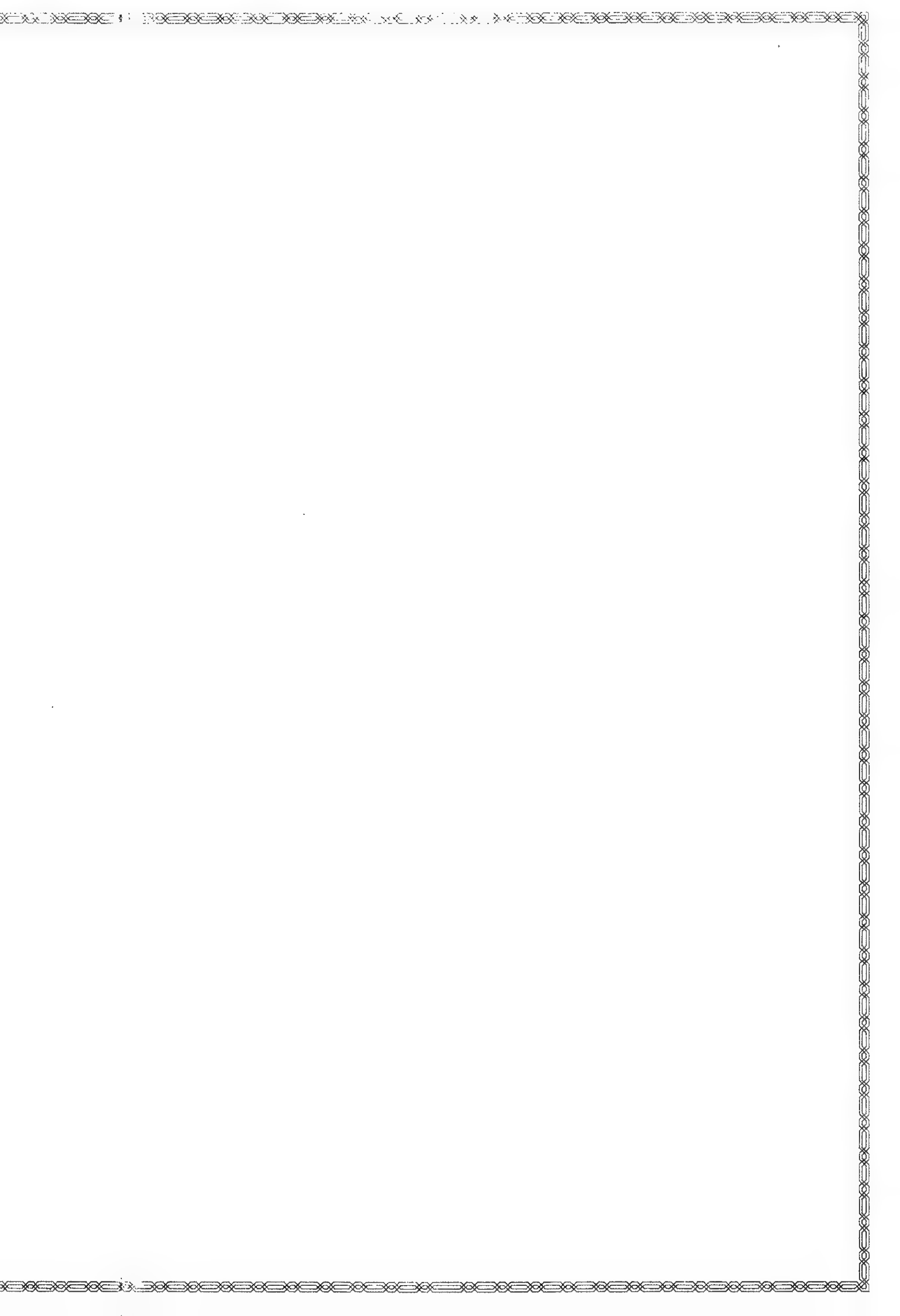
عن ملأ. قال: ذلك أشد ثم يلي بعده رجلٌ مِنْ قومه ينتشرُ الناس عليه ويكون علىٰ رأسه حرب شديدة، ثم يقتل قبل أنْ يجتمع الناسُ عليه، ثم يلي بعده أمير الأرض المقدسة فيطول مُلْكه وتجتمع عليه أهل تلك الفِرْقة ثم يموت. وقيل: إنَّ عَمْراً لمّا بلغه قَتْل عثمان قال: «أنا أبو عبدالله، أنا قتلته وأنا بوادي السباع[1]، إنْ يلِ هذا الأمر طلحة فهو فتى العرب سيبا، وإنْ يله ابن أبي طالب فهو أكره مَنْ يليه إليّ». فبلغه بيعة عليّ فاشتد عليه وأقام ينتظر ما يصنع الناس فأتاه مسير عائشة وطلحة والزبير فأقام ينتظر ما يصنعون فأتاه الخبر بوقعة الجمل فارتج عليه أمره فسمع أنّ معاوية بالشام لا يبايع علياً وأنه يعظم شأن عثمان ـ وكان معاوية أحب إليه من علي ـ فدعا ابنَيْه عبدالله ومحمداً فاستشارهما وقال: «ما تريان؟ أمّا عليّ فلا خير عنده وهو يدل بسابقته وهو غير مشركي في شيء مِنْ أمره». فقال له ابنه عبدالله: تُوُفّي النبيُّ ﷺ وأبو بكر وعمر وهم عنك راضون فأرىٰ أن تكف يدك وتجلس في بيتك حتى يجتمعَ الناسُ [علىٰ إمامٍ فتبايعه]. وقال له ابنه محمد: أنت نابٌ مِنْ أنياب العرب، ولا أرىٰ أن يجتمع هذا الأمر وليس لك فيه صوت. فقال عمرو: أما أنت يا عبدالله فامرتني بما هو خير لي [في آخرتي وأسلم] في ديني، وأما أنت يا محمد فأمرتني بما هو خير لي في دنياي وشر لي في آخرتي. ثم خرج ومعه ابناه حتىٰ قدِم علىٰ معاوية فوجد أهلَ الشام يحضُون معاوية علىٰ الطلب بدم عثمان، وقال عمرو: «أنتم على الحق اطلبوا بدم الخليفة المظلوم» ـ ومعاوية لا يلتفت إليه فقال لعمرو ابناه: ألا ترىٰ معاوية لا يلتفت إليك فانصرِف إلىٰ غيره. فدخل عمرو على معاوية فقال له: والله لعجب لك أني أرفدُك بما أرفدك وأنت مُعرِضٌ عني [أَمْ والله] إن قاتلنا معك نطلب بدم الخليفة إنَّ في النفسِ ما فيها حيث تقاتل مَنْ تعلم سابقته وفضله وقرابته ولكنا إنما أردنا هذه الدنيا[2]. فصالحه معاوية وعطف عليه.

---

(١) يريد بئر السبع لأنّ ضيعته وقصره كانا به.

(٢) هكذا في الأصل، والطبري وما أظن عمرو ليصرح بأنه إنما يطلب الدنيا معرضاً عن الدين (م).

وَقْعَـــة صِفِّين



ذكر ابتداء وقعة صِفِّيْن(١)

لمّا عاد عليّ مِن البصرة بعد فراغه مِن الجمل قصدَ الكوفة، وأرسل إلىٰ جرير بن عبد الله البجليّ وكان عاملاً علىٰ هَمَذان استعمله عثمان، والى الأشعث بن قيس وكان علىٰ أَذَرْبِيْجان استعمله عثمان أيضاً يأمرهما بأخذ البيعة والحضور عنده، فلمّا حضرا عنده أراد عليّ أنْ يرسل رسولاً إلىٰ معاوية : قال جرير : أرسلني إليه فإنه لي وِدّ. فقال الأشتر : لا تفعل فإنّ هواه مع معاوية. فقال علي : دَعْه حتىٰ ننظر ما الذي يرجعُ إلينا به.

فبعثه وكتب معه كتاباً إلىٰ معاوية يُعْلِمه فيه باجتماع المهاجرين والانصار علىٰ بيعته ونكث طلحة والزبير وحربه إياهما ويدعوه إلىٰ الدخول فيما دخل فيه المهاجرون، والأنصار مِنْ طاعته، فسار جرير إلىٰ معاوية، فلما قدِم عليه ماطله، واستنظره، واستشار عَمْراً فأشار عليه أنْ يجمع أهل الشام ويُلْزِم عليًا دم عثمان ويقاتله بهم، ففعل معاوية ذلك، وكان أهل الشام لما قدِم عليهم النعمان بن بشير بقميص عثمان الذي قُتل فيه مخضوباً بالدم بأصابع زوجته نائلة أصبعان منها وشيء من الكفّ وأصبعان مقطوعتان مِنْ أصولهما ونصف الإبهام وضع معاوية القميص علىٰ المنبر وجمع الأجناد إليه فبكوا علىٰ القميص مُدّة وهو علىٰ المنبر والأصابع معلّقة فيه، وأقسم رجالٌ من أهل الشام أنْ لا يمسهم الماء إلا للغسل من الجنابة(٢) وأنْ لا يناموا علىٰ الفُرُش حتىٰ يقتلوا قتلة عثمان ومَنْ قام دونهم قتلوه، فلما عاد جرير إلىٰ أمير المؤمنين عليّ وأخبره خبر

---

(١) صِفِّين: موضع بقرب الرقة على شاطىء الفرات من غربيها.

(٢) الطبري ٥٦٢/٤ : وآلى الرجال من أهل الشام ألّا يأتوا النساء ولا يمسهم الماء للغسل إلا من احتلام - وهي أوضح وأظهر.

معاوية واجتماع[١] أهل الشام معه على قتاله وأنهم يبكون علىٰ عثمان ويقولون: « إنّ علياً قتله وآوىٰ قَتَلَته وأنهم لا ينتهون عنه حتىٰ يقتلهم أو يقتلوه ». قال الأشتر لعليّ: قد كنتُ نهيتُك أنْ ترسلَ جريراً وأخبرتك بعداوته وغِشِّهِ، ولو كنتَ أرسلتني لكان خيراً مِنْ هٰذا الذي أقام عنده حتىٰ لم يَدَع باباً يرجو[٢] فَتْحه إلا فَتَحه، ولا باباً يُخاف منه إلاّ أغلقه. فقال جرير: لو كنت ثَمَّ لقتلوك. لقد ذكروا أنّك مِنْ قَتَلَة عثمان. فقال الأشتر: واللّهِ لو أتيتهم لم يعيني جوابهم، ولحملتُ معاوية علىٰ خُطّة أعجِله فيها عن الفكر، ولو أطاعني [فيك] أميرُ المؤمنين لحبسَكَ وأشباهَك حتىٰ يستقيمَ هذا الأمرُ، فخرج جرير إلىٰ «قرقيسيا» وكتب إلىٰ معاوية فكتب إليه معاوية يأمره بالقدوم عليه، وقيل: كان الذي حمل معاوية علىٰ رَدِّ جرير البجلي غير مقضىٰ الحاجة شرحبيل بن السمط الكندي.

وكان سبب ذلك إنّ شرحبيل كان قد سَيَّره عمر بن الخطاب إلىٰ العراق إلىٰ سعد بن أبي وقاص وكان معه فقدَّمه سعد وقرَّبه فحسده الأشعث بن قيس الكِندي لمنافسةٍ بينهما فوفد جرير البجلي، علىٰ عمر فقال له الأشعث: إنْ قدرتَ أنْ تنالَ شرحبيل عند عمر فافعلْ. فلما قدم علىٰ عُمَر سأله عمر عن الناس فأحسن الثناء علىٰ سعد. قال: وقد قال شعراً:

ألا ليتني والمرء سعد بن مالك ... وزبراً وابن السمط في لجة البحر
فيغرقُ أصحابي وأخرجُ سالماً ... علىٰ ظهر قُرقُورٍ[٣] أنادي أبا بكر

فكتبِ عمر إلىٰ سعد يأمره بإرساله زبراً وشرحبيلا إليه فارسلهما فأمسك زبراً بالمدينة وسيّر شرحبيلاً إلىٰ الشام فَشَرُف وتقدَّم وكان أبوه السمط من غزة الشام[٤] فلما قدم جرير بكتاب عليّ إلىٰ معاوية في البيعة انتظر معاوية قُدُوم شرحبيل فلما قدِم عليه أخبره معاوية بما قدم فيه جرير فقال: كان أميرُ المؤمنين عثمان خليفتنا فإن قويتَ علىٰ الطلب بدمه وإلاّ فاعتزلنا. فانصرف جرير فقال النجاشي:

شرحبيل ما للدين فارقت أمرنا ... ولكن لبُغض المالكي جرير

---

(١) في الأصل (واجتمع أهل الشام)ـ صححناه من الطبري ـ (م) .

(٢) في الأصل (نرجو فتحه) ـ بالنون وهو غلط صوابه بالياء المثناة من تحت (م).

(٣) قُرقُور : السفينة .

(٤) في نسخة : من غزاة الشام . (م) .

وقولُك ما قد قلتَ عن أمرِ أشعث   فأصبحتَ كالحادي بغير بعيـر

(جرير بن عبد الله بن جابر بن مالك فنسب إلى جده مالك)

وخرج عليّ فعسكر « بالنخْيلة »[١] وتخلّف عنه نفرٌ مِنْ أهل الكوفة، منهم مرة الهمداني، ومسروق أخذا أعطياتهما وقصدا قزوين فأما مسروق فإنه كان يستغفر الله مِنْ تخلّفه عن عليّ بصِفّين، وقدِم عليه عبد الله بن عباس فيمن معه من أهل البصرة وبلغ ذلك معاوية فاستشار عَمْراً فقال: أما إذا سار عليّ فسِرْ إليه بنفسك ولا تغِبْ عنه برأيك ومكيدتك . فتجهز معاوية وتجهّز الناسُ وحضّهم عَمْرو وضَعّفَ علياً وأصحابه وقال: « إنّ أهلَ العراق قد فَرّقُوا جمعهم، ووهّنوا شوكتهم، وفَلّوا حدهم، وأهل البصرة مخالفون لعلي بمن قَتَل منهم، وقد تفانت صناديدُهم وصناديدُ أهل الكوفة يوم الجمل، وإنّما سار عليّ في شرذمة قليلة، وقد قَتَلَ خليفتكم، والله الله في حَقّكُم إنْ تضيعوه وفي دمكم إن تطلبوه، وكتب معاوية إلىٰ أهل الشام وعقد لواءً لعمرو، ولواءً لابنيه عبد الله، ومحمد، ولواءً لغلامه وردان. وعقد عليٌّ لواءً لغلامه قَنْبَر فقال عمرو :

هَـلْ يُغْنِيَنْ وَرْدانُ عَنّي قَنْبَـرَا   أو تُغْنَى السَّكـونُ عنّي حِمْيَـرَا
إذا الكُمَـاةُ لَبِسـوا السَّنَـوّرَا[٢]

فبلغ ذلك عليًّا فقال:

لاصْبِحَنَّ العَـاصِيَ ابن العَـاصِي   سَبْعين أَلْفاً عـاقِـدي النَّواصِي
مُجَنِّبِيْـنَ الخَيْـلَ بـالقِـلاَصِ   مُسْتَحْقِبِيْنَ حَـاقَ الـدِّلاَصِ[٣]

فلما سمع معاوية ذلك قال: ما أرىٰ علياً إلاّ وقد وفى ذلك. وسار معاوية وتأنّى في مسيره فلمّا رأىٰ ذلك الوليد بن عقبة بعث إليه يقول:

أَلاَ أَبْـلِغْ مُعَـاوِيَـةَ بـنَ حَـرْبٍ   فَـإنَّـكَ مِنْ أَخِي ثِقَـةٍ مُليمُ[٤]

---

(١) النُّخَيْلة : بالتصغير ـ موضع قرب الكوفة .

(٢) جملة السلاح، وخَصّ به بعضهم الدرع والحديد كله .

(٣) أي : الدروع .

(٤) المليم : من أتى من الأمر ما يلام عليه .

قَطَعْتَ الدَّهْرَ كالسَّدِمِ المُعَنَّى ... تُهَدِّرُ[١] في دِمَشْقَ فما تَرِيمُ
وإنَّك وَالكتابَ إلىٰ عليٍّ ... كَدَابِغَةٍ وقد حَلِمَ الأديمُ[٢]
يُمَنِّيكَ الإمارَةَ كلُّ رَكْبٍ ... لأنْقاضِ العراقِ بها رَسيم
وليس أخو التِّرات بمن تَوَانَىٰ ... وَلكنْ طالبُ التِّرَةِ الغَشومُ
ولو كنتَ القتيلَ وكان حيًّا ... لَجَرَّدَ لا ألفُّ ولا غَشُومُ[٣]
ولا نَكِلٌ عن الأوتَارِ حتَّى ... يُبيءَ بها ولا بَرِمٌ جَثُومُ
وقومُكَ بالمدينة قد أبيروا ... فهُمْ صَرْعَى كأنهُمُ الهَشيمُ[٤]

فكتب إليه معاوية:

ومُستعجِبٍ مِما يَرَىٰ من أَناتِنا ... ولو زَبَنَتْه الحربُ لم يترمرَمِ

وبعث عليّ زياد بن النضر الحارثي طليعة في ثمانية آلاف وبعث مع شريح بن هانىء أربعة آلاف، وسار عليّ مِن النُّخَيْلة وأخذ معه مَنْ بالمدائن مِن المقاتلة، وولىٰ على المدائن سعد بن مسعود عم المختار بن أبي عبيد الثقفي؛ لما سار عليّ كان معه نابغة بني[٥] جعدة فحدا به يوماً فقال:

قد علم المِصْرَان والعراق ... أنّ علياً فَحْلها العتاق
أبيض جحجاح له رواق ... إن الاولى جاروك لا أفاقوا
لكم سباق ولهم سباق ... قد علمتْ ذلكم الرفاق

ووجّه عليّ مِن المدائن معقل بن قيس في ثلاثة آلاف وأمره أنْ يأخذ على الموصل حتى يوافيه علىٰ الرقة فلما وصل إلىٰ الرقة قال لأهلها: ليعملوا له جسراً يعبر عليه إلىٰ الشام فأبوا وكانوا قد ضموا سفنهم إليهم فنهض من عندهم ليعبر علىٰ جسر منبج وخلف عليهم الأشتر فناداهم الأشتر وقال: «أقسمُ الله لئن لم تعملوا جسراً يعبر عليه أميرُ المؤمنين لأجردنّ فيكم السيفَ ولاقتلنّ الرجال ولآخذن الأموال». فلقي

---

(١) هو ترديد البعير صوته في غير شقشقة.

(٢) حلم الأيم: فسد من دابة تكون تسمىٰ الحلم.

(٣) الطبري ٥٦٤/٤: سئوم.

(٤) انظر لسان العرب (مادة سدم).

(٥) في الأصل (ابن) ـ وهو تحريف. (م)

بعضهم بعضاً وقالوا: إنه الاشتر وإنه قَمِن[١] أن يفيَ لكم بما حلف عليه أو يأتي بأكثر منه فنصبوا له جسراً وعَبَرَ عليه عليّ وأصحابه وازدحموا عليه فسقطت قلنسوة عبد الله بن أبي الحصين الأزدي فنزل فأخذها ثم ركب وسقطتْ قلنسوة عبد الله بن الحجاج الأزدي فنزل فأخذها ثم قال لصاحبه:

فإنْ يَكُ ظَنُّ الزاجري الطير صادقاً ... كما زعموا أقتل وشيكاً ويقتل

فقال ابنُ أبي الحصين: ما شيءٌ أحب إليّ مما ذكرتَ فقُتلا جميعاً بصِفِّيْن، ولما بلغ عليّ الفرات دعا زياد بن النضر الحارثي، وشريح بن هانىء فسرحهما أمامه في اثني عشر ألفاً نحو معاوية علىٰ حالهما التي خرجا عليها من الكوفة، وكان سبب عَوْدهما إليه أنهما حيث سيرهما علي من الكوفة أخذا علىٰ شاطىء الفرات مما يلي البَرّ فلما بلغا «عانات»[٢] بلغهما أنّ معاوية قد أقبل في جنود الشام فقالا: «لا والله ما هذا لنا برأي نسير وبيننا وبين المسلمين وأمير المؤمنين هذا البحر وما لنا خير في أنْ نلقىٰ جنود الشام بقلة من معنا». فذهبوا ليعبروا مِنْ عانات فمنعهم أهلُها فرجعوا فعبروا مِن «هيت» فلحقوا علياً دون قرقيسيا فلما لحقوا علياً قال: «مقدمتي تأتيني مِنْ ورائي» فأخبره شريح، وزياد بما كان فقال: سددتما. فلما عبر الفرات سيّرهما أمامه، فلما انتهيا إلىٰ سُور الروم لقيهما أبو الأعور السلمي في جُندٍ من أهل الشام فأرسلا إلىٰ علي فأعلماه فأرسل عليّ إلىٰ الأشتر وأمره بالسرعة وقال له:

«إذا قَدِمتَ فأنت عليهم وإياك أنْ تبدأ القوم بقتال إلّا أنْ يبدأوك حتىٰ تلقاهم فتدعوهم وتسمع منهم، ولا يحملك بغضهم على قِتالهم قبل دعائهم والاعذار إليهم مرة بعد مرة، واجعل علىٰ ميمنتك زياداً وعلىٰ مَيْسرتك شريحاً، ولا تَدْنُ منهم دنوَ مَنْ يريد أنْ ينشب الحرب، ولا تباعد منهم تباعدَ مَنْ يهابَ البأس حتىٰ أقدمُ عليك فإنّي حثيثُ المسير في أثرك إن شاء الله تعالى».

وكتب عليّ إلىٰ شريح، وزياد بذلك وأمرهما بطاعة الأشتر. فسار الأشتر حتىٰ قدِم عليهم واتبع ما أمره وكفّ عن القتال ولم يزالوا متواقفين حتىٰ كان عند المساء حمل

---

(١) قَمِنَ بكذا: أي جَدُرَ به وَخُلق.
(٢) عَانَات: قرىً بالفُرات.

عليهم أبو الأعور السلمي فثبتوا له واضطربوا ساعة ثم انصرف أهلُ الشام، وخرج إليهم من الغد هاشم بن عتبة المرقال[١]، وخرج إليه أبو الأعور فاقتتلوا يومهم وصبر بعضُهم لبعض ثم انصرفوا، وحمل عليهم الأشتر وقال: أروني أبا الأعور. وتراجعوا ووقف أبو الأعور وراء المكان الذي كان فيه أول مرة، وجاء الأشتر فصَفّ أصحابه بمكان أبي الأعور بالأمس فقال الأشتر لسنان بن مالك النخعي : انطلق إلىٰ أبي الأعور فادعه إلى البِراز فقال: إلىٰ مبارزتي أو مبارزتك؟ فقال الأشتر. لو أمرتُك بمبارزتِه لفعلتَ؟ قال: نعم والله لو أمرتني أنْ اعترض صفهم بسيفي لفعلتُ. فدعا له وقال: إنما تدعوه لمبارزتي.

فخرج إليهم فقال: « أمّنوني فإنّي رسولٌ ». فأمّنوه، فآنتهىٰ إلىٰ أبي الأعور وقال له: إنّ الأشتر يدعوك إلىٰ أنْ تبارزَه. فسكت طويلاً ثم قال: إنّ خفة الأشتر وسوء رأيه حملاه علىٰ إجلاء عمال عثمان عن العراق وتقبيح محاسنه، وعلىٰ أنْ سار إليه في داره حتىٰ قَتَلَه فأصبح مُتْبعاً بدمه. لا حاجة لي في مبارزته قال له الرسول: قد قلتَ فاسمعْ مني أُجِبْك قال: لا حاجة لي في جوابك. اذهبْ عني. فصاح به أصحابه فآنصرف عنه، ورجع إلىٰ الأشتر فأخبره فقال: لنفسه نظر. فوقفوا حتىٰ حجز الليلُ بينهم وعاد الشاميّون مِن الليل.

وأصبح عليّ غدوة عند الأشتر وتقدّم الأشتر ومَنْ معه فانتهىٰ إلىٰ معاوية فواقفه ولحق بهم عليّ فتواقفوا طويلاً، ثم إنّ علياً طلب لعسكره موضعاً ينزلُ فيه ـ وكان معاوية قد سبق فنزل منزلاً آختاره بسيطاً واسعاً أفيح، وأخذ شَرِيْعَة[٢] الفرات وليس في ذلك الصقع شريعة غيرها وجعلها في حيزه، وبعث عليها أبا الأعور السلمي يحميها ويمنعها ـ فطلب أصحاب عليّ شريعة غيرها فلم يجدوا فأتوا علياً فأخبروه بفِعْلهم وبعَطَشِ الناس فدعا صعصعة بن صوحان فأرسله إلىٰ معاوية يقول له: إنّا سِرْنا مسيرنا هذا ونحن نَكْره قتالكم قبل الإعذار إليكم فقدمتْ إلينا خيلك ورجالك فقاتَلْتَنا قبل أنْ نقاتِلك ونحن مِنْ رأينا الكفّ حتىٰ ندعوك ونحتجّ عليك، وهذه أخرىٰ قد فعلتموها منعتم الناس عن الماء والناسُ غير منتهين فابعثْ إلىٰ أصحابك فليخلّوا بين الناس وبين

---

(١) الطبري : الزهري .

(٢) الشريعة : مورد الناس للاستسقاء .

الماء، وليكفوا لننظر فيما بيننا وبينكم وفيما قدمنا له فإنْ أردتَ أنْ نترك ما جئنا له ونقتتل علىٰ الماء حتىٰ يكون الغالب هو الشارب فَعَلْنا.

فقال معاوية لأصحابه: ما ترون؟ فقال الوليد بن عقبة، وعبد الله بن سعد: آمنعْهم الماء كما منعوه ابن عفان. اقتلهم عطشاً قتلهم الله. فقال عَمْرو بن العاص: خَلِّ بين القوم وبين الماء وإنهم لن يعطشوا وأنت ريان ولكن بغير الماء فانظر فيما بينك وبين الله. فاعاد الوليد، وعبد الله بن سعد مقالتهما وقالا: امنعهم الماء إلىٰ الليل فإنهم إنْ لم يقدروا عليه رجعوا وكان رجوعهم هزيمة امنعهم الماء منعهم الله إياه يوم القيامة. قال صعصعة: إنما يمنعه الله الفَجَرَة وشربة الخمر لعنك الله ولعن هذا الفاسق ـ يعني الوليد بن عقبة ـ فشتموه وتهددوه.

وقد قيل: إنّ الوليد، وابن أبي سرح لم يشهدا صفين فرجع صعصعة فأخبره بما كان وأنّ معاوية قال: سيأتيكم رأيي. فسرب الخيل إلىٰ أبي الأعور ليمنعهم الماء، فلما سمع عليّ ذلك قال: قاتلوهم علىٰ الماء. فقال الأشعث بن قيس الكندي: أنا أسيرُ إليهم. فلما دنوا منهم ثاروا في وجوههم فرموهم بالنبل، فتراموا ساعة، ثم تطاعنوا بالرماح ثم صاروا إلىٰ السيوف فاقتتلوا ساعة، وأرسل معاوية يزيد بن أسد البجلي القسري جد خالد بن عبد الله القسري في الخيل إلى أبي الأعور فأقبلوا فأرسل علي شبث بن ربعي الرياحي فازداد القتال، فأرسل معاوية عمرو بن العاص في جندٍ كثير فأخذ يمدّ أبا الأعور، ويزيد بن أسد، وأرسل عليّ الأشتر في جمعٍ عظيم، وجعل يمد الأشعث وشبثاً فاشتدّ القتال فقال عبد الله بن عوف الأزدي الأحمري:

خَلُّوا لَنَا مَاءَ الفُرَاتِ الجَارِي ... أو آثْبُتُوا لِجَحْفَلٍ جَرَّارِ
لكلِّ قَرْمٍ مُسْتَميتٍ شارِي ... مُطاعِنٍ بِرُمْحِهِ كَرَّارِ
ضَرَّابِ هاماتِ العِدَىٰ مِغْوَارِ ... لم يخشَ غيرَ الواحدِ القهارِ[1]

وقاتلوهم حتىٰ خَلُّوا بينهم وبين الماء وصار في أيدي أصحاب عليّ فقالوا: والله لا نسقيه أهلَ الشام. فأرسل عليّ إلىٰ أصحابه أنْ خُذُوا من الماء حاجتكم وخَلُّوا عنهم فإنّ الله نصركم بِبَغْيِهم وظُلْمِهِم.

---

(١) انظر الطبري ٤/ ٥٧٠.

ومكث عليّ يومين لا يُرْسِل إليهم أحداً ولا يأتيه أحدٌ، ثم إنَّ علياً دعا أبا عمرو وبشير[١] بن عمرو بن محصن الأنصاري، وسعيد بن قيس الهمداني، وشبث بن ربعي التميمي فقال لهم: ائتوا هذا الرجل وادعوه إلىٰ الله، وإلىٰ الطاعة والجماعة. فقال له شبث: يا أمير المؤمنين ألا تُطمعه في سلطانٍ تُوَلِّيه إياه أو منزلة تكون له بها أثرة عندك إنْ هو بايعك؟؟ قال: انطلقوا إليه واحتّجوا عليه وانظروا ما رأيه. وهذا في أول ذي الحجة، فأتوه فدخلوا عليه فابتدأ بشير بن عمرو الأنصاري فحمد الله وأثنىٰ عليه وقال: « يا معاوية إنّ الدنيا عنك زائلة، وإنّك راجعٌ إلىٰ الآخرة، وإنّ الله محاسبك بعملك ومجازيك عليه، وإنّي أنشدك الله أنْ [لا] تفرق جماعة هذه الأمة وأن [لا] تسفك دماءها بينها[٢].

فقطع عليه معاوية الكلام وقال: هَلّا أوصيتَ بذلك صاحبك. فقال أبو عمرو: إنّ صاحبي ليس مثلك إنّ صاحبي أحقُّ البرية كلها بهذا الأمر في الفضل، والدين، والسابقة في الاسلام، والقرابة بالرسول ﷺ قال: فماذا يقول:؟ قال: يأمرك بتقوىٰ الله، وأنْ تجيبَ ابن عمك إلىٰ ما يدعوك إليه من الحق فإنه أسلم لك في دنياك وخيرٌ لك في عاقبة أمرك.

قال معاوية: ونترك دم ابن عفان: لا والله لا أفعل ذلك أبداً. قال: فذهب سعيد بن قيس يتكلم فبادره شبث بن ربعي فحمد الله وأثنىٰ عليه ثم قال: يا معاويةَ قد فهمتُ ما رددتَ علىٰ ابنِ محصن إنه واللهِ لا يخفىٰ علينا ما تطلب إنك لم تجد شيئاً تستغوي به الناس وتستميلُ به أهواءهم وتستخلص به طاعتهم إلّا قولك: « قتل إمامكم مظلوماً فنحن نطلب بدمه » فاستجاب لك سفهاء طغام، وقد علمنا أنك أبطأتَ عنه بالنصر واحببتَ له القتل لهذه المنزلة التي أصبحتَ تطلبُ، ورُبَّ متمني أمر وطالبه يحول الله دونه وربما أوتي المتمني أمنيته وفوق امنيته، وواللهِ ما لك في واحدةٍ منهما خير، واللهِ إنْ أخطأك ما ترجو إنك لشرّ العرب حالاً، ولئن أصبتَ ما تتمناه لا تصيبه حتى تستحقَّ مِنْ ربك صلى النار فاتقِ اللهَ يا معاوية ودَعْ ما أنتَ عليه، ولا تنازعْ الأمرَ أهله.

---

(١) الطبري: أبا عمرة بشير.

(٢) كلاهما زيادة زدناها لما يقتضيها السياق.

قال: فحمد الله معاوية ثم قال: أما بعد فإنّ أول ما عرفتُ به سَفَهَك وخِفَّة حلمك أنْ قطعتَ علىٰ هذا الحسيب الشريف سيد قومِه مَنْطِقَه ثم اعترضتَ بعد فيما لا عِلْم لك به فقد كذبتَ ولؤمت أيها الأعرابي الجلف الجافي في كل ما ذكرت ووصفت ـ انصرفوا مِنْ عندي فليس بيني وبينكم إلّا السيف. وغضب، وخرج القوم فقال لـه شبث بن ربيعي: أتهوّل بالسيف أقسم بالله لنعجلنّها إليك.

فأتوا علياً فأخبروه بذلك فأخذ عليّ يأمر الرجلَ ذا الشرف فيخرج ومعه جماعة مِنْ أصحابه ويخرج إليه آخر من أصحاب معاوية ومعه جماعة فيقتتلان في خيلهما ثم ينصرفان **وكرهوا أنْ يلقوا جمع أهل العراق بجمع أهل الشام لما خافوا أنْ يكون فيه مِن الاستئصال والهلاك**[١]: فكان عليّ يُخرج مرة الأشتر، ومرة حُجْر بن عدي الكندي، ومرة شبث بن ربعي، ومرة خالد بن المعمر، ومرة زياد بن النضر الحارثي، ومرة زياد بن خصفة التيمي، ومرة سعيد بن قيس الهمداني، ومرة معقل بن قيس الرياحي، ومرة قيس بن سعد الأنصاري، وكان الأشتر أكثرهم خروجاً.

وكان معاوية يخرج إليهم عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، وأبا الأعور السلمي، وحبيب بن مسلمة الفهري، وابن ذي الكلاع الحميري، وعبيد الله بن عمر بن الخطاب، وشرحبيل بن السمط الكندي، وحمزة بن مالك الهمداني فاقتتلوا أيام ذي الحجة كلها، وربما اقتتلوا في اليوم الواحد مرتين.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة مات حذيفة بن اليمان[٢] بعد قتل عثمان بيسير ولم يدرك الجمل، وقتل ابناه صفوان، وسعيد مع عليّ بصفين بوصية أبيهما، وقيل: مات سنة خمس

---

(١) أي :خشوا من هلاك المسلمين ،وقد رأيت من قَبْل كيف كان قتال المسلمين يوم الجمل كجبلين من حديد لا يتراجع واحد منهما أبداً .

(٢) هو حذيفة بن اليمان بن جابر بن عمرو العيسي ، أبو عبدالله .
هاجر إلى النبي ﷺ فخيّره بين الهجرة والنصرة فاختار النصرة ، وشهد أحداً وقتل أبوه بها .
هو صاحب سر النبي ﷺ في المنافقين لم يعلمهم أحدٌ إلا حذيفة .
وكان موته بعد قتل عثمان بأربعين ليلة سنة ست وثلاثين .

وثلاثين والأول أصح . وفيها مات سلمان الفارسي[(١)] في قول بعضهم وكان عمره مائتين وخمسين سنة ـ هذا أقل ما قيل فيه . وقيل : ثلثمائة وخمسون سنة ، وكان قد أدرك بعض أصحاب المسيح عليه السلام[(٢)]. وعبد الله بن سعد بن أبي سرح[(٣)] مات بعسقلان حيث خرج مع معاوية إلى صفين وكره الخروج معه[(٤)]. ومات فيها عبد الرحمن بن عديس[(٥)] البلوي أمير القادمين من مصر لقتل عثمان وكان ممن بايع النبي ﷺ تحت الشجرة ، وقيل : بل قُتل بالشام . وفيها مات قدامة بن مظعون الجمحي[(٦)] وهو مِنْ مهاجرة الحبشة وشهد بدراً . وفيها توفي عمرو بن أبي عمرو بن ضبة الفهري أبو شداد[(٧)] شهد

---

(١) سلمان الفارسي ، أبو عبدالله ، ويعرف بسلمان الخير ، مولىٰ رسول الله ﷺ ، وسُئل عن نسبه فقال (أنا سلمان ابن الإسلام) . أصله من فارس من رامهرمز . كان من خيار الصحابة وزهادهم وفضلائهم وذوي القُرْب من رسول الله ﷺ .
توفيْ سنة ٣٥ ، وقيل سنة ٣٦ ، وقيل توفي في خلافة عمر والأول أكثر ـ كما قال ابن الأثير في أسد الغابة .

(٢) هذا القول غريب جدّاً لم يُرَاعَ فيه الاحتياط وما أظنه إلا من باب الخرافات والتزيد في الأخبار سهلٌ علىٰ اللسان إذ بعيدٌ كل البُعد أنْ يعيش رجلٌ كل هذه المدة . وقوله انه رأى بعض أصحاب المسيح يقتضي أنْ يكون صاحب المسيح قد عاش أكثر من ثلاثمائة سنة أيضاً وهو ما يقله أحدٌ ولم يسمع به أحدٌ في أصحاب المسيح (م).

(٣) هو عبدالله بن سعد بن أبي سَرْح بن الحارث القرشي العامريّ ، أبـو يحيىٰ ، أخو عثمـان بن عفان من الرضاعة . أسلم قبل الفتح ، وهاجر للمدينة ، وكان من كتاب الوحي .
وهو أحد العقلاء الكرماء من قريش ، ولاه عثمان مصر سنة ٢٥ ، وفتح إفريقية ، والأساور من أرض النوبة سنة ٣١ ، وغزا غزوة ذات الصواري . توفي بعسقلان سنة ٣٦ ، وقيل ٣٧ ، وقيل بقي إلى آخر أيـام معاوية فتوفي سنة ٥٩ .

(٤) كذا العبارة في المطبوعة عن الأصول وهي غير مستقيمة .

(٥) هو عبد الرحمن بن عديس بن عمرو بن عبيد البلويّ ,
شهد بيعة الرضوان ، بايع فيها ، وكان أمير الجيش القادم من مصر لحصر عثمان بن عفان رضي الله عنه لما قتلوه . قتله معاوية سنة ٣٦ هـ.

(٦) هو قدامة بن مظعون بن حَبِيْب بن وهب ، القرشي الجمحي ، أبو عَمْرو ، وهو أخو عثمان بن مظعون .
من السابقين إلى الإسلام ، هاجر إلى الحبشة ، وشهد بدراً ، وأحداً وسائر المشاهد مع رسول الله ﷺ .
توفي سنة ٣٦ هـ وهو ابن ٦٨ سنة .

(٧) هو عَمْرو بن أبي عَمْرو بن شداد الفهريّ من بني ضبة بن الحارث ، القرشي الفهريّ .
شهد بدراً ، ومات سنة ٣٦ في خلافة علي ، وقيل قتل يوم الجمل مع علي رضي الله عنه .

بدراً. وفيها استعمل عليّ علىٰ الري يزيد بن حُجَيَّة التيمي تيم اللات فكسر مِنْ خراجها ثلاثين ألفاً فكتب إليه عليّ يستدعيه فحضر فسأله عن المال قال: أين ما غللته من المال؟ قال: ما أخذت شيئاً فخفقه بالدرة خفقات وحبسه ووكل به سعداً مولاه فهرب منه يزيد إلىٰ الشام فسوغه معاوية المال فكان ينال من عليّ، وبقي بالشام إلىٰ أنْ اجتمع الأمرُ لمعاوية فسار معه إلىٰ العراق فولّاه الري، وقيل: إنه شهد مع علي الجمل. وصفين، والنهروان، ثم ولاه الري وهو الصحيح فكان ما تقدم ذكره.

ثم دخلت سنة سبع وثلاثين

ذكر تتمة أمر صفين

في هذه السنة في المحرم منها جرت موادعة بين عليّ، ومعاوية توادعا علىٰ ترك الحرب بينهما حتىٰ ينقضي المحرم طمعاً في الصلح، واختلفت بينهما الرسل فبعث عليٌّ عَدِيّ بن حاتم، ويـزيد بن قيس الأرحبيّ، وشبث بن ربعي، وزيـاد بن خصفة فتكلم عَدِيّ بن حاتم فحمد الله وقال: « أما بعد فإنّا أتيناك ندعوك إلىٰ أمرٍ يجمعُ الله به كلمتنا وأمتنا ونحقن به الدماء ونصلح ذات البَيْن، إنّ ابن عمك سيد المسلمين أفضلها سابقة وأحسنها في الاسلام أثراً وقد استجمع له الناس ولم يبق أحدٌ غيرك وغير مَنْ معك فاْحذرْ يا معاوية لا يصيبك وأصحابك مِثْلَ يوم الجمل، فقال له معاوية: كأنك إنما جئت متهدداً لم تأتِ مصلحاً، هيهاتَ يا عديّ كلاّ والله إنّي لابن حرب لا يُقَعْقَعُ له بالشنان[١] وإنّك واللهِ مِن المجلبين علىٰ عثمان وإنك مِنْ قتلته، وإنّي لأرجو أنْ تكون ممن يقتله الله به.

فقال له شبث، وزياد بن خصفة: جواباً واحداً أتيناك فيما يصلحنا وإياك فاقبلتَ تضرب لنا الأمثال. دَعْ ما لا ينفع وأَجِبْنَا فيما يعم نفعه. وقال يزيد بن قيس: إنا لم نأت إلا لنبلّغك ما أُرسلنَا به إليك ونؤدي عنك ما سمعنا منك، ولن ندع أنْ ننصحَ لك وأنْ نذكر ما يكون به الحجة عليك ويرجع إلىٰ الالفة والجماعة إنّ صاحبنا مَنْ قد عرف المسلمون فضله ولا يخفى عليك فاتقِ الله يا معاوية ولا تخالِفْه فإنا واللهِ ما رأينا في الناس رجلاً قطّ أعمل بالتقوىٰ، ولا أزهد في الدنيا، ولا أجمع لخصالِ الخيرِ كلها منه.

فحمد الله معاوية ثم قال: أما بعد فـإنكم دعوتم إلىٰ الـطاعة والجمـاعة فـأمّا

---

(١) هذا مَثَلٌ معناه: لست بليداً كسولاً إنّ الجمل إذا كان بطيئاً متكاسلاً فزعوه بالشن يقعقعون له به فينبعث.

الجماعة التي دعوتم إليها فمعنا هي، وأما الطاعة لصاحبكم فإنا لا نراها لأنّ صاحبكم قتل خليفتنا، وفرّق جماعتنا، وآوىٰ ثأرنا، وصاحبكم يزعم أنه لم يقتله فنحن لا نردّ عليه ذلك فليدفع إلينا قَتَلَة عثمان لنقتلهم ونحن نجيبكم إلىٰ الطاعة والجماعة. فقال شبث بن ربعي: أيسرك يامعاوية أنْ تقتل عماراً فقال: وما يمنعني مِنْ ذلك؟ لو تمكنتُ مِن ابن سمية لقتلتُه بمولى عثمان. فقال شبث: والذي لا إله غيره لا تصلُ إلىٰ ذلك حتىٰ تندر الهام عن الكواهل، وتضيق الأرض الفضاء عليك. فقال معاوية: لو كان ذلك لكانتْ عليك أضيق.

وتفرّق القومُ عن معاوية، وبعث معاوية إلى زياد بن خصفة فخلا به وقال له: يا أخا ربيعة إنّ علياً قطع أرحامنا، وقتل إمامنا، وآوى قتلة صاحبنا، وإنّي أسألك النصر عليه بعشيرتك ثم لك عهدُ الله وميثاقه أنّي أوليك إذا ظهرتَ أيّ المِصْرَيْن أحببتَ فقال زياد: أما بعد فإني علىٰ بينةٍ من ربي وما أنعم الله عليّ فلن أكونَ ظهيراً للمجرمين. وقام فقال معاوية لعمْرو بن العاص: ليس نكلم رجلاً منهم فيجيب إلىٰ خيرٍ! ما قُلوبهم إلا كقلبٍ واحد! وبعث معاويةُ إلىٰ عليّ حبيب بن مسلمة الفهريّ، وشرحبيل بن السمط، ومعن بن يزيد بن الأخنس فدخلوا عليه فحمد الله حبيب وأثنىٰ عليه ثم قال: أما بعد فإنّ عثمان كان خليفة مهدياً يعمل بكتاب الله وينيبُ إلىٰ أمره فاستثقلتم حياته واستبطأتم وفاته فعدوتم عليه فقتلتموه فادفعْ إلينا قَتَلَة عثمان إنْ زعمت أنَّك لم تقتله [نقتلهم به] ثم اعتزِلْ أمرَ الناس فيكون أمرُهم شورىٰ بينهم يولّونه مَنْ أجمعوا عليه. فقال له علي: ما أنت لا أم لك والعزل وهذا الأمر؟ آسكتْ لستَ هناك ولا بأهلٍ له. فقال: واللهِ لتريني بحيث تكره. فقال له علي: وما أنت لا أبقىٰ اللّهُ إنْ أبقيت علينا. اذهبْ فصوِّبْ وصعِّدْ ما بدا لك. وقال شرحبيل: ما كلامي إلا مثل كلام صاحبي فهل عندك جواب غير هذا؟ فقال علي: ليس عندي جوابٌ غيره[1] ثم حمد الله وأثنى عليه وقال:

« أما بعد فإنّ الله تعالى بعث محمداً ﷺ بالحق فأنقذ به من الضلالة والهلكة، وجمع به مِن الفُرْقة ثم قبضه الله إليه فاستخلف الناسُ أبا بكر، واستخلف أبو بكر عمر فأحسنا السيرة وعدلا، وقد وجدنا عليهما أنْ توليا الأمور ونحن آل رسول الله ﷺ فغفرنا ذلك لهما، وولىٰ الناسُ عثمان فعمل بأشياء عابها الناسُ فساروا إليه فقتلوه ثم أتاني

(١) الطبري: نعم لك ولصاحبك جواب غير الذي أجبته به ـ وهو الظاهر.

الناسُ [وأنا معتزل أمورهم] فقالوا لي : بايعْ فأبيتُ فقالوا : بايع فإن الأمة لا ترضىٰ إلا بك وإنَّا نخاف إنْ لم تفعل أنْ يتفرَّق الناسُ. فبايعتهم فلم يرعني إلا شقاق رجلين قد بايعاني وخِلاف معاوية الذي لم يجعل له سابقة في الدين ولا سلف صدق في الإسلام، طليق بن طليق، حزب من الأحزاب، لم يزل حرباً لله ورسوله هو وأبوه حتىٰ دخلا في الاسلام كارهَيْن ولا عجب إلا من اختلافكم معه، وانقيادكم له، وتتركون آلَ بيت نبيكم الذين لا ينبغي لكم شقاقهم ولا خلافهم، ألا إني أدعوكم إلىٰ كتاب الله وسنة نبيه، وإماتة الباطل، وإحياء الحق ومعالم الدين. أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم وللمؤمنين. فقالا : تشهدُ أنّ عثمان قُتل مظلوماً؟ فقال لهما : لا أقول إنه قُتل مظلوماً ولا ظالماً. قالا : فمَنْ لم يزعم أنه قُتل مظلوماً فنحن منه برآء. وانصرفا.

فقال علي عليه السلام : ﴿ إنَّك لاَ تُسْمِع المَوْتَىٰ - إلى قوله - فهمْ مُسْلِمُون ﴾[1]. ثم قال لأصحابه : لا يكن هؤلاء في الجد في ضلالهم أجدّ منكم في الجدّ في حقّكم وطاعة ربكم، فتنازع عامر بن قيس الحذمري ثم الطائي وعدي ين حاتم الطائي في الراية بصفين، وكانت حذمر أكثر من بني عدي رهط حاتم فقال عبيد الله بن خليفة البولاني عند عليّ : يا بني حذمر أعلىٰ عدي تتوثبون! وهل فيكم وفي آبائكم مثل عدي وأبيه! اليس بحامي القرية ومانع الماء يوم روية؟ أليس ابن ذي المرباع وابن جواد العرب، وابن المنهب ماله ومانع جاره، ومن لم يغدر ولم يفجرولم يبخل ولم يمنن ولم يجبن؟ هاتوا في آبائكم مثل أبيه أوفيكم مثله. أليس أفضلكم في الإسلام ووافدكم إلىٰ النبي ﷺ؟ أليس برأسكم يوم النخيلة، ويوم القادسية، ويوم المدائن، ويوم جلولاء ويوم نهاوند، ويوم تستر، فقال عليّ : حَسْبُك يا بن خليفة وقال علي : لتحضر جماعة طيّء. فأتوه فقال : مَنْ كان رأسكم في هذه المواطن قالوا : عدي فقال ابن خليفة : سلهمْ يا أمير المؤمنين أليسوا راضين برياسة عدي؟ ففعل فقالوا : بلى فقال عليّ : فعدي أحقكم بالراية وأخذها، فلما كان أيام حُجْر بن عدي طلب زياد عبد الله بن خليفة ليبعثه مع حجر فسار إلىٰ الجبلين ووعده عدي أنْ يرده وأن يسأل فيه فطال عليه ذلك فقال شعراً منه :

أَتَنسَىٰ بَلاَئِي سَادراً يَا بْنَ حَاتِمٍ عَشِيَّةَ ما أَغْنَتْ عَدِيُّكَ جِذْمرا

---

(١) الروم : ٥٢ .

فَدافَعْتُ عنك القومَ حتى تَخاذَلوا ... وكنتُ أنا الخَصْمَ الألدَّ العَذَوَّرا[١]
فولَّوا وما قاموا مقامي كأنَّما ... رأوني لَيْثاً بالأباءات مُخْدِراً
نَصَرْتُك إذخامَ القريبُ وأَبْعَدَ الـ ... ـبَعِيدُ وقد أُفْرِدْتُ نَصْراً مُوَزَّرا
فكان جزائي أنْ أجرر[٢] بينكم ... سَحيبا[٣] وأنْ أُولَى الهوانَ وأوسَرا!
وكم عِدَّةٍ لي مِنْكَ أنَّكَ راجِعِي ... فَلَمْ تُغْنِ بالميعادِ عَنِّي حَبْتَرَا

وسترد قصته بتمامها إن شاء الله تعالى.

فلما انسلخ المحرم أمر عليّ منادياً فنادى يا أهلَ الشام يقولُ لكم أمير المؤمنين: قد استدمتكم لتراجِعُوا الحقَّ وتُنيبوا إليه فلم تنتهوا عن طغيانكم ولم تجيبوا إلىٰ الحق وإنِّي قد نبذتُ إليكم علىٰ سواء إنّ الله لا يحب الخائنين. فاجتمع أهلُ الشام إلىٰ أمرائهم ورؤسائهم، وخرج معاوية، وعمرو يكتبان الكتائب ويعبيان الناس وكذلك فعل أمير المؤمنين، وقال للناس: لا تقاتلوهم حتىٰ يقاتلوكم فأنتم بحمدِ الله علىٰ حُجَّة وترككم قتالهم حُجَّة أخرىٰ فإذا هزمتموهم فلا تَقْتُلوا مدبراً، ولا تجهزوا علىٰ جريح، ولا تكشفوا عورة، ولا تمثِّلوا بقتيل، وإذا وصلتم إلىٰ رِحَال القوم فلا تهتكوا ستراً، ولا تدخلوا داراً، ولا تأخذوا شيئاً مِنْ أموالهم، ولا تهيّجوا امرأة وإنْ شتمن أعراضكم وسببن أمراءكم وصلحاءكم فإنهنّ ضِعَاف القوىٰ والأنفس، وكان يقول بهذا المعنى لأصحابه في كل موطن، وحرض أصحابه فقال: «عبادَ الله اتقوا الله وغُضُّوا الأبصار، واخفضوا الأصوات، وأقِلُّوا الكلام ووطنوا أنفسكم علىٰ المنازلة، والمجاولة، والمزاولة، والمناضلة، والمعانقة، والمكادمة، والملازمة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون، ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم، واصبروا إنّ الله مع الصابرين. اللهم ألهمهمْ الصبر، وأنزلْ عليهم النصرْ، وأعظمْ لهم الأجر». وأصبح عليّ فجعل علىٰ خيل الكوفة الأشتر، وعلىٰ جُنْد البصرة سهل بن حنيف، وعلى رجالة الكوفة عمار بن ياسر، وعلىٰ رجالة البصرة قيس بن سعد، وهاشم بن عتبة المرقال معه الراية، وجعل مسعر بن فدكى علىٰ قراء الكوفة، وأهل البصرة.

---

(١) العذور: السَّيِّئ الخلق والشديد النفس.
(٢) الطبري ٥/١٠: أجرد ـ بالدال المهملة.
(٣) الطبري: سجيناً ـ بالجيم والنون.

وبعث معاوية علىٰ ميمنته ابن ذي الكلاع الحميري، وعلى ميسرته حبيب بن مسلمة الفهري، وعلى مقدمته أبا الأعور السلمي، وعلى خيل دمشق عمرو بن العاص، وعلىٰ رجالة دمشق مسلم بن عقبة المري، وعلىٰ الناس كلهم الضحاك بن قيس. وبايع رجال من أهل الشام علىٰ الموت فعقلوا أنفسهم بالعمائم وكانوا خمسة صفوف، وخرجوا أول يوم من صفر فاقتتلوا، وكان على الذين خرجوا من أهل الكوفة الأشتر، وعلىٰ من خرج من أهل الشام حبيب بن مسلمة فاقتتلوا يومهم قتالاً شديداً معظم النهار ثم تراجعوا وقد انتصف بعضهم مِن بعض.

• ثم خرج في اليوم الثاني هاشم بن عتبة في خيل ورجال وخرج من أهل الشام أبو الأعور السلمي فاقتتلوا يومهم ذلك ثم انصرفوا، وخرج في اليوم الثالث عمار بن ياسر، وخرج إليه عمرو بن العاص فاقتتلوا أشد قتال، وقال عمار: « يا أهل العراق أتريدون أن تنظروا إلىٰ مَنْ عادىٰ الله ورسوله، وجاهدهما وبغىٰ علىٰ المسلمين، وظاهر المشركين فلما رأىٰ الله يعز دينه ويظهر رسوله أتىٰ النبي ﷺ وهو فيما نرىٰ راهب غير راغب، ثم قُبِض النبيُّ ﷺ فوالله إنْ زال بعده معروفاً بعداوة المسلم، واتباع المجرم فاثبتوا له وقاتلوه »وقال عمار لزياد بن النضر وهو علىٰ الخيل: احمل علىٰ أهل الشام. فحمل وقاتله الناس وصبروا له، وحمل عمار فأزال عَمْرو بن العاص عن موضعه، وبارز يومئذ زياد بن النضر أخاه لأمه واسمه عمرو بن معاوية من بني المنتفق فلما ٱلتقيا تعارفا فانصرف كل واحد منهما عن صاحبه، وتراجع الناسُ.

وخرج من الغد محمد بن علي ـ وهو ابن الحنفية ـ وخرج إليه عبيد الله بن عمر بن الخطاب في جمعين عظيمَيْن فاقتتلوا أشد القتال، وأرسل عبيد الله إلىٰ ابن الحنفية يدعوه إلىٰ المبارزة فخرج إليه فحرّك عليّ دابته ورد ابنه وبرز عليّ إلى عبيد الله فرجع عبيد الله . وقال محمد لأبيه: لو تركتني لرجوتُ قتله، وقال: يا أمير المؤمنين وكيف تبرزُ إلىٰ هذا الفاسق واللهِ إني لأرغبُ بك عن أبيه؟ فقال علي: **يا بني لا تَقُلْ في أبيه إلاّ خيراً**. وتراجع الناسُ، وخرج عبد الله بن عباس في اليوم الخامس، وخرج إليه الوليد بن عقبة فاقتتلوا قتالاً شديداً فسبّ الوليد بني عبد المطلب فطلبه ابن عباس ليبارزه فأبىٰ وقاتل ابنُ عباس قتالاً شديداً، وخرج في اليوم السادس قيس بن سعد الأنصاري وخرج إليه ابن ذي الكلاع الحميري فاقتتلوا قتالاً شديداً ثم انصرفوا، ثم عاد

يوم الثلاثاء وخرج الأشتر وخرج إليه حبيب فاقتتلوا قتالاً شديداً وانصرفوا عند الظهر.

ثم إنّ علياً قال: حتىٰ متىٰ لا نناهض هؤلاء القوم بأجمعنا؟ فقام في الناس عشية الثلاثاء ليلة الأربعاء خطيباً فحمد الله وأثنىٰ عليه فقال: «الحمدُ لله الذي لا يبرم ما نقض وما أبرم لم ينقضه الناقضون، ولو شاء اللّهُ ما اختلف اثنان مِنْ خَلْقِهِ، ولا اختلفتْ الأمةُ في شيءٍ ولا جَحَدَ المفضولُ ذا الفضل فضله. وقد ساقنا وهؤلاء القوم الأقدار فنحن بمرأىٰ مِنْ ربنا ومسمع فلو شاء عَجَّل النقمة وكان منه التغيير حتى يكذب الظالم، ويعلم الحق أين مصيره، ولكنه جعل الدنيا دار الأعمال وجعل الآخرة دار القرار ليجزيَ الذين أساءوا بما عَمِلوا ويجزيَ الذين أحسنوا بالحسنى، ألا وإنّكم لاقو القوم غداً فاطيلوا الليلة القيام، وأكثروا تلاوةَ القرآن، واسألوا الله النصر والصبر، والقَوهم بالجدّ والحزم، وكونوا صادقين. فقام القوم يصلحون سلاحهم فمرّ بهم كعب بن جعيل فقال:

أَصْبَحَتِ الأُمَّـةُ فِي أمـرِ عَـجَـبْ ... والمُلك مَجْمـوعٌ غَـداً لمن غَـلَبْ
فقلتُ قَـوْلاً صـادقـاً غيـرَ كَـذِبْ ... إنَّ غَـداً تَـهـلكُ أعـلامُ الـعـربْ

وعبأ عليٌّ الناسَ ليلته حتىٰ الصباح، وزحف بالناسُ، وخرج إليه معاوية في أهل الشام فسأل عليٌّ عن القبائل مِنْ أهل الشام فعرف مواقفهم قال للأزد: اكفونا الأزد، وقال لخثعم: اكفونا خثعم، وأمر كلَّ قبيلة أنْ تكفيَه أختها مِنْ الشام إلاّ أنْ تكونَ قبيلة ليس منها بالشام أحدٌ فيصرفها إلىٰ قبيلةٍ أخرىٰ مِن الشام ليس بالعراق منهم أحد مثل بجيلة لم يكن بالشام منهم إلاّ القليل صرفهم إلىٰ لخم فتناهض الناسُ يوم الأربعاء فاقتتلوا قتالاً شديداً ثم انصرفوا عند المساء وكلٌ غير غالب.

فلما كان يوم الخميس صلى عليّ بغلس، وخرج بالناس إلىٰ أهل الشام فزحف إليهم وزحفوا معه، وكان علىٰ ميمنة عليّ عبد الله بن بديل بن ورقاء الخزاعي، وعلىٰ ميسرته عبد الله بن عباس والقراء مع ثلاثة نفر: عمار، وقيس بن سعد، وعبد الله بن بديل، والناس على راياتهم ومراكزهم، وعلي في القلب في أهل المدينة بين أهل الكوفة والبصرة وأكثر مَنْ معه من أهل المدينة الأنصار ومعه عدد من خزاعة، وكنانة، وغيرهم من أهل المدينة، وزحف إليهم، ورفع معاوية قبة عظيمة فألقىٰ عليها الثياب، وبايعه أكثر أهل الشام علىٰ الموت، وأحاط بقبته خيلُ دمشق، وزحف عبد الله بن بديل في الميمنة نحو حبيب بن مسلمة وهو في ميسرة معاوية فلم يزل يحوزه ويكشف خيْلَه حتىٰ

اضطرهم إلىٰ قبة معاوية عند الظهر، وحرض عبد الله بن بديل أصحابه فقال: ألا إنّ معاوية ادعىٰ ما ليس له، ونازع الحق أهله، وعاند مَنْ ليس مثله، وجادل بالباطل ليدحض به الحق، وصال عليكم بالأعراب والأحزاب الذين قد زيّن لهم الضلالة، وزرع في قلوبهم حب الفتنة، ولبس عليهم الأمر، وزادهم رجساً إلىٰ رجسهم فقاتِلوا الطغام الجفاة، ولا تخشوهم، قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم، ويخزهم، وينصركم عليهم، ويشف صدورَ قومٍ مؤمنين.

وحرض على أصحابه فقال في كلامٍ له: « فسووا صفوفكم كالبنيان المرصوص، وقدّموا الدارع، وأخّروا الحاسر، وعضوا علىٰ الأضراس فإنه أنبى للسيوف عن الهام، والتووا في الأطراف فإنه أصون للأسنة، وغضوا الأبصار فإنه أربط للجأش وأسكن للقلب، وأميتوا الأصوات فإنه أطرد للفشل وألوىٰ بالوقار، راياتكم فلا تميلوها ولا تزيلوها، ولا تجعلوها إلا بأيدي شجعانكم، واستعينوا بالصدق والصبر فإنّ بعدَ الصبرِ ينزلُ عليكم النصر »

وقام يزيد بن قيس الأرحبي يحرض الناس فقال: « إنّ المسلم مَنْ سلم في دينه ورأيه، وإنّ هؤلاء القوم واللهِ لا يقاتلونا علىٰ إقامة دين ضيعناه واحياء حقٍّ أمتناه إنْ يقاتلوننا إلا علىٰ هذه الدنيا ليكونوا جبارين فيها ملوكاً فلو ظهروا عليكم ـ لا أراهم الله ظهوراً ولا سروراً ـ ألزموكم بمثل سعيد، والوليد، وابن عامر السفيه الضال يجيز أحدهم بمثل ديته ودية أبيه وجده في جلسة ثم يقول: هذا لي ولا إثم علي كأنما أعطي تراثه عن أبيه وأمه وإنما هو مالُ الله أفاءه علينا بأرماحنا وسيوفنا. فقاتلوا عباد الله القوم الظالمين فإنهم إنْ يظهروا عليكم يفسدوا عليكم دينكم ودنياكم وهم مَنْ قد عرفتم وخبرتم، والله ما ازدادوا إلى يومهم إلاّ شراً. وقاتلهم عبد الله بن بديل في الميمنة قتالاً شديداً حتىٰ انتهى إلى قبة معاوية، وأقبل الذين تبايعوا علىٰ الموت إلىٰ معاوية فأمرهم أنْ يصمدوا لابن بديل في الميمنة، وبعث إلى حبيب بن مسلمة في الميسرة فحمل بهم وبمن كان معه علىٰ ميمنة الناس فهزمهم، وانكشف أهلُ العراق مِن قبل الميمنة حتى لم يبق منهم إلا ابن بديل في مائتين أو ثلثمائة مِن القُرّاء قد أسند بعضهم إلىٰ بعض، وانجفل الناس.

وأمر عليّ سهل بن حنيف فاستقدم فيمن كان معه من أهل المدينة فاستقبلتهم

جموع لأهل الشام عظيمة فاحتملتهم حتىٰ أوقفتهم في الميمنة وكان فيما بين الميمنة إلىٰ موقف علي في القلب أهل اليمن فلما انكشفوا انتهت الهزيمة إلىٰ علي فانصرف عليّ يمشي نحو الميسرة فانكشفتْ عنه مُضَر من الميسرة وثبتت ربيعة، وكان الحسن، والحسين، ومحمد بنو عليّ معه حين قصد الميسرة والنبل يمر بين عاتقه ومنكبيه وما مِنْ بنيه أحدٌ إلّا يقيه بنفسه فيردّه فبصر به أحمر مولىٰ أبي سفيان أو عثمان فأقبل نحوه فخرج إليه كيسان مولىٰ علي فاختلفا بينهما ضربتان فقتله أحمر فأخذ عليّ بجيب درع أحمر فجذبه وحمله علىٰ عاتقه ثم ضرب به الأرض فكسر منكبيه وعضديه. ودنا منه أهل الشام فما زاده قربهم إلا إسراعاً فقال له ابنه الحسن: ما ضَرَّك لو سعيتَ حتىٰ تنتهي إلىٰ هؤلاء القوم مِنْ أصحابك، فقال: «يا بني إنّ لابيك يوماً لا يعدوه، ولا يبطىء به عنه السعي، ولا يعجل به إليه المشي، إنّ أباك والله لا يبالي أوقع علىٰ الموت أم وقع الموتُ عليه».

فلما وصل إلىٰ ربيعة نادىٰ بصوتٍ عال كغير المكترث لما فيه الناس: لمن هذه الرايات؟ قالوا: رايات ربيعة قال: بل رايات عصم اللّهُ أهلها فصبّرهم وثبت أقدامهم. وقال للحضين بن المنذر: يا فتى ألا تدني رايتك هذه ذراعاً قال: بلىٰ والله وعشرة أذرع فأدناها حتى قال: «حسبَك مكانك». ولما انتهى عليّ إلىٰ ربيعة تنادَوا بينهم: «يا ربيعة إنْ أُصيب فيكم أميرُ المؤمنين وفيكم رجلٌ حيّ افتضحتم في العرب، فقاتَلوا قتالاً شديداً ما قاتَلوا مثله فلذلك قال علي:

لَمِنْ رَايَةٌ سَوْدَاءَ يَخْفِقُ ظِلُّهَا ... إذا قِيلَ قدمها حضين تقدما
ويقدمها في المَوْتِ حَتّىٰ يزيرها ... حياض المنايا تقطر الموتَ والدَّمَا
أذقنا ابنَ حَرْب طعننا وضرابنا ... بأسيافنا حتّىٰ تَولى وأحجما
جزىٰ اللّهُ قوماً صابَرُوا في لِقائهم ... لدىٰ الموتِ قوماً ما أعف وأكرما
وأطيب أخباراً وأكرم شيمة ... إذا كان أصوات الرجال تغمغما
رَبيعة أعني أنهم أهل نجدة ... وبأس إذا لاقوا خميساً عرمرما

ومر به الأشتر وهو يقصد الميسرة والأشتر يركض نحو الفزع قبل الميمنة فقال له علي: يا مالك. قال: لبيك يا أمير المؤمنين. قال: ائت هؤلاء القوم، فقل لهم: أين فراركم من الموت الذي لن تعجزوه إلى الحياة التي لا تبقى لكم؟ فمضى الأشتر

فاستقبل الناس منهزمين فقال لهم ما قال علي ،ثم قال: أيها الناس أنا الأشتر إليّ .فأقبل إليه بعضهم وذهب البعض فنادىٰ: « أيها الناس ما أقبح ما قاتلتم مذ اليوم. اخلصوا لي مذحجاً » فاقبلتْ مذحج إليه فقال لهم: ما أرضيتم ربكم ولا نصحتم له في عدوكم، وكيف ذلك وأنتم أبناء الحرب، وأصحاب الغارات وفتيان الصباح وفرسان الطراد، وحتوف الاقران، ومذحج الطعان الذين لم يكونوا يُسْبَقُون بثأرهم، ولا تَطُل دماؤهم، وما تفعلون هذا اليوم فإنه مأثور بعده؛ فانصحوا، واصدقوا عدوكم اللقاء فإنّ الله مع الصادقين. والذي نفسي بيده ما مِنْ هؤلاء ـ وأشار إلىٰ أهل الشام ـ رجلٌ علىٰ مثل جَنَاح بعوضة مِنْ دين أجلوا سواد وجهي يرجع فيه دمه. عليكم بهذا السواد الأعظم فإن الله قد فضه فتبعه من بجانبيه قالوا: تجدنا حيثُ أحببتَ. فقصد نحو عظمهم مما يلي الميمنة يزحف إليهم ويردّهم، واستقبله شباب مِنْ هَمْدَان وكانوا ثمانمائة مقاتل يومئذ وكانوا صبروا في الميمنة حتىٰ أصيب منهم ثمانون ومائة رجل، وقتل منهم أحد عشر رئيساً كان أولهم ذؤيب[1] بن شريح، ثم شرحبيل، ثم مرثد، ثم هبيرة، ثم يريم، ثم سمير أولاد شريح فقتل؛ ثم أخذ الراية عميرة، ثم الحارث ابنا بشير فقتلا جميعاً، ثم أخذ الراية سفيان، وعبد الله ،وبكر[2] بنو زيد فقتلوا جميعاً، ثم أخذ الراية وهب بن كريب فانصرف هو وقومه وهم يقولون: « ليتَ لنا عدتنا من العرب يحالفوننا علىٰ الموت ثم نرجع فلا ننصرف أو نقتل أو نظفر ». فسمعهم الأشتر يقولون هذا فقال لهم: أنا أحالفهم علىٰ أنْ لا نرجع أبداً حتى نظفر أو نهلك. فوقفوا معه. وفي هذا قال كعب بن جعيل:

وهَمْـدَانُ زُرْقٌ[3] تبتَغي مَنْ تُحالِفُ

وزحف الأشتر نحو الميمنة، وثاب إليه الناس، وتراجعوا مِن أهل البصرة وغيرهم فلم يقصد كتيبة إلاّ كشفها ولا جَمْعاً إلاّ جازه وردَّه فإنه كذلك إذْ مرّ به زياد بن النضر الحارثي يُحْمل إلىٰ العسكر وقد صُرع، وسببه أنه كان استلحم عبد الله بن بديل وأصحابه في الميمنة فتقدم زياد إليهم ورفع رايته لأهل الميمنة فصبروا وقاتل حتىٰ

---

(١) الطبري : (كريب بن شريح) بدل ذؤيب .

(٢) الطبري : (كريب بن زيد) بدل بكر .

(٣) أي زرق العيون ـ كناية عن اللؤم وكانت العرب تتشاءم من العيون الزُّرْق .

صُرِع، ثم مروا بيزيد بن قيس الأرحبي محمولاً نحو العسكر وكان قد رفع رايته لأهل الميمنة لمّا صُرِع زياد وقاتل حتىٰ صُرِع، فقال الأشتر حين رآه: « هذا والله الصبرُ الجَميل، والفعلُ الكريم. ألا يستحي الرجلَ أنْ ينصرفَ ولا يُقْتَل أو يشفي به على القتل » . وقاتلهم الأشتر قتالاً شديداً ، ولزمه الحارث بن جمهان ، الجعفي يقاتل معه فما زال هو ومن رجع إليه يقاتلون حتىٰ كَشَفَ أهلَ الشام وألحقهم بمعاوية والصف الذي معه بين صلاة العصر والمغرب ، وانتهىٰ إلىٰ عبدالله بن بديل وهو في عصابة من القُرّاء نحو المائتين أو الثلاثمائة قد لصقوا بالأرض كأنهم خباء[1] فكشف عنهم أهل الشام فأبصروا إخوانهم فقالوا : ما فعل أميرُ المؤمنين ؟ قال : حيٌّ صالح في المسيرة يقاتِل الناسُ أمامه . فقالوا : الحمدُ لله قد كنّا ظننا أنه قد هلك وهلكتم .

وقال عبد الله بن بديل [لأصحابه] : استقدموا بنا فقال الاشتر : لا تفعل واثبت مع الناس فإنه خيرٌ لهم وأبقىٰ لك ولأصحابك. فأبىٰ ومضىٰ كما هو نحو معاوية وحوله كأمثال الجبال وبيده سيفان، وخرج عبد الله أمام أصحابه يَقْتُل كلَّ مَنْ دنا منه حتىٰ قَتَل جماعةً ودنا من معاوية فنهض إليه الناسُ مِنْ كل جانب، وأحيطِ به وبطائفةٍ مِن أصحابه فقاتَل حتىٰ قُتل وقُتل ناسٌ مِنْ أصحابه، ورجعتْ طائفةٌ منهم مجرحين فبعث الأشتر الحارث بن جمهَان الجعفي فحمل علىٰ أهل الشام الذين يتبعون مَنْ انهزم مِن أصحاب عبد الله حتىٰ نفّسوا عنهم وانتهوا إلىٰ الأشتر، وكان معاوية قد رأىٰ ابنَ بديل وهو يضرب قدماً فقال: أترونه كبشَ القوم؟ فلما قُتل أرسل إليه لينظروا مَنْ هو. فلم يعرفه أهل الشام فجاء إليه فلما رآه عرفه فقال: هذا عبد الله بن بديل. والله لو استطاعتْ نساءُ خزاعة لقاتلتنا فضلاً عن رجالها. وتمثل بقول حاتم:

أَخُو الحَرْب إذ عَضَّتْ به الحرب عَضَّها ... وإنْ شَمَّـرَتْ يومـاً به الحـربُ شَمَّـرَا

وزحف الأشتر بعك، والأشعريين وقال لمذحج: اكفونا عكاً ووقف في هَمْدان وقال لكندة : اكفونا الأشعريين. فاقتتلوا قتالاً شديداً إلىٰ المساء، وقاتلهم الأشتر في هَمْدان وطوائِف من الناس فأزال أهلَ الشام عن مواضعهم حتىٰ ألحقهم بالصفوف الخمسة المعلقة بالعمائم حول معاوية ثم حمل عليهم حملةً أخرىٰ فصَرَع أربعةَ صُفُوف

---

(١) الطبري : (كأنهم جثا) ـ وهي أظهر .

مِن المُعَلَّقين بالعمائم [حتىٰ انتهوا إلىٰ الخامس الذي حول معاوية]، ودعا معاوية بفرسه فركب وكان يقول: أردتُ أنْ انهزم فذكرتُ قولَ ابن الأطنابة الأنصاري وكان جاهلياً :

أَبَتْ لِي عِفَّتِي فَأَبىٰ بَلائِي وَإِقْدَامِي علىٰ البَطَلِ المُشِيحِ
وإعطَائِي عَلَىٰ المَكروهِ مالي وأخْذِي الحَمْدَ بالثمن الرَّبيحِ
وقَوْلِي كُلَّما جَشَأَتْ وَجَاشَتْ مَكَانَكِ تُحْمَدِي أَوْ تَسْتَرِيْحِي

قال: فمنعني هذا القولُ من الفِرار؛ ونظر إليّ عَمْرو وقال: « **اليومُ صَبْرٌ وغداً فَخْرٌ** » فقلت : صدقتَ.

وتقدّم جندب بن زهير فبارز رأسَ أزد الشام فقتله الشاميّ وقَتَلَ مِنْ رهطه عجل، وسعد ابنا عبد الله، وقتل أبو زينب بن عوف، وخرج عبد الله بن أبي الحصين الأزدي في القراء الذين مع عمار بن ياسر فأصيب معه، وتقدم عقبة بن حديد النميري وهو يقول: ألا إنّ مرعىٰ الدنيا أصبحَ هَشِيْماً، وشجرها خضيداً، وجديدها سملاً، وحلوها مُرّ المذاق، إنّي قد سَئِمْتُ الدنيا، وعَزفتْ نفسي عنها، وإنّي أتمنىٰ الشهادة، وأتعرَّضُ لها في كل جيشٍ وغارة فأبىٰ اللّهُ إلاّ أن يبلغني هذا اليوم، وإني متعرضٌ لها مِنْ ساعتي هذه، وقد طمعتُ أن لا أحرمها فما تنتظرون عباد الله بجهادِ مَنْ عَادَىٰ الله؟ ـ في كلام طويل ـ وقال: يا إخوتي قد بعتُ هذه الدار بالتي أمامها، وهذا وجهي إليها فتبعه أخوته عبيد الله، وعوف، ومالك وقالوا: لا نطلبُ رزقَ الدنيا بعدك. فقاتلوا حتىٰ قُتلوا.

وتقدم شمر بن ذي الجوشن فبارز فضرب أدهم بن محرز الباهلي بالسيف وجهه، وضربه شمر فلم يضرّه فعاد شمر [إلىٰ رَحْلِهِ] فشرب ماءً وكان ظمآن ثم أخذ الرمح ثم حمل علىٰ أدهم فصرعه وقال: هذه بتلك. وكانت راية بجيلة مع أبي شداد قيس بن هبيرة الأحمسي وهو قيس بن مكشوح ومكشوح لقب فقال لقومه: والله لأنتهينَّ بكم إلىٰ صاحب الترس المذهب ـ وكان صاحبه عبد الرحمن بن خالد ـ فقاتل الناس قتالاً شديداً وشَدَّ بسيفه نحو صاحب الترس فعرض له مولىٰ روميّ لمعاوية فضرب قدم أبي شداد فقطعها وضربه أبو شداد فقتله وأُشرِعَتْ إليه الرماحُ فقُتل.

وأخذ الراية عبد الله بن قلع الأحمسي فقاتل حتىٰ قُتل، ثم أخذها عفيف بن إياس فلم تزل في يده حتىٰ تحاجز الناسُ وقُتل حازم بن أبي حازم أخو قيس بن أبي حازم يومئذ، وقتل أبوه أيضاً له صحبة، ونعيم بن صهيب بن العيلة[١] البجليون مع عليّ فلما رأىٰ عليّ ميمنة أصحابه قد عادتْ إلىٰ مواضعها ومواقفها، وكشفت مَنْ بإزائها مِنْ عدوها حتىٰ ضاربوهم في مواقفهم ومراكزهم أقبل حتىٰ انتهى إليهم فقال إني قد رأيتُ جولتكم عن صفوفكم يحوزكم الجفاة الطغام وأعراب الشام، وأنتم لهاميم العرب، والسنام الأعظم، وعُمّار الليل بتلاوة القرآن، وأهل دعوة الحق فلولا إقبالكم بعد إدباركم، وكرّكم بعد انحيازكم لَوَجَبَ عليكم ما يجب علىٰ المولىٰ يوم الزحف [دبره] وكنتم مِن الهالِكين ولكن هون وجدي وشفى أحاح[٢] نفسي أني رأيتكم بآخوة حزتموهم كما حازوكم وأزلتموهم عن مصافهم كما أزالوكم تركب أولاهم أخراهم كالإبل المطردة الهيم فالآن فاصبروا فقد نزلتْ عليكم السكينة وثبّتكم الله باليقين ليعلم المنهزم أنه مسخط ربه وموبق نفسه ـ في كلام طويل . وكان بشر بن عصمة المري[٣] قد لحق بمعاوية فلما اقتتل الناسُ بصِفّيْن نظر بشر إلىٰ مالك بن العقدية الجشمي وهو يفتك بأهل الشام فاغتاظ لذلك فحمل علىٰ مالك وتجاولا ساعةً ثم طعنه بشر بن عصمة فصَرَعه ولم يقتله وانصرف عنه وقد ندم علىٰ طعنته إياه وكان جباراً فقال :

وإنّـي لأرْجُـو مِنْ مَـلِيْكِـي تَجَـاوُزاً ... ومِنْ صاحِبِ المَوْسُومِ [٤] في الصَّدْرِ هَاجِسُ
دَلَفْتُ لـه تَحْتَ الـغُبـارِ بِـطَعْـنَـةٍ ... عَلَىٰ سَـاعَـةٍ فِيْهـا الـطِّعـان تَخـالُسُ

فبلغت مقالته ابن العَقَدِيّة فقال :

أَلَا أَبْلِغَـا بِشْـرَ بنَ عِصْمَـةَ أَنَّنِي ... شُغِلْتُ وَأَلْهـانِي الَّـذِيْنَ أُمَـارِسُ
وصَـادَفْتَ منّي غِـرَّةً وَأَصَبْتَهـا كـذ ... لـكَ والأَبْطَالُ مـاض وحـابِسُ[٥]

وحمل عبد الله بن الطفيل البكائي علىٰ أهل الشام فلما انصرف حمل عليه رجلٌ

---

(١) الطبري : (صهيب بن العلية) .
(٢) الإحاح : الظمأ .
(٣) الطبري ٥/٢٩ ؛ المزني .
(٤) الموسم : اسم فرس .
(٥) الطبري : (وخالس) .

من بني تميم يقال له: « قيس بن مرة » ممن لحق بمعاوية مِن أهل العراق فوضع الرمحَ بين كتفي عبد الله، واعترضه ابنُ عمٍّ لعبد الله اسمه يزيد بن معاوية فوضع الرمح بين كتفي التميمي فقال له: والله لئن طعنته لأطعننك فقال له: عليك عهدُ الله وميثاقه إنْ رفعتَ الرمحَ عن ظهرِ صاحبك لترفعنَّ سنانك عني؟ قال: نعم. فرفع التميمي سنانه ورفع يزيد سنانه فلما رجع الناسُ إلىٰ الكوفة عتب علىٰ يزيد بن الطفيل فقال:

أَلَم تَرَنِي حَامَيْتُ عَنْكَ مُنَاصِحاً ... بِصِفِّيْنَ إِذْ خَلَّاكَ كُلُّ حَمِيْمِ
وَنَهْنَهْتُ عنكَ الحَنْظَلِيَّ وَقَد أَتَىٰ ... عَلَىٰ سَابِحٍ ذي مَيْعَةٍ وَهَزِيْمِ

وخرج رجلٌ من آل عك من أهل الشام يسأل المبارزة فبرز إليه قيس بن فَهْدَان الكنديّ فحمل عليه، وتجاولا ساعةً ثم طعنه عبد الرحمن فقتله وقال[1]:

لَقَدْ عَلِمَتْ عَكٌّ بِصِفِّيْنَ أننا ... إِذَا ٱلتَقَتِ الخيلان نَطْعَنُهَا شَزْرَا
وَنَحْمِلُ رَايَاتِ الطِّعَانِ بِحَقِّهَا ... فَنُورِدُهَا بيضاً ونُصْدِرُها حُمْراً

وخرج قيس بن يزيد ـ وهو ممن فرّ إلىٰ معاوية ـ فخرج إليه أبو العمرطة بن يزيد فتعارفا فتواقفا ثم انصرفا وأخبرَ كلٌّ واحدٍ منهما أنّه لقي أخاه. وقاتلت طيىء يومئذ قتالاً شديداً فعُبِّئَتْ لهم جموعٌ فأتاهم حمرة[2] بن مالك الهمداني فقال: مَنْ القوم؟ فقال له عبد الله بن خليفة وكان شيعياً شاعراً خطيباً: نحن طيىء السهل، وطيىء الرمل، وطيىء الجبل الممنوع ذي النخل، نحن طيىء الرماح، وطيىء البطاح، فرسان الصباح. فقال حمرة بن مالك: إنك لحسن الثناء علىٰ قومك. واقتتل الناسُ قتالاً شديداً فناداهم: يا معشر طيىء فدا لكم طارفي وتالدي قاتِلوا علىٰ الدين والأحساب. وحمل بشر بن العسوس فقاتل ففُقِئَت عينه يومئذ فقال في ذلك:

أَلَا لَيْتَ عَيْنِي هَـٰذِهِ مِثْلُ هَـٰذِهِ ... وَلَمْ أَمْشِ فِي الأَحْيَاءِ إلا بِقَائِدِ

---

(١) عبارة المؤلف هنا تفيد أن الذي برز إلى العكي قيس بن فهد وأنّ الذي قتله عبد الرحمن والشعر له، وفي الطبري (٥/٣٠)؛ أنّ الذي قال الشعر قيس بن فهدان الكنانيّ وأنّ كلا منهما قتل رجلاً إلا أنّ عبد الرحمن قتل عبداً حبشياً وقيس قتل رجلاً عكياً فاختصر المصنف عبارة الطبري فوقع فيها خللاً (م)

(٢) الطبري: حمزة ـ بالزاي، وسيأتي ضبط آخر الباب بالراء المهملة.

وَيَـا لَيْتَ رِجْلِي ثُمَّ طُنَّتْ بِنِصْفِهَـا ... وَيَا لَيْتَ كَفِّي ثُمَّ طَاحَتْ بِسَاعِدِي[1]
وَ يَـا لَيْتَنِي لَمْ أَبْقَ بَعْدَ مـطَرِّفٍ ... وَسَعْـدٍ وبعـد المُسْتَنِيـرِ بن خـالِـدِ
فَـوَارِسَ لَـمْ تَغْذُ الحـواضِنُ مِثْلَهُمْ ... إِذَا الحَرْبُ أَبْدَتْ عن خدامِ الخَرَائِدِ

وقـاتلتْ النخع يـومئذ قتـالاً شديـداً فأصيب منهم حيـان، وبكـر ابنـا هـوذة، وشعيب بن نعيم، وربيعـة بن مالـك بن وهبيل، وأُبَيّ أخـو علقمة بن قيس الفقيـه، وقُطِعَتْ رِجْل علقمة يومئذ فكان يقول: « ما أُحِبُّ أنّ رِجْلِي أصح مما كانت وإنّها لمما أرجو بها الثواب وحُسْنَ الجزاء من ربي ». قال: ورأيتُ أخي في المنام فقلت له: ماذا قدِمتُم عليه؟ فقال لي: إنّا آلتقينا نحنُ والقوم عند الله تعالى فاحتججنا فحججناهم. فمما سُرِرْتُ بشيءٍ سُروري بتلك الرؤيا ـ وكان يقال لأُبَيّ « أُبَيّ الصلاة » لكثرة صلاته.

وخرجت حِمْيَر في جمعها ومَنْ انضم إليها مِن أهل الشام ومقدمهم ذو الكلاع ومعه عبيد الله بن عمر بن الخطاب وهم ميمنة أهل الشام فقصدوا ربيعة من أهل العراق وكانت ربيعة ميسرة أهلِ العراق وفيهم ابن عباس علىٰ الميسرة فحملوا علىٰ ربيعة حملة شديدةفتضعضعت رايةُ ربيعة ـ وكانت الراية مع أبي ساسان حضين بن المنذر ـ فانصرف أهل الشام عنهم، ثم كر عبيد الله بن عمر وقال: يا أهل الشام إنّ هذا الحي مِنْ أهل العراق قَتَلة عثمان وأنصار عليّ فشُدوا علىٰ الناس شَدَّةً عظيمة. فثبتتْ ربيعة وصبروا صبراً حسناً إلّا قليلاً مِن الضعفاء والفَشَلَة، وثبت أهلُ الرايات، وأهل الصبر، والحفاظ وقاتَلوا قتالاً حسناً، وانهزم خالد بن المعمر مَعْ مَنْ انهزم وكان علىٰ ربيعة، فلما رأىٰ أصحاب الرايات قد صبروا رجع وصاح بمن انهزم وأمرهم بالرجوع فرجعوا، وكان خالد قد سعى به إلىٰ عليّ أنه كاتب معاوية فأحضرَه عليّ ومعه ربيعة فسأله عما قيل وقال له: إنْ كنت فعلت ذلك فالحق بأي بلد شئت لا يكون لمعاوية عليه حكم فأنكر ذلك.

وقالت ربيعة: يا أمير المؤمنين لو نعلم أنه فعل ذلك لقتلناه. فاستوثق منه عليّ بالعهود، فلما فر اتهمه بعضُ الناس واعتذر هو بأنى لمّا رأيتُ رجالاً منا قد انهزمـوا استقبلتُهم لأردهم إليكم فأقبلتُ بمن أطاعني إليكم ولما رجع إلىٰ مقامه حرض ربيعة فاشتد قتالهم مع حمير، وعبيد الله بن عمر حتىٰ كثرتْ بينهم القتلىٰ فقتل سمير بن الـريان

---

(١) الطبري ٣٢/٥، ذكر البيت الثاني هذا في آخر الأبيات.

العجليّ وكان شديد البأس، وأتىٰ زياد بن عمر بن خصفة عبدَ القيس فأعلمهم بما لَقِيَتْ بكر بن وائل مِنْ حمير وقال: يا عبد القيس لا بكر بعد اليوم. فأتت عبد القيس بني بكر فقاتَلوا معهم فقُتل ذو الكلاع الحميري، وعبيد الله بن عمر قَتَلة محرز بن الصحصح مِن تميم الله بن ثعلبة مِنْ أهل البصرة، وأخذ سيفه «ذا الوشاح» وكان لعمر فلما مَلَك معاوية العراق أخَذَه منه، وقيل: بل قَتَله هانىء بن خطاب الأرحبي، وقيل: قتله مالك بن عمرو التنعي الحضرميّ.

[مقتل عمار بن ياسر رضي الله عنه][1]:

وخرج عمار بن ياسر علىٰ الناس فقال: «اللهم إنّك تعلمُ أنّي لو أعلم أنّ رضاك في أنْ أقذفَ بنفسي في هذا البحر لفعلته. اللهم إنّك تعلم أني، لو أعلم أنّ رضاك في أنْ أضع ظبةَ سيفي في بطني ثم أنحني عليها حتى تخرجَ مِنْ ظهري لفعلته. وإني لا أعلم اليومَ عملاً هو أرضىٰ لك مِنْ جهادِ هؤلاءِ الفَاسقين ولو أعلمُ عملاً هو أرضىٰ لك منه لفعلتُه. والله إني لأرىٰ قوماً ليضربنكم ضرباً يرتاب منه المُبطلون، وأيم الله لو ضربونا حتىٰ يبلغوا بنا سعفات هَجَر لعلمتُ أنّا على الحق وأنهم علىٰ الباطل».

ثم قال: مَنْ يبتغي رضوانَ الله ربه ولا يرجع إلىٰ مالٍ ولا ولدٍ فأتاه عصابة فقال: «اقصدوا بنا هؤلاء القوم الذين يطلبون دم عثمان، واللهِ ما أرادوا الطلبَ بدمه ولكنهم ذاقوا الدنيا واستحبوها وعلِموا أنّ الحق إذا لَزِمهم حالَ بينهم وبين ما يتَمرغون فيه منها ولم يكن لهم سابقة يستحقون بها طاعة الناس والولاية عليهم فخذعوا أتباعهم وقالوا: «إمامنا قُتل مظلوماً. ليكونوا بذلك جبابرة ملوكاً فبلغوا ما تَرَوْن فلولا هذا ما تبعهم من الناس رجلان. اللهم إنْ تنصرنا فطالما نصرتَ وإنْ تجعل لهم الأمر فادّخر لهم بما أحدثوا في عِبادِك العذابَ الأليم».

ثم مضىٰ ومعه تلك العصابة فكان لا يمرّ بوادٍ مِنْ أودية صِفِّيْن إلا تبعه مَنْ كان هناك من أصحاب النبي ﷺ، ثم جاء إلىٰ هاشم بن عتبة بن أبي وقاص وهو المرقال وكان صاحب راية عليّ وكان أعور فقال يا هاشم: أعوراً وجبنا؟ لا خير في أعور لا يغشىٰ البأسَ، آركب يا هاشم. فركب ومضىٰ معه وهو يقول:

---

(١) من زيادتنا.

أَعْــوَرُ يَبْغِـي أَهْلَهُ مَـحَـلَّا ... قـد عَـالَـجَ الحَيَاةَ حتى مَـلَّا

لا بُــدَّ أن يَـفُــلَّ أو يُـفَـلَّا ... يتلهم[1] بـذِي الكعـوب تَـلَّا[2]

وعمار يقول: تقدم يا هـاشم . الجنةُ تحتَ ظـلالِ السيوف، والمـوتُ تحت أطراف الأَسَل[3]، وقد فُتحت أبوابُ السماء وتزينت الحور العين.

الـيـوم ألـقـى الاحـبـه ... مـحـمـداً وحـزبـه

وتقدم حتىٰ دنا من عَمْرو بن العاص فقال له: يا عَمْرو بِعْتَ دينك بمصرَ تبًّا لك. فقال له: لا ولكن أطلب بدم عثمان. قال: «أنا أشهد علىٰ عِلمي فيك أنّك لا تطلبُ بشيءٍ مِنْ فِعْلِكَ وجه الله وإنّك إنْ لم تقتل اليوم تَمُتْ غداً فانظرْ إذا أُعطيَ الناسُ علىٰ قَدْرِ نِيَّاتِهِم ما نيتك. لقد قاتلتَ صاحب هذه الراية ثلاثاً مع رسول الله ﷺ وهذه الرابعة ما هي بأبرّ وأتقىٰ». ثم قاتل عمار فلم يرجع وقُتل.

وقال حبة بن جوين العرني : قلتُ لحذيفة بن اليمان حدِّثنا فإنّا نخافُ الفِتَنْ. فقال: عليكم بالفئة التي فيها ابنُ سُمَيَّة فإنّ رسول الله ﷺ: «تَقْتُلُهُ الفِئَةُ الباغية الناكبة عن الطريق، وإنّ آخر رزقه ضياح من لبن وهو الممزوج بالماء من اللبن». قال حبة : فشهدتُه يوم قُتل وهو يقول: أئتوني بآخرِ رزقٍ لي في الدنيا. فأُتي بضياح مِنْ لبن في قَدَحٍ أروح له حلقة حمراء فما أخطأ حذيفة مقياس شعره، فقال:

الـيـومُ ألـقـىٰ ألا حـبـه ... مـحـمـداً وحـزبـه

والله لو ضربونا حتى يبلغوا بنا سعفات هَجَر لعلمتُ أننا علىٰ الحق وأنهم علىٰ الباطل، ثم قتل قَتَله أبو الغازية، واحتزّ رأسه ابنُ حُوَيّ السكسكي، وقيل: قَتَلَه غيره.

وقد كان ذو الكلاع سمع عمرو بن العاص يقول: قال رسول الله ﷺ لعمار بن ياسر : «تقتُلك الفئةُ الباغية وآخر شربة تشربها ضياح من لبن» فكان ذو الكلاع يقول لعمرو : ما هذا! ويحك يا عمرو ! فيقول عمرو : إنه سيرجعْ إلينا. فقُتل ذو الكلاع قبل

---

(١) يتلهم: يصرعهم.

(٢) أنظر الطبري ٥/٤٠.

(٣) أي الرماح.

عَمار مع معاوية، وأصيب عمار بعده مع عليّ فقال عَمْرو لمعاوية: «ما أدري بقتل أيهما أنا أشدّ فَرَحاً بقَتْل عمار أو بقتل ذي الكلاع. والله لو بقي ذو الكلاع بعد قتل عمار لمال بعامّة أهلِ الشام إلىٰ عليّ». فأتىٰ جماعةٌ إلىٰ معاوية كلهم يقول: أنا قتلتُ عماراً. فيقول عَمْرو: فما سمعتَه يقول؟ فيخلطون، فأتاه ابن حُوَيّ فقال: أنا قتلتُه فسمعته يقول:

اليومَ ألقىٰ الأحبه محمداً وحزبه

فقال له عمرو: أنت صاحبه ثم قال: رويداً والله ما ظفرتْ يداك، ولقد أسخطتَ ربك. قيل: إنّ أبا الغازية قَتَلَ عماراً وعاش إلىٰ زمن الحجّاج، ودخل عليه فأكرمه الحجاج وقال له: أنتَ قتلتَ ابنَ سُميّة ـ يعني عماراً ـ؟ قال: نعم. فقال: مَنْ سَرّه أنْ ينظر إلىٰ عظيم الباع يوم القيامة فلينظر إلىٰ هذا الذي قتل ابن سمية، ثم سأله أبو الغازية حاجته فلم يُجبه إليها. فقال: نوطىء لهم الدنيا ولا يعطونا منها ويزعم أني عظيم الباع يوم القيامة! فقال الحجاج: أجلْ والله مَنْ كان ضِرْسُهُ مثل أُحُد، وفَخِذه مثل جبل وَرِقَان[١]، ومجلسه مثل المدينة والرَّبَذَة إنه لعظيم الباع يوم القيامة. والله لو أنّ عماراً قَتَله أهلُ الأرضِ كلهم لدخلوا كلهم النار.

وقال عبد الرحمن السلمي: لما قُتل عمار دخلتُ عسكر معاوية لأنظر هل بلغ منهم قَتْل عمار ما بلغ منا ـ وكنا إذا تركنا القتال تحدثوا إلينا وتحدثنا إليهم ـ فإذا معاوية، وعَمْرو، وأبو الأعور، وعبد الله بن عَمْرو، يتسايرون فأدخلتُ فرسي بينهم لئلا يفوتني ما يقولون فقال عبد الله لأبيه: «يا أبتِ قتلتم هذا الرجل في يومكم هذا وقد قال رسول الله ﷺ ما قال! قال: وما قال؟ قال: ألم يكن المسلمون ينقلون في بناء مسجد النبي ﷺ لَبِنَة لَبِنَة وعمار لبنتين لبنتين فغشيَ عليه فأتاه رسولُ الله ﷺ فجعل يمسح التراب عَنْ وجهه ويقول: «ويحك يا ابن سمية الناسُ ينقلون لَبِنَة لَبِنَة وأنتَ تنقلُ لَبِنَتَيْن لَبِنَتَيْن رغبةً في الأجرِ وأنت ذلك تَقْتُلُك الفئةُ الباغية». فقال عَمرو لمعاوية: أما تسمع ما يقولُ عبدالله؟ قال: وما يقول؟ فأخبره فقال معاوية: أنحن قتلناه؟ إنّما قتله مَنْ جاء بِهِ[٢]

(١) وَرِقَان: جبل أسود بين العرج والرويثة يمين المصعد من مكة.

(٢) هذا تأويل ملوم يريد أنْ يدفع اللوم عن نفسه بالحق أو بالباطل (م).

فخرج الناسُ مِنْ فساطيطهم وأخبيتهم يقولون : إنما قتل عماراً مَنْ جاء به ، فلا أدري مَنْ كان أعجب أهو أم هم .

فلما قُتل عمار قال عليّ لربيعة، وهَمْدَان: أنتم دِرْعِي ورمحي. فانتدب له نحو من اثني عشر وتقدمهم عليّ على بغلة فحملوا معه حملةَ رجلٍ واحد فلم يبق لأهل الشام صف إلا انتقض وقَتلوا كل مَنْ انتهوا إليه حتى بلغوا معاوية وعليّ يقول:

أَقْـتُـلُهُـمْ[1] وَلَا أَرَىٰ مُـعَـاوِيَـهْ ... الجـاحِظَ العَيْنِ العـظيمَ الحَـاوِيَـهْ

ثم نادىٰ معاوية فقال: علامَ يُقْتَلُ الناسُ بيننا؟ هلمّ أحاكمُك إلىٰ الله فأيّنا قَتَل صاحبَه استقامتْ له الأمورُ. فقال له عمرو: أنصَفَكَ فقال له معاوية: ما أَنْصِفْتُ إنك لتعلمُ أنه لم يبرز إليه أحدٌ إلاّ قَتَلَه. فقال له عمر : ما يَحْسُنُ بك ترك مبارزته. فقال له معاوية : طمعتَ فيها بعدي. وكان أصحابُ عليّ قد وكلوا به رجلين يحافظانه لئلا يقاتِل وكان يحمل إذا غفلا فلا يرجع حتى يخضب سيفه، وأنه حمل مرةً فلم يرجع حتىٰ انثنىٰ سيفه فألقاه إليهم وقال: « لولا أنه انثنى ما رجعتُ إليكم فقال الأعمش لأبي عبد الرحمن : هذا والله ضرب غير مرتاب. فقال أبو عبد الرحمن : سمع القوم شيئاً فأدوه ما كانوا بكاذبين.

وأَسَرَ معاوية جماعة من أصحاب عليّ فقال له عمرو : اقتلهم. فقال عمرو بن أوس الأوديّ : لا تقتلني فإنك خالي . قال: من أين أنا خالك ولم يكن بيننا أود مصاهرة؟ قال: إنْ أخبرتُك فهو أماني عندك قال: نعم. قال: أليست أختك أم حبيبة زوج النبي ﷺ؟ قال: بلى قال: فإنّي ابنها[2] وأنت أخوها فأنت خالي. فقال معاوية : ما له لله أبوه أما كان في هؤلاء مَنْ يفطن لها غيره. وخَلّىٰ سبيله ـ وكان قد أسر على أسارىٰ كثيرة فخلىٰ سبيلهم فجاؤوا معاوية وإنّ عَمْراً ليقول له وقد أسر أيضاً أسارىٰ كثيرة آقتلهم . فلما وصل أصحابهم قال معاوية : يا عَمْرو لو أطعناك في هؤلاء الأسارىٰ لوقعنا في قبيحٍ مِن الأمر. وخَلّىٰ سبيل مَنْ عنده.

---

(١) الطبري ٤٢/٥ : (أضربهم) ـ بدل أقتلهم .

(٢) أي لأنّها أمّ المؤمنين .

[خبر هاشم بن عتبة]

وأما هاشم بن عتبة فإنه دعا الناسَ عند المساء وقال: ألا مَنْ كان يريد الله والدارَ الأخرة فإليّ. فأقبل إليه ناسٌ كثيرٌ فحمل علىٰ أهلِ الشام مِراراً ويصبرون له، وقاتل قتالاً شديداً وقال لأصحابه: لا يهولنكم ما ترون مِنْ صَبْرهم فوالله ما هو إلا حَمِيَّة العرب وصبرها تحت راياتهم، وإنّهم لعلىٰ الضلال وإنّكم لعلىٰ الحقّ. ثم حرّض أصحابه وحمل في عصابة من القُرّاء فقاتل قِتالاً شديداً حتىٰ رأوا بعضَ ما يُسَرُّونَ به فبينما هم كذلك إذْ خرج عليهم شابٌ وهو يقول:

أَنَـا ابنُ أَرْبَـابِ المُلُوكِ غَسَّـانْ ... وَالـدَّائِنُ اليـومَ بِـدِيْنِ عُثْمَـانْ
نَـبَّـأَنَـا قُـرّاؤُنَـا بِـمَـا كَـان ... أَنَّ عـليـاً قَـتَـلَ ابـنَ عَـفَّـان[1]

ثم يحمل فلا يرجع حتىٰ يَضْرِبَ بسيفه، ويشتِم، ويلعَن فقال له هاشم: يا هذا إنّ هذا الكلام بعده الخِصَام، وإنّ هذا القتال بعده الحِسَاب فاتقِ اللهَ فإنه سائِلُك عن هذا الموقف وما أردتَ به. قال: فإني أقاتلكم لأنّ صاحبكم لا يصلي وأنتم لا تُصلُّون، وإنّ صاحبكم قَتَلَ خليفتنا وأنتم ساعدتموه علىٰ قتله. فقال له هاشم: ما أنت وعثمان أَقَتَلَهُ أصحابُ رسول الله ﷺ وأبناء أصحابه، وقُرّاءِ الناس وهم أهلُ الدين والعلم وما أهملوا أمرَ هذا الدين طرفةَ عَيْنٍ؟ وأما قولك: إنّ صاحِبَنا لا يصلي فإنه أول مَنْ صَلَّىٰ، وأفقه خلق الله في دِين الله، وأولىٰ بالرسول ﷺ. وأما كل مَنْ ترىٰ معي فكلهم قارِىءٌ لكتاب الله لا ينام الليل تهجداً فلا يغوينك هؤلاء الأشقياء. فقال الفتىٰ: فهل لي مِنْ توبة؟ قال: نعم تُبْ إلىٰ الله يتبْ عليك فإنه يقبلُ التوبةَ عن عباده ويعفو عن السيئات. فرجع الفتىٰ فقال له أهل الشام: خدعك العراقي. فقال: كلا ولكن نصح لي. وقاتل هاشم وأصحابه قتالاً شديداً حتى رأوا الظفر فأقبلتْ عليهم عند المغرب كتيبة لتنوخ فقاتلهم هاشم وهو يقول:

أَعْـوَرٌ يَـبْـغِـي أَهْـلَه مَـحَـلاً ... لا بُـدَّ أَنْ يَـفُـلَّ أو يُـفَـلاَّ
قَـدْ عَـالَـجَ الحياةَ حَتَّىٰ مَـلاَّ ... يَـتُلُّـهُـم بـذي الكُـعُـوبِ تَـلاَّ

فقَتَلَ يومئذ تسعة أو عشرة وحمل عليـه الحارث بن المنـذر التنوخي فـطعنه،

---

(١) أنظر الطبري ٤٣/٥ .

فسقط، فأرسل إليه عليّ أنْ قَدِّمْ لواءك. فقال لرسوله: انظر إلىٰ بطني ـ فإذا هو انشق، فقال الحجاج بن غزية الأنصاري :

فَإنْ تَفْخَرُوا بابْنَي بُدَيْـل وهاشِمٍ   فنَحنُ قَتَلْنَـا ذَا الكَلَاع وحَـوْشَبَـا
وَنَحْنُ تَـرَكْنَـا عِنْـدَ مُعْتَـرَكِ القَنَـا   أخَـاكَ عُبَيْـد الله لَحمـاً مُلَحَّبـا
ونحن أحَـطْنـا بـالبعيـر وأهْلِهِ   ونحن سقينـاك سمامـاً مُقَشَّبـا (١)

ومر عليّ بكتيبة مِنْ أهل الشام فرآهم لا يزولون وهم غسان فقال: « إنّ هؤلاء لا يزولون إلاّ بطعنٍ وضَرْبٍ يفلق الهام، ويطيح العظام، تسقط منه المعاصم والأكفّ، وحتى يقرع جباههم بعمد الحديد، أين أهل النصر والصبر طلاب الأجر؟ فأتاه عصابةٌ مِنْ المسلمين فدعا ابنه محمداً فقال له: تقدم نحو هذه الراية مشياً رويداً علىٰ هينتك حتىٰ إذا أشرعتَ في صُدُورِهِم الرماح فأمسك حتىٰ يأتيك أمري. ففعل، وأعدّ لهم عليّ مثلهم وسيّرهم إلىٰ ابنه محمد وأمره بقتالهم فحملوا عليهم فأزالوهم عن مواقفهم وأصابوا منهم رجالاً.

[ليلة الهرير]

ومـر الأسود بن قيس المـرادي بعبد الله بن كعب المـرادِيّ وهو صـريع فقـال عبد الله : يا أسود قال: لبيك. وعرفه وقال له: عزَّ عَلَيَّ مصرعُكَ ثم نزل إليه وقال له: إنْ كان جارُك ليأمن بوائقك، وإنْ كنتَ لمن الذاكرين الله كثيراً. أوصني رَحِمَكَ اللّهُ. فقال: « أُوصيك بتقوىٰ الله، وأنْ تناصح أميرَ المؤمنين، وأنْ تقاتلَ معه المحلين حتىٰ تظهر أو تلحق بالله، وأبلِغْه عني السلام، وقُلْ له: قاتِل على المعركة حتى تجعلها خلف ظهرك فإنه مَنْ أصبح غداً والمعركةُ خلفَ ظهره كان العالي ». ثم لم يلبث أن مات، فأقبل الأسود إلى علي فأخبره فقال: رحمه الله جاهد عدونا في الحياة ونصح لنا في الوفاة.

وقيل : إنّ الذي أشار علىٰ أمير المؤمنين عليّ بهـذا عبد الـرحمن بن الحنبل الجمحي قال: فاقتتل الناسُ تلك الليلة كلها إلى الصباح ـ وهي ليلة الهَرِيْر ـ فتطاعنوا حتىٰ تقصفت الرماح، وتراموا حتىٰ نفد النبل، وأخذوا السيوف وعليّ يسير فيما بينَ

---

(١) القشب : الخلط وسقي السم .

الميمنة والميسرة ويأمر كلَّ كتيبة أنْ تقدم علىٰ التي تليها، فلم يزل يفعل ذلك حتىٰ أصبح والمعركةُ كلها خلفَ ظهره، والأشتر في الميمنة وابن عباس في الميسرة، وعليّ في القلب، والناس يقتتلون مِنْ كل جانب ـ وذلك يوم الجمعة.

وأخذ الأشتر يزحف بالميمنة ويقاتِل فيها وكان قد تولاها عشية الخميس وليلة الجمعة إلىٰ ارتفاع الضحىٰ ويقول لأصحابه: « آزحفوا قيد هذا الرمح » وهو يزحف بهم نحو أهل الشام فإذا فعل ذلك بهم قال: « ازحفوا قيد هذا القوس » فإذا فعلوا سألهم مثلَ ذلك حتىٰ مَلَّ أكثرُ الناس الإقدام، فلمّا رأىٰ الأشترُ ذلك قال: « أعيذكم بالله أنْ ترضعوا الغنم سائر اليوم ». ثم دعا بفرسه فركبه وترك رايته مع حيان بن هوذة النخعيّ وخرج يسير في الكتائب ويقول: « مَنْ يشتري نفسه ويقاتل مع الأشتر يظهر أو يلحق بالله »؟ فاجتمع إليه ناسٌ كثير فيهم حيان بن هوذة النخعي وغيره فرجع إلىٰ المكان الذي فيه وقال لهم: « شُدُّوا شَدَّةً فدا لكم خالي وعمي ترضون بها الرب، وتعزون بها الدين ». ثم نزل وضرب وَجْه دابته وقال لصاحب رايته: أقدم بها. وحمل علىٰ القوم، وحملوا معه، فضرب أهل الشام حتىٰ انتهىٰ بهم إلىٰ عسكرهم، ثم قاتلوه عند العسكر قتالاً شديداً وقتل صاحب رايته، ولما رأىٰ عليّ الظفر مِنْ ناحيته أمدّه بالرجال، فقال عمرو بن العاص، لوردان مولاه: أتدري ما مثلي ومثلك ومثل الأشتر؟ قال: لا قال: كالأشقر إنْ تقدّم عُقِر وإنْ تأخر عُقِر، لئن تأخرتَ لأضربن عنقك. قال: أما واللهِ يا أبا عبد الله لأوردنّك حياضَ الموتِ. ضعْ يدك علىٰ عاتقي. ثم جعل يتقدم ويتقدم ويقول: لأوردنّك حياضَ الموت واشتد القتال، فلما رأىٰ عَمْرو أنّ أمرَ أهلَ العراقِ قد اشتدّ وخاف الهلاك قال لمعاوية: هل لك في أمرٍ أعرِضُه عليك لا يزيدنا إلاّ اجتماعاً ولا يزيدهم إلاّ فُرقة؟ قال: نعم. قال: نرفعِ المصاحف ثم نقول لما فيها هذا حكم بيننا وبينكم فإنْ أبىٰ بعضُهم أنْ يقبلها وجدتَ فيهم مَنْ يقول ينبغي لنا أنْ نقبل فتكون فُرقة بينهم وإنْ قبلوا ما فيها رفعنا القتال عنّا إلى أجلٍ ».

فرفعوا المصاحف بالرماح وقالوا: هذا حكم كتاب الله عز وجل بيننا وبينكم. مَنْ لثغور الشام بعد أهله، مَنْ لثغور العراق بعد أهله؟ فلما رآها الناسُ قالوا: نجيبُ إلىٰ كتابِ الله. فقال لهم عليّ: عبادَ الله أمضوا علىٰ حقكم وصدقكم وقتال عدوكم، فإنّ معاوية، وعَمْراً وابن أبي معيط، وحبيباً، وابن أبي سرح، والضحاك ليسوا بأصحاب

دِيْن ولا قرآن أنا أعرف بهم منكم قد صحبتهم أطفالاً ثم رجالاً فكانوا شَرَّ أطفال وشرّ رجال. وَيْحَكُم! والله ما رفعوها إلّا خديعة ووهنا ومكيدة . فقالوا له: لا يَسَعُنَا أنْ نُدْعَىٰ إلىٰ كتابِ اللهِ فنأبىٰ أنْ نقبله. فقال لهم عليّ : فإني إنما أقاتلهم ليدينوا لحكم الكتاب فإنهم قد عصوا الله فيما أمرهم ونسوا عهده ونبذوا كتابه. فقال له مسعر بن فدكي التميمي، وزيد بن حصين الطائي في عصابة مِن القُرَّاء الذين صاروا خوارج بعد ذلك: يا عليّ أجبْ إلىٰ كتاب الله عزّ وجل إذ دُعَيْتَ إليه وإلا دفعناك برُمّتك إلىٰ القوم أو نفعل بك ما فعلنا بابن عفان. قال: فاحفظوا عني نهي إياكم واحفظوا مقالتكم لي فإنْ تطيعوني فقاتِلُوا وإنْ تعصوني فاصنعوا ما بدا لكم. قالوا: ابعثْ إلىٰ الأشتر فليأتِك.

فبعث عليّ يزيد بن هانىء إلىٰ الأشتر يستدعيه فقال الأشتر : ليست هذه الساعة بالساعة التي ينبغي لك أنْ تزيلني عن موقفي إني قد رجوتُ أنْ يفتح الله لي. فرجع يزيد فأخبره، وارتفعتْ الأصوات، وارتفع الرهج مِن ناحية الأشتر فقالوا :والله ما نراك إلّا أمرته أنْ يقاتِل. فقال علي : هل رأيتموني ساررته! أليس كَلّمته علىٰ رؤوسكم وأنتم تسمعون؟ قالوا: فابعثْ إليه فليأتك وإلّا والله اعتزلناك. فقال له: ويلك يا يزيد قُلْ له أقبلْ إليّ فإنّ الفتنةَ قد وقعتْ فأبلغه ذلك فقال الأشتر : ألِرفع المصاحف؟ قال: نعم. قال: والله لقد ظننتُ أنّها ستُوقِع اختلافاً وفُرقة، إنّها مشورة ابن العاهر ألا ترىٰ إلى الفتح ! ألا ترىٰ ما يلقَون! ألا ترىٰ ما صَنَع اللّهُ لنا! لن ينبغي أنْ أَدَعَ هؤلاء !

وانصرف عنهم فقال له يزيد : أتحب أنْ تظفر وأمير المؤمنين يسلم إلىٰ عدوه أو يقتل؟ قال: لا والله. سبحانَ الله فأعلمه فأقبل إليهم الأشتر وقال: «يا أهلَ العراق: يا أهلَ الذلِّ والوهن: أحينَ علوتم القومَ وظنُّوا أنكم لهم قاهرون رفعوا المصاحف يدعونكم إلىٰ ما فيها وهم والله قد تركوا ما أمرَ اللّهُ به فيها وسُنَّةَ مَنْ أُنزِلَتْ عليه! فأمهلوني فواقاً فإني قد أحسستُ بالفتح. قالوا : لا. قال : أمهلوني عَدْوَ الفَرس فإنّي قد طمعتُ في النصر . قالوا : إذَنْ ندخلُ معك في خطيئَتِك. قال فخبروني عنكم متىٰ كنتم محقّين؟ أحين تقاتِلون وخياركم يُقْتَلُون؟ فأنتم الآن إذا أمسكتم عن القتال مُبْطِلُون! أم أنتم الآن محقون فقَتْلاَكُم الذين لا تنكرون فضلهم وهم خير منكم في النار. قالوا: دعنا منك يا أشتر. قاتلناهم لله ونَدَعُ قتالَهم لله. قال : خُدِعْتُم، وانخدعتم، ودُعِيْتُم إلىٰ وضع الحرب فأجَبْتُم. يا أصحاب الجباهِ السود: كنا نظنُّ

صلاتَكم زهادة في الدنيا وشوقاً إلىٰ لقاءِ الله فلا أرىٰ مرادكم إلّا الدنيا. ألا قُبْحاً. يا أشباهَ النيب الجلالة ما أنتم بِرائِيْن بعدَها عِزّاً أبداً فابعدوا كما بعد القوم الظالمون.

فسبوه وسبّهم، وضربوا وجهَ دابتـه بسياطِهم، وضـربَ وجوه دوابّهم بسـوطه، فصاح به وبهم عليّ فكفوا، وقال الناس: قد قبِلنا أنْ نجعل القرآنَ بيننا وبينهم حَكَماً. فجاء الأشعث بن قيس إلى عليّ فقال: أرىٰ الناسَ قد رضوا بما دَعُوهُم إليه مِنْ حُكْمِ القرآن فإنْ شئتَ أتيتُ معاوية فسألتُه ما يريد؟ قال: آتِيهِ. فأتاه فقال لمعاوية. لأيّ شيءٍ رفعتم هذه المصاحف؟ قال: لنرجعْ نحنُ وأنتم إلىٰ ما أمرَ اللّهُ به في كتابه تبعثون رجلاً ترضونَ بِه ونبعَثُ نحنِ رجلاً نرضىٰ به نأخُذُ عليهما أنْ يعملا بما في كتاب الله لا يَعْدُوانِهِ ثم نتَّبع ما اتفقا عليه. قال له الأشعث: هذا الحقّ فعادَ إلىٰ عليّ فأخبره فقال الناس: قد رضينا وقَبِلْنَا. فقال أهلُ الشام: قد رضينا عَمْراً، وقال الأشعث وأولئك القـوم الذين صاروا خوارج: إنّا قدرضينابأبي موسىٰ الأشعريّ فقال علي: **قد عصيتموني في أوّل الأمر فلا تعصوني الآن لا أرىٰ أنْ أوَلي أبا موسىٰ.** فقال الأشعث، وزيد بن حصين، ومسعر بن فدكي: لا نرضىٰ إلا به فإنه قد حَذَّرَنَا ما وَقَعْنَا فيه قال علي: **فإنه ليس بثقة. قد فارقني وخَذَّلَ الناسَ عني ثم هرب مني حتىٰ أمّنته بعد أشهر. ولكن هذا ابن عباس أوَلِّيه ذلك.** قالوا: والله لا نبالي أنت كنتَ أم ابن عباس. لا نريدُ إلّا رجلاً هو منك ومن معاوية سواء. قال علي: **إنّي أجعلُ الأشتر.** قالوا: وهل سَعَّرَ الأرضَ غيرَ الأشتر. فقال قد أبيتُم إلّا أبا موسىٰ. قالوا: نعم. قال: فاصنعوا ما أردتم.

فبعثوا إليه وقد اعتزلَ القتالَ وهو بعُرْض[1] فأتاه مولى له فقال: إنّ النـاسَ قد اصطلحوا. فقال: الحمد لله. قال: قد جعلوك حَكَماً قال: إنّا لله وإنّا إليه راجعون، وجاء أبو موسي حتىٰ دخل العسكر وجاء الأشتر علياً فقال: ألزني[2] بعمرو بن العاص فوالله لَئِنْ ملأتُ عيني منه لأقتلنَّه، وجاء الأحنف بن قيس فقال: «يا أمير المؤمنين إنك قد رُميتَ بحجر الأرض، وإنّي قد عجمتُ أبا موسىٰ وحلبتُ أشطره فـوجدتـه كليل الشفرة، قريب القعر، وإنه لا يصلح لهؤلاء القوم إلّا رجلٌ يدنو منهم حتىٰ يصيرَ في أكفهّم ويبعدُ حتىٰ يصيرَ بمنزلة النجم منهم فإنْ أبيتَ أنْ تجعلني حكماً فاجعلني ثانياً أو

---

(١) العُرْض: الجانب والناحية ـ وهو كناية عن كونه معتزل القتال مقيم في ناحية قريبة منه.

(٢) أي: آلصقني.

ثالثاً فإنّه لن يعقد عقدة إلا حَلَلتها ولا يحل عُقْدة اعقدها لك إلا عقدتُ أخرىٰ أحكم منها. فأبىٰ الناسُ إلاّ أبا موسى والرضا بالكتاب، فقال الأحنف: إن أبيتم إلاّ أبا موسىٰ فادفِئوا ظهره بالرجال وحضر عَمْرو بن العاص عند عليّ ليكتب القضية بحضوره فكتبوا: « بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما تقاضىٰ عليه أميرُ المؤمنين ». فقال عمرو : [اكتبْ اسمه واسم أبيه]، هو أميركم وأمّا أميرنا فلا فقال الأحنف: لا تَمْحُ اسمَ أمير المؤمنين فإنّي أخافُ إنْ محوْتها أنْ لا ترجع إليك أبداً. لا تمحها وإنْ قَتَل الناسُ بعضهم بعضاً. فأبىٰ ذلك عليّ مليًّا مِن النهار، ثم إنّ الأشعث بن قيس قال: امحُ هذا الإسم فمحاه، فقال علي: اللّهُ أكبر سُنَّةٌ بسُنَّة. والله إني لكاتبُ رسولِ اللهِ ﷺ يوم الحديبية فكتبتُ « محمدٌ رسولَ الله » وقالوا : لستَ برسول اللهِ ولكن اكتبْ اسمك واسم أبيك فأمرني رسولُ اللهِ ﷺ بمحوه، فقلتُ: لا أستطيع. فقال: أرِنِيْه. فأريتُه فمحاه بيده وقال: « إنّك ستُدعىٰ إلىٰ مِثْلِهَا فتجِيْب. فقال عَمْرو : سبحان الله أتشبه بالكفارِ ونحن مؤمنون. فقال علي: يا بن النابغة ومتى لم تكن للفاسقين وليًّا وللمؤمنين عدوًّا؟ فقال عمرو : والله لا يجمع بيني وبينك مجلسٌ بعد هذا اليوم أبداً. فقال عليّ : إني لأرجو أنْ يطهّر اللهُ مجلسي منك ومِنْ أشباهك. وكتب الكتاب : « هذا ما تقاضىٰ عليه عليّ بن أبي طالب، ومعاوية بن أبي سفيان قاضى عليّ علىٰ أهل الكوفة ومَنْ معهم وقاضى معاوية أهل الشام ومن معهم أننا ننزلُ عندَ حُكمِ اللهِ وكتابِهِ وأنْ لا يجمَعَ بيننا غيره وأنَّ كتابَ الله بيننا مِنْ فاتحته إلىٰ خاتمته نُحيي ما أحيا ونميتُ ما أماتَ فما وجدَ الحكمان في كتابِ اللهِ ـ وهما أبو موسى عبد الله بن قيس، وعمرو بن العاص ـ عَمِلا به وما لم يجداه في كتابِ الله فالسنة العادلة الجامعة غير المفرّقة وأخذ الحكمان مِنْ عليّ، ومعاوية، ومن الجندَيْن مِن العهود والمواثيق أنهما آمنان علىٰ أنفسهما، وأهليهما، والأمّة لهما انصار علىٰ الذي يتقاضيان عليه، وعلىٰ عبد الله بن قيس، وعَمْرو بن العاص عَهْد الله وميثاقه أنْ يحكما بين هذه الامة لا يردّانها في حرب ولا فُرقة حتىٰ يعصيا، وأَجَلُ القضاء إلىٰ رمضان، وإنْ أحبًا أنْ يؤخِرا ذلك أخراه، وإنّ مكان قضيتهما مكان عَدْل بين أهل الكوفة وأهل الشام.

وشهد الأشعث بن قيس، وسعيد بن قيس الهمداني، وورقاء بن سمي البجلي، وعبد الله بن محل العجلي، وحُجْر بن عدي الكندي، وعبد الله بن الطفيل العامري، وعقبة بن زياد الحضرميّ، ويزيد بن حجية التميمي، ومالك بن كعب الهمداني. ومِنْ

أصحاب معاوية: أبو الأعور السلمي، وحبيب بن مسلمة، وزَمِل بن عمرو العذري، وحمرة [١] بن مالك الهمداني، وعبد الرحمن بن خالد المخزومي، وسبيع بن يـزيد الأنصاري، وعتبة بن أبي سفيان، ويزيد بن الحر العبسي.

وقيل للاشتر: ليكتب فيها فقال: لا صحبتني يميني ولا نفعتني بعدها شمالي إنْ خُطَّ لي في هذه الصحيفة [اسم]. ولستُ علىٰ بينـة مِنْ ربي مِنْ ضلالِ عـدوي! أولستم قد رأيتم الظفر!

فقال له الأشعث: واللهِ ما رأيتَ ظفراً. هلمّ إلينا لا رغبة بك عنا. فقال: بلىٰ والله الرغبة عنك في الدنيا للدنيا وفي الآخرة للآخرة. لقد سفك اللهُ بسيفي دماءَ رجالٍ ما أنتَ خيرٌ عندي منهم ولا أحرم دماً. قال: فكأنما قصع اللهُ علىٰ أنف الأشعث الحمم.

وخرج الأشعث بالكتاب يقرأه علىٰ الناس حتىٰ مرّ علىٰ طائفة من بني تميم فيهم عروة بن أدية أخو أبي بلال فقرأه عليهم فقال عروة: تُحَكِّمُونَ في أمرِ الله الرجال! لا حُكِمَ إلّا لله! ثم شدّ بسيفه فضرب به عجز دابة الأشعث ضربة خفيفة واندفعت الدابة، وصاح به أصحابُ الأشعث فرجع، وغضب للأشعثِ قومه وناسٌ كثيرٌ مِنْ أهل اليمن، فمشىٰ إليه الأحنف بن قيس، ومسعر بن فدكي، وناسٌ من تميم فٱعتذروا فقبل وشَكَر.

وكُتِبَ الكتابُ يوم الأربعاء لثلاث عشرة خلت من صفر سنة سبع وثلاثين، واتفقوا علىٰ أنْ يوافي أميرَ المؤمنين علىٰ موضع الحكمين بدُوْمَة الجَنْدَل أو بأذرح في شهر رمضان [٢].

وقيل لعلي: إنّ الأشتر لا يقرّ بما في الصحيفة ولا يرىٰ إلّا قتال القوم.

فقال علي: وأنا واللهِ ما رضيتُ، ولا أحببتُ أنْ ترضوا فإذْ أبيتم إلّا أنْ ترضوا فقد رضيتُ وإذ رضيتُ فلا يصلحُ الرجـوعُ بعدَ الـرضَا، ولا التبـديل بعـدَ الإقرار إلّا أنْ يعصىٰ الله ويتعدىٰ كتابه، فقاتلوا مَنْ ترك أمرَ الله، وأمّا الذي ذكرتم مِنْ تركِهِ أمري وما أنا عليه فليس مِنْ أولئك فلستُ أخافُ علىٰ ذلك، يا ليتَ فيكم مثله اثنين، يا ليتَ فيكم

---

(١) الطبري: حمزة ـ بالزاي، وفي الأصل هنا بالراء المهملة وهو ما ضبطه المصنف في آخر الباب.

(٢) الذي في الطبريّ أنهما يجتمعان بدومة في شهر رمضان فإذا لم يجتمعا لذلك اجتمعا باذرح من العام المقبل.

مثله واحداً يرىٰ من عدوي ما أرى إذاً لخفتُ علىٰ مؤنتكم ورجوتُ أنْ يستقيم لي بعضَ أودكم وقد نهيتكم فعصيتموني فكنتُ أنا وأنتم كما قال أخو هوازن:

وهـل أنـا إلاّ مِنْ غَـزِيَّـة إنْ غَـوَتْ ... غَـوَيْتُ وإنْ تَـرْشـد غَـزِيَّـةُ أَرْشُـدْ

والله لقد فعلتم فعلة ضعضعت قوة، وأسقطت منة، وأورثتْ وهناً وذلة. ولمّا كنتم الأعلين، وخافَ عدوكم الاجتياح، واستحرّ بهمُ القتـلُ، ووجدوا ألم الجراح رفعوا المصاحف فدعوكم إلىٰ ما فيها ليفتنوكم عنهم، ويقطعوا الحرب، ويتربصوا بكم المنون خديعةً. ومكيدةً، فأعطيتموهم ما سألوا، وأبيتم إلاّ أنْ تدهنوا وتجيروا.

وأيم الله ما أظنكم بعدها توفّقون الرشد، ولا تصيبون باب الحزم.

[عودة علي بن أبي طالب إلى الكوفة]

ثم رجع الناسُ عن صفين فلما رجع عليّ خالفتْ الحرورية وخرجتْ وكان ذلك أول ما ظهرتْ وأنكرتْ تحكيمَ الرجال ورجعوا علىٰ غير الطريق الذي أقبلوا فيه أخذوا علىٰ طريق البر وعادوا وهم أعداء متباغِضون، وقد فشا فيهم التحكيم، يقطعون الطريق بالتشاتم والتضارب بالسياط يقول الخوارج: يا أعداء الله أدهنتم في أمرِ الله، ويقول الآخرون: فارقتم إمامنا، وفرّقْتُم جماعَتَنا.

وساروا حتىٰ جازوا النُّخَيْلَة ورأوا بيوتَ الكوفة فإذا بشيخٍ في ظلّ بيتٍ عليه أثر المرض فسلّم عليه أميرُ المؤمنين فردّ ردّاً حسناً فقال له علي: أرىٰ وجهك متغيراً أمن مرض؟

قال: نعم. قال: لعلك كرهته. قال: ما أحب أنه بغيري. فقال: أليس أحتساباً للخير فيما أصابك؟ قال: بلى. قال: فأبشر برحمةِ ربك وغفران ذنبك. مَنْ أنت يا عبدالله؟ قال: صالح بن سليم. قال: ممن أنت؟ قال: أما الأصل فمن سلامان طيء، وأما الدعوة والجوار ففي سليم بن منصور.

فقال: سبحان الله! ما أحسن اسمك، واسم أبيك، ومَنْ اعتزيتَ إليه، واسم ادعائِك! هل شهدتَ معنا غزاتنا هذه؟ قال: لا والله، ولقد أردتُها ولكن ما ترىٰ مِنْ أثرِ الحمىٰ منعني عنها.

فقال: ﴿لَيْسَ عَلَىٰ الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَىٰ الْمَرْضَىٰ﴾ الآية [١]. خبرني ما يقولُ الناسُ فيما كان بيننا وبين أهل الشام؟

قال: فيهم المسرور ـ وهم أغشاء الناس ـ، وفيهم المكبوت الآسف بما كان بينك وبينهم وأولئك نُصَحَاءُ الناس لك. قال: صدقتَ. جعل الله ما كان مِنْ شكواك حَطّاً لسيأتِك فإنّ المرض لا أجرَ فيه ولكن لا يدعُ علىٰ العبد ذنباً إلّا حَطَّه وإنّما الأجرُ في القولِ باللسان، والعملِ باليدِ والرجلِ، وإنّ الله عز وجل لَيُدْخِل بصِدْقِ النيةِ والسريرة الصالحة عالماً من عباده الجنة.

ثم مضى غير بعيد فلقيه عبد الله بن وديعة الأنصاري فدنا منه وسلَّم عليه وسايره فقال له: ما سمعتَ الناس يقولون في أمرنا؟

قال: منهم المُعْجَب به ومنهم الكارِهُ له. قال: فما قول ذَوِي الرأي؟ قال: يقولون إنّ علياً كان له جَمْعٌ عظيم ففرّقه، وكان له حِصْنٌ حَصِيْن فَهَدَمه، فمتىٰ يبني ما هَدَمَ ويجمع ما فرّق؟ ولو كان مضىٰ بمن أطاعه إذْ عصاه مَنْ عصاه فقاتَل حتىٰ يظفر أو يهلك كان ذلك الحزم. قال عليّ: أنا هدمتُ أم هم هدموا! أنا فرّقت أم هم فرّقوا!

أمّا قولهم: لو كان مضىٰ بمن أطاعه فقاتل حتىٰ يظفر أو يهلك فوالله ما خفيَ هذا عنّي وإنْ كنت لسخيّاً بنفسي عن الدنيا طيب النفس بالموت ولقد هممتُ بالإقدام علىٰ القوم فنظرتُ إلىٰ هذين قد ابتدراني ـ يعني الحسن والحسين ـ، ونظرتُ إلىٰ هذَيْن قد استقدماني ـ يعني عبد الله بن جعفر ومحمد بن علي ـ فعلمتُ أنّ هذَيْن إنْ هلكا انقطعَ نسلُ رسولِ الله ﷺ مِنْ هذه الأمة، وكرهتُ ذلك، واشفقتُ علىٰ هذين أنْ يهلكا. وأيم الله لئِن لقيتُهم بعد يومي هذا لألقينهم وليسوا معي في عسكرٍ ولا دار.

ثم مضىٰ وإذا على يمينه قبور سبعة أو ثمانية فقال علي: ما هذه؟ فقيل: يا أمير المؤمنين إنّ خبابَ بن الأرتّ توفي بعد مخرجك وأوصىٰ بأنْ يدفن في الظهر ـ وكان الناس إنما يدفنون في دورهم وأفنيتهم، وكان أول من دفن بظاهر الكوفة ودفن الناس إلىٰ جنبه.

---

(١) التوبة: ٩١.

فقال علي: « رَحِمَ اللَّهُ خباباً فلقد أسلم راغباً، وهاجر طائعاً، وعاش مجاهداً، وابتلي في جسمه أحوالاً، ولن يضيّع اللَّهُ أجرَ مَنْ أحسن عملاً ». ووقف عليها وقال: السلام عليكم يا أهلَ الديار الموحشة والمحالّ المقفرة من المؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات أنتم لنا سَلَفٌ فارط (١)، ونحن لكم تَبَعٌ وبكم عما قليل لاحقون. اللهم أغفرْ لنا ولهم، وتجاوز بعفوك عنا وعنهم. طوبىٰ لمن ذكر المعاد، وعمل للحساب، وقنع بالكفاف، ورضي عن الله عز وجل ».

ثم أقبل حتىٰ حاذىٰ سكة الثوريين فسمع البكاء فقال: ما هذه الأصوات؟

فقيل: البكاء علىٰ قتلىٰ صِفِّيْن. فقال: أما أني أشهدُ لمن قُتل منهم صابراً محتبساً بالشهادة.

ثم مَرّ بالفائشيين فسمع مثل ذلك، ثم مرّ بالشُّباميين (٢) فسمع رَجَّة شديدة فوقف فخرج إليه حرب بن شرحبيل الشبامي فقال له علي: أيغلبكم نساؤكم! ألا تنهونهن عن هذا الرنين!

قال: يا أمير المؤمنين لو كانت داراً أو دارَيْن أو ثلاثاً قدرنا علىٰ ذلك ولكن قُتل من هذا الحي ثمانون ومائة قتيل فليس دارٌ إلاّ وفيها البكاء. فأمّا نحن معشر الرجال فإنا لا نبكي ولكنّا نفرح بالشهادة. قال عليّ: رحم الله قَتْلاكُم وموتاكم.

فأقبل يمشي معه وعليّ راكب فقال له علي: ارجعْ ووقف. ثم قال له: ارجع فإنّ مشي مثلَكَ مع مِثِلي فتنة للوالي وَمَذَلّة للمؤمن.

ثم مضى حتى مرّ بالناعطيين (٣) وكان جلّهم عثمانية فسمع بعضهم يقول: والله ما صنع عليٌّ شيئاً ذهب ثم انصرف في غير شيء. فلما رأوْهُ أبلسوا فقال علي لأصحابه: وجوهُ قومٍ ما رأوا الشام. ثم قال لأصحابه. مَنْ فارقناهم آنفاً خيرٌ مِنْ هؤلاء. ثم قال:

أَخُوكَ الـذِي إنْ أَجْـرَضَتْـكَ مُلِمَّـةٌ ... مِن الدَّهْرِ لَمْ يَبْـرَحْ لِبَثِّكَ وَاجِماً (٤)

---

(١) الفَرَط: ما يتقدم الإنسان من أجر أو عمل أو شخص.

(٢) هذه النسبة إلى شِبام وهي مدينة باليمن.

(٣) هذه النسبة إلى (ناعِط) بطن من هَمْدان.

(٤) أجرضَتْك: اغصتك.

وَلَيسَ أَخُـوكَ بِـالـذِي إنْ تَشَعَّبَتْ عَلَيْكَ الأمـورُ ظَـلّ يلحَـاكَ لائمـاً

ثم مضى فلم يزل يذكر الله حتىٰ دخل القصر[١]، فلمّا دخل الكوفة لم يدخل الخوارج معه فأتوا « حروراً ». فنزلوا بها، وقُتل « أُوَيْس القُرَنِيّ » بصِفِّيْن، وقيل: بل مات بدمشق، وقيل: بأرمينية، وقيل: بسجستان. وفيها قتل جندب بن زهير الأزديّ وهو من الصحابة مع علي.

وقتل بصفين أيضاً حابس بن سعد الطائي مع معاوية وهو خال يزيد بن عدي بن حاتم فقتل يزيد قاتله غدراً فأراد عدي إسلامه إلى أولياءِ المقتول فهرب إلىٰ معاوية.

وممن شهَدَ صفين مع عليّ خُزَيْمة بن ثابت ذو الشهادتين ولم يقاتل فلما قُتِلَ عمّار بن ياسر جَرَّدَ سيفه وقاتل حتىٰ قُتِلَ وقال سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: « تقتلُ عماراً الفِئَةُ البَاغية ».

وقتل مع عليّ سُهَيْل بن عمرو بن أبي عمر الأنصاري وهو بدري.

وممن شهد وقتل فيها مع عليّ من المهاجرين خالد بن الوليد[٢] وله صحبة.

(شُريح بن هَانِىء) بضم الشين وآخره حاء مهملة الهَمْدانيّ بفتح الهاء وسكون الميم وفتح الدال المهملة نسبة إلىٰ هَمْدان قبيلة كبيرة من اليمن.

(حُمْرَة بن مالك) بضم الحاء المهملة وسكون الميم وآخره راء.

(حُضَيْن بن المنذر) بضم الحاء المهملة وفتح الضاد المعجمة.

(يَرِيْم) بفتح الياء تحتها نقطتان وكسر الراء وسكون الياء الثانية وآخره ميم.

(بُدَيْل بن ورقاء) بضم الباء الموحدة وفتح الدال المهملة.

---

(١) لا يخدعنّ القارىء تسمية هذا المسكن بالقصر فإنه ليس مثل قصور الملوك، وقد تقدّم في قصة سعد مع عمر بن الخطاب رضي الله عنهما أنه بنىٰ بَيْتاً للإمارة كان الناس يسمونه (قصر سعد)، وقد ظل هذا الإسم لاصقاً بتلك الدار إلى ذلك الزمان زمان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٢) قوله (خالد بن الوليد) خطأ ظاهر فإنّ خالد بن الوليد توفي في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه (م).

(حازم بن أبي حازم) بالحاء المهملة.

(حَبَّة بن جوين) بفتح الحاء المهملة والباء المشددة الموحدة.

(والعُرَنِيّ) بضم العين المهملة وفتح الراء وآخره نون.

ذكر استعمال جعدة بن هبيرة علىٰ خراسان

وفي هذه السنة بعث عليّ جعدة بن هبيرة المخزومي إلىٰ خراسان بعد عودِه مِنْ صفين فانتهىٰ إلىٰ نيسابور وقد كفروا وامتنعوا فرجع إلىٰ عليّ فبعث خليد بن قرة اليربوعي فحاصر أهلها حتىٰ صالحوه وصالحه أهل مرو.

ذكر اعتزال الخوارج عليّاً ورجوعهم إليه

ولما رجع عليّ مِن صِفِّيْن فارقه الخوارج وأتوا حَرُورَاء فنزل بها منهم اثنا عشر ألفاً، ونادىٰ مناديهم أنّ أمير القتال « شبث بن ربعي التميمي »، وأمير الصلاة عبد الله بن الكواء اليشكري، والأمر شورى بعد الفتح والبيعة لله عز وجل، والأمرُ بالمعروف والنهي عن المنكر. فلما سمعَ عليّ ذلك وأصحابه قامت الشيعةُ فقالوا له: في أعناقِنا بيعةٌ ثانيةٌ: نحن أولياء مَنْ واليتَ وأعداءَ مَنْ عاديتَ. فقالت الخوارج: استبقتم أنتم وأهلُ الشام إلىٰ الكُفْر كفرَسَي رِهَان: بايع أهلُ الشام معاوية علىٰ ما أحبوا وكرِهُوا، وبايعتم أنتم عليًّا علىٰ أنكم أولياء مَنْ والىٰ واعداء مَنْ عادىٰ.

فقال لهم زياد بن النضر: واللهِ ما بسط عليٌّ يده فبايعناه قطّ إلاّ علىٰ كتابِ اللهِ وسنةِ نبيه ولكنكم لمّا خالفتموه جاءته شيعته فقالوا له: نحن أولياء مَنْ واليت وأعداء مَنْ عاديتَ ونحن كذلك، وهو علىٰ الحق والهدىٰ ومَنْ خالفه ضالٌّ مضل.

وبعث عليّ عبد الله بن عباس إلىٰ الخوارج وقال: لا تَعْجَلْ إلىٰ جوابهم وخصومتهم حتىٰ آتيك.

فخرج إليهم فأقبلوا يكلّمونه فلم يصبر حتىٰ راجعهم فقال: ما نقمتم من الحكمين وقد قال تعالى: ﴿ إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحاً يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا ﴾ [1] فكيف بأمة محمد ﷺ!

فقالت الخوارج: أمّا ما جعلَ اللّهُ حُكْمَه إلى الناس وأمَرَهم بالنظر فيه فهو إليهم، وما حكم فأمضاه فليس للعباد أنْ ينظروا فيه، حَكَمَ في الزاني مائة جلدة، وفي السارقِ

---

(١) النساء: ٣٥.

القَطْع فليس للعباد أنْ ينظروا في هذا.

قال ابن عباس: فإنّ الله تعالى يقول: ﴿ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُم ﴾ [1].

فقالوا: أو تجعل الحكم في الصيدِ والحَرْثِ وبين المرأة وزوجها كالحكم في دماءِ المسلمينِ!

وقالوا له: أعدلٌ عندك عَمْرو بن العاص وهو بالأمس يقاتِلنا! فإنْ كان عَدْلاً فلسنا بِعُدُولٍ. وقد حَكَّمْتُم في أمرِ اللهِ الرجال وقد أمضىٰ الله حكمه في معاوية وأصحابه أنْ يُقتلوا أو يَرْجِعوا، وقد كتبتم بينكم وبينهم كتاباً، وجعلتم بينكم الموادعة، وقد قطع الله الموادعة بين المسلمين وأهل الحرب مذ نزلتْ « براءة » إلاّ مَنْ أقرّ بالجزية [2].

وبعث عليّ زياد بن النضر فقال: آنظرْ بأيّ رؤسِهِم أشدّ إطاعة. فأخبَرَهُ بأنّه لم يَرَهُم عند رجلٍ أكثر منهم عند يزيد بن قيس، فخرج عليّ في الناس حتىٰ دخل إليهم فأتىٰ فسطاط يزيد بن قيس فدخله فصلّى فيه ركعتين وأَمَّرَه علىٰ أصبهان والريّ، ثم خرج حتىٰ انتهىٰ إليهم وهم يخاصِمُونَ ابنَ عباس فقال: ألم أَنْهَكَ عن كلامهم؟ ثم تكلم فقال: «اللهم هذا مقامٌ مَنْ يفلحُ فيه كان أولىٰ بالفلاحِ يومَ القيامة. قال لهم: مَنْ زعيمكم؟ قالوا: ابن الكواء قال: فما أخرجكم علينا؟ قالوا: حكومتَك يوم صِفِّيْن.

قال: أنشدكم الله أتعلمون أنهم حيثُ رفعوا المصاحف وقلتم نجيبهم قلتُ لكم: إنّي أعلمُ بالقوم منكم إنهم ليسوا بأصحاب دين ـ وذكر ما كان قاله لهم، ثم قال لهم: قد اشترطتُ علىٰ الحكمين أنْ يُحْيِيا ما أحيا القرآن ويُميتا ما أماتَ القرآن فإنْ حَكَمَا بحُكْمِ القرآن فليس لنا أنْ نخالف وإنْ أبيا فنحن عن حكمهما برآء.

قالوا: فخبِّرنا أتراه عدلاً تحكيمُ الرجال في الدماء؟

فقال: إنّا لسنا حَكّمنا الرجال، إنّما حكّمنا القرآن وهذا القرآن إنّما هو خطٌّ مسطورٌ بين دفَتيْن لا ينطقُ إنّما يتكلمُ به الرجال.

---

(١) المائدة: ٩٥.

(٢) نحيل القارىء في تفصيل رد الخوارج على ابن عباس رضي الله عنه من وجة نظر الخوارج الى كتاب (الكشف والبيان) لأبي سعيد القلهاتي ص ١٧٨ : ١٨٧ (خ الظاهرية رقم ٨٧٥ ـ تاريخ) وقد نشرت فصول من الكتاب بمجلة معهد الدراسات الإسلامية بمصر عدد ١ ـ السنة الأولى ١٩٥٨ ص ١٩ : ٤٣ .

قالوا: فخبِّرنا عن الأجل لِم جعلته بينكم؟

قال: ليعلم الجاهلُ، ويثبتُ العالم، ولعلَ الله يُصْلِحُ في هذه الهدنة هذه الأمة. آدخلوا مِصْرَكم رحمكم الله. فدخلوا من عند آخرهم.

قيل: والخوارج يزعمون أنهم قالوا له: صدقتَ قد كنّا كما ذكرتَ وكان ذلك كفراً منّا، وقد تبنا إلىٰ اللهِ فتُبْ كما تبنا نبايِعْك وإلاّ فنحن مخالِفون. فبايَعَنَا عليّ وقال: « ادخلوا فلنمكث ستة أشهر حتىٰ نجبي المال ويسمن الكراع ثم نخرج إلىٰ عدُوِّنا ». وقد كذب الخوارج فيما زعموا.

ذكر اجتماع الحَكَمَيْن

ولما جاء وقت اجتماع الحكمين أرسل عليّ أربعمائة رجل عليهم شريح بن هانىء وأوصاه أنْ يقول لعمر بن العاص: إنّ عليًّا يقول لك:

إنّ أفضل الناس عندَ اللهِ عز وجل مَنْ كان العملُ بالحق أحبّ إليه وإنْ نقصه من الباطل وإنْ زاده، يا عَمْرو والله إنك لتعلم أين موضعَ الحقّ فلم تتجاهل؟ إنْ أوتيت طمعاً يسيراً كنتَ لله به ولأوليائه عَدُوّاً وكأن واللهِ ما أوتيتَ قد زال عنك. ويحك فلا تكن للخائنين خصيماً وللظالمين ظهيراً، أما إنّي أعلمُ بيومك الذي أنتَ فيه نادمٌ وهو يومُ وفاتِك تتمنىٰ أنّك لم تُظهر لمسلمٍ عداوة ولم تأخذ علىٰ حُكْمٍ رشوة.

فلما بلغه تغيّر وجهه ثم قال: متىٰ كنتُ أقبلُ مشورةَ عليّ أو أنتهي إلىٰ أمرِهِ أو أعتدُّ برأيه؟

فقال له: وما يمنعك يا بن النابغة أنْ تقبل مِنْ مولاك وسيد المسلمين بعد نبيهم مشورته! فقد كان مَنْ هو خيرٌ منك أبو بكر، وعمر يستشيرانه ويعملان برأيه! فقال له: إنّ مِثْلي لا يكلمُ مِثلك.

قال شريح: بأيّ أبوَيك ترغبُ عني يا بن النابغة أبأبيك الوشيظ [1] أم بأمّك النابغة [2]؟

فقام عنه، وأرسل عليٌّ أيضاً معهم عبد الله بن عباس ليصلي بهم ويلي أمورَهم

---

(١) الوشيظ: الخسيس والتابع، وفي المطبوعة (الوسط)، وما أثبتناه هو الموافق للمعنىٰ وهو ما أثبته الطبّري.

(٢) النابغة: لقب أم عمرو بن العاص، واسمها سلمىٰ بنت حرملة.

ومعهم أبو موسىٰ الأشعريّ، وأرسل معاوية عَمْرو بن العاص في أربعمائة من أهل الشام حتىٰ توافوا من دُوْمَة الجندل بأذرح [١]، وكان عَمْرو إذا أتاه كتابٌ من معاوية لا يُدْرَىٰ بما جاء فيه ولا يسأله أهلُ الشام عن شيء، وكان أهلُ العراق يسألون ابن عبّاس عن كتابٍ يصله من عليّ فإنْ كتمهم ظنوا به الظنون وقالوا: أتراه كتب بكذا وكذا، فقال لهم ابن عباس: أما تعقلون؟ أما ترون رسولَ معاوية يجيء لا يعلم أحدٌ بما جاء به ولا يسمع لهم صياح وأنتم عندي كل يوم تظنون فيّ الظنون؟

وحضر معهم ابن عمر، وعبد الرحمن بن أبي بكر الصديق وابن الزبير وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام، وعبد الرحمن بن عبد يغوث الزهريّ، وأبو جَهْم بن حذيفة العدوي والمغيرة بن شُعْبة.

وكان سعد بن أبي وقاص علىٰ ماء لبني سليم بالبادية فأتاه ابنه عُمر فقال له: إنّ أبا موسى وعَمْراً قد شهدهما نفرٌ من قريش فاحضرْ معهم فإنك صاحبُ رسول الله ﷺ وأحد الشورىٰ ولم تدخل في شيءٍ كَرِهَتْهُ هذه الأمة، وأنت أحقّ الناس بالخلافة، فلم يفعل. وقيل: بل حضرهم سعد وندِم على حضوره [٢] فأحرم بعمرة مِن بيت المقدس.

وقال المغيرة بن شعبة لرجال من قريش: أترون أحداً يستطيعُ أنْ يأتي برأي يعلم به ايجتمع الحكمان أم لا؟ فقالوا: لا.

فقال: إنّي أعلمه منهما. فدخل علىٰ عَمْرو بن العاص فقال: كيف ترانا معشر مَنْ اعتزل الحرب فإنّا قد شككنا في الأمر الذي استبان لكم فيها. فقال له عمرو: أراكم خَلْف الأبرار وأمام الفجار. فانصرف المغيرة إلىٰ أبي موسىٰ فقال له مثل قوله لعمرو فقال له أبو موسى: أراكم أثبت الناس رأياً، فيكم بقيةُ الناس. فعاد المغيرة إلىٰ أصحابه وقال لهم: لا يجتمع هذان علىٰ أمرٍ واحد.

فلما اجتمع الحكمان قال عمرو: يا أبا موسىٰ ألستَ تعلم أنّ عثمان قُتل مظلوماً؟

---

(١) كيف يتوافون بأذرح وإنما أذرح موعدهم من قابل إذا لم يتوافوا بدومة، ويظهر لي أنّ (لفظ) بأذرح غلط زيدت من غير عمد وهي نصف المسافة بين الكوفة والشام بينها وبين كل من البلدين تسع مراحل (م).

(٢) قال ابن كثير في البداية: إنّ سعداً لم يحضر أمر التحكيم ولا أراد ذلك ولا هَمّ به، وزعم بعضُ الناس أنّ سعداً بن أبي وقاص شهدهم أيضاً اهـ.

قال: أشهد. قال: ألستَ تعلم أنّ معاوية، وآلِ معاوية أولياؤه؟ قال: بلى. قال: فما يمنعك منه وبيته في قريش كما قد علمت؟ فإنْ خفتَ أنْ يقولَ الناسُ: ليستْ له سابقة فقُلْ وجدته وليّ عثمان الخليفة المظلوم والطالب بدمه الحَسَن السياسة والتدبير، وهو أخو أم حبيبة زوج رسول الله ﷺ، وكاتبه، وقد صحبه، وعرض له بسلطان.

فقال أبو موسى: يا عَمْرو اتقِ الله. فأما ما ذكرتَ مِنْ شرفِ معاوية فإنّ هذا ليس علىٰ الشرفِ تولّاه أهله ولو كان علىٰ الشرف لكان لآل أبرهة بن الصباح. إنما هو لأهلِ الدين والفضل. مع أنّي لو كنتُ معطيه أفضل قريش شرفاً أعطيته عليَّ بن أبي طالب. وأما قولك. إنّ معاوية وليّ دم عثمان فوَلِّهِ هذا الأمر فلم أكن لأوليّه وأدع المهاجرين الأولين. وأما تعريضُك لي بالسلطان فوالله لو خرج معاوية لي من سلطانِه كله لما وليته وما كنتُ لأرتشي في حُكمِ الله، ولكنك إنْ شئتَ أنْ تُحيي اسمَ عُمَرَ بن الخطاب رحمه الله. (١).

قال له عمرو: فما يمنعك مِن ابني وأنت تعلمُ فضله وصلاحه؟

فقال: إنّ ابنك رَجُلُ صِدْقٍ ولكنّك قد غَمَسْتَه في هذه الفتنة. فقال عمرو: إنّ هذا الأمر لا يصلحُ إلا لرجِل [له ضرس] يأكلُ ويطعم، وكانت في ابن عمر غفلة. فقال له ابن الزبير: افطن فانتبه. فقال: والله لا أرشو عليها شيئاً ابداً.

وقال: يا بن العاص إنّ العربَ قد اسندتْ إليك أمرها بعد ما تقارعوا بالسيوف فلا تردنهم في فتنة.

وكان عمرو قد عَوّد أبا موسىٰ أنْ يقدِّمَه في الكلامِ يقول له: « أنت صاحب رسول الله ﷺ وأسنّ مني فتكلم [وأتكلم] »، وتعوّد ذلك أبو موسى، وأراد عَمْرو بذلكِ كله أنْ يقدِّمَه في خَلْع عليّ فلما أراده عَمرو علىٰ آبنه أو علىٰ معاوية فأبىٰ، وأراد أبو موسىٰ ابنَ عُمَر فأبى عَمْرو قال له عَمْرو: خبّرني ما رأيك؟ قال: أرىٰ أنْ نخلعَ هذين الرجلين ونجعل الأمرَ شورىٰ فيختارَ المسلمون لأنفسهم مَنْ احبُّوا.

فقال عمرو: الرأيُ ما رأيتَ.

---

(١) أي: نختار ابنه عبدالله خليفة فنحيي ذكر ابيه فما قبل عمرو ذلك.

فأقبلا إلىٰ الناس وهم مجتمعون فقال عمرو: يا أبا موسىٰ أعلِمهم أنّ رأينا قد اتفق. فتكلّم أبو موسىٰ فقال: إنّ رأينا قد اتفق علىٰ أمرٍ نرجوا أنْ يُصلِحَ اللّهُ به أمرَ هذه الأمة. فقال عمرو: صَدَق وبرّ. تقدَّمْ يا أبا موسىٰ فتكلم.

فتقدم أبو موسىٰ [ليتكلم] فقال له ابن عباس: ويحك والله إنّي لأظنّه قد خدعك إنْ كنتما اتفقتما على أمرٍ فقدِّمْه فليتكلم به قبلك ثم تكلّم به بعده فإنّه رجلٌ غادر، ولا آمن أنْ يكونَ قد أعطاكَ الرضا بينكما فإذا قمتَ في الناسِ خالفك.

وكان أبو موسى مغفلاً فقال: إنّا قد اتفقنا. وقال: أيها الناس إنّا قد نظرنا في أمرِ هذه الأمة فلم نر أصلح لأمرِهَا ولا ألَمّ لشعثِهَا مِنْ أمرٍ قد أجمع رأيي ورأي عَمْرو عليه وهو أنْ نخلعَ علياً ومعاوية ويولي الناسُ أمرَهم مَنْ أحبوا. وإنّي قد خلعتُ علياً ومعاوية فاستقبُلوا أمركم وولوا عليكم مَنْ رأيتوه أهلاً.

ثم تنحىٰ وأقبل عَمْرو فقام وقال: إنّ هذا قد قال ما سمعتموه وخلعَ صاحبه وأنا أخلعُ صاحبَه كما خلعه وأثبّتُ صاحبي معاوية فإنّه وَلِيُّ ابن عفان، والطالبُ بدمِهِ، وأحقّ الناسَ بمقامه (١).

---

(١) قال القاضي ابن العربي في العواصم من القواصم ص ١٧٧ : ١٨٠ « هذا كله كذب صراح ما جرىٰ منه حرفٌ قط، وإنما شيء أخبر عن المبتدعة ووضعته التاريخية للملوك فتوارثه أهل المجانة والجهارة بمعاصي الله والبِدَع وإنما الذي روىٰ الأئمة الثقات الأثبات أنهما لما اجتمعا للنظر في الأمر ـ في عصبة كريمة من الناس منهم ابن عمر ونحوه ـ عزل عمرو معاوية (أي بتقريره مع أبي موسىٰ أنّ إمامة المسلمين يُترك النظر فيها إلى أعيان الصحابة).

ذكر الدارقطني بسنده إلى حُضَيْن بن المنذر :

« لَمّا عزل عمرو معاوية جاء [أي حضين بن المنذر] فضرب فسطاطَه قريباً من فسطاط معاوية . . . [الخ] ».

قال : فهذا كان بدء الحديث ومنتهاه فأعرضوا عن العناوين وازجروا العاوين وعرّجوا عن سبيل الناكثين إلى سَنَن المهتدين، وأمسكوا الألسنة عن السابقين إلى الدين، وإياكم أنْ تكونوا يوم القيامة من الهالكين بخصومة أصحاب رسول الله ﷺ فقد هلك من كل أصحاب النبي ﷺ خصْمه، ودعوا ما مَضَىٰ فقد قضىٰ الله ما قَضَىٰ، وخُذُوا لأنفسكم الجدّ فيما يلزمكم اعتقاداً وعملاً، ولا تستسرسلوا بألسنتكم فيما لا يعنيكم مع كل ناعقٍ اتخذ الدين هملاً فإنّ الله لا يضيع أجر مَنْ أحسن عملاً، ورحم الله الربيع بن خيثم فإنه لَمّا قيل له : قُتِلَ الحسين !

قال : أقتلوه : قالوا : نعم . فقال :

= (اللهم فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون) ولم يزد علىٰ هذا أبداً .

فهذا العقل والدين والكف عن أموال المسلمين والتسليم لرب العالمين .

وقال الأستاذ محب الدين الخطيب (ص ١٧٦ ها ١) تعليقاً على الرواية المشتهرة (أثبت معاوية في الأمر كما أثبت خاتمي هذا) قال :

« أيّ أمر !! إنْ كان الاستمرار في إدارة البلاد التي تحت يده فإنّ هذا الأمر ماض على معاوية وعليّ معاً ، فكل منهما باق في الحكم علىٰ ما تحت يده ، وإنْ كان المراد بالأمر أمر الإمامة العامة وإمارة المؤمنين فإنّ معاوية لم يكن إماماً ـ أي خليفة ـ حتى يُثْبِّتَهُ عمرو كما كان .

وهذه هي نقطة المغالطة التي هزأ بها مؤرخو الإفك المفترى فسخروا بجميع قُرَّائِهِم وأوهموهم بذلك بأن هناك خليفتَيْن أو أميرين للمؤمنين وأنّ الاتفاق بين الحَكَمين كان على خلعهما معاً وأنّ أبا موسىٰ خلع الخليفَتَيْن تنفيذاً للاتفاق وأنَّ عَمْراً خلع أحدهما وأبقىٰ الآخر خليفة خلافاً للاتفاق . . . .

وهذا كله كذب وإفك وبهتان ، والذي فعله عمرو هو نفس الذي فعله أبو موسىٰ لا يفترق عنه قط في نقير ولا قطمير ، وبقي أمر الإمامة والخلافة أو إمارة المؤمنين معلقاً على نظر أعيان الصحابة ليروا فيه رأيهم متى شاؤوا وكيف شاؤوا .

وإذا كانت هذه الخطوة الثانية لم تتم فما في ذلك تقصير من أبي موسىٰ ولا من عمرو فهما قد قاما بمهمتهما بحسب ما أدَّىٰ إليه اجتهادهما واقتناعهما ولو لم تكلفهما الطائفتان معاً بأداء هذه المهمة لما تعرضا لها ولا أبديا رأياً فيها .

ولو كان موقف أبي موسىٰ في هذا الحادث التاريخيّ العظيم موقف بلاهة وفشل لكان ذلك سبة عليه في التاريخ وإنّ الأجيال التي بعده فهمتْ موقفه على أنه من المفاخرة التي كتب الله له بها النجاح والسداد حتىٰ قال ذو الرمة الشاعر يخاطب حفيده بلال بن أبي بردة بن أبي موسىٰ :

أبوك تلاقىٰ الدينُ والناس بعدما ... تشاؤوا وبيت الدين منقطع الكسر
فَشَدَّ إصار الدين أيام أذرح ... ورد حروباً قد لقحن إلى عقر

قال أيضاً رحمه الله ص ١٧٤ : ١٧٥ هـ ٣ :

من الحقائق ما إذا أسيء التعبير عنه وشابته شوائب المغالطة يوهم غير الحقيقة فينشأ عن ذلك الاختلاف في الحكم عليه ، ومن ذلك حادثة التحكيم وقول المغالطين إنّ أبا موسىٰ وعَمْراً اتفقا على خلع الرجلين فخلعهما أبو موسىٰ واكتفىٰ عَمرو بخلع عليّ دون معاوية .

وأصل المغالطة من تجاهل المغالطين أنّ معاوية لم يكن خليفة ولا هو ادعىٰ الخلافة يومئذ حتى يحتاج عَمرو إلىٰ خلعها عنه ، بل إنّ أبا موسىٰ وعَمْراً اتفقا على أن يعهدا بأمر الخلافة على المسلمين إلى الموجودين علىٰ قيد الحياة من أعيان الصحابة الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راض ، واتفاق الحكمين علىٰ ذلك لا يتناول معاوية لأنه لم يكن خليفة ولم يقاتل على الخلافة وإنما كان يطالب بإقامة الحد الشرعي على الذين اشتركوا في قتل عثمان فلمّا وقع التحكيم على إمامة المسلمين واتفق الحكمان على ترك النظر فيها إلى كبار الصحابة وأعيانهم تناول التحكيم شيئاً واحداً هو الإمامة . أما التصرّف =

فقال سعد: ما أضعفك يا أبا موسى عن عمرو ومكائده؟ فقال أبو موسى: فما أصنع؟ وافقني علىٰ أمر ثم نزع عنه. فقال ابن عباس: لا ذنبَ لك يا أبا موسىٰ. الذنبُ لمن قَدَّمك في هذا المقام. قال: غدرَ فما أصنع؟ فقال ابن عمر: انظروا إلىٰ ما صار أمرُ هذه الأمة! صار إلى رجل ما يبالي ما صنع وإني آخر ضعيف.

وقال عبد الرحمن بن أبي بكر: لو مات الأشعريّ قبل هذا اليوم لكان خيراً له. وقال أبو موسى الأشعري لعَمْرو: لا وفقك اللّهُ غدرتَ وفجرتَ، إنما مثلك كمثل الكلب إنْ تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث. قال عمرو: إنك مَثَلُك مَثَلُ الحمار يحمل أسفاراً.

فحمل شريح بن هانىء علىٰ عمرو فضربه بالسوط، وحمل ابنٌ لعمرو علىٰ شريح فضربه بالسوط أيضاً، وحجّز الناس بينهم. وكان شريح يقول بعد ذلك: ما ندمتُ علىٰ شيءٍ ندامتي علىٰ ضرب عَمْرو بالسوط ولم أضربه بالسيف.

وٱلتمس أهلُ الشام أبا موسىٰ فهرب إلىٰ مكّة، ثم انصرف عَمْرو وأهل الشام إلىٰ معاوية فسلَّموا عليه بالخلافة ورجع ابن عباس، وشريح إلىٰ عليّ ـ وكان عليّ إذا صلىٰ الغداة يقنُتْ فيقول: « اللهم ٱلعنْ معاوية، وعَمْراً وأبا الأعور، وحبيباً، وعبد الرحمن بن خالد، والضحاك بن قيس، والوليد » فبلغ ذلك معاوية فكان إذا قنتَ سَبَّ علياً، وابن عباس، والحسن، والحسين، والأشتر.

وقد قيل: إنّ معاوية حضر الحكمين، وأنه قام عشيةً في الناس فقال: « أما بعد من كان متكلماً في هذا الأمر فليطلع لنا قرنه ».

= العمليّ في إدارة البلاد التي كانت تحت يد كل من الرجلين المتحاربين فبقي كما كان ؛ عليّ متصرف في البلاد التي تحت حُكمه ، ومعاوية متصرف في البلاد التي تحت حكمه ، فالتحكيم لم يقع فيه خداع ولا مكر ، ولم تتخلله بلاهة ولا غفلة ، وكان يكون محل للمكر أو الغفلة لو أنّ عَمْراً أعلن في نتيجة التحكيم أنه وَلّىٰ معاوية إمارة المؤمنين وخلافة المسلمين ، وهذا ما لم يعلنه عَمْرو ولا ادعاه معاوية ، ولم يقل به أحدٌ في الثلاثة عشر قرناً الماضية ، وخلافة معاوية لم تبدأ إلا بعد الصلح مع الحسن بن عليّ وقد تمت بمبايعة الحسن لمعاوية ، ومن ذلك اليوم فقط سمي معاوية أمير المؤمنين فعمرو لم يغالط أبا موسىٰ ولم يخدعه لأنه لم يعطِ معاوية شيئاً جديداً، ولم يقرر في التحكيم غير الذي قرره أبو موسىٰ، ولم يخرج عما اتفقا عليه معاً فبقيت العراق والحجاز وما يتبعهما تحت يد مَنْ كانت تحت يده من قبل، وبقيت الشام وما يتبعها تحت يد من كانت تحت يده من قبل، وتعلقت الإمامة بما سيكون من اتفاق أعيان الصحابة عليها، وأي ذنب لعمرو في أي شيء مما وقع؟ إنّ البلاهة لم تكن من أبي موسىٰ، ولكن ممن يريد أن يفهم الوقائع على غير ما وقعت عليه، فلفهمها كلُ مَنْ شاء كما شاء، أما هي فظاهرة واضحة لكل مَنْ يراها كما هي.

قال ابن عمر: فأطلقت حبوتي فأردتُ أنْ أقول: « يتكلم فيه رجالٌ قاتلوك وأباكَ علىٰ الإسلام » فخشيتُ أن أقول كلمة تفرِّقُ الجماعة ويُسْفَكُ فيها دَمٌ، وكان ما وعد الله فيه الجنان أحبُّ إليَّ مِنْ ذلك، فلما انصرفتُ إلى المنزل جاءني حبيب بن مسلمة فقال : ما منعك أنْ تتكلمْ حينَ سمعتَ هذا الرجل يتكلم ؟ قلت : أردتُ ذلك ثم خشيتُ . فقال : حبيب : وُفِّقتَ وعُصمتَ . وهذا أصحّ لأنه وَرَدَ في الصحيح .

ذكر خبر الخوارج عند توجيه الحَكَمَيْنْ وخبر يوم النهر (١)

لما أراد عليٌّ أنْ يبعثَ أبا موسىٰ للحكومة أتاه رجلان مِن الخوارج: زُرْعة بن البُرْج الطائيّ وحرقوص بن زهير السعديّ فقالا له: لا حُكْمَ إلّا لله. فقال علي: لاحكماً إلا الله.

وقال حرقوص بن زهير: تُبْ من خطيئتِك، وآرجع عنْ قضيتك، واخرج بنا إلى عدونا فقاتلهم حتىٰ نلقىٰ ربنا.

فقال علي: قد أردتُكم علىٰ ذلك فعصيتموني، وقد كتبنا بيننا وبين القوم كتاباً، وشرطنا شروطاً، وأعطينا عليها عهوداً، وقد قال الله تعالى: ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدْتُم ﴾ (٢).

فقال حرقوص: ذلك ذنبٌ ينبغي أَنْ تتوبَ عنه. فقال علي: ما هو ذنبٌ ولكنه عَجْزٌ عن الرأي، وقد نهيتكم. فقال زرعة: يا عليّ لئن لم تَدَعْ تحكيمَ الرجال لأقاتلنك أطلبُ وجهَ الله تعالىٰ. فقال عليّ: بؤساً لك! ما أشقاك! كأنّي بك قتيلاً تسفي عليك الرياح.

قال: وددتُ لو كان ذلك. فخرجا مِنْ عنده يحكّمان (٣).

وخطب عليّ ذات يوم فحكّمت المحكّمة في جوانب المسجد فقال علي: اللّهُ أكبر كلمةُ حق أريد بها باطل. إنْ سكتوا غممناهم، وإنْ تكلموا حججناهم، وإنْ

---

(١) وهو اليوم المشهور بيوم « النهْرَوَان ».

(٢) النحل: ٩١.

(٣) أي يقولون: (لا حُكْم إلا لله).

خرجوا علينا قاتلناهم.

فوثب يزيد بن عاصم المحاربيّ فقال: الحمد لله غير مودَّع ربنا، ولا مستغن عنه. اللهمّ إنا نعوذُ بك مِنْ إعطاء الدنيّة في ديننا، فإنّ إعطاء الدنية في الدين إدْهَانٌ في أمرِ الله، وذلّ راجع بأهله إلىٰ سَخَط الله. يا عليّ أبالقتل تخوفنا؟ أما والله إنّي لأرجو أنْ نضربكم بها عما قليل غير مصفحات، ثم لتعلم أَيُّنا أولىٰ بها صِلِيّاً.

ثم خرج هو وإخوةٌ له ثلاثة فأصيبوا مع الخوارج بالنهر، وأصيب أحدهم بعد ذلك بالنُّخَيْلة. ثم خطب عليٌّ يوماً آخر فقام رجلٌ فقال: « لا حكم إلا الله »، ثم توالىٰ عِدَّةُ رجال يحكِّمون فقال علي: « الله أكبر كلمة حق أريد بها باطل. أمَا إنّ لكم عندنا ثلاثاً ما صحبتمونا لا نمنعكم مساجدَ الله أنْ تذكروا فيها اسمه، ولا نمنعكم الفَيْء ما دامتْ أيديكم مع أيدينا، ولا نقاتلكم حتىٰ تبدأونا وإنما فيكم أمر الله ». ثم رجع إلىٰ مكانه من الخطبة.

ثم إنّ الخوارج لقي بعضُهم بعضاً واجتمعوا في منزل عبد الله بن وهب الراسبّي فخطبهم فزهّدهم في الدنيا وأمرهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ثم قال: آخرجوا بنا مِنْ هذه القريةِ الظالمُ أهلها إلىٰ بعض كور الجبال أو إلىٰ بعضِ هذه المدائن منكِرِينْ لهذه البدع المضلة.

فقال له حرقوص بن زهير: إنّ المتاعَ بهذه الدنيا قليلٌ، وإنّ الفراق لها وشيك، فلا تدعُوَنَّكم زينتها وبهجَتها إلىٰ المقام بها، ولا تلفتنكم عن طلب الحق وإنْكار الظلم، فإنّ الله مع الذين اتقَوا والذين هم محسنون. فقال حمزة بن سنان الأسديّ: يا قوم إنّ الرأيَ ما رأيتم فولوا أمركم رجلاً منكم فإنّكم لا بدّ لكم مِنْ عمادٍ، وسنادٍ، وراية تحفّون بها وترجعون إليها. فعرضوها علىٰ زيد بن حصين الطائي فأبىٰ، وعرضوها علىٰ حرقوص بن زهير فأبىٰ، وعلىٰ حمزة بن سنان، وشريح بن أوفىٰ العبسي فأبيا، وعرضوها علىٰ عبد الله بن وهب فقال: « هاتوها. أما والله لا آخذها رغبةً في الدنيا، ولا أَدَعها فَرَقاً مِن الموت » فبايعوه لعشرٍ خَلَونْ مِن شوال وكان يقال له: « ذو الثفنات »[1].

---

(١) جمع ثَفِنَة: وهي من البعير ما مسَّ الأرض من كركرته وسعداناته وأصول أفخاذه، يريد أنّ جبهته لأثر السجود فيها تشبه الثفنات من البعير.

ثم اجتمعوا في منزل شريح بن أوفىٰ العبسي فقال ابن وهب: اشخصوا بنا إلىٰ بلدة تجتمع فيها لإنفاذ حُكم الله فإنّكم أهلُ الحق.

قال شريح: نخرج إلىٰ المدائن فننزلها ونأخذها بأبوابها ونُخْرِجُ منها سكانَها، ونبعث إلىٰ إخواننا مِنْ أهل البصرة فيقدمون علينا.

فقال زيد بن حصين: إنّكم إنْ خرجتم مجتمعين أتبعتم ولكن اخرجوا وُحداناً مستخفين. فأمّا المدائن فإنّ بها مَنْ يمنعكم، ولكن سيروا حتىٰ ننزل جسر « النهروان » وتكاتبوا إخوانكم مِنْ أهل البصرة. قالوا: هذا الرأي.

وكتب عبد الله بن وهب إلىٰ مَنْ بالبصرة منهم يُعلمونهم ما آجتمعوا عليه ويحثونهم علىٰ اللحاق بهم، وسيّر الكتاب إليهم فأجابوه أنهم علىٰ اللحاقِ به. فلما عزموا علىٰ المسير تعبّدوا ليلتهم وكانت ليلة الجمعة ويوم الجمعة وساروا يوم السبت، فخرج شريح بن أوفىٰ العبسي وهو يتلو قول الله تعالى: ﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفاً يَتَرَقَّب ـ إلى ـ سَوَاء السَّبِيْل ﴾ (١)، وخرج معهم طرفة بن عَدِيّ بن حاتم الطائي فاتبعه أبوه فلم يقدر عليه فانتهى إلىٰ المدائن ثم رجع فلما بلغ « ساباط » لقيه عبد الله به وهب الراسبيّ في نحو عشرين فارساً فأراد عبد الله قتله فمنعه عَمْرو بن مالك التيهاني، وبشر بن زيد البولاني، وأرسل عدي إلىٰ سعد بن مسعود عامل عليّ علىٰ المدائن يحذّره أمرهم فأخذ أبوابَ المدائن، وخرج في الخيل، واستخلف بها ابنَ أخيه المختار بن أبي عُبَيْد، وسار في طلبهم فأخبر عبد الله بن وهب خبره فراباً (٢) طريقه وسار علىٰ بغداد، ولحقهم سعد بن مسعود « بالكرخ » في خمسمائة فارس عند المساء فانصرفَ إليهم عبد الله في ثلاثين فارساً فاقتتلوا ساعة وامتنع القوم منهم، وقال أصحاب سعد لسعد: ما تريد مِن قتال هؤلاء ولم يأتك فيهم أمرٌ خَلِّهم فليذهبوا، وآكتبْ إلىٰ أميرِ المؤمنين فإنْ أمرك باتّباعهم اتبعتهم وإنْ كفاكهم غيرك كان في ذلك عافية لك. فأبىٰ عليهم، فلما جنّ عليهم الليل خرج عبد الله بن وهب فعبرَ دجلة إلىٰ أرض « جوخي » وسار إلىٰ النهروان فوصل إلىٰ أصحابه وقد أيسوا منه وقالوا: إنْ كان هلك وَلَّيْنا الأمر زيد بن حصين أو حرقوص بن زهير.

---

(١) القصص: ٢١.

(٢) راباً طريقه: آتقاه.

وسار جماعةٌ من أهل الكوفة يريدون الخوارج ليكونوا معهم فردهم أهلوهم كرهاً، منهم القعقاع بن قيس الطائي عم الطرماح بن حكيم، وعبد الله بن حكيم بن عبد الرحمن البكائي.

وبلغ علياً أنّ سالم بن رَبيعة العبسي يريد الخروج فأحضره عنده ونهاه فانتهى.

ولما خرجتْ الخوارجُ مِن الكوفة أتىٰ عليًّا أصحابَه وشيعته فبايعوه وقالوا: نحن أولياءُ مَنْ واليتَ وأعداءُ مَنْ عاديتَ فشرط لهم فيه سنة رسول الله ﷺ فجاءه ربيعة بن أبي شداد الخثعمي ـ وكان شهد معه الجمل وصفين ومعه راية خثعم ـ فقال له: بايعْ علىٰ كتابِ اللهِ وسنةِ رسول الله ﷺ. فقال ربيعة: علىٰ سنة أبي بكر وعمر.

قال له علي: ويلك لو أنّ أبا بكر وعمر عملا بغير كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ لم يكونا علىٰ شيءٍ مِن الحق. فبايعه، فنظر إليه علي وقال: أما والله لكأني بك وقد نفرتَ مع هذه الخوارج فقُتِلْتَ، وكأنّي بك وقد وطئتك الخيل بحوافرها. فقُتل يوم النهر مع خوارج البصرة.

وأما خوارج البصرة فإنّهم اجتمعوا في خمسمائة رجل وجعلوا عليهم مسعر بن فدكي التميمي فعلم بهم ابنُ عباس فاتبعهم أبا الأسود الدؤلي فلحقهم بالجسر الأكبر فتواقفوا حتىٰ حجز بينهم الليل وأدلج مسعر بأصحابه وأقبل يعترض الناس وعلىٰ مقدمته الأشرس بن عوف الشيباني، وسار حتى لحق بعبد الله بن وهب بالنهر فلما خرجت الخوارج وهرب أبو موسىٰ إلىٰ مكة ورد عليٌّ بن عباس إلىٰ البصرة قام في الكوفة فخطبهم فقال: «الحمدلله وإنْ أتى الدهرُ بالخطب الفادح والحدثان الجليل. وأشهد أنْ لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسولُ الله. أما بعد فإنّ المعصية تورثُ الحسرة وتعقب الندم. وقد كنتُ أمرتكم في هذين الرجلين وفي هذه الحكومة أمري ونحلتكم رأيي لو كان لقصير أمر ولكن أبيتم إلّا ما أردتم فكنتُ أنا وأنتم كما قال أخو هوازن:

أَمَـرْتُـهُـمُ أَمْـرِي بِـمُـنْـعَـرِجِ اللِّوَى ... فَلَمْ يَسْتَبِيْنُوا الرُّشْدَ إلاّ ضُحَى الغَدِ [1]

---

(١) البيت لدريد بن الصمة وبعده:

فلما عصوني كنت منهم وقد أرىٰ ... غـوايتهـم وإنـني غيـر مُهْتَـد
ومـا أنـا إلا مَنْ غَـزِيـة إنْ غَـوَتْ ... غَـوَيْتُ وإن تـرشُـد غـزيـة أرشـد

ألا إنّ هذين الرجلين اللذين اخترتموهما حَكَمَيْنْ قد نبذا حُكْمَ القرآنَ وراءَ ظُهُورِهما، وأحييا ما أمات القرآنُ، واتبع كلُّ واحدٍ منهما هواه بغير هدىً مِنْ الله فحكما بغير حُجّة بيّنة، ولا سنّة ماضية، واختلفا في حكمهما، وكلاهما لم يرشد، فبرىء اللهُ منهما، ورسولُه، وصالح المؤمنين. استعدُّوا، وتأهبوا للمسير إلىٰ الشام، واصبحوا في معسكرِكم إنْ شاء الله يوم الاثنين ».

ثم نزل وكتب إلىٰ الخوارج بالنهر: « بسم الله الرحمن الرحيم. مِنْ عبد الله عليّ أميرُ المؤمنين إلىٰ زيد بن حصين، وعبد الله بن وهب ومَنْ معهما مِن الناس: أما بعد: فإنّ هذين الرجلين اللذين ارتضيناهما حكمين قد خالفا كتابَ اللّهِ واتبعا هَوَاهُما بغير هُدىً مِن الله فلم يعملا بالسنّة، ولم ينفذا القرآن حكماً فبرىء [1] اللهُ منهما ورسوله والمؤمنون. فإذا بلغكم كتابي هذا فأقبِلُوا إلينا فإنّا سائِرون إلىٰ عَدُوِّنا وعدوكم ونحن علىٰ الأمرِ الأوّل الذي كنا عليه. [والسلام] ».

فكتبوا إليه: أمّا بعد: فإنك لم تغضب لربك وإنما غضبتَ لنفسك فإنْ شهدتَ علىٰ نفسك بالكفر واستقبلت التوبة نظرنا فيما بيننا وبينك وإلاّ فقد نبذناك على سواء إنّ الله لا يحبُ الخائنين.

فلما قرأ كتابهم أيِسَ منهم، ورأىٰ انْ يدعُهم ويمضي بالناس حتىٰ يلقىٰ أهلَ الشام فيناجزهم، فقام في أهل الكوفة فحمد الله وأثنىٰ عليه ثم قال: أما بعد فإنه مَنْ ترك الجهادَ في الله وأدهن في أمره كان علىٰ شفا هلكة إلاّ أنْ يتداركه الله بنعمته فاتقوا الله وقاتِلوا مَنْ حَادَّ اللهَ ورسولَه وحاول أنْ يطفِىء نورَ الله، فقاتِلوا الخاطئين الضالين القاسطين الذين ليسوا بقراء القرآن، ولا فقهاء في الدين، ولا علماء في التأويل، ولا لهذا الأمر بأهل في سابقةِ الإسلام. والله لو وُلُّوا عليكم لعمِلوا فيكم بأعمال كسرى وهرقل. تيسروا للمسير إلىٰ عدوكم مِنْ أهل المغرب وقد بعثنا إلىٰ إخوانكم مِن أهل البصرة ليقدُموا عليكم فإذا اجتمعتم شخصنا إنْ شاء الله ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وكتب إلى ابن عباس: « أمّا بعد فإنا خرجنا إلى معسكرنا بالنُّخَيْلة وقد أجمعنا علىٰ المسير إلىٰ عدونا مِنْ أهل المغرب فأشخص إلى الناس [2] حتى يأتيك رسولي،

---

(١) في المطبوعة : (لبرى) ـ وما أثبتناه من الطبري .

(٢) الطبري: فاشخص بالناس .

واقم حتىٰ يأتيك أمري . والسلام عليك .

فقرأ ابن عباس الكتاب علىٰ الناس وندبهم مع الأحنف بن قيس فشخص ألف وخمسمائة [فاستقلّهم عبد الله بن عباس] فخطبهم وقال: « يا أهل البصرة أتاني كتابُ أمير المؤمنين فأمرتكم بالنفير إليه فلم يَشْخَصْ منكم إليه إلاّ ألف وخمسمائة وأنتم ستون ألف مقاتل سوىٰ أبنائكم وعبيدكم ألا آنفروا إليه مع جارية بن قدامة السعديّ ولا يجعلنّ رجلٌ علىٰ نفسه سبيلاً فإنّي مُوقعٌ بكل مَنْ وجدته متخلفاً عن دعوته عاصياً لإمَامِهِ فلا يلومَنَّ رجلٌ إلا نفسه ».

فخرج جارية فاجتمع إليه ألف وسبعمائة فوافوا علياً وهم ثلاثة آلاف ومائتان فجمع إليه رؤوس أهل الكوفة ورؤوس الأسباع ووجوه الناس فحمد الله وأثنىٰ عليه ثم قال: « يا أهل الكوفة أنتم إخواني وأنصاري وأعواني على الحق وأصحابي إلى جهاد المحلين بكم أضرب المدبرِ، وأرجو تمامَ طاعة المقبِل، وقد استنفرتُ أهلَ البصرة فأتاني منهم ثلاثة آلاف ومائتان فليكتُب لي رئيسُ كل قبيلة ما في عشيرته مِن المقاتلة، وأبناء المقاتلة الذين أدركوا القتال وعبدان عشيرته ومواليهم ويرفع ذلك إلينا.

فقام إليه سعيد بن قيس الهمداني فقال: يا أمير المؤمنين سمعاً وطاعةً أنا أول الناس أجاب ما طلبتَ، وقام معقل بن قيس، وعَدِيّ بن حاتم، وزياد بن خصفة، وحجر بن عدي وأشراف الناس والقبائل فقالوا مثل ذلك، وكتبوا إليه ما طلب وأمروا أبناءهم وعبيدهم أنْ يخرجوا معهم ولا يتخلف منهم متخلف، فرفعوا إليه أربعين ألف مقاتل وسبعة عشر ألفاً من الأبناء ممن أدرك وثمانية آلاف مِنْ مواليهم، وعبيدهم ـ وكان جميعُ أهل الكوفة خمسة وستين ألفاً سوىٰ أهل البصرة وهم ثلاثة آلاف ومائتا رجل، وكتب إلىٰ سعد بن مسعود بالمدائن يأمره بإرسال مِنْ عنده مِن المقاتلة، وبلغ عليّاً أنّ الناسَ يقولون: لو سارَ بنا إلى قتالِ هذه الحرورية فإذا فرغنا منهم توجهنا إلىٰ قتالِ المحلين.

فقال لهم: بلغني أنكم قلتم كيت وكيت وإنّ غير هؤلاء الخارجين أهمّ إلينا فدعوا ذِكرهم، وسِيروا إلىٰ قومٍ يقاتلونكم كيما يكونوا جبارينَ ملوكاً ويتخذوا عبادَ اللهِ خولاً.

فناداه الناس أنْ سِرْ بنا يا أمير المؤمنين حيثُ أحببتَ، وقام إليه صيفي بن

فسيل (١) الشيباني فقال: يا أمير المؤمنين نحن حزبك وأنصارك نعادي مَنْ عاداك ونشايع مَنْ أناب إلىٰ طاعتك مَنْ كانوا وأينما كانوا فإنك إنْ شاء الله لن تؤتىٰ مِنْ قِلَّةِ عددٍ وضَعْفِ نية أتباع.

ذكر قتال الخوارج

قيل: لما اقبلتْ الخارجةُ من البصرة حتىٰ دنتْ مِن النهروان رأىٰ عصابة منهم رجلاً يسوقُ بامرأة علىٰ حمار فدعوه فانتهزوه فأفزعوه وقالوا له: مَنْ أنت؟ قال: أنا عبد الله بن خباب صاحب رسول الله ﷺ. فقالوا له: أفزعناك؟ قال: نعم.

قالوا: لارَوع عليك حَدِّثْنا عن أبيك حديثاً سمعه من رسول الله ﷺ تنفعنا به.

فقال: حدثني أبي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «تكون فتنةٌ يموتُ فيها قلبُ الرجل كما يموتُ فيه بدنُهُ يُمسي فيها مؤمناً ويصبحُ كافراً، ويصبحُ كافراً ويمسي مؤمناً» قالوا: لهذا الحديث سألناك. فما تقولُ في أبي بكر وعمر؟

فأثنىٰ عليهما خيراً. قالوا: ما تقول في عثمان في أول خلافته وفي آخرها؟

قال: إنّه كان محقاً في أولها وفي آخرها. فقالوا: فما تقول في عليّ قبل التحكيم وبعده؟ قال: إنه أعلم بالله منكم، وأشد توقياً علىٰ دينه، وأنفذ بصيرة.

فقالوا: إنك تتبع الهوىٰ، وتوالي الرجال على أسمائها لا علىٰ أفعالها، والله لنقتلنك قتلة ما قتلناها أحداً. فأخذوه وكتّفوه، ثم أقبلوا به وبامرأته وهي حُبْلَىٰ متم حتىٰ نزلوا تحت نخل مواقير فسقطتْ منه رطبة فأخذها أحدهم فتركها في فيه فقال آخر: أخذتَها بغير حِلها وبغير ثمن! فألقاها، ثم مر بهم خنزير لأهل الذمة فضربه أحدهم بسيفه فقالوا: هذا فسادٌ في الأرض. فلقي صاحب الخنزير فأرضاه، فلما رأىٰ ذلك منهم ابن خباب قال: لئن كنتم صادقين فيما أرىٰ فما عليّ منكم مِنْ بأسٍ إنّي مسلم ما أحدثتُ في الإسلام حدثاً، ولقد أمنتموني قلتم لاروع عليك. فأضجعوه. فذبحوه فسال دَمُهُ في الماء، وأقبلوا إلىٰ المرأة فقالت: أنا امرأةٌ ألا تتقون الله! فبقروا بطنَها، وقتلوا ثلاث نسوة من طيء، وقتلوا أم سنان الصيداوية.

---

(١) صيفي بن فسيل ـ بالفاء ثم السين المهملة بفتح فكسر هو الصحيح ، وفي الأصل بالقاف . (م).

فلما بلغ علياً قتلهم عبد الله بن خباب، واعتراضهم الناس بعثَ إليهم الحارث بن مرة العبديّ ليأتيهم وينظر ما بلغه عنهم ويكتب به إليه ولا يكتمه، فلما دنا منهم يسائلهم قتلوه، وأتىٰ علياً الخبرُ والناسُ معه فقالوا: يا أمير المؤمنين عَلَام نَدَعُ هؤلاءِ وراءنا يخلفونا في عيالنا وأموالنا؟ سِرْبنا إلىٰ القوم فإذا فرغنا منهم سِرْنَا إلىٰ عدوّنا من أهل الشام؟ وقام إليه الأشعث بن قيس وكلّمه بمثل ذلك وكان الناس يرون أنّ الأشعث يرىٰ رأيهم لأنه كان يقول يوم صفين: أنصفَنا قومٌ يدعون إلىٰ كتاب الله، فلما قال هذه المقالة عَلِم الناسُ أنّه لم يكن يرىٰ غير رأيهم فأجمع عليّ علىٰ ذلك، وخرج فعبر الجسر، وسار إليهم فلقيه مُنَجِّمٌ في مسيره فأشار عليه أنْ يسير وَقْتاً مِنْ النهار، فقال له: إنْ أنْتَ سرتَ في غيره لقيتَ أنتَ وأصحابك ضرّاً شديداً. فخالفه عليّ وسار في الوقت الذي نهاه عنه، فلما فرغ مِنْ أهل النهر حمد الله وأثنىٰ عليه ثم قال: «لو سِرْنَا في الساعةِ التي أمرَ بها المنجم لقال الجُهَّالُ الذين لا يعلمون شيئاً «سار في الساعة التي أمر بها المنجم فظفر»، وكان المنجم مسافر بن عفيف الأزديّ، فأرسل عليّ إلى أهل النهر أنْ آدفعوا إلينا قَتَلَة إخوانِنا منكم أقتلهم بهم ثم أنا تارككم وكافّ عنكم حتىٰ ألقىٰ أهلَ المغرب [1] فلعل الله يقبل بقلوبكم، ويردّكم إلىٰ خيرٍ مما أنتم عليه مِن أمركم فقالوا: كلنا قتلهم وكلنا مستحل لدمائكم ودمائهم، وخرج اليهم قيس بن سعد بن عبادة فقال لهم: عباد الله. أخرِجوا إلينا طلبتنا منكم، وادخلوا في هذا الأمر الذي خرجتم منه، وعُودُوا بنا إلىٰ قتال عدوّنا وعدوّكم فإنكم ركبتم عظيماً من الأمر تشهدون علينا بالشرك، وتسفكون دماء المسلمين.

فقال له عبد الله بن شجرة السلمي: إنّ الحق قد أضاءَ لنا فلسنا متابعيكم أو تأتونا بمثل عمر. فقال: ما نعلمه غير صاحبنا فهل تعلمونه فيكم؟ قالوا: لا. قال: نشدتكم الله في أنفسكم أنْ تهلكوها فإنّي لا أرىٰ الفتنة إلا وقد غلبتْ عليكم.

وخطبهم أبو أيوب الأنصاريّ فقال: «عبادَ الله إنّا وإيّاكم علىٰ الحالِ الأولىٰ التي كنا عليها ليست بيننا وبينكم فُرْقَة فعلامَ تقاتلوننا؟

---

(١) الطبري: أهل الشام.

فقالوا: إنّا لو تابعناكم اليوم حكّمتم غداً.

قال: فإني أنشدكم الله أنْ تعجلوا فتنة العام مخافة ما يأتي في القابل؟ وأتاهم عليّ فقال: أيتها العصابة التي أخرجها عداوة المِرَاء واللجاجة، وصَدَها عن الحق الهوىٰ، وطمع بها النزق، وأصبحتْ في الخطب العظيم: إنّي نذيرٌ لكم أنْ تُصْبِحُوا تلعنكم الأمّة غداً صرعىٰ بأثناء هذا الوادي، وبأهضام هذا الغائط بغير بينة من ربكم، ولا برهانٍ مبين. **ألم تعلموا أنّي نهيتكم عن الحكومة، ونبأتكم أنّها مكيدة، وأنّ القوم ليسوا بأصحاب دين فعصيتموني!** فلما فعلتُ شرطتُ واستوثقتُ علىٰ الحَكَمَيْن أنْ يحييا ما أحيا القرآن ويميتا ما أمات القرآن فاختلفا وخالفا حكم الكتاب والسنة فنبذنا أمرهما، ونحن علىٰ الأمر الأول، فمِن أين أتيتم؟

فقالوا: إنا حَكَّمنا فلما حكمنا أثِمنا وكنا بذلك كافرين، وقد تبنا فإنْ تبتَ فنحن معك ومنك، وإنْ أبيتَ فإنّا مُنَابِذُوك علىٰ سواء.

فقال علي: أصابكم حاصبٌ ولا بقي منكم وابر! أبعدَ إيماني برسول الله ﷺ، وهجرتي معه، وجهادي في سبيل الله أشهدُ علىٰ نفسي بالكفر! لقد ضللتُ إذاً وما أنا مِن المهتدين »! ثم انصرف عنهم.

وقيل. إنه كان من كلامه لهم: « يا هـٰؤلاء إنّ أنفسكم قد سولتْ لكم فِرَاقي لهذه الحكومة التي أنتم بدأتموها وسألتموها وأنا لها كاره، وأنبأتكم أنّ القوم إنما طلبوها مكيدة ووهناً فأبيتم عليّ إباء المخالفين، وعندتم عنود النكداء العاصين حتى صرفتُ رأيي إلىٰ رأيكم رأي معاشر والله أخفاء الهام، سفهاء الأحلام، فلم آتِ لا أبالكم هَجْراً، والله ما ختلتكم عن أموركم، ولا أخفيتُ شيئا من هذا الأمر عنكم، ولا أوطأتكم عشوة، ولا أدنيت لكم الضراء وإنْ كان أمرنا لأمر المسلمين ظاهراً فأجمع رأي ملئكم أنْ اختاروا رجلين فأخذنا عليهما أنْ يحكما بما في القرآن ولا يعدواه فتاها فتركا الحق وهما يبصرانه، وكان الجور هواهما، والثقة في أيدينا حين خالفا سبيل الحق، وأتيا بما لا يُعرف. فَبَيِّنُوا لنا بم تستحلون قتالنا والخروجَ عن جماعتنا وتضعون أسيافكم على عواتقكم ثم تستعرضون الناس تضربون رقابهم؟ إنّ هذا لهو الخسران المبين. والله لو قتلتم علىٰ هذا دجاجة لعظم عند الله قتلها فكيف بالنفس التي قَتْلها عند الله حرام

فتنادَوا: « لا تخاطبوهم، ولا تكلموهم، وتهيأوا للقاءالله. الرواح الرواح إلىٰ الجنة ». فعاد عليّ عنهم.

ثم إن الخوارج قصدوا جسر النهر ـ وكانوا غربة ـ فقال لعليّ أصحابُه: إنهم قد عبروا النهر فقال: لن يعبروا. فأرسلوا طليعة فعاد وأخبرهم أنهم عبروا النهر ـ وكان بينهم وبينه عطفة من النهر فلخوفِ الطليعة منهم لم يقربهم فعاد فقال: إنّهم قد عبروا النهر ـ فقال علي: « والله ما عبروه، وإنّ مصارعَهم لدون الجسر. ووالله لا يُقتل منكم عشرة ولا يَسْلَم منهم عشرة ».

وتقدّم عليّ إليهم فرآهم عند الجسر لم يعبروه وكان الناسُ قد شكُّوا في قوله، وارتاب به بعضهم فلما رأوا الخوارج لم يعبروا كبَّروا وأخبروا علياً بحالهم فقال: « والله ما كذبت ولا كذبت ». ثم إنه عبأ أصحابه فجعل علىٰ ميمنته حجر بن عدي، وعلى ميسرته شبث بن ربعي، أو معقل بن قيس الرياحي، وعلىٰ الخيل أبا أيوب الأنصاري، وعلى الرجالة أبا قتادة الأنصاري وعلى أهل المدينة ـ وهم سبعمائة أو ثمانمائة ـ قيس بن سعد بن عبادة،وعبأت الخوارج فجعلوا علىٰ ميمنتهم زيد بن حصين الطائي، وعلى الميسرة شريح بن أوفىٰ العبسيّ، وعلىٰ خيلهم حمزة بن سنان الأسدي وعلى رجالتهم حرقوص بن زهير السعدي.

وأعطى عليّ أبا أيوب الانصاري راية الأمان فناداهم أبو أيوب فقال: مَنْ جاء تحتَ هذه الراية فهو آمن، ومَنْ لم يقتل ولم يستعرض، ومن انصرف منكم إلى الكوفة أو إلىٰ المدائن وخرج مِنْ هذه الجماعة فهو آمن. لا حاجة لنا بعد أن نصيب قتلة إخواننا منكم في سَفْكِ دمائكم.

فقال فروة بن نوفل الأشجعي: والله ما أدري علىٰ أي شيء نُقَاتِل علياً؟ أرىٰ أنْ انصرف حتىٰ تتضح لي بصيرتي في قتاله أو أتابعه. فانصرف في خمسمائة فارس حتى نزل البندنيجين والدسكرة، وخرجت طائفة أخرى متفرقين فنزلوا الكوفة، وخرج إلىٰ عليّ نحو مائة وكانوا أربعة آلاف فبقي مع عبد الله بن وهب ألف وثمانمائة فزحفوا إلىٰ عليّ وكان عليّ قد قال لأصحابه: كفوا عنهم حتى يبدأوكم فتنادوا: الرواح إلى الجنة » وحملوا علىٰ الناس فافترقتْ خيل عليّ فرقتين فرقة نحو الميمنة، وفرقة نحو الميسرة واستقبلت الرماة وجوهَهُم بالنبل وعطفت عليهُم الخيل مِن الميمنة والميسرة، ونهض

إليهم الرجالُ بالرماح والسيوف فما لبثوا أنْ أناموهم، فلما رأى حمزة بن سنان الهلاك نادىٰ أصحابه أنْ انزلوا. فذهبوا لينزلوا فلم يلبثوا أنْ حمل عليهم الأسود بن قيس المرادي وجاءتهم الخيلُ مِنْ نحو عليّ فأهلكوا في ساعة فكأنما قيل لهم: موتوا فماتوا.

وجاء أبو أيوب الأنصاري إلىٰ عليّ فقال: يا أمير المؤمنين قتلتُ زيد بن حصين الطائي طعنته في صدره خرج السنان من ظهره وقلت له: أبشرْ يا عدوَّ اللهِ بالنار فقال: ستعلمْ غداً أيُّنا أولىٰ بها صِلِيّاً!

فقال له علي: وأولىٰ بها صلياً.

وجاءه هانىء بن خطاب الأزدي، وزياد بن خصفة يحتجّان في قتل عبد الله بن وهب فقال: كيف صنعتما؟

قالا: لما رأيناه عرفناه فابتدرناه وطعناه برمحينا. فقال: كلاكما قاتل.

وحمل جيش بن ربيعة الكناني علىٰ حرقوص بن زهير فقتله، وحمل عبد الله بن زحر الخولاني علىٰ عبد الله بن شجرة السلمي فقتله، ووقع شريح بن أوفى إلىٰ جانب جدار فقاتل عليه وكان جل مَنْ يقاتله همدان فقال:

قَدْ عَلِمَتْ جَارِيَةٌ عَبْسِيَّهْ نَـاعِمَـةٌ في أَهْلِهـا مَكْفِيَّـهْ أَنِّيَ سَأَحْمِي ثُلْمَتِي العَشِيَّهْ

فحمل عليه قيس بن معاوية فقطع رجله فجعل يقاتلهم وهو يقول:

الـقَـرْمُ يَـحْـمـي شَـوْلَـهُ مَـعْـقُـولاَ

فحمل عليه قيس أيضاً فقتله فقال الناس:

آقْـتَـلَـتْ هَـمْـدَانُ يَـومـاً وَرَجُـلْ آقْـتَتَـلُوا مِن غَـدْوَةٍ حَتَّىٰ الأَصُـلْ
فَـفَـسَـحَ اللهُ لِـهَـمْـدَانَ الأَجَـلْ (١)

ذكر مقتل ذي الثُّدْيَة

قد روىٰ جماعةٌ أنّ عليًا كان يُحَدِّثُ أصحابه قبل ظهور الخوارج أنّ قوماً يخرجون

(١) الذي في الطبري: ففتح الله لهمدان الرجل وهو أدل على قصد الشاعر من التنديد لهمدان.

يمرقون من الدين كما يمرق السهم مِن الرَّمِيَّة علامتُهم رجلٌ مخدج اليد[١] سمعوا ذلك منه مراراً، فلما خرج أهلُ النهروان سار بهم إليهم عليّ وكان منه معهم ما كان، فلما فرغ أَمَرَ أصحابَه أنْ يلتمسوا المُخَدَّجَ فالتمسوه فقال بعضهم: ما نجده حتىٰ قال بعضهم: ما هو فيهم، وهو يقول: « والله إنه لفيهم. واللهِ ما كذبت ولا كذبت » ثم إنه جاءَه رجلٌ فبشّره فقال: يا أمير المؤمنين قد وجدناه. وقيل: بل خرج عليّ في طلبه قبل أنْ يُبَشِّره الرجلُ ومعه سليم بن ثمامة الحنفي والريان بن صبرة فوجدوه في حفرة علىٰ شاطىء النهر في خمسين قتيلاً فلما استخرجه نظر إلىٰ عضده فإذا لحمٌ مجتمع كثدي المرأة وحَلَمَة عليها شعرات سود فإذا مُدَّت امتدت حتىٰ تحاذِي يده الطولي ثم تُتْرَك فتعود إلى منكبيه.

فلما راه قال: اللهُ أكبر ما كذبت ولا كذبت لولا أنْ تتكلوا عن العمل لاخبرتكم بما قص الله[٢] على لسان نبيه ﷺ لمن قاتلهم مستبصراً في قتالهم عار فاللحَقِ الذي نحن عليه. وقال حين مر بهم وهم صرعىٰ: بؤساً لكم لقد ضرّكم مَنْ غرّكم. قالوا: يا أمير المؤمنين مَنْ غرّهم؟ قال: الشيطان وأنفس أمارة بالسوء غرتهم بالأماني، وزينتْ لهم المعاصي، ونبأتهم أنهم ظاهرون. قيل: وأخذ ما في عسكرهم من شيء فأما السلاح، والدوابّ، وما شُهِرَ عليه[٣] فقسّمه بين المسلمين، وأما المتاع، والإماء، والعبيد فإنه ردّه علىٰ أهله حين قدم. وطاف عدي بن حاتم في القتلىٰ علىٰ ابنه «طرفة» فدفنه، ودفن رجالٌ مِنْ المسلمين قتلاهم فقال على حين بلغه: أتقتلونهم ثم تدفنوهم! ارتحلوا. فارتحل الناسُ مِنْ أصحاب عليّ إلاّ سبعة. وقيل: كانت الوقعة سنة ثمان وثلاثين وكان فيمن قُتِلَ مِن أصحابه يزيد بن نويرة الأنصاريٰ وله صُحبة وسابقة، وشهد له رسولُ الله ﷺ بالجنة وكان أول مَنْ قُتِل.

ذكر رجوع عليّ إلىٰ الكوفة

ولما فرغ عليّ مِنْ أهل النهر حمد الله وأثنىٰ عليه وقال: إنّ الله قد أحسن بكم

---

(١) أخرجت الناقة ألقت ولدها، لغير تمام، وكل مشوّه الخلق في أحد أعضائه فهو مخدج.
وفي الطبري أنّ أسمه نافع وأنه طالما سمع من علي رضي الله عنه أنّ قوماً يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية علامتهم رجل مخدج اليد وكان نافع يتأفف حين يسمع ذلك من عليّ.

(٢) الطبري: بما قضىٰ الله ـ وهو أظهر.

(٣) الطبري: وما شهدوا به عليه.

وأعزَّ نصركم فتوجهوا من فوركم هذا إلىٰ عدوكم. قالوا: يا أمير المؤمنين نفدتْ نبالُنا، وكَلَّتْ سيوفُنا، ونصلتْ أسنَّة رماحُنا، وعاد أكثرها قِصَداً[1] فآرجعْ إلىٰ مصرنا فلنستعد، ولعلّ أمير المؤمنين يزيد في عدتنا فإنه أقوىٰ لنا علىٰ عدونا. وكان الذي تولى كلامه الأشعث بن قيس فأقبل حتىٰ نزل النُّخَيْلَة فأمر الناسَ أنْ يلزموا عسكرهم، ويوطّنوا علىٰ الجهاد أنفسهم، وأنْ يقلوا زيارة أبنائهم ونسائهم حتىٰ يسيروا إلىٰ عدوهم. فأقاموا فيه أياماً، ثم تسللوا مِنْ معسكرهم فدخلوا إلاَّ رجالاً مِنْ وجوهِ الناس وترك المعسكر خالياً، فلما رأىٰ ذلك دخل الكوفة وانكسر عليه رأيُه في المسير، وقال لهم أيضاً:

« أيها الناس استعدُّوا للمسير إلىٰ عدوِّكم ومَنْ في جهاده القُربةَ إلىٰ الله عز وجل، ودرَك الوسيلة عنده، حيارىٰ عن الحق، جُفاة عن الكتاب، يعمهون في طغيانهم، فأعِدوا لهم ما استطعتم مِنْ قوةٍ ومِنْ رِباطِ الخيل، وتوكّلوا علىٰ الله، ؛ وكفىٰ بالله وكيلاً، وكفى بالله نصيراً ». فلم ينفروا ولا تيسروا فتركهم أياماً حتىٰ إذا أيس مِنْ أن يفعلوا دعا رؤساءهم ووجوههم فسألهم عن رأيهم وما الذي يبطىء بهم، فمنهم المعتلّ، ومنهم المتكرّه، وأقلّهم مَنْ نشط، فقام فيهم فقال:

« عبادَ الله ما بالكم إذا أمرتُكم أنْ تنفِروا آثّاقَلتم إلىٰ الأرض! أرضيتم بالحياةِ الدنيا من الآخرة وبالذل والهوان من العز خلفاً! وكلّما[2] ناديتكم إلىٰ الجهاد دارتْ أعيُنُكم كأنّكم مِنْ الموت في سَكْرة، وكأنّ قلوبكم مألوسة وأنتم لا تعقلون، فكأنّ أبصاركم كُمه وأنتم لا تبصرون. لله أنتم! ما أنتم إلاّ أُسْدُ الشرَىٰ في الدَّعَةِ، وثعالبُ رَوَّاغة حين تُدْعَوْن إلىٰ البأس ما أنتم لي بثقة سَجيسَ[3] الليالي، ما أنتم بركب يُصالُ به لَعَمْرُ اللهِ لبئسَ حُشّاش الحرب أنتم، ، إنّكم تُكادُونَ ولا تَكِيْدُون، ويتنقّص أطرافكم وأنتم لا تتحاشوْن، ولا يُنام عنكم[4] وأنتم في غفلةٍ ساهون »!

ثم قال: « أما بعد فإنّ لي عليكم حقًّا وإنَّ لكم عليَّ حقًّا، فأما حقكم عليَّ، فالنصيحة لكم ما صحبتكم، وتوفير فَيْئِكُم عليكم، وتعليمكم كي لا تجهلوا، وتأديبكم

---

(١) أي: قطعاً.

(٢) الطبري: أو كلما.

(٣) أي تغير وكدر ولا آتيك سجيس الليالي أي أبداً.

(٤) في الأصل (ولا تنام عينكم) وهو غلط صححناه من الطبري (م).

كي تعلموا، وأمّا حقي عليكم فالوفاء بالبيعة، والنُّصْح لي في المغيب والمشهد، والإجابة حين أدعوكم، والطاعة حين آمركم، فإنْ يُرِيد اللَّهُ بكم خيراً تنزعوا عما أكره، وترجعوا إلىٰ ما أحب، تنالوا ما تطلبون، وتدركوا ما تأملون».

ذكر عدة حوادث

قيل: وحجَّ بِالنَّاس هذه السنة عبيد الله بن عباس وكان عامل عليّ علىٰ اليمن. وكان علىٰ مكة والطائف قُثَم بن العباس، وكان على المدينة سهل بن حنيف، وقيل: تمام بن العباس، وكان علىٰ البصرة عبد الله بن عباس، وعلىٰ مِصر محمد بن أبي بكر. ولما سار عليّ إلىٰ صِفِّيْن استخلف علىٰ الكوفة أبا مسعود الأنصاريّ. وكان علىٰ خراسان خليد بن قرة اليربوعيّ، وكان بالشام معاوية بن أبي سفيان.

وفيها قتل حازم بن أبي حازم أخو قيس الأحمسي البجليّ بصفين مع عليّ.

وفيها مات خباب بن الأرت شهد بدراً وما بعدها، وشهد صفين مع عليّ والنهروان

وقيل: لم يشهدها كان مريضاً ومات قبل قدوم عليّ إلىٰ الكوفة وقد تقدم ذكره[1] وقيل: مات سنة تسع وثلاثين وكان عمره ثلاثاً وستين سنة.

وفيها قُتل أبو الهيثم بن التيهان بصفين مع علي وقيل: عاش بعدها يسيراً وقتل بها أخوه عبيد بن التيهان، وكان أبو الهيثم أول من بايع رسول الله ﷺ ليلة العقبة في قولٍ وهو بدريّ. وفيها قُتل يعلى بن منية ـ وهي أمه ـ وأسم أبيه أمية التميمي وهو ابن أخت عتبة بن غزوان ـ وقيل: ابن عمته ـ، وكان قد شهد الجمل مع عائشة، ثم شهد صفين مع علي فقُتل بها، وكان إسلامه يوم الفتح، وشهد حنيناً. وقُتل بصفين مع عليّ أبو عمرة الأنصاري النجاري والد عبد الرحمن وهو أيضاً بدرِيّ. وفيها قتل أبو فضالة الأنصاريّ في قول وهو بدري. وفيها توفي سهل بن حنيف الأنصاريّ في قول وهو بدري، وشهد مع عليّ حروبه. وتوفي بها صُهَيْب بن سِنَان، وصفوان بن بيضاء وهو بدري. وفي هذه السنة توفي عبد الله بن سعد بن أبي سحر بعَسْقلان فجأة وهو في الصلاة، وكره الخروج مع معاوية إلىٰ صفين، وقيل: شهدها ولا يصح.

---

(١) أنظر ٣/ ٢٨٥.

ثم دخلت سنة ثمان وثلاثين

ذكر ملك عمرو بن العاص مصر وقَتْل محمد بن أبي بكر الصديق

في هذه السنة قُتل محمد بن أبي بكر الصديق بمصر وهو عامل عليّ عليها، وقد ذكرنا سبب تولية تولية عليّ إياه[١] مصر وعزل قيس بن سعد [عنها] ودخوله مصر، وإنفاذه ابن مضاهم الكلبي إلىٰ أهل خربتا. فلما مضىٰ ابنُ مضاهم إليهم قتلوه، وخرج معاوية بن حُدَيْج السكوني وطلب بدم عثمان ودعا إليه فأجابه ناسٌ، وفسدت مصر علىٰ محمد بن أبي بكر فبلغ ذلك عليًا فقال: ما لمصر إلا أحد الرجلين صاحبنا الذي عزلنا ـ يعني قيساً ـ أو الأشتر، وكان الأشتر قد عاد بعد صفين إلىٰ عمله بالجزيرة، وقال عليّ لقيس: أقِمْ عندي علىٰ شرطتي حتىٰ تنقضي الحكومة ثم تسير إلىٰ أذربيجان، فلما بلغ عليًا أمر مصر كتب إلىٰ الأشتر[٢] وهو بنصيبين يستدعيه فحضر عنده فأخبره خَبَر أهلَ مِصْر وقال: ليس لها غيرك فآخرجْ إليها فإنّي لو لم أُوصِك اكتفيتُ برأيك، واستعنْ بالله، وأخلطْ الشدة باللين، وارفقْ ما كان الرفق أبلغ، وتشدّد حين لا يغني إلاّ الشدة.

فخرج الأشتر يتجهز إلىٰ مصر، وأتت معاوية عُيُونُه بذلك فعظم عليه وكان قد طمع في مصر فعلم أنّ الأشتر إنْ قدِمها كان أشد عليه من محمد بن أبي بكر، فبعثَ معاوية إلىٰ المقدم علىٰ أهل الخراج بالقلزم وقال له: إنّ الأشتر قد ولي مصر فإن كفيتنيه لم آخذْ منك خراجاً ما بقيتُ وبقيتَ فخرج الحابسات[٣] حتىٰ أتىٰ القلزم، وأقام به، وخرج الأشتر مِنْ العراق إلىٰ مصر فلما انتهى إلىٰ القلزم استقبله ذلك الرجل فعرض عليه النزول فنزل عنده فأتاه بطعام، فلما أكل أتاه بشَرْبَة من عسل قد جعل فيه سُمًّا

---

(١) أنظر ٣/ ٢٤٠، ٢٤٣.

(٢) أنظر نص الرسالة في الطبري ٥/ ٩٥.

(٣) في الطبري الجايستار.

فسقاه إياه فلما شربها مات. وأقبل معاوية يقول لاهل الشام: « إنّ عليًّا قد وَجَّه الأشتر إلىٰ مصر فادعُوا الله عليه ». فكانوا يدعون الله عليه كل يوم، وأقبل الذي سقاه إلىٰ معاوية فأخبره بمهلِك الأشتر فقام معاوية خطيباً ثم قال: « أما بعد فإنّه كانت لعلي يَمِينَان فقُطِعَتْ إحداهما بصفين - يعني عمار بن ياسر، وقُطِعَتْ الأخرىٰ اليوم - يعني الأشتر - » فلما بلغ عليًّا موته قال: لليدين وللفم. وكان قد ثقل عليه لاشياء نقلت عنه. وقيل: إنه لمّا بلغه قتله قال: «إنا لله وإنّا إليه راجعون مالِك وما مالِك، وهل موجودٌ، مثل ذلك؟ لو كانَ من حَدِيدٍ لكان قَيْداً، أو مِنْ حَجَرٍ لكان صَلداً، علىٰ مِثْلِهِ فَلْتَبْكِ البواكي». وهذا أصحّ لأنه لو كان كارهاً له لم يولِّه مصر. وكان الأشتر قد روىٰ الحديث عن عمر، وعلي، وخالد بن الوليد، وأبي ذر، وروىٰ عنه جماعة، وقال أحمد بن صالح: كان ثقة.

قيل: ولما بلغ محمد بن أبي بكر إنفاذ الأشتر شَقّ عليه فكتب إليه عليّ. « أما بعد فقد بلغني موجدتك مِنْ تسريحي الأشتر إلىٰ عملك، وإني لم أفعل ذلك استبطاءً[1] لك في الجهاد، ولا ازدياداً مني لك في الجد، ولو نزعت ما تحتَ يدك لوليتك ما هو أيسر عليك مؤنة منه، وأعجب إليك ولايةً. إنَّ الرجلَ الذي كنت وليته أمرَ مصر كان لنا نصيحاً، وعلىٰ عدونا شديداً، وقد استكمل أيامه، ولاقىٰ حِمَامَه، ونحن عنه راضون. فرضيَ الله عنه، وضاعف له الثواب. أصبرْ لعدوِّك، وشمِّر للحربِ، وادعُ إلىٰ سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة، وأكثرْ ذكرَ الله، والاستعانةِ به، والخوف منه يكفك ما أهمك؟ ويعنك علىٰ ما ولاك ». وكتب إليه محمد: « أما بعد: فقد انتهىٰ إليّ كتابُك، وفهمته، وليس أحدٌ من الناس أرضىٰ برأي أمير المؤمنين، ولا أجهد علىٰ عدوه، ولا أرأف بوليه مني. وقد خرجتُ فعسكرتُ، وأمنت الناس إلا مَنْ نصب لنا حرباً، وأظهر لنا خلافاً. وأنا متبع أمرَ أمير المؤمنين، وحافظه، والسلام ». وقيل: إنما تولى الأشتر مصر بعد قتل محمد بن أبي بكر.

وكان أهل الشام ينتظرون بعد صفين أمرَ الحكمين، فلما تفرقا بايع أهلُ الشام معاوية بالخلافة ولم يزدد إلّا قوة، واختلف الناسُ بالعراق علىٰ عليّ فما كان لمعاوية هَمٌّ إلا مِصر، وكان يهابُ أهلَها لقربهم منه، وشدتهم علىٰ مَنْ كان علىٰ رأْي عثمان، وكان

---

(١) في الأصل الاستبطاء (م).

يرجو أنه إذا ظهر عليها ظهر علىٰ حرب عليّ لِعِظَم خراجها، فدعا معاوية عَمْرو بن العاص،وحبيب بن مسلمة، وبسر بن أبي أرطاة، والضحاك بن قيس، وعبد الرحمن بن خالد، وأبـا الأعور السلمي، وشـرحبيل بن السمط الكنـدي فقال لهم: أتـدرون لم جمعتكم؟ فإنّي جمعتكم لأمرٍ لي مهم. فقالوا: لم يطلع الله علىٰ الغيب أحداً، وما نعلم ما تريد. فقال عمرو بن العاص: دعوتنا لتسألنا عن رأينا في مصر. فإنْ كنتَ جمعتَنا لذلك فآعزمْ وآصبرْ فنِعم الرأي رأيتَ في افتتاحها فـإنّ فيه عِـزَّك، وعِزَّ أصحـابِك، وكبتِ عدوك، وذُلِّ أهل الشقاق عليك. فقال معاوية: أهمك يا بن العاص وما أهمك. ـ وذلك أنَّ عمراً كان صالح معاوية علىٰ قِتال عليّ علىٰ أنّ له مصر طعمة ما بقي.

وأقبلَ معاوية علىٰ أصحابه وقال: أصاب أبو عبد الله فما ترون؟ فقالوا: ما نرىٰ إلا ما رأىٰ عَمْرو. قال: فكيف أصنع فإنّ عَمْراً لم يفسّر كيف أصنع؟ فقال عمرو: أرىٰ أنْ تبعثَ جيشاً كثيفاً عليهم رجلٌ حازمٌ صابر صارمٌ تَأْمَنُهُ، وتثقُ به فيأتي مصرَ فإنّه سيأتيه مَنْ كان علىٰ مثل رأينا فيظاهره علىٰ عدونا فإنْ اجتمع جندُك ومَنْ بها علىٰ رأينا رجوتُ أنْ ينصـرك الله. قال: معـاوية : أرىٰ أنْ نكاتب مَنْ بهـا مِنْ شيعتِنا فنمّنيهم، ونـأمرهم بالثبات، ونكاتب مَنْ بها مِنْ عدوِّنا فندعوهم إلىٰ صُلْحِنَا ونمنّيهم شكرنا، ونخـوفهم حربنا فإنْ كان ما أردنا بغيرِ قتالٍ فذاك الذي أردنا وإلاّ كان حربهم مِنْ بعد ذلك. إنّك يا ابنَ العاص امرؤٌ بورك لك في الشدة، والعجلة، وأنا بورك لي في التؤدة. قال عمرو: افعلْ ما ترىٰ فما أرىٰ أمرنا يصيرُ إلاّ إلىٰ الحرب.

فكتب معاوية إلىٰ مسلمة بن مخلد، ومعاوية بن حديج السكوني ـ وكانا قد خالفا عليًّا ـ يشكرهما علىٰ ذلك، ويحثهما علىٰ الطلب بدمِ عثمان، ويعدهما المواساة في سلطانه، وبعثه مع مولاه سبيع، فلما وقفا عليه أجاب مسلمة بن مخلد الأنصاري عن نفسه وعن ابن حديج: «أما بعد فإنّ الأمرَ الذي بذلنا له أنفسنا واتبعنا به أمرَ الله أمر نرجو به ثوابَ ربنا، والنصر علىٰ مَنْ خالفنا، وتعجيل النقمة علىٰ مَنْ سعىٰ علىٰ إمامنا وأمّا ما ذكرتَ مِن المواساة في سلطانِك فتالله إنّ ذلك أمرٌ ماله نهضنا، ولا إياه أردنا فعجِّل إلينا بخيلك ورَجْلِك فإنّ عدونا قد أصبحوا لنا هائبين فإنْ يأتنـا مددٌ يفتح اللهُ عليك. والسلام».

فجاءه الكتاب وهو بفِلَسْطِيْن فدعا أولئك النفرُ وقال لهم: ما ترون؟ قالوا: نرىٰ أنْ

تبعثَ جنداً. فأمر عمرو بن العاص ليتجهز إليها، وبعث معه ستة آلاف رجل، ووصّاه بالتؤدة، وترك العَجَلة، وسار عَمْرو فنزل أداني أرض مصر فاجتمعت إليه العثمانية فأقام بهم وكتب إلىٰ محمد بن أبي بكر: «أما بعد: فتنحَّ عني بدَمِك يا بن أبي بكر فإنّي لا أحبُّ أنْ يصيبَك مني ظفر إنّ الناس بهذه البلاد قد اجتمعوا علىٰ خلافك وهم مُسْلِمُوك فاخرج منها إنّي لك من الناصحين». وبعث معه كتابَ معاوية في المعنى أيضاً ويتهدده بقصده حصار عثمان، فأرسل محمد الكتابَيْن إلىٰ عليّ ويخبره بنزول عَمْرو بأرض مصر، وأنَّه رأىٰ التثاقل ممن عنده، ويستمده، فكتب إليه عليّ يأمره أنْ يضم شيعته إليه ويعِده إنفاذ الجيوش إليه، ويأمره بالصبر لعدوه وقِتَالِه.

وقام محمد بن أبي بكر في الناس وندبهم إلىٰ الخروج إلىٰ عدوهم مع كنانة بن بشر فانتدب معه ألفان، وخرج محمد بن أبي بكر بعده في ألفين، وكنانة علىٰ مقدمته، وأقبل عَمْرو نحو كِنَانة فلمّا دنا منه سرح الكتائب كتيبة بعد كتيبة، فجعل كنانة لا تأتيه إلّا حمل عليها فألحقها بعمرو بن العاص، فلما رأىٰ ذلك بعث إلىٰ معاوية بن حديج فأتاه في مثل الدهم فأحاطوا بكنانة وأصحابه، واجتمع أهلُ الشام عليهم مِنْ كل جانب، فلما رأىٰ ذلك كنانة نزل عن فرسه ونزل معه أصحابه فضاربهم بسيفه حتىٰ استشهد، وبلغ قَتْلَه محمد بن أبي بكر فتفرّق عنه أصحابُه، وأقبل نحوه عَمْرو وما بقي معه أحدٌ فخرج محمد يمشي في الطريق فانتهىٰ إلىٰ خربة في ناحية الطريق فأوىٰ إليها، وسار عَمْرو بن العاص حتىٰ دخل الفسطاط، وخرج معاوية بن حديج في طلب محمد بن أبي بكر فانتهى إلى جماعة علىٰ قارعة الطريق فسألهم عنه فقال أحدهم: دخلتُ تلك الخربة فرأيتُ فيها رجلاً جالساً. فقال ابن حديج: هو هو فدخلوا عليه فاستخرجوه وقد كاد يموت عطشاً، وأقبلوا به نحو الفسطاط فوثب أخوه عبد الرحمن بن أبي بكر إلى عَمْرو بن العاص وكان في جنده وقال: أتقتلْ أخي صبراً! آبعثْ إلىٰ ابن حديج فآنْهه عنه. فبعث إليه يأمره أنْ يأتيه بمحمد. فقال: قتلتم كنانة بن بشر وأخلي أنا محمداً! أكفاركم خيرٌ من أُولئِكم أمْ لكم براءةٌ في الزُّبُر! هيهاتَ هيهات. فقال لهم محمد بن أبي بكر: اسقوني ماءً. فقال له معاوية بن حديج: لا سقاني اللّهُ إنْ سقيتُك قطرةً أبداً. إنكم منعتم عثمان شُرْبَ الماءِ، واللهِ لأقتلنّك حتىٰ يسقيك اللّهُ من الحميم والغساق. فقال له محمد: يا بن اليهودية النسّاجة ليس ذلك إليك إنما ذلك إلى الله يسقي أولياءه ويُظْمِئُ أعداءه أنت وأمثالك. أما والله لو كان سيفي بيدي ما بلغتم مني هذا.

ثم قال له: أتدري ما أصنع بك؟ أُدخلك جوفَ حمار ثم أحرقه عليك بالنار. فقال محمد: إنْ فعلتَ بي ذلك فلطالما فعلتم ذلك بأولياء الله. وإنّي لأرجو أنْ يجعلها عليك، وعلىٰ أوليائك، ومعاوية، وعمرو ناراً تلظّىٰ كلما خَبَتْ زادها الله سَعِيراً. فغضب منه وقتله ثم ألقاه في جِيْفَة حمار ثم أحرقه بالنار. فلما بلغ ذلك عائشة جزعتْ عليه جزعاً شديداً وقنتتْ في دُبُر الصلاة تدعو علىٰ معاوية وعمرو، وأخذت عِيَال محمد إليها فكان القاسم بن محمد بن أبي بكر في عِيالهم، ولم تأكل من ذلك الوقت شواءً حتىٰ تُوفيت.

وقد قيل: إنّ محمداً قاتل عَمْراً ومَنْ معه قتالاً شديداً فقتل كنانة وانهزم محمد وآختبأ عند جبلة بن مسروق فدلّ عليه معاوية بن حديج فأحاط به فخرج محمد فقاتل حتىٰ قُتل.

وأما عليّ فلما جاءه كتابُ محمد بن أبي بكر فأجابه عنه ووعده المدد وقام في الناس خطيباً وأخبرهم خبرَ مِصر وقَصْد عمرو إياها وندبهم إلى إنجادهم وحثّهم علىٰ ذلك، وقال: آخرجوا بنا إلىٰ « الجرعة » وهي بين الكوفة والحيرة فلما كان الغد خرج إلىٰ الجرعة فنزلها بكرةً وأقام بها حتىٰ انتصفَ النهار فلم يأتِهِ أحدٌ فرجع، فلمّا كان العشيّ استدعىٰ أشرافَ الناس وهو كئيب فقال: « الحمدُ للهِ علىٰ ما قضَىٰ مِنْ أمرِهِ وقدَّر مِنْ فِعْلِهِ وابتلاني بكم، أيتها القرية[1] التي لا تطيعُ إذا أَمَرْتُ، ولا تُجِيْبُ إذا دَعَوْتُ لا أبا لغيركم! ما تنتظرون بمصركم والجهاد علىٰ حقكم! فوالله لئن جاء الموتُ وليأتيني ليفرقن بيني وبينكم وأنا لصحبتكم قالٍ، وبكم غير كثير[2] لله أنتم أما دين يجمعكم ولا حمية تحميكم إذا أنتم سمعتم بعدوكم ينتقص بلادكم ويشن الغارة عليكم! أوليس عجيباً أنّ معاوية يدعو الجفاةَ الطغامَ فيتبعونه علىٰ غير عطاء، ولا معونة في السنة المرة والمرتين والثلاث إلىٰ أي وجه شاء وأنا أدعوكم وأنتم أولو النهىٰ، وبقية الناس علىٰ العطاء والمعونة فتتفرقون عني تعصونني وتختلفون عليَّ!

فقام كعب بن مالك الأرحبي وقال: يا أمير المؤمنين اندبْ الناسَ، لهذا اليوم كنتُ أدخر نفسي. ثم قال: « أيها الناس اتقوا الله، وأجيبوا إمامكم، وانصروا دعوتَه،

---

(١) الطبري: الفرقة.

(٢) الطبري ٥/١٠٧: وبكم غير ضنين.

وقاتِلوا عَدوّه، وأنا أسيرُ إليه ». فخرج معه ألفان، فقال له : [١] سِرْ فوالله ما أظنُّك تدرِكهم حتىٰ ينقضي أمرهم. فسار بهم خمساً، ثم إنَّ الحجاج بن غزية الأنصاري قدِم مِن مصر فأخبره بقتل محمد بن أبي بكر وكان معه، وقدم عليه عبد الرحمن بن شبيب الفزاري من الشام وكان عينه هناك فأخبره أنّ البشارة من عَمرو وردت بقتل محمد، وملك مصر، وسرور أهل الشام بقتله، فقال علي: « أمَا إنَّ حزنَنا عليه بقَدْر سرورهم به. لا، بل يزيد أضعافاً.

فأرسل عليّ فأعاد الجيش الذي نفذهم وقام في الناس خطيباً وقال: « ألا إنّ مصر قد افتتحها الفَجَرَة أولو الجور والظلمة الذين صدوا عن سبيل الله وبغوا الإسلام عِوَجاً. ألا وإنّ محمد بن أبي بكر استشهد فعند الله نحتسبه. وأما والله إنْ كان كما علمت لممن ينتظر القضاء، ويعمل للجزاء، ويبغض شكل الفاجر، ويحب هدى المؤمن. إنّي والله ما ألوم نفسي علىٰ تقصير، وإني لمقاساة الحروب لجدير خبير، وأني لأتقدم علىٰ الأمر وأعرف وجه الحَزْم، وأقوم فيكم بالرأي المصيب، وأستصرخكم معلناً، وأناديكم نداءَ المستغيث فلا تسمعون إلي قولاً ولا تطيعون لي أمراً حتىٰ تصيرُ الأمورُ إلىٰ عواقب المساءة. فأنتم القوم لا يُدْرَكُ بكم الثأر، ولا تُنفض بكم[٢] الأوتار. دعوتكم إلىٰ غياث أخوانكم منذ بضع وخمسين ليلة فتجرجرتم جرجرة الجمل الأشدق، وتثاقلتم إلىٰ الأرض تثاقل مَنْ ليست له نيّة في جهادِ العدو، ولا اكتساب الأجر، ثم خرج إليَّ منكم جُنَيْدٌ متذانب كأنما يساقُون إلىٰ الموتِ وهم ينظرون، فأُفٍّ لكم ». ثم نزل.

(معاوية بن حُدَيْج) بضم الحاء وفتح الدال المهملتين (جارية بن قدامة) بالجيم وفي آخره ياء تحتها نقطتان. (بُسْر بن أبي ارطاة) بضم الباء الموحدة وسكون السين المهملة.

---

(١) القائل هو علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

(٢) ولا تنفض هنا بالفاء ، وفي الطبري بالقاف والذي في الطبري أظهر ، والمراد : لا يؤخذ بكم ثاركما ينقض الشاعر قصيدة قيلت في قومه بأخرى تعارضها .

ذكر إرسال معاوية عبد الله بن الحضرمي إلىٰ البصرة

في هذه السنة بعد مقتل محمد بن أبي بكر واستيلاء عمرو بن العاص علىٰ مصر سَيّر عبد الله بن الحضرمي إلىٰ البصرة وقال له: « إنّ جُلّ أهلها يرون رأينا في عثمان وقد قتلوا في الطلب بدمه فهم لذلك حنقون يودُّون أنْ يأتِيَهم مَنْ يجمعهم، وينهض بهم في الطلب بثأرهم ودم إمامهم، فانزل في مصر وتودد الأزد فإنهم كلّهم معك، ودع ربيعة فلن ينحرف عنك أحدٌ سواهم لأنهم كلهم ترابية[1] فاحذرهم ». فسار ابن الحضرمي حتىٰ قدِم البصرة وكان ابن عباس قد خرج إلىٰ علي بالكوفة واستخلف زياد بن أبيه علىٰ البصرة فلمّا وصل ابن الحضرمي إلىٰ البصرة نزل في بني تميم فأتاه العثمانية مُسَلّمين عليه وحضره غيرهم فخطبهم وقال: « إنّ عثمان إمامكم إمام الهدىٰ قُتل مظلوماً قَتَله عليّ فطلبتم بدمه فجزاكم الله خيراً ».

فقام الضحاك بن قيس الهلالي ـ وكان علىٰ شرطة ابن عباس فقال: « قَبَّحَ اللهُ ما جئتنا به وما تدعونا إليه. أتيتنا والله بمثل ما أتانا به طلحة، والزبير، أتيانا وقد بايعنا عليًّا واستقامت أمورُنا فحملانا علىٰ الفُرقة حتىٰ ضَرَب بعضُنا بعضاً، ونحن الآن مجتمعون علىٰ بيعته وقد أقال العثرة، وعفا عن المُسِيءُ أفتأمرنا أنْ ننتضي أسيافنا ويضربُ بعضُنا بعضاً ليكون معاوية أميراً! واللهِ لَيَوْمٌ مِن أيامِ عليّ خيرٌ من معاوية وآل معاوية ». فقام عبد الله بن خازم السلمي فقال للضحاك: اسكتْ فلستَ بأهلٍ أنْ تتكلم ثم أقبل علىٰ ابن الحضرمي فقال: نحن أنصارك، ويدك، والقول قولُك فاقرأ كتابك. فأخرج كتابَ معاوية إليهم يذكّرهم فيه آثار عثمان فيهم، وحبه العافية، وسده ثغورهم، ويذكّر قَتْلَه، ويدعوهم إلىٰ الطلب بدمه، ويضمن أنه يعمل فيهم بالسُّنَّة، ويعطيهم عطاءَيْن في السنة.

فلما فرغ مِنْ قراءته قام الأحنف فقال: لا ناقتي في هذا ولا جملي. واعتزَلَ القومَ، وقام عمرو بن مرحوم العبدي فقال: أيها الناس آلزموا طاعتكم وجماعتكم، ولا تنكثوا بيعتكم فتقع بكم الواقعة.

---

(١) يريد بترابية أنهم من شيعة أبي تراب وهي كنية عليّ بن أبي طالب كرم الله وجهه كناه بها رسول الله ﷺ (م).

وكان عباس بن صحار العبدي مخالفاً لقومه في حب علي فقام وقال: لننصرنك بأيدينا وألسنتنا. فقال له المثنى بن مخربة العبدي: والله لئِنْ لم ترجع إلىٰ مكانك الذي جئتنا منه لنجاهدنك بأسيافنا ورِماحنا، ولا يغرنك هذا الذي يتكلم ـ يعني ابن صحار ـ فقال ابن الحضرمي لصبرة بن شيمان: أنت نابٌ من أنيابِ العرب فانصرنِي. فقال: لو نزلتَ في داري لنصرتُك فلما رأىٰ زياد ذلك خافَ فاستدعىٰ حضين بن المنذر، ومالك بن مسمع فقال: أنتم يا معشر بكر بن وائل أنصار أميرِ المؤمنين وثقاتِه، وقد كان من ابن الحضرمي ما تَرون وأتاه من أتاه فامنعوني حتى يأتيني أمرُ أمير المؤمنين. فقال حضين بن المنذر: نعم. وقال مالك ـ وكان رأيه مائلاً إلىٰ بني أمية: هذا أمر لي فيه شركاء أستشيرُ فيه وأنظر.

فلما رأىٰ زياد تثاقل مالك خاف أنْ تختلف عليه ربيعة فأرسل إلىٰ صبرة بن شيمان الحداني الأزدي يطلب أنْ يجيره وبيت مال المسلمين فقال: إنْ حملتَه إلىٰ داري أَجَرْتُكما. فنقله إلىٰ داره بالحدان، ونقل المنبر أيضاً فكان يصلي الجمعة بمسجد الحدان ويطعم الطعام، فقال زياد لجابر بن وهب الراسيّ: يا أبا محمد إني لا أرىٰ ابنَ الحضرمي يكفّ، وأراه سيقاتلكم، ولا أدري ما عند أصحابك[1] فانظر ما عندهم.

فلما صلىٰ زياد جلس في المسجد واجتمع الناس إليه فقال جابر: يا معشرَ الأزد إنّ تميماً تزعمُ أنّهم هم الناس وأنهم أصبر منكم عند البأس، وقد بلغني أنهم يريدون أنْ يسيروا إليكم ويأخذوا جاركم ويخرجوه قسراً فكيف أنتم إذا فعلوا ذلك وقد أجرتموه وبيت مال المسلمين؟ فقال صبرة بن شيمان ـ وكان مفخماً: إنْ جاء الأحنف جئتُ، وإنْ جاء حماتهم جئتُ، وإنْ جاء شبابهم ففينا شباب.

وكتب زياد إلىٰ عليّ بالخبر فأرسل عليّ إليه أعين بن ضبيعة المجاشعي ثم التميمي ليفرّق قومه عن ابن الحضرمي فإنْ امتنعوا قاتلَ بمن أطاعه مَنْ عصاه، وكتب إلىٰ زياد يعلمه ذلك فقدم أعين فأتىٰ زياداً فنزل عنده، وجمع رجالاً، وأتىٰ قومه، ونهض إلى ابن الحضرميّ ومن معه، ودعاهم فشتموه، وواقفهم نهاره ثم انصرف عنهم فدخل

---

(١) الذي في الطبري: أصحابك ـ وهي صحيحة.

عليه قومٌ قيل : إنهم من الخوارج ، وقيل : وضعهم ابن الحضرمي علىٰ قَتْله وكان معهم فقتلوه غِيْلَةً ، فلما قُتل أعين أراد زياد قِتَالَهم فأرسلت تميم إلى الأزد : إنّا لم نعرض لجاركم فما تريدون إلى جارنا ؟ فكرهتْ الأزدُ قتالهم وقالوا : إنْ عرضوا لجارنا منعناه، وكتب زياد إلىٰ عليّ يخبره خبر أعين وقَتْلِهِ فأرسل عليّ جارية بن قدامة السعدي وهو مِنْ بني سعد من تميم وبعث معه خمسين رجلًا ، وقيل : خمسمائة من تميم وكتب إلى زياد يأمره بمعونة جارية والإشارة عليه ، فقدم جارية البصرة فحذره زياد ما أصاب أعين فقام جارية في الأزد فجزاهم خيراً وقال : عرفتم الحق إذْ جهله غيركم ، وقرأ كتاب عليّ إلىٰ أهل البصرة يوبخهم ، ويتهددهم ، ويعنفهم ، ويتوعدهم بالمسير إليهم ، والإيقاع بهم وقعة تكون وقعة الجمل عندها هباء ؛ فقال صبرة بن شيمان : سمعاً لأمير المؤمنين وطاعة نحن حرب لمن حاربه وسلم لمن سالمه .

وقال أبو صفرة والد المهلب لزياد : لو أدركتُ يوم الجمل ما قتل قومي أميرَ المؤمنين ـ وقيل : إنّ أبا صفرة كان توفي في مسيره إلىٰ صفين والله أعلم ـ وسار جارية إلىٰ قومه وقرأ عليهم كتاب عليّ ووعدهم خازم السلميّ فاقتتلوا ساعة ، وأقبل شريك بن الأعور الحارثي فصار مع جارية فانهزم ابن الحضرمي فتحصنّ بقصر سنبيل ومعه ابن خازم فأتته أمه عجلىٰ وكانت حبشية فأمرته بالنزول فأبىٰ فقالت : والله لتنزلنّ أو لأنزعنّ ثيابي . فنزل ونجا وأحرق جارية القصر بمن فيه فهلك ابنُ الحضرمي وسبعون رجلًا معه ، وعاد زياد إلىٰ القصر وكان قصر سنبيل لفارس قديماً وصار لسنبيل السعدي وحوله خندق وكان فيمن احترق دارع بن بدر أخو حارثة بن بدر فقال عمرو بن العَرَنْدَس :

رَدَدْنَا زِيَاداً إلىٰ دَارِهِ ... وجَارُ تَميمٍ دُخَاناً ذَهَبْ
لحَىٰ اللّهُ قَوْماً شَوَوْا جارَهُمْ ... وَلم يَدْفَعُوا عَنه حَرَّ اللَّهَبْ[1]

في أبيات غير هذه، وقال جرير[2]:

---

(١) في الطبري ٥/١١٢ :

وللشاعر بالدرهمين الشَّصَبْ

(٢) هو جرير بن عطية الخطفيّ .

غَـدَرْتُم بِـالـزُّبَيْـرِ فَمَـا وَفَيْتُم ... وَفَـاءَ الأَزْدِ إِذْ مَـنَـعُـوا زِيَـادَا
فَـأَصْبَـحَ جَـارُهُم بِنَجَـاة عِـزٍّ ... وَجَـارُ مُجَـاشِـعٍ أمسَىٰ رَمَـادَا
فلوْ عَـاقَـدْتَ حَبْـلَ أبي سعيـدٍ ... لَـذَادَ القَـوْمَ مَـا حَمَـلَ النِّجَـادَا
وَأَدْنَىٰ الخَيْـلَ مِنْ رَهَـجِ المَنَـايَـا ... وَأَغْشَـاهَـا الأَسِنَّـة والـصِّعَـادَا

(جارية بن قدامة) بالجيم والياء تحتها نقطتان. (وحارثة بن بدر) بالحاء المهملة وبعدها ثاء مثلثة. و (عبدالله بن خازم) بالخاء المعجمة والزاي. و (المُثَنىٰ بن مخرِّبَة) بضم الميم وفتح الخاء المعجمة وكسر الراء المشددة وآخره باء موحدة.

ذكر خبر الخِرِّيت بن راشد وبني ناجية

قيل: وفي هذه السنة أظهر الخريت بن راشد الناجي الخلافَ علىٰ عليّ فجاء إلىٰ أمير المؤمنين وكان معه ثلاثمائة من بني ناجية خرجوا مع عليّ من البصرة فشهدوا معه الجمل وصفين وأقاموا معه بالكوفة إلىٰ هذا الوقت فحضر عند عليّ في ثلاثين راكباً [من أصحابه] فقال له: يا عليّ والله لا أطيعُ أمرك، ولا أصلي خَلْفك، وإنّي غداً مفارقٌ لك ـ وذلك بعد تحكيم الحكمين. فقال له: ثكلتك أُمُّك إذاً تعصى ربـك، وتنكثُ عهدك، ولا تضرُّ إلاّ نفسك. خبرني لم تفعل ذلك؟ فقال: لأنّك حكَّمتَ [في الكتابِ]، وضَعُفتَ عن الحق،وركنتَ إلىٰ القوم الذين ظلموا فأنا عليك زارٍ وعليهم ناقم ولكم جميعاً مباين. فقال له علي: هلمّ أدارسك الكتاب، وأناظرك في السنن، وأفاتِحُكَ أموراً أنا أعلم بها منك، فلعلك تعرفُ ما أنتَ له الآن منكِر. قال: فإنّي عائدٌ إليك. قال: «لا يستهوينّك الشيطانُ، ولا يستخفنك الجُهّالُ. واللّهِ لئن استرشدتني وقبلتَ مني لأهدِيَنّك سبيل الرشاد».

فخرج مِنْ عنده منصرفاً إلىٰ أهله، وسار مِنْ ليلته هـو وأصحابـه، فلما سمـع بمسيرهم عليّ قال: «بُعْداً لهم كما بعدت ثمود. إنّ الشيطان اليوم استهواهم وأضلهم، وهو غداً متبرىء منهم».

فقال له زياد بن خَصَفَة البكري: يا أميرَ المؤمنين إنّه لم يعظم علينا فقدهم فَتَأْسَىٰ عليهم إنهم قلما يزيدون في عَدَدِنَا لو أقاموا، ولقلما ينقصون مِنْ عددنا بخروجهم عنا، ولكنا نخافُ أنْ يفسدوا علينا جماعةً كثيرة ممن يقدمون عليك مِنْ أهل طاعتك فأذَنْ لي

في اتّباعهم حتى أردّهم عليك. فقال: أتدري أين توجّهوا؟ قال: لا. ولكني أسألُ وأتبع الأثر. فقال له: اخرجْ رحمك الله، وانزل دير أبي موسى وأقمْ حتىٰ يأتيك أمري فإنْ كانوا ظاهرين فإنّ عمالي سيكتبون بخبرهم.

فخرج زياد فأتى داره وجمع أصحابه من بكر بن وائل وأعلمهم الخبر فسار معه مائة وثلاثون رجلاً فقال حسبي، ثم سار حتىٰ أتىٰ دير أبي موسىٰ فنزله يوماً ينتظر أمرَ عليّ وأتىٰ عليًّا كتابٌ من قرظة بن كعب الأنصاريّ يُخبره أنّهم توجهوا نحو «نِفَّر»[١] وأنهم قتلوا رجلاً من الدهاقين كان أسلم، فأرسل عليّ إلىٰ زياد يأمره بآتباعهم ويخبره خبرهم وأنهم قتلوا رجلاً مسلماً ويأمره بردِّهم إليه فإنْ أبوا يناجزهم، وسَيَّر الكتاب مع عبدالله بن وأل فاستأذنه عبدالله في المسير مع زياد فأذن له وقال له: إنّي لأرجو أنْ تكونَ مِنْ أعواني علىٰ الحق، وأنصاري علىٰ القوم الظالمين. قال ابن وأل: فواللهِ ما أحبُّ أنّ لي بمقالته تلك حُمُرَ النعم وسار بكتاب عليّ إلىٰ زياد، وساروا حتىٰ أتوا «نِفَّر» فقيل إنهم ساروا نحو «جَرْجَرَايا»[٢] فتبعوا آثارهم حتىٰ أدركوهم بالمَذَار[٣] وهم نزول قد أقاموا يومهم وليلتهم واستراحوا فأتاهم زياد وقد تقطّع أصحابه وتعبوا فلما رَأَوْهم رَكِبُوا خيولهم وقال لهم الخريت: أخبروني ما تريدون؟

فقال له زياد وكان مجرباً رفيقاً: قد ترىٰ ما بنا من التعب والذي جئناك له لا يصلحه الكلام علانية ولكن ننزل ثم نخلو جميعاً فنتذاكر أمرنا فإنْ رأيتَ ما جئناك به حَظًّا لنفسك قبلته وإنْ رأينا فيما نسمع منك أمراً نرجو فيه العافية لم نرده عليك. قال: فآنزلْ. فنزل زياد وأصحابه علىٰ ماءٍ هناك وأكلوا شيئاً، وعلقوا علىٰ دوابهم، ووقف زياد في خمسة فوارس بين أصحابه وبين القوم وكانوا قد نزلوا أيضاً، وقال زياد لأصحابه: «إنّ عدتنا كعدتهم وأرىٰ أمرَنا يصيرُ إلىٰ القتال فَلا تكونوا أعجزَ الفريقين».

وخرج زياد إلى الخريت فسمعهم يقولون: جاءنا القوم وهم كالّون تعبون فتركناهم حتى استراحوا! هذا والله سوءُ الرأي. فدعاه زياد وقال له: ما الذي نقمتَ علىٰ أمير المؤمنين وعلينا حتىٰ فارقتنا؟

---

(١) نِفَّر: بلدة من عمل بابل.

(٢) بلد من أعمال النهروان.

(٣) المَذَار: بلدة بين واسط والبصرة.

فقال: لم أرضَ صاحبكم إماماً ولا سِيْرَتَكُم سيرةً فرأيتُ أنْ اعتزل وأكونَ مع مَنْ يدعو إلىٰ الشُّورَىٰ. فقال له زياد: وهل يجتمعُ الناسُ علىٰ رجلٍ يداني صاحبك الذي فارقته عِلْماً بالله، وسنته، وكتابه مع قرابته من الرسول ﷺ، وسابقته في الإسلام؟ فقال له: ذلك لا أقول لا. فقال له زياد: ففيما(١) قتلتَ ذلك الرجل المسلم؟ فقال له: ما أنا قتلتُه وإنّما قتله طائفةٌ مِن أصحابي. قال: فادفعهم إلينا. قال: مالي إلى ذلك سبيل.

فدعا زيادُ أصحابه ودعا الخريت أصحابه فاقتتلوا قتالاً شديداً تطاعنوا بالرماح حتىٰ لم يَبْقَ رمحٌ، وتضاربوا بالسيوف حتىٰ انحنت، وعقرتْ عامة خيولهم، وكثرتْ الجراحة فيهم، وقتل مِنْ أصحاب زياد رجلان ومِنْ أولئك خمسة، وجاء الليل فحجز بينهما وقد كره بعضُهم بعضاً، وجرح زياد فسار الخريت مِن الليل وسار زياد إلىٰ البصرة، وأتاهم خبر الخريت أنه أتى الأهواز فنزل بجانب منها وتلاحق به ناسٌ من أصحابهم فصاروا نحو مائتين، فكتب زياد إلىٰ علي بخبرهم وأنه مقيمٌ يداوي الجرحىٰ وينتظر أمره.

فلما قرأ عليٌّ كتابه قام إليه معقل بن قيس فقال: يا أمير المؤمنين كان ينبغي أنْ يكون مع من يطلب هؤلاء مكان كل واحد منهم عشرة فإذا لحقوهم استأصلوهم وقطعوا دابرهم فأما أنْ يلقاهم عددهم فلعمري ليصبُرنّ لهم فإنّ العدة تصبر للعدة.

فقال: تجهز يا معقل إليهم. وندب معه ألفين من أهل الكوفة منهم يزيد بن المعقل(٢) الأسدي.

وكتب عليّ إلىٰ ابن عباس يأمره أنْ يبعث مِن أهل البصرة رجلاً شجاعاً معروفاً بالصلاح في ألفي رجل إلى معقل وهو أمير أصحابه حتى يأتي معقلاً فإذا لقيه كان معقل الأمير، وكتب إلى زياد بن خَصَفَة يشكره ويأمره بالعود، واجتمع علىٰ الخريت الناجي علوج من أهل الأهواز كثير أرادوا كسر الخراج، ولصوصٌ، وطائفة أخرىٰ من العرب ترىٰ رأيه، وطمع أهلُ الخراج في كسره فكسروه، وأخرجوا سهل بن حنيف من فارس ـ وكان عاملاً لعليّ عليها في قول مَنْ يزعم أنه لم يمت سنة سبع وثلاثين ـ فقال ابن عباس

---

(١) كذا في المطبوعة عن أصلها.
(٢) الطبري: يزيد بن المغفل.

لعليّ : أنا أكفيك فارس بزياد ـ يعني ابن أبيه ـ فأمره بإرساله إليها وتعجيل تسييره فأرسل زياداً إليها في جمعٍ كثير فوطىء بلاد فارس فأدوا الخراج واستقاموا، وسار معقل بن قيس ووصّاه عليّ فقال له «اتقِ ما استطعتَ، ولا تبغِ علىٰ أهل القبلة، ولاَ تظلم أهلَ الذمة ولا تتكبر فإنّ الله لاَ يحبُّ المتكبرين».

فقدم معقل الأهواز ينتظر مدد البصرة فأبطأ عليه فسار عن الأهواز يطلب الخريت فلم يسر إلاّ يوماً حتىٰ أدركه المدد مع خالد بن معدان الطائيّ فساروا جميعاً فلحقوهم قريب جبل من جبال «رَامَهُرْمُز» فصَفّ معقل أصحابه فجعل علىٰ ميمنته يزيد بن المعقل وعلى ميسرته منجاب بن راشد الضبيّ مِنْ أهل البصرة، وصَفّ الخريت أصحابه فجعل مَنْ معه من العرب ميمنة ومن معه من أهل البلد والعلوج ميسرة ومعهم الأكراد، وحرّض كل واحد منهما أصحابه، وحرّك معقل رأسه مرتين ثم حمل في الثالثة فصبروا له ساعة ثم انهزموا فقَتَلَ أصحابُ معقل منهم سبعين رجلاً من بني ناجية ومَنْ معهم من العرب، وقتلوا نحواً مِنْ ثلاثمائة من العلوج والأكراد، وانهزم الخريت بن راشد فلحق بأسياف البحر وبها جماعة كثيرة من قومه فما زال يسيرُ فيهم ويدعوهم إلىٰ خلاَفِ عليّ ويخبرهم أنّ الهديَ في حربه حتىٰ أتبعه ناسٌ كثير، وأقام معقل بأرض الأهواز وكتب إلى علي بالفتح فقرأ عليّ الكتاب علىٰ أصحابه واستشارهم فقالوا كلهم : «نرىٰ أنْ تأمر معقلاً أنْ يتبع آثار الفاسق حتىٰ يقتله أو ينفيه فإنّا لا نأمن أنْ يفسد عليك الناس». فكتب إلىٰ معقل يثني عليه وعلىٰ مَنْ معه ويأمره باتباعه وقَتْله أو نفيه، فسأل معقل عنه فأخبره بمكانه بالأسياف وأنه قد ردّ قومه عن طاعة عليّ وأفسد مَنْ عنده مِنْ عبد القَيْس وسائر العرب وكان قومه قد منعوا الصدقة عام صفين وذلك العام، فسار إليهم معقل فأخذ علىٰ فارس وانتهىٰ إلى أسياف البحر، فلما سمع الخريت بمسيره قال لمن معه مِن الخوارج: أنا علىٰ رأيكم وإنّ علياً لم ينبغ له أن يحكّم. وقال للآخرين من أصحابه: إن عليًّا حكّم ورضي فخلعه حُكْمُهُ الذي ارتضاه وهذا كان الرأي الذي خرج عليه من الكوفة وإليه كان يذهب. وقال سرًّا للعثمانية: أناوالله علىٰ رأيكم قد والله قتلَ عثمان مظلوماً. فأرضىٰ كلَّ صنفٍ منهم، وقال لمن منع الصدقة: شدُّوا أيديكم علىٰ صدقاتكم، وصِلُوا بها أرحامكم وكان فيها نصارىٰ كثير قد اسلموا فلما اختلف الناس قالوا: والله لَدِيننا الذي خرجنا منه خيرٌ مِنْ دين هؤلاء لا ينهاهم دينهم عن سَفْك الدماء. فقال لهم الخريت:

ويحكم لا ينجّيكم من القتل إلاّ قتل هؤلاء القوم والصبر فإنّ حُكْمَهم فيمن أسلم ثم ارتدّ أنْ يُقْتَلَ ولا يقبلون منه توبة ولا عذراً. فخدعهم جميعهم.

وأتاه من كان من بني ناجية وغيرهم خلقٌ كثير. فلما انتهى معقل إليه نصب راية أمان وقال: «مَنْ أتاها من الناس فهو آمن إلا الخريت وأصحابه الذين حاربونا أولَ مرة». فتفرّق عن الخريت جُلّ مَنْ كان معه مِنْ غير قومه، وعبأ معقلُ أصحابه، وزحف نحو الخريت ومعه قومه مسلمهم ونصرانيهم ومانع الزكاة منهم فقال الخريت لمن معه: قاتِلوا عن حريمكم وأولادكم. فوالله لئن ظهروا عليكم ليقتلنكم وليسبنكم.

فقال له رجلٌ من قومه: هذا والله ما جَرَّتْه علينا يدُك ولسانك. فقال: سبق السيف العَذَل.

وسار معقل في الناس يحرّضهم ويقول: أيها الناس ما تريدون أفضل مما سبق لكم من الأجرِ العظيم؟ إنّ الله ساقكم إلىٰ قوم منعوا الصدقة، وارتدوا عن الاسلام، ونكثوا البيعة ظلماً فأشهد لمن قُتِل منكم بالجنة، ومَنْ بقي منكم فإنّ الله مقرٌّ عينه بالفتح.

ثم حمل معقل وجميع مَنْ معه فقاتَلوا قتالاً شديداً، وصبروا له، ثم إن النعمان بن صهبان الراسبي بصر بالخريت فحمل عليه فطعنه فصُرِع عن دابته ثم اختلفا ضربتين فقتله النعمان، وقتل معه في المعركة سبعون ومائة رجل وذهب الباقون يميناً وشمالاً، وسبىٰ معقل مَنْ أدرك مِنْ حريمهم وذرياتهم، وأخذ رجالاً كثيراً فأما مَنْ كان مسلماً فخلاّه وأخذ بيعته وترك له عياله، وأما مَنْ كان ارتدّ فعرض عليهم الإسلام فرجعوا فخلّىٰ سبيلهم وسبيل عيالهم إلاّ شيخاً كبيراً نصرانياً منهم يقال له «الرماحس» لم يُسلم فقتله، وجمع مَنْ منعَ الصدقةَ وأخذَ منهم صدقة عامين، وأما النصارى وعيالهم فاحتملهم مقبلاً بهم، وأقبل المسلمون معهم يشيعونهم فلما ودّعوهم بكىٰ الرجال والنساء بعضهم إلىٰ بعض حتىٰ رحمهم الناس، وكتب معقل إلىٰ علي بالفتح ثم أقبل بهم حتىٰ مرّ علىٰ مصقلة بن هبيرة الشيباني وهو عامل عليّ علىٰ «أردشيرخره» وهم خمسمائة إنسان فبكىٰ النساءُ والصبيان وصاح الرجالُ: يا أبا الفضل يا حامي الرجال ومأوى المعضب وفكاك العناة أمنن علينا واشترِنَا وأعتقنا.

فقال مصقلة: أقسمُ بالله لأتصدقنّ عليكم إنّ اللّهَ يجزي المتصدقين.

فبلغ قوله معقلاً فقال: واللّهِ لو أعلم أنه قالها توجعاً عليهم وإزراءً علينا لضربتُ عنقه ولو كان في ذلك تفاني تميم وبكر. ثم إنّ مصقلة اشتراهم مِنْ معقل بخمسمائة ألف فقال له معقل: عَجِّلْ المالَ إلىٰ أمير المؤمنين. فقال: أنا أبعثُ الآنَ ببعضه ثم كذلك حتىٰ لا يبقى منه شيء.

وأقبل معقل إلىٰ عليّ فأخبره بما كان منه فاستحسنه، وبلغ عليًّا أنّ مصقلة أعتق الأسرىٰ ولم يسألهم أنْ يُعِينُوه بشيءٍ فقال: ما أظن مصقلة إلّا قد تحمّل حمالة سترونه عن قريب منها مبلداً. وكتب إليه يطلب منه المَال أو يحضر عنده، فحضر عنده وحمل من المال مائتي ألف. قال ذهل بن الحارث: فاستدعاني ليلة فطعمنا ثم قال: إنّ أمير المؤمنين يسألني هذا المال ولا أقدرُ عليه. فقلتُ: واللّهِ لو شئتَ ما مَضَتْ جمعةٌ حتىٰ تحمله. فقال: واللّهِ ما كنتُ لأحمّلها قومي أما والله لو كان ابنُ هند ما طالبني بها، ولو كان ابن عفان لوهبها لي. ألم تره أطعم الأشعث بن قيس كل سنة مِن خراج أذربيجان مائة ألف. قال: فقلت: إنّ هذا لا يرىٰ ذلك الرأي ولا يترك منها شيئاً. فهرب مصقلة مِن ليلته فلحق بمعاوية، وبلغ عليًّا ذلك، فقال: «ما له نزحه الله فَعَلَ فِعْلَ السيد وفَرَّ فرار العبد، وخان خيانة الفاجر. أما إنه لو أقام فعجز ما زِدْنا علىٰ حبسه فإنْ وجدنا له شيئاً أخذناه وإلّا تركناه».

ثم سار عليّ إلى داره فهدمها وأجاز عِتق السبيّ وقال: اعتقهم مبتاعُهم، وصارت أثمانُهم ديناً علىٰ معتِقهم. وكان أخوه نعيم بن هبيرة شيعة لعليّ فكتب إليه مصقلة من الشام مع رجلٍ مِنْ نصارىٰ تغلب اسمه «حلوان» يقول له: (إنّ معاوية قد وعدك الإمارة والكرامة فأقبِل ساعة يلقاك رسولي. والسلام) فأخذه مالك بن كعب الأرحبي فسرحه إلىٰ علي فقطع يده فمات، وكتب نعيم إلىٰ مصقلة يقول:

لا تَـرْمِيَنَّ هَـدَاكَ الـلّهُ مُعْتَـرِضـاً ... بـالـظَّنِّ مِنْـكَ فما بـالي وحُلوانا
ذاك الحَرِيْصُ علىٰ ما نالَ مِنْ طَمَع ... وَهْـوَ البَعيدُ فـلا يُحْـزِنْـكَ إنْ خَـانـا
مـاذا أردتَ إلـىٰ إرْسَـالِـهِ سَفَـهـاً ... تَـرْجُو سِقَـاطَ امرِئٍ لم يُلْفَ وَسْنَـانَا

قـد كنتَ في مَنْظَرٍ عن ذا ومُسْتَمَعٍ ... تحْمِي العـراقَ وتُدْعَى خَيْـرَ شيبـانـا
حتىٰ تقحَّمْتَ أمـراً كنتَ تَكْـرَهُـهُ ... لِـلـرّاكبـيـن لـه سِـرًّا وإعـلانـا
عَـرَّضـتَـهُ لِـعَـلـيٍّ أنَّـه أسَـدٌ ... يمشي العِـرَضْنَـةَ مِنْ آسَـادٍ خَفَّـانـا
لو كنتَ أديتَ مال القَوْمِ(١) مُصْطَبِراً ... لِلحَقِّ أَحْيَيْتَ أحيـانَـا وَمَـوْتَـانـا
لكنْ لَحِقْتَ بـأَهْـلِ الشـأمِ مُلْتَمِسـاً ... فَضـلَ ابنِ هِنْدٍ وذاكَ الـرأيُ أشجانا
فاليومَ تَقْـرَعُ سِنَّ العجز(٢) مِنْ نَـدَمٍ ... مـاذا تقـولُ وَقَـدْ كـان الـذي كـانـا
أصبحتَ تُبغِضُـكَ الأحيَـاءُ قـاطبـةً ... لم يَـرْفَـعِ اللّهُ بـالبغضـاءِ إنسـانـا

فلما وقع الكتاب إليه علم أنه قد هلك، وأتاه التغلبيون فطلبوا منه دية صاحبهم فوداه لهم. وقال بعض الشعراء في بني ناجية:

سمـا لكمو بـالخيـلِ قَـودا عـوابسـا ... أخـو ثقـةٍ مـا يبـرحُ الـدهـر غـازيـا
فـصبّحـكُـمْ فـي رجـلـه وخـيـولـه ... بضـرب ترى منـه المـدجج هـاويـا
فـأصبحتم مِنْ بَعْـدِ كبـر ونخـوة ... عبيـدَ العصـا لا تمنعـون الـذراريـا

وقال مصقلة بن هبيرة:

لعمـري لئن عـاب أهـلُ العـراقِ ... عـلىٰ انـتـعـاش بـنـي نـاجـيـه
لأعـظـم مِـنْ عـتـقـهـم رقـهـم ... وكـفـىٰ بـعـتـقـهـم مـالـيـه
وزايـدت فـيـهـم لإطـلاقـهـم ... وغـالـيـت إنّ الـعـلا غـالـيـه

ذكر أمر الخوارج بعد النهروان

لما قتل أهل النهروان خرج أشرس بن عوف الشيباني علىٰ عليّ بالدسكرة في مائتين ثم سار إلىٰ الأنبار فوجّه إليه عليّ الأبرش بن حسان في ثلاثمائة فواقعه فقتل أشرس في ربيع الآخرة سنة ثمان وثلاثين، ثم خرج هلال بن علفة من تيم الرباب ومعه أخوه مجالد فأتى ماسبذان فوجّه إليه عليّ معقل بن قيس الرياحي فقتله وقتل أصحابه

---

(١) في الطبري: ما للقوم.

(٢) الطبري: سن الغُرْم.

وهم أكثر [من] مائتين وكان قتلهم في جمادىٰ الأولىٰ سنة ثمان وثلاثين، ثم خرج الأشهب بن بشر ـ وقيل: الأشعث ـ وهو من بجيلة في مائة وثمانين رجلاً فأتىٰ المعركة التي أصيب فيها هلال وأصحابه فصلىٰ عليهم ودفن مَنْ قدر عليه منهم فوجّه إليهم عليّ جارية بن قدامة السعديّ ـ وقيل: حجر بن عديّ ـ فأقبل إليهم الأشهب فاقتتلا بجرجرايا من أرض «جوخى» فقتل الأشهب وأصحابه في جمادىٰ الآخرة سنة ثمان وثلاثين، ثم خرج سعيد بن قُفْل التيمي من تَيّم الله بن ثعلبة في رجب بالبندنيجين ومعه مائتا رجل فأتىٰ درزنجان[1] وهي من المدائن على فرسخين فخرج إليهم سعد بن مسعود فقتلهم في رجب سنة ثمان وثلاثين، ثم خرج أبو مريم السعديّ التميمي فأتىٰ شهرزور وأكثر مَنْ معه مِن الموالي ـ وقيل: لم يكن معه من العرب غير ستة نفر هو أحدهم ـ واجتمع معه مائتا رجل ـ وقيل: اربعمائة ـ وعاد حتىٰ نزل علىٰ خمسة فراسخ من الكوفة فأرسل إليه علي يدعوه إلىٰ بيعته ودخول الكوفة فلم يفعل وقال: ليس بيننا غير الحرب. فبعث إليه عليّ شريح بن هانىء في سبعمائة فحمل الخوارج علىٰ شريح وأصحابه فانكشفوا وبقي شريح في مائتين فانحاز إلىٰ قرية فتراجع إليه بعض أصحابه ودخل الباقون الكوفة فخرج عليّ بنفسه وقدم بين يديه جارية بن قدامة السعديّ فدعاهم جارية إلى طاعة علي وحذرهم القتل فلم يجيبوا ولحقهم علي أيضاً فدعاهم فأبوا عليه وعلى أصحابه فقتلهم أصحابُ عليّ ولم يسلم منهم غير خمسين رجلاً استأمنوا فأمّنهم، وكان في الخوارج أربعون رجلاً جرحىٰ فأمر عليّ بإدخالهم الكوفة ومداواتهم حتىٰ بدأوا وكان قَتْلهم في شهر رمضان سنة ثمان وثلاثين وكانوا مِنْ أشجع مَنْ قاتل من الخوارج ولجرامتهم قاربوا الكوفة.

ذكر عدة حوادث

وحج بالناس في هذه السنة قثم بن العباس مِنْ قِبَل عليّ وكان عامله علىٰ مكة.

وكان علىٰ اليمن عبيد الله بن عباس، وعلىٰ البصرة عبدالله بن عبّاس، وعلىٰ

---

(١) كذا في المطبوعة والذي في ياقوت بياء مثناة تحتية قبل الجيم. وهي: قرية كبيرة تحت بغداد على دجلة من الجانب الغربي وهي إحدى المدن السبعة التي كانت للأكاسرة.

خراسان خليد بن قرة اليربوعي ـ وقيل: كان ابن أبزى ـ وأما الشام ومصر فكان بهما معاوية. وعُمّاله.

وفي هذه السنة مات صُهَيْب بن سنان في قَوْلِ بعضهم وكان عمره سبعين سنة ودُفِنَ بالبقيع [1].

---

(١) وفيها توفي : سهل بن حنيف ، وصفوان بن بيضاء ، ومحمد بن أبي بكر الصديق ، وأسماء بنت عميس بن معبد .

ثم دخلت سنة تسع وثلاثين

ذكر سرايا أهل الشام إلى بلاد أمير المؤمنين عليه السلام

وفي هذه السنة فرّق معاوية جيوشه في العراق في أطراف عليّ، فوجّه النعمان بن بشير في ألف رجل إلى «عين التمر» وفيها مالك بن كعب مسلحة لعليّ في ألف رجل وكان مالك قد أذِن لأصحابه فأتوا الكوفة ولم يبق معه إلاّ مائة رجل، فلما سمع بالنعمان كتب إلىٰ أمير المؤمنين يخبره ويستمدّه فخطب عليّ بالناس وأمرهم بالخروج إليه فتثاقلوا وواقع مالك النعمان وجعل جدار القرية في ظهور أصحابه وكتب مالك إلىٰ مخنف بن سليم يستعينه وهو قريب منه، واقتتل مالك، والنعمان أشدّ قتال فوجّه مخنف ابنه عبد الرحمن في خمسين رجلاً فانتهوا إلىٰ مالك وقد كسروا جفون سيوفهم واستقتلوا فلما رآهم أهلُ الشام انهزموا عند المساء وظنوا أنّ لهم مدداً، وتبعهم مالك فقتلَ منهم ثلاثة نفر.

ولما تثاقل أهلُ الكوفة عن الخروج إلىٰ مالك صعدَ عليٌّ المنبر فخطبهم ثم قال: «يا أهل الكوفة كلما سمعتم بجَمْعٍ من أهلِ الشام أظلّكم انجحر[1] كلُّ امرىءٍ منكم في بيته وأغلق عليه بابه انجحار الضب في جحره والضبع في وجارها المغرور من غررتموه ومَنْ فاز بكم فاز بالسهم الأخيب، لا أحرار عند النداء، ولا إخوان عند النجاء إنّا لله وإنّا إليه راجعون. ماذا مُنِيتُ به منكم عُمْيٌ لا يبصرون، وبُكمٌ لا ينطقون، وصُمٌّ لا يسمعون إنّا لله وإنا إليه راجعون».

ووجه معاوية في هذه السنة أيضاً سفيان بن عوف في ستة آلاف رجل وأمره أنْ

---

(١) في الأصل: الجحر بألف ولام وجيم بعدها حاء مهملة وراء والصحيح (انجحر بألف فنون فجيم) - (م).

يأتيَ «هِيْت»[١] فيقطعها، ثم يأتيَ الأنبار والمدائن فيوقع بأهلها فأتىٰ «هيت» فلم يجد بها أحداً، ثم أتىٰ الأنبار وفيها مسلحة لعليّ تكون خمسمائة رجل وقد تفرقوا ولم يبق منهم إلا مائتا رجل[٢] وكان سبب تفرقهم أنه كان عليهم كميل بن زياد فبلغه أنّ قوماً بقرقيسيا يريدون الغارة علىٰ هيت فسار إليهم بغير أمر علي فـأتىٰ أصحابُ سفيـان ـ وكميل غائب عنها ـ فأغضب ذلك علياً علىٰ كميل فكتب إليه يُنْكِرُ ذلك عليه، وطمع سفيان في أصحابِ عليّ لقلتهم فقاتلهم فصبر أصحابُ عليّ ثم قُتل صـاحبهم وهو أشرس بن حسان البكري وثلاثون رجلاً واحتملوا ما في الأنبار من أموال أهلها ورجعوا إلىٰ معاوية. وبلغ الخبر عليًّا فأرسل في طلبهم فلم يدرَكوا.

وفيها أيضاً وجّه معاوية عبدالله بن مسعدة بن حكمة بن مالك بن بدر الفزاريّ في ألف وسبعمائة رجل إلى «تيماء»[٣] وأمره أنْ يصدق مَنْ مرّ به من أهل البوادي، ويقتل مَنْ امتنع [مِنْ عطائه صدقة ماله]. ففعل ذلك وبلغ مكة والمدينة وفعل ذلك، واجتمع إليه بشرٌ كثير مِنْ قومه، وبلغ ذلك عليًّا فأرسل المسيب بن نجبة الفزاري في ألفي رجل فلحِق عبدالله بتيماء فاقتتلوا حتى زالت[٤] الشمس قتالاً شديداً، وحمل المسيب علىٰ ابن مسعدة فضربه ثلاث ضربات لا يريد قتله ويقول له: النجاء النجاء. فدخل ابنُ مسعدة وجماعةٌ معه الحصن وهرب الباقون نحو الشام وانتهب الأعرابُ إبل الصدقة التي كانت مع ابن مسعدة وحصره ومَنْ معه ثلاثة أيام ثم ألقىٰ الحطب في الباب وحرقه فلما رأوا الهلاك أشرفوا عليه وقالوا: «يا مسيب قومك» فرّق لهم وأمر بالنار فأطفِئت وقال لأصحابه: قد جاءتني عيوني فأخبَروني أنّ جنداً قد أتاكم من الشـام. فقال لـه عبد الرحمن بن شبيب: سَرِّحْنِي في طلبهم. فأبىٰ ذلك عليه. فقال: غششتَ أمير المؤمنين وداهنتَ في أمرهم.

وفيها أيضاً وجّه معاوية الضحاك بن قيس وأمره أنْ يمر بأسفل «واقصة»[٥] ويغير

---

(١) هِيْت : بلدة على الفرات فوق الأنبار .

(٢) الطبري : إلا مائة رجل .

(٣) تَيْمَاء : بلدة في أطراف الشام .

(٤) الطبري: فاقتتلوا ذلك اليوم حتى زالت الشمس .

(٥) واقصة : موضع بين الفرعاء وعقبة الشيطان وماء لبني كليب .

علىٰ كل مَنْ مَرّ به ممن هو في طاعة عليّ مِنْ الأعراب، وأرسل ثلاثة آلاف رجل معه فسار الناسُ وأخذ الأموال[١] ومضىٰ إلىٰ الثعلبية وقتل وأغار علىٰ مسلحة عليّ وانتهى إلىٰ «القُطْقُطَانَة»[٢] فلما بلغ ذلك علياً أرسل إليه حجر بن عدي في أربعة آلاف وأعطاهم خمسين درهماً خمسين درهماً فلحِق الضحاك بتَدْمُر فقتل منهم تسعة عشر رجلاً وقتل مِن أصحابه رجلان وحجز بينهما الليل فهرب الضحاك وأصحابه ورجع حجر ومَنْ معه.

وفي هذه السنة سار معاوية بنفسه حتىٰ شارف دجلة ثم نكص راجعاً.

واختلف فيمن حج هذه السنة فقيل: حجّ بالناس عبيدالله بن عباس مِنْ قِبَل علي، وقيل: بل حج عبدالله أخوه وذلك باطل فإنّ عبدالله بن عباس لم يحج في خلافة علي، وإنما كان هذه السنة علىٰ الحج عبيدالله بن عباس، وبعث معاوية يزيد بن شجرة الرهاويّ فاختلف عبيدالله ويزيد بن شجرة واتفقا علىٰ أنْ يحجّ بالناس شيبة بن عثمان، وقيل: إنّ الذي حجّ مِنْ جانب عليّ قثم بن العباس وكان عمال عليّ علىٰ البلاد مَنْ تقدم ذكرهم.

ذكر مَسِيْر يزيد بن شجرة إلىٰ مكة

وفي هذه السنة دعا معاوية يزيد بن شجرة الرَّهَاوِيّ مِنْ أصحابه فقال له: إنّي أريدُ أنْ أوجِّهك إلىٰ مكة لتقيم للناس الحج وتأخذ لي البيعة بمكة وتنفي عنها عامل عليّ. فأجابه إلىٰ ذلك، وسار إلىٰ مكة في ثلاثة آلاف فارس وبها قثم بن العباس عامل عليّ فلما سمع به قثم خطبَ أهلَ مكة وأعلمهم بمسير الشاميين ودعاهم إلىٰ حربهم فلم يجيبوه بشيء، وأجابه شيبة بن عثمان العبدري بالسمع والطاعة فعزم قثم علىٰ مفارقة مكة واللحاق ببعض شعابها ومكاتبة أمير المؤمنين بالخبر فإنْ أمدّه بالجيوش قاتلَ الشاميين، فنهاه أبو سعيد الخدريّ عن مفارقة مكة وقال له: أقِمْ فإنْ رأيتَ منهم القتال وبك قوة فاعمل برأيك وإلاّ فالمسير عنها أمامك. فأقام، وقدِم الشاميون ولم يعرضوا لقتال أحد، وأرسل قثم إلىٰ أمير المؤمنين يخبره فسيّر جيشاً فيهم الريان بن ضمرة بن

---

(١) الطبري: فسار وأخذ أموال الناس ـ وهي أظهر وأوضح.

(٢) القُطْقُطانة: موضع قرب الكوفة من جهة البرية بالطفّ.

هوذة بن عليّ الحنفيّ، وأبو الطفيل أول ذي الحجة وكان قدوم ابن شجرة قبل التروية بيومين فنادىٰ في الناس أنتم آمنون إلّا مَنْ قاتلنا ونازعنا، واستدعىٰ أبا سعيد الخدري وقال له: إنّي [لا](١) أريدُ الإلحادَ في الحرم ولو شئتُ لفعلتُ لما فيه أميركم مِن الضعف فقل له: يعتزلْ الصلاةَ بالناس وأعتزلها أنا ويختار الناسُ رجلاً يصلي بهم. فقال أبو سعيد لقثم ذلك فاعتزل الصلاة واختارَ الناسُ شيبة بن عثمان فصلىٰ بهم وحج بهم، فلما قضىٰ الناسُ حجهم رجع يزيد إلى الشام،وأقبل خيلُ عليّ فأخبروا بعَوْد أهل الشام فتبعوهم وعليهم معقل بن قيس فأدركوهم وقد رحلوا عن وادي القرى فظفروا بنفر منهم فأخذوهم أسارى، وأخذوا ما معهم، ورجعوا بهم إلىٰ أمير المؤمنين ففادىٰ بهم أسارىٰ كانت له عند معاوية.

(الرَّهَاوِيّ) منسوب إلى الرها قبيلة من العرب. وقد ضبطه عبد الغني بن سعيد بفتح الراء قبيلة مشهورة، وأما المدينة فبضم الراء.

ذكر غارة أهل الشام علىٰ أهل الجزيرة

وفيها سيّر معاوية عبد الرحمن بن قَبَاث بن أَشْيم إلىٰ بلاد الجزيرة وفيها شبيب بن عامر جد الكرمانيّ الذي كان بخراسان ، وكان شبيب بنصيبين فكتب إلىٰ كميل بن زياد وهو بهيت يعلمه خبرهم فسار كميل إليه نجدة له في ستمائة فارس فأدركوا عبد الرحمن ومعه معن بن يزيد السلمي فقاتلهما كميل وهزمهما فغلب علىٰ عسكرهما وأكثر القتل في أهل الشام وأمر أنْ لا يتبع مدبر ولا يجهز علىٰ جريح، وقتل مِنْ أصحاب كميل رجلان، وكتب إلىٰ عليّ بالفتح فجزاه خيراً، وأجابه جواباً حسناً، ورضي عنه وكان ساخطاً عليه لما تقدم ذكره .

وأقبل شبيب بن عامر مِنْ نصيبين فرأىٰ كميلاً قد أوقع بالقوم فهنأه بالظفر واتبع الشاميين فلم يلحقهم، فعبر الفرات وبثَّ خيله فأغارتْ علىٰ أهل الشام حتىٰ بلغ «بعلبك» فوجّه معاوية إليه حبيب بن مسلمة فلم يدركه ورجع شبيب فأغار علىٰ نواحي الرقة فلم يدع للعثمانية بها ماشية إلّا استاقها، ولا خيلاً ولا سلاحاً إلّا أخذه وعاد إلىٰ نصيبين وكتب إلىٰ عليّ فكتب إليه عليّ ينهاه عن أَخْذ أموال الناس إلّا الخيل والسلاح

---

(١) زيادة من عندنا يقتضيها السياق .

الذي يقاتِلُون به وقال: «رحم الله شبيباً لقد أبعدَ الغارة وعَجّل الانتصار».

ذكر غارة الحارث بن نمر التنوخي

ولمّا قدِم يزيد بن شجرة علىٰ معاوية وجّه الحارث بن نمر التنوخيّ إلىٰ الجزيرة ليأتيه بمن كان في طاعة عليّ فأخذ مِنْ أهل دارا سبعة نفر مِنْ بني تغلب، وكان جماعة من بني تغلب قد فارقوا عليًّا إلىٰ معاوية فسألوه في إطلاق أصحابهم فلم يفعل فاعتزلوه أيضاً، وكتب معاوية إلىٰ عليّ ليفاديه بمن أسر معقل بن قيس مِنْ أصحاب يزيد بن شجرة فسيّرهم عليّ إلىٰ معاوية وأطلق معاوية هؤلاء وبعث عليّ رجلاً من خثعم يقال له عبد الرحمن إلىٰ ناحية الموصل ليسكّن الناس فلقيه أولئك التغلبيون الذين اعتزلوا معاوية وعليهم قريع بن الحارث التغلبي فتشاتموا ثم اقتتلوا فقتلوه فأراد عليّ أنْ يوجه إليهم جيشاً فكلمته ربيعة وقالوا: هم معتزلون لعدوك داخلون في طاعتك وإنّما قتلوه خطأً. فأمسك عنهم.

ذكر أمر ابن العَشَبَة

بعث معاوية زهير بن مكحول العامريّ من عامر الأجدار إلىٰ السماوة وأمره أنْ يأخذ صدقات الناس، وبلغ ذلك عليًّا فبعث ثلاثة نفر: جعفر بن عبدالله الأشجعي، وعروة بن العَشَبَة، والجلاس بن عمير الكلبيين ليصدقوا مَنْ في طاعته مِنْ كلب وبكر بن وائل فوافوا زهيراً فاقتتلوا فانهزم أصحاب عليّ وقُتل جعفر بن عبدالله ولحق ابن العَشَبَة بعليّ فعنّفه وعَلاه بالدرة فغضِبَ ولحق بمعاوية، وكان زهير قد حمل ابن العَشَبَة علىٰ فرس فلذلك اتّهمه، وأما الجلاس فإنه مرّ براعٍ فأخذ جبّته وأعطاه جبة خز فأدركته الخيل فقالوا: أين أخذوا هؤلاء الترابيون فأشار إليهم أخذوا هاهنا ثم أقبل إلى الكوفة.

ذكر أمر مسلم بن عقبة بدُوْمَة الجَنْدَل

وبعث معاوية مسلم بن عقبة المريّ إلىٰ دُومة الجَنْدَل وكان أهلها قد امتنعوا مِنْ بَيْعَة عليّ ومعاوية جميعاً فدعاهم إلىٰ طاعة معاوية وبيعته فامتنعوا، وبلغ ذلك عليًّا فسيّر مالك بن كعب الهمداني في جَمْعٍ إلىٰ دُومَة الجندل فلم يشعر مسلم إلّا وقد وافاه مالك فاقتتلوا يوماً ثم انصرف مسلم منهزماً وأقام مالك أياماً يدعو أهل دومة الجندل إلىٰ البيعة

لعليّ فلم يفعلوا فقالوا: لا نبايع حتىٰ يجتمعَ الناسُ علىٰ إمام فآنصرفَ وتركهم.

وفيها توجه الحارث بن مرة العبديّ إلىٰ بلاد السند غازياً متطوعاً بأمر أمير المؤمنين عليّ فغنِم وأصاب غنائم وسبياً كثيراً وقسّم في يومٍ واحد ألف رأس وبقي غازياً إلىٰ أنْ قُتِلَ بأرض القيقان هو ومَنْ معه إلاّ قليلاً سنة اثنتين وأربعين أيام معاوية.

ذكر ولاية زياد بن أبيه[1] بلاد فارس

وفي هذه السنة ولى عليّ زياداً كِرْمَان، وفارس، وسبب ذلك أنّه لما قُتل ابن الحضرمي واختلف الناسُ علىٰ عليّ طمع أهلُ فارس وكِرمان في كَسْر الخراج فطمع أهلُ كلِّ ناحية وأخرجوا عاملهم، وأخرج أهلُ فارس سهل بن حنيف فاستشار عليّ الناسَ فقال له جارية بن قدامة: ألا أدلك يا أميرَ المؤمنين علىٰ رجلٍ صُلْب الرأي، عالم بالسياسة، كاف لما ولي؟ قال: من هو؟ قال: زياد. فأمر عليّ ابن عباس أنْ يولي زياداً فسيّره إليها في جمعٍ كثير فوطىء بهم أهل فارس وكانت قد اضطربتْ فلم يزل يبعثْ إلى رؤوسهم يَعِدُ مَنْ ينصره ويُمَنِّيه ويخوّف مَنْ امتنع عليه وضَرَبَ بعضهم ببعض فدلّ بعضُهم علىٰ عورة بعض، وهربت طائفة وأقامتْ طائفةٌ فقتَلَ بعضُهم بعضاً، وصَفَتْ له فارس، ولم يلقَ منهم جمعاً ولا حرباً، وفعل مثل ذلك بكِرْمان ثم رجع إلىٰ فارس وسكّن الناس واستقامتْ له، ونزل إصطخر وحصّن قلعة تسمىٰ «قلعة زياد» قريب إصطخر ثم تحصّن فيها بعد ذلك منصور اليشكري فهي تسمى «قلعة منصور». وقيل: ابن عباس وأشار بولايته وقد تقدم ذكره.

وفيها مات أبو مسعود الأنصاري البدري[2]، وقيل: في أول خلافة معاوية وقيل غير ذلك ولم يشهد بدراً. وإنما قيل لا بدريّ لأنّه نزل ماءَ بدر، وانقرض عقبه.

---

(١) في الأصل: ابن امية ـ وهو خطأ والصحيح ابن أبيه (م).

(٢) هو عقبة بن عمرو بن ثعلبة بن أُسَيْدة الأنصاري البدريّ شهد العقبة وكان أحدث من أدركها سِنّاً، ولم يشهد بدراً توفي سنة ٤١ أو ٤٢، وقيل بعد الستين.

ثم دخلت سنة أربعين

ذكر سرية بسر بن أبي أرطاة إلى الحجاز واليمن

في هذه السنة بعث معاوية بُسْر بن أبي أرطاة ـ وهو من عامر بن لؤي ـ في ثلاثة آلاف فسار حتىٰ قدم المدينة وبها أبو أيوب الأنصاري عامل عليّ عليها فهرب أبو أيوب فأتىٰ عليًّا بالكوفة، ودخل بسر المدينة ولم يقاتِله أحدٌ فصعد منبرها فنادى عليه: «يا دينار. يا نجار. يا زريق» ـ وهذه بطون من الأنصار ـ شيخي شيخي عهدته هاهنا بالأمس فأين هو؟ ـ يعني عثمان ـ ثم قال: والله لولا ما عهد إليّ معاوية ما تركتُ بها محتلماً [إلاّ قتلته].

فأرسل إلىٰ بني سلمة فقال: والله مالكم عندي أمان حتىٰ تأتوني بجابر بن عبدالله فانطلق جابر إلىٰ أم سلمة زوج النبي ﷺ فقال لها: ماذا ترين؟ إنّ هذه بيعة ضلالة وقد خشيتُ أنْ أُقتل.

قالت: أرىٰ أنْ تبايع فإنّي قد أمرتُ ابني عمر، وختني ابن زمعة أنْ يبايعا وكانت ابنتها زينب تحت ابن زمعة فأتاه جابر فبايعه وهدم بالمدينة دوراً ثم سار إلىٰ مكة فخاف أبو موسىٰ الأشعريّ أنْ يقتله فهرب منه[1] وأكره الناس علىٰ البيعة، ثم سار إلىٰ اليمن وكان عليها عبيدالله بن عباس عاملاً لعلي فهرب منه إلىٰ عليّ بالكوفة، واستخلف عليّ علىٰ اليمن عبدالله بن عبد المدان الحارثي فأتاه بسر فقتله وقتل ابنه وأخذ ابنين لعبيدالله بن عباس صغيرين هما عبد الرحمن وقثم فقتلهما وكانا عند رجل من كنانة بالبادية فلما أراد قتلهما قال له الكناني: لم تقتل هذين ولا ذنب لهما؟ فإنْ كنتَ قاتلهما فاقتلني معهما؟ فقتله وقتلهما بعده، وقيل: إنّ الكناني أخذ سيفه وقاتل عن الغلامين وهو يقول:

---

(١) الذي في الطبري أنه خاف أن يقتله بسر فقال له: ما كنت لأفعل لصاحب رسول الله ذلك وأمنه.

اللَيثُ مَنْ يَمْنَعُ حَافَاتِ الدار ‏ ولا يـزالُ مصلتاً دون الجـار

وقاتل حتىٰ قُتِلَ، وأخذ الغلامين فدفنهما فخرج نسوة من بني كنانة فقالت امرأة منهن: يا هذا قتلتَ الرجال فعلام تقتل هـذين؟ والله ما كـانوا يُقْتَلُون في الجـاهلية والإسلام. والله يا بن أبي ارطاة إنّ سلطاناً لا يقوم إلا بقتل الصبي الصغير، والشيخ الكبير، ونزع الرحمة، وعقوق الأرحام لَسُلطان سوء.

وقتل بسر في مسيره ذلك جماعة من شيعـة عليّ باليمن[1]، وبلغ عليّـا الخبر فأرسل جارية بن قدامة السعديّ في ألفين، ووهب بن مسعود في ألفين فسار جارية حتىٰ أتىٰ نجران فقَتَلَ بها ناساً مِنْ شيعة عثمان، وهرب بسر وأصحابه منه، واتبعه جارية حتىٰ أتىٰ مكة فقال: بايعوا أميرَ المؤمنين فقالوا: قد هلك فلمن نبايع؟ قال: لمن بايع له أصحابُ عليّ فبايعوا خوفاً منه، ثم سار حتىٰ أتى المدينة وأبو هريرة يصلّي بـالناس فهرب منه فقال جارية: لو وجدتُ أبا سِنَّوَر لقتلته. ثم قـال لأهل المـدينة: بـايعوا الحسن بن عليّ فبايعوه وأقام يومه، ثم عاد إلىٰ الكوفة ورجع أبو هريرة يصلّي بهم، وكانت أم ابني عبيدالله أم الحكم جورية بنت خويلد بن قارظ ـ وقيـل: عائشـة بنت عبدالله بن عبد المدان ـ فلما قتل ولداها ولهت عليهما فكانت لا تعقل ولا تصفي ولا تزال تنشدهما في المواسم فتقول:

يَـامَـنْ أَحَسَّ بـابنيَّ الـلَذيْن هـمـا ‏ كـالـدُّرَّتيْن تشـظي عَنْهُمَا الصـدف

يَـامَـنْ أحسّ بـابنيَّ الـلَذيْن هـمـا ‏ مُـخُّ العـظامِ فمخي اليـومَ مـزدهف

يـامَنْ أحسّ بـابنيّ الـلذَين هـمـا ‏ قلبي وسمعي فقلبي اليـومَ مختَـطَف

مـن ذل والـهـة حـيـرىٰ مـدلـهـة ‏ عـلىٰ صبيين ذلاً إذ غـدا الـسلف

نبئت بسـراً ومـاصـدقت مـا زعـمـوا ‏ مِنْ إفكهم ومِن القـول الـذي اقتـرفـوا

أحني عـلى ودجي ابـني مـرهـفـة ‏ مـن الشـفـار كـذاك الإثم يـعتـرف

---

(١) قالا الحافظ ابن كثير في البداية:

ويقال أنّ بسراً قتل خلقاً من شيعة عليّ في مسيره هذا، وهذا الخبر مشهور عند أصحاب المغـازي والسير، وفي صحته عندي نظر. أهـ.

وهي أبيات مشهورة. فلما سمع أمير المؤمنين بقتلهما جزع جزعاً شديداً ودعا علىٰ بسر فقال: «اللهم آسلبه دِيْنَه وعَقْلَه». فأصابه ذلك، وفقـد عقله فكان يهـذي بالسيف ويطلبه فيؤتىٰ بسيفٍ من خشب ويجعل بين يديه زق منفوخ فلا يزال يضربه ولم يزل كذلك حتىٰ مات.

ولمّا استقرّ الأمرُ لمعاوية دخل عليه عبيدالله بن عباس وعنده بسر فقال لبسر: وددتُ أنّ الأرض انبتتني عندك حين قتلتَ ولديَّ فقال: هاك سيفي. فأهوىٰ عبيدالله ليتناوله فأخذه معاوية وقال لبسر: أخزاكَ اللَّهُ شيخاً قد خَرِفَت والله لو تمكّن منه لبدأ بي.

قال عبيد الله: أجل ثم ثَنَّيْتُ به. (سلِمة) بكسر اللام بطن من الأنصار. وقيل: إنّ مسير بسر إلىٰ الحجاز كان سنة اثنتين وأربعين فأقام بالمدينة شهراً يستعرضُ الناسَ لا يقال له عن أحدٍ إنه شرك في دم عثمان إلّا قتله.

وفيها جرت مهادنة بين عليّ ومعاوية بعد مكاتبـات طويلة علىٰ وضـع الحرب [بينهما] ويكون لعليّ العراق ولمعاوية الشام لا يدخل أحدهما بلدَ الآخر بغارة. (بُسْر) بضم الباء الموحدة والسين المهملة. (زريق) بالزاي والراء قبيلة من الأنصار أيضاً، و (جارية) بالجيم والراء.

ذكر فراق ابن عباس البصرة

في هذه السنة خرج عبدالله بن عباس مِن البصرة ولحق بمكة في قولِ أكثر أهل السِير، وقد أنكر ذلك بعضهم وقال: لم يزل عاملاً عليها لعلي حتىٰ قُتِل عليّ وشهد صلح الحسن مع معاوية ثم خرج إلىٰ مكة والأول أصحّ، وإنما كان الذي شهد صلح الحسن عبيد الله بن عباس.

وكان سبب خروجه أنه مرّ بأبي الأسود فقال: لو كنت من البهائم لكنتَ جملاً، ولو كنت راعياً لما بلغت المرعىٰ، فكتب أبو الأسود إلى عليّ: أما بعد فإن الله عز وجل جعلك والياً مؤتمناً وراعياً مستولياً، وقد بلوناك فوجدناك عظيم الأمانة ناصحاً للرعية توفر لهم فيئهم، وتكف نفسك عن دنياهم، ولا تأكل أموالهم، ولا ترتشي في أحكامهم وإنّ ابن عمك قد أكل ما تحتَ يديه بغير علمك ولم يسعني كتمانك رحمك الله فانظر فيما هناك واكتب إليّ برأيك فيما أحببت والسلام.

فكتب إليه عليّ: أما بعد فمثلك نصح الإمام والامة ووالى على الحق، وقد كتبتُ إلىٰ صاحبك فيما كتبتَ إليّ ولم أعلمه بكتابك فلا تدع إعلامي بما يكون بحضرتك مما النظر فيه صَلاح للأمة فإنك بذلك جدير وهو حقٌّ واجب عليك والسلام. وكتب إلىٰ ابن عباس في ذلك فكتب إليه ابن عباس أما بعد فإنّ الذي بلغك باطل، وإني لما تحت يديّ لَضَابط، وله حافظ فلا تصدق الظنين والسلام. فكتب إليه عليّ: أما بعد فأعلمني ما أخذتَ من الجزية ومِنْ أين أخذتَ وفيما وضعت؟ فكتب إليه ابن عباس: أما بعد فقد فهمتُ تعظيمك مرزاة ما بلغك إني رزئته مِن أهل هذه البلاد فابعث إلىٰ عملك مَنْ أحببتَ فإنّي ظاعنٌ عنه. والسلام.

واستدعى أخواله من بني هلال بن عامر فاجتمعت معه قيس كلها فحمل مالاً وقال: هذه أرزاقنا اجتمعت، فتبعه أهلُ البصرة فلحقوه بالطف يريدون أخذ المال فقالت قيس: والله لا يوصَل إليه وفينا عين تطرف.

فقال صبرة بن شيمان الحداني: يا معشر الأزد إنّ قيساً إخواننا، وجيراننا، وأعواننا علىٰ العدو، وإنّ الذي يصيبكم مِنْ هذا المال لقليل وهم لكم خير مِن المال. فأطاعوه فانصرفوا وانصرفتْ معهم بكر وعبد القيس وقاتلهم بنو تميم فنهاهم الأحنف فلم يسمعوا منه فاعتزلهم وحجز الناس بينهم، ومضىٰ ابن عباس إلىٰ مكة.

ذكر مقتل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام

وفي هذه السنة قُتِلَ عليّ في شهر رمضان[١] لسبع عشرة خلتْ منه ـ وقيل: لاحدى عشرة، وقيل: لثلاث عشرة بقيت منه ـ وقيل: في شهر ربيع الآخرة سنة أربعين. والأول أصح.

قال أنس بن مالك: مرض عليّ فدخلتُ عليه وعنده أبو بكر وعمر فجلستُ عنده فأتاه النبي ﷺ فنظر في وجهه فقال له أبو بكر وعمر: با نبي الله ما نراه إلّا ميتاً. فقال: لن يموت هذا الآن ولن يموت حتىٰ يُمْلأ غيظاً، ولن يموت إلّا مقتولاً[٢] وقيل من غير وجه إنّ عليًّا كان يقول: «ما يمنعُ أشقاكم أنْ يخضب هذه مِنْ هذه» ـ يعني لحيته من دم رأسه. وقال عثمان بن المغيرة: كان عليّ لما دخل رمضان يتعشىٰ ليلة عند الحسن، وليلة عند الحسين وليلة عند أبي جعفر لا يزيد علىٰ ثلاث لقم يقول: أحبُّ أن يأتيني أمرُ الله وأنا خميص، وإنّما هي ليلةٌ أو ليلتان». فلم تمض ليلة حتىٰ قُتل. وقال الحسن بن كثير عن أبيه قال: خرج عليّ من الفجر فأقبل إلاوَزّ يُصِحْنَ في وجهه فطردوهُنّ عنه فقال: «ذروهنّ فإنّهن نوائح». فضربه ابنُ ملجم في ليلته. وقا الحسن بن علي يوم قُتل عليّ: خرجتُ البارحة وأبي يصلي في مسجد داره فقال لي: يابني إنّي بِتُّ أوقظ أهلي

(١) الطبري (في شهر رمضان يوم الجمعة) .

(٢) كانت خطبة عليّ كرم الله وجهه قبل موته بجمعة يوم الجمعة : نُبِّئت أنّ بسراً طلع اليمن وإني والله لأحسب أن هؤلاء القوم سيظهرون عليكم وما يظهرون عليكم إلا بعصيانكم إمامكم وطاعتهم إمامهم ، وخيانتكم وأمانتهم ، وإفسادكم في أرضكم وإصلاحهم . قد بعثتُ فلاناً فخان وغدر ، وبعثت فلاناً فخان وغدر ، ويُبعث المال إلى معاوية لو ائتمنت أحدكم على قدح لأخذ علاقته . اللهم سَئِمتهم وسئموني ، وكرهتهم وكرهوني فارحهم مني وارحني منهم .
قال فما صلى الجمعة الآخرة حتى قُتل رضي الله عنه (م) .

لأنّها ليلة الجمعة صبيحة بدر فملكتني عيناي فنمتُ فسنحَ لي رسولُ الله ﷺ فقلتُ: يا رسولَ الله ماذا لقيتَ مِن أمّتك من الأود واللدد! ـ قال: والأود: العوج، واللدد: الخصومات. فقال لي: ادع عليهم. فقلت: اللهم أبدلني بهم مَنْ [هو] خير منهم وأبدلهم بي مَنْ هو شرّ مني.

فجاء ابن الثباج فآذنه بالصلاة فخرج وخرجتُ خلفه فضربه ابنُ مَلْجَم فقتله. وكان عليه السلام إذا رأىٰ ابن ملجم قال:

أُرِيْدُ حَيَاتَه وَيُرِيْدُ قَتْلِي عذيرك مِنْ خليلك مِنْ مراد

وكان سبب قتله أنَّ عبد الرحمن بن مَلْجَم المرادِيّ والبُرَك بن عبد الله التميمي الصريمي ـ وقيل: اسم البرك الحجاج ـ وعَمْرو بن بكر التميمي السعدي، وهم من الخوارج اجتمعوا فتذاكروا أمرَ الناس وعابوا عملَ ولاَتِهم، ثم ذَكروا أهلَ النهر فترحموا عليهم وقالوا: ما نصنَع بالبقاءِ بعدهم! فلو شَرَيَنا أنفسنا وقتلنا أئمَة الضلالة وآرحنا منهم البلاد!

فقال ابن مَلْجم: أنا أكفيكم علياً ـ وكان من أهل مصر ـ، وقال البرك بن عبدالله: أنا أكفيكم معاوية، وقال عمرو بن بكر: أنا أكفيكم عَمْرو بن العاص فتعاهدوا [وتواثقوا الله] أنْ لا ينكص أحدهم عن صاحبه الذي توجه إليه حتىٰ يقتله أو يموت دونه، وأخذوا سيوفهم فسمُّوهَا وآتَّعَدُوا لسبع عشرة [تخلو] مِنْ رمضان.

وقصد كلُّ رجلٍ منهم الجهةَ التي يريدُ فأتىٰ ابنُ ملجم الكوفة فلقي أصحابَه بالكوفة وكتمهم أمره، ورأىٰ يوماً أصحاباً له من تيم الرباب وكان عليّ قد قتل منهم يوم النهر عِدَّة فتذاكروا قتلىٰ النهر ولقَي معهم امرأة من تيم الرباب اسمها « قَطَام »[1] وقد قُتِلَ أبوها وأخوها يوم النهر وكانت فائقة الجمال فلما رآها أخذتْ قلبَه فخطبها فقالت: لا أتزوجك حتىٰ تشتفي لي فقال: وما تريدين؟ قالت: ثلاثة آلاف، وعبداً، وقَيْنَة[2]، وقتل عليّ. فقال: أمّا قَتْل عليّ فما أراك ذكرتيه وأنت تريدنني. قالت: بلىٰ آلتمس غرّته فإنْ أصبته شفيتَ نفسك ونفسي، ونفعك العيشُ معي، وإنْ قُتِلْتَ فما عند الله خيرٌ

(١) هي قَطَام بنت الشِّجْنَة.

(٢) القينة: الجارية المغنيّة.

من الدنيا وما فيها. قال: والله ما جاء بي [إلىٰ هذا المِصْر] إلا قَتْل عليّ فلك ما سألتِ. قالت: سأطلبَ لك مَنْ يشدّ ظهرك، ويساعدك. وبعثتْ إلىٰ رجلٍ مِن قومها اسمه «وردان» وكلمته فأجابها، وأتىٰ ابنُ ملجم رجلاً من اشجع اسمه « شبيب بن بجرة » فقال له: هل لك في شَرَفِ الدنيا والآخرة؟ قال: وماذا؟ قال: قَتْل عليّ. قال شبيب: ثكلتك أمُّك لقد جئتَ شيئاً إدّاً! كيف تقدر علىٰ قتله! قال: أكمن له في المسجد فإذا خرج إلىٰ صلاةِ الغداة شددنا عليه فقتلناه فإنْ نجونا فقد شفينا أنفسنا، وإنْ قُتِلنَا فما عندَ اللهِ خيرٌ مِن الدنيا وما فيها. قال: ويحك لو كان غير عليّ كان أهون. قد عُرِفَتْ سابقته، وفضله، وبلاءه في الإسلام، وما أجدني أنشرحُ لقتله.

قال: أما تعلمه قَتَلَ أهلَ النهر العباد الصالحين؟ قال: بلى. قال: فنقتله بمن قَتَلَ من أصحابنا. فأجابه.

فلما كان ليلة الجمعة وهي الليلة التي واعد ابن ملجم أصحابه علىٰ قتل عليّ وقتل معاوية وعَمْرو فأخذ سيفه ومعه شبيب، ووردان وجلسوا مقابل السُّدَّة [(١)] التي يخرج منها عليّ للصلاة، فلما خرج عليّ نادىٰ: « أيها الناس الصلاة الصلاة » فضربه شبيب بالسيف فوقع سيفه بعِضَادَة الباب [(٢)]، وضربه ابنُ ملجم علىٰ قرنه بالسيف وقال: الحكمُ للهِ لا لك يا عليّ ولا لاصحابك.

وهرب وردان فدخل منزله فأتاه رجلٌ مِنْ أهله فأخبره وردان بما كان فانصرف عنه، وجاء بسيفه فضرب به وردان حتى قتله، وهرب شبيب في الغلس، وصاح الناسُ فلحقه رجلٌ مِنْ حضرموت يقال له « عويمر » وفي يد شبيب السيف فأخذه وجلس عليه فلما رأىٰ الحضرمي الناسَ قد اقبلوا في طلبه وسيف شبيب في يده خشي علىٰ نفسه فتركه ونجا، وهرب شبيب في غمار الناس.

ولما ضرب ابن ملجم علياً قال: « لا يفوتنّكم الرجل ». فشدَّ الناسُ عليه فأخذوه وتأخر عليّ وقدم جعدة بن هبيرة: وهو ابن أخته أم هانىء يصلي بالناس الغداة، وقال علي: « أحضِرُوا الرجلَ عندي » فأدخل عليه فقال: أيْ عدوَّ الله ألم أُحْسِن إليك؟ قال:

(١) السُّدَّة هي كالظلة على الباب لتقي الباب من البصر.

(٢) العِضَادة ؛ عضادتا الباب : خشبتاه من جانبيه.

بلى. قال: فما حملك على هذا؟ قال: شحذته أربعين صباحاً وسألتُ الله أنْ يقتل به شرَّ خلقه.

فقال علي: « لا أراك إلاّ مقتولاً به، ولا أراك إلا مِن شر خلق الله ».

ثم قال: النفسُ بالنفس إنْ هَلَكْتُ فاقتلوه كما قتلني وإنْ بقيتُ رأيتُ فيه رأيي، يا بني عبد المطلب لا ألفينكم تخوضون دماء المسلمين تقولون: « قد قُتل أمير المؤمنين » ألا لا يُقتَلَنّ إلا قاتلي. انظر يا حسن إنْ أنا مِتُّ مِنْ ضربتي هذه فاضربه ضربةً بضربةٍ ولا تمثِّلَنَّ بالرجل فإني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: « إياكم والمُثْلة ولو بالكلب العقور ». هذا كله وابن ملجم مكتوف فقالت له أم كلثوم ابنة علي: أي عدو الله لا بأس على أبي، واللّهُ مخزيك.

قال: فعلىٰ مَنْ تبكين؟ والله إنّ سيفي اشتريته بألف وسممتُه بألف ولو كانت هذه الضربة بأهل مِصْر ما بقيَ منهم أحد.

ودخل جندب بن عبد الله علىٰ عليّ فقال: إنْ فقدناك ولا نفقدك فنبايع الحسن؟ قال: « ما آمركم ولا أنهاكم أنتم أبصر ». ثم دعا الحسن والحسين فقال لهما: أوصيكما بتقوىٰ الله، ولا تبغيا الدنيا وإنْ بغتكما، ولا تبكِيَا على شيءٍ زُوي عنكما وقُولا الحق، وآرحما اليتيم، وأعِيْنَا الضائع، واصنعا للآخرة[1] وكونا للظالم خصيماً، وللمظلوم ناصراً، واعملا بما في كتاب الله ولا تأخذكما في الله لومة لائم.

ثم نظر إلىٰ محمد بن الحنفية فقال: هل حفظتَ ما أوصيتَ به أخوَيْك؟ قال: نعم، قال: فإنّي أوصيك بمِثْلِهِ، وأوصيك بتوقير أخويك العظيم حقهما عليك، وتزين أمرهما ولا تقطع أمراً دونهما. ثم قال: أوصيكما به فإنّه شقيقكما وابن أبيكما وقد علمتما أنّ أباكما كان يحبُّه، وقال للحسن: أوصيك أيْ بُنَيّ بتقوىٰ الله، وإقام الصلاة لوقتها، وإيتاء الزكاة عند محلها، وحُسْن الوضوء فإنه لا صلاة إلاّ بطهور، وأوصيك بغفر الذنب، وكَظْم الغيظ، وصِلة الرحم، والحِلْم عن الجاهل والتفقه في الدين، والتثبت في الأمر، والتعاهد للقرآن، وحُسْن الجِوَار، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر،

---

(١) في الأصل: (واضحاً للأخرق) وهو تحريف ـ (م).

واجتنات الفواحش. ثم كتب وصيته[1] ولم ينطق إلّا بلا إله إلا الله حتى مات رضي الله عنه وأرضاه، وغَسّله الحسن، والحسين، وعبد الله بن جعفر، وكُفِّن في ثلاثة أثواب ليس فيها قميص، وكبّر عليه الحسن سبع تكبيرات[2] فلما قُبض بعث الحسن إلىٰ ابن ملجم فأحضره فقال للحسن: هل لك في خصلة إنّي والله قد أعطيْتُ الله عهداً أنْ لا أعاهد عهداً إلّا وفيتُ به وإني عاهدتُ الله عند الحطيم أنْ أقتل علياً، ومعاوية أو أموت دونهما فإنْ شئتَ خليتَ بيني وبينه فلك الله عليّ إنْ لم أقتله ثم بقيتُ آتيك حتىٰ أضع يدي في يدك. فقال له الحسن: لا والله حتىٰ تعاين النار ثم قدّمه فقَتَله، وأخذه الناس فادرجوه في بواريّ[3] وأحرقوه بالنار. قال عَمْرو بن الأصم: قلتُ للحسن بن علي: إنّ هذه الشيعة تزعم أنّ علياً مبعوثٌ قبل القيامة فقال: «كذبَ والله هؤلاءِ الشيعة. لو علمنا أنه مبعوث قبل القيامة ما زوَّجنا نساءه ولا قسّمنا ماله». أما قوله: «هذه الشيعة» فلا شك أنه يعني طائفة منها فإنّ كل شيعة لا تقول هذا إنّما تقوله طائفةٌ يسيرةٌ منهم، ومن مشهوري هذه الطائفة جابر بن يزيد الجعفي الكوفي وقد انقرض القائلون بهذه المقالة فيما نعلمه.

(بَجرة) بفتح الباء والجيم (والبُرَك) بضم الباء الموحدة وفتح الراء وآخره كاف.

وأما البرك بن عبد الله فإنّه قعد لمعاوية في تلك الليلة التي ضُرب فيها عليّ فلما خرج معاوية ليصلي الغداة شدَّ عليه بالسيف فوقع السيفُ في أليته فأُخذَ فقال: إنّ عندي خبراً أسِرُّكَ به فإنْ أخبرتُك فنافعي ذلك؟ قال: نعم. قال: إنّ أخاً لي قد قتل عليًّا هذه الليلة. قال: فلعله لم يقدر علىٰ ذلك. قال: بلىٰ علياً ليس معه أحدٌ يحرسه فأمر به معاوية فقُتل، وبعث معاوية إلىٰ الساعديّ وكان طبيباً فلما نظر إليه قال: آخترْ إمَّا أنْ أحمي حديدة فأضعها موضع السيف وإمّا أنْ أسقيك شربةً تقطعُ منك الولد وتبرأ منها فإنَّ ضربتَك مسمومة. فقال معاوية : أمّا النار فلا صَبْرَ لي عليها وأما الولد فإنّ في يزيد، وعبد الله ما تقرّ به عيني فسقاه شربةً فبرىء ولم يولد له بعدها، وأمر معاوية عند ذلك

---

(١) أنظر نَصّ الوصية في الطبريّ ٥/١٤٧ : ١٤٨ .

(٢) الطبري ٥/١٤٨ : تسع تكبيرات .

(٣) البواريّ : جمع باريّة ـ الحصير المنسوج .

بالمقصورات، وحرس الليل، وقيام الشُّرط علىٰ رأسِه إذا سجد وهو أوَّل مَنْ عملها في الاسلام.

وقيل: إنَّ معاوية لم يَقْتُل البُرَكَ وإنّما أمر فقُطعتْ يده ورجلُه وبقيَ إلىٰ أنْ ولى زياد البصرة، وكان البُرَكَ قد صار إليها ووُلد له فقال له زياد: يولدُ لك وتركتَ أميرَ المؤمنين لا يولد له! فقتله وصلبه . وأما عمرو بن بكر فإنه جلس لعَمْرو بن العاص تلك الليلة فلم يخرج وكان اشتكىٰ بطنه فأمر خارجة بن أبي حبيبة وكان صاحب شُرْطتِهِ وهو من بني عامر بن لؤيّ فخرج ليصلي بالنّاس فشدّ عليه وهو يرىٰ أنه عمْرو بن العاص فضربه فقتله فأخذه الناسُ إلىٰ عَمْرو فسلّموا عليه بالإمرة فقال: من هذا قالوا: عَمرو. قال: فمن قتلتُ؟ قالوا: خارجة قال: أما والله يا فاسق ما ظننته غيرك. فقال عمرو: أردتني وأرادَ اللّهُ خارجة فقدّمه عمرو فقتله قال: ولما بلغ عائشة قَتْل عليّ قالت:

فـألقتْ عَصَاهاواستقرَّ بهـا النَّـوىٰ ... كما قَرَّ عيناً بالإيـابِ المُسَافِـرُ(١)

ثم قالتْ: مَنْ قتله؟ فقيل: رجلٌ مِنْ مراد. فقالت:

فَـإنْ يَـكُ نـائيـاً فلقـد نَـعَـاهُ ... نَـعِيٌ(٢) لـيس في فـيـهِ التُّـرابُ

فقالت زينب بنت أبي سلمة : اتقولين هذا لعلي؟ فقالت: إنني أنسىٰ فإذا نسيتُ فذَكِّروني. وقال ابن أبي ميّاس المرادِيّ:

فنحن ضربْنا يـا لكَ الخَيْرُ حَيْدَراً ... أبـا حَـسَنٍ مـأْمـومَـةً فـتَفَـطَّرَا

ونحن خلعْنـا مُلكَـهُ مِن نِـظامِـهِ ... بضـربـةِ سَيفٍ إذْ عَـلاَ وتَجبَّـرَا

ونحن كِـرَامٌ في الصبـاح أعِـزَّةٌ ... إذا المرءُ(٣) بالموت ارتَدَىٰ وتأزَّرا

وقال أيضاً:

ولم أر مَهْـراً سـاقَـهُ ذو سَمَـاحـةٍ ... كَمَهْـرِ قَـطَامٍ بين عـربٍ ومعجم(٤)

(١) نسبه ابن منظور في اللسان (مادة عصا) إلى عبد ربه السلمّي قال : ويقال لسليم بن ثمامة الحنفيّ ، أو معقر بن حمار البارتي .

(٢) الطبري : (غلام) بدل : نعي .

(٣) الطبري : إذا الموت ـ وهي ظاهرة لأنه أدخل في احتدام الشر .

(٤) الطبري : من فصيح وأعجم.

ثـلاثـةُ آلافٍ وعـبـدٌ وقَـيْـنَـةٌ   وضَـرْبُ عليٍّ بـالحُـسَـامِ المُصَمَّمِ
فـلا مَهْـرَ أغلىٰ مِنْ عليٍّ وإنْ غـلاَ   ولا فَتْـكَ إلاّ دونَ فَتْـكِ ابنِ مُلْجَم

وقال أبو الأسود الدؤلي في قتل علي(١) :

ألاَ أبـلغْ معـاويـةَ بـنَ حَـرْبٍ   فـلا قَـرَّتْ عيـونُ الشـامِتِيْنَـا
أفي شهـرِ الصيامِ فجعتُمُـونَـا   بخيْـرِ النـاسِ طُـرًّا أجمَعينـا
قتلتُمْ خيـرَ مَنْ رَكِبَ المَطايـا   ورحَّلَهـا ومَنْ ركب السَّـفِينـا
وَمَنْ لبْسَ النعـالَ ومَنْ حَـذَاهَـا   وَمَنْ قَـرَأَ المثـانيَ والـمُبينـا
إذا اسْتَقْبَلْتَ وجـهَ أبـي حُسَيْنٍ   رأيتَ البـدرَ رَاعَ النـاظـرِينـا
لقـد عَلِمَتْ قـريشٌ حيثُ كـانتْ   بـأنَّك خَيْرُهَـا حَسَبـاً ودِينـا(٢)

وقال بكر بن حسان الباهري :

قُـلْ لابنِ ملجَم والأقـدارُ غـالبـةٌ   هَـدَمْتَ للدينِ والإسلامِ أَرْكَـانـا
قتلتَ أفضلَ مَنْ يمشي علىٰ قَدَمٍ   وَأعـظَمَ النـاسِ إسـلامـاً وإيمـانـا
وأعلمَ النـاسِ بـالقُـرآنِ ثُمَّ بِمَـا   سَنَّ الـرسولُ لنـا شَـرْعـاً وتبْيـانـا
صِهْـرَ النبيِّ ومَـوْلاهُ ونَـاصِـرَهُ   أَضْحَتْ مناقِبُـهُ نـوراً وبُـرْهـانـا
وكَـانَ منه علىٰ رُغْـمِ الحَسُـودِ له   مَكَانَ هارونَ مِن مُوسَىٰ بن عِمْرَانـا
قَـدْ كَـان يُخْبِـرُهم هَـذَا بمقْتَلِهِ   قَبْـلَ المَنِيَّـةِ أزْمَـانـاً فـأزمَـانـا
ذَكَـرْتُ قـاتِلَه وَالـدمْع مُنْحـدِر   فقلتُ سبحانَ رَبِّ العرشِ سُبْحَانا
إني لأحْسَبـه مَـاكَـان مِن إنْسٍ   كَـلاَّ وَلَكِنه قـد كَـانَ شَيْـطَانَـا
فَـلاَ عَفَـا اللّهُ عنـه سُوْءَ فِعْلَتِـهِ   وَلا سَقَىٰ قَبْـرَ عِمْـرَان بن حِـطَّانَـا
يَـا ضَـرْبَـةً مِنْ شَقِيٍّ مـا أرَادَ بِهَـا   إلاّ ليبلغَ مِن ذِي العَرْشِ رِضْوَانـا
بَـلْ ضَرْبَـة مِنْ غَوِيٍّ أوْرَدَتْـه لظىٰ   وَسَوْف يـلقىٰ بها الرحمنَ غَضْبَانـا
كَـأنَّـه لم يُـرِد قَصْـداً بضَـرْبَتِـهِ   إلاّ ليصلىٰ عَـذَابَ الخُلد نِيْـرَانـا

---

(١) لأحقّ لأبي الأسود في تطويق معاوية قَتْل علي بقوله (في شهر الصيام . . .) فإن معاوية كان من المؤتَمر بهم وقد أخذ حظّه من هذه المؤامرة ولكن أجله لم يحن ولم يرزق علي كرم الله وجهه بطبيب كالساعديّ الذي داوىٰ معاوية فداواه من جرحه (م) .

(٢) الديوان ص : ٣٢ .

ذكر مُدّة خلافته ومقدار عُمره

وقد قال بعضهم : كانتْ خلافته خمس سنين إلاّ ثلاثة أشهر،وكان عمره ثلاثاً وستين سنة، وقيل: كان عمره تسعاً وخمسين، وقيل: خمساً وستين، وقيل: ثمانياً وخمسين، والأوّل أصح.

ولما قُتل دُفِنَ عند مسجد الجماعة وقيل: في القَصْر، وقيل: غير ذلك، والأصحّ أنّ قبره هو الموضع الذي يُزَار ويُتبرك به.

ذكر نَسَبُه، وصِفته، ونسائه، وأولاده

كان آدم[1] شديد الأدمة، ثقيل العينين عظيمهما، ذا بطن، أصلع، عظيم اللحية، كثير شعر الصدر، ، هو إلى القِصَر أقرب. وقيل كان فَوْقَ الرَّبْعة، وكان ضخم عضلة الذراع دقيق مستدقها، ضخم عضلة الساق دقيقها مستدقها، وكان مِنْ أحسنِ الناس وجهاً ولا يغيّر شيبه، كثير التبسم.

وأما نَسَبُه فهو عليّ بن أبي طالب ـ واسم أبي طالب عبد مناف ـ بن عبد المطلب بن هاشم، وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف، وهو أول خليفة أبواه هاشميان ولم يلِ الخلافة إلى وقتنا هذا مَنْ أبواه هاشميان غيره وغَيْر الحسن ولده، ومحمد الأمين فإنّ أباه هارون الرشيد وأمه زبيدة بنت جعفر بن المنصور.

وأما أزواجه فأوّل زوجة تزوجها فاطمة بنت رسول الله ﷺ لم يتزوج عليها حتى تُوفيت عنده، وكان له منها الحسن، والحسين وقد ذُكر أنّه كان له منها ابنٌ آخر يقال له «مُحَسِّن» وأنّه تُوفي صغيراً، وزينب الكبرى وأم كلثوم الكبرى. ثم تزوج بعدها أم البنين بنت حرام الكلابية فولدت له العباس، وجعفراً، وعبد الله، وعثمان قُتِلُوا مع الحسين بالطفّ ولا بقية لهم غير العباس، وتزوج ليلى بنت مسعود بن خالد النهشلية التميمية فولدتْ له عبيد الله، وأبا بكر قُتِلَا مع الحسين، وقيل: إنّ عبيد الله قتله المختار بالمذار، وقيل: لا بقية لهما. وتزوج أسماء بنت عُمَيْس الخثعمية فولدتْ له محمداً الأصغر، ويحيىٰ ولا عقب لهما. وقيل: إنّ محمداً لأم وَلَد، وقُتِلَ مع الحسين، وقيل: إنها ولدتْ له: عوناً، وله من الصهباء بنت ربيعة التغلبية وهي من السبي الذين أغار عليهم خالد بن الوليد بعين التمر وولدت له عُمَر بن علي، ورقيّة بنت

---

[1] الأُدْمَة: السُّمرة.

علي، فعُمِّرَ عمر حتىٰ بلغ خمساً وثمانين سنة فحاز نصفَ ميراث عليّ ومات بينبع، وتزوج عليّ أمامة بنت أبي العاص بن الربيع بن عبد العزىٰ بن عبد شمس وأمها زينب بنت رسول الله ﷺ فولدتْ له محمداً الأوسط، وله محمد بن علي الأكبر الذي يقال له: ابن الحنفية أمه خَوْلَة بنت جعفر مِنْ بني حنيفة. وتزوج عليّ أيضاً أم سعيد ابنة عُروة بن مسعود الثقفية فولدتْ له أم الحسن، ورملة الكبرىٰ، وأم كلثوم. وكان لـه بنات من أمهـات شتىٰ لم يذكـرنْ لنا، منهن أم هـانىء، وميمونـة، وزينب الصغرىٰ، ورملة الصغرىٰ، وأم كلثوم الصغرىٰ، وفاطمة، وأُمامة، وخديجة، وأم الكرام، وأم سلمة، وأم جعفر، وجمانة، ونُفَيْسَة كلهن من أمهات أولاد. وتزوج أيضاً مخبئة بنت آمرىء القيس بن عديّ الكلبية فولدتْ له جارية هلكتْ صغيرة كانت تخرج إلىٰ المسجد فيقال لها: مَنْ أخوالِك؟ فتقول: « وه وه » تعني كلباً فجميع ولده أربعة عشر ذكراً وسبع عشرة امـرأة وكـان النسل منهم للحسن، والحسين، ومحمـد بن الحنفيـة، والعبـاس ابن الكلابية، وعُمر ابن التغلبية.

ذكرُ عُمّاله

وكان عَامله علىٰ البصرة هذه السنة عبد الله بن عباس وقد ذكرنا الاختلاف في أمْرِهِ وكان إليه الصدقات، والجُنْد، والمعاون أيام ولايته كلها، وكان علىٰ قضائها مِن قِبل عليّ أبو الأسود الدؤلي، وكان علىٰ فارس زياد ـ وقد ذكرنا مسيره إليها[1] وكان علىٰ اليمن عبيد الله بن عباس حتىٰ كان مِنْ أمره وأمر بُسْر بن أبي أرطاه ما ذُكر، وكان علىٰ الطائف ومكة وما اتصل بذلك قثم بن عباس، وكان علىٰ المدينة أبو أيوب الأنصاري، وقيل: سهل بن حنيف وكان عند قدوم بُسر عليه مِن أمره ما كان وذُكِر.

ذكر بعض سِيْرَتِهِ

كان أبو رافع مولىٰ رسول الله ﷺ خازناً لعليّ على بيت المال فدخل عليّ يوماً وقد زُيِّنَتْ ابنته فرأىٰ عليها لؤلؤة كان عَرفها لبيت المال فقال: « من أين لها هذه؟ لأقطعنَّ يدها ». فلما رأىٰ أبو رافع جده في ذلك فقال: أنا واللهِ يا أميرَ المؤمنين زينتها بها. فقال علي: لقد تزوجتُ بفاطمة ومالي فراش إلا جلد كبش ننام عليه بالليل ونعلف عليـه

---

(١) أنظر الكامل ٣/ ٣٣٢، ٣٣٤.

ناضحنا بالنهار ومالي خادمٌ غيرها. قال ابن عباس: قُسِّمَ عِلْمُ الناسِ خمسة أجزاء فكان لعليّ منها أربعة أجزاء ولسائر الناس جزء شاركهم عليٌّ فيه فكان أعلمهم به. وقال أحمد بن حنبلٍ: ما جاء لأحدٍ من أصحاب النبي ﷺ ما جاء لعليّ. وقال عمرو بن ميمون: لما ضُرِب عمر بن الخطاب وجعل الخلافة في الستة مِن الصحابة فلما خرجوا مِن عنده قال: إنْ يُولُّوهَا الأجلح يَسلُك بهم الطريق. فقال له ابنُه عبد الله: فما يمنعك يا أمير المؤمنين مِن توليته؟ قال: أكره أنْ أتحمَّلها حيًّا وميتاً. وقال عاصم بن كليب عن أبيه: قدِم على عليّ مالٌ من أصبهان فقسّمه علىٰ سبعة أسهم فوجد فيه رغيفاً فقسّمه علىٰ سبعة، ودعا أمراء الأسباع فأقرع بينهم لينظر أيهم يعطىٰ أولاً.

وقال هارون بن عنترة عن أبيه دخلتُ علىٰ عليّ بالخورنق وهو فصل شتاء وعليه خلق قطيفة وهو يرعد فيه، فقلتُ: يا أميرَ المؤمنين: إنّ الله قد جعلَ لك ولأهْلِك في هذا المال نصيباً وأنتَ تفعلُ هذا بنفسك! فقال: واللهِ ما أرزأكم شيئاً وما هي إلّا قطيفتي التي أخرجتُها من المدينة.

وقال يحيى بن سلمة: استعمل عليّ عَمْرو بن سلمة علىٰ أصبهان فقدِم ومعه مالٌ وزقاق فيها عسل وسمن، فأرسلتْ أم كلثوم بنت عليّ إلىٰ عَمْرو تطلبُ منه سمناً وعسلاً فأرسل إليها ظرف عسل وظرف سمن، فلما كان الغد خرج عليّ وأحضر المال والعسل والسمن ليقسم فعدَّ الزقاق فنقصت زقَّين فسأله عنهما فكتمه وقال: نحن نُحْضِرُهَما. فعزم عليه إلّا ذَكَرَهُمَا له فأخبره فأرسل إلىٰ أم كلثوم فأخذ الزقَّين منها فرآهما قد نقصا فأمر التجار بتقويم ما نقص منهما فكان ثلاثة دراهم فأرسل إليها فأخذها منها ثم قسّم الجميع.

قيل: وخرج مِن همذان فرأىٰ رجلان يقتتلان ففرّق بينهما ثم مضَىٰ فسمع صوتاً: «يا غوثاه بالله» فخرج يحضر نحوه وهو يقول: «أتاك الغَوْث» فإذا رجلٌ يلازمُ رجلاً، فقال: يا أمير المؤمنين بعتُ هذا ثوباً بسبعة دراهم وشرطتُ أنْ لا يعطيني مغموزاً ولا مقطوعاً ـ وكان شرطهم يومئذ ـ فأتاني بهذه الدراهم فأبيتُ ولزمته فلطمني فقال للّاطِم: ما تقول؟ فقال: صَدَقَ يا أميرَ المؤمنين. فقال: أعطِه شَرْطَه. فأعطاه، وقال للملطوم: اقتصْ. قال: أو أعفو يا أمير المؤمنين؟ قال: ذلك إليك. ثم قال: يا معشر المسلمين خُذُوه فأخذه فحُمل علىٰ ظهر رَجُل كما يحمل صبيان الكُتّاب ثم ضربه خمس عشرة دُرّة

وقال: هذا نَكَالٌ لما انتهكتَ مِنْ حُرْمَتِهِ.

ولما قُتل عليّ عليه السلام قام ابنُه الحسن خطيباً فقال: لقد قتلتم الليلةَ رجلاً في ليلةٍ نزل فيها القرآن، وفيها رُفع عيسى، وفيها قُتل يوشع بن نون[1] واللهِ ما سبقه أحدٌ كان قبله، ولا يُدْرِكه أحدٌ يكونُ بعده والله إنْ كان رسولُ الله ﷺ يبعثه في السرية وجبريل عن يمينه وميكائيل عَنْ يساره، والله ما ترك صفراء ولا بيضاء إلاّ ثمانمائة أو سبعمائة أرصدها لجارية.

وقال سفيان: إنّ علياً لم يَبْنِ آجرة علىٰ آجرة، ولا لَبِنَة علىٰ لَبِنَة، ولا قصبة علىٰ قَصَبَة، وإنْ كان ليؤتىٰ بحبوبه من المدينة في جراب.

وقيل: إنه أخرج سيفاً له إلىٰ السوق فباعه وقال: لو كان عندي أربعة دراهم ثمن إزار لم أبِعْه، وكان لا يشتري ممن يعرفه وإذا اشترى قميصاً قَدّر كمّه علىٰ طول يده وقطعَ الباقي. وكان يختم علىٰ الجراب الذي فيه دقيق الشعير الذي يأكل منه ويقول: لا أحبُّ أنْ يدخل بطني إلاّ ما أعلم. وقال الشعبي: وَجَدَ عليٌّ درعاً له عند نصراني فأقبل به إلىٰ شُرَيْح وجلس إلى جانبه وقال: لو كان خَصْمِي مسلماً لساويته، وقال: هـذه درعي. فقال النصراني: ما هي إلاّ درعي ولم يكذِب أمير المؤمنين. فقال شريح لعلي: أَلَكَ بيّنة؟ قال: لا. وهو يضحك فأخذ النصرانيّ الدرع ومشىٰ يسيراً ثم عاد وقال: أشهد أنَّ هذه أحكامُ الأنبياء أميرُ المؤمنين قدَّمَني إلىٰ قاضيه وقاضيه يقضي عليه. ثم أسلم، واعترفَ أنّ الدرعَ سقطتْ مِن عليّ عند مسيره إلىٰ صِفّين، ففرِح عليّ بإسلامه، ووَهَبَ له الدرع وفرساً، وشهد معه قتالَ الخوارج.

وقيل: إنّ عليًّا رؤيَ وهو يحمل في ملحفته تمراً قد اشتراه بدرهم فقيل له: يا أمير المؤمنين ألا نحمله عنك؟ فقال: أبو العيال أحقّ بحمله. وقال الحسن بن صالح: تذاكروا الزهاد عند عمر بن عبد العزيز فقال عمر: أزهدُ الناس في الدنيا عليّ بن أبي طالب. وقال المدائنيّ: نظر عليّ إلىٰ قومٍ ببابه فقال لقنبر مولاه: مَنْ هؤلاء؟ قال: شيعتُك يا أمير المؤمنين قال: وما لي لا أرىٰ فيهم سيما الشيعة؟ قال: وما سيماهم؟

---

(١) أما نزول القرآن فيها فصحيح، وأما رفع عيسى في تلك الليلة فلا ندريه ولكنه محتمل، وأما قتل يوشع بن نون فغير صحيح لانه مات حتف أنفه ولم يقتل (م).

قـال : « خُمْص البطون من الـطوى ، يُبْس الشفاه من الـظماء ، عُمْش العيـون من البكاء ». ومناقبه لا تحصىٰ قد جَمَعْتُ قضاياه في كتاب مفرد .

ذكر بيعة الحسن بن عليّ

وفي هذه السنة أعني سنة أربعين بُويع الحسن بن عليّ بعد قتل أبيه، وأول مَنْ بايعه قيس بن سعد الأنصاريّ وقال له: ابسطْ يدك أبايعك علىٰ كتاب الله [عز وجل]، وسنة نبيه، وقِتَالِ المحلين. فقال [له] الحسن : علىٰ كتاب الله، وسنةِ رسوله فإنهما يأتيان علىٰ كلِّ شَرْط. فبايعه الناس، وكان الحسن يشترط عليهم: « إنكم مطيعون تسالمون مَنْ سالمتُ وتحاربون مَنْ حاربتُ ». فارتابوا بذلك وقالوا : ما هذا لكم بصاحب وما يريد هذا القتال[1].

ذكر عدة حوادث

حج بالناس هذه السنة المغيرة بن شعبة وافتعل كتاباً علىٰ لسان معاوية فيقال: إنه عَرَّف يوم التروية ونحر يوم عرفة خوفاً أن يُفطَن لفعله وقيل: فعل ذلك لأنه بلغه أنّ عتبة بن أبي سفيان مُصَبِّحُهُ والياً علىٰ الموسم [فعجّل الحج مِنْ أجل ذلك]. وفيها بويع معاوية بالخلافة ببيت المقدس وكان قبل ذلك يدعىٰ بالأمير في بلاد الشام فلما قُتل عليّ دعيَ بأمير المؤمنين هكذا قال بعضهم . وقد تقدّم أنه بويع بالخلافة بعد اجتماع الحَكَمَين والله أعلم. وكانت خلافة الحسن ستة أشهر.

وفيها مات الأشعث بن قيس الكندي بعد قتل عليّ بأربعين ليلة وصلىٰ عليه الحسن بن عليّ وفيها مات حسان بن ثابت، وأبو رافع مولى رسول الله ﷺ وهما من الصحابة. وفيها مات شرحبيل بن السمط الكنديّ وهو من أصحاب معاوية، قيل: له صحبة، وقيل: لا صحبةَ له، وفي أول خلافة علي مات جهجاه الغفاري له صحبة.

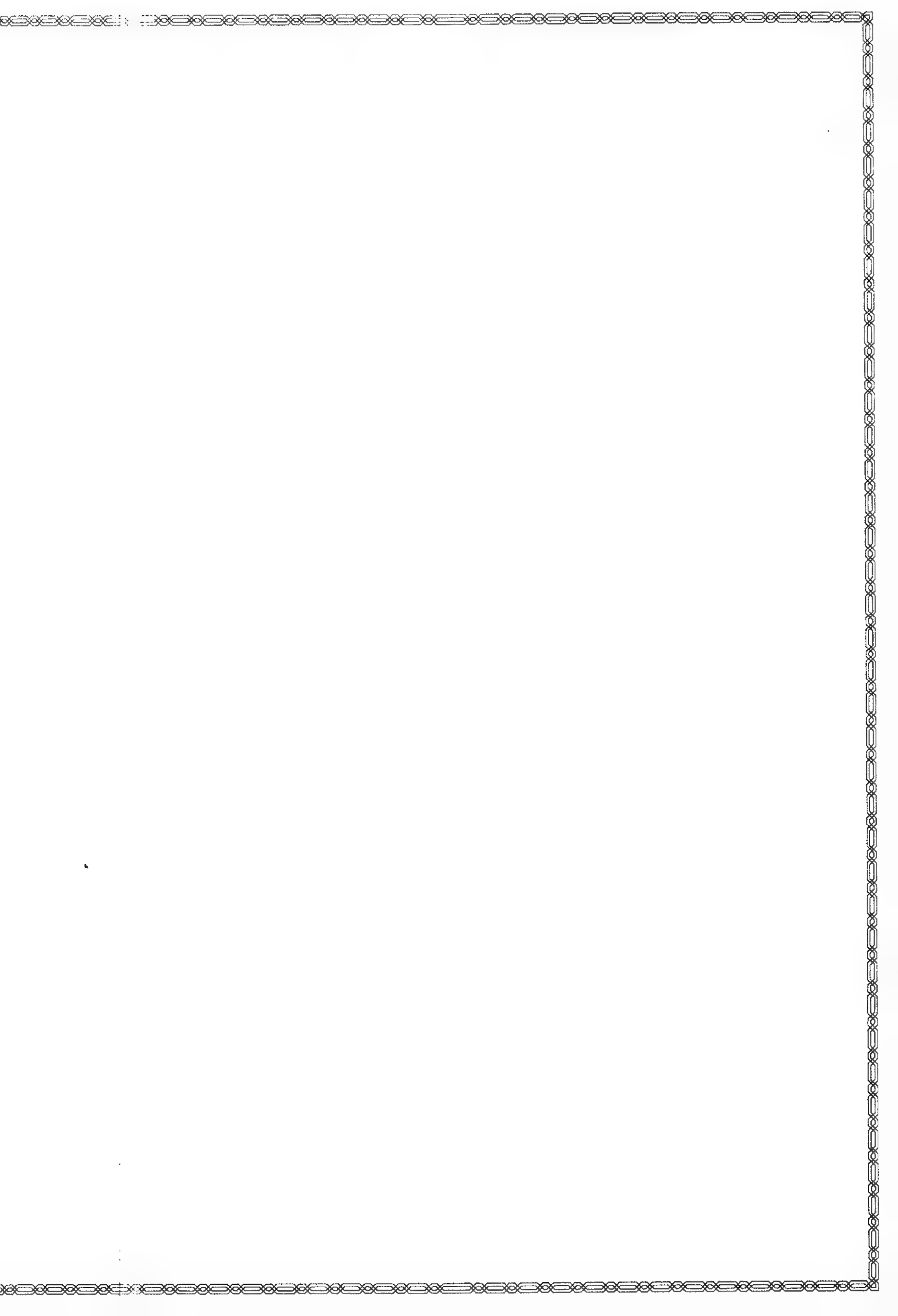
---

(١) في المطبوعة (ما ير هذا إلا القتال) وهو مخالف للسياق وما أثبتناه من الطبري ١٦٢/٥ .

وفيها مات الحارث بن خزيمة الأنصاريّ شهد بدراً وأحداً وغيرهما. وفيها مات خوّات بن جبير الأنصاريّ بالمدينة وكان قد خرج مع النبي ﷺ إلى بدر فرجع لعذر فضرب له رسول الله ﷺ بسهمه وهو صاحب ذات النحيين. وفي خلافة عليّ مات قرظة بن كعب الأنصاريّ بالكوفة، وقيل: بل مات في إمارة المغيرة علىٰ الكوفة لمعاوية. وشهد أحداً وغيرها وشهد سائر المشاهد مع عليّ.

ومات معاذ بن عفراء الأنصاريّ في أول خلافة عليّ وهو بدريّ شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ وفي خلافته مات أبو لبابة بن عبد المنذر الأنصاري وكان نقيباً شهد بدراً، وقيل: بل استخلفه رسول الله ﷺ علىٰ المدينة وردّه من طريق بدر وضرب له بسهمه. وفيها توفي معيقيب بن أبي فاطمة الدوسي له صحبة قديم الإسلام هاجر إلىٰ الحبشة الهجرة الثانية وكان علىٰ خاتم النبي ﷺ وكان مجذوماً، واستعمله أبو بكر وعمر علىٰ بيت المال وكان معه الخاتم أيام عثمان فمن يده وَقَعَ الخاتم. وقيل أنه توفي آخر خلافة عثمان.

عـــام الجمَـــاعـــة



ثم دخلت سنة إحدى وأربعين

ذكر تسليم الحسن بن عليّ الخلافة إلىٰ معاوية[1]

كان أمير المؤمنين عليّ قد بايعه أربعون ألفاً من عسكره علىٰ الموت لمّا ظهر ما كان يخبرهم به عن أهل الشام فبينما هو يتجهز للمسير قُتل عليه السلام وإذا أراد اللّهُ أمراً فلا مَرَدَّ له، فلما قُتِل وبايع الناسُ وَلَده الحسن بَلَغَه مسيرُ معاوية في أهل الشام إليه فتجهّز هو والجيش الذين كانوا بايعوا عليًّا وسار عن الكوفة إلىٰ لقاء معاوية وكان قد نزل مسكن، فوصل الحسن إلىٰ المدائن وجعل قيس بن سعد بن عبادة الأنصاريّ علىٰ مقدمته في اثني عشر ألفاً، وقيل: بل كان الحسن قد جعل علىٰ مقدمته عبد الله بن عباس فجعل عبد الله علىٰ مقدمته في الطلائع قيس بن سعد بن عبادة فلما نزل الحسن المدائن نادىٰ منادٍ في العسكر ألا إنّ قيس بن سعد قُتل فانفروا فنفروا بسرادِق الحسن فنهبوا متاعه حتىٰ نازعوه بساطاً كان تحته فازدادَ لهم بُغْضاً ومنهم ذُعْراً، ودخل المقصورة البيضاء بالمدائن وكان الأمير علىٰ المدائن سعد بن مسعود الثقفيّ عم المختار بن أبي عبيد فقال له المختار وهو شاب: هل لك في الغنىٰ والشرف؟ قال: وما ذاك؟ قال: تستوثق[2] مِنْ الحسن وتستأمن به إلىٰ معاوية. فقال له عمه: عليك لعنة الله أثبُ على ابن بنت رسول الله ﷺ وأوثقه! بئس الرجل أنت.

فلما رأىٰ الحسن تفرُّق الأمر عنه كتب إلىٰ معاوية وذكر شروطاً وقال له: «إنْ أنتَ أعطيتني هذا فأنا سميعٌ مطيعٌ وعليك أنْ تفيَ لي به. وقال لأخيه الحسين، وعبد الله بن جعفر: إنّني قد راسلتُ معاوية في الصلح فقال له الحسين: أنشدك الله أنْ لا تصدّق

---

(١) أذكّر القارىء أن النبي ﷺ قد أثنى على صُنع الحسن هذا إذ قال: «إنّ ابني هذا سيد وإنّ الله سيصلح على يديه بين فئتين من المسلمين عظيمتين».

(٢) أي تقيّده.

أحدوثة معاوية وتكذّب أحدوثة أبيك. فقال له الحسن: أسكتْ أنا أعلمُ بالأمرِ منك. فلما انتهى كتابُ الحَسَن إلىٰ معاوية أمسكه، وكان قد أرسل عبد الله بن عامر، وعبد الرحمن بن سمرة بن حبيب بن عبد شمس إلى الحسن قبل وصول الكتاب ومعهما صحيفة بيضاء مختوم علىٰ أسفلها. وكتب إليه أنْ آشترطْ في هذه الصحيفة التي خَتَمْتُ أسفلها ما شئتَ فهو لك. فلما أتتْ الصحيفةُ إلىٰ الحسن اشترط أضعافَ الشروط التي سأل معاوية قبلَ ذلك وأمسكَهَا عنده، فلما سلّم الحسن الأمرَ إلىٰ معاوية طلب أنْ يعطيَه الشروط التي في الصحيفة التي ختم عليها معاوية فأبىٰ ذلك معاوية وقال له: قد أعطيتُك ما كنتَ تطلب، فلما اصطلحا قام الحسن في أهل العراق فقال: «يا أهلَ العراق: «إنه سخيّ بنفسي عنكم ثلاث: قتلكم أبي، وطعنكم إياي، وآنتهابِكم متاعي».

وكان الذي طلب الحسن مِنْ معاوية أنْ يعطيه ما في بيت مال الكوفة ومبلغه خمسة آلاف ألف[1]، وخراج «دارابجرد» مِنْ فارس، وأنْ لا يُشْتَم عليًا. فلم يجبه إلىٰ الكفّ عَنْ شَتْم عليّ، فطلب أنْ لا يُشْتَم وهو يسمع فأجابه إلىٰ ذلك ثم لم يَفِ له به أيضاً.

وأما خراج دارابجرد فإنّ أهل البصرة منعوه منه وقالوا: هو فيئنا لا نُعطيه أحداً وكان منعهم بأمر معاوية أيضاً، وتسلّم معاوية الأمر لخمس بقين من ربيع الأول من هذه السنة، وقيل في ربيع الآخر وقيل: في جمادى الأولى.

وقيل: إنّما سلم الحسن الأمر إلىٰ معاوية لأنه لمّا راسله معاوية في تسليم الخلافة إليه خطب الناسَ فحمد الله وأثنىٰ عليه وقال: «إنّا والله ما يثنينا عن أهل الشام شكٌّ ولا نَدَم وإنما كنّا نقاتل أهل الشام بالسلامة والصبر فشيبت السلامةُ بالعَداوَة والصبر بالجزع، وكنتم في مسيركم إلىٰ صِفِّيْن ودينكم أمام دنياكم وأصبحتُم اليوم ودنياكم أمام دينكم، ألا وقد أصبحتم بين قتيلين قتيل بصفين تبكون له وقتيل بالنهروان تطلبون بثأره، وأما الباقي فخاذل، وأما الباكي فثائر. ألا وإن معاوية دعانا لأمر ليس فيه عِزّ ولا

---

(١) ليُعلم أنّ الحسن رضي الله لم يطلب ذلك لنفسه، ولكن علم أنّ بني أمية يحرمون مَنْ نَصَرَ علياً رضي الله عنه وقاتل معه فاشترط ذلك ليمدهم به وهو تصرف في غاية الذكاء.

نصفة فإنْ أردتم الموتَ رددناه عليه وحاكمناه إلىٰ الله عز وجل بُظُبَا[1] السيوف وإنْ أردْتُم الحياةَ قَبِلْناه وأخذنا لكم الرضا ». فناداه الناس مِنْ كل جانب: البقية البقية وأمض الصلح.

ولما عزم علىٰ تسليم الأمر إلىٰ معاوية خطب الناس فقال: « إيها الناس إنّما نحن أمراؤكم وضيفانكم ونحن أهلُ بيتِ نبيكم الذين أذهبَ اللّهُ عنهم الرجسَ وطَهَّرَهُم تطهيراً » وكَرَّرَ ذلك حتىٰ ما بقي في المجلس إلا مَنْ بكىٰ حتىٰ سُمِعَ نشيجَه، فلما ساروا إلىٰ معاوية في الصلح فاصطلحا علىٰ ما ذكرناه وسَلَّم إليه الحسن الأمرَ وكانت خلافة الحسن علىٰ قولِ مَنْ يقول: إنه سلّم الأمر في ربيع الأول خمسة أشهر ونحو نصف شهر، وعلىٰ قول مَنْ يَقول: في ربيع الآخر يكون ستة أشهر وشيئاً، وعلىٰ قول مَنْ يقول: في جمادى الاولى يكون سبعة أشهر وشيئاً والله تعالىٰ أعلم.

ولما اصطلحا وبايعَ الحسنُ معاويةَ دخلَ معاويةُ الكوفة وبايعه الناس، وكتب الحسن إلىٰ قيس بن سعد وهو علىٰ مقدمته في اثني عشر ألفاً يأمره بالدخول في طاعة معاوية فقام قيس في الناس فقال: « أيها الناس اختاروا الدخولَ في طاعة إمام ضلالة أو القتالِ مع غيرِ إمام. فقال بعضُهم: بل نختارُ الدخول في طاعةِ إمامِ ضلالة. فبايعوا معاوية أيضاً فانصرف قيسُ فيمن تبعه علىٰ ما نذكره.

ولما دخل معاوية الكوفة قال له عَمْرو بن العاص ليأمر الحسن أنْ يقوم فيخطب الناسَ ليُظهرَ لهم عِيَّه فخطب معاوية الناس، ثم أمرَ الحسنَ أنْ يخطبَهم فقام فحمد الله بديهةً ثم قال: « أيها الناس إنَّ الله قد هداكم بأَوَّلِنا وحقنِ دماءكم بآخرنا وإنَّ لهذا الأمرِ مُدَّة، والدنيا دُوَل، وإنَّ الله عز وجل قال لنبيه: ﴿وإنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُم ومَتَاع إلىٰ حِيْن﴾[2]. فلما قاله قال له معاوية: اجلسْ. وحقَدَهَا علىٰ عمرو، وقال: « هذا مِنْ رأيك ». ولحقَ الحسن بالمدينة وأهل بيته وحشمهم، وجعل الناسُ يبكون عند مسيرهم مِن الكوفة، قيل للحسن: ما حملك على ما فعلت؟ فقال: كرهتُ الدنيا ورأيتُ أهلَ الكوفة قوماً لا يثقُ بهم أحدٌ أبداً إلا غُلِب، ليس أحدٌ منهم يوافقُ آخر في رأيٍ ولا هواء

---

(١) أي: حد السيف.

(٢) الأنبياء: ١١١.

مختلفين لا نيّة لهم في خيرٍ ولا شر، لقد لقي أبي منهم أموراً عِظَاماً فليتَ شِعْرِي لمن يصلحونَ بعدي وهي أسرع البلاد خراباً.

ولما سار الحسن مِن الكوفة عَرَض له رجلٌ فقال له: يا مُسَوِّد وجوه المسلمين فقال: لا تعذلني فإنّ رسول الله ﷺ رأىٰ في المنام بني أمية ينزون علىٰ منبره رجلاً فرجلاً فساءه ذلك فأنزل اللّهُ عز وجل ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الكَوْثَرَ ﴾[١] وهو نهر في الجنة ﴿ وَإِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ القَدْرِ ﴾[٢] إلى قوله تعالى: ﴿ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ يملكها بعدك بنو أمية.

ذكر صلح معاوية، وقيس بن سعد

وفيها جرىٰ الصلح بين معاوية، وقيس بن سعد وكان قيس امتنع من ذلك، وسبب امتناعه أنّ عبيد الله بن عباس لما عَلِم بما يريده الحسن مِنْ تسليم الأمر إلىٰ معاوية كتب إلىٰ معاوية يسأله الأمان لنفسه علىٰ ما أصاب مِنْ مالٍ وغيره فأجابه إلىٰ ذلك، وأرسل عبد الله بن عامر في جيشٍ كثيفٍ فخرج إليهم عبيد الله ليلاً وترك جندَه الذين هو عليهم بغير أمير وفيهم قيس بن سعد فأمّر ذلك الجند عليهم قيس بن سعد وتعاقد هو وهم علىٰ قِتَال معاوية حتىٰ يشترط لشيعة عليّ ولمن كان معه علىٰ دمائِهم وأموالهم[٣].

وقيل: [٤] إنّ قيساً كان هو الأمير علىٰ ذلك الجيش في المقدِّمة علىٰ ما ذكرنا، وكان شديد الكراهة لإمارة معاوية بن أبي سفيان فلما بلغه أنّ الحسن بن عليّ صالَحَ معاوية اجتمع معه جمعٌ كثيرٌ وبايعوه علىٰ قِتال معاوية حتىٰ يشترط لشيعة عليّ علىٰ دمائِهم وأموالِهم وما كانوا أصابوا في الفتنة، فراسله معاوية يدعوه إلىٰ طاعته وأرسلَ إليه بسجل وختم علىٰ أسفله وقال له: اكتبْ في هٰذا ما شئتَ فهو لك. فقال عَمرو لمعاوية لا تُعْطِيه هذا وقاتِلْه. فقال معاوية: علىٰ رِسْلِكَ فإنّا لا نخلص إلى قَتْلهم حتىٰ يقتلوا

(١) الكوثر: ١.
(٢) القدر: ١.
(٣) اشترط الحسن على معاوية ألا يأخذ من قاتل مع عليّ بعقاب وقد أعطاه معاوية ذلك، كما اشترط أنْ تعود الخلافة بعد معاوية شورى بين المسلمين.
(٤) أنظر الكامل ٣/ ٣٦٥.

أعدادهم مِنْ أهل الشام فما خير العيش بعد ذلك! فإني والله لا أقاتله أبداً حتىٰ لا أجد من قتالِه بُدًّا.

فلما بعثَ إليه معاوية ذلك السجلِ اشترط قيس له ولشيعة عليّ الأمان علىٰ ما أصابوا من الدماء والأموال ولم يسأل في سجله ذلك مالاً وأعطاه معاوية ما سأل، ودخل قيس ومَنْ معه في طاعته. وكانوا يَعُدُّون دهاة الناس حين ثارت الفتنة خمسة يقال إنهم ذوو رَأي العرب ومكيدتهم، معاوية، وعَمْرو، والمغيرة بن شعبة، وقيس بن سعد، وعبد الله بن بديل الخزاعي، وكان قيس، وابن بديل مع عليّ، وكان المغيرة معتزلاً بالطائف، ولما استقر الأمرُ لمعاوية دخل عليه سعد بن أبي وقاص فقال: «السلامُ عليك أيها الملك». فضحك معاوية وقال: «ما كان عليك يا أبا إسحاق لو قلتَ: يا أمير المؤمنين»؟ فقال: أتقولها جذلان ضاحكاً؟ واللهِ ما أحبُّ أنِّي وليتُها بما وليتَها به.

ذكر خروج الخوارج علىٰ معاوية

قد ذكرنا فيما تقدم اعتزال فروة بن نوفل الأشجعي في خمسمائة مِن الخوارج ومَسيرهم إلى «شَهْرَزُور» وتركوا قِتال علي، والحسن، فلما سَلَّم الحسنُ الأمرَ إلىٰ معاوية قالوا: قد جاء الآن ما لا شكَّ فيه فسيروا إلىٰ معاوية فجاهدوه فأقبلوا ـ وعليهم فروة بن نوفل ـ حتى حَلُّوا بالنُّخَيْلة عند الكوفة، وكان الحسن بن علي قد سار يريدُ المدينة فكتب إليه معاوية يدعوه إلى قتال فروة فلحقه رسوله بالقادسية أو قريباً منها فلم يرجع، وكتب إلى معاوية: لو آثرتُ أقاتِلَ أحداً مِنْ أهلِ القبلة لبدأتُ بقتالك فإنّي تركتُك لصلاحِ الأمة وحَقْن دمائها.

فأرسلَ إليهم معاويةُ جَمْعاً مِنْ أهلِ الشام فقاتلوهم فانهزم أهلُ الشام فقال معاوية لأهلِ الكوفة: والله لا أمانَ لكم عندي حتىٰ تكفوهم فخرج أهلُ الكوفة فقاتَلوهم فقالت لهم الخوارج: أليس معاوية عَدُوَّنَا وعدوكم؟ دعونا حتى نقاتِلَه فإنْ أصبناه كُنّا قد كفيناكم عدوكم وإنْ أصابنا كنتم قد كُفِيْتُمُونَا. فقالوا: لا بد لنا مَن قتالِكم. فأخذتْ أشجع صاحبَهم فروة فحادثوه ووعظوه فلم يرجع فأخذوه قهراً وأدخلوه الكوفة، فاستعمل الخوارج عليهم عبد الله بن أبي الحوساء رجلاً من طيء فقاتَلهم أهلُ الكوفة فقَتَلوهم في ربيع الأول، وقيل: في ربيع الآخر، وقتل ابن أبي الحوساء وكان ابن أبي

الحوساء حين ولي أمر الخوارج قد خوف من السلطان أنْ يصلبه فقال:

مـا أنْ أبـالي إذا أرواحُنـا قبضتْ ... مـاذا فـعلتم بـأوصـالٍ وأبشـار
تجري المجـرة والنسـران عَنْ قـدر ... والشمس والقمـر السـاري بمقـدار
وقـد علمت وخيـر القـول أنفعـه ... أنَّ السعيـدَ الـذي ينجـو من النـار

ذكر خروج حوثرة بن وداع

ولما قُتل ابن أبي الحوساء اجتمع الخوارج فولوا أمرهم حوثرة بن وداع بن مسعود الأسديّ فقام فيهم وعاب فروة بن نوفل لشكِّه في قتال عليّ، ودعا الخوارج، وسار مِنْ براز الروز وكان بها حتىٰ قدِم النخيلة في مائـة وخمسين، وانضم إليه «فـل بن أبي الحوساء» - وهم قليل - فدعا معاوية أبا حوثرة فقال له: أخرجْ إلىٰ ابنك فلعله يرق إذا رآك. فخرج إليه وكلّمه، وناشده وقال: «ألا أجيئك بابنك فلعلك إذا رأيته كـرهت فراقه»؟ فقال: أنا إلىٰ طعنة مِن يد كافر برمحٍ اتقلّب فيه ساعة أشْوَقُ منّي إلىٰ ابني. فرجع أبوه فأخبر معاوية بقوله فسيّر معاوية إليهم عبد الله بن عوف الأحمـر في ألفين وخرج أبو حوثرة فيمن خرج فدعا ابنه إلىٰ البِرَاز فقال: يا أبتِ لك في غيري سعة. وقاتَلهم ابن عوف وصبروا، وبارز حوثرة عبد الله بن عوف فطعنه ابن عوف فقتله وقتل أصحابه إلاّ خمسين رجلاً دخلوا الكوفة وذلك في جمادىٰ الأخرة سنة إحدى وأربعين ورأى ابن عوف بوجه حوثرة أثر السجود وكان صاحب عِبادة فندم على قتله وقال:

قتلتُ أخـا بني أسدٍ سفـاهـا ... لَعَمْـر أبي فمـا لقيت رشـدي
قـتلتُ مـصليًـا مـحيـاء لـيـل ... طَـويـل الحُـزْنِ ذا بِـرٍّ وقَصْـد
قـتلتُ أخـا تـقي لأنـالَ دنيـا ... وَذاك لِشَقْـوَتِي وعَثـار جـدي
فهبْ لي تـوبـةً يـا ربِّ واغفـرْ ... لمـا قـارفتُ مِن خـطأٍ وعمـد

ذكر خروج فروة بن نوفل ومقتله

ثم إنّ فروة بن نوفل الأشجعي خرج علىٰ المغيرة بن شعبة بعد مسير معاوية فوجّه إليه المغيرة خيلاً عليها شبث بن ربعي، ويقال: معقل بن قيس فلقيه بشهرزور فقتله، وقيل: قتل ببعض السواد.

ذكر شبيب بن بجرة

كان شبيب مع ابن ملجم حين قتل عليًّا فلمّا دخل معاوية الكوفة أتاه شبيب كالمتقرب إليه فقال: أنا وابن ملجم قتلنا عليًّا. فوثب معاوية من مجلسه مذعوراً حتىٰ دخل منزله وبعث إلىٰ أشجع وقال: «لئن رأيتَ شبيباً أو بلغني أنه ببابي لأهلكنكم. أخرجوه عن بلدكم». وكان شبيب إذا جنّ عليه الليلُ خرج فلم يلقَ أحداً إلّا قتله، فلما ولي المغيرةُ الكوفة خرج عليه بالطفّ قريب الكوفة فبعث إليه المغيرة خيلاً عليها خالد بن عرفطة، وقيل: معقل بن قيس فاقتتلوا فقتل شبيب وأصحابه.

ذكر مُعَيْن الخارجيّ

وبلغ المغيرة أنّ مُعَيْن بن عبد الله يريد الخروج ـ وهو رجلٌ من محارب وكان اسمه مَعْناً فصُغّر ـ فأرسل إليه وعنده جماعة فأُخِذَ وحُبس، وبعث المغيرة إلىٰ معاوية يخبره أمره فكتب إليه إنْ شهد أنّي خليفة فخلِّ سبيله. فأحضره المغيرة وقال له: أتشهدُ أنّ معاوية خليفة وأنه أمير المؤمنين؟ فقال: أشهد أنّ الله عز وجل حقٌّ، وأنّ الساعةَ آتيةٌ لا ريب فيها، وأنّ اللّهَ يبعثُ مَنْ في القبور. فأمر به فقُتل قتله قبيصة الهلاليّ. فلما كان أيام بشر بن مروان جلس رجلٌ من الخوارج علىٰ باب قبيصة حتىٰ خرج فقتله ولم يُعرف قاتله حتىٰ خرج قاتله مع شبيب بن يزيد، فلما قدِم الكوفة قال: «يا أعداء الله أنا اقاتـل قبيصة».

ذكر خروج أبي مريم

ثم خرج أبو مريم مولىٰ بني الحارث بن كعب ومعه امرأتان قَطَامِ، وكحيلة، وكان أوّل مَنْ أَخْرَجَ معه النساء فعاب ذلك عليه أبو بلال بن أدية فقال: قد قاتل النساءُ مع رسول الله ﷺ ومع المسلمين بالشام وسأردهما. فردَّهما، فوجّه إليه المغيرة جابراً البجليّ فقاتله فقُتل أبو مريم وأصحابه ببادوريا[1].

ذكر خروج أبي ليلىٰ

وكان أبو ليلىٰ رجلاً أسود طويلاً فأخذ بعضادَتيّ باب المسجد بالكوفة وفيه عِدَّة

---

(١) بادوريا: من كورة الإستان بالجانب الغربي من بغداد.

مِن الأشراف وحكّم بصوتٍ عال فلم يعرض له أحدٌ فخرج وتبعه ثلاثون رجلاً من الموالي فبعث فيه المغيرة معقل بن قيس الرياحي فقتله بسواد الكوفة سنة اثنتين وأربعين.

ذكر استعمال المغيرة بن شعبة على الكوفة

وفيها استعمل معاوية عبد الله بن عَمْرو بن العاص علىٰ الكوفة فأتاه المغيرة بن شعبة فقال له: أستعملتَ عبد الله علىٰ الكوفة وأباه علىٰ مِصر فتكون أميراً بين نَابَي الأسد! فعزله عنها، واستعمل المغيرة علىٰ الكوفة. وبلغ عَمْراً ما قال المغيرة فدخل علىٰ معاوية فقال: أستعملتَ المغيرة علىٰ الخراج فيغتال المال ولا تستطيع أنْ تأخذه منه! استعملْ على الخراج رجلاً يخافُك ويتقيك. فعزله عن الخراج واستعمله علىٰ الصلاة. ولما ولي المغيرة الكوفة استعمل كثير بن شهاب علىٰ الريّ، وكان يكثر سبّ عليّ علىٰ مِنْبَر الريّ، وبقي عليها إلىٰ أنْ ولي زياد الكوفة فأقرّه عليها، وغزا الديلم ومعه عبد الله بن الحجاج التغلبي وقتل ديلميًّا وأخذ سَلْبه فأخذه منه كثير، فناشده الله في رَدِّه عليه فلم يفعل فاختفى له وضربه علىٰ وجهه بالسيف أو بعصاً هشم وجهه فقال:

مَـنْ مبـلّغ أبنـاءَ خنـدف أنّـني	أدركتُ طـائلتي مِن ابن شهـاب
أدركـتـه لـيـلاً بـعـقـوة داره	فضـربتـه قـدمـاً علىٰ الأنيـاب
هَـلاَّ خشيتَ وأنتَ عـاد ظـالـم	بقصـور أبهـر أسـرتي وعقـابي

ذكر ولاية بسر علىٰ البصرة

في هذه السنة ولي بُسْر بن أبي أرطاة البصرة، وكان السبب في ذلك أنّ الحسن لمّا صالح معاوية أوّل سنة إحدىٰ وأربعين وَثَبَ حمران بن أبان علىٰ البصرة فأخذها وغلب عليها فبعث إليه معاوية بسر بن أبي أرطاة وأمره بقتل بني زياد بن أبيه، وكان زياد علىٰ فارس قد أرسله إليها عليّ بن أبي طالب، فلما قدم بسر البصرة خطب علىٰ منبرها وشتم عليًّا ثم قال: نشدتُ الله رجلاً يعلم أني صادقٌ إلاّ صَدَّقني أو كاذب إلاّ كذبني. فقال أبو بكرة: اللهم إنّا لا نعلمك إلاّ كاذباً. قال: فأُمِرَ به فخنق، فقام أبو لؤلؤة الضبيّ فرمىٰ بنفسه عليه فمنعه، وأقطعه أبو بكرة [بعد ذلك] مائة جريب، وقيل: لأبي بكرة: ما حملك علىٰ ذلك فقال: يناشدنا بالله ثم لا نُصدقه.

وأرسل معاوية إلىٰ زياد إنّ في يدك مالاً من مال الله فأدِّ ما عندك منه، فكتب إليه زياد: إنه لم يبق عندي شيءٌ [من المال]، ولقد صرفتُ ما كان عندي في وجهه، واستودعتُ بعضه لنازلة إنْ نزلتْ، وحملتُ ما فضل إلىٰ أمير المؤمنين رحمة الله عليه فكتب إليه معاوية أن أقبل [إليّ] ننظر فيما وليتَ فإنْ استقام بيننا أمر [فهو ذاك] وإلاّ رجعتَ إلىٰ مأمنك. فامتنع فأخذ بسر أولاد زياد الأكابر منهم عبد الرحمن، وعبيد الله، وعباد، وكتب إلىٰ زياد لتقدمنّ علىٰ أمير المؤمنين أو لأقتلنّ بَنِيْك. فكتب إليه زياد: لستُ بارحاً مِنْ مكاني حتىٰ يحكمَ اللّهُ بيني وبين صاحبك، وإنْ قتلتَ ولدي فالمصير إلىٰ الله ومِنْ ورائِنَا الحساب، وسيعلمُ الذين ظلموا أيَّ منقلب ينقلبون.

فأراد بسر قتلهم فأتاه أبو بكرة فقال: قد أخذتَ ولد أخي [غلماناً] بلا ذنب، وقد صالح الحسن معاوية علىٰ ما أصاب أصحاب عليّ حيث كانوا فليس [لك] عليهم ولا علىٰ أبيهم سبيل. وأَجَّلَهُ أياماً حتىٰ يأتيه بكتاب معاوية، فركب أبو بكرة إلىٰ معاوية ـ وهو بالكوفة ـ فلمّا أتاه قال له: يا معاوية إنّ الناسَ لم يُعْطُوكَ بيعَتهم علىٰ قَتْلِ الأطفال. قال: وما ذاك يا أبا بكرة؟ قال: بُسْر يريدُ قَتْل بني أخي زياد. فكتب له بتخليتهم فأخذ كتابه إلىٰ بسر بالكفّ عن أولاد زياد[١].

وعاد فوصل البصرة يوم الميعاد، وقد أَخْرَجَ بُسر أولاد زياد مع طلوع الشمس ينتظر بهم الغروب ليقتلهم، واجتمع الناسُ لذلك وهم ينتظرون أبا بكرة إذْ رفع لهم علىٰ نجيب أو برذون يكده فوقف عليه ونزل عنه وألاح بثوبه وكبَّر الناسُ معه فأقبل يسعىٰ علىٰ رجلَيْه فأدرك بسراً قبل أنْ يقتلَهم فدفع إليه كتاب معاوية فأطلقهم. وقد كان معاوية كتب إلىٰ زياد حين قُتل عليّ يتهدده فقام خطيباً فقال: « العجب مِن ابن آكلةِ الأكباد، وكهف النفاق، ورئيس الأحزاب يتهددني وبيني وبينه ابنا عمّ رسول الله ﷺ ـ يعني ابن عباس، والحسن بن علي ـ في سبعين ألفاً واضعي سيوفهم علىٰ عواتقهم، أما والله لئن خلص إليّ ليجدني أحمر ضرَّاباً بالسيف ». فلما صالح الحسن معاوية وقدِم معاوية الكوفة

---

(١) وقد قال معاوية لأبي بكرة: هل من عَهدٍ تعهده إلينا، قال: نعم أعهد إليك يا أمير المؤمنين أنْ تنظر لنفسك ورعيتك وتعمل صالحاً فإنك قد تقلدت عظيماً خلافة الله في خلقه، فاتق الله فإنّ لك غاية لا تعدوها، ومِنّ ورائك طالبٌ حثيث واشك أن يبلغ المدى فيلحق الطالب فتصير إلى مَنْ يسألك عما كنت فيه وهو أعلم به منك، وإنما هي محاسبة توقيف فلا تُؤثرن علىٰ رضا الله شيئاً.

تحصّن زياد في القلعة التي يقال لها: « قلعة زياد ».

قَوْل مَنْ قال في هذا : إن زياداً عنىٰ ابن عباس وَهْم لأنّ ابن عباس فارقَ عليًّا في حياته، وقيل: إنّ معاوية أرسل هذا إلىٰ زياد في حياة عليّ فقال زياد : هذه المقالة وعنىٰ بها عليًّا، وكتب زياد إلى عليّ يخبره بما كتب إليه معاوية فأجابه بما هو مشهور وقد ذكرناه في استلحاق معاوية زياداً كل ما في هذا الخبر.

(بُسْر) فهو بضم الباء الموحدة والسين المهملة الساكنة.

ذكر ولاية ابن عامر البصرة لمعاوية

ثم أراد معاوية أنْ يولِّي عتبة بن أبي سفيان البصرة فكلّمه ابن عامر وقال له : « إنّ لي بالبصرة ودائع وأموالاً فإنْ تولِّني عليها ذهبتُ ». فولّاه البصرة فقدِمها في آخر سنة إحدى وأربعين وجعل إليه خراسان، وسجستان، فجعل علىٰ شرطتِه حبيب بن شهاب، وعلىٰ القضاء عميرة بن يثربي أخا عَمْرو، وقد تقدم في وقعة الجمل أنّ عميرة قُتل فيها، وقيل: عَمرو هو المقتول والله سبحانه أعلم بالصواب.

ذكر ولاية قيس بن الهيثم خراسان

وفي هذه السنة استعمل ابن عامر قيس بن الهيثم السلمِيّ على خراسان وكان أهل باذغيس، وهراة وبوشنج قد نكثوا فسار إلىٰ بلخ فأخرب نوبهارها؛ وكان الذي تولىٰ ذلك عطاء بن السائب مولىٰ بني ليث وهو الخشك وإنما سُمِّيَ عطاء الخشك لأنه أوّل مَنْ دخل مدينة «هراة» من المسلمين من باب خشك واتخذ قناطر على ثلاثة أنهار من بلخ علىٰ فرسخ فقيل (قناطر عطاء) ثم إنّ أهل بلخ سألوا الصلح ومراجعة الطّاعة فصالحهم قيس، وقيل: إنما صالحهم الربيع بن زياد سنة إحدى وخمسين، وسيَرِد ذكره. ثم قدِم قيس علىٰ ابن عامر فضربه، وحبسه، واستعمل عبدالله بن خازم فأرسل إليه أهلُ هراة، وباذغيس، وبوشنج يطلبون الأمان والصلح فصالحهم وحمل إلى ابن عامر مالاً.

(عبدالله بن خازم) بالخاء المعجمة.

ذكر خروج سهم بن غالب

وفي هذه السنة خرج سهم بن غالب الهجيمي علىٰ ابن عـامر في سبعين رجلاً ، منهم الخطيم الباهلي ـ وهو يزيد بن مالك ـ وإنما قيل له ـ : « الخطيم » لضربةٍ ضُرِبَها علىٰ وجهه فنزلوا بين الجسرَيْن . والبصرة فمرّ بهم عبادة بن فرص الليثي من الغزو ومعه ابنه ، وابن أخيه فقال لهم الخوارج : من أنتم ؟ قالوا : قوم مسلمون قالوا : كذبتم قال عبادة: سبحان الله ٱقْبَلُوا منا ما قَبِلَ رسولُ الله ﷺ مني فإنّي كذبته وقاتلته ثم أتيته فأسلمتُ ، فقبل ذلك مني قالوا : أنت كافر . وقتلوه ، وقتلوا ابنه ، وابن أخيه ، فخرج إليهم ابنُ عامر بنفسه وقاتلهم فقُتِل منهم عِدَّة ، وانحاز بقيتُهم إلىٰ أَجَمَة ،[١] وفيهم سهم ، والخطيم فعرض عليهم ابنُ عامر الأمان فَقَبِلوهُ فأمّنهم فرجعوا ، فكتب إليه معاوية يأمره بقَتْلهم ، فكتب إليه ابن عامر : إنّي قد جعلتُ لهم ذِمَّتك فلما أتىٰ زياد البصرة سنة خمس وأربعين هرب سهم ، والخطيم فخرجا إلىٰ الأهواز فاجتمع إلىٰ سهم » جماعـة فأقبل بهم إلىٰ البصرة فأخذ قوماً فقالوا : نحن يهود فخلّاهم ، وقتل سعداً مولىٰ قدامة بن مظعون ، فلما وصل إلىٰ البصـرة تفرّق عنـه أصحابـه فاختفىٰ سهم .

وقيل : إنّهم تفرقوا عند استخفائه فطلب الأمان وظنّ أنه يسوغ له عند زياد ما ساغ له عند ابن عامر فلم يؤمِّنه زياد وبحث عنه فدُلَّ عليه فأخذه ، وقتله ، وصلبه في داره . وقيل : لم يزل مستخفياً إلىٰ أن مات زياد فأخذه عبيدالله بن زيـاد فصلبه سنـة أربع وخمسين ، وقيل : قبل ذلك . فقال رجل من الخوارج :

فَـإنْ تكن الأحـزاب باؤوا بصَلْبـه ... فَـلا يبعـدنَّ الله سهمَ بن غـالـب

وأما الخطيم فإنه سأله زياد عن قتله عبادة فأنكره فسيّره إلىٰ البحرين ثم أعاده بعد ذلك

ذكر عدة حوادث

قيل : وفي هذه السنة وُلد علي بن عبدالله بن عباس، وقيل : ولد سنة أربعين قبل

---

(١) الأَجَمَة : الشجر الكثير الملتفّ ، جمعه : آجام .

أنْ يُقتل علي ، والأول أصح ، وباسم عليّ سماه ، وقال : سميته بأسم أحبّ الناس إليّ .

وحج بالناس هذه السنة عتبة بن أبي سفيان ، وقيل : عنبسة بن أبي سفيان .

وفي هذه السنة استعمل عَمْرو بن العاص عقبة بن نافع بن عبد قيس ـ وهو ابن خالة عمرو ـ علىٰ افريقية فانتهى إلىٰ « لواتة » ، و « مزاتة » فأطاعوا ثم كفروا فغزاهم مِنْ سنته فقتل وسبىٰ ثم افتتح في سنة اثنتين وأربعين «غدامس» فقتل وسبىٰ .

وفتح في سنة ثلاث وأربعين كوراً من كور السودان ، وافتتح « ودان » وهي من برقة ، وافتتح عامة بلاد بربر وهو الذي اختطّ « القيروان » سنة خمسين ، وسيذكر إن شاء الله تعالى .

وفيها مات لُبَيْد بن ربيعة الشاعر ، وقيل : مات يوم دخل معاوية الكوفة وعمره مائة سنة وسبع وخمسون سنة ، وقيل : مات في خلافة عثمان وله صُحبة وترك الشعر مذ أسلم .

ثم دخلت سنة اثنتين وأربعين

في هذه السنة غزا المسلمون اللان[1] وغزوا الروم أيضاً فهزموهم هزيمةً منكرة، وقتلوا جماعةً من بطارقتهم .

وفيها ولد الحجاج بن يوسف في قولٍ . وفيها وَلَّىٰ معاوية مروان بن الحكم المدينة ، وولى خالد بن العاص ابن هشام مكة ، فاستقضىٰ مروان عبدالله بن الحارث بن نوفل ، وكان علىٰ الكوفة المغيرة بن شعبة ، وعلى قضائها شريح ، وعلى خراسان قيس بن الهيثم استعمله ابن عامر ، وقيل : استعمله معاوية لما استقامتْ له الأمور فلمّا ولى ابن عامر البصرة أقره عليها .

ذكر الخبر عن تحرك الخوارج

وفي هذه السنة تحركتْ الخوارجُ الذين كانوا انحازوا عمن قتل في النهر ومن كان ارتث من جراحته في النهر فبرؤا وعفا عليّ عنهم .

وكان سبب خروجهم أنّ حيان بن ظبيان السلمّي كان خارجيّاً وكان قد ارتُثّ يوم النهر فلما برىء لحق بالريّ في رجالٍ معه فأقاموا بها حتى بلغهم مقتل عليّ فدعا أصحابه وكانوا بضعة عشر أحدهم سالم بن ربيعة العبسيّ فأعلمهم بقَتْل عَليّ فقال سالم : « لاشُلَّتْ يمينٌ علتْ قَذَالَة بالسَّيف » وحمدوا الله علىٰ قَتْله رضي الله عنه ولا رضيَ عنهم ، ثم إن سالماً رجع عن رأي الخوارج بعد ذلك وصلح .

ودعاهم حيان إلى الخروج ومقاتَلة أهل القبلة فأقبلوا إلى الكوفة فأقاموا بها حتىٰ قدِمَها معاوية، واستعمل علىٰ الكوفة المغيرة بن شُعْبَة فأحبّ العافية وأحسن [في

(١) اللان :بلاد وأمّة في طرف أرمينية .

الناس] السيرة وكان يؤتىٰ فيقال له : إنّ فلاناً يرىٰ رأي الشيعة ، وفلاناً يرىٰ رأي الخوارج. فيقول: قضىٰ الله أنْ لا يزالوا مختلِفين، وسيحكم الله بين عباده. فأمنه الناسُ ، وكانت الخوارج يلقىٰ بعضُهم بعضاً ويتذاكرون مكان إخوانهم بالنهر فاجتمعوا علىٰ ثلاثة نفر : علىٰ المستورد بن علفة التيمي من تيم الرباب ، وعلىٰ معاذ بن جوين الطائي ـ وهو ابن عم زيد بن حصين الذي قُتل يوم النهر ـ ، وعلىٰ حيان بن ظبيان السلميّ ، واجتمعوا في أربعمائة فتشاوروا فيمن يولّون عليهم فكلمهم دفع الإمارةَ عن نفسه ثم اتفقوا فولَّوا المستورد وبايعوه ذلك في جمادىٰ الآخرة واتَّعَدُوا للخروج واستعدُّوا ، وكان خروجهم غُرَّة شعبان سنة ثلاث وأربعين .

(عُلِّفَة) بضم العين المهملة وتشديد اللام المكسورة وفتح الفاء .

ذكر قدوم زياد علىٰ معاوية

وفي هذه السنة قدم زياد علىٰ معاوية [مِن فارس] ، وكان سبب ذلك أنّ زياداً كان قد استودع ماله عبد الرحمن بن أبي بكرة وكان عبد الرحمن يلي ماله بالبصرة وبلغ معاوية ذلك فبعث المغيرة بن شعبة لينظر في أموالِ زياد فأخذ عبد الرحمن فقال له : إنْ كان أبوك قد أساء إليّ لقد أحسن عمك ـ يعني زياداً ـ وكتب إلىٰ معاوية إنّي لم أجد في يد عبد الرحمن ما لا يحل لي أخذه . فكتب إليه معاوية أنْ عَذِّبْ عبد الرحمن . فأراد أن يعذر ، وبلغ ذلك معاوية فقال لعبد الرحمن : احتفظْ بما في يديك وألقىٰ علىٰ وجهه حريرة ونضحها بالماء فغشىٰ عليه ففعل ذلك ثلاث مرات ثم خَلّاه ، وكتب إلىٰ معاوية إني عذبته فلم أُصِبْ عنده شيئاً وحفِظ لزياد يده عنده ، ثم دخل المغيرة علىٰ معاوية فقال معاوية حين رآه :

إنَّما مَوْضِعُ سِرِّ المَرْءِ إنْ ... بَاحَ بِالسِّرِّ أَخُوهُ المُنْتَصِحْ
فإذا بُحْتَ بِسِرٍّ فإلىٰ ... نَاصِحٍ يَسْتُرُهُ أَوْ لا تَبُحْ

فقال المغيرة : يا أمير المؤمنين إنْ تستودِعْني تستودعْ ناصحاً مشفقاً . وما ذلك ؟ فقال له معاوية : ذكرتُ زياداً واعتصامه بفارس فلم أنم ليلتي . فقال المغيرة : ما زياد هناك فقال معاوية : داهيةُ العرب ، معه أموال فارس ، يدبرُ الحيل ، ما يؤمنني أنْ يبايعَ لرجلٍ مِنْ أهل هذا البيت فإذا هو قد أعاد الحرب جزعة فقال المغيرة : أتأذن لي يا أمير

المؤمنين في إتيانه ؟ قال : نعم [فأته] وتلطف له .

فأتاه المغيرة وقال له : إنّ معاوية استخفّه الوَجَل حتىٰ بعثني إليك ولم يكن أحدٌ يمدّ إلىٰ هذا الأمر غير الحسن وقد بايع فَخُذْ لنفسك قبل التوطين فيستغني معاوية عنك قال : أشرْ عليّ وآرم الغرض الأقصىٰ ، [ودع عنك الفضول] فإنّ المستشار مؤتمن فقال له المغيرة : [في محض الرأي بشاعة ولا خير في المذيق] . أرىٰ أنْ تصلْ حبلك بحبله ، وتشخص إليه ويقضي الله . وكتب إليه معاوية بأمانه بعد عود المغيرة عنه فخرج زياد من فارس نحو معاوية ومعه المنجاب بن راشد الضبيّ ، وحارثة بن بدر الغداني .

وسرح عبدالله بن عامر عبدالله بن خازم في جماعة إلىٰ فارس وقال : لعلك تلقىٰ زياداً في طريقك فتأخذه ، فسار ابن خازم [إلىٰ فارس] فلقي زياداً بارجان فأخذ بعنانه وقال : انزلْ يا زياد . فقال له المنجاب: تنحَّ يا بن السوداء وإلاّ علقت يدك بالعنان وكانت بينهم منازعة . فقال له زياد : قد أتاني كتاب معاوية وأمانه فتركه ابن خازم .

وقدِم زياد علىٰ معاوية وسأله عن أموالِ فارس فأخبره بما حمل منها إلى عليّ وبما أنفق منها في الوجوه التي تحتاج إلىٰ النفقة وما بقي عنده ، وأنه مودع للمسلمين . فصدّقه معاوية فيما أنفق وفيما بقي عنده وقبضَه منه .

وقيل : إنّ زياداً لمّا قال لمعاوية : قد بقيت بقية من المال وقد أودعتها مكث معاوية يردده فكتب زياد كتباً إلىٰ قوم أودعهم المال وقال لهم : قد علمتم مالي عندكم من الأمانة فتدبروا كتاب الله ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ ﴾[1] الآية فاحتفظوا بما قبلكم وسمىٰ في الكتب المال الذي أقرّ به لمعاوية ، وأمر رسوله أنْ يتعرض لبعض مَنْ يبلغ ذلك معاوية ففعل رسوله ، وانتشر ذلك ، فقال معاوية لزياد حين وقف علىٰ الكُتُب ، أخافُ أنْ تكون مَكَرْتَ بي فصالِحْني علىٰ ما شئت فصالحه علىٰ شيء وحمله إليه ومبلغه ألف ألف درهم ، واستأذنه في نزوله الكوفة ، فَأَذِن له . فكان المغيرة يكرمه ويعظمه ، فكتب معاوية إلىٰ المغيرة ليُلْزِم زياداً ، وحُجْر بن عدي ، وسليمان بن صرد ، وشبث بن ربعي ، وابن الكواء بن الحمق

---

(١) الأحزاب : ٧٢ .

بالصلاة في الجماعة فكانوا يحضرون معه الصلاة وإنما ألزمهم ذلك لأنهم كانوا مِن شيعة عليّ .

ذكر عدة حوادث

وحج هذه السنة بالناس عنبسة بن أبي سفيـان . وفيها مـات حبيب بن مسلمة الفهري بأرمينية وكان أميراً لمعاوية عليها وكان قد شهد معه حروبه كلها وفيها مـات عثمان بن طلحة بن أبي طلحة العبدري له صحبة . وفيها مات ركانة بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب وهو الذي صارعَ النبي ﷺ ، وصفوان بن أمية بن خلف الجمحّي وله صحبة . وفيها مات هانىء بن نِيَار بن عمرو الأنصاريّ ـ وهو خال البَرَاء بن عازب ـ وقيل : سنة خمس وأربعين وكان بدرياً عَقِبياً .

(نِيَار) بكسر النون وفتح الياء تحتها نقطتان وآخره راء .

ثم دخلت سنة ثلاث وأربعين

في هذه السنة غزا بُسْر بن أبي أرطأة الروم وشتىٰ بأرضِهم حتىٰ بلغ القسطنطينية فيما زعم الواقديّ ، وأنكر ذلك قومٌ من أهل الأخبار وقالوا : لم يشتُ بُسر بأرض الروم قط . وفيها مات عمرو بن العاص بمصر يوم الفطر وكان عمل عليها لعُمر أربع سنين ، ولعثمان أربع سنين إلاّ شهرين ، ولمعاوية سنتين إلا شهراً .

وفيها ولىٰ معاوية عبدالله بن عَمرو بن العاص مصر فوليها نحواً من سنتين . وفيها مات محمد بن مسلمة بالمدينة في صفر وصلىٰ عليه مَرْوان بن الحكم وعمره سبع وسبعون سنة .

ذكر مقتل المستورِد الخارجيّ

وفيها قُتل المستورِد بن عُلَّفة التَّيِمِيّ تَيم الرباب وقد ذُكر سنة اثنتين وأربعين تحرّك الخوارج وبيعتهم له ومخاطبته بأمير المؤمنين ، فلما كان هذه السنة أخبر المغيرة بن شعبة بأنهم أجتمعوا في منزل حيان بن ظبيان السلميّ واتّعدوا للخروج غرة شعبان فأرسل المغيرة صاحب شرطته ـ وهو قبيصة بن الدمون ـ فأحاط بدار حيان هو ومَنْ معه وإذا عنده معاذ بن جوين ونحو عشرين رجلاً ، وثارت امرأته وهي أم ولد كانت له كارهة ، فأخذتْ سيوفهم فألقتها تحت الفِرَاش وقاموا ليأخذوا سيوفَهم فلم يجدوها فاستسلموا ، فانْطَلَقَ بهم إلى المغيرة فحبسهم بعد أنْ قَرَّرهم فلم يعترفوا بشيءٍ وذكروا أنهم اجتمعوا لقراءة القرآن ، ولم يزالوا في السجن نحو سنة ، وسمع إخوانُهم [بأخذهم] فحذروا وخرج صاحبهم المستورد فنزل الحيرة واختلفتْ الخوارجُ إليه فرآهم حجار بن أبجر فسألوه أنْ يكتم عليهم ليلتهم تلك فقال : « سأكتمُ عليكم الدهر » فخافوه أن يذكر حالهم للمغيرة فتحوّلوا إلىٰ دار سليم بن مجدوح العبديّ ،

وكـان صهـر للمستـورد ـ ولم يـذكـر حجار مِنْ أخبـارهم شيئاً ، وبلغ المغيـرة خبرَهم وأنّهم عازمون علىٰ الخروج تلك الأيام فقام في الناس فحمد الله ثم قال : لقد علمتم أنّي لم أزل أحبُّ لجمـاعتكم العافية ، وأكف عنكم الأذىٰ ، وخشيتُ أنْ يكونَ ذلك أدبَ سوءٍ لسفهائكم ، وقد خشيتُ مِنْ أنْ لا نجد بدّاً مِنْ أنْ [(١)] يؤخذ الحليم التقيّ بذنب الجاهل السفيه . فكُفُّوا عنه سفهـاءكم قبلَ أنْ يشمـلَ البلاءُ عوامَّكم وقد بلغنا أنْ رجالاً [منكم] يريدون أنْ يظهروا في المِصْر بالشقاق ، والنفاق ، والخِلَاف ، وأيم الله لا يخرجون في حيٍّ مِنْ أحياء العرب إلاّ أهلكتُهم وجعلتُهم نَكَالاً لمن بعدهم » .

فقام إليه معقل بن قيس الرياحي فقال : أيها الأمير أَعلمنَا بهؤلاء القوم فإنْ كانوا مِنّا كفيناكهم وإنْ كانوا غيرنا أمرتَ أهلَ الطاعة فأتاك كل قبيلة بسفهائهم؟ فقال: ما سُمِّيَ لي أحدٌ باسمه فقال معقل: أنا أكفيك قومي ، فليكفك كلُّ رئيسٍ قومَه.

فأحضر المغيرة الرؤساء وقال لهم : « ليكفني كلُّ رجلٍ منكم قومَه وإلاّ فوالله لأتحوّلَنّ عما تعرفون إلىٰ ما تنكرون ، وعما تحبون إلىٰ ما تكرهون » فرجعوا إلىٰ قومهم فناشدوهم الله والإسلام إلاّ دَلُّوهُم علىٰ كل مَنْ يريد أنْ يهيّج الفتنة ، وجاء صعصعة بن صوحان إلىٰ عبد القيس ـ وكان قد عَلِم بمنزل حيان في دار سليم ولكنّه كره أنْ يؤخَذَ من عشيرته علىٰ فراقه لأهل الشام وبغضه لرأيهم ، وكره مساءة أهل بيتٍ مِنْ قومه فقام فيهم فقال : « أيها الناس إنّ الله وله الحمد لمّا قسم الفضلَ خَصَّكم بأحسن القِسَم فأجبتم إلىٰ دين الله الذي اختاره لنفسه وآرتضاه لملائكته ورُسُلِه ، ثم أقمتم [عليه] حتىٰ قبض الله رسولَه ﷺ، ثم اختلف الناسُ بعده فثبتت طائفةٌ وارتدّت طائفةٌ، وادهنَت طائفة ، وتربصْت طائفةٌ فلزمتم دينَ الله إيماناً به وبرسوله ، وقاتلتم المرتدين حتىٰ قام الدين وأهلَكَ الله الظالمين ، ولم يزل الله يزيدكم بذلك خيراً حتى اختلفتْ الأمة بينها فقالت طائفةٌ :نريدُ طلحة والزبير، وعائشة، وقالت طائفة نريدُ أهلَ المغرب[(٢)] وقالتْ طائفةٌ : نريدُ عبدالله بن وهب الراسبيّ وقلتم أنتم : لا نريدُ إلاّ أهل بيتِ نبينا الذين

---

(١) في المطبوعة (من أن لا يؤخذ) وهو مخالف للسياق ، وما أثبتناه من الطبري ٥/ ١٨٤ .

(٢) يريد أهل الشام .

ابتدأنا الله عز وجل مِن قبلهم بالكرامة تسديداً من الله عز وجل لكم وتوفيقاً فلم تزالوا علىٰ الحق لازمين له آخذين به حتىٰ أهلك الله بكم وبمن كان علىٰ مثل هَدْيِكُم الناكثين يومَ الجمل ، والمارقين يوم النهر ـ وسكتَ عن ذِكْرِ أهل الشام لأنَّ السلطان لهم ـ فلا قومٌ أعدىٰ لله ولكم ولأهل بيتِ نبيكم مِنْ هذه المارقة الخاطئة الذين فارقوا إمَامَنا ، واستحلّوا دماءنا وشهدوا علينا بالكفر فإيّاكم أنْ تؤوهم في دُورِكم ، أو تكتموا عليهم شيئاً فإنّه لا ينبغي لحيٍّ مِنْ أحياء العرب أنْ يكون أعدى[1] لهذه المارقة منكم ، وقد ذُكِرَ لي أنّ بعضهم في جانبٍ من الحيّ وأناباحثٌ عن ذلك فإنْ يكُ حقاً تقربتُ إلىٰ الله بدمَائِهِم فإنّ دماءَهم حلال » .

وقال : « يا معشر عبد القيس إنّ ولاتنا هؤلاء أعرفُ شيء بكم وبرأيكم فلا تجعلوا لهم عليكم سبيلاً فإنهم أسرع إليكم وإلىٰ مثلكم » . ثم جلس ، وكل قوم قال: لعنهم الله وبرىء منهم لا نؤيهم ، ولئن علمنا بمكانهم لنطلعنّك عليهم غير سليم بن محدوج فإنّه لم يقل شيئاً ورجع كئيباً يكره أنْ يُخْرِجَ أصحابَه مِنْ داره فيلوموه ، ويكره أنْ يؤخَذوا في داره فيهلكوا ويهلك معهم . وجاء أصحاب المستورد إليه فأعلموه بما قام به المغيرة في الناس ، وبما قام به رؤوسهم فيهم ، فسأل ابن محدوج عما قام به صعصعة في عبد القيس فأخبره ، وقال : كرهتُ أنْ أعلِمَكم فتظنّوا أنّه ثقل عليّ مكانكم فقال له : قد أكرمتَ المثوىٰ ، وأحسنتَ ، ونحن مرتحِلون عنك .

وبلغ الخبر اللذين في محبس المغيرة من الخوارج، فقال معاذ بن جوين بن حصين في ذلك:

ألاَ أيُّها الشَّارُونَ قَدْ حَانَ لامرىءٍ	شَرَىٰ نفسَه لله أنْ يَترحَّلاَ
أَقَمْتمُ بدارِ الخَاطِئينَ جَهَالـةً	وكلُّ امرىءٍ منكم يصادُ ليُقْتَلاَ
فَشُدُّوا علىٰ القوم العُدَاةِ فإنَّما	اقَامَتُكُمُ للذبْحِ رأياً مُضَلَّلاَ
ألا فاقصدِوا يَا قوم للغَاية التي	إذا ذُكِرَتْ كانتْ أَبَرَّ وَأَعْدَلاَ
فياليتَنِي فيكم علىٰ ظهرِ سَابحٍ	شديدِ القُصَيْرَىٰ دارِعاً غيرَ أعْزَلاَ
ويا ليتني فيكم أعادي عدوَّكمْ	فَيسقيَني كأسَ المنيَّة أوّلا

---

(١) الطبري: أن يكون أعدى .

يعــزُّ عليَّ أنْ تُخافــوا وتُــطْرَدُوا ... وَلما أُجَرِّدْ في المُحِلِّيْن مُنْصُلا[١]
ولمـا يُفـرِّقْ جَمْعَهم كـلُّ مـاجِدٍ ... إذَا قلتَ قـد وَلَّىٰ وأدْبَـرَ اقبَـلا
مُشِيْحاً بنَصْلِ السيفِ في حَمَسِ الوَغَىٰ ... يرىٰ الصبْرَ في بعض المواطِنِ أمثلاَ
وعـزَّ عليّ أنْ تُصابـوا وتُنْقَصوا ... وأصبـح ذَا بثٍّ أسيـراً مُكَبَّـلا
ولـو أنَّني فيكم وقـد قصدوا لكمْ ... أثَـرْتُ إذاً بين الفـريقَيْنِ قَسْـطَلا
فيـا رُبَّ جَمْـع قـد فلَلتُ وغـارةٍ ... شَهِدْتُ وقِرْنٍ قـد تركْتُ مُجَدَّلا

وأرسل المستورد إلىٰ أصحابه فقال لهم: اخرجوا من هذه القبيلة ، واتعـدوا سوراء[٢] فخرجوا إليها منقطعين ، فاجتمعوا بها ثلاثمائة رجل ، وساروا إلىٰ الصَّراة[٣] فسمع المغيرة بن شعبة خبرهم فدعا رؤساء الناس فاستشارهم فيمن يرسله إليهم فقال له عَدِيّ بن حاتم ، كُلُّنا لهم عدوّ ، ولرأيهم مبغض ، وبطاعتك مستمسك فأيّنا شئتَ سار إليهم . وقال له معقل بن قيس : إنك لا تبعث إليهم أحَداً ممن ترىٰ حولك إلاّ رأيته سامعاً مطيعاً ، ولـهم مفارقاً ، ولهلاكهم محبّاً ، ولا أرىٰ أنْ تبعث إليهم أحداً من الناس أعدىٰ لهم مني ، فابْعثني لهم فأنا أكفيكهم بإذن الله تعالىٰ . فقال : آخرجْ علىٰ اسم الله فجهز معه ثلاثة آلاف . وقال المغيرة لصاحب شرطته :آلصقْ بمعقل شيعة عليّ فإنه كان مِن رؤساء أصحـابه فـإذا اجتمعوا استـأنس بعضهم ببعض وهم أشدّ استحلالاً لدماءِ هذه المارقة وأجرأ عليهم مِنْ غيرهم فقد قاتلوهم قبل هذه المرة . وقال له صعصعة بن صوحان ، نحواً مِن قول معقل فقال لـه المغيرة : اجلْس فـإنّما أنت خطيبٌ فأحفظه ذلك ، وإنما قال له ذلك لأنه بلغه أنه يعيب عثمان بن عفان ويكثر ذِكر عليّ ويفضّله .

وكان المغيرة دعاه وقال له : إيّاك أنْ يبلغني أنّك تعيب عثمان وإياك أنْ يبلغني أنّك تظهر شيئاً مِنْ فَضْل عليّ فأنا أعلم بذلك منك ولكن هذا السلطان قد ظهرَ وقد أُخذْنَا بإظهار عَيبه للناس فنحن نَدَعُ شيئاً كثيراً بما أُمِرْنَا به ونذكر الشيءَ الذي لا نجدُ منه بدّاً ندفع به هؤلاء القوم عن أنفسِنا [تَقِيَّة] فإنْ كنتَ ذاكراً فضله فاذكره بينك وبين

---

(١) الطبري ١٨٧/٥ : متصلاً ـ بالصاد المهملة .
(٢) سُوراء : موضع قيل إلى جنب بغداد وقيل بغداد نفسها .
(٣) الصَّرَاة : نهران ببغداد الصراة الكبرىٰ، والصراة الصغرىٰ.

أصحابك في منازلكم سرّاً وأما علانية في المسجد فإنّ هذا لا يحتمله الخليفة لنا . فكان يقول له : نعم ، ثم يبلغه عنه أنه فعل ذلك فحقد عليه المغيرة فأجابه بهذا الجواب فقال له صعصعة : وما أنا إلاّ خطيبٌ فقط ! قال : أجل . فقال : والله إنّي للخطيب الصليب الرئيس، أما والله لو شهدتني يومَ الجمل حيثُ اختلفتْ القنا فشؤون تفري وهامة تختلي لعلمتَ أنّي الليثُ النهد فقال : حسبُك لَعَمْرِي [الآن] لقد أوتيتَ لساناً فصيحاً .

وخرج معقل ومعه ثلاثة آلاف فارس نقاوة الشيعة وسار إلىٰ سوراء ولحقه أصحابه، وأما الخوارج فإنهم ساروا إلى «بَهُرسير»[١] وأرادوا العبور إلىٰ المدينة العتيقة التي فيها منازل كسرىٰ فمنعهم سماك بن عبيد الأزديّ العبسيّ وكان عاملاً عليها فكتب إليه المستورد يدعوه إلى البراءة مِنْ عثمان، وعليّ وأنّ يتولاّه وأصحابه فقال سماك : بِئس الشيخُ أنا إذاً وأعاد الجواب علىٰ المستورد يدعوه إلىٰ الجماعة وأنْ يأخذ له الأمان ، فلم يُجب ، وأقام بالمدائن ثلاثة أيام ، ثم بلغه مسير معقل إليهم فجمعهم المستورد وقال لهم : إنّ المغيرة قد بعث إليكم معقل بن قيس وهو مِن السبئية المفترين الكاذبين فأشيروا عليَّ برأيكم .

فقال بعضهم: خرجنا نريدُ الله والجهاد وقد جاؤنا فأينَ نذهب ! بل نقيمُ حتىٰ يحْكُمَ الله بيننا ، وقال بعضهم: بل نتنحىٰ ندعو الناسَ ونحتجّ عليهم بالدعاء ، فقال لهم : لا أرىٰ أنْ نقيمَ حتى يأتونا وهم مستريحون بل أرىٰ أنْ نسير بين أيديهم فيخرجوا في طلبنا فينقطعوا ويتبددوا فنلقاهم علىٰ تلك الحال .

فساروا فعبروا بجرجرايا ومضوا إلىٰ أرض «جوخى» ثم بلغوا المذار فأقاموا بها وبلغ ابن عامر بالبصرة خبرُهم فسأل كيف صنع المغيرة ، فأخبر بفعله فاستدعىٰ شريك بن الأعور الحارثي ـ وكان من شيعة عليّ ـ فقال له : اخرُج إلىٰ هذه المارقة ففعل ، وانتخب معه ثلاثة آلاف فارس من الشيعة وكان أكثرهم من ربيعة وسار بهم إلى المذار .

وأما معقل بن قيس فسار إلى المدائن حتىٰ بلغها فبلغه رحيلهم فشقّ ذلك علىٰ

---

(١) بَهُرَسِيْر: من نواحي بغداد قرب المدائن .

الناس فقال لهم معقل: إنهم ساروا لتتبعوهم وتتبددوا وتنقطعوا فتلحقوهم وقد تَعِبْتم وأنه لا يصيبكم شيءٌ مِنْ ذلك إلا وقد أصابهم مثل ذلك وسار في آثارهم وقدِم بين يديه أبا الرواغ الشاكريّ في ثلاثمائة فارس فتبعهم أبو الرواغ حتىٰ لحقهم بالمذار فاستشار أصحابه في قتالهم قبل قدوم معقل فقال بعضهم : لا تفعلْ ؛ وقال بعضهم : بل نقاتلهم فقال لهم : إنّ معقلاً أمرني أن لا أقاتلهم . فقالوا له : ينبغي أنْ تكون قريباً منه حتىٰ يأتي معقل ـ وكان ذلك عند المساء ـ فباتوا يتحارسون حتىٰ أصبحوا فلمّا ارتفع النهار خرجتْ الخوارجُ إليهم وكانوا أيضاً ثلاثمائة وحملوا عليهم فانهزمَ أصحابُ أبي الرواغ ساعة ثم صاح بهم أبو الرواغ الكرّة الكرّة وحمل ومعه أصحابه فلما دنوا مِن الخوارج عادوا منهزمين إلاّ أنهم لم يُقتل منهم أحدٌ فصاح بهم أبو الرواغ أيضاً : « ثكلتكم أمهاتُكم ارجعوا بنا نَكُن قريباً منهم لا نفارقهم حتىٰ يقدم علينا أميرُنا ، وما أقبح بنا أن نرجع إلىٰ الجيش منهزمين مِن عدونا » .

فقال له بعضُ أصحابه: إنّ الله لا يستحي مِنْ الحق قد والله هزمونا فقال له : لا أكثرَ الله فينا مثلك إنّا ما لم نفارق المعركة لم نُهزم ، ومتىٰ عطفنا عليهم وكنّا قريباً منهم فنحن علىٰ حالٍ حسنة فقِفوا قريباً منهم فإنْ أتوكم وعجزتم عنهم فتأخّروا قليلاً فإذا حملوا عليكم وعجزتم عن قتالهم فانحازوا علىٰ حامية فإذا رجعوا عنكم فاعطفوا عليهم وكونوا قريباً منهم فإنّ الجيش يأتيكم عن ساعة » .

فجعلتْ الخوارجُ كلما حملتْ عليهم انحازوا عنهم فإذا عاد الخوارج رجع أبو الرواغ في آثارهم فلم يزالوا كذلك إلىٰ وقت الظهر فنزل الطائفتان يصلُّون ، ثم أقاموا إلىٰ العصر وكان أهل القرىٰ والسيّارة قد أخبرَوا معقلاً بالتقاء الخوارج وأصحابه وأنّ الخوارج تطرد أصحابه بين أيديهم فإذا رجعوا أعاد أصحابه خلفهم . فقال معقل : « إنْ كان ظنّي في أبي الرواغ صادقاً لا يأتيكم منهزماً أبداً » .

ثم أسرع السير في سبعمائة من أهل القوّة ، واستخلف محرز بن شهاب التميميّ علىٰ ضعفة الناس فلمّا أشرفوا علىٰ أبي الرواغ قال لأصحابه. هذه غبرة فتقدموا بنا إلىٰ عَدوِّنا حتىٰ لا يرانا أصحابُنا أنا تنحينا عنهم وهِبناهم . فتقدّم حتىٰ وقف مقابل الخوارج ولحقهم معقل، فلما دنا منهم غربت الشمس فصلى بأصحابه، وصلىٰ أبو الرواغ بأصحابه، وصلىٰ الخوارجُ أيضاً، وقال أبو الرواغ لمعقل: إنّ لهم شدّات منكرات فلا

تلها بنفسك ولكنْ قِفْ وراءَ الناس تكون رَدْأً لهم .

فقال: نِعْمَ ما رأيتَ فبينا هو يخاطبه حملتْ الخوارجُ عليهم فانهزمَ عامةُ أصحاب معقل وثبت هو فنزل إلىٰ الأرض ومعه أبو الرواغ في نحو مائتي رجل فلما غشيَهم المستورِد استقبلوه بالرماح . والسيوف فانهزمت خيلُ معقل ساعة ثم ناداهم مسكين بن عامر وكان شجاعاً ؛ أين الفرار وقد نزل أميرُكم ألا تستحيون ! ثم رجع ورجعتْ معه خيلٌ عظيمة ، ومعقل بن قيس يقاتل الخوارج بمن معه فلم يزل يقاتلهم حتىٰ ردهم إلىٰ البيوت ، ثم لم يلبثوا إلا قليلاً حتىٰ جاءهم محرز بن شهاب فيمن معه فجعلهم معقل ميمنة وميسرة وقال لهم : لا تبرحوا حتىٰ تصبحوا ونثور إليهم ، ووقف الناسُ بعضهم مقابل بعض فبينما هم متواقفون أتىٰ الخوارجَ عَيْنٌ لهم فأخبرهم أنّ شريك بن الأعور قد أقبل إليهم من البصرة في ثلاثة آلاف . فقال المستورد لأصحابه : لا أرى أنْ نقيم لهؤلاء جميعاً ، ولكنّي أرىٰ أنْ نرجع إلىٰ الوجه الذي جئنا منه فإنّ أهلَ البصرة لا يتبعونا إلىٰ أرض الكوفة فيهون علينا قتال أهل الكوفة ، ثم أمرهم بالنزول ليريحوا دوابّهم ساعة ففعلوا ثم دخلوا القرية وأخذوا منها مِنْ دَلَّهم علىٰ الطريق الذي أقبلوا منه وعادوا راجعين .

وأما معقل فإنه بعث مَنْ يأتيه بخبرهم حين لم ير سوادَهم فعاد إليه بالخبر أنّهم قد ساروا فخاف أنْ تكون مكيدة ، وخاف البيات فآحتاط هو وأصحابُه إلىٰ الصباح فلمّا أصبحوا أتاهم مَنْ أخبرهم بمسيرهم ، وجاء شريك بن الأعور فيمن معه فلقي معقلاً فتساءلا ساعةً وأخبره معقل بخبرهم فدعا شريك أصحابه إلىٰ المسير مع معقل فلم يجيبوه فاعتذر إلىٰ معقل بخلاف أصحابه وكان صديقاً له يجمعهما رأي الشيعة ، ودعا معقل أبا الرواغ وأمره باتّباعهم فقال له : زِدْني مثل الذين كانوا معي ليكون أقوىٰ لي إنْ أرادوا مناجزتي [قبل قدومي] فبعث معه ستمائة فارس فساروا سراعاً حتىٰ أدركوا الخوارج بجرجرايا وقد نزلوا فنزل بهم أبو الرواغ مع طلوع الشمس فلمّا رأوهم قالوا : إنّ قتال هؤلاء أيسر مِنْ قتال مَنْ يأتي بعدهم فحملوا علىٰ أبي الرواغ وأصحابه حملةً صادقةً فانهزم أصحابه وثبت في مائة فارس فقاتلهم طويلاً وهو يقول :

إنّ الفتىٰ كلّ الفتىٰ مَنْ لم يُهَلْ ... إذَا الجَبانُ حَادَ عن وَقْعِ الأَسَلْ
قد عَلِمَتْ أنّي إذا البأس نزلْ ... أرُوعُ يَوْمَ الهَيْجِ مِقْدامٌ بَطَلْ

ثم عطف أصحابَه مِنْ كل جانب فصدقوهم القتال حتىٰ أعادوهم إلىٰ مكانهم ، فلمّا رأىٰ المستورِد ذلك علم أنهم إنْ أتاهم معقل ومَنْ معه هلكوا فمضىٰ هو وأصحابه فعبروا دجلة ووقفوا في أرض بهرسير وتبعهم أبو الرواغ حتىٰ نزل بهم بساباط فلمّا نزل بهم قال المستورد لأصحابه : « إنّ هؤلاء هم حُماة أصحابِ معقل وفرسانه ولو علمتُ أنّي اسبقهم إليه بساعة لسرتُ إليه فواقعته » ؛ ثم أمر مَنْ يسأل عن معقل فسألوا بعضَ مَنْ علىٰ الطريق فأخبروهم أنّه نزل «ديلمايا»[1] وبينهم ثلاثة فراسخ ، فلما أُخْبِر المستوردِ بذلك ركب وركب أصحابه وأقبل حتىٰ انتهىٰ إلىٰ جسر ساباط وهـو جشر نهـر ملك وهو مِنْ جانبه الذي يلي الكوفة وأبو الرواغ مِنْ جانب المدائن فقطع المستورِد الجسر ولمّا رآهم أبو الرواغ قد ركبوا عَبّاً أصحابه واعتزل إلىٰ صحراء بين المدائن، وساباط ليكون القتال بها ووقف ينتظرهم ؛ فلما قطع المستورد الجسر سار إلىٰ « ديلمايا » نحو معقل ليوقع به فانتهىٰ إليه وأصحابه متفرقون عنه وهو يريد الرحيل ، وقد تقدم بعض أصحابه فلمّا رآهم معقل نصب رايته [ونزل] ونادىٰ : « يا عبادَ الله الأرض الأرض » فنزل معه نحو مائتي رجل فحملتْ الخوارجُ عليهم فاستقبلوهم بالرماح جثاة علىٰ الركب فلم يقدروا عليهم فتركوهم وعدلوا إلىٰ خيولهم فحالوا بينهم وبينها وقـطعوا أُعِنَّتَهـا [وقد كـانوا نزلوها] فذهبتْ في كل جانب ، ثم مالوا علىٰ المتفرقين من أصحاب معقل ففرقـوا بينهم ثم رجعوا إلىٰ معقل وأصحابه وهم علىٰ الركب [على حالهم التي كانوا عليها] فحملوا عليهم فلم يتجلجلوا[2] فحملوا أخرىٰ فلم يقدروا عليهم ، فقـال المستورد لأصحابه : « لينزل نصفُكم ويبقىٰ نصفُكم علىٰ الخيل « ففعلوا ، واشتدّ الحالُ علىٰ أصحاب معقل وأشرفوا علىٰ الهلاك فبينما هم كذلك إذْ أقبل أبو الرواغ عليهم فيمن معه .

وكان سبب عوده إليهم أنّه أقام بمكانه ينتظرهم فلمّا أبطأوا عليه أرسل مَنْ يأتيه بخبرهم فرأوا الجسر مقطوعاً ففرحوا ظَنًّا منهم أنّ الخوارج فعلوا ذلك هيبة لهم فرجعوا إلىٰ أبي الرواغ فأخبروه أنهم لم يروهم وأنّ الجسرَ قد قطعوه هيبة لهم، فقال لهم أبو الرواغ : «لعمري ما فعلوا هذا إلاّ مكيدة، وما أراهم إلاّ وقد سبقوكم إلىٰ معقل حيث رأوا فرسان أصحابه معي ، وقد قطعوا الجسرَ ليشغلوكم به عن لحاقهم فالنجاء النجاء في

(١) في معجم البلدان: ديلمان : من قرىٰ أصبهان بناحية جرجان

(٢) الطبري : فلم يتحلحلوا .

الطلب» ثم أمرَ أهلَ القرية فعقدوا الجسر وعبر عليه، واتبع الخوارج فلقيه أوائل الناس منهزمين فصاح بهم: «إليَّ إليَّ». فرجعوا إليه وأخبروه الخبر، وأنهم تركوا معقلاً يقاتلهم وما يظنونه إلّا قتيلاً فجدّ في السير، وردّ معه كل مَنْ لَقِيَه مِنَ المنهزمين فانتهىٰ إلىٰ العسكر فرأىٰ راية معقل منصوبة والناس يقتتلون فحمل أبو الرواغ ومن معه علىٰ الخوارج فأزالوهم غير بعيد، ووصل أبو الرواغ إلىٰ معقل فإذا هو متقدّم يحرّض أصحابه فشدّوا علىٰ الخوارج شدَّةً منكرة، ونزل المستورِد ومَنْ معه مِن الخوارج، ونزل أصحاب معقل أيضاً، ثم اقتتلوا طويلاً مِنْ النهار بالسيوف أشدّ قتال، ثم إنَّ المستورد نادىٰ معقلاً ليبرز إليه فبرز إليه فمنعه أصحابه فلم يَقبل منهم، وكان معه سيفه ومع المستورد رمحه فقال أصحاب معقل: خُذْ رمحك فأبىٰ، وأقبل علىٰ المستورد فطعنه المستورد برمحه فخرج السنان مِنْ ظهره وتقدّم معقل والرمح فيه إلىٰ المستورد فضربه بالسيف فخالط دماغَه فوقع المستورد ميتاً ومات معقل أيضاً، وكان معقل قد قال: «إن قُتِلْتُ فأميركم عَمرو بن محرز بن شهاب التميمي، فلما قُتل أخذ الراية عَمرو ثمّ حمل في الناس علىٰ الخوارج فقتلوهم ولم ينج منهم غير خمسة أو ستة.

وقال ابن الكلبي: كان المستورد من تميم ثم من بني رياح واحتجّ بقول جرير:

ومنا فتىٰ الفتيان والجود معقل ... ومِنَّا الذي لاقىٰ بدجلة معقلا

يعني هذه الوقعة:

ذكر عود عبد الرحمن إلى ولاية سجستان

في هذه السنة استعمل عبدالله بن عامر عبد الرحمن بن سَمُرَة علىٰ سجستان فأتاها وعلىٰ شرطته عباد بن الحصين الحبطي ومعه من الأشراف عمرو بن عبيدالله بن معمر وغيره؛ فكان يغزو البلد قد كفر أهله فيفتحه حتىٰ بلغ «كابل» فحصرها أشهراً، ونصب عليها مجانيق فثلم سورها ثلمة عظيمة فبات عليها عباد بن الحصين ليلة يطاعِن المشركين حتىٰ أصلح فلم يقدروا علىٰ سدِّهَا، وخرجوا مِن الغد يقاتِلون فهزمهم المسلمون ودخلوا البلد عنوة، ثم سار إلىٰ «بُسْت»[1] ففتحها عنوة وسار إلىٰ «زران» فهرب أهلها وغلب عليها ثم سار إلىٰ «خشك» فصالحه أهلها، ثم أتى «الرخج» فقاتلوه

(١) بُسْت: مدينة بين سجستان وغزنين وهراة .

فظفر بهم وفتحها، ثم سار إلى «زابلستان» وهي «غزنة» وأعمالها فقاتله أهلها وقد كانوا نكثوا ففتحها وعاد إلىٰ كابل وقد نكث أهلها ففتحها.

ذكر غزوة السند

استعمل عبدالله بن عامر علىٰ ثغر السند عبدالله بن سوار العبدي، ويقال: ولاّه معاوية مِنْ قِبَلِهِ فغزا القيقان فأصاب مغنماً ووفد علىٰ معاوية وأهدىٰ له خيلاً قيقانية ورجع فغزا القيقان فاستنجدوا بالترك فقتلوه وفيه يقول الشاعر:

وابن سوار على عدانه　　　موقد النار وقتال الشغب

وكان كريماً لم يوقد أحدٌ في عسكره ناراً فرأىٰ ذات ليلة ناراً فقال: ما هذه؟ قالوا: امرأة نفساء يُعمل لها الخَبِيْص[1] فأمر أنْ يطعَم الناس الخبيص ثلاثة أيام.

ذكر ولاية عبدالله بن خازم خراسان

قيل: وفي هذه السنة عزل عبدالله بن عامر قيس بن الهيثم القيسي ثم السلمي عن خراسان واستعمل عبدالله بن خازم، وسبب ذلك أنّ قيساً أبطأ بالخراج والهدية فقال عبدالله بن خازم لعبدالله بن عامر: ولني خراسان أكفكها. فكتب له عهده فبلغ ذلك قيساً فخاف ابن خازم وشغبه فترك خراسان وأقبل فازداد ابن عامر غضباً لتضييعه الثغر فضربه وحبسه وبعث رجلاً مِن يشكر علىٰ خراسان ـ وقيل: بعث اسلمِ بن زرعة الكلابيّ ثم ابن خازم ـ وقيل: في عزله غير ذلك؛ وهو أنّ ابن خازم قال لابن عامر: أنك استعملتَ علىٰ خراسان قيساً وهو ضعيف وإني أخاف إنْ لقيَ حرَباً أن ينهزم بالناس فتهلك خراسان وتفضح أخوالك يعني قيس عيلان. قال ابن عامر: فما الرأي؟ قال: تكتب لي عهداً إنْ هو انصرف عن عدو قمتُ مقامه. فكتب له، وجاش جماعةٌ من طخارستان فشاوره قيس فأشار عليه ابن خازم أنْ ينصرف حتىٰ يجتمع إليه أطرافه، فلما سار مرحلة أو اثنتين اخرج ابن خازم عهده وقام بأمر الناس ولقي العدو فهزمهم وبلغ الخبر الكوفة والبصرة والشام فغضب القيسية وقالوا: خدع قيساً وابن عامر وشكوا إلىٰ معاوية فاستقدمه فاعتذر مما قيل فيه فقال معاوية: قُمْ غداً فاعتذرْ في الناس. فرجع إلىٰ

---

(١) الخبيص: الحلواء المطبوخة من التمر والسمن.

أصحابه وقال: إني أمرتُ بالخطبة ولستُ بصاحب كلام، فآجلسوا حولَ المنبر فإذا قلتُ فصدقوني. فقام مِن الغد فحَمِدَ اللَّهَ وأثنىٰ عليه ثم قال: «إنما يتكلفُ الخطبةَ إمامٌ لا يجد منها بدًّا أو أحمق يهمر من رأسه [لا يبالي ما خرج منه] ولستُ بواحدٍ منهما وقد علم مَنْ عرفني أني بصيرٌ بالفرص، وثّاب إليها، وقّاف عند المهالك، أنفذ بالسرية، وأقسم بالسوية. انشد الله مَنْ عرف ذلك مني فليصدقني». فقال أصحابه: صدقتَ. فقال: يا أمير المؤمنين إنك فيمَن نَشَدْتُ فقُلْ بما تعلم. فقال: صدقت.

ذكر عدة حوادث

وحجّ هذه السنة مَرْوان بن الحكم وكان علىٰ المدينة، وكان علىٰ مكة خالد بن العاص بن هشام، وعلىٰ الكوفة المغيرة، وعلىٰ البصرة عبدالله بن عامر.

وفيها مات عبدالله بن سَلَاّم وله صُحبة مشهورة، وهو من علماء أهل الكتـاب وشهد له رسولُ الله ﷺ بالجنة.

ثم دخلت سنة أربع وأربعين

في هذه السنة دخل المسلمون مع عبد الرحمن بن خالد بن الوليد بلاد الروم وشتوا بها، وغزا بُسْر بن أبي أرطاة في البحر.

ذكر عزل عبدالله بن عامر عن البصرة

وفي هذه السنة عُزل عبدالله بن عامر عن البصرة، وسببه أنّ ابن عامر كان حليماً كريماً ليناً لا يأخذ علىٰ أيدي السفهاء ففسدتْ البصرة [بسبب ذلك] في أيامه، فشكىٰ ذلك إلىٰ زياد فقال له: جَرِّدْ السيف [فيهم]. فقال له: إنّي أكره أنْ أصلحهم بفسادِ نفسي.

ثم إنّ ابن عامر أوفدَ وفداً مِن البصرة إلىٰ معاوية فوافقوا عنده وفد الكوفة وفيهم ابن الكوّاء - واسمه عبدالله بن أبي أوفى[1] اليشكريّ فسألهم معاوية عن أهل العراق وعن أهل البصرة خاصة فقال ابن الكواء: يا أمير المؤمنين إنّ أهلَ البصرة قد أكلهم سُفهاؤهم، وضعف عنهم سلطانهم، وعجز ابن عامر وضعفه. فقال له معاوية: تتكلمْ عن أهل البصرة وهم حُضُور.

فلما عاد أهلُ البصرة أبلغوا ابن عامر فغضب وقال: أيّ أهل العراق أشد عداوة لابن الكواء؟ فقيل: عبدالله بن أبي شيخ اليشكريّ. فولّاه خراسان، فبلغ ذلك ابن الكواء فقال: إنّ ابن دجاجة - يعني ابن عامر - قليل العلم فِيّ أَظَنَّ أنّ ولاية عبد الله خراسان تسوؤني! لوددتُ أنّه لم يَبق يشكريّ إلا عاداني وأنّه ولاه.

وقيل: إنّ الذي ولاه ابن عامر خراسان طفيل بن عوف اليشكري ، فلما علم

---

(١) الطبري: عبدالله بن أوفىٰ - بحذف (أبي) .

معاوية حال البصرة أراد عزل ابن عامر فأرسل إليه يستزيره فجاء إليه فردّه علىٰ عمله، فلما ودعه قال: إنّي سائلك ثلاثاً فقُل «هنّ لك». فقال: هُنّ لك وأنا ابن أمّ حكيم. قال: تردّ عليّ عملي ولا تغضب. قال: قد فعلتُ. قال: وتهبُ لي مالك بعرفة. قال: قد فعلت. قال: وتهب لي دورك بمكة. قال: قد فعلت. قال: وَصَلَتْكَ رَحِم. فقال ابن عامر: يا أمير المؤمنين إنّي سائِلُكَ ثلاثاً فقل هن لك. فقال: «هُنَّ لك وأنا ابن هند. قال: تردّ عليّ مالي بعرفة. قال: قد فعلتُ. قال: ولا تحاسب لي عاملاً ولا تتبع لي أثراً. قال: قد فعلتُ. قال: وتنكحني ابنتك هنداً. قال: قد فعلت.

ويقال: إنّ معاوية قال له: اختر إمّا أنْ أتبع أثرك وأحاسبك بما صار إليك وأردك، وإما أنْ أعزلك وأسوغك ما أصبتَ. فاختار العزل وأنْ يسوغه ما أصاب فعزله، وولىٰ البصرة الحارث بن عبدالله الأزديّ.

ذِكْر استلحاق معاوية زياداً

وفي هذه السنة استحلق معاوية زيادَ بن سُمَيَّة فزعموا أنّ رجلاً مِن عبد القيس كان مع زياد لمّا وفد علىٰ معاوية فقال لزياد: إنّ لابن عامر عندي يداً فإنْ أذنت لي أتيته.

قال: علىٰ أنْ تحدثني بما يجري بينك وبينه. قال: نعم. فأذنَ له فأتاه فقال له ابن عامر: «هيه هيه وابن سمية يقبّح آثاري ويعترض لعمالي! لقد هممتُ أنْ آتي بقاسمة مِنْ قريش يحلفون بالله أنّ أبا سفيان لم ير سُمَيّة».

فلما رجع سأله زياد فلم يخبره فألحَّ عليه حتىٰ أخبره فأخبر زياد بذلك معاوية فقال معاوية لحاجبه: إذا جاء ابن عامر فاضربْ وجهَ دابته عن أقصىٰ الأبواب. ففعل ذلك به فأتىٰ ابن عامر يزيد فشكا ذلك إليه [فقال له: هل ذكرتَ زياداً؟ قال نعم]. فركب معه [يزيد] حتىٰ أدخله، فلمّا نظر إلى معاوية قام فدخل. فقال يزيد لابن عامر: اجلسْ فكم عسىٰ أنْ يقعد في البيت عن غير مجلسه فلمّا أطالا خرج معاوية وهو يتمثل:

لَنَا سِبَاق ولكم سِبَاق[1] قد عَلِمَتْ ذلك الرِّفَاقُ

ثم قعد فقال: يا بن عامر أنتَ القائل في زياد ما قلت؟ أما والله لقد علمتْ العربُ

---

(١) الطبري: لنا سياق ولكم سياق ـ بالياء فيهما.

أني كنتُ أعزّها في الجاهلية وأنّ الاسلام لم يزدني إلاّ عِزًّا، وإنّي لم أتكثر بزياد مِنْ قِلّة، ولم أتعزز به مِنْ ذِلّة، ولكنْ عرفتُ حَقًّا له فوضعتُه موضعَه. فقال: يا أمير المؤمنين نرجعُ إلىٰ مايحبُّ زياد. قال: إذاً نرجعُ إلىٰ ما تحبُّ.

فخرج ابن عامر إلى زياد فترضّاه، فلما قدِم زياد الكوفة قال: قد جئتكم في أمرٍ ما طلبتُه إلاّ لكم. قالوا: ما تشاء. قال: تلحِقون نسبي بمعاوية. قالوا: أما بشهادة الزور فلا. فأتىٰ البصرة فشَهِد له رجالٌ[١]. هذا جميع ما ذكره أبو جعفر[٢] في استلحاق معاوية نسب زياد ولم يذكر حقيقة الحال في ذلك إنما ذكر حكاية جَرَت بعد استلحاقه وأنا أذكر سبب ذلك وكيفيته فإنّه مِن الأمور المشهورة الكبيرة في الإسلام لا ينبغي إهمالها.

وكان ابتداء حاله أنّ سميّة أم زياد كانت لدهقان زندورد بكسكر فمرض الدهقان فدعا الحارث بن كلدة الطبيب الثقفيّ فعالجه فبرىء فوهبه سميّة فولدتْ عند الحارث أبا بكرة واسمه نفيع فلم يقرّ به، ثم ولدتْ نافعاً فلم يقرّ به أيضاً، فلما نزل أبو بكرة إلىٰ النبي ﷺ حين حصر الطائف قال الحارث لنافع: أنت ولدي. وكان قد زوّج سمية مِن غلام له اسمه عبيد وهو روميّ فولدت له «زياداً»، وكان أبو سفيان بن حرب سار في الجاهلية إلىٰ الطائف فنزل علىٰ خَمّار يقال له (أبو مريم السلوليّ) وأسلم أبو مريم بعد ذلك وصحب النبي ﷺ فقال أبو سفيان لأبي مريم: قد اشتهيتُ النساء فالتمسْ لي بَغِيًّا. فقال له: هل لك في سمية؟ فقال: هاتِها علىٰ طول ثديها وذفر[٣] بطنها. فأتاه بها فوقع عليها فعلقتْ بزياد، ثم وضعته سنة أحدىٰ مِن الهجرة فلما كبر ونشأ استكتبه أبو موسىٰ الأشعريّ لمّا ولي البصرة، ثم إنّ عمر بن الخطاب استكفىٰ زياداً أمراً فقام فيه مقاماً مرضيًّا فلما عاد إليه حضر وعند عمر المهاجرون والأنصار فخطب خطبةً لم يسمعوا بمثلها فقال عَمرو بن العاص: «لله هذا الغلام لو كان أبوه مِن قريش لساقَ العرب بعصاه»[٤].

---

(١) الطبري: فشهد له رجل.

(٢) الطبري ٥/٢١٤: ٢١٥.

(٣) الذفر: الصنان وخبث الريح.

(٤) في العواصم ٢٣٩: وأما خطبته التي ذكروا أنه عجب منها عمرو فما كان عنده فضل علم ولا فصاحة يفوق بها عَمْراً فمن فوقه أو دونه، وقد أدخل له الشيخ المفتري خطباً ليست في الحد المذكور.

وأما قولهم إنّ أبا سفيان اعترف به وقال شعراً فيه فلا يرتاب ذو تحصيل في أنّ أبا سفيان لو اعترف به في حياة=

فقال أبو سفيان: ـ وهو حاضر ـ: «واللّهِ إنّي لأعرفُ أباه، ومَنْ وضعه في رحم أمه. فقال عليّ: يا أبا سفيان اسكتْ فإنك لتعلم أنّ عمر لو سَمِع هذا القول منك لكان إليك سريعاً. فلما ولي عليّ الخلافة استعمل زياداً علىٰ فارس فظبطها وحمى قلاعها، واتصل الخبر بمعاوية فساءَه ذلك، وكتب إلىٰ زياد يتهدده ويعرُض لهبولادة أبي سفيان إياه، فلما قرأ زياد كتابه قام في الناس وقال: «العجبُ كلَّ العجب مِن ابن آكِلة الأكباد، ورأسِ النفاق يخوفني بقصده إياي وبيني وبينه ابن عم رسول الله ﷺ في المهاجرين والأنصار! أما والله لو أذِن لي في لقائِه لوجدني أحمر مخشياً ضَرّاباً بالسيف».

وبلغ ذلك عليًّا فكتب إليه: «إنّي وليتك ما وليتك وأنا أراك له أهلاً وقد كانت مِنْ أبي سفيان فلتة من أمانيّ الباطل، وكذِب النفس لا توجب له ميراثاً ولا تحل له نسباً، وإنّ معاوية يأتي الإنسانَ مِنْ بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله فاحذرْ ثم احذر. والسلام».

فلما قُتِلَ عليّ وكان مِن أمر زياد ومصالحته معاوية ما ذكرناه وضع زياد مصقلة بن هبيرة الشيبانيّ وضمن له عشرين ألف درهم ليقول لمعاوية: إنّ زياداً قد أكل فارس برًّا وبحراً، وصالحك علىٰ ألفي ألف درهم! والله ما أرىٰ الذي يقال إلّا حقاً. فإذا قال لك: وما يقال؟ فَقُلْ يقال: إنّه آبن أبي سفيان. ففعل مصقلة ذلك، ورأىٰ معاوية أن يستميل زياداً واستصفىٰ مودته باستلحاقه فاتفقا علىٰ ذلك وأحضر الناسَ وحضر مَنْ يشهد لزياد، وكان فيمن حضر «أبو مريم السلولي» فقال له معاوية: بم تشهد يا أبا مريم؟ فقال: أنا أشهد أنْ أبا سفيان حضر عندي وطلب مني بَغِيًّا فقلت له: ليس عندي إلاّ سُمية. فقال: ائتني بها علىٰ قذرها ووضرها فأتيته بها فخلا معها، ثم خرجتْ من عنده وإنّ اسكتيها ليقطُران مَنِيًّا. فقال له زياد: مهلاً أبا مريم إنما بُعِثْتَ شاهداً ولم تبعث شَاتِماً. فاستلحقه معاوية، **وكان استلحاقه أوّل ما رُدَّتْ به أحكام الشريعة علانية فإنّ رسول الله ﷺ قضىٰ بالولد للفراش وللعَاهِر بالحَجَر**.

= عمر لم يخف شيئاً لان الحال لم يكن يخلو من أحد قسمين:

ـ إما أنْ يرىٰ عمر إلا ظنه به كما روي عنه في غيره فيُمضي ذلك أو يرد ذلك فلا يلزم أبا سفيان شيء بافتراق ما كان في الجاهلية فذكرهم هذه الحكاية المخترعة الباردة المتهافتة الخارجة عن حد الدين ولتحصيل لا معنى له.

وأما تولية عليّ له فتذكية. اهـ.

وكتب زياد إلىٰ عائشة: (مِنْ زياد بن أبي سفيان) وهو يـريد أنْ تكتب لـه إلىٰ زياد بن أبي سفيان فيحتجّ بذلك فكتبتْ (من عائشة أم المؤمنين إلىٰ ابنها زياد) وعظم ذلك علىٰ المسلمين عامّة وعلىٰ بني أمية خاصّة، وجرىٰ أقاصيص يطول بذكـرها الكتاب فأضربنا عنها، ومن اعتذر لمعاوية قال: إنّما استلحق معاوية زياداً لأنّ أنكِحَة الجاهلية كانتْ أنواعاً لا حاجة إلىٰ ذِكر جميعها، وكان مِنْها أنّ الجماعة يجامعون البغيّ فإذا حملتْ وولدتْ ألحقتْ الولدَ بمن شاءت منهم فيلحقه فلمّا جاء الإسلام حرّم هذا النكاح إلا أنّه أقرّ كلَّ ولدٍ كان يُنسب إلىٰ أبٍ مِنْ أيّ نكاحٍ كان مِنْ أنكحتهم علىٰ نسبه ولم يفرّق بين شيء منها فتوهم معاوية أنّ ذلك جائز له ولم يفرق بين استلحـاقٍ في الجاهلية والإسلام[١].

وهذا مردود لاتفاق المسلمين علىٰ إنكاره، ولأنه لم يُستلحق أحدٌ في الإسلام مثله ليكون به حجة. وقيل: أراد زياد أنّ يحجّ بعد أنْ استلحقه معاوية فسمع أخوه أبو بكرة وكان مهاجراً له مِنْ حين خالفه في الشهادة بالزنا علىٰ المغيرة بن شعبة، فلمّا سمع بحجه جاء إلىٰ بيته وأخذ ابناً له وقال له: يابنيّ قل لأبيك. إنني سمعتُ أنّك تريدُ الحجّ ولا بد من قدومك إلىٰ المدينة، ولا شك أن تطلب الاجتماع بأم حبيبة بنت أبي سفيان زوج النبي ﷺ فإنْ أذنت لك فأعظِم به خزياً مع رسول الله ﷺ، وإنْ مَنَعَتْك فأعظِم به فضيحة في الدنيا وتكذيباً لأعدائِك. فترك زيادُ الحجّ وقال: جزاك الله خيراً فقد أبلغتَ في النُّصْح.

ذكر غَزْو المُهَلَّب السند

وفيهـا عزا المهلّب بن أبي صفـرة ثغر السنـد فأتىٰ بَنّـة[٢] والأهواز وهمـا بين المُلتان[٣]، وكابُل فلقيه العدو وقاتله، ولقي المهلب ببلاد القيقان ثمانية عشر فارساً مِن الترك فقاتلوه فقُتلوا جميعاً فقال المهلب: ما جعل هؤلاء الأعاجم أولىٰ بالتشمير منا. فحذف الخيل وكان أول مَنْ حذفها من المسلمين، وفي يوم بنة يقول الأزديّ:

---

(١) أنظر في الإجابة عن ذلك العواصم ٢٣٥ : ٢٤٣ .
(٢) بَنَّة : مدينة بكابل .
(٣) الملتان : مدينة من الهند قرب غزنة .

ألـم تَـرَ الأزدَ لـيـلة بـيّـتـوا ببنـة كانـوا خيرَ جيشِ المهلب

ذكر عدة حوادث

وحج بالناس في هذه السنة معاوية.

وفيها عمل مَرْوان بن الحكم المقصورة بالمدينة وهو أول مَنْ عملها بها وكان معاوية قد عملها بالشام لمّا ضربه الخارجي. وفيها توفيت أم حبيبة بنت أبي سفيان زوج النبي ﷺ، وفيها قُتل رفاعة العدويّ من عدي رباب وهو بصريّ له صُحبة.

ثم دخلت سنة خمسة وأربعين

فيها ولىٰ معاوية الحارث بن عبدالله الأزديّ البصرة في أوّلها حين عزل ابن عامر وهو من أهل الشام، فاستعمل الحارث علىٰ شرطته عبدالله بن عمرو الثقفي فبقي الحارث أميراً علىٰ البصرة أربعة أشهر ثم عزله وولّاها زياداً.

ذكر ولاية زياد بن أبيه البصرة

قدِم زياد الكوفة فأقام ينتظر إمارته عليها فقيل ذلك للمغيرة بن شعبة فسار إلىٰ معاوية فاستقاله الإمارة، وطلب منه أنْ يعطيه منازل بقرقيسيا ليكون بين قيس فخافه معاوية وقال له: «لترجعنّ إلىٰ عملك». فأبىٰ فازداد معاوية تهمةً له فردّه علىٰ عمله فعادَ إلىٰ الكوفة ليلًا، وأرسل إلىٰ زياد فأخرجه منها.

وقيل: إنّ المغيرة لم يَسِرْ إلىٰ الشام وإنّما معاوية أرسل إلىٰ زياد وهو بالكوفة فأمره بالمسير إلىٰ البصرة فولاه البصرة، وخراسان، وسجستان، ثم جمع له الهند، والبحرين، وعمان.

فقدِم البصرة آخر شهر ربيع الآخر سنة خمس وأربعين والفسق [في البصرة] ظاهر فاش، فخطبهم خطبته البتراء لم يحمِد الله فيها، وقيل: بل حمد الله فقال: «الحمد لله علىٰ إفضاله وإحسانه، ونسأله مزيداً مِنْ نعمه. اللهم كما زدتنا نعماً فألهمنا شكراً علىٰ نعمتك علينا أما بعد: فإنّ الجَهَالة الجَهْلاء والضلالة العمياء والفجر الموقد لأهله النار، الباقي عليهم سعيرها ما يأتي سفهاؤكم، ويشتمل عليه حلماؤكم من الأمور العِظام فيثب فيها الصغير، ولا يتحاشىٰ عنها الكبير كأنْ لم تسمعوا نبي الله[1]، ولم تقرأوا

(١) الطبري: كأن لم تسمعوا بآي الله.

كتاب الله، ولم تعلموا ما أعدّ اللّهُ مِن الثواب الكريم لأهلِ طاعته والعذاب الأليم لأهلِ معصيته في الزمن السرمد الذي لا يزول! أتكونون كمن طرفت[١] عينه الدنيا، وسدتْ مسامعه الشهوات، واختار الفانية علىٰ الباقية، ولا تذكرون أنكم أحدثتم في الإسلام الحَدَث الذي لم تُسْبَقُوا إليه هذه المواخير المنصوبة، والضعيفة المسلوبة في النهار المبصر، والعدد غير قليل. ألم تكن منكم نهاة تمنع الغواة عَنْ دلج الليل وغارة النهار! قربتم القرابة، وباعدتم الذين يعتذرون بغير العذر، وتعطفون[٢] على المختلس. كل امرىء منكم يذبّ عن سفيهه صنيع مَنْ لا يخاف عاقبة، ولا يخشى مَعَاداً، ما أنتم بالحلماء، ولقد اتبعتم السفهاء فلم يزل بهم ما ترون مِن قيامكم دونهم حتىٰ انتهكوا حرم الاسلام ثم أطرقوا وراءكم كنوساً في مكانس الريب. حرام عليّ الطعام والشراب حتىٰ أسوِّيها بالأرض هدماً وإحراقاً. إنّي رأيتُ آخر هذا الأمر لا يصلحُ إلاّ بما صلح به أوله: لين في غير ضعف، وشدة في غير جبرية وعنف، وإنّي لأقسم بالله لآخذنّ الولي بالوليٰ، والمقيم بالظاعن، والمقبل بالمدبِر، والصحيح منكم بالسقيم، حتىٰ يلقىٰ الرجلُ منكم أخاه فيقول: «انج سعد فقد هلك سعيد» أو تستقيم لي قناتكم. إنّ كذبة المنبر مشهودة[٣] فإذا تعلّقتم عليّ بكذبة قلت: حلتْ لكم معصيتي. من يبيت منكم فأنا ضامن لما ذهب له، إياي ودلج الليل فإني لا أوتىٰ بمدلِج إلاّ سفكت دمه، وقد أجَّلْتكم في ذلك بقدر ما يأتي الخبر الكوفة ويرجع إليكم، وإياي ودعوىٰ الجاهلية فإنّي لا أجد أحداً دعا بها إلاّ قطعتْ لسانه.

وقد أحدثتم أحداثاً لم تكن، وقد أحدثنا لكل ذنبٍ عقوبة، فمن غرّق قوماً غرّقناه؛ ومَنْ حرق على قوم حرقناه، ومن نقب بيتاً نقبت عن قلبه، ومَنْ نبش قبراً دفنته فيه حياً.

فكُفُّوا عني أيديكم وألسنتكم أكففْ عنكم لساني ويدي وأذاي، لا يظهر مِنْ أحدٍ منكم خلاف ما عليه عامتكم إلاّ ضربتُ عنقه، وقد كانت بيني وبين أقوامٍ إحَن فجعلتُ ذلك دُبُرَ أذني وتحت قدمي فمن كان منكم محسناً فليزدد إحساناً، ومَنْ كان مسيئاً فلينزع

---

(١) قوله (طرفت) بالفاء لا بالقاف كما في بعض النسخ (م) .

(٢) الطبري ؛ وتغطون ـ من التغطية .

(٣) الطبري: تبقى مشهورة ـ من الشهرة .

عن إساءته. إنّي لو علمتُ أنّ أحدكم قد قتله السلّ مِنْ بغضي لم أكشف له قناعاً، ولم أهتك له ستراً حتىٰ يبدي لي صفحته فإذا فعل لم أناظره.

فاستأنفوا أموركم وأعينوا على أنفسكم فرُبّ مبتئس بقدومنا سيسر ومسرور بقدومِنا سيبتئس.

أيها الناس إنّا أصبحنا لكم ساسة، وعنكم ذادة: نسوسكم بسلطان الله الذي أعطانا، ونذودُ عنكم بفَيء الله الذي خولّنا. فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا، ولكم علينا العدل فيما ولينا فاستوجبوا عدلنا وفيئنا بمناصحتكم، واعلموا أنّي مهما قصرتَ عنه فإنّي لا أقصر عن ثلاث: لستُ محتجباً عن طالب حاجة منكم ولو أتاني طارقاً بليل، ولا حابساً رزقاً ولا عطاء عن إبانه، ولا مجمراً[1] لكم بعثاً. فادعوا الله بالصلاح لأئمتكم فإنهم ساستكم المؤدبون وكهفكم الذي إليه تأوون، ومتى تصلحوا يصلحوا، ولا تُشربوا قلوبكم بغضهم فيشتدّ لذلك غيظكم، ويطول له حزنكم، ولا تدركوا حاجتكم مع أنه لو استجيب لكم لكان شراً لكم أسأل اللّهَ أنْ يعين كلاً علىٰ كل، فإذا رأيتموني أنفذ فيكم الأمر فانفذوه علىٰ إذلاله. و[أيم الله] إنّ لي فيكم لصرعىٰ كثيرة فليحذرْ كل امرىء منكم أنْ يكونَ مِنْ صرعاي».

فقام إليه عبدالله بن الأهتم فقال: أشهدُ أيها الأمير أنك أوتيتَ الحكمة وفصل الخطاب. فقال: كذبتَ ذاك نبيُّ اللّهِ داود. فقال الأحنف: قد قلتَ فأحسنتَ أيها الأمير، والثناء بعد البلاء، والحمد بعد العطاء، وإنّا لن نثني حتى نبتلىٰ. فقال زياد: صدقتَ.

فقام إليه أبو بلال مرداس ـ بن أذية ـ وهو من الخوارج ـ وقال: أنبأ اللّهُ بغيرِ ما قلتَ قال الله تعالى: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[2] فأوعدنا الله خيراً مما أوعدتنا يا زياد. فقال زياد: إنا لا نجد إلىٰ ما تريد أنت وأصحابك سبيلاً حتىٰ تخوض إليها الدماء.

واستعمل زياد علىٰ شرطته عبدالله بن حصن وأجّل الناس حتىٰ بلغ الْخبر

---

(١) تجمير الجيش: حبسهم في الثغور ومنعهم من العود إلى أهليهم.
(٢) النجم: ٣٩.

الكوفة، وعاد إليه وصول الخبر فكان يؤخّر العشاء الآخرة ثم يصلي فيأمر رجلاً أنْ يقرأ سورة البقرة أو مثلها يرتّل القرآن فإذا فرغ أمهل بقدر ما يرىٰ أنّ إنساناً يبلغ أقصىٰ البصرة، ثم يأمر صاحب شرطته بالخروج فيخرج فلا يرىٰ إنساناً إلاّ قتله. فأخذ ذات ليلة أعرابيًّا فأتىٰ به زياداً فقال: هل سمعتَ النداء؟ فقال: لا والله قدمتُ بحلوبة لي وغشيني الليل فاضطررتُها إلىٰ موضع وأقمتُ لأصبح ولا عِلْمَ لي بما كان مِن الأمير. فقال: «أظنُّك واللّهِ صادقاً ولكن فِي قَتْلِكَ صَلاَحُ [هذه] الأمّة» ثم أمر به فضربت عنقه.

وكان زياد أول مَنْ شدَّد أمر السلطان، وأكّد الملك لمعاوية، وجرّد سيفه، وأخذ بالظنة، وعاقب علىٰ الشبهة، وخافه الناس خوفاً شديداً حتىٰ أمِن بعضُهم بعضاً، وحتى كان الشيء يسقط من يد الرجل أو المرأة فلا يعرِض له أحدٌ حتىٰ يأتيَه صاحبُه فيأخذه ولا يُغلق أحدٌ بابه، وأدرّ العطاء، وبنىٰ مدينة الرزق، وجعل الشُّرَط أربعة آلاف، وقيل له: إنّ السبيل مخوفة فقال: لا أعاني شيئاً وراء المصر حتى أصلح المصر فإنْ غلبني فغيره أشدّ غلبة منه، فلما ضَبَطَ المصر وأصلحه تكلّف ما وراء ذلك فأحكمه.

ذكر عُمّال زياد

استعان زياد بعدة مِنْ أصحاب النبي ﷺ، منهم عِمْرَان بن حُصَيْن الخزاعيّ وَلاّه قضاء البصرة، وأنس بن مالك، وعبد الرحمن بن سَمُرَة، وسَمُرَة بن جُنْدَب. فأمّا عِمْرَان فاستعفىٰ مِن القضاء فأعفاه واستقضىٰ عبدالله بن فضالة الليثيّ، ثم أخاه عاصماً، ثم زرارة بن أوفى وكانت اخته عند زياد، وقيل: إنّ زياداً أول مَنْ سير بين يديه بالحراب والعمد واتخذ الحرس رابطة خمسمائة لا يفارقون المسجد.

وجعل خراسان أرباعاً، واستعمل علىٰ مَرْو أمير بن أحمر، وعلىٰ نيسابور خليد بن عبدالله الحنفي، وعلىٰ مرو الروذ، والفارياب، والطالقان قيس بن الهيثم، وعلىٰ هراة، وباذغيس، وبوشنج نافع بن خالد الطاحي ثم غضب عليه فعزله.

وسبب تغيره عليه أنّ نافعاً بعث بخوان بازهر إلىٰ زياد قوائمه منه فأخذ نافع منها قائمة وعمل مكانها قائمة من ذهب وبعث الخوان مع غلام له اسمه زيد وكان يلي أمور نافع كلها فسعىٰ زيد بنافع إلىٰ زياد وقال: إنه خانك وأخذ قائمة الخوان. فعزله زياد،

وحبسه، وكتب عليه كتاباً بمائة ألف، وقيل: بثمانمائة ألف فشفع فيه رجالٌ مِنْ وجوه الأزد فأطلقه، واستعمل الحكم بن عمرو الغفاريّ وكانت له صُحبة، وكان زياد قال لحاجبه: ادع لي الحكم - يريد الحكم بن أبي العاص الثقفي - ليوليه خراسان فخرج حاجبه فرأىٰ الحكم بن عَمرو الغفاري فاستدعاه فحين رآه زياد قال له: ما أردتُك ولكن الله أرادك. فولّاه خراسان، وجعل معه رجالاً علىٰ جباية الخراج منهم أسلم بن زرعة الكلابيّ وغيره، وغزا الحكم طخارستان فغنم غنائم كثيرة ثم مات، واستخلف أنس بن أبي أناس بن زنيم فعزله زياد، وكتب إلىٰ خليد بن عبدالله الحنفي بولاية خراسان ثم بعث الربيع بن زياد الحارثيّ [إلىٰ خراسان] في خمسين ألفاً من البصرة والكوفة.

ذكر عِدّة حوادث

وحج بالناس هذه السنة مَرْوان بن الحكم وكان علىٰ المدينة.

وفيها مَات زيد بن ثابت الأنصارِيّ وقيل: سنة خمس وخمسين، وعاصم بن عديّ الأنصاريّ البلويّ، وكان بدريًّا، وقيل: لم يشهدها بل ردّه رسول الله ﷺ إلىٰ المدينة وضرب له بسهمه وكان عمره مائة وعشرين سنة. وفيها مات سلمة بن سلامة بن وقش الأنصاريّ بالمدينة وشهد العقبة وبدراً وكان عمره سبعين سنة. وفيها توفي ثابت بن الضحّاك بن خليفة الكلابيّ وهو من أصحاب الشجرة وهو أخو أبي جبيرة بن الضحاك.

ثم دخلت سنة ست واربعين

في هذه السنة كان مشتىٰ مالك بن عبدالله[١] بأرض الروم، وقيل: بل كان عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، وقيل: بل كان مالك بن هبيرة السكونيّ.

وفيها انصرف عبد الرحمن بن خالد من بلاد الروم إلىٰ حمص ومات.

ذكر وفاة عبد الرحمن بن خالد بن الوليد

وكان سبب موته أنّه كان قد عظم شأنه عند أهل الشام ومالوا إليه لما عندهم مِن آثار أبيه، ولغنائه في بلاد الروم، ولشدة بأسه فخافه معاوية وخشيَ [علىٰ نفسه] منه، وأمر ابن أثال النصرانيّ أنْ يحتال في قَتْلِهِ، وضَمِنَ له أنْ يصنع عنه خراجه ما عاش وأنْ يوليه [جباية] خراج حمص، فلما قدِم عبد الرحمنِ من الروم دَسّ إليه ابن أثال شربة مسمومة مع بعض مماليكه فشربها فمات بحمص فوفَىٰ له معاوية بما ضمن له[٢].

وقَدِم خالد بن عبد الرحمن بن خالد المدينة فجلس يوماً إلى عُروة بن الزبير فقال له عُروة ما فعل ابن اثال، فقام مِنْ عنده وسار إلىٰ حمص فقتل ابن اثال، فحُمل إلىٰ معاوية فحبسه أيّاماً ثم غَرّمه ديته، ورجع خالد إلىٰ المدينة فأتىٰ عروة فقال عروة: ما فعل ابن أثال؟ فقال: قد كفيتك ابن أثال، ولكن ما فعل ابن جرموز؟ يعني قاتل الزبير فسكت عُروة.

ذكر خروج سهم والخطيم

وفيها خرج الخطيم ـ وهو يزيد بن مالك الباهليّ ـ وسهم بن غالب الهجيمي

---

(١) الطبري: مالك بن عبيدالله.

(٢) قال الحافظ ابن كثير: وزعم بعضهم أنّ دس السم له كان عن أمر معاوية له في ذلك، ولا يصح.

فحكَّما. فأمّا سهم فإنّه خرج إلىٰ الأهواز فحكّم بها ثم رجع فاختفىٰ وطلب الأمان فلم يؤمّنه زياد وطلبه حتىٰ أخذه، وقتله، وصلبه علىٰ بابه مدة.

وأما الخطيم فإنّ زياداً سيّره إلىٰ البحرين ثم أقدمه وقال لمسلم بن عمرو الباهلي والد قتيبة بن مسلم: آضمنْه. فأبىٰ وقال: إنْ بات خارجاً عن بيته أعلمتُك. ثم أتاه مسلم فقال له: لم يبت الخطيم الليلة في بيته. فأمر به فقُتل وألقي في باهلة. وقد تقدم ذلك أتمّ من هذا وإنما ذكرناه ها هنا لأنّه قتل هذه السنة.

ذكر عدة حوادث

وحجّ بالناس هذه السنة عُتبة بن أبي سفيان، وكان العمال من تقدّم ذكرهم. وفيها تُوفِيَ صالح بن كيسان مولىٰ بني غِفار، وقيل: مولى بني عامر، وقيل الخزاعي.

ثم دخلت سنة سبع وأربعين

في هذه السنة كان مشتىٰ مالك بن هُبيرة بأرض الروم، ومشتىٰ عبد الرحمن القيني بأنطاكية.

ذكر عزل عبدالله بن عمرو عن مصر وولاية ابن حُدَيْج

وفيها عُزل عبدالله بن عمرو بن العاص عن مصر ووليها معاوية بن حديج وكان عثمانياً فمر به عبد الرحمن بن أبي بكر [وقد جاء في الإسكندرية] فقال له: يا معاوية قد أخذتَ جزاءك مِن معاوية قد قتلتَ أخي محمد بن أبي بكر لتلي مصر فقد وليتها. فقال: ما قتلتُ محمداً إلا بما صنع بعثمان. فقال عبد الرحمن: فلو كنت إنما تطلب بدم عثمان ما شاركتَ معاوية فيما صنع حيث عمل عمروبالأشعريّما عمل فوثبتَ أول الناس فبايعته. (حُدَيْج) بضم الحاء المهملة وفتح الدال المهملة وبالجيم.

ذكر غزوة الغور

في هذه السنة سار الحكم بن عمرو إلىٰ جبال الغور فغزا مَنْ بها وكانوا ارتدّوا فأخذهم بالسيف عَنْوَة، وفتحها، وأصاب منها مغانم كثيرة وسبايا، ولما رجع الحَكَم مِنْ هذه الغزوة مات بمرو في قول بعضهم، وكان الحكم قد قطع النهر في ولايته ولم يفتح، وكان أول المسلمين شرب من النهر مولىً للحكم اغترف بترسه فشرب وناول الحكم فشرب وتوضّأ وصلىٰ ركعتين، وكان أول المسلمين فعل ذلك ثم رجع.

ذكر مكيدة للمهلّب

وكان المهلّب مع الحكم بن عَمرو بخراسان وغزا معه بعض جبال الترك فغنموا وأخذ الترك عليهم الشِّعَاب والطُّرق، فعيي الحكم بالأمر فولىٰ المهلب الحرب فلم

يحتال حتىٰ أَسَرَ عظيماً مِنْ عُظَمَاء الترك فقال له: إمّا أنْ تخرجَنا مِنْ هـذا الضيق أو لأقتلنّك. فقال له: أوقدْ النار حيال طريق من هذه الطرق وسيّر الأثقـال نحوه فـإنهم سيجتمعون فيه ويخلون ما سواه مِن الطرق فبادِرْهم إلىٰ طريق أخرىٰ فما يدركونكم حتىٰ تخرجوا منه.

ففعل ذلك فَسَلِم الناسُ بما معهم من الغنائم. وحجَّ بالناس هذه السنة عتبة بن أبي سفيان، وقيل: عنبسة بن أبي سفيان، وكان الولاة مَنْ تقدّم ذكرهم.

ثم دخلت سنة ثمان وأربعين

فيها كان مشتىٰ عبد الرحمن القَينيّ بأنطاكية، وصائفة عبد الله بن قيس الفزاري، وغزوة مالك بن هبيرة السكونيّ البحر، وغزوة عقبة بن عامر الجهنيّ بأهل مصر البحرين وبأهل المدينة. وفيها استعمل زياد غالب بن فضالة الليثيّ علىٰ خراسان وكانت له صحبة. وحجّ بالناس مَرْوان وهو يتوقّع العزل لموجدة كانت مِن معاوية عليه، وارتجع معاوية منه فدك. وكان وهبها له وكان ولاة الأمصار مَنْ تقدم ذكرهم.

* * *

ثم دخلت سنة تسع وأربعين

فيها كان مشتىٰ مالك بن هبيرة بأرض الروم وفيها كانت غزوة فضالة بن عبيد حزة[١] وشتى بها وفتحتْ علىٰ يده وأصاب فيها شيئاً كثيراً. وفيها كانت صائفة عبد الله بن كرز البجلي، وفيها كانت غزوة يزيد بن شجرة الرهاويّ في البحر فشتىٰ بأهل الشام، وفيها كانت غزوة عقبة بن نافع البحر فشتىٰ بأهل مصر.

ذكر غزوة القسطنطينية

في هذه السنة ـ وقيل: سنة خمسين ـ سيّر معاوية جيشاً كثيفاً إلىٰ بلاد الروم للغزاة، وجعل عليهم سفيان بن عوف وأمر ابنه يزيد بالغزاة معهم فتثاقل واعتلَّ فأمسك عنه أبوه فأصاب الناس في غزاتهم جوع ومرض شديد فأنشأ يزيد يقول:

مـا أن أبـالي بمـا لاقت جمـوعُهُمُ ... بـالفرقـدونـة مِن حمىٰ ومن مـوم
إذا اتكـأتُ علىٰ الأنمـاط مـرتفقـاً ... بـديـر مـران عـنـدي أم كـلثـوم

وأم كلثوم امرأته وهي ابنة عبد الله بن عامر. فبلغ معاوية شِعْرَه فأقسم عليه ليلحقنَّ بسفيان في أرض الروم ليصيبَه ما أصاب الناس، فسار ومَعَه جمعٌ كثير أضافهم إليه أبوه وكان في هذا الجيش ابن عباس، وابن عمر، وابن الزبير، وأبو أيوب الأنصاري، وغيرهم، وعبد العزيز بن زرارة الكلابيّ فأوغلوا في بلاد الروم حتىٰ بلغوا القسطنطينية فاقتتل المسلمون والروم في بعض الأيام واشتدّت الحرب بينهم فلم يزل عبد العزيز يتعرّض للشهادة فلم يُقتل فأنشأ يقول:

---

(١) الطبري: جربة ـ ولعلها الأصح، وفي بعض نسخ النجوم الزاهرة (حرة) بالراء ـ (م).

قَدْ عِشْتُ في الدهر أطواراً علىٰ طُرُق شتىٰ فَصَادَفْتُ منها اللِّيْنَ والبشعا[١]
كـلّاً بلوت فـلا النعمـاء تبـطرني ولا تخشـعتُ مِنْ لأوائهـا جـزعـا
لا يمـلأ الأمر صـدري قبل مـوقعـه ولا أضيقُ بـه ذرعـاً إذا وقـعَـا

ثم حمل علىٰ مَنْ يليه فقُتِلَ فيهم، وانغمس بينهم فشجره الروم برماحِهم حتى قتلوه رحمه الله فبلغ خبر قَتْله معاوية فقال لأبيه: « والله هلك فتىٰ العرب ». فقال: ابني أو أبنك. قال: ابنك فآجَرَكَ الله. فقال:

فَـإنْ يَـكُـنِ الـمـوتُ أودىٰ بـه وَأصبـحَ مـخ الكـلابيّ زيـرا
فـكـلُّ فـتـى شـارب كـأسـه فـإمـا صغيـراً وإمـا كـبيـرا

ثم رجـع يزيـد والجيش إلىٰ الشام، وقـد توفي أبـو أيوب الأنصـاري عند القسطنطينية فدُفِنَ بالقرب مِن سورِهَا فأهلُها يستسقون به، وكان قد شهـد بدراً، وأحداً، والمشاهد كلها مـع رسول الله ﷺ، وشهـد صفين مع عليّ، وغيـرها من حروبه.

ذكر عَزْل مَرْوان عن المدينة، وولاية سعيد

وفيها عَزل معاوية مروان بن الحكم عن المدينة في ربيع الأول وأمّر سعيد بن العاص عليها في ربيع الآخر ـ وقيل: في ربيع الأول، وكانت ولاية مـروان كلها بـالمدينـة لمعاويـة ثماني سنين وشهـرين. وكان على قضـاء المدينـة عبد الله بن الحارث بن نوفل فعزله سعيد حين ولي واستقضىٰ أبا سلمة بن عبد الرحمن [بن عوف].

ذكر وفاة الحسن بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام

في هذه السنة توفيَ الحسن بن عليّ سَمَّتْه زوجته جعدة بنت الأشعث بن قيس الكنديّ، ووصىٰ أنْ يُدفن عند النبيّ ﷺ إلاّ أنْ تخافَ فِتنة فينقل إلىٰ مقابرِ المسلمين فاستأذن الحسين عائشة فأذِنت له، فلما توفي أرادوا دفنه عند النبي ﷺ فلم يعرض

---

(١) في رواية (والفظما) .

إليهم سعيد بن العاص وهو الأمير فقام مروان بن الحكم وجمع بني أميّة وشِيْعتهم ومنع عن ذلك فأراد الحسين الامتناع[١] فقيل له: إنّ أخاك قال: « إذا خفتم الفتنة ففي مقابر المسلمين » وهذه فتنة. فسكت، وصلىٰ عليه سعيد بن العاص فقال له الحسين: « لولا أنه سُنّة لما تركتك تصلي عليه ».

---

(١) أي أراد الإصرار على عدم العود.

ثم دخلت سنة خمسين

فيها كانت غزوة بسر بن أرطاة، وسفيان بن عوف الأزدي أرض الروم، وغزوة فضالة بن عبيد الأنصاري في البحر.

ذكر وفاة المغيرة بن شعبة، وولاية زياد الكوفة

في هذه السنة في شعبان كانت وفاة المغيرة بن شعبة في قول بعضهم وهو الصحيح، وكان الطاعون قد وقع بالكوفة فهرب المغيرة منه فلما ارتفع الطاعون عاد إلىٰ الكوفة فطُعِنَ[1] فمات، وكان طوالاً أعور، ذهبتْ عينُه يوم اليرموك، وتوفي وهو ابن سبعين سنة، وقيل: كان موته سنة إحدى وخمسين، وقيل: سنة تسع وأربعين.

فلما مات المغيرة استعمل معاوية زياداً علىٰ الكوفة **وهو أول مَنْ جُمِعَا له،** فلما وَلِيها سار إليها واستخلف على البصرة سَمُرَة بن جندب، وكان زياد يقيم بالكوفة ستة أشهر وبالبصرة ستة أشهر، فلما وصل الكوفة خطَبهم فحُصِبَ -[2] وهو علىٰ المنبر - فجلس حتىٰ أمسكوا، ثم دعا قوماً مِنْ خاصّته فأمرهم فأخذوا أبواب المسجد ثم قال: « ليأخذ كلُّ رجلٍ منكم جليسه ولا يقولنّ لا أدري مَنْ جليسي ».

ثم أمر بكرسيّ فوُضِعَ علىٰ باب المسجد فدعاهم أربعة أربعة يحلِفُون ما مِنّا مَنْ حَصَبَكَ فَمَنْ حلف خَلّاه ومَنْ لم يحلف حبسه حتىٰ صار إلىٰ ثلاثين - وقيل: إلىٰ ثمانين - فقطع أيديهم علىٰ المكان، **وكان أول قتيل قتله زياد بالكوفة أوفىٰ بن حصن** وكان بلغه عنه شيءٌ فطلبه فهرب، فعرض الناسَ [زياد] فمر به فقال: مَنْ هذا؟ قال: أوفىٰ بن حصن. فقال زياد: اتتك بحائن رجلاه. وقال له: ما رأيك في

---

(١) أي: أصيب بالطاعون.

(٢) أي: رماه بالحصباء ونحوها.

عثمان قال: خَتَنُ رسول الله ﷺ علىٰ ابنتيه. قال: فما تقول في معاوية؟ قال: جواد حليم. قال: فما تقول فيّ؟ قال: بلغني أنّك قلتَ بالبصرة « واللهِ لآخذنّ البريءَ بالسقيم والمقبل بالمدبر ». قال: قد قلتُ ذاك. قال: خبطتها خبط عشواء[1]. فقال زياد: ليس النفاخ بشر الزمرة. فقتله.

ولما قدِم زياد الكوفة قال له عمارة بن عقبة بن أبي معيط: إنّ عَمرو بن الحمق يجمع إليه شيعة أبي تراب. فأرسل إليه زياد: ما هذه الجماعات عندك؟ مَنْ [أرادك أو] أردتَ كلامه ففي المسجد. وقيل: الذي سعىٰ بعمرو يزيد بن رويم. فقال له زياد: قد أبشطت به[2] ولو علمتُ أنّ مخ ساقه قد سال مِنْ بُغْضِي ما هِجته حتىٰ يخرج عليّ، فاتخذ زياد المقصورة حين حُصب، فلما آستَخْلَفَ زياد سمرة علىٰ البصرة أكثرَ القتل فيها فقال ابن سيرين: قتل سمرة في غيبة زياد هذه ثمانية آلاف فقال له زياد: أتخافُ أنْ تكونَ قتلتَ بريئاً؟ فقال: لو قتلتُ معهم مثلهم ما خشيتُ.[3] وقال أبو السوار العدويّ: قتل سمرة من قومي في غداةٍ واحدة سبعة وأربعين كلهم قد جَمَعَ[4] القرآن، وركب سمرة يوماً فلقي أوائل خيله رجلاً فقتلوه فمرّ به سمرة وهو يتشحط في دمه فقال: ما هذا؟ فقيل: أصابه أوائل خيلك. فقال: إذا سمعتُم بنا قد رَكِبنا فاتقوا اسنَّتَنا.

ذكر خروج قريب

وفيها خرج قريب الأزديّ، وزحاف الطائيّ بالبصرة ـ وهما ابنا خالة، وزياد بالكوفة، وسمرة علىٰ البصرة، فأتيا بني ضبيعة وهم سبعون رجلاً وقتلوا منهم شيخاً، وخرج علىٰ قريب، وزحاف شباب من بني عليّ، وبني راسب فرموهم بالنبل، وقتل عبد الله بن أوس الطاحي قريباً وجاء برأسه، واشتدَّ زيادٌ في أمر الخوارج فقتلهم، وأمر سمرة بذلك فقتل منهم بشراً كثيراً، وخطب زياد علىٰ المنبر فقال: يا أهل

---

(١) الطبري: خطبتها عشواء.

(٢) الطبري: فقد اشطت بدمه ـ أي أهلكته وأذهبته.

(٣) لا أظن هذه الروايات تصح أبداً وهذا صحابي جليل من صحابة النبي ﷺ.

(٤) أي: حفظه في صدره.

البصرة والله لتكفنني هؤلاء أو لأبدأنّ بكم والله لئن افلت منهم رجل لا تأخذون العام من عطياتكم درهماً فثار الناس بهم فقتلوهم.

ذكر إرادة معاوية نقل المِنبرِ من المدينة

وفي هذه السنة أمر معاوية بمنبر النبي ﷺ أنْ يُحملَ مِن المدينة إلىٰ الشام وقال: «لا يترك هو وعَصَا النبي ﷺ بالمدينة وهم قَتَلة عثمان» وطلب العصا وهي عند سعد القرظ فحرّك المنبر فكسفتْ الشمسُ حتىٰ رؤيتْ النجومُ بادية فأعظم الناس ذلك فتركه، وقيل: أتاه جابر، وأبو هريرة وقالا له: يا أمير المؤمنين لا يصلحُ أنْ تُخرج منبرَ رسول الله ﷺ مِن موضع وضعه ولا تنقل عصاه إلىٰ الشام فانقل المسجد فتركه، وزاد فيه سِتّ درجات واعتذر مما صنع.

فلما ولي عبد الملك بن مروان هَمّ بالمنبر فقال له قبيصة بن ذؤيب: أُذَكِّرُكَ اللّهُ أنْ تفعل إنّ معاوية حَرَّكه فكُسِفَتْ الشمس وقال رسول الله ﷺ «مَنْ حلف علىٰ منبري فليتبوأ مقعَده مِن النار» وهو مقطع الحقوق عندهم بالمدينة. فتركه عبد الملك، فلما كان الوليد ابنه وحجّ هَمَّ بذلك فأرسل سعيد بن المَسيَّب إلىٰ عُمر بن عبد العزيز فقال: كَلِّمْ صاحبك لا يتعرض للمسجد ولا لله والسخط له فكلمه عمر فتركه.

ولمّا حجّ سليمان بن عبد الملك أخبره عمر بما كان من الوليد فقال سليمان: ما كنتُ أحبُّ أنْ يُذكر عن أمير المؤمنين عبد الملك هذا ولا عن الوليد ما لناولهذا! أَخَذْنا الدنيا فهي في أيدينا ونريدُ أنْ نعمد إلىٰ عَلَمٍ مِن أعلام الإسلام يوفَد إليه فنحمله هذا ما لا يصلح!

وفيها عزل معاوية بن حديج السكونيّ عن مصر ووليها مسلمة بن مخلد مع افريقية، وكان معاوية بن أبي سفيان بعث قبل أنْ يولي مسلمة إفريقية، ومصر عُقْبة بن نافع إلىٰ إفْرِيقيَّة [فافتتحها] وكان اختط قيروانها وكان موضعه غيضة[1] لا ترام من السباع، والحيات، وغيرها فدَعَا اللّهَ عليها فلم يَبْق منها شيءُ إلّا خرجَ هارباً حتىٰ إنْ كانت السباع لتحمل أولادها، وبنى الجامع، فلما عزل معاوية بن أبي

---

(١) الغَيْضَة: الأمجة.

سفيان معاوية بن حديج السكونيّ عن مصر عزل عقبة عن إفْرِيقيَّة وجمعها لمسلمة بن مخلد فهو أول مَنْ جُمع له المغرب مع مصر، فولى مسلمة إفريقيّة مولىٰ له يقال له: « أبو المهاجر » فلم يزل عليها حتىٰ هلك معاوية بن أبي سفيان.

ذكر ولاية عقبة بن نافع إفريقية ، وبناء مدينة القيروان

قد ذكر أبو جعفر الطبريّ[1] أنّ في هذه السنة وُلِّيَ مسلمة بن مخلد إفريقية وأنّ عقبة ولي قبله إفريقية، وبنىٰ القيروان، والذي ذكره أهلُ التاريخ مِن المغاربة أنّ ولاية عقبة بن نافع إفريقيّة كانت هذه السنة وبنىٰ القيروان، ثم بقي إلىٰ سنة خمس وخمسين ووليها مسلمة بن مخلد وهم أخبر ببلادهم. وأنا أذكر ما أثبتوه في كتبهم قالوا :

إنّ معاوية بن أبي سفيان عزل معاوية بن حديج عن إفريقية حسب واستعمل عليها عقبة بن نافع الفهري وكان مقيماً ببرقة، وزويلة مذ فتحها أيام عَمرو بن العاص وله في تلك البلاد جهاد وفتوح، فلما استعمله معاوية سيّر إليه عشرة آلاف فارس فدخل إفريقية وانضاف إليه مَنْ أسلم مِنْ البربر فكثر جمعه ووضع السيفَ في أهل البلاد لأنهم كانوا إذا دخل إليهم أميرٌ أطاعوا وأظهر بعضُهم الإسلام فإذا عاد الأمير عنهم نكثوا وارتدَّ مَنْ أسلم، ثم رأى أنْ يتخذ مدينةً يكون بها عسكر المسلمين وأهلهم وأموالهم ليأمنوا مِنْ ثورة تكون مِنْ أهل البلاد فقصد موضع « القيروان » وكان دخلة مشتبكة بها مِنْ أنواع الحيوان مِنْ السباع والحيّات وغير ذلك فدعا اللّهَ وكان مستجابَ الدعوة ثم نادىٰ : أيتها الحيات والسباع إنّا أصحاب رسول الله ﷺ ارحلوا عنّا فإنّا نازلون ومَنْ وجدناه بعد ذلك قتلناه ».

فنظر الناس ذلك اليوم إلىٰ الدواب تحمل أولادها وتنتقل، فرآه قبيل كثير مِن البربر فأسلموا، وقطع الأشجار، وأمر ببناء المدينة فبُنيت وبنىٰ المسجد الجامع، وبنىٰ الناسُ مساجدهم ومساكِنهم، وكان دورها ثلاثة آلاف باع وستمائة باع، وتمّ أمرُهَا سنة خمس وخمسين وسكنَها الناسُ، وكان في أثناءِ عمارة المدينة يغزو ويرسل السرايا فتغير وتنهب؛ ودخل كثيرٌ مِن البربر في الاسلام واتّسعت خطة المسلمين

---

(١) أنظر الطبري ٥/٢٤٠ .

وقوي جنان مَنْ هناك مِن الجنود بمدينة القيروان وأمنوا واطمأنوا علىٰ المقام فثبت الإسلام فيها.

ذكر ولاية مسلمة بن مخلد افريقية

ثم إنّ معاوية بن أبي سفيان استعملَ علىٰ مصر، وإفريقية مسلمة بن مخلد الأنصاريّ فاستعمل مسلمة علىٰ إفريقية مولىٰ له يقال له: «أبو المهاجر» فقدِم إفريقية وأساءَ عزل عقبة، واستخفّ به، وسار عُقبة إلىٰ الشام، وعاتب معاوية علىٰ ما فعله به أبو المهاجر فاعتذر إليه، ووعده بإعادتِه إلىٰ عمله، وتمادىٰ الأمرُ فتوفي معاوية وولي بعده ابنه «يزيد» فاستعمل عقبة بن نافع علىٰ البلاد سنة اثنتين وستين فسار إليها.

وقد ذكر الواقديّ أنّ عقبة بن نافع ولي افريقية سنة ست وأربعين واختطّ القيروان ولم يزل عقبة علىٰ افريقية إلىٰ سنة اثنتين وستين فعزله يزيد بن معاوية واستعمل أبا المهاجر مولىٰ الأنصار فحبس عقبة وضيّق عليه؛ فلما بلغ يزيد بن معاوية ما فعل بعقبة كتَب إليه يأمره بإطلاقه وإرساله إليه ففعل ذلك، ووصل عقبة إلى يزيد فأعاده إلىٰ إفريقية والياً عليها فقبضَ علىٰ أبي المُهاجر وأوثقه ـ وساق من خبر كسيلة مثل ما نذكره إنْ شاء الله تعالى سنة اثنتين وستين.

ذكر هرب الفرزدق من زياد

وفيها طلب زياد الفرزدق استعدته عليه بنو نهشل، وفقيم، وسبب ذلك: قال الفرزدق: هاجَيْتُ الأشهبَ بن زميلة[1]، والبعيث فسَقَطَا فاستعدىٰ عليَّ بنو شهل، وبنو فُقَيْم زيادَ بن أبيه، واستعدىٰ عليَّ أيضاً يزيد بن مسعود بن خالد بن مالك. قال: فلم يعرفني زياد حتىٰ قيل له: الغلام الأعرابيّ الذي أنهبَ ماله وثيابه فعرفني. قال الفرزدق: وكان أبي غالب قد أرسلني في جَلَبٍ له أبيعه وأمتار له فبعتُ الجَلَب بالبصرة، وجعلتُ ثمنَه في ثوبي فعرض لي رجلٌ [أراه كأنّه شيطان] فقال: لشدّ ما تستوثق منها! أما لو كان مكانك رجلٌ أعرفه ما صَرَّ عليها، فقلت: ومن هو؟ قال:

---

(١) في الطبري ٥/ ٢٤١: رميلة.

غالب بن صعصعة ـ وهو أبو الفرزدق ـ فدعوتُ أهل المِرْبد ونثرتُها. فقال لي قائل: ألق رداءَك. ففعلتُ. فقال آخر: ألق ثوبك. ففعلتُ. وقال آخر: ألق عمامتك. ففعلتُ. فقال آخر: ألق إزارك. فقلت: لا ألقيه وأمشي مجرداً إنّي لستُ بمجنون. وبلغ الخبر زياداً فقال: هذا أحمق يضري الناس بالنهب. فأرسل خيلاً إلىٰ المربد ليأتُوه بي فأتاني رجلٌ مِنْ بني الهجيم علىٰ فَرَسٍ له وقال: النجاء النجاء. وأردفني خَلْفه ونجوتُ، فأخذ زياد عَمَّيْن لي ذهيلاً، والزحاف ابني صعصعة ـ وكانا في الديوان ـ فحبسهما أياماً ثم كُلِّمَ فيهما فأطلقهما، وأتيتُ أبي فأخبرته خبري فحقدها عليه زياد(١).

ثم وفد الأحنف بن قيس، وجارية بن قدامة السعديان، والجون بن قتادة العبشمي، والحُتَات بن يزيد أبو منازل المجاشعي إلىٰ معاوية بن أبي سفيان فأعطىٰ كلَّ رجلٍ منهم جائزة مائة ألف، وأعطىٰ الحتات سبعين ألفاً، فلما كانوا في الطريق ذكرَ كلٌ منهم جائزته فرجع الحتات إلىٰ معاوية فقال: ما رَدَّكَ؟ قال: فضحتني في بني تميم أمّا حسبي صحيح، أو لستُ ذا سن ألستُ مُطَاعاً في عشيرتي؟ قال: بلى قال: فما بالك خسستَ بي دونَ القوم، وأعطيتَ مَنْ كان عليك أكثر ممن كان لك! وكان حضر الجمل مع عائشة، وكان الأحنف، وجارية يريدان عليًّا وإنْ كان الأحنف، والجون اعتزلا القتال مع عليّ، لكنهما كانا يريدانه قال: إنّي اشتريتُ من القوم دينهم ووكلتُك إلىٰ دينك، ورأيك في عثمان وكان عثمانياً، فقال: وأنا فاشترِ مني ديني. فأمر له بإتمام جائزته، ثم مات الحتّات(٢) فحبسها معاوية فقال الفرزدق في ذلك:

أبـوكَ وَعَمِّي يَـا مُعَـاوِيَّ أَوْرَثَـا ... تُـرَاثـاً فَيَحْتَـازُ التـراثَ أقـارِبُـهْ
فَمَـا بال مِيـراثَ الحُتاتِ أخـذته ... ومِيْرَاثُ صخرٍ جامدٌ لك ذائبهُ(٣)

---

(١) أنظر تمام القصة في الطبري ٥/٢٤٢ .

(٢) قبض الحتات المال فلم يخرج من دمشق حتىٰ مات .

(٣) في الديوان :

أنـا كـل ميـراث الحتات ظـلامة ... وميـراث حـرب جـامدٌ لـك ذائبه

أبوك وعمي . . . الخ .

فَلَوْ كَـانَ هَذَا الأمـرُ في جـاهليّـةٍ ... علمتَ من المـرء القليلُ حـلائبُهْ
وَلَـوْ كَـانَ في دين سوى ذا شَنِئْتُمُ ... لنا حقنا أو غصَّ بالماءِ شَارِبُهْ[1]

[وأنشد محمد بن علي][2]

ألستُ أعزَّ الناسِ قـومـاً وأسـرةً ... وأمنَعَهُم جـاراً إذا ضِيْمَ جـانبُـهْ
ومـا ولـدَتْ بعـدَ النبيِّ وآلِـهِ ... كمِثْلِي حَصانٌ في الرجالِ يقاربهْ
وبيْتي إلىٰ جنب الثـريّـا فِنَـاؤُه ... ومِنْ دُونِهِ البدرُ المضيءُ كـواكبُهْ
أنا ابنُ الجبال الشُّمّ في عددِ الحَصَى ... وعرْقُ الثَّرَىٰ عِرقي فمن ذا يُحاسِبُهْ!
وكم مِن أبٍ لي يا معاوِيَ لم يَزَل ... أغـرَّ يبارِي الـريـحَ آزْوَرَّ جـانبُـهْ
نمتْـهُ فـروعُ المـالكيْن ولم يكُن ... أبوك الذي مِن عبدِ شمسٍ يقارِبُهْ
تـراهُ كنصلِ السَّيْف يهتـزُّ للندىٰ ... كريماً يُلاقي المجدَ ما طَرَّ شاربهْ
طويل نِجَاد السيف مذ كان لم يكنْ ... قصيٌّ وعبدُ الشمس ممَّن يخاطبُهْ

يريد بالمالكين: مالك بن حنظلة، ومالك بن زيد مناة بن تميم وهما جداه لأن الفرزدق هو ابن غالب بن صعصعة بن ناجية بن عقال بن محمد بن سفيان بن مجاشع بن دارم بن مالك بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم.

فلما بلغ معاوية شعرَه رَدَّ علىٰ أهلِه ثلاثين ألفاً فاغضبتْ أيضاً زياداً عليه، فلما استعدتْ عليه نهشل، وفقيم ازدادَ عليه غضباً فطلبه فهرب، وأتىٰ عيسى بن خصيلة السلمي ليلاً وقال له: إنّ هذا الرجل قد طلبني وقد لفظني الناسُ وقد أتيتُك لتغيثني عندك. فقال: مرحباً بك. فكان عنده ثلاث ليالٍ ثم قال له: قد بدا لي أنْ آتي الشامَ فسيَّره، وبلغ زياداً مسيره فأرسل في أثره فلم يُدرك وأتىٰ الروحاء فنزل في بكر بن وائل فأمن ومدحهم بقصائد.

ثم كان زياد إذا نزل البصرة نزل الفرزدق الكوفة وإذا نزل الكوفة نزل الفرزدق البصرة فبلغ ذلك زياداً فكتب إلىٰ عامله علىٰ الكوفة ـ وهو عبد الرحمن بن عبيد ـ

---

(١) انظر ديوان الفرزدق ١/٤٥.

(٢) الأبيات التالية ليست في ديوان الفرزدق، وقال الطبري: (وأنشد محمد بن علي ...) فذكر هذه الأبيات، فلعل هذه العبارة ساقطة من المطبوعة.

يأمره بطلب الفرزدق ففارق الكوفة نحو الحجاز فاستجارَ بسعيد بن العاص فأجاره فَمَدَحه الفرزدق ولم يزل بالمدينة مرة وبمكة مرة حتىٰ هلك زياد.

وقد قيل: إنّ الفرزدق إنما قال هذا الشعر لأنّ الحتات لما أسلم آخى النبيُّ ﷺ بينه وبين معاوية، فلمّا مات الحتات بالشام ورثه معاوية بتلك الأُخُوّة فقال له الفرزدق: هذا الشعر. وهذا القول الذي ليس بشيء لأنّ معاوية لم يكن يجهل أنّ هذه الأخوّة لا يرثُ بها أحد.

(الحُتات) بضم الحاء وبتائين مثناتين من فوقهما بينهما ألف.

ذكر وفاة الحكم بن عمرو الغفاريّ

في هذه السنة توفي الحكم بن عمرو الغفاريّ بمرو بعد انصرافه مِنْ غزوة جبل الأشلّ في قوله، وقد تقدم ذكر وفاته في قول آخر، وكان زياد قد كتب إليه أنّ أمير المؤمنين معاوية أمرني أنْ اصطفي له الصفراء والبيضاء فلا تقسِّم بين الناس ذهباً ولا فضّة، فكتب إليه الحكم: «بلغني ما أمر به أميرُ المؤمنين وإنّي وجدتُ كتابَ الله قبل كتابه وإنّه والله لو أنّ السماوات والأرض كانتا رتقاً علىٰ عبدٍ ثم اتقىٰ اللّهَ لجعل له فرجاً ومخرجاً». ثم قال للناس: «اغدوا علىٰ أعطياتكم ومالكم». فقسّمه بينهم ثم قال: «اللهم إنْ كان لي عندك خيرٌ فاقبضني إليك. فتوفي بمرو وله صحبة.

ذكر عدة حوادث

حجَّ بالناسِ هذه السنة معاوية، وقيل: بل حج ابنه يزيد. وكان العمال علىٰ البلاد مَنْ تقدّم ذكرهم. وفيها توفي سعد بن أبي وقاص بالعقيق فحمل علىٰ الرقاب إلىٰ المدينة فدفن بها ـ وقيل: توفي سنة أربع وخمسين، وقيل: سنة خمس وخمسين، وعمره أربع وسبعون، وقيل: ثلاث وثمانون سنة، وهو أحد العشرة، وكان قصيراً دحداحاً. وفيها تُوفيتْ صفيّة بنت حُيَيّ زوج النبي ﷺ. وقيل: توفيت أيام عمر. وفيها تُوُفّي عثمان بن أبي العاص الثقفيّ، وعبد الرحمن بن سمرة بن حبيب بن عبد شمس توفي بالبصرة، وأبو موسىٰ الأشعري، وقيل: توفي سنة اثنتين وخمسين. وفيها تُوفي زيد بن خالد الجهنيّ، وقيل: توفي سنة ثمان وستين، وقيل: ثمان وسبعين. وفيها توفي

مدلاج بن عمرو السلمي وكان قد شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ وكلّهم له صحبة.

ثم دخلت سنة إحدى وخمسين

وفيها كان مشتىٰ فضالة بن عبيد بأرض الروم، وغزوة بسر بن أبي أرطاة الصائفة.

ذكر مقتل حجر بن عدي وعمرو بن الحمق وأصحابهما

في هذه السنة قُتل حُجْر بن عديّ وأصحابه، وسبب ذلك أنّ معاوية استعمل المغيرة بن شعبة علىٰ الكوفة سنة إحدى وأربعين فلما أمّره عليها دعاه وقال له: أما بعد فإنّ لذي الحِلم قبل اليوم [ما] تقرع العصا وقد يجزي عنك الحكيم بغير التعليم، وقد أردتُ إيصاءك بأشياء كثيرة أنا تارِكها آعتماداً علىٰ بصرك ولستُ تاركاً إيصَاءك بخصلة: لا تترك شتم عَليّ وذَمِّهِ، والترحم علىٰ عثمان، وآلاستغفار له، والعَيْب لأصحاب عليّ، والاقصاء لهم، والإطراء بشيعة عثمان، والإدناء لهم. فقال له المغيرة: قد جَرَّبتُ وجُرِّبْتُ وعملتُ قبلك لغيرك فلم يذممني، وستبلو فتحمد أو تذم. فقال: بل نحمد إنْ شاء الله. فأقام المغيرة عاملاً علىٰ الكوفة وهو أحسن شيء سيرة غير أنه لا يدع شَتْم عليّ والوقوع فيه والدعاء لعثمان والاستغفار له، فإذا سمع ذلك حُجْر بن عَدِيّ قال: بل إياكم ذمَّ اللّهُ ولعن. ثم قام وقال: أنا أشهدُ أنّ مَنْ تذمُّون أحقّ بالفضل، ومَنْ تزكُّون أولىٰ بالذمّ. فيقول له المغيرة: «يا حُجْر اتقِ هذا السلطان وغضبه وسطوته فإنّ غضَب السلطان يُهلِك أمثالك». ثم يكف عنه ويصفح، فلما كان آخر إمارته قال في عليّ وعثمان ما كان يقول له فقام حُجْر فصاح صيحةً بالمغيرة سَمِعَها كلُّ مَنْ بالمسجد [وخارجاً منه] وقال له: «مُرْ لنا أيها الإنسان بأرزاقِنا فقد حبستَهَا عنّا وليس ذلك لك وقد أصبحتَ مولعاً بذمّ أمير المؤمنين».

فقام أكثر مِن ثُلُثَي الناس يقولون: «صَدَقَ حُجْر وبَرّ. مُرْ لنا بأرزاقِنا فإنّ ما أنت عليه لا يجدي علينا نفعاً». وأكثروا مِنْ هذا القول وأمثالِه فنزل المغيرة فاستأذن عليه

قومه ودخلوا وقالوا: «علىٰ مَ تترك هذا الرجل يجترىء عليك في سلطانِك ويقول لك هذه المقالة فيوَهِّن سلطانك، ويسخط عليك أمير المؤمنين معاوية.

فقال لهم المغيرة: إنّي قد قتلته؛ سيأتي مِنْ بعدي أميرٌ يحسبه مثلي فيصنع به ما ترونه يصنع بي فيأخذه ويقتله. إني قد قَرُبَ أجلي ولا أحبُّ أنْ أقتل خيارَ أهلِ هذا المِصر فيسعَدون وأشقىٰ ويعزّ في الدنيا معاوية ويشقىٰ في الآخرة المغيرة.

ثم توفي المغيرة وولي زياد فقام في الناس فخطبهم عند قدومه ثم ترحّم علىٰ عثمان وأثنىٰ علىٰ أصحابه، ولعن قاتليه، فقام حُجْر ففعل كما كان يفعل بالمغيرة، ورجع زياد إلىٰ البصرة واستخلف علىٰ الكوفة عَمرو بن حريث فبلغه أنّ حُجْراً يجتمع إليه شيعة عليّ ويُظْهِرُون لعن معاوية والبراءة منه وأنهم حصبوا عمرو بن حريث فشخص زياد إلى الكوفة حتىٰ دخلها فصعد المنبر فحمد الله وأثنىٰ عليه وحجر جالس [في المسجد] ثم قال: «أما بعد فإنّ غِبَّ البَغْي والغَيّ وخيم إنّ هؤلاء جمُّوا فأشِروا. وأمنوني فاجترأوا علىٰ الله. [وأيم الله] لَئِن لم تستقيموا لأداوينَّكم بدوائكم، ولستُ بشيءٍ إنْ لم أمنع الكوفةَ مِنْ حُجْر وأَدَعه مَكَالاً لمن بعده، ويل أمك يا حُجْر سَقَطَ العشاءُ بك علىٰ سِرْحان».

وأرسل إلىٰ حُجْر يدعوه وهو بالمسجد فلمّا أتاه رسول زياد يدعوه قال أصحابه: لا تأتِه ولا كرامة. فرجعَ الرسولُ فأخبر زياداً، فأمر صاحبَ شرطَتِهِ وهو شداد بن الهيثم الهلاليّ أنْ يبعث إليه جماعة ففعل فسبّهم أصحابُ حجر فرجعوا وأخبروا زياداً فجمع أهْلَ الكوفة وقال: تشجون بيد وتأسون بأخرىٰ! أبدانكم معي وقلوبكم مع حجر الأحمق! هذا والله مِن دَحْسِكم[1]، والله لتظهرنّ لي براءتكم أو لآتينكم بقومٍ أقيم بهم أودكم وصعركم.

فقالوا: معاذَ اللّهِ أنْ يكونَ لنا رأي إلاّ طاعتك وما فيه رضاك. قال: فليقم كلُّ رجلٍ منكم فليدع مَنْ عند حجر مِنْ عشيرته وأهله. ففعلوا، وأقاموا أكثر أصحابه عنه. وقال زياد لصاحب شرطته: انطلقْ إلىٰ حُجْر فإنْ تبعك فأتِني به وإلاّ فشدُّوا عليهم

---

(١) في الأصل بالخاء المعجمة ولا يناسب، والصحيح بالحاء المهملة قال في القاموس: دحس بينهم كمنع أفسد وأدخل اليد بين جلد الشاة وصفاقها للسلخ (م).

بالسيوف حتىٰ تأتوني به. فأتاه صاحب الشرطة يدعوه فمنعه أصحابه مِنْ إجابته، فحمل عليهم فقال أبو العمرطة الكندي لحجر: إنه ليس معك مَنْ معه سيف غيري، وما يغني عنك سيفي. قُمْ فآلحقْ بأهلك يمنعُك قومُك. زياد ينظر إليهم ـ وهو على المنبر ـ وغشيهم أصحاب زياد، وضرب رجلٌ من الحمراء رأس عمرو بن الحمق بعمودِه فوقع، وحمله أصحابه إلىٰ الأزد فاختفىٰ عندهم حتى خرج، وانحاز أصحاب حجر إلىٰ أبواب كندة، وضرب بعض الشرطة يد عائذ بن حملة التميمي وكسر نابه، وأخذ عموداً مِنْ بعض الشرط فقاتل به وحمىٰ حجراً وأصحابه حتىٰ خرجوا مِن أبواب كندة، وأتىٰ حجر بغلته فقال له أبو العمرطة: آركبْ فقد قَتَلْتَنَا ونفسك. وحمله حتىٰ أركَبَه، وركب أبو العمرطة فرسَه ولحقه يزيد بن طريف المسلي فضرب أبا العمرطة علىٰ فخذِه بالعمود وأخذ أبو العمرطة سيفَه فضرب به رأسه فسقط ثم برىء. وله يقول عبدالله بن همّام السلولي:

أَلُؤمَ ابن لُؤمٍ ما عدا بك حاسِراً ... إلى بَطَلٍ ذي جُرْأَةٍ وشَكِيمِ
معاوِدِ ضَرْبِ الدَّارِعين بسَيْفِهِ ... علىٰ الهام عند الرَّوْعِ غَيْرَ لئيم
إلى فارِسِ الغَارَيْن يومَ تلاقَيا ... بصِفِّيْنَ قَرْمٍ خَيْرِ نَجلِ قُرُوم
حَسِبْتَ ابنَ بَرْصَاءَ الحِتار[1] قِتالَهُ ... قِتالَك زَيْداً يَوْمَ دارِ حَكِيم

وكان ذلك السيف أول سيف ضُرب به في الكوفة في اختلاف بين الناس، ومضىٰ حجر وأبو العمرطة إلىٰ دار حجر، واجتمع إليهما ناسٌ كثير، ولم يأته مِن كندة كثيرُ أحد فأرسل زياد وهو علىٰ المنبر مذحج، وهمدان إلىٰ جبانة كندة وأمرهم أنْ يأتوه بحجر، وأرسل سائر أهل اليمن إلىٰ «جبانة الصائدين» وأمرهم أنْ يمضوا إلىٰ صاحبهم حجر فيأتوه به ففعلوا فدخل مذحج، وهمدان إلىٰ جبانة كندة فأخذوا كلَّ مَنْ وجدوا فأثنىٰ عليهم زياد فلما رأىٰ حجر قِلَّة مَنْ معه أمرهم بالانصراف وقال لهم: لا طاقةَ لكم بمَنْ اجتمعَ عليكم وما أُحِبُّ أنْ تهلكوا. فخرجوا فأدركهم مذحج، وهمدان فقاتلوهم وأسروا قيس بن يزيد ونجا الباقون فأخذ حجر طريقاً إلىٰ بني حوت[2] فدخل دار رجلٍ

(١) الحتار: حلقة الدبر.

(٢) في الطبري: (نحو بني حرب) بالباء الموحدة.

منهم يقال له «سليم بن يزيد» وأدركه الطلب فأخذ سليم سيفَه ليقاتل فبكىٰ بناتُه فقال حجر: بئسما أدخلتَ علىٰ بناتك إذاً.

قال: واللّهِ لا تؤخذ مِنْ داري أسيراً ولا قتيلاً وأنا حيّ. فخرج حجر مِنْ خوخة في داره فأتىٰ النخع فنزل دار عبدالله بن الحارث أخي الأشتر فأحسن لقاءه فبينما هو عنده إذْ قيل له إنّ الشرط تسأل عنك في النخع، وسبب ذلك أنّ أمة سوداء لَقِيَتْهم فقالت: مَنْ تطلبون؟ فقالوا: حجر بن عدي. فقالت: هو في النخع. فخرج حجر مِنْ عنده فأتىٰ الأزد فاختفىٰ عند ربيعة بن ناجد فلما أعياهم طلبه دعا زياد محمد بن الأشعث وقال له: والله لتأتيني به أو لأقطعن كل نخلةٍ لك، وأهدم دورك ثم لا تَسْلَم مني حتىٰ أُقَطِّعَكَ إرباً إرباً.

فاستمهله فأمهله ثلاثاً، وأحضر قيس بن يزيد أسيراً فقال له زياد: لا بأْسَ عليك قد عرفتُ رأيك في عثمان وبلاءك مع معاوية بصفين وإنك إنما قاتَلتَ مع حجر حَمِيَّة، وقد غفرتُها لك، ولـٰكن ائتني بأخيك عمير. فاستأمنَ له منه علىٰ ماله ودمه فأمّنه فأتاه به وهو جريح فأثقله حديداً، وأمر الرجال أنْ يرفعوه ويلقوه ففعلوا بـه ذلك مـراراً فقال قيس بن يزيد لزياد: ألم تؤمِّنْه؟ قال: بلىٰ قد أمنته علىٰ دمه ولستُ أهريقُ له دماً ثم ضمِنه وخلىٰ سبيله.

ومكثَ حجر بن عدي في بيت ربيعة يوماً وليلة فأرسل إلىٰ محمد بن الأشعث يقول له ليأخذ له من زياد أماناً حتىٰ يبعث به إلىٰ معاوية. فجمع محمد جماعة منهم جرير بن عبدالله، وحجر بن زيد، وعبدالله بن الحارث أخو الأشتر فدخلوا علىٰ زياد فاستأمنوا له علىٰ أنْ يرسِله إلىٰ معاوية فأجابهم فأرسلوا إلىٰ حجر بن عدي فحضر عند زياد فلما رآه قال: «مرحباً بك أبا عبد الرحمن حرب أيام الحرب وحرب وقد سـالم الناس ـ علىٰ أهلها تجني بَرَاقِش».

فقال حجر: ما خلعتُ طاعةً، ولا فارقتُ جماعةً، وإنّي علىٰ بيعتي. فأمر به إلىٰ السجن، فلما ولّىٰ قال زياد: والله لاحرصنَّ علىٰ قطع خيط رقبته، وطلب أصحـابَه فخرج عَمْرو بن الحمق حتىٰ أتىٰ الموصل ومعه رفاعة بن شداد فاختفيا بجبـل هناك فرُفِعَ خبرهما إلىٰ عامل الموصل فسار إليهما فخرجا إليه، فأما عمرو فكان قد استسقىٰ بطنه ولم يكن عنده امتناع، وأما رفاعة فكان شاباً قويًّا فركب فرسه ليقاتل عن عمرو فقال

له عَمرو: ما ينفعني قتالك عني. انج بنفسك.

فحمل عليهم فأفرجوا له فَنَجا، وأُخِذَ عَمْرو أسيراً فسألوه: من أنت؟ فقال: مَنْ إنْ تركتموه كان أسلم لكم، وإنْ قتلتموه كان أضرَّ عليكم. ولم يخبرهم، فبعثوه إلىٰ عامل الموصل وهو عبد الرحمن بن عثمان الثقفي الذي يعرف «بابن أم الحكم» وهو ابن أخت معاوية فعرفه فكتب فيه إلىٰ معاوية فكتب إليه أنه زعم أنّه طعن عثمان تسع طعنات بمشاقص معه فاطعنه كما طعن عثمان. فأُخرج وطُعن فمات في الأولىٰ منهن أو الثانية.

وجَدَّ زياد في طلب أصحاب حجر فهربوا، وأخذ مَنْ قدِر عليه منهم فأتىٰ بقبيصة بن ضبيعة العبسي بأمان فحبسه، وجاء قيس بن عبّاد الشيباني إلىٰ زياد فقال له: إن امرأً منا يقال له «صيفي» من رؤوس أصحاب حجر. فبعث زياد فأتىٰ به فقال: يا عدو الله ما تقول في أبي تراب؟ قال: ما أعرف أبا تراب. فقال: ما أعرفك به. أتعرف عليَّ بن أبي طالب؟ قال: نعم. قال: فذاك أبو تراب. قال: كلا. ذاك أبو الحسن والحسين. فقال له صاحب الشرطة: يقول الأمير هو «أبو تراب» وتقول لا؟ قال: فإنْ كذب الأمير أكذبُ أنا وأشهدُ علىٰ باطل كما شهد. فقال له زياد: وهذا أيضاً! عليّ بالعصا فأتي بها فقال: ما تقول في عليّ؟ قال: أحسن قول. قال: اضربوه. فضربوه حتىٰ لصِق بالأرض ثم قال: أقلِعُوا عنه. ما قولُك في عليّ؟ قال: واللّهِ لو شرحتني بالمواسي ما قلتُ فيه إلاّ ما سمعتَ مني. قال: لتلعنّنه أو لأضربن عنقك. قال: لا أفعل. فأوثقوه حديداً وحبسوه.

قيل: وعاش قيس بن عباد حتىٰ قاتل مع ابن الأشعث في مواطنه، ثم دخل الكوفة فجلس في بيته فقال حوشب للحجاج: إنَّ هنا امرأً صاحب فتن لم تكن فتنة بالعراق إلاّ وثب فيها وهو تُرَابِيّ يلعن عثمان، وقد خرج مع ابن الأشعث حتىٰ هلك، وقد جاء فجلس في بيته.

فبعث إليه الحجاج فقتله، فقال بنو أبيه لآل حوشب: سَعَيْتُم بصاحبنا! فقالوا: وأنتم أيضاً سعيتم بصاحبنا ـ يعني صيفياً الشيبانيّ ـ وأرسل زياد إلى عبدالله بن خليفة الطائيّ فتوارىٰ فبعث إليه الشرط فأخذوه، فخرجتْ اخته «النوار» فحرَّضَت طيئاً فثاروا بالشُّرَط، وخلَّصوه، فرجعوا إلىٰ زياد فأخبروه، فأخذ عدي بن حاتم وهو في المسجد

فقال: أئتني بعبدالله قال: وما حاله؟ فأخبره فقال: لا عِلْمَ لي بهذا. قال: لتأتيني به. قال: لا آتيك به أبداً. آتيك بابن عمي تقتله! واللّهِ لو كانَ تحتَ قدمي ما رفعتُهما عنه.

فأمر به إلىٰ السجن فلم يبقَ بالكوفة يمنِيّ، ولا ربعيّ إلاّ كلّم زياداً وقالوا: تفعلُ هذا بعَدِي بن حاتم صاحب رسول الله ﷺ فقال: فإنّي أخرجه علىٰ شَرط أنْ يخرجَ ابن عمه عنّي فلا يدخل الكوفة ما دام لي سلطان. فأجابوه إلىٰ ذلك، وأرسل عدي إلىٰ عبدالله يُعَرِّفه ما كان وأمره أنْ يلحق بجبلي طيء، فخرج إليهما، وكان يكتب إلىٰ عدي ليشفع فيه ليعود إلىٰ الكوفة، وعدِي يُمَنّيه، فمما كتب إليه يعاتبه ويرثي حُجْراً وأصحابه قوله:

تَـذَكَّـرْتُ ليلىٰ والشبيبـةَ أَعْصُـرَاً ... وذِكْـرُ الصِّبَـا بَـرْحٌ علىٰ مَنْ تَـذَكَّـرَا
ووَلّى الشبـابُ فـافتقـدتُ غُصُـونَـهُ ... فيـالـك مِنْ وَجْـد بـه حين أَدْبَـرا
فـدَعْ عنـك تـذكـار الشبـابِ وفَقْـدَهُ ... وأسبـابـه إذْبَـانَ عَنْـك فـأجمـرَا
وابـكِ علىٰ الخُـلانِ لمـا تُخُـرِّمُـوا ... ولم يجدُوا عَنْ مَنْهلِ الموتِ مَصدرا
دَعَتْهُم مَنَـايَـاهُم ومَنْ حَـانَ يَـومُـهُ ... من النـاسِ فـاعلم أنَّـه لن يؤخَّـرا
أُولئِـك كـانـوا شِيعـةً لي ومَـوْئـلاً ... إذا اليـومَ أَلْفِي ذا احتِـدَام مُـذَكَّـرا
ومَـا كنتُ أهـوَىٰ بعـدَهُم مُتَعَـلِّلاً ... بشَيءٍ مِـن الـدنيـا ولا أَنْ أُعَمَّـرَا
أقـولُ ولا والـلّهِ أنسـىٰ ادِّكَـارَهـمْ ... سَجِيسَ اللّيـالي أو أمـوت فـأُقْبَـرا
عَلىٰ أهـلِ عذراء السـلامُ مُضـاعَفـاً ... مِن الله وليُسْق الـغمـامَ الـكَنَـهْـوَرا
ولاَقى بهـا حُجْـرٌ من الله رحـمـةً ... فقـد كـان أرْضى اللّهَ حجـرٌ وأعـذَرا
ولا زالَ تَـهْـطال مُـلِثٌ ودِيـمَـة ... علىٰ قبـرِ حُجْـرٍ أو ينـادَى فَيُحْشَـرا
فيا حُجْرُ مَنْ للخيلِ تُدْمَى نُحُورُها ... وللمَلِكِ المُغْـرِي إذا مـا تَغشْمَـرا
ومَنْ صَـادِعٌ بـالحقِّ بعـدَك نـاطِقٌ ... بتقـوىٰ وَمَنْ إنْ قيـلَ بـالجَـوْرِ غيّـرا
فنِعْم أخـو الإسـلامِ كنتَ وإنني ... لأطْمَـعُ أن تُـوْتَىٰ الخلودَ وتُـحْبَـرا
وقد كنتَ تعطي السيفَ في الحرب ... حَقَّـه وتَعرِفُ مَعـرُوفـاً وتنكِـرُ مُنكَـرا
فيـا أَخَـوَيْنَـا مِنْ هُمَيمٍ عُصِمتُمَـا ... وبُشِّـرْتُمـا بـالصالحـاتِ فـأبشِـرا
ويَـا أَخَـوَيَّ الخِنـدِفيَّـيـن أبْشِـرا ... بـمـا معنـا حُيِّيْتُـمَـا أنْ تُـتبـرا
ويـا إخْوَتـا من حضـرمـوت وغـالـبٍ ... وشـيبـانَ لُقِّيتُمْ جنـانـاً مُبَشَّـرَا

سَعِـدْتُم فلم أسمع بـأصـوَبَ مِنكُمُ ... حِجاجاً لَدَىٰ الموتِ الجليلِ وأصبَرا

سـأبكيكُم مـا لاح نجمٌ وغَـرَّدَ الـ ... ـحمـامُ بِبَطْنِ الـواديَيْنِ وقَـرقَـرا

فقلتُ ولم أظلم أغَـوْثَ بـنَ طَيِّـىءٍ ... متى كنتُ أخشَى بينكم أَنْ أُسَيَّـرَا

هَـبِلتُم ألا قـاتَـلتُمُ عـنِ أخيكـمُ ... وقـد دُثَّ(١) حتىٰ مـال ثم تجـوَّرا

تفـرَّجْتُمُ عني فغُـودِرْتُ مُسلَمـاً ... كـأني غـريب من إيـادٍ وأعصُـرا

فمن لـكُم مِثلِي لَـدَىٰ كـلِّ غـارةٍ ... ومن لكُم مثلي إذا البـأسُ أصحـرا

ومَنْ لَكُم مِثلي إذا الحـربُ قلَّصَتْ ... وأوضَـعَ فيهـا المُستَمِيتُ وشَمَّـرا

فـهَـا أنـاذَا آوي بـأجبـال طَيِّـىءٍ ... طَـرِيْـداً فلو شـاءَ الإلـٰهُ لَغَيَّـرَا

نَفَـاني عَدُوِّي ظـالماً عن مُهاجَرِي ... رضيتُ بمـا شـاءَ الإلـٰهُ وقَـدَّرا

وأسلَمَني قـومي بغيـرِ جِنـايـةٍ ... كـأن لم يكونـوا لي قَبيلاً ومَعشَـرا

فـإنْ أُلْفَ في دارٍ بـأجبـالِ طيِّىءٍ ... وكـان مَعانـاً مِن عُصَيْر ومَحضَـرا

فمـا كنتُ أخشىٰ أنْ أرىٰ مُتَغَـرِّبـا ... لَحـا اللّٰهُ مَنْ لاحَى عـليـه وكثَّـرا

لحـا اللّٰهُ قيـلَ الحضرميّين وائـلاً ... ولاقى القَنَـاني بـالسنـان المؤمَّـرا

وَلاَقَى الرَّدَىٰ القومُ الـذين تَحَزبـوا ... علينـا وقـالـوا قَـول زُورٍ ومُنكَـرا

فـلا يَـدْعُني قـومٌ لغـوث وطيّىءٍ ... إذا دَهـرُهـم أشقَى بهـم وتـغـيَّـرا

فلم أغـزُهُمْ في المُعَلَّمِينَ ولم أُثـر ... عليهمْ عَجاجاً بـالكُـوَيْفَـةِ أكـدَرا

فبلِّغ خـليلي إن رَحـلتَ مُشَـرِّقـاً ... جَـديلةَ والحَيَّيْـن مَعْنـاً وبُحتُـرا

ونَبْهَـانَ والأفنَـاءَ من جِـذْم طيِّىءٍ ... ألم أكُ فيكمْ ذَا الغنـاءِ العشَـنـزَرا

ألَم تـذكـروا يـومَ العُـذَيْبِ ألِيَّتي ... أمـامكُمُ أنْ لا أرَىٰ الـدَّهـرَ مُـدبِـرا!

وكَـرِّي علىٰ مِهرانَ والجمعُ حـابس ... وَقَتلِي الهُمـامَ المُستَميتَ المُسَـوَّرا

ويـومَ جَـلولاءِ الـوَقيعـة لـم أَلُمْ ... ويـومَ نِهـاوَنـدِ الفُتُـوح وتُستَـرا

ويَنسَـونني يـومَ الشَّـريعـةِ والقَنـا ... بصِفِّيْنَ في أكتـافِهم قـد تَكَسَّـرَا

جَـزَىٰ رَبُّـهُ عني عَـديَّ بن حـاتمٍ ... بـرَفضي وخِـذلاني جـزاءً مُؤَثِّـراً

أتَنْسَىٰ بَلائِي سـادِراً يـا بنَ حَـاتِمٍ ... عشيَّـةَ مـا أغنت عَـدِيُّكَ حِـزْمَـرا

فـدافَعتُ عنك القـومَ حتىٰ تخَـاذَلـوا ... وكنتُ أنـا الخَصم الألَـدَّ العَـذَوَّرا

---

(١) يقال: دث الرجل دثا وهو التواء في جنبه أو بعض جسده من غير داء.

تَوَلَّوا وما قاموا مقامي كأنّما ... رأَوْني لَيثاً بالأَباءَة مُخدرا

وقد تقدم ما فعله عبدالله مع عدي في وقعة صفين فلهذا لم نذكره ها هنا.

نَصَرتُك اذ خانَ القَريبُ وَأَنغض الـ ... ـبعيدُ وقد أُفرِدتُ نَصراً مؤزّرا
فكان جزائي أنْ أجَرَّدَ بينكم ... سَحيباً وأنْ أُولَى الهوانَ وأوسَرا
وكم عِدَّة لي منك أنك راجِعي ... فلم تُغن بالميعاد عنّي حبتَرا
فأصبحتُ أرعىٰ النِّيب طَوراً وتارة ... أُهَرْهِرُ إن راعى الشُّوَيهات هِرهَرا
كأنّي لم أَركَب جَواداً لغارةٍ ... ولم أترُك القِرن الكَميَّ مُقَطَّرا
ولم أعتَرِض بالسيفِ منكم مُغِيرةً ... إذ النكسُ مَشّىٰ القَهقَرَى ثم جَرجَرا
ولم أَستحِثَّ الركضَ في إثر عُصبَةٍ ... مُيَمّمَةٍ عُليا سِجاسٍ وابهَرا
ولم أذعرِ الأَبْلَام مني بغارةٍ ... كَوِرْدِ القَطا ثم انحدرتُ مُظَفَّرا
ولم أر في خيل تطاعن مثلها ... بقزوين أو شروين أو اغذ كندرا
فذلك دهرٌ زال عنّي حميدُهُ ... وأصبح لي معروفهُ قد تَنَكّرا
فلا يَبعَدَنْ قومي وإن كنت عاتباً ... وكنتُ المُضاعَ فيهمُ والمُكَفَّرا
ولا خَيْرَ في الدنيا ولا العيشِ بعدهمْ ... وإن كنتُ عنهم نائِيَ الدار مُحصَرا

فمات عبدالله بالجبلين قبل موت زياد، ثم أتى زياد بكريم بن عفيف الخثعميّ من أصحاب حجر بن عدي فقال: ماسمك؟ قال: كريم بن عفيف. قال: ما أحسنَ اسمك واسم أبيك وأسوأ عملك ورأيك. فقال له: أما والله إنّ عهدك برأيي منذ قريب. قال: وجمع زياد من أصحاب عدي اثنىٰ عشر رجلاً في السجن ثم دعا رؤساء الأرباع يومئذ، وهم عمرو بن حريث علىٰ ربع أهل المدينة، وخالد بن عرفطة علىٰ ربع تميم، وهمدان، وقيس بن الوليد علىٰ ربع ربيعة، وكندة، وأبا بردة بن أبي موسى علىٰ ربع مذحج، وأسد، فشَهِدَ هؤلاء أنّ حجراً جمع إليه الجموع، وأظهر شتم الخليفة، ودعا إلىٰ حرب أمير المؤمنين وزعم أنّ هذا الأمر لا يصلح إلّا في آل أبي طالب، ووثب بالمِصر وأخرج عامل أمير المؤمنين وأظهر عُذر أبي تراب والترحم عليه والبراءة من عدوه وأهل حربه، وأنّ هؤلاء النفر الذين معه هم رؤوس أصحابه عليّ مثل رأيه وأمره، ونظر زياد في شهادة الشهود وقال: إنّي لأحب أنْ يكونوا أكثر مِنْ أربعة. فدعا الناسَ ليشهدوا عليه فَشَهِد اسحاق، وموسىٰ ابنا طلحة بن عبيدالله، والمنذر بن الزبير، وعمارة بن

عقبة بن أبىٰ معيط، وعَمْرو بن سعد بن أبي وقاص، وغيرهم، وكتب في الشهود شريح بن الحارث القاضي، وشريح بن هانىء، فأمّا شريح بن هانىء فكان يقول: «ما شهدتُ وقد لُمْتُهُ».

ثم دفع زياد حجر بن عديّ وأصحابه إلىٰ وائِل بن حجر الحضرميّ، وكثير بن شهاب وأمرهما أنْ يسيرا بهم إلىٰ الشام فخرجوا عشيّة، فلما بلغوا الغريين لحقهم شريح بن هانىء وأعطىٰ وائلاً كتاباً وقال: «أبلغه أميرَ المؤمنين». فأخذه، وساروا حتىٰ انتهوا بهم إلىٰ «مرج عذراء» عند دمشق، وكانوا حجر بن عدي الكندي، والأرقم بن عبدالله الكندي، وشريك بن شداد الحضرميّ، وصيفي بن فسيل الشيباني، وقبيصة بن ضبيعة العبسي، وكريم بن عفيف الخثعميّ، وعاصم بن عوف البجليّ، وورقاء بن سميّ البجلي، وكدام بن حيان، وعبد الرحمن بن حسان العنزيان، ومحرز بن شهاب التميمي، وعبدالله بن حوية السعديّ التميمي فهؤلاء اثنا عشر رجلاً؛ وأتبعهم زياد برجلين وهما عتبة بن الأخنس مِن سعد بن بكر، وسعد بن نمران الهمداني فتموا أربعة عشر رجلاً، فبعث معاوية إلىٰ وائل بن حُجر، وكثير بن شهاب فأدخلهما وأخذ كتابهما فقرأه ودفع إليه وائل كتاب شريح بن هانىء فإذا فيه: «بلغني أنَّ زياداً كتب شهادتي وإنَّ شهادتي علىٰ حُجر أنّه ممن يقيمُ الصلاة، ويؤتي الزكاة، ويديمُ الحج والعمرة، ويأمرُ بالمعروف وينهىٰ عن المنكر، حرام الدم والمال فإنْ شئتَ فاقتله وإنْ شئتَ فدعه».

فقال معاوية: «ما أرىٰ هذا إلاّ قد أخرج نفسه مِن شهادتكم»، وحبسَ القومَ بمرج عذراء فوصل إليهم الرجلان اللذان ألحقهما زياد بحجر وأصحابه فلمّا وصلا سار عامر بن الأسود العجليّ إلىٰ معاوية ليعلمه بهما فقام إليه حجر بن عدي في قيوده فقال له: «أبلِغْ معاويةَ أنَّ دماءَنا عليه حرام، وأخبِرْه أنّا قد أُومِنّا وصالحناه وصالحنا وأنّا لم نقتل أحداً مِنْ أهل القبلة فيحلّ له دماؤنا».

فدخل عامر علىٰ معاوية فأخبره بالرجلين، فقام يزيد بن أسد البجلي فاستوهبه ابني عمه ـ وهما عاصم، وورقاء، وكان جرير بن عبدالله البجليّ قد كتب فيهما يزكيهما ويشهد لهما بالبراءة مما شهد عليهما فأطلقهما معاوية، وشفع وائل بن حجر في الأرقم فتركه له، وشفع أبو الأعور السلميّ في عتبة بن الأخنس فتركه، وشفع حمزة بن مالك الهمدانيّ في سعد بن نمران فوهبه له، وشفع حبيب بن مسلمة في ابن حوية فتركه له،

وقام مالك بن هبيرة السكونيّ فقال : دَعْ لي ابن عمي حُجْراً .فقال له : هو رأس القوم ، وأخافُ إنْ خليتُ سبيله أنْ يفسدَ علىٰ مصره فنحتاج أنْ نشخصَك إليه بالعراق . فقال : والله ما أنصفتني يا معاوية قاتلتُ معك ابن عمك يومَ صفين حتىٰ ظفرت وعلا كعبُك ولم تخف الدوائر ثم سألتُك ابنَ عمّي فمنعتني ! ثم انصرف فجلس في بيته ، فبعث معاوية هدبة بن فياض القضاعي ، والحصين بن عبدالله الكلابيّ ، وأبا شريف البديّ إلىٰ حُجْر وأصحابه ليقتلوا مَنْ أُمِروا بقتله منهم فأتوه عند المساء ، فلما رأىٰ الخثعمي أحدهم أعور قال : « يُقتل نِصْفُنا ويُترك نصفنا» . « فتركوا ستة وقتلوا ثمانية وقالوا لهم قبل القتل : إنا قد أُمرنا أن نعرض عليكم البراءة مِنْ عَليّ واللعن له فإنْ فعلتُم تركناكم وإنْ أبيتم قتلناكم » . فقالوا : « لسنا فاعلي ذلك » . فأمر فحفرتْ القبور وأحضرتْ الأكفان ، وقام حجر وأصحابه يصلُّون عامة الليل .

فلما كان الغد قَدَّموهم ليقتلوهم فقال لهم حجر بن عَدِيّ : أتركوني أتوضأ وأصلي فإني ما توضأت إلا صليتُ . فتركوه فصلىٰ ثم انصرف منها وقال : « والله ما صليتُ صلاةً قط أخفَّ منها ولولا أنْ تظنوا فيَّ جزعاً من الموت لاستكثرتُ منها » ثم قال : « اللهم إنّا نستعديك علىٰ أمتنا فإنَّ أهل الكوفة شهدوا علينا وإنّ أهل الشام يقتلوننا ، أما والله لئن قتلتموني بها فإني لأول فارس من المسلمين هلل في واديها ، وأول رجل من المسلمين نبحته كلابُها» .

ثم مشىٰ إليه هدبة بن فياض بالسيف فارتعد فقالوا له : زعمتَ أنّك لا تجزع من الموت فأبرأ مِنْ صاحبك وندعك ! فقال : ومالي لا أجزع وأرىٰ قبراً محفوراً ، وكفناً منشوراً ، وسيفاً مشهوراً . وإني والله جزعتُ من القتل لا أقولُ ما يسخطُ الربّ .

فقتلوه ، وقتلوا ستة ، فقال عبد الرحمن بن حسان العنزي ، وكريم الخثعمي : ابعثوا بنا إلىٰ أمير المؤمنين فنحن نقول في هذا الرجل مثل مقالته . فاستأذنوا معاوية فيهما فأذِن بإحضارهما فلما دخلا عليه قال الخثعميّ : «الله الله يا معاوية فإنّك منقولٌ مِنْ هذه الدار الزائلة إلىٰ الدار الآخرة الدائمة ثم مسؤولٌ عما أردتَ بسفك دماءنا» .

فقال له [معاوية] : ما تقول في عليّ ؟ قال : أقول فيه قولك قال : أتبرأ مِن دين علي الذي يدين الله به ؟ .

فسكت، وقام شمر بن عبدالله من بني قحافة بن خثعم فاستوهبه فوهبه له علىٰ أنْ لا يدخل الكوفة فاختار الموصل فكان يقول: «لو مات معاوية قدمتُ الكوفة»، فمات قبل معاوية بشهر.

ثم قال لعبد الرحمن بن حسان : يا أخا ربيعة ما تقول في عليّ ؟ قال : دعني ولا تسألني فهو خيرٌ لك قال : والله لا أدعك قال : أشهدُ أنّه كان من الذاكرينَ الله تعالى كثيراً ، مِنْ الآمرين بالحق ، والقائمين بالقسط ، والعافين عن الناس . قال : فما قولُك في عثمان ؟ قال : هو أول مَنْ فَتَحَ أبواب الظلم ، وأغلق أبواب الحق قال : قتلتَ نفسك قال : بل إياكَ قتلت . ولا ربيعة بالوادي ـ يعني ليشفعوا فيه ـ فردّه معاوية إلىٰ زياد وأمره أنْ يقتله شرّ قتلة فدفنه حيّاً ، فكان الذين قُتِلوا حجر بن عدي ، وشريك بن شداد الحضرمي ، وصيفيّ بن فسيل الشيباني ، وقبيصة بن ضبيعة العبسيّ ، ومحرز بن شهاب السعدي التميميْ ، وكدام بن حيان العنزي ، وعبد الرحمن بن حسان العنزي الذي دفنه زياد حيّاً ، فهؤلاء السبعة قتلوا ودفنوا وصلي عليهم .

وقيل : ولما بلغ الحسن البصري قَتْل حجر وأصحابه قال : « أصلوا عليهم وكفنوهم ودفنوهم واستقبلوا بهم القبلة ! قالوا : نعم قال : حجوا هم ورب الكعبة .

وأما مالك بن هبيرة السكونيّ حين لم يشفّعه معاوية في حجر فجمع قومه وسار بهم إلى عذراء ليخلص حجراً وأصحابه فلقيته قتلتهم فلمّا رأوه علموا أنّه جاء ليخلص حجراً فقال لهم: ما وراءكم ؟ قالوا : قد تابَ القومُ وجئنا لنخبرَ أميرَ المؤمنين فسكت ، وسار إلىٰ عذراء فلقيه بعضُ مَنْ جاء منها فأخبره بقتل القوم فأرسل الخيل في أثر قَتَلَتِهِم فلم يدركوهم ، ودخلوا علىٰ معاوية فأخبروه فقال لهم : إنما هي حرارة يجدُها في نفسه وكأنها طفئت .

وعاد مالك إلىٰ بيته ولم يأت معاوية فلمّا كان الليل أرسل إليه معاوية بمائة ألف درهم وقال : ما منعني أنْ أشفّعك إلّا خوفاً أنْ يعيدوا لنا حرباً فيكون في ذلك من البلاء علىٰ المسلمين ما هو أعظم مِن قتل حُجر » .

فأخذها وطابتْ نفسُه .

ولما بلغ خبر حجر عائشة أرسلت عبد الرحمن بن الحارث إلىٰ معاوية فيه وفي أصحابه فقدِم عليه وقد قتلهم ، فقال له عبد الرحمن : أين غاب عنك حِلْمُ أبي سفيان ؟ قال ؛ حين غاب عني مثلُك مِنْ حُلَماء قومي ، وحمّلني ابن سُمية فاحتملت .

وقالت عائشة : لولا أنّا لم نغير شيئاً إلا صارتْ بنا الأمور إلىٰ ما هو أشدّ منه لغيّرنا قتل حجر . أما والله إنْ كان ما علمتُ لمسلماً ، حجاجاً ، معتمراً . وقال الحسن البصري : أربعُ خصال كنَّ في معاوية لو لم تكن فيه إلاّ واحدة لكانت موبقة ، انتزاؤه علىٰ هذه الأمة بالسيف حتى أخذ الأمر من غير مشورة وفيهم بقايا الصحابة وذوو الفضيلة ، واستخلافه بعده ابنه سكيراً خميراً يلبس الحرير ويضرب بالطنابير ، وادعاؤه زياداً وقد قال رسول الله ﷺ : « الولد للفراش وللعاهر الحَجَر»، وقتله حُجْراً وأصحاب حُجر فيا ويلا له من حُجر ، ويا ويلا له من حجر وأصحاب حجر ، وقيل : كان الناس يقولون : أوّل ذُلّ دخل الكوفة موت الحسن بن علي ، وقتل حُجر ، ودعوة زياد ، وقالت هند بنت زيد الأنصارية ترثي حجراً وكانت تتشيع :

ترفّعْ أيها القمرُ المنير	تبصر هل ترى حجراً يسير
يسير إلى معاوية بن حرب	ليقتله كما زعم الأمير
تجبرت الجبابر بعد حجر	وطاب لها الخورنق والسدير
وأصبحت البلاد له محولا	كأن لم يحيها مزن مطير
ألا يا حجر حجر بني عدي	تلقتك السلامة والسرور
أخاف عليك ما أردى عدياً	وشيخاً في دمشق له زئير
فإن تهلك فكل زعيم قوم	من الدنيا إلى هلك يصير

وقد قيل في قتله غير ما تقدم ، وهو ان زياداً خطب يوم جمعة فأطال الخطبة وأخّر الصلاة فقال له حُجر بن عدي : الصلاة . فمضىٰ في خطبته فقال له : الصلاة . فمضىٰ في خطبته ، فلما خشي حجر بن عدي فَوْت الصلاة ضرب بيده إلىٰ كفٍّ مِنْ حصىٰ وقام إلىٰ الصلاة وقام الناس معه ، فلما رأىٰ زياد ذلك نزل فصلىٰ بالناس ، وكتب إلىٰ معاوية وكثر عليه فكتب إليه معاوية ليشده في الحديد ويرسله إليه ، فلما أراد أخذه قام قومه ليمنعوه فقال حجر : لا ، ولكن سمعاً وطاعة .

فشدّ في الحديد وحُمل إلىٰ معاوية فلما دخل عليه قال : السلام عليك يا أمير

المؤمنين فقال معاوية : أأمير المؤمنين أنـا ؟ والله لا أقيلك ولا أستقيلك . أخرجـوه فاَضربوا عنقه ، فقال حجر للذين يلون أمره : دعوني حتىٰ أصلي ركعتين . فقالوا : صـل . فصلىٰ ركعتين خفف فيهما ثم قـال : لولا أنْ تـظنـوا بي غيـر الـذي أردتُ لأطلتهما ، وقال لمن حضره منْ قومه : لا تطلقوا عني حديداً ، ولا تغسلوا عني دماً فإنّي لاقٍ معاوية غداً على الجادة ، وضُرِبَتْ عنقه ، قال : فلقيت عائشة معاوية فقالت له : أين كان حلمك عن حجر ؟ فقال : لم يحضرني رشيد ، قال ابن سيرين : بلغنا أنّ معاوية لما حضرتـه الوفاة جعل يقول : يومي منك يا حجر طويل .

(عُبَاد) بضم العين [المهملة] وفتح الباء الموحدة وتخفيفها .

ذكر استعمال الربيع علىٰ خراسان

وفي هذه السنة وجه زياد ربيـع بن زياد الحـارثي أميراً علىٰ خـراسان ، وكـان الحكم بن عمرو الغفاريّ قد استخلَفَ عند موته أنس بن أبي أناس فعزله زياد وولىٰ خليد بن عبدالله الحنفيّ ثم عزله ، وولىٰ الربيع بن زياد أول سنة إحدى وخمسين ، وسيّر معه خمسين ألفاً بعيالاتهم من أهل الكوفة والبصرة منهم بريدة بن الحُصَيْب ، وأبو برزة ولهما صحبـة فسكنوا خـراسان فلمّـا قدِمهـا غزا «بلخ» ففتحهـا صلحاً وكـانت قد أغلقت بعدما صالحهم الأحنف بن قيس في قول بعضهم، وفتح « قهستان » عنوة ، وقتل مَنْ بناحيتها مِن الأتراك وبقي منهم نيزك طرخان فقتله قتيبة بن مسلم في ولايته .

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة مات جرير بن عبدالله البجليّ ، وقيل : سنة أربـع وخمسين ، وكان إسلامه في السنة التي توفي فيها رسول الله ﷺ .

وفيها مات سعيد بن زيد ، سنة اثنتين ، وقيل : ثمان وخمسين ودُفن بالمدينة وهو أحد العشرة .

وأبو بكرة نفيع بن الحارث له صحبة وهو أخو زياد لأمّه .

وفيها ماتت ميمونة بنت الحارث زوج النبي ﷺ بسرف ، وفيه دخل بها رسول الله ﷺ ، وقيل : ماتت سنة ثلاث وستين وقيل : ست وستين ؛ وحجَّ بالناس هذه السنة يزيد بن معاوية .

وكان العمال بهذه السنة مَنْ تقدّم ذكرهم .

(بُرَيْدة) بضم الباء الموحدة وفتح الراء المهملة و (الحُصَيْب) بضم الحاء وفتح الصاد المهملتين وآخره باء موحدة .

ثم دخلت سنة اثنتين وخمسين

فيها كانت غزوة سفيان بن عوف الأسدي الروم وشتىٰ بأرضهم ، وتوفي بها في قول فاستخلف عبد الله بن مسعدة الفزاري ، وقيل : إن الذي شتىٰ هذه السنة بأرض الروم بُسر بن أبي أرطأة ومعه سفيان بن عوف ، وغزا الصائفة هذه السنـة محمد بن عبدالله الثقفي .

ذكر خروج زياد بن خراش العجلي

وفي هذه السنة خرج زياد بن خراش العجلي في ثلاثمـائة فـارس فأتى أرض مسكن من السواد فسيّر إليه زياد خيلاً عليها سعد بن حذيفة أو غيره فقتلوهم وقد صاروا إلى « ماه » .

ذكر خروج معاذ الطائي

وخرج علىٰ زياد أيضاً رجلٌ من طيىء يقال له « معاذ » فأتىٰ نهر عبد الرحمن بن أم الحكم في ثلاثين رجلاً هذه السنة فبعث إليه زياد مَنْ قتله وأصحابه ، وقيل : بل حَلَّ لواءه واستأمن ، ويقال لهم : (أصحاب نهر عبد الرحمن) .

ذكر عدة حوادث

وحج بالناس سعيد بن العاص ، وكان العمال مَنْ تقدّم ذكرهم .

وفيها مات عِمْرَان بن الحُصَيْن الخزاعيّ بـالبصرة ، وأبـو أيوب الأنصـاري ، واسمه خالد بن زيد شهد العقبة . وبدراً ، وقد تقدم أنّه توفي سنة تسع وأربعين عند القسطنطينية ، وكعب بن عجرة وله خمس وسبعون سنة .

ثم دخلت سنة ثلاث وخمسين

فيها كان مشتىٰ عبد الرحمن بن أمّ الحكم الثقفيّ بأرض الروم ، وفيها فتحت « رودس » جزيرة في البحر فتحهاجنادة بن أبي أمية الأزدي ونزلها المسلمون وهم علىٰ حذر مِن الروم وكانوا أشد شيء علىٰ الروم يعترضونهم في البحر فيأخذون سُفُنَهُم ، وكان معاوية يدرّ لهم العطاء وكان العدو قد خافهم ، فلما توفي معاوية أقفلهم ابنه يزيد ، وقيل : فتحت سنة ستين .

ذكر وفاة زياد

وفي هذه السنة توفي زياد بن أبيه بالكوفة في شهر رمضان ، وكان سبب موته أنّه كتب إلىٰ معاوية : « إنّي قد ضبطت العراق بِشمَالي ويميني فارغة فاشغلها بالحجاز » . فكتب له عهده علىٰ الحجاز فبلغ أهلَ الحجاز فأتىٰ نفرٌ منهم عبدالله بن عمر بن الخطاب فذكروا ذلك فقال : آدعوا الله عليه . ثم استقبل القبلة ودعا ودعوا معه وكان من دعائه أنْ قال : « اللهم آكفنا شرَّ زِياد » فخرجت طاعونة علىٰ أصبع يمينه فمات منها فلمّا حضرته الوفاة دعا شريحاً القاضي فقال له : قد حدث ما ترىٰ قد أمرتُ بقطعها فأشِرِ عليّ . فقال له شريح : إنّي أخشى أنْ يكون الأجل قد دنا فتلقىٰ الله أجذم وقد قطعتَ يدك كراهية لقائِه أو أنْ يكون في الأجل تأخير فتعيش أجذم وتعيّر ولدك . فقال : لا أبِيْتُ والطاعونُ في لحاف واحد .

فخرج شريح مِن عنده فسأله الناس فأخبرهم فلاموه وقالوا : هَلاَّ أشرتَ بقطعها ؟ فقال : المستشارُ مؤتمن .

وأراد زياد قطعها فلما نظر إلىٰ النار والمكاوي جزع وتركه ، وقيل : بل تركه لمّا أشار عليه شريح بتركه .

ولما حضرته الوفاة قال له ابنه : « قد هيأت لك ستين ثوباً أكفنك بها » فقال له : يا بنّي قد دنا من أبيك لباسٌ هو خيرٌ مِن لباسه أو سلبٌ سريع »[1] فمات ودفن « بالثوية » إلىٰ جانب الكوفة ، فلما بلغ موتُه ابن عمر قال : « اذهب ابن سمية لا الآخرة أدركتَ ولا الدنيا بقيت عليك » ، وكان مولده سنة إحدى من الهجرة ، قال مسكين الدراميّ يرثيه :

رأيتُ زيادةَ الإسلام وَلَّت ... جهاراً حين وَدَّعَنا زِيَاد

فقال الفرزدق يجيبه ولم يكن هجا زياداً حتى مات :

أَمِسْكِيْنُ أَبْكَىٰ الله عَيْنيكَ[2] إنَّما ... جَرَىٰ في ضَلالٍ دَمْعُها فتحدَّرَا[3]

بكيتَ أمرأً مِنْ أهلِ مَيْسَانَ كافِراً ... كَكِسْرَىٰ على عِدَّاته[4] أو كقيصَرا

أَقُولُ لَهُ لَمَّا أَتاني نَعِيُّهُ ... بَهِ لا بِظَبْيٍ بالصَّرِيمَةِ أَعْفَرا[5]

وكان زياد فيه حمرة وفي عينه اليمنى انكسار أبيض اللحية مخروطها عليه قميص وربما رقّعه

ذكر وفاة الربيع

وفيها مات الربيع بن زياد الحارثيّ عامل خراسان مِن قِبل زياد ، وكان سبب موته أنه سخط قَتْلَ حجر بن عديّ حتىٰ أنه قال : « لا تزال العرب تُقْتَل صبراً بعده ، ولو نفرت عند قتله لم يُقتل رجلٌ منهم صبراً ولكنها أقرّتْ فَذلَّتْ » ، ثم مكث بعد هذا الكلام جمعة ثم خرج يوم الجمعة فقال : « أيها الناس إنّي قد مللتُ الحياةَ وإنّي داعٍ بدعوةٍ فأمّنوا » ، ثم رفع يديه بعد الصلاة فقال : « اللهم إنْ كان لي عندك خير فاقبضني إليك عاجلاً » ، وأمّن الناس ثم خرج فما توارتْ ثيابه حتىٰ سقط فحُمل إلىٰ بيته ، واستخلف ابنه عبدالله ومات مِن يومه ، ثم مات ابنه بعده بشهرين ، واستخلف

---

(١) عبارة البداية والنهاية (فقال : يا بني قد دنا من ابيك امرأ ما لباس خير من لباسه وأما سلبه سريع) .

(٢) الديوان : عينك .

(٣) الديوان : إن تحدرا .

(٤) الديوان (عِدَانِهِ) بالنون والعدان الزمان.

(٥) انظر الديوان ١/٢٠١ .

خليد بن يربوع الحنفي فأقره زياد، ولما مات زياد كان على البصرة سَمُرَة بن جندب، وكان علىٰ الكوفة عبدالله بن خالد بن أَسِيْد فأقر سمرة علىٰ البصرة ثمانية عشر شهراً - وقيل : ستة أشهر - ثم عزله معاوية فقال سمرة : « لعن الله معاوية . والله لو أطعتُ الله كما أطعتُه ما عذبني أبداً »[١] .

وجاء رجلٌ إلىٰ سمرة فأدىٰ زكاة ماله ثم دخل المسجد فصلىٰ فأمر سمرة بقتله فقُتل فمرّ به أبو بكرة فقال: يقول الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّىٰ. وذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ﴾[٢]. قال: وما مات سمرة حتىٰ أخذه الزمهرير فمات شر ميتة[٣].

(الثُّوَية) بضم الثاء المثلثة وفتح الواو والياء تحتها نقطتان موضع فيه مقبرة .

ذكر عدة حوادث

حج بالناس هذه السنة سعيد بن العاص ، وكان عامل المدينة ، وخرجت هذه السنة وعلى الكوفة عبدالله بن خالد بن أَسِيْد ، وعلىٰ البصرة سمرة ، وعلىٰ خراسان خليد بن يربوع الحنفي .

(أسيد) بفتح الهمزة وكسر السين المهملة وسكون الياء المعجمة باثنتين من تحتها .

وفيها مات عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق بطريق مكة في نومة نامها ، وقيل : توفي بعد ذلك .

وفيها توفي فيروز الديلميّ وكانت له صُحبة ، وكانٰ معاوية قد استعمله علىٰ صنعاء . وفيها مات عمرو بن حزم الأنصاريّ ، وفيها مات فضالة بن عبيد الأنصاريّ بدمشق وكان قاضيها لمعاوية ، وقيل : مات آخر ايام معاوية ، وقيل : غير ذلك شهد أحداً وما بعدها .

---

(١) قال ابن كثير : هذا لا يصح .

(٢) الأعلى : ١٤ : ١٥ .

(٣) وهذا باطل.

ثم دخلت سنة أربع وخمسين

ذكر غزوة الروم ، وفتح جزيرة أرواد

فيها كان مشتىٰ محمد بن مالك بأرض الروم ، وصائفة معن بن يزيد السلميّ .
وفيها فتح المسلمون ـ ومقدمهم جنادة بن أبي أمية ـ جزيرة « أرواد » قريب القسطنطينية فأقاموا بها سبع سنين وكان معهم مجاهد بن جبر فلما مات معاوية وولى ابنه يزيد أمرهم بالعود فعادوا .

ذكر عزل سعيد عن المدينة واستعمال مَرْوان

وفيها عَزَل معاوية سعيد بن العاص عن المدينة واستعمل مَرْوان ، وكان سبب ذلك أنّ معاوية كتب إلىٰ سعيد بن العاص أنْ يهدم دار مَـرْوان ويقبض أموالـه كلها ليجعلها صافية ويقبض منه « فَدْك » وكان وهبها له فراجعه سعيد بن العاص في ذلك فأعاد معاوية الكتاب بذلك فلم يفعل سعيد ووضع الكتابين عنده فعزله معاوية . وولى مَرْوان وكـتب إليه يأمره بقبض أموال سعيد وهَدْم داره فأخذ الفَعَلَة وسار إلىٰ دار سعيد ليهدمها فقال له سعيد : يا أبا عبد الملك أتهدم داري ؟ قال ، نعم . كتب إليّ أميرُ المؤمنين ، ولو كتب اليك في هدم داري لفعلتَ ، فقال : ما كنتُ لأفعل قال : بلىٰ والله . قال: كلا . وقال لغلامه : آئتني بكتاب معاوية .

فجاءه بالكتابين فلما رآهما مروان قال : « كتب إليك فلم تفعل ولم تُعْلِمْنِي ! فقال سعيد : ما كنتُ لأَمُنّ عليك وإنما أراد معاوية أنْ يحرّض بيننا.فقال مَروان : أنتَ والله خيرٌ مني . وعاد ولم يهدم دار سعيد ، وكتب سعيد إلىٰ معاوية : العجب مما صنع أمير المؤمنين بنا في قرابتنا أنّه يضغن بعضنا علىٰ بعض فأمير المؤمنين في حلمه وصبره علىٰ ما يكره مِن الأخبثين ، وعفوه ، وإدخاله القطيعة بيننا والشحناء وتوارث الأولاد ذلك ! فوالله لو لم نكن أولاد أب واحد لما جَمَعَنَا الله عليه مِنْ نصرة أميـر المؤمنين

الخليفة المظلوم ،وباجتماع كلمتنا لكان حقاً على أمير المؤمنين أنْ يرعى ذلك ، فكتب إليه معاوية يعتذر مِن ذلك ويتنصّل وأنّه عائذ إلىٰ أحسن ما يعهده ، وقدِم سعيد علىٰ معاوية فسأله عَنْ مروان فأثنىٰ عليه خيراً فقال له معاوية : ما باعد بينه وبينك ؟ قال : خافني علىٰ شرفه وخِفْتُه علىٰ شرفي قال : فماذا له عندك ؟ قال : أسره شاهداً وغائباً .

ذكر استعمال عبيدالله بن زياد علىٰ خراسان

وفي هذه السنة عزل معاوية سَمُرَة بن جُنْدَب واستعمل علىٰ البصرة عبدالله بن عمرو بن غيلان ستة أشهر .

وفيها استعمل معاوية عبيدالله بن زياد علىٰ خراسان ، وكان سبب ولايته أنّه قدم عليه بعد موت أبيه فقال له معاوية : مَنْ استعمل أبوك على الكوفة ، والبصرة ؟ فأخبره فقال : لو استعملك أبوك لأستعملتُك . فقال عبيدالله : أنشدك الله أنْ يقولها لي أحدٌ بعدك : « لو استعملك أبوك وعمك لاستعملتك » . فولاّه خراسان وقال له : اتقِ الله ، ولا تُؤْثِرَنّ علىٰ تقواه شيئاً فإنّ في تقواه عِوضاً ، ووفّر عرضك[1] مِنْ أنْ تدنّسه ، وإذا أعطيتَ عهداً فَفِ به ، ولا تبيعنّ كثيراً بقليل ، ولا يخرجنّ منك أمرٌ حتىٰ تبرمه فإذا خرج فلا يردنّ عليك ، وإذا لقيتَ عدوك فغلبوك علىٰ ظهر الأرض فلا يغلبوك علىٰ بطنها ، ولا تطمعنّ أحداً في غير حقه ، ولا تؤيسن أحداً من حق وهو له . ثم ودعه .

وكان عُمر عبيدالله خمساً وعشرين سنة ، وسار إلىٰ خراسان فقطع النهر إلىٰ جبال بخارىٰ علىٰ الإبل ، فكان أول من قطع جبال بخارىٰ في جيش ففتح رامني ، ونسف ، وبيكند[2] وهي من بخارىٰ فمِنْ ثمَّ أصابَ البخارية وغنم منها غنائم كثيرة .

ولما لقي الترك وهزمهم كان مع مَلِكهم زوجته فعجلوها عن لبس خفيها فلبستْ أحدهما وبقي الآخر فأخذه المسلمون فقوّم بمائتي ألف درهم ، وكان قتاله الترك مِنْ زحوف خراسان التي تُذكر فظهر منه بأسٌ شديد ، وأقام بخراسان سنتين .

ذكر عدة حوادث

وحجَّ بالناس في هذه السنة مَرْوان بن الحكم وهو أمير المدينة .

---

(١) الطبري : وق عرضك .

(٢) الطبري : ففتح راميثن، ونصف بيكند وهما من بخارى .

وكان علىٰ الكوفة عبدالله بن خالد ، وقيل : الضحاك بن قيس ، وعلىٰ البصرة عبدالله بن عمرو بن غيلان .

وفي هذه السنة توفي أبو قتادة الأنصاريّ وعمره سبعون سنة ، وقيل : مات سنة أربعين وصلىٰ عليه عليٌّ وكبّر عليه سبعاً وشهد مع عليّ حروبَه كلها وهو بدري .

وفيها توفي حويطب بن عبد العزىٰ وله مائة وعشرون سنة ، وفيها توفي ثوبان مولىٰ رسول الله ﷺ .

وأسامة بن زيد ، وقيل : توفي أسامة سنة ثمان وخمسين . وفيها توفي سعيد بن يربوع بن عنكثة وكان عمره مائة وأربعاً وعشرين سنة وله صحبة ، ومخرمة بن نوفل وهو من مُسْلِمَة الفتح وعمره مائة سنة وخمس عشرة سنة . وعبدالله بن أنيس الجهني . وفيها قُتِلَ زيد بن شجرة الرهاويّ في غزوة غزاها ، وقيل سنة ثمان وخمسين .

ثم دخلت سنة خمس وخمسين

في هذه السنة كان مشتىٰ سفيان بن عوف الأزديّ [بأرض الروم] في قول ، وقيل : بل الذي شتىٰ هذه السنة عمرو بن محرز ، وقيل : عبدالله بن قيس الفزاري ، وقيل : بل مالك بن عبدالله .

ذكر ولاية ابن زياد البصرة

في هذه السنة عَزَلَ معاوية عبدالله بن عمرو بن غيلان عن البصرة وولّاها عبيدالله بن زياد ، وكان سبب ذلك أنّ عبدالله خطب علىٰ منبر البصرة فحصبَه رجلٌ من بني ضبّة فقطع يده فأتاه بنو ضبة وقالوا : إنّ صاحبنا جنىٰ ما جنىٰ وقد عاقبتَه ولا نأمنُ أنْ يبلغ خبرَنَا أميرَ المؤمنين فيعاقب عقوبة تعمّ فاكتبْ لنا كتاباً إلىٰ أمير المؤمنين يخرج به أحدنا إليه يخبره أنك قطعتَ علىٰ شبهة وأمر لم يتضّح . فكتب لهم .

فلما كان رأس السنة توجّه عبدالله إلىٰ معاوية ووافاه بالكتاب وآدعوا أنّه قطع صاحبهم ظُلْماً فلما رأى معاوية الكتاب قال : أما القَوْد مِنْ عمالي فلا سبيلَ إليه ولكن ادي صاحبَكم مِن بيت المال ، وعزل عبدالله عن البصرة ، واستعمل ابن زياد عليها فولىٰ ابن زياد علىٰ خراسان أسلم بن زرعة الكلابيّ فلم يغز ولم يفتح بها شيئاً .

ذكر عدة حوادث

وفيها عزل معاوية عبدالله بن خالد عن الكوفة وولّاها الضحاك بن قيس ، وقيل ما تقدم .

وفيها مات الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي وهو الذي كان رسول الله ﷺ يختفي في داره بمكة وكان عمره ثمانين سنة وزيادة ، وقيل : مات يوم مات أبو بكرة . وفيها

توفي أبو اليَسْر كعب بن عمرو الأنصاري ، وهو بدري وشهد صفين مع عليّ ، وقيل : توفي قبل .

وحج بالناس هذه السنة مَروان بن الحكم .

ثم دخلت سنة ست وخمسين

فيها كان مشتىٰ جنادة بن أبي أمية بأرض الروم، وقيل: عبد الرحمن بن مسعود، وقيل غـزا فيها في البحر يزيد بن شجرة وفي البر عياض بن الحارث، واعتمر معاوية فيها في رجب، وحجّ بالناس الوليد بن عتبة بن أبي سفيان.

ذكر البيعة ليزيد بولاية العهد

وفي هذه السنة بايع الناسُ يزيد بن معاوية بولاية عهد أبيه، وكان ابتداء ذلك وأوله من المغيرة بن شعبة، فإن معاوية أراد أن يعزله عن الكـوفة ويستعمـل عوضـه سعيد بن العاص فبلغه ذلك فقال: الرأي أنْ أشخص إلىٰ معاوية فأستعفيه ليظهر للناس كراهتي للولاية. فسار إلىٰ معاوية وقال لأصحابه حين وصل إليه: إنْ لم أكسبكم الآن ولايـة وإمارة لا أفعل ذلك أبداً. ومضىٰ حتىٰ دخل علىٰ يزيد وقال له: إنّه قد ذهب أعيان أصحاب النبي ﷺ وآله، وكبراء قريش، وذوو أسنانهم، وإنما بقي أبناؤهم، وأنت مِن أفضلهم، وأحسنهم رأياً، وأعلمهم بالسنـة والسياسيـة، ولا أدري ما يمنـع أميرَ المؤمنين أنْ يعقدَ لك البيعة! قال: أو ترى ذلك يتمّ؟ قال: نعم. فدخل يزيد علىٰ أبيه وأخبره بما قال المغيرة فأحضر المغيرة وقال له: ما يقول يزيد! فقال: يا أمير المؤمنين قد رأيت ما كان من سفك الدماء والاختلاف بعد عثمان وفي يزيد منك خلف فاعقد له فإن حدث بك حادث كان كهفاً للناس، وخلفاً منك، ولا تسفك دماء، ولا تكون فتنة قال: ومَنْ لي بهذا؟ قال: أكفيك أهلَ الكوفة، ويكفيك زياد أهلَ البصرة وليس بعد هذين المصرين أحدٌ يخالفك. قال: فارجع إلىٰ عملك وتحدّث مع مَنْ تثق إليه في ذلك وترىٰ ونرىٰ[1]، فودّعه ورجع إلىٰ أصحابه فقالوا: مَهْ قال: لقد وضعتُ رجلَ معاوية في غرز

---

(١) أي ما وراءك.

بعيد الغاية علىٰ أمة محمد وفتقتُ عليهم فتقاً لا يُرتق أبداً وتمثّل:

بمثلي شاهدي النجوىٰ وغاليٰ ... بي الأعداءُ والخصم الغضابا

وسار المغيرة حتىٰ قدِم الكوفة وذاكر مَنْ يثق إليه ومن يعلم أنّه شيعة لبني أمية أمرَ يزيد فأجابوا إلىٰ بيعته فأوفد منهم عشرة ويقال: أكثر من عشرة وأعطاهم ثلاثين ألف درهم وجعل عليهم ابنه موسى بن المغيرة وقدموا علىٰ معاوية فزيّنوا له بيعة «يزيد» ودعوه إلىٰ عَقْدِها، فقال معاوية: لا تعجلوا بإظهار هذا وكونوا علىٰ رأيكم.

ثم قال لموسىٰ: بكم اشترىٰ أبوك مِنْ هؤلاء دينهم؟ قال: بثلاثين ألفاً. قال: لقد هانَ عليهم دينُهم! وقيل: أرسل أربعين رجلاً وجعل عليهم ابنهُ عروة فلمّا دخلوا علىٰ معاوية قاموا خطباء فقالوا: إنما أشخصهم إليه النظر لأمة محمد ﷺ وقالوا: «يا أمير المؤمنين كبرتْ سِنُّك، وخِفْنا انتشارَ الحبل فانصبْ لنا علماً وحدّ لنا حدًّا ننتهي إليه». فقال: أشيروا عليّ، فقالوا: نشير بيزيدابن أمير المؤمنين. فقال: أو قد رضيتموه؟ قالوا: نعم. قال: وذلك رأيكم؟ قالوا: نعم ورأي مَنْ وراءنا فقال معاوية لعُروة سرًّا عنهم: بكم اشترىٰ أبوك مِنْ هؤلاء دينهم؟ قال: بأربعمائة دينار، قال: لقد وجد دينهم عندهم رخيصاً،وقال لهم: ننظر ما قدمتُم له ويقضي اللّهُ ما أرادَ والأناةُ خيرٌ مِنْ العَجَلَة. فرجعوا، وقوي عزم معاوية علىٰ البيعة ليزيد فأرسل إلىٰ زياد يستشيره فأحضر زياد عبيد بن كعب النميريّ وقال له: إنّ لكل مستشير ثقة ولكل سر مستودع، وإنّ الناس قد أبدع بهم خصلتان: إذاعة السر، وإخراج النصيحة إلى غير أهلها وليس موضوع السر إلا أحد رجلين رجل آخرة يرجو ثوابها ورجلِ دنيا له شرف في نفسه وعقل يصون حسبه وقد خبرتهما منك، وقد دعوتك لأمرٍ اتهمتُ عليه بطون الصحف. إنّ أميرَ المؤمنين كتبَ يستشيرني في كذا وكذا وإنه يتخوّف نفرة الناس ويرجو طاعتهم وعلاقة أمر الاسلام وضمانه عظيم، ويزيد صاحب رَسْلَة وتهاون مع ما قد أولِع به من[1] الصيد فألقَ أمير المؤمنين وأدِّ إليه فَعلَات يزيد. فقال[2] له: رُوَيْدَك بالأمر فأحرىٰ لك أنْ يتمّ لك لا تعجل فإنّ دَرَكاً في تأخير خيرٌ مِنْ فَوْت في عجلة. فقال له عبيد: أفلا غير هذا؟

---

(١) في المطبوعة (منى)، وما أثبتناه من الطبري.

(٢) في المطبوعة (وقل) وما أثبتناه من الطبري.

قال: وما هو؟ قال: لا تُفسِد علىٰ معاوية رأيه ولا تُبغِّض إليه ابنَه، وألقىٰ أنا يزيد فأخبره أنّ أمير المؤمنين كتب إليك يستشيرك في البيعة له وأنّك تتخوف خلاف الناس عليه لهنات ينقمونها عليه وأنك ترىٰ ما ينقم عليه لتستحكم له الحجة علىٰ الناس ويتمّ ما تريد فتكون قد نصحتَ أمير المؤمنين وسَلِمْتَ مما تخاف مِن أمر الأمة. فقال زياد: لقد رميتَ الأمر بحجره أشخص علىٰ بَرَكَةِ الله فإنْ أَصَبْتَ فما لا ينكر وإنْ يكن خطأً فغير مستغش، وتقول بما ترىٰ، ويقضي اللّٰهُ بغيبِ ما يعلم. فقدم علىٰ يزيد فذكر ذلك له فكفَّ عن كثيرٍ مما كان يصنع، وكتب زياد معه إلىٰ معاوية يشير بالتؤدة وأنْ لا يعجل. فقبل منه.

فلما مات زياد عزم معاوية علىٰ البيعة لابنه يزيد فأرسل إلىٰ عبد الله بن عمر مائة ألف درهم فقبِلها(١) فلما ذكر البيعة ليزيد قال ابن عمر: هذا أراد أنّ ديني عندي إذن لرخيص. وامتنع.

ثم كتب معاوية بعد ذلك إلىٰ مَرْوان بن الحكم: إني قد كَبِرَتْ سنّي، ودَقَّ عظمي وخشيتُ الاختلاف علىٰ الأمّة بعدي، وقد رأيتُ أنْ أتخيّر لهم مَنْ يقوم بعدي، وكرهتُ أنْ أقطع أمراً دون مشورة مَنْ عندك. فاعرض ذلك عليهم وأعلمني بالذي يَرُدُّون عليك. فقام مروان في الناس فأخبرهم به، فقال الناس: أصابَ ووُفِّق، وقد أحببنا أنْ يتخير لنا فلا يألو. فكتب مَرْوان إلىٰ معاوية بذلك فأعاد إليه الجواب يذكر يزيد، فقام مَرْوان فيهم وقال: إنّ أميرَ المؤمنين قد اختار لكم فلم يأل وقد استخلف ابنه يزيد بعده فقام عبدالرحمن بن أبي بكر فقال: «كذبتَ والله يا مَرْوان وكذب معاوية ما الخيار أردتما لأمة محمد، ولكنكم تريدون أنْ تجعلوها هرقلية كلما مات هرقل قام هرقل».

فقال مروان: هذا الذي أنزل الله فيه ﴿ والَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا ﴾ الآية(٢). فسمعتْ عائشة مقالته فقامت مِنْ وراء الحجاب وقالت: «يا مَرْوان يا مَرْوان» فأنصتَ الناس، وأقبل مروان بوجهه فقالت: أنت القائل لعبد الرحمن أنه نزل فيه

---

(١) ليعلم أن ابن عمر وأمثاله كانوا إذا قبلوا هذه الأموال قبلوها لأنها من مال المسلمين الذي انتزعه منهم معاوية بظلمه فكانوا يأخذونه فيوزعونه على الناس ثم لا يبقى منه في ديارهم شيء.

(٢) الاحقاف: ١٧.

القرآن! كذبتَ واللهِ ما هو ولكنّه فلان بن فلان ولكنك أنتَ فضض من لعنة نبي الله، وقام الحسين بن عليّ فأنكر ذلك وفعل مثله ابن عمر، وابن الزبير فكتبَ مروان بذلك إلىٰ معاوية وكان معاوية قد كتبَ إلىٰ عُمّالِهِ بتقريظ يزيد ووصفه وأنْ يوفِدوا إليه الوفود مِن الأمصار، فكان فيمن أتاه محمد بن عمرو بن حزم مِن المدينة، والأحنف بن قيس في وفد أهل البصرة فقال محمد بن عمرو لمعاوية: «إنّ كل راعٍ مسؤول عن رعيته فانظر مَنْ تولي أمرَ أمة محمد. فأخذ معاوية بهر حتى جعل يتنفس في يوم شات ثم وصله وصرفه، وأمر الأحنف أنْ يدخل علىٰ يزيد فدخل عليه فلما خرج مِن عنده قال له: كيف رأيتَ ابن أخيك؟ قال: رأيتُ شباباً، ونشاطاً، وجلداً، ومزاحاً.

ثم إنّ معاوية قال للضحاك بن قيس الفِهري لما اجتمع الوفود عنده: إنّي متكلم فإذا سَكتُّ فكن أنت الذي تدعو إلىٰ بيعة يزيد وتحثني عليها، فلما جلس معاوية للناس تكلم فعظَّم أمرَ الاسلام وحُرمة الخلافة وحقّها وما أمر الله به مِن طاعة ولاة الأمر ثم ذكر يزيد وفضله وعِلمه بالسياسة وعرَّض ببيعته فعارضه الضحاك فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «يا أمير المؤمنين إنّه لا بد للناس مِنْ والٍ بعدك وقد بلونا الجماعة والأُلْفَة فوجدناهما أحقن للدماء، وأصلح للدهماء، وآمَن للسبل وخيراً في العاقبة، والأيام عِوج رواجع، والله كل يوم هو في شأن، ويزيد ابن أمير المؤمنين في حُسن هديه، وقصد سيرته علىٰ ما علمتَ، وهو من أفضلنا علماً وحلماً، وأبعدنا رأياً فوَلِّهِ عهدك، واجعله لنا علماً بعدك، ومفزعاً نلجأ إليه ونسكُن في ظله»، وتكلم عمرو بن سعيد الأشدق بنحو مِن ذلك، ثم قام يزيد بن المقنع العذري فقال: «هذا أمير المؤمنين» - وأشار إلىٰ معاوية - «فإنْ هلك فهذا» - وأشار إلىٰ يزيد - «ومَنْ أبىٰ فهذا -» وأشار إلىٰ سيفه - فقال معاوية: اجلس فأنتَ سيدُ الخطباء.

وتكلم مَنْ حضر من الوفود فقال معاوية: للأحنف ما تقول يا أبا بَحر؟ فقال: نخافُكم إنْ صدقنا، ونخافُ الله إنْ كذبنا، وأنت يا أمير المؤمنين أعلمُ بيزيد في ليله ونهاره، وسره وعلانيته، ومدخله ومخرجه فإنْ كنتَ تعلمه لله تعالى وللامة رضا فلا تُشاوِر فيه، وإنْ كنتَ تعلم فيه غير ذلك فلا تُزَوِّدْه الدنيا وأنت صائرٌ إلىٰ الآخرة وإنّما علينا أنْ نقولَ سَمِعْنا وأطعنا. وقام رجل من أهل الشام فقال: ما ندري ما تقول هذه المعدية العراقية وإنما عندنا سمع وطاعة وضرب وازدلاف. فتفرّق الناسُ يحكون قولَ

الأحنف، وكان معاوية يعطي المقارب ويداري المباعد ويلطف به حتى استوثق له أكثر الناس، وبايعه، فلمّا بايعه أهلُ العراق والشام سار إلىٰ الحجاز في ألف فارس فلما دنا مِن المدينة لقيه الحسين بن علي أول الناس فلما نظر إليه قال: لا مرحباً ولا أهلا بَدَنَةٌ يترقرقُ دمها والله مهريقه[1] قال: مهلًا فإنّي واللهِ لستُ بأهلٍ لهذه المقالة. قال: بلىٰ ولشرٍّ منها، ولقيه ابنُ الزبير فقال: لا مرحباً ولا أهلاً خب ضب تلعة يدخلُ رأسه ويضرب بذنبه ويوشك واللهِ أنْ يؤخذ بذنبه ويدق ظهره نَحِّياه عني. فضرب وجه راحلته.

ثم لقيه عبد الرحمن بن أبي بكر فقال له معاوية: لا أهلاً ولا مرحباً شيخٌ قد خرف وذهب عقله. ثم أمر فضرب وجه راحلته، ثم فعل بابن عمر نحو ذلك فأقبلوا معه لا يتلفت إليهم حتىٰ دخل المدينة فحضروا بابه فلم يؤذن لهم علىٰ منازلهم، ولم يروا منه ما يحبون فخرجوا إلىٰ مكة فأقاموا بها، وخطب معاوية بالمدينة فذكر يزيد فمدحه وقال: مَنْ أحقُّ منه بالخلافة في فضله وعقله وموضعه، وما أظن قوماً بمنتهين حتىٰ تصيبهم بوائق تجتث أُصولَهم وقد أنذرتُ إنْ أغنت النذر، ثم أنشد متمثلاً:

قد كنت حذرتك آل المصطلق ... وقلت يا عمرو أطعني وانطلق
إنك إنْ كَلَّفْتَنِي ما لم أطق ... ساءك ما سَرَّكَ مني مِن خلق
دونك ما استسقيته فاحس وذق

ثم دخل علىٰ عائشة وقد بلغها أنه ذكر الحسين، وأصحابه فقال: لأقتلنّهم إنْ لم يبايعوا فشكاهم إليها فوعظته وقالت له: بلغني أنّك تتهدهم بالقتل. فقال: يا أم المؤمنين هم أعزّ مِنْ ذلك ولكني بايعتُ ليزيد وبايعه غيرهم أفترين أنْ أنقض بيعة قد تمت؟ قالت: فارفق بهم فإنهم يصيرون إلىٰ ما تحبّ إنْ شاء الله قال: أفعل. وكان في قولها له: ما يؤمنك أنْ أُقعد لك رجلًا يقتلك وقد فعلت بأخي ما فعلتَ؟ - تعني أخاها محمداً - فقال لها: كلا يا أم المؤمنين إنّي في بيتِ أمن. قالت: أجلْ.

ومكث بالمدينة ما شاء الله ثم خرج إلىٰ مكة فلقيه الناس فقال أولئك النفر: نتلقاه فلعله قد ندم علىٰ ما كان منه فلقوه ببطن مَرّ، فكان أول مَنْ لقيه الحسين فقال له معاوية: مرحباً وأهلًا يا بن رسول الله، وسيد شباب المسلمين. فأمر له بدابة فركب

---

(١) هذا خبر باطل - انظر ابن العربي في العواصم من القواصم.

وسايره، ثم فعل بالباقين مثل ذلك، وأقبل يسايرهم لا يسير معه غيرهم حتىٰ دخل مكة فكانوا أول داخل وآخر خارج ولا يمضي يومٌ إلّا ولهم صِلة، ولا يذكر لهم شيئاً حتىٰ قضىٰ نسكه، وحمل أثقاله وقرب مسيره فقال بعض أولئك النفر لبعض: لا تُخْدَعُوا فما صنع بكم هذا لحبّكم وما صنعه إلا لما يريد فأعِدُّوا له جواباً. فاتفقوا علىٰ أنْ يكون المخاطِب له ابن الزبير فأحضرهم معاوية وقال: قد علمتم سيرتي فيكم، وصلتي لأرحامكم وحَمْلِي ما كان منكم، ويزيد أخوكم، وابن عمكم، وأردتُ أنْ تقدموه باسم الخلافة وتكونوا أنتم تعزلون وتؤمِّرون، وتجبون المال وتقسمونه لا يعارضكم في شيءٍ من ذلك. فسكتوا فقال: ألا تجيبون؟ مرتين.

ثم أقبل علىٰ ابن الزبير فقال: هاتِ لَعَمْري إنّك خطيبهم، فقال: نعم. نخيرك بين ثلاث خصال. قال: أعرضهن قال: تصنعْ كما صنع رسولُ الله ﷺ، أو كما صنع أبو بكر، أو كما صنع عمر. قال معاوية: ما صنعوا؟ قال: قُبض رسول الله ﷺ ولم يستخلف أحداً فآرتضىٰ الناسُ أبا بكر. قال: ليس فيكم مثل أبا بكر وأخاف الاختلاف. قالوا: صدقتَ فاصنع كما صنع أبو بكر فإنه عَهِدَ إلىٰ رجلٍ مِن قاصِية قريش ليس مِن بني أبيه فاستخلفه، وإنْ شئتَ فاصنع كما صنع عمر جعل الأمرَ شورىٰ في ستة نفر ليس فيهم أحد من ولده، ولا من بني ابيه.

قال معاوية: هل عندك غير هذا؟ قال: لا. ثم قال: فأنتم. قالوا: قولُنا قوله. قال: فإنّي قد أحببتُ أنْ أتقدّم إليكم. إنه قد أعذر مَنْ أنذر. إني كنتُ أخطب فيكم[1] فيقوم إليَّ القائم منكم فيكذّبني علىٰ رؤوس الناس فأحمل ذلك وأصفح، وإنّي قائمٌ بمقالة فأقسمُ باللهِ لَئِن رَدَّ عليَّ أحدُكم كلمة في مقامي هذا لا ترجعْ إليه كلمة غيرها حتىٰ يسبقها السيف إلىٰ رأسه فلا يقينَّ رجلٌ إلا علىٰ نفسه.

ثم دعا صاحب حرسه بحضرتهم فقال: أقِمْ علىٰ رأس كل رجل مِنْ هؤلاء رجلين ومع كل واحد سيف فإنْ ذهب رجلٌ منهم يَرُدّ عليَّ كلمة بتصديق أو تكذيب فليضرباه بسيفهما. ثم خرج، وخرجوا معه حتىٰ رقىٰ المنبر فحمد الله وأثنىٰ عليه ثم قال: إنّ هؤلاء الرهط سادة المسلمين وخيارهم لا يبتز أمر دونهم، ولا يقضىٰ إلا عن مشورتهم،

---

(١) في الأصل: (أخطب منكم) - وهو تصحيف. (م).

وإنهم رضوا وبايعوا ليزيد فبايِعوا علىٰ اسم الله. فبايع الناس[١] وكانوا يتربصون بيعة هؤلاء النفر، ثم ركب رواحله وانصرف إلى المدينة فلقيَ الناسُ أولئك النفر فقالوا لهم: زعمتم أنّكم لا تبايعون فلِم رضيتم وأعطيتم وبايعتم؟ قالوا: واللهِ ما فعلنا. فقالوا: ما منعكم أنْ تَرُدُّوا علىٰ الرجل؟ قالوا: كادَنا وخِفْنا القتل، وبايعه أهلُ المدينة، ثم انصرف إلىٰ الشام وجفا بني هاشم فأتاه ابنُ عباس فقال له: ما بالُك جفوتَنا. قال: إنّ صاحبكم لم يبايع ليزيدِ فلم تُنْكِروا ذلك عليه. فقال: يا معاوية إنّي لخليق أنْ أنحاز إلىٰ بعض السواحل فأقيم به ثم أنطلق بما تعلم حتىٰ أَدَعَ الناس كلهم خوارج عليك. قال: يا أبا العباس تعطون وترضون وتزادون.

وقيل: إنّ ابن عمر قال لمعاوية: أُبَايِعك علىٰ أنّي أَدخِلُ فيما يجتمع عليه الأمة. فوالله لو اجتمعتْ علىٰ حَبَشِيٍّ لدخلتُ معها. ثم عاد إلى منزله فاغلق بابه ولم يأذن لأحد، قلت: ذِكْر عبد الرحمن بن أبي بكر لا يستقيم علىٰ قول مَنْ يجعل وفاته سنة ثلاث وخمسين وإنما يصح علىٰ قول مَنْ يجعلها بعد ذلك الوقت.

ذكر عزل ابن زياد عن خراسان، واستعمال سعيد بن عثمان بن عفان

في هذه السنة استعمل معاوية سعيد بن عثمان بن عفان علىٰ خراسان وعزل ابن زياد؛ وسبب ذلك أنّه سأل معاوية أنْ يستعمله علىٰ خراسان فقال: إنّ بها عبيد الله بن زياد فقال: والله لقد اصطنعك أبي حتىٰ بلغتَ باصطناعه المدىٰ الذي لا تجارى إليه ولا تسامىٰ فما شكرتَ بلاءه ولا جازيته [بآلائه] وقدَّمْتَ هذا ـ يعني يزيد ـ وبايعتَ له. والله لأنا خيرٌ منه أباً وأُمّاً ونفساً.

فقال معاوية: أما بلاء أبيك فقد يحق علينا الجزاء به وقد كان مِنْ شُكْرِي لذلك أنّي قد طلبتُ بدمه، وأما فضل أبيك علىٰ أبيه فهووالله خير مني، وأما فضل أمك علىٰ أمه فلعمري امرأةٌ من قريش خيرٌ مِنْ امرأةٍ مِنْ كلب، وأما فضلك عليه فوالله ما أحبُّ أنَّ

---

(١) إنما دفع هؤلاء إلى السكوت ـ إن صحّت الرواية ـ ليس الخوف من الموت لكن الخوف من وقوع الفتنة إنْ قُتِلُوا أو قُتِلَ أحدهم وهم أشراف القوم.

الغوطة[١] ملئت رجالاً مثلك[٢] فقال له يزيد : يا أمير المؤمنين ابن عمك وأنتَ أحقّ مَنْ نظر في أمره قد عَتَبَ عليك فاعتبه. فـولّاه حرب خـراسان وولىٰ اسحـاق بن طلحة خراجَها، وكان اسحاق ابن خالة معاوية أمه أم أبان بنت عتبة بن ربيعة، فلما صار بالريّ مات إسحاق فولىٰ سعيد حربها وخراجَها، فلما قدِم خراسان قطع النهر إلىٰ سمرقند فخرج إليه [أهلُ] الصغد فتواقفوا يوماً إلىٰ الليل ولم يقتتلوا فقال مالكُ بن الرَّيْب :

مَـا زِلْتَ يَـوْمَ الصُّغْـدِ تُـرْعَـدُ وَاقِفـاً مِن الجُبْنِ حتىٰ خِفْتَ أنْ تَتْنَصـرا[٣]

فلما كان من الغد اقتتلوا فهزمهم سعيد وحصرهم في مدينتهم فصالحوه وأعطوه رهناً منهم خمسين غلاماً مِنْ أبناء عظمائهم، فسار إلىٰ « ترمذ » ففتحها صلحاً، ولم يفِ لأهل « سمرقند » وجاء بالغلمان معه إلىٰ المدينة، وكان ممن قُتل معه قثم بن عباس بن عبد المطلب.

وفي هذه [السنة] ماتت جويرية بنت الحارث زوج النبي ﷺ.

---

(١) هو الكورة التي منها دمشق وتحيط بها جبال عالية من جميع الجهات كثير الأشجار.

(٢) الطبري : (ما أحب أنّ الغوطة دحست ليزيد رجالاً مثلك).

ودحست : ملئت ـ يريد : لو أنّ الغوطة ملئت رجالاً مثل سعيد بن عثمان كان يزيد خيراً وأحب إليّ منهم.

(٣) الطبري : تتنضرا ـ بالضاد.

ثم دخلتْ سنة سبع وخمسين

فيها كان مشتى عبد الله بن قيس بأرض الروم، وفيها عزل مَرْوَان بن الحَكَم عن المدينة واستعمل عليها الوليد بن عتبة بن أبي سفيان، وقيل: لم يعزل مروان هذه السنة. وحَجّ بالناس الوليد بن عتبة؛ وكان العامل علىٰ الكوفة الضحاك بن قيس، وعلى البصرة عبيد الله بن زياد، وعلىٰ خراسان سعيد بن عثمان.

وفي هذه السنة مات عبد الله بن عامر، وقيل: سنة تسع وخمسين. وعبد الله بن قدامة السعديّ وله صُحبة، وقيل: هو عبد الله بن عمرو بن وقدان السعديّ، وإنما قيل له: السعديّ لأنّ أباه استرضع في بني سعد بن بكر وهو من بني عامر بن لؤي. وعثمان بن شيبة بن أبي طلحة العبدريّ وهو جد بني شيبة سدنة الكعبة ومفتاحها معهم إلىٰ الآن، وأسلم يوم الفتح، وقيل: يوم حنين. وجبير بن مطعم بن نوفل القرشيّ له صحبة. وأم سلمة زوج النبي ﷺ، وقيل: بقيت إلى قتل الحسين.

ثم دخلتْ سنة ثمان وخمسين

في هذه السنة غزا مالك بن عبد الله الخثعميّ أرض الروم، وعمرو بن يزيد الجهني في البحر، وقيل: جنادة بن أبي أمية.

ذكر عزل الضحاك عن الكوفة واستعمال ابن أم الحكم

وفي هذه السنة عزل معاوية الضحاك بن قيس عن الكوفة، واستعمل عبد الرحمن بن عبد الله بن عثمان الثقفي وهو ابن أم الحكم، وهو ابن أخت معاوية ، وفي عمله هذه السنة خرجتْ الخوارج الذين كان المغيرة بن شعبة حبسهم فجمعهم حيان بن ظبيان السلميّ ، ومعاذ بن جوين الطائيّ فخطباهم وحثّاهم علىٰ الجهاد فبايعوا حيان بن ظبيان وخرجوا إلىٰ « بانقيا » فسار إليهم الجيش مِنْ الكوفة فقتلوهم جميعاً، ثم إنّ عبد الرحمن بن أم الحكم طرده أهل الكوفة لسوء سِيرته فَلَحِق بخاله معاوية فولّاه مصر فاستقبله معاوية بن حديج علىٰ مرحلتين من مصر فقال له: « ارجعْ إلى خَالك فلَعَمْري لا تسير فينا سيرتك في إخواننا مِن أهل الكوفة ». فرجع إلىٰ معاوية.

ثم إن معاوية بن حديج وفد إلىٰ معاوية وكان إذا قدم إلىٰ معاوية زُيِّنَتْ له الطرق بقباب الريحان تعظيماً لشأنه فدخل علىٰ معاوية وعنده أخته أم الحكم فقالت: مَنْ هذا يا أمير المؤمنين؟ قال: بخٍ بخٍ هذا معاوية بن حديج قالت: لا مرحباً [به] - تَسْمَعُ بالمُعَيدِيّ خَيْرٌ مِنْ أنْ تراه -[1] فسمعها معاوية بن حديج فقال: علىٰ رِسْلِك يا أمَّ الحكم. واللهِ لقد تزوجتِ فما أُكرمتِ، وولدتِ فما أنجبتِ. أردتِ أنْ يلي أبنُك الفاسق علينا فيسير فينا كما سار في إخواننا مِنْ أهل الكوفة! وما كان الله ليريه ذلك، ولو فعل

---

(١) مثلٌ يضربُ لمن كانت شهرته عظيمة وحقيقته ليست كذلك .

ذلك لضربناه ضرباً يطأطىء منه ولو كره هذا القاعد ـ يعني خالد معاوية ـ فالتفت إليها معاوية وقال: كفىٰ فكَفَّتْ.

ذكر خروج طواف بن غلاق

كان قوم من الخوارج بالبصرة يجتمعون إلىٰ رجلٍ اسمه «جدار» فيتحدثون عنده ويعيبون السلطان فأخذهم ابن زياد فحبسهم، ثم دعا بهم وعَرَضَ عليهم أنْ يقتُل بعضُهم بعضاً ويخلّي سبيلَ القاتلين، ففعلوا فأطلقهم وكان ممن قَتَلَ «طواف» فعذلهم أصحابهم وقالوا: قتلتم إخوانكم! قالوا: أُكْرِهْنَا، وقد يُكْره الرجلُ علىٰ الكفر وهو مطمئنٌ بالإيمان، وندم «طواف» وأصحابه، فقال طواف: أمَا مِنْ توبة؟ فكانوا يبكون، وعَرَضُوا علىٰ أولياء مَنْ قَتَلُوا الدية فأبوا، وعرضوا عليهم القَوْد فأبوا، ولقي طواف: الهثهاث بن ثور السدوسيّ فقال له: أما ترىٰ لنا من توبة؟ فقال: ما أجدُ لك إلاّ آية في كتاب الله عز وجل قوله: ﴿ ثُمَّ إنَّ رَبَّكَ لِلَّذِيْنَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُـوا ثُمَّ جَاهَـدُوا وَصَبَرُوا إنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغفُورٌ رَّحِيْم ﴾.

فدعا طواف أصحابه إلىٰ الخروج وإلىٰ أنْ يفتكوا بابن زياد فبايعوه في سنة ثمان وخمسين، وكانوا سبعين رجلاً من بني عبد القيس بالبصرة فسعىٰ بهم رجلٌ مِن أصحابهم إلىٰ ابن زياد فبلغ ذلك طوافاً فعجل الخروج فخرجوا مِن ليلتهم فقتلوا رجلاً ومضوا إلى «الجلحاء» فندب ابن زياد الشُّرَط البخارية فقاتلوهم فانهزم الشُّرَط حتىٰ دخلوا البصرة واتبعوهم وذلك يوم عيد الفطر وكَثَّرَهُم الناسُ فقاتلوا فَقُتِلُوا وبقيَ طواف في ستة نفر، وعطش فرسه فأقحمه الماء، فرماه البخارية بالنشاب حتىٰ قتلوه وصلبوه، ثم دفنه أهله فقال شاعرٌ منهم:

يا رب هب لي التُّقىٰ والصدق في ثبت	وآكفِ اللهم[1] فأنت الرازقُ الكافي
حتىٰ أبيـعَ التـي تفـنـىٰ بـآخـرة	تبقـىٰ علىٰ ديـن مـرداس وطـواف
وكهمس وأبـي الشعثـاء إذْ نـفـروا	إلـىٰ الإلـه ذوي أخبـاب زحـاف

(١) في المطبوعة: المهم.

ذكر قتل عُروة بن أديّة وغيره من الخوارج

في هذه السنة اشتد عبيد الله بن زياد علىٰ الخوارج فقتل منهم جماعة كثيرة، منهم عروة بن أديّة أخو أبي بلال مرداس بن أديّة ـ وأدية أمهما وأبوهما حدير وهو تميميّ، وكان سبب قتله أنّ ابن زياد كان قد خرج في رهان له فلما جلس ينتظر الخيل اجتمَع إليه الناسُ وفيهم عُروة فأقبل علىٰ ابن زياد يعظه وكان مما قال له: ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُم تَخْلدون وَإذا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِين﴾[1].

فلما قال ذلك ظن ابن زياد أنه لم يقل ذلك إلا ومعه جماعة فقام وركب وترك رهانه، فقيل لعُروة: ليقتلنّك. فاختفى فطلبه ابن زياد فهرب وأتىٰ الكوفة فأُخذ وقُدِم به علىٰ ابن زياد فقطع يديه ورجليه وقتله، وقتل ابنته، وأما أخوه أبو بلال مرداس فكان عابداً مجتهداً عظيم القدر في الخوارج وشهد صِفِّيْن مع عليّ فأنكر التحكيم وشهد النهروان مع الخوارج وكانت الخوارج كلها تتولاّه، ورأىٰ علىٰ ابن عامر قباء أنكره فقال: هذا لِبَاسُ الفُسّاق فقال أبو بكرة « لا تَقُلْ هذا للسلطان فإنَّ مَنْ أبغضَ السلطان أبغضه الله ». وكان لا يدين بالاستعراض ويحرم خروج النساء ويقول: « لا نقاتِل إلاّ مَنْ قاتَلنا، ولا نجبي إلاّ من حمينا».

وكانت « البثجاء » أمرأة مِنْ بني يربوع تُحَرِّضُ علىٰ ابن زياد وتذكر تجبّره، وسوء سيرته، وكانت مِن المجتهدات فذكرها ابن زياد فقال لها أبو بلال: إنّ التقيّة لا بأس بها فتغيبي فإنّ هذا الجبار قد ذكرك قالت: أخشىٰ أنْ يلقىٰ أحدٌ بسببي مَكروهاً. فأخذها ابن زياد فقطع يديها ورجلَيْها، فمرّ بها أبو بلال في السوق فعضّ علىٰ لحيته وقال: أهذه أطيبُ نفساً بالموت منك يا مرداس؟! ما ميتة أموتها أحبّ إليّ مِنْ ميتة البثجاء.

ومرّ أبو بلال ببعير قد طلي بقطرانٍ فغشي عليه ثم أفاق فتلا ﴿ سَرَابِيْلُهُم مِنْ قِطَرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُم النَّار ﴾[2] ثم إنّ ابن زياد ألحّ في طلب الخوارج فملأ منهم السجن وأخذ الناس بسببهم، وحبس أبا بلال قبل أنْ يقتل أخاه عروة فرأىٰ السجان عبادَته فأذِن له كل ليلة في إتيان أهله فكان يأتيهم ليلاً ويعود مع الصبح وكان صديق

---

(١) الشعراء: ١٢٨.

(٢) إبراهيم: ٥٠.

لمرداس يسامر ابن زياد فذكر ابن زياد الخوارج ليلة فعزم علىٰ قَتْلهم [إذا أصبح] فانطلق صديقُ مرداس إليه فأعلمه الخبر وبات السجّان بليلة سوء خوفاً أنْ يعلمَ مرداس فلا يرجع، فلما كان الوقت الذي كان يعود فيه إذا به قد أتىٰ فقال له السجان : أما بلغك ما عزم عليه الأمير؟ قال: بلىٰ. قال: ثم جئتَ قال: نعم لم يكن جزاؤك مني مع إحسانك إليّ أنْ تُعاقَب .

وأصبح عبيد الله فقَتَل الخوارج فلما أحضر مرداس قام السجان ـ وكان ظِئْراً لعبيد الله ـ فشفع فيه وقصّ عليه قِصّته فوهبه له وخلّىٰ سبيله، ثم إنه خاف ابن زياد فخرج في أربعين رجلاً إلىٰ الأهواز فكان إذا اجتاز به مالٌ لبيتِ المال أخذ منه عطاءه وعطاء أصحابه ثم يردّ الباقي، فلما سمع ابن زياد خبرَهم بعث إليهم جيشاً عليهم أسلم بن زرعة الكلابي سنة ستين، وقيل: أبو حصين التميميّ، وكان الجيش ألفي رجل فلمّا وصلوا إلى أبي بلال ناشدهم الله أنْ لا يقاتِلوه فلم يفعلوا ودعاهُم أسلم إلى معاودة الجماعة فقالوا: أتردُّوننا إلىٰ ابن زياد الفاسق! فرمى أصحاب أسلم رجلاً مِن أصحاب أبي بلال فقتلوه فقال أبو بلال : قدبدأوكم بالقتال. فشدَّ الخوارج علىٰ أسلم وأصحابه شدَّةَ رجلٍ واحد فهزموهم، فقدِموا البصرة فلام ابن زياد أسلم وقال: هزمك أربعون وأنت في ألفين لا خير فيك. فقال: لأن تلومني وأنا حيّ خيرٌ من أنْ تثني عليّ وأنا ميت، فكان الصبيان إذا رأوا أسلم صاحوا به أما أبو بلال وراءك فشكا ذلك إلىٰ ابن زياد فنهاهم فانتهوا، وقال رجلٌ مِن الخوارج :

أَأَلْفا مُؤمِنٍ منكم زَعمتُمْ ... وَيَقْتُلُهُمْ بآسَكَ أَرْبَعُونَا
كَذَبْتُم ليس ذاك كما زَعمتمْ ... ولكِنَّ الخوارجَ مؤمِنونا
[هي الفِئَةُ القليلةُ قد عَلمتُمْ ... على الفِئَةِ الكثيرةُ يُنْصَرُونا][1]

ذكر عدة حوادث

وحج بالناس الوليد بن عتبة في هذه السنة. وفيها مات عقبة بن عامر الجهنيّ وله

---

(١) من أبيات ذكرها ياقوت (معجم البلدان ١ / ٥٨)، ونَسَبَها إلى عيسى بن فاتك الخطفي أحد بني تيم الله بن ثعلبة .

صحبة، وشهد صفين مع معاوية . وفيها توفيتْ عائشة عليها السلام. وسمرة بن جندب وله صحبة ومالك بن عبادة الغافقي وله صحبة. وعميرة بن يثربي قاضي البصرة فاستقضى مكانه [عليها] هشام بن هبيرة[1].

---

(١) وتوفي في هذه السنة أيضاً عبيدالله بن عباس ، ابن عم النبي ﷺ .

ثم دخلت سنة تسع وخمسين

في هذه السنة كان مشتىٰ عمرو بن مرة الجهني بأرض الروم في البر، وغزا في البحر جنادة بن أبي أمية، وقيل: لم يكن في البحر غزوة هذه السنة.

وفي هذه السنة عزل عبد الرحمن بن أم الحكم عن الكوفة واستعمل عليها النعمان بن بشير الأنصاريّ، وقد تقدم عزله[1]، وقيل: كان عزله سنة ثمان وخمسين.

ذكر ولاية عبد الرحمن بن زياد خراسان

وفيها استعمل معاوية عبد الرحمن بن زياد علىٰ خراسان، وقدّم بين يديه قيس بن الهثيم السلميّ، وأخذ أسلم بن زرعة فحبسه وأخذ منه ثلاثمائة ألف درهم، ثم قدم عبد الرحمن وكان كريماً حريصاً ضعيفاً لم يغز غزوة واحدة وبقي بخراسان إلىٰ أنْ قُتل الحسين فقدِم علىٰ يزيد ومعه عشرون ألف ألف درهم فقال: إنْ شئتَ حاسبناك وأخذنا ما معك ورددناك إلىٰ عملك، وإنْ شئتَ أعطيناك ما معك وعزلناك وتعطي عبد الله بن جعفر خمسمائة ألف درهم. قال: بل تعطيني ما معي وتعزلني. ففعل، فأرسل عبد الرحمن إلى ابن جعفر بألف ألف، وقال: هذه خمسمائة ألف من يزيد وخمسمائة ألف مني.

ذكر عزل ابن زياد عن البصرة وعوده إليها

وفي هذه السنة عزل معاوية عبيدالله بن زياد عن البصرة وأعاده إليها. وسبب ذلك أنّ ابن زياد وفد علىٰ معاوية في وجوه أهل البصرة وفيهم الأحنف ـ وكان سيء المنزلة

---

(١) أنظر ص ٤٣٦.

من عبيدالله ـ فلمّا دخلوا رحّب معاوية بالأحنف وأجلسه معه علىٰ سريره فأحسن القومُ الثناءَ علىٰ ابن زياد والأحنف ساكت فقال له معاوية: مالك يا أبا بحر لا تتكلم؟ فقال: إنْ تكلمتُ خالفتُ القومَ. فقال معاوية: انهضوا فقد عزلتُه عنكم وآطلبوا والياً ترضونه. فلم يبق أحدٌ إلّا أتىٰ رجلاً مِنْ بني أمية أو من أهل الشام والأحنف لم يبرحْ مِنْ منزله فلم يأت أحداً، فلبثوا أياماً ثم جمعهم معاوية وقال لهم: مَنْ اخترتم؟ فاختلفتْ كلمتُهم والأحنف ساكت فقال: مالك لا تتكلم؟ فقال: إنْ وَلَّيْتَ علينا أحداً من أهل بيتك لم نعدل بعبيد الله أحداً، وإنْ وليتَ مَنْ غيرهم فانظر في ذلك. فردَّه معاوية عليهم وأوصاه بالأحنف وقبّح رأيه في مباعدته، فلما هاجت الفتنة لم يف له غير الأحنف.

ذكر هجاء يزيد بن مفرغ الحميري بني زياد وما كان منه

كان يزيد بن مفرغ الحميري مع عباد بن زياد بسجستان فاشتغل عنه بحرب الترك فاستبطأه ابن مفرغ، وأصاب الجند الذين مع عباد ضيق في علوفات دوابهم فقال ابن مفرغ:

ألا ليتَ اللِّحَىٰ كانت حَشِيْشاً ... فنعْلِفَهَا دوابَّ المسلمينا

وكان عباد بن زياد عظيم اللحية فقيل: ما أراد غَيرك. فطُلِب فهرب منه وهجاه بقصائد، وكان مما هجاه به قوله:

إذا أَوْدَىٰ مُعاوية بن حَرْبٍ ... فَبَشِّرْ شَعْبَ رحلِكَ بانصداعِ
وأشهدُ أنَّ أُمَّكَ لم تُباشِرْ ... أبا سُفيانَ واضعَةَ القِنَاعِ
ولكِنْ كان أمراً فيه لَبْسٌ ... علىٰ وَجَلٍ شَدِيْدٍ وارتياعِ (١)

وقال أيضاً:

أَلَا أبلِغْ مُعاويةَ بن حَرْبٍ ... مُغَلْغَلَةٍ مِن الرَّجُل اليماني
أتغضب أن يقال أبوك عفٌّ ... وترضى أن يقال أبوك زَانِ
فأشهد أنَّ رِحْمَكَ مِن زِيادٍ ... كرِحْم الفِيل من وَلَدِ الأتَانِ(٢)

---

(١) الأغاني ١٧/٥٧ (ساسي).
(٢) الأغاني ١٧/٦٠.

وقدِم يزيد بن مفرغ البصرة، وعبيدالله بن زياد بالشام عند معاوية فكتب إليه أخوه عبّاد بما كان منه فأعلم عبيدالله معاوية به وأنشده الشعر واستأذنه في قتْل ابن مفرغ فلم يأذن له وأمره بتأديبه، ولما قدم ابن مفرغ البصرة استجار بالأحنف وغيره مِنْ الرؤساء فلم يُجرْه أحدٌ فاستجار بالمنذر بن الجارود فأجاره وأدخله داره، وكانت ابنته عند عبيدالله بن زياد، فلمّا قدِم عبيدالله البصرة أُخبِر بمكان ابن مفرغ وأتىٰ المنذر عبيدالله مسلماً فأرسل عبيدالله الشُّرَط إلىٰ دار المنذر فأخذوا ابن مفرغ وأتوه به ـ والمنذر عنده ـ فقال له المنذر: «أيها الأمير إنّي قد أجرته». فقال: يا منذر يمدحُك وأباك ويهجوني وأبي وتجيره عليّ! ثم أمر به فسُقيَ دواءً ثم حُمل علىٰ حمار وطيف به وهو يَسلَح في ثيابه فقال يهجو المنذر:

تــركتُ قــريشــاً أن أُجــاورَ فيهــمُ ... وجـاوَرْتُ عبدَ القَيْسِ أهـلَ المُشَقَّـرِ
أُنــاسٌ أَجَـارُونـا فكـان جـوارُهُمْ ... أعـاصيرَ مِنْ فَسْـوِ العِراق المُبَـذِّرِ
فـأصبحَ جارِي مِن جـذيمـة نـائماً ... ولا يمنَـعُ الجيرانَ غيرُ المُشمّـرِ(١)

وقال لعبيد الله:

يَغْسِـلُ المـاءُ مـا صَنَعْتَ وقَـوْلي ... راسِخٌ منكَ في العـظامِ البَـوالي(٢)

ثم سيّره عبيدالله إلى أخيه عباد بسجستان فكلّمتْ اليمانيةُ بالشام معاوية فيه فأرسل إلى عباد فأخذه من عنده فقدِم علىٰ معاوية وقال في طريقه:

عَـدَسْ(٣) مـا لِعبّـادٍ عَلَيْـكِ إمَـارةٌ ... أمِنْـتِ وهـذا تـحمـلينَ طَـليقُ
لَعَمْـري لقد نَجّاك مِن هُـوَّةِ الـردىٰ ... إمـامٌ وحـبْـلٌ لـلإمـامِ وثـيـقُ
سـأشكُـرُ مـا أَوْلَيْتَ مِنْ حُسْنِ نِعْمَـةٍ ... ومِثْلي بِشُكْـرِ المنعِمينَ حـقيقٌ(٤)

فلما دخل علىٰ معاوية بكى وقال: رُكِبَ مني ما لم يُرْتكبْ مِنْ مسلمٍ مثله علىٰ غير حَدَثٍ. قال: أو لستَ القائل: ألا أبـلغْ معاوية بن حرب. (القصيدة). فقال: لا

(١) الأغاني ١٧/٥٧ .

(٢) من قصيدة طويلة في الأغاني ١٧/٥٧ : ٥٨ .

(٣) كلمة زجر للبغال .

(٤) الأغاني ١٧/٦٠ ، الشعر والشعراء ٣٢٤ .

والله الذي عظم حق أمير المؤمنين ما قلت هذا وإنّما قاله عبد الرحمن بن الحكم أخو مروان واتخذني ذريعة إلىٰ هجاء زياد. قال: ألست القائل: فأشهدُ أنّ أمّك لم تباشرْ. أبا سفيان. . . . . في أشعار كثيرة هجوتَ بها ابن زياد؟ اذهب فقد عفونا عنك فآنزلْ أيَّ أرضِ الله شئتَ.

فنزل الموصل وتزوج بها، فلما كان ليلة بنائه بامرأته خرج حين أصبح إلى الصيد فلقي إنساناً علىٰ حمار فقال: من أين أقبلتَ؟ فقال: من الأهواز. قال: فما فعل ماءُ مسرُقان[1]؟ قال: على حاله. فارتاح إلىٰ البصرة فقدمها ودخل علىٰ عبيدالله فأمنه، وغضب معاوية علىٰ عبد الرحمن بن الحكم فكُلِّم فيه فقال: لا أرضىٰ عنه حتىٰ يرضىٰ عنه ابن زياد. فقدِم البصرة علىٰ عبيدالله وقال له:

لأنتَ زيادةٌ في آلِ حَرْبٍ ... أَحَبُّ إليّ مِنْ إحدى بنانِي
أراكَ أخاً وعَمّاً وابنَ عمٍّ ... فلا أدري بغيبٍ ما ترانِي

فقال: أراك شاعر سوء. ورضي عنه.

ذكر عدة حوادث

حج بالناس هذه السنة عثمان بن محمد بن أبي سفيان وكان الوالي علىٰ الكوفة النعمان بن بشير، وعلىٰ البصرة عبيدالله بن زياد، وعلىٰ المدينة الوليد بن عتبة، وعلىٰ خراسان عبد الرحمن بن زياد، وعلىٰ سجستان عبّاد بن زياد، وعلىٰ كرمان شريك بن الأعور.

وفيها مات قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري بالمدينة، وقيل: سنة ستين وكان قد شهد مع عليّ مشاهده كلها. وفيها مات سعيد بن العاص وولده عام الهجرة وقُتل أبوه يوم بدر كافراً. وفيها مات مرة بن كعب البهري السلمي وله صحبة. وفيها مات أبو محذورة الجمحيّ مؤذن رسول الله ﷺ بمكة ولم يزل يؤذّن بها حتى مات وولده من بعده. وقيل: مات سنة تسع وستين. وفيها مات عبدالله بن عامر بن كريز بمكة فدفن بعرفات. وفيها مات أبو هريرة فحمل جنازته ولد عثمان بن عفان لهواه كان في عثمان.

---

(١) في الطبري: مسرفان ـ بالفاء الموحدة.

وفيها غزا المسلمون حصن كمخ[١] ومعهم عمير بن الحباب السلمي فصعد عمير السور ولم يزل يقاتل عليه وحده حتىٰ كشف الروم فصعد المسلمون ففتحه بعمير وبذلك كان يفتخر ويفخر له بذلك.

---

(١) مدينة بالروم.

ثم دخلت سنة ستين

في هذه السنة كانت غزوة مالك بن عبدالله سورية، ودخول جنادة «رودس»، وهدمه مدينتها في قول بعضهم. وفيها توفي معاوية بن أبي سفيان، وكان قد أخذ علىٰ وفدِ أهل البصرة البيعة ليزيد.

ذكر وفاة معاوية بن أبي سفيان

خَطَبَ معاوية قبل مرضه وقال: «إنِّي كزرعٍ مستحصد، وقد طالتْ إمرتي عليكم حتىٰ مللتُكم ومللتُموني، وتمنيتُ فِراقكم وتمنيتُم فراقي، ولن يأتيكم بعدي إلاّ مَنْ أنا خيرٌ منه كما إنّ مَنْ قبلي كان خيراً مني، وقد قيل: «مَنْ أحبَّ لقاءَ الله أحب الله لقاءه» اللهم إني قد أحببتُ لقاءك فاحبب لقائي، وبارك لي فيه». فلم يمض غير قليل حتى ابتدأ به مرضه.

فلما مرض المرض الذي مات فيه دعا ابنه يزيد فقال: «يا بُنيّ إنّي قد كفيتُك الشدَّ والترحال، ووطَّأتُ لك الأمور، وذللتُ لك الأعداء، وأخضعتُ لك رقابَ العرب، وجمعتُ لك ما لم يجمعه أحدٌ، فانظر أهلَ الحجاز فإنهم أصلُك، وأكرم مَنْ قدِم عليك منهم، وتعاهد مَنْ غابَ، وأنظرْ أهلَ العراق فإنْ سألوك أنْ تعزل عنهم كلَّ يومٍ عاملاً فافعل فإنَّ عَزْلَ عاملٍ أيسر مِنْ أنْ يُشْهَر عليك مائة ألف سيف، وانظرْ أهلَ الشامِ فليكونوا بطانَتَك وعيبتك فإنْ رابك مِنْ عدوكَ شيءٌ فانتصرْ بهم فإذا أصبتَهم فأرددْ أهلَ الشام إلى بلادهم فإنهم إنْ أقاموا بغيرِ بلادهم تغيَّرت أخلاقُهم.

وإنّي لستُ أخافُ عليك أنْ ينازِعَك في هذا الأمر إلاّ أربعة نفر من قريش: الحسين بن علي، وعبدالله بن عمر، وعبدالله بن الزبير، وعبد الرحمن بن أبي بكر، فأمّا ابن عمر فإنه رجلٌ قد وقذته العبادة فإذا لم يبق أحدٌ غيره بايعك. وأمّا الحسين بن

علي فهو رجلٌ خفيفٌ ولن يتركه أهلُ العراق حتىٰ يخرجوه فإنْ خَرَجَ وظفرتَ به فاصفحْ عنه فإنّ له رَحِماً ماسّة، وحَقًّا عظيماً، وقرابة مِن محمد ﷺ. وأمّا ابن أبي بكر فإنْ رأىٰ أصحابه صنعوا شيئاً صنع مثله ليس له هِمَّة إلا في النساء واللهو. وأمّا الذي يجثم لك جثوم الأسد ويراوغك مراوغةَ الثعلب فإنْ أمكنته فرصةٌ وَثَب فذاك ابنُ الزبير فإنْ هو فَعَلَها بك فظفرتَ به فقطِّعْه إرباً إرباً واحقنْ دماءَ قومِك ما استطعت. هكذا في هذه الرواية ذكر عبد الرحمن بن أبي بكر وليس بصحيح فإنّ عبد الرحمن بن أبي بكر كان قد مات قبل معاوية.

وقيل: إنّ يزيد كان غائباً في مرض أبيه وموته وأنّ معاوية أحضر الضحاك بن قيس، ومسلم بن عقبة المريّ فأمرهما أنْ يؤديا عنه هذه الرسالة إلىٰ يزيد ابنه وهو الصحيح.

ثم مات بدمشق لهلال رجب، وقيل: للنِّصف منه، وقيل: لثمانٍ بقينَ منه. وكان مُلكه تسع عشرة سنة وثلاثة أشهر وسبعة وعشرين يوماً مذ اجتمع له الأمر وبايع له الحسن بن علي، وقيل: كان ملكه تسع عشرة سنة وثلاثة أشهر، وقيل: وثلاثة أشهر إلاّ أياماً. وكان عمره خمساً وسبعين[1] سنة، وقيل: ثلاثاً وسبعين سنة، وقيل: توفي وهو ابن ثمان وسبعين سنة، وقيل: خمس وثمانين، وقيل: لما اشتدتْ عِلّته وأرجف به قال لأهله: احشوا عينيَّ إثمداً، وادهنوا رأسي. ففعلوا وبرقوا وجهه بالدهن ثم مهد له فجلس وأذِنَ للناس فسلَّموا قياماً ولم يجلس أحدٌ، فلما خرجوا عنه قالوا: هو أصحُّ الناس. فقال معاوية عند خروجهم مِنْ عنده:

وتجلُّدي للشامتينَ أُرِيهمُ ... أنّي لريبِ الدهر لا أَتَضَعْضَعُ
وإذا المنيّةُ أنشبَتْ أظفارَها ... ألفيْتَ كلَّ تميمةٍ لا تنفعُ[2]

وكان به التفاتات[3] فمات من يومه، فلما حضرته الوفاة قال: «إنَّ رسولَ الله ﷺ

---

(١) هذا يقتضي أنْ يكون النبي ﷺ هاجر وله خمس عشرة سنة وأنْ يكون قد ولي قيادة الجند وهو ابن خمس وعشرين سنة ـ وهو بعيد (م).

(٢) البيتان لأبي ذؤيب الهذلي في قصيدة طويلة ـ انظر ديوانه ١/٣٨.

(٣) الطبري ٥/٣٢٦: النفاثات.

كساني قميصاً فحفِظته وقَلَّم أظفارَه يوماً فأخذتُ قُلامته فجعلتها في قارورة فإذا متّ فألبسوني ذلك القميص واسحقوا تلك القلامة وذُرُّوها في عيني وفمي فعسىٰ الله أنْ يرحمني ببركتها». ثم تمثّل بشعرِ الأشهب بن زُمَيلة النَّهْشَلِيّ:

إذَا مُتُّ مـاتَ الجُودُ وانقـطعَ النَّدَى ... مِن النـاسِ إلاَّ مِنْ قليـل مـصَـرَّدِ
ورُدَّتْ أكُـفُّ السـائـلين وأمْسَكُـوا ... من الـدينِ والـدنيـا بخلِفٍ مُجَـدَّدِ

فقالت إحدىٰ بناته: كلا يا أمير المؤمنين بل يدفعُ اللَّهُ عنك. فقال متمثلاً بشعر الهذلي: وإذا المنيةُ البيت. وقال لأهله: اتقوا الله فإنه لا واقي لمن لا يتقي الله، ثُمَّ قضي. وأوصىٰ أنْ يُرَدَّ نصفُ مَاله إلىٰ بيت المال كأنه أراد أنْ يطيبَ له الباقي لأنّ عمر قاسم عُمّاله، وأنشد لما حضرته الوفاة:

إنْ تُنَـاقِشْ يَكُنْ نِقَـاشُـكَ يـا رب ... عـذابـاً لا طـوق لـي بـالعـذابْ
أو تـجَـاوَز فـأنْـتَ رب صـفـوح ... عـن مسـيءٍ ذُنُـوبُـه كـالـترابِ

ولما اشتدّ مرضه أخذتْ ابنته رملة رأسَه في حجرِها وجعلتْ تقلبه فقال: إنك لتقلبين حولا قلباً جمع المال من شب إلى دب فليته لا يدخل النار. ثم تمثّل:

لقد سعيت لكم من سعي ذي نصب ... وقـد كفيتُكم التـطواف والـرحـلا

وبلغه أنّ قوماً يفرحون بموته فأنشد:

فهـل مِنْ خـالـدٍ إنْ مَـا هـلكنـا ... وهـل بـالمـوتِ يـا للنـاس عـارِ

وكان في مرضه ربما اختلط في بعضِ الأوقات فقال مرة: كم بيننا وبين الغوطة؟ فصاحتْ بنته: واحزناه. فأفاق فقال: إنْ تنفري فقد رأيت منفراً.

فلما مات خرج الضحاك بن قيس حتىٰ صَعِدَ المنبر - وأكفان معاوية علىٰ يديه [تلوح] - فحمِد اللّهَ وأثنىٰ عليه ثم قال: «إنّ معاوية كان عَوْد العرب وحّدَ العرب وجد العرب، قطع اللّهُ به الفتنة، وملكه علىٰ العباد، وفتح به البلاد. الا أنّه قد مات، وهذه أكفانه، ونحن مدرجوه فيها، ومدخلوه قبره، ومخلُّون بينه وبين عمله ثم هو الهرج إلىٰ يوم القيامة، فمن كان يريد [أنْ] يشهده فعند الأولى».

وصلىٰ عليه الضحاك. وقيل: لما اشتدّ مرضُه - أي مرض معاوية - كان ولده يزيد

بخوارين فكتبوا إليه يحثونه علىٰ المجيء ليدركه فقال يزيد شعراً:

جاء البـريـد بقـرطـاس يَخُبُّ بِـهِ ... فـأَوْجَسَ القلبُ مِنْ قرطـاسـهِ فَزِعَـا
قلنـا: لك الـويـلُ مـاذا في كتـابِكُمُ ... قـال الخليفةُ أَمْسَىٰ مُثْبَتَـاً وجِعـا
ثم انبعثنـا إلىٰ خـوص مـزمـمـة ... نـرمي الفجاج بهـا لا نـأتلي سـرعـا
فمـادَتِ الأرضُ أو كـادَتْ تميـدُ بنـا ... كـأَنَّ أعبـر[1] مِنْ أركـانهـا انقـطعـا
من لم تَـزَلْ نفسُهُ تُـوفِي علىٰ شَرَفٍ ... تُوشكْ مقـاليدُ تلك النفسِ أنْ تقعـا
لمّـا انتهَيْنـا وبـابُ الـدارِ مُنْصَفِقٌ ... وصـوتُ رَمْلة رِيعَ القلبُ فـانصدَعَـا
ثم ارعـوىَ القلبُ شيئاً بعـد طيـرتـه ... والنفسُ تعلمُ أنْ قــد اثبتتْ جـزعـا
أودىٰ ابن هنـد وأودىٰ المجـدُ يتبعـه ... كـانـا جميعـاً فمـاتـا قـاطنَيْن معـا
أغـرُّ أبلجُ يستسقىٰ الغمـامُ بـه ... لو قارعَ الناس عن أحسابهم قرعا[2]

فأقبل يزيد وقد دفن فأتىٰ قبره فصلى عليه.

---

(١) الطبري: (أغبر) بغين معجمة.

(٢) الأغاني ١٦/٣٣، المعمرون ١٥٧.

ذكر نسبه وكنيته وأزواجه وأولاده

أما نسبه: فهو معاوية بن أبي سفيان ـ واسم أبي سفيان: صَخْر ـ بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ين قُصَيّ بن كلاب، وكنيته أبو عبد الرحمن.

وأما نساؤه وولده: فمنهن ميسون بنت بحدل بن أنيف الكلبية أم يـزيد ابنـه، وقيل: ولدتْ بنتاً اسمها «أمة رب المشارق» فماتتْ صغيرة. ومنهن فاختة ابنة قرظة بن عبد عمرو بن نوفل بن عبد مناف فولدتْ له عبد الرحمن، وعبدالله ابني معاوية، وكان عبدالله أحمق اجتاز يوماً بطحان وبغله يطحن وفي عنقه جلاجل فسأل عن الجلاجل فقال: جعلتُها في عنقِهِ لأعلم أنْ قد قام فلم تَدُرْ الرحا. فقال: أرأيتَ إنْ قامَ وحَرَّكَ رأسه كيف تعلم. فقال الطحان: إنّ بغلي ليس له عقلٌ مثل عقل الأمير. وأما عبد الرحمن فمات صغيراً. ومنهن نائلة ابنة عمارة الكلابية تزوجها وقال لميسون: انظري إليها. فنظرتْ إليها وقالت: رأيتُها جميلة [كاملة]، ولكني رأيتُ تحت سُرَّتِهَا خالاً ليوضعن رأس زوجها في حجرها. فطلقها معاوية وتزوجها حبيب بن مسلمة الفهري، ثم خلف عليها بعده النعمان بن بشير وقُتِل فوضع رأسَه في حجرها. ومنهن كتوة بنت قرظة أخت فاختة غزا قبرس وهي معه فماتتْ هناك.

ذكر بعض سيرته وأخباره وقضاته وكُتّابه

لما بويع معاوية بالخلافة استعمل علىٰ شرطتِهِ قيس بن حمزة الهمداني ثم عزله واستعمـل زمل بن عمـرو العذري، وقيـل: السكسكي، وكان كـاتبه وصـاحب أمره سرجون الرومي، وعلى حرسه رجل مِن الموالي يقال له المختار، وقيل: أبو المخارق مالك مولىٰ حمير، وكان أول من اتخذ الحرس. وكان علىٰ حجابه سعد مولاه، وعلىٰ القضاء فضالة بن عبيد الأنصاري فمات فاستقضىٰ أبا إدريس الخولاني وكان علىٰ ديوان

الخاتم عبدالله بن محصن الحميري. وكان أول من اتخذ ديوان الخاتم. وكان سبب ذلك أنّ معاوية أمر لعمرو بن الزبير [في معونته وقضاء دَينه] بمائة ألف درهم وكتب له بذلك إلىٰ زياد ففتح عمرو الكتاب وصيَّر المائة مائتين فلما رفع زياد حسابه أنكرها معاوية وطلبها مِنْ عمرو وحبَسه فقضاها عنه أخوه عبدالله بن الزبير فأحْدَثَ عند ذلك معاوية ديوان الخاتم وحزم الكتب ولم تكن تحزم.

قال عمر بن الخطاب: تذكرون كسرى وقيصر ودهاءهما وعندكم معاوية. قيل: وقدِم عَمرو بن العاص مِن مصر علىٰ معاوية ومعه أهلِ مصر فقال لهم عمرو: لا تسلِّموا علىٰ معاوية بالخلافة فإنه أهيب لكم في قلبه وصغِّرُوه ما استطعتم. فلما قدِموا قال معاوية لحُجَّابه: «كأنّي بابن النابغة وقد صَغَّرَ عند القوم فانظروا إذَا دخل القومُ فتعتعوهم أشد ما يحضركم». فكان أول مَنْ دخل عليه رجلٌ منهم يقال له: ابن الخياط فقال: السلام عليك يا رسول الله. وتتابع القومُ علىٰ ذلك، فلما خرجوا قال لهم عَمرو: لعنكم الله نهيتكم أنْ تُسَلِّمُوا عليه بالإمارة فسلمتم عليه النبوة!. قيل: ودخل عبيدالله بن أبي بكرة علىٰ معاوية ومعه ولدٍ له فأكثر من الأكل فلَحَظَه معاوية وفطن عبيدالله وأراد أنْ يغمزَ ابنه فلم يرفع رأسَه حتىٰ فرغ مِن الأكل ثم عادَ عبيدالله وليس معه ابنه فقال معاوية: ما فعل ابنك التلقامة؟ قال: اشتكىٰ. قال: قد علمتُ أنّ أكله سيورِثَه داءً. قال جويرية بن أسماء: قدِم أبو موسىٰ الأشعريّ علىٰ معاوية في برنس أسود فقال: السلام عليك يا أمين الله قال: وعليك السلام. فلما خرج قال معاوية: قدِم الشيخ لأوليه! واللّهِ لا أولّيه. وقال عمرو بن العاص لمعاوية: ألستُ أنصح الناس لك؟ قال: بذلك نلتَ ما نلتَ. وقال جويرية بن أسماء: كان بُسر بن أبي أرطاة عند معاوية فنال مِن عليّ وزيد بن عمر بن الخطاب حاضر وأمه أم كلثوم بنت عليّ فعلاه بالعصا وشجَّه. فقال معاوية لزيد: عمدتَ إلىٰ شيخٍ [من] قريش، وسيد أهل الشام فضربته! وأقبل علىٰ بُسر فقال: تشتم عليًّا وهو جده! وهو ابن الفاروق علىٰ رؤوس الناس! أترىٰ أنْ يصبرَ علىٰ ذلك!

فأرضاهما جميعاً. وقال معاوية: إني لأرفعُ نفسي مِنْ أنْ يكون ذنب أعظم مِن عفوي، وجهل أكبر من حِلمِي، وعَورة لا أواريها بستري، وإساءة أكثر مِن إحساني. وقال معاوية لعبد الرحمن بن الحكم: يا بن أخي إنك قد لهجتَ بالشعر فإياك

والتشبيب بالنساء فتعر الشريفة، والهجاء فتعرّ كريماً، وتستثير لئيماً، والمدح فإنّه طعمة الوقاح. ولكن ٱفْخَرْ بمفاخر قومك، وقُلْ مِنْ الأمثال ما تزيّن به نفسك وتؤدّب به غيرك.

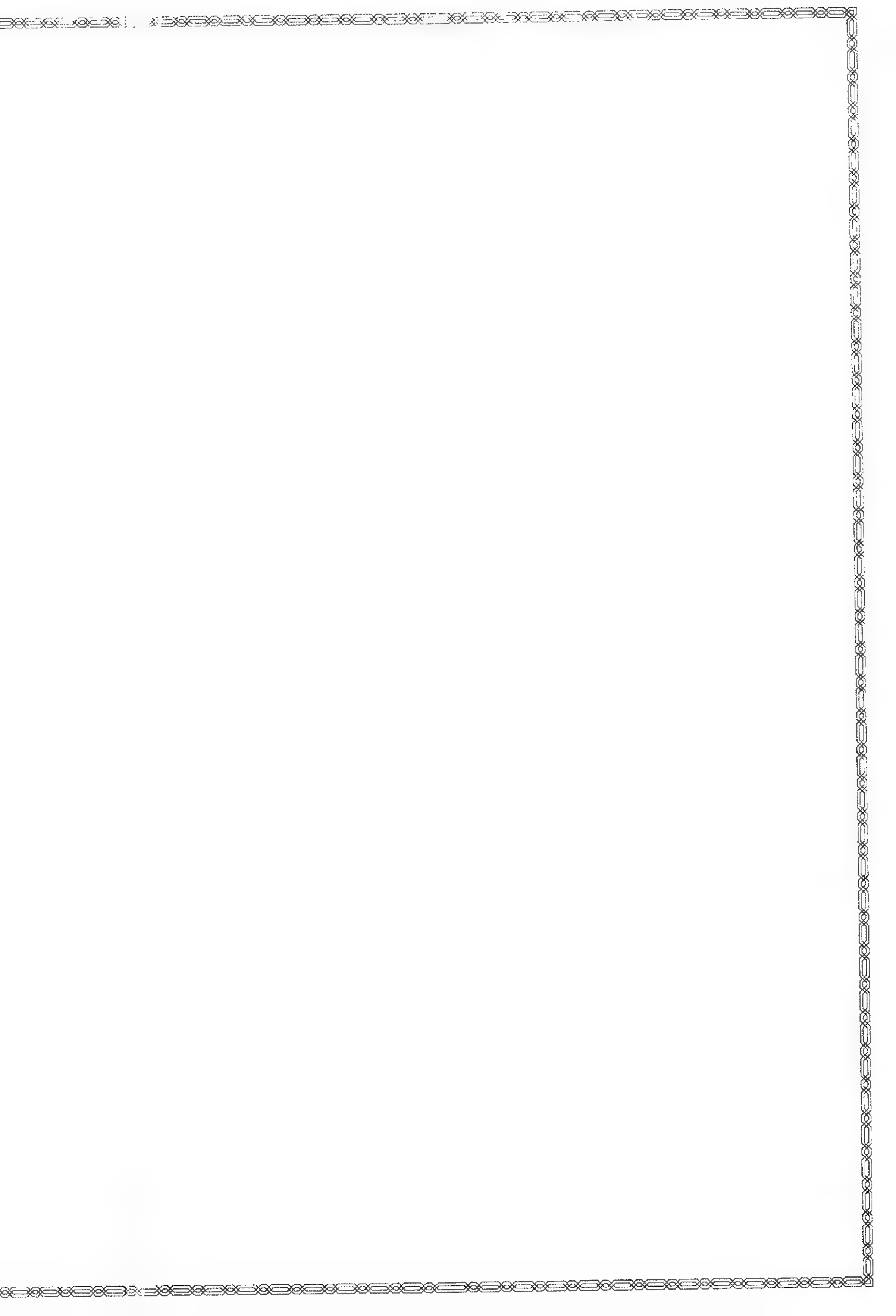
قال عبدالله بن صالح: قيل لمعاوية: أيُّ الناس أحبّ إليك. قال: أشدهم لي تحبيباً إلىٰ الناس. وقال معاوية: العقل، والحلم، والعلم أفضل ما أعطي العباد، فإذا ذُكِّر ذَكَر، وإذا أعطي شكر، وإذا ابتلي صبر، وإذا غضب كَظَم، وإذا قدر غفر، وإذا أساء استغفر، وإذا وعد أنجز. قال عبدالله بن عمير: أغلَظَ لمعاوية رجلٌ فأكثر فقيل له: أتحلم عن هذا؟! فقال: إني لا أحولُ بين الناس وبين ألسنتهم ما لم يحولوا بيننا وبين مُلْكِنَا. وقال محمد بن عامر: لام معاوية عبدالله بن جعفر علىٰ الغناء فدخل عبدالله على معاوية ومعه بديح ـ ومعاوية قد وضع رِجْلاً علىٰ رِجْل فقال عبدالله لبديح: إيه يا بديح، فتغنّىٰ، فحرّكَ معاوية رِجْلَه، فقال عبدالله: [مَهْ][1] يا أمير المؤمنين. فقال معاوية: إنَّ الكريمَ طروب. قال ابن عباس: ما رأيتُ أخلق للمُلْكِ من معاوية إنْ كان ليردّ الناس منه [علىٰ] أرجاء وادٍ رحب ولم يكن كالضيِّق الحصحص الحسر ـ يعني ابن الزبير ـ وكان مغضباً. وقال صفوان بن عمرو: مَرَّ عبدُ الملك بقبر معاوية فوقف عليه فترحّم فقال رجل: قبر مَنْ هذا؟ فقال: قبر رجل كان واللّهِ فيما علمته ينطق عن عِلْم ويسكت عن حِلْم إذا أعطى أغنىٰ، وإذا حارب أفنىٰ، ثم عجل له الدهر ما أخّره لغيره ممن بعده: هذا قبر أبي عبد الرحمن معاوية.

ومعاوية أوّل خليفة بايع لولده في الإسلام، وأول مَنْ وضع البريد، وأول مَنْ سمّىٰ الغالية التي تتخذ من الطيبب «غالية» وأول مَنْ عمل المقصورة في المساجد، وأول مَنْ خطب جالساً في قول بعضهم.

---

(١) أي: كُفّ.

يَــزِيْــد
ابن معــاويــة بــن أبي
سفيان



ذكر بيعة يزيد

قيل: وفي رجب مِن هذه السنة بُويع يزيد بالخلافة بعد موت أبيه علىٰ ما سبق مِن الخلاف فيه. فلما تولىٰ كان علىٰ المدينة الوليد بن عتبة بن أبي سفيان، وعلىٰ مكة عمرو بن سعيد بن العاص، وعلىٰ البصرة عبيدالله بن زياد، وعلىٰ الكوفة النعمان بن بشير، ولم يكن ليزيد هِمَّة [حين ولي] إلاّ بيعة النفر الذين أبوا علىٰ معاوية بيعته. فكتب إلىٰ الوليد يخبره بموت معاوية، وكتاباً آخر صغيراً فيه: (أمّا بعد فَخُذ حُسَيْناً وعبدالله بن عمر، وابن الزبير بالبيعة أخذاً ليس فيه رُخْصَة حتىٰ يبايعوا والسلام).

فلما أتاه نعيّ معاوية فظع به، وكبر عليه، وبعث إلىٰ مَرْوان بن الحكم فدعاه ـ وكان مروان عاملاً علىٰ المدينة مِن قِبل الوليد فلمّا قدمها الوليد كان مروان يختلف إليه متكارهاً فلما رأىٰ الوليد ذلك منه شتمه عند جلسائه، فبلغ ذلك مَرْوان فانقطع عنه ولم يزل مصارماً له حتىٰ جاء نعي معاوية.

فلما عظم علىٰ الوليد هلاكَه وما أُمَرَ به مِن بيعة هؤلاء النفر استدعىٰ مروان فلمّا قرأ الكتاب بموت معاوية استرجع وترحّم عليه، واستشاره الوليد كيف يصنع قال: أرىٰ أنْ تدعوهم الساعة وتأمرهم بالبيعة فإنْ فعلوا قَبِلْتَ منهم وكففتَ عنهم، وإنْ أبوا ضربتَ أعناقهم قبل أنْ يعلموا بموت معاوية فإنّهم إنْ عَلِموا بموته وَثَبَ كلُّ رجلٍ منهم بناحيةٍ وأظهر الخلاف ودعا إلىٰ نفسه، أما ابن عمر فلا يرىٰ القتال ولا يحب أنْ يلي علىٰ الناس إلاّ أنْ يُدْفَعَ إليه هذا الأمر عفواً.

فأرسل الوليد عبدالله بن عمرو بن عثمان ـ وهو غلامٌ حَدَث إلىٰ الحسين، وابن الزبير يدعوهما فوجدهما في المسجد وهما جالسان فأتاهما في ساعةٍ لم يكن الوليد يجلس فيها للناس فقال: أجيبا الأمير. فقالا: انصرفْ، الآن نأتيه. وقال ابن الزبير

للحسين: ما تراه بعث إلينا في هذه الساعة التي لم يكن يجلس فيها؟ فقال الحسين: أظن أنّ طاغِيَتَهم قد هَلك، فبعث إلينا ليأخذنا بالبيعة قبل أنْ يَفْشُو في الناس الخبر. فقال: وأنا ما أظنُّ غيره فما تريد أنْ تصنع؟ قال الحسين: أجمع فتياني الساعة ثم أمشي إليه وأُجلسهم على الباب وأدخل عليه؟ قال: فإنّي أخافه عليك إذا دخلتَ. قال: لا آتيه إلاّ وأنا قادرٌ على الامتناع. فقام فجَمَعَ إليه أصحابَه وأهلَ بيته ثم أقبل على باب الوليد وقال لأصحابه: إني داخلٌ فإذا دعوتُكم أو سمعتم صوتي قد علا فادخلوا عليّ بأجمعكم وإلاّ فلا تبرحوا حتى أخرجَ إليكم. ثم دخل فسلّم ـ ومروان عنده ـ فقال الحسين: الصلةُ خيرٌ من القطيعة، والصلحُ خيرٌ مِن الفساد، وقد آن لكما أنْ تجتمعا أصلح اللّهُ ذاتَ بينكما. وجلس، فأقرأه الوليد الكتاب ونعى له معاوية ودعاه إلى البيعة فاسترجع الحُسَين وترحّم على معاوية وقال: «أمّا البيعة فإنّ مِثْلِي لا يبايع سرًّا ولا يجتزىء بها منّي سِرًّا فإذا خرجتُ إلى الناس ودعوتهم للبيعة ودعوتَنا معهم كان الأمرُ واحداً. فقال له الوليد وكان يحبُّ العافية: انصرفْ. فقال له مروان: لئن فارَقَكَ الساعة ولم يبايع لا قدرتَ منه على مِثلها أبداً حتى تكثرَ القتلى بينكم وبينه. آحبسْه فإنْ بايع وإلاّ ضربتَ عنقَه. فوثَب عند ذلك الحسين. وقال: ابنَ الزرقاء أأنت تقتلني أم هو! كذبتَ واللّهِ ولَؤُمْتَ. ثم خرج حتى أتى منزله فقال مروانُ للوليد: عصيتَني! لا والله لا يمكنك مِن نفسه بمثلها أبداً. فقال الوليد: ويحَ غيرك يا مروان! واللّهِ ما أحبُّ أنّ لي ما طلعتْ عليه الشمسُ وغربتْ عنه مِن مالِ الدنيا ومُلكها وأنّي قتلتُ حُسَيْناً إنْ قال: لا أبايع. واللّهِ إنّي لا أظنُّ أنّ امرأً يحاسَب بدم الحسين لخفيف الميزان عندَ اللّهِ يوم القيامة. قال مروان: قد أصبتَ! يقول له هذا وهو غير حامد له على رأيه.

وأمّا ابن الزبير فقال: الآن آتيكم، ثم أتى داره فكمن فيها ثم بعثَ إليه الوليد فوجده قد جَمَعَ أصحابه واحترز فألحّ عليه الوليد وهو يقول: أمهلوني، فبعث إليه الوليد مواليَه فشتموه وقالوا له: يا بن الكاهليّة لَتَأْتِيَنّ الأمير أو ليقتلنّك. فقال لهم: واللّهِ لقد استربتُ لكثرة الإرسال، فلا تعجلوني حتى أبعثْ إلى الأمير مَنْ يأتيني برأيه. فبعث إليه أخاه جعفر بن الزبير فقال: رَحِمَكَ اللّهُ كُفَّ عن عبدالله فإنّك قد أفزعته وذعرتَه [بكثرة رُسُلِكَ] وهو يأتيك غداً إنْ شاءَ اللّهُ. فمُرْ رُسُلَكَ فلينصرفوا عنه. فبعث إليهم فأنصرفوا.

وخرج ابن الزبير مِنْ ليلته فأخذ طريقَ الفرع هو وأخوه جعفر ليس معهما ثالث

وساروا نحو مكة فسرّح الرجال في طلبه فلم يدركوه فرجعوا وتشاغلوا به عن الحسين ليلتهم، ثم أرسل الرجالُ إلىٰ الحسين فقال لهم: أصبحوا ثم تَرَوْنَ ونَرَىٰ. وكانوا يبقون عليه فكفُّوا عنه فسار مِنْ ليلته، وكان مَخْرَج ابن الزبير قَبْلَه بليلة وأخذ معه بنيه، واخوته، وبني أخيه وجُلّ أهل بيته إلاّ محمد بن الحنفية فإنّه قال له[1]: يا أخي أنت أحبّ الناس إليّ وأعزّهم عليّ، ولستُ أدّخر النصيحةَ لأحدٍ مِن الخَلْقِ أحقّ بها مِنْك. تَنَحَّ ببيعتك عن يزيد وعن الأمصار ما استطعتَ، وأبعثْ رُسُلَكَ إلىٰ الناس وآدعهم إلىٰ نفسِك فإنْ بايعوا لك حمدتُ اللّهَ علىٰ ذلك وإنْ أجمع الناسُ علىٰ غيرك لم ينقص الله بذلك دينَك ولا عقلَك ولا تذهب به مروءتك ولا فضلك. إنّي أخافُ أنْ تأتيَ مِصْراً أو جماعة من الناس فيختَلِفوا عليك، فمنهم طائفة معك وأخرىٰ عليك فيقتتلون فتكون لأول الأسنة فإذا خير هذه الأمة كلها نفساً وأباً وأمّاً أضيعها دماً وأذلّها أهلاً. قال الحسين: فأين أذْهَب يا أخي؟ قال: آنزلْ مكّة فإن اطمأنَّتْ بك الدارُ فبسبيل ذلك وأن نَأتْ بك لحقتَ بالرمال وشَعَف الجبال، وخرجتَ مِنْ بلدٍ إلىٰ بلد حتىٰ تنظر إلىٰ ما يصيرُ أمرُ الناس ويفرق لك الرأي فإنّك أصوب ما يكون رأياً وأحزمه عملاً حين تستقبل الأمور استقبالاً ولا تكون الأمور [عليك] أبداً أشكل منها حين تستدبرها. قال: يا أخي قد نصحتُ وأشفقتُ، وأرجو أنْ يكون رأيك سديداً وموفقاً إنْ شاءَ الله. ثم دخل المسجد وهو يتمثل بقول يزيد بن مفرِّغ:

لا ذَعَـرْتُ السَّـوامَ في شَفَقِ الصُّبْـ ... ـحِ مُغِيـراً ولا دُعِـيتُ يَـزِيـدَا
يـومَ أُعْـطَىٰ مِن المهـانـةِ ضَيْمـاً ... والمنـايا يَـرْصُدْنَني أن أحِيـدا[2]

ولما سار الحسين نحو مكة قرأ: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفاً يَتَرَقَّب﴾ الآية[3]، فلما دخل مكة قرأ ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ﴾ الآية[4]. ثم إنّ الوليد أرسلَ إلىٰ ابن عمر ليبايع فقال: إذ بايَعَ الناسُ بايعتُ. فتركوه وكانوا لا يتخوفونه. وقيل: إنّ ابن عمر كان هو وابن عباس بمكّة فعادا إلىٰ المدينة فلقيَهما الحسين وابن الزبير فسألاهما ما وراءكما فقالا: مَوْت

---

(١) القائل محمد ابن الحَنفيّة.

(٢) الأغاني: ١٧/٥١.

(٣) القصص: ٢١.

(٤) القصص: ٢٢.

معاوية وبيعة يزيد. فقال ابن عمر: لا تُفَرِّقَا جماعةَ المسلمين. وقدم هو، وابن عباس المدينة فلما بايَع الناسُ بايَعَا. قال: ودخل ابنُ الزبير مَكّة وعليها عَمرو بن سعيد فلمّا دَخَلَها قال: أنا عائذٌ بالبيت ـ ولم يكن يصلي بصلاتهم ولا يفيض بإفاضَتِهِم وكان يقف هو وأصحابه ناحية.

ذكر عزل الوليد عن المدينة وولاية عمرو بن سعيد

في هذه السنة عُزِل الوليد بن عتبة عن المدينة عَزَله يزيد، واستعمل عليها عَمرو بن سعيد الأشدق فقَدِمها في رمضان فدَخَل عليه أهلُ المدينة ـ وكان عظيم الكبر، واستعمل علىٰ شرطته عَمْرو بن الزبير لِمَا كان بينه وبين أخيه عبدالله مِن البغضاء، فأرسل إلىٰ نَفَرٍ من أهْلِ المدينة فضربهم ضرباً شديداً لِهَواهُم في أخيه عبدالله، منهم أخوه المنذر بن الزبير، وابنه محمد بن المنذر، وعبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث، وعثمان بن عبدالله بن حكيم بن حزام، ومحمد بن عمار بن ياسر، وغيرهم فضربهم الأربعين إلىٰ الخمسين إلىٰ الستين فاستشار عَمرو بن سعيد عَمَرو بن الزبير فيمن يرسله إلى أخيه فقال: لا توجهْ إليه رجلاً أَنْكَأ له مني. فجهزَ معه الناس وفيهم أنيس بن عَمرو الأسلميّ في سبعمائة فجاءَ مروان بن الحكم إلىٰ عَمرو بن سعيد فقال له: لا تغز مكة واتقِ الله ولا تحلّ حُرمة البيت، وخلوا ابن الزبير فقد كبر وله ستون سنة وهو لجوج. فقال عَمرو بن الزبير: واللّهِ لنغزونّه في جوف الكعبة علىٰ رغم أنف مَنْ رغم. وأتىٰ أبو شريح الخزاعيّ إلىٰ عَمرو فقال له: لا تغز مكة فإنّي سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إنّما أُذِنَ لي بالقتال فيها ساعة مِن نهار ثم عادتْ كحُرْمَتِهَا بالأمس» فقال له عمرو: نحن أعلم بحرمتها منك أيها الشيخ. فسار أنيس في مقدمته.

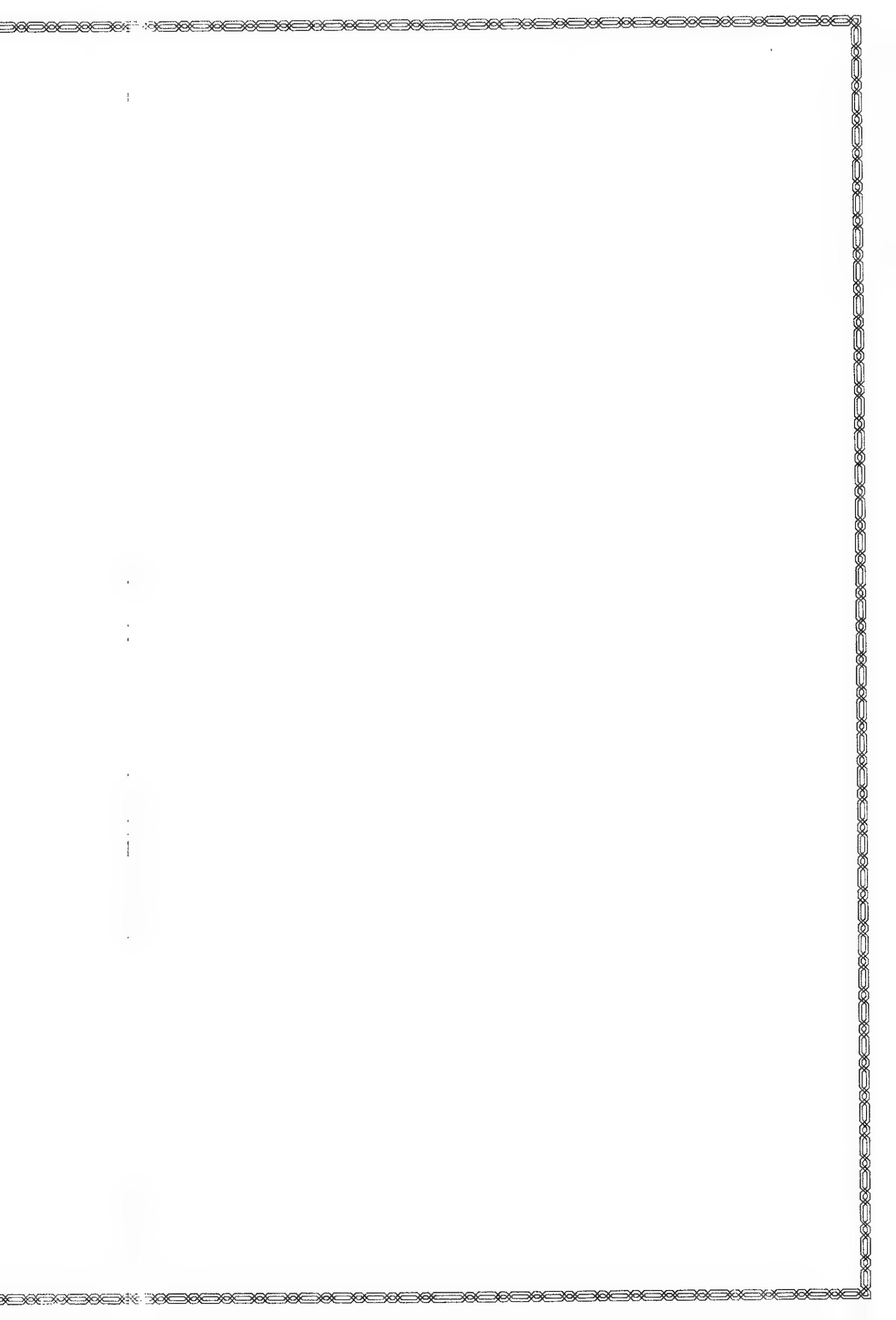
وقيل: إنّ يزيد كتب إلىٰ عمرو بن سعيد ليرسل عَمرو بن الزبير إلىٰ أخيه عبدالله ففعل فأرسله ومعه جيش نحو أَلْفَي رجل، فنزل أنيس بذي طوىٰ ونزل عمرو بالأبطح فأرسل عَمرو إلىٰ أخيه بريمين يزيد وكان حلف أنْ لا يقبل بيعته إلاّ أنْ يؤتىٰ به في جامعة وتعالَ حتىٰ أجعل في عنقك جامعة مِن فضة لا تُرَىٰ ولا يضرب الناسُ بعضَهم بعضاً فإنّك في بلدٍ حرام. فأرسل عبدالله بن الزبير عبدالله بن صفوان نحو أنيس فيمن معه من أهل مكة ممن اجتمع إليه فهزمه ابن صفوان بذي طوىٰ وأجهز علىٰ جريحهم، وقتل أنيس بن عمرو، وسار مصعب بن عبد الرحمن إلىٰ عَمْرو بن الزبير فتفرّق عن عمرو

وأصحابه فدخل دار ابن علقمة فأتاه أخوه عبيدة فأجاره، ثم أتىٰ عبدالله فقال له: إنّي قد أجرتُ عَمْراً. فقال: أتجيرُ مِنْ حقوقِ الناس! هذا مالا يصلح، وما أمرتُك أنْ تجير هذا الفاسق المستحلّ لحرماتِ الله. ثم أقاد عَمْراً مِن كل مَنْ ضربه إلّا المنذر وابنه فإنهما أبيا أنْ يستقيدا ومات تحت السياط [الجامعة الغُلّ - بضم الغين المعجمة - ما يوضع باليد أو العنق].

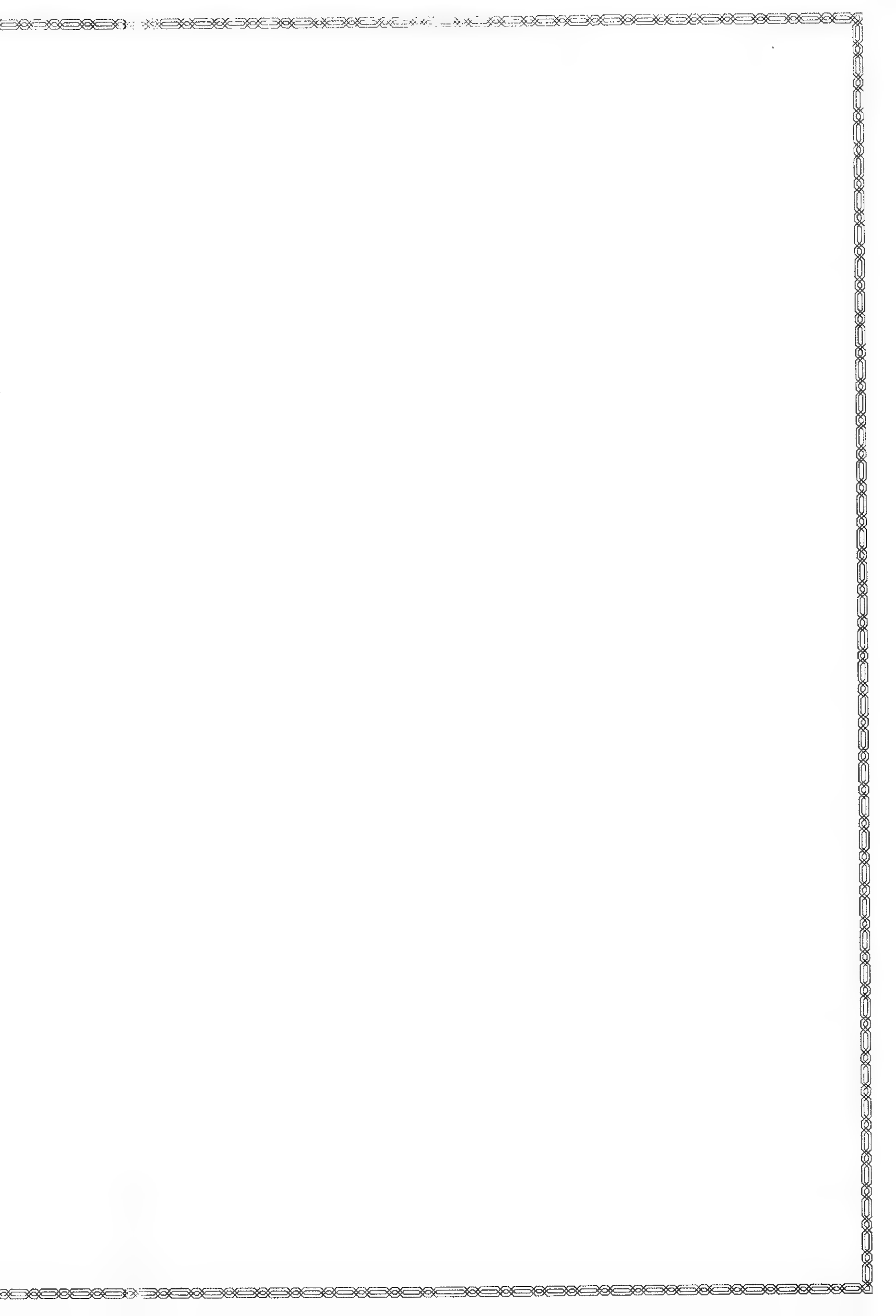
ذكر الخبر عن مراسلة الكوفيين الحسين بن عليّ ليسير إليهم وقَتل مسلم بن عقيل

لمّا خرج الحُسين مِن المدينة إلىٰ مَكّة لقيه عبدالله بن مطيع فقال له: جُعِلْتُ فِداءك أين تريد؟ قال: أمّا الآن فمكة، وأمّا بعد فإنّي استخيرُ الله. قال: خارَ اللّهُ لك، وجعلنا فداءك فإذا أتيتَ مكة فإيّاك أنْ تَقْرَبَ الكوفة فإنها بلدةٌ مشؤومة بها. قُتل أبوك وخُذِل أخوك. وأعتل بطعنةٍ كادتْ تأتي علىٰ نفسِهِ، آلزمْ الحرم فإنّك سيدُ العرب لا تعدلُ بك أهلُ الحجاز أحدًا، ويتداعىٰ إليك الناسُ مِنْ كل جانبٍ. لا تفارقِ الحرمَ فَدَاكَ عَمّي وخالي فوالله لئن هلكتَ لَنُسْتَرَقَّنَّ بعدك.

فأقبل حتىٰ نزل مكة وأهلها يختلفون إليه ويأتونه، ومَنْ بها من المعتمرين، وأهل الآفاق، وابن الزبير بها قد لزِم جانب الكعبة فهو قائمٌ يصلي عندها عامّة النهار، ويطوفُ، ويأتي الحسين فيمن يأتيه، ولا يزال يشيرُ عليه بالرأي وهو أثقل خلق الله علىٰ ابن الزبير لأنّ أهلَ الحجاز لا يبايعونه ما دامَ الحسينُ باقياً بالبلد .



خـروج الحسين رضي
الله عنه
و
معركة
كَــرْبِلاء



[دعوة أهل الكوفة الحسين لمبايعته]

ولمّا بلغ أهلَ الكوفة موتُ معاوية وامتناع الحسين ، وابن عمر ، وابن الزبير عن البيعة أرجفوا بيزيد ،واجتمعت الشيعةُ في منزل سليمان بن صرد الخزاعي فذكروا مسير الحسين إلى مكة،وكتبوا إليه عن نفر منهم : سليمان بن صرد الخزاعي ، والمسيب بن نجبة ، ورفاعة بن شداد ، وحبيب بن مظاهر ، وغيرهم :

« بسم الله الرحمن الرحيم . سلامٌ عليك ، فإننا نحمد اليك الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد ، فالحمدلله الذي قَصَمَ عدوك الجبار العنيد الذي انتزى على هذه الأمة فابتزها أمرها وغصبها فَيْئَها ، وتأمّر عليها بغير رضاً منها ثم قَتَلَ خيارَهَا ، واستبقىٰ شرارها ، وإنّه ليس علينا إمام فأَقْبِلْ لعل الله أنْ يجمعنا بك على الحق .

والنعمانُ بن بشيرٍ في قصر الإمارة لسنا نجتمع معه في جمعة ، ولا عيد ، ولو بلغنا إقبالك إلينا أخرجناه حتىٰ نُلحِقَه بالشام إنْ شاء الله تعالىٰ . والسلام عليك ورحمة الله وبركاته » .

وسيرّوا الكتاب مع عبدالله بن سبع الهمداني ، وعبدالله بن وأل ، ثم كتبوا إليه كتاباً آخر وسيّروه بعد ليلتين ، فكتب الناسُ معه نحواً من مائة وخمسين صحيفة ، ثم أرسلوا إليه رسولاً ثالثاً يحثّونه علىٰ المسير إليهم .

ثم كتب إليه شبث بن ربعي ، وحجار بن أبجر ، ويزيد بن الحارث ، ويزيد بن رويم ، وعُروة بن قيس ، وعمرو بن الحجاج الزبيـديّ ، ومحمد بن عميـر التميميّ بذلك .

فكتب إليهم الحسين عند اجتماع الكُتُب عنده : « أمّا بعد : فقد فهمتُ كـلَّ الذي أقتصصتم ، وقد بعثتُ إليكم بأخي ، وابن عمي ، وثقتي مِنْ أهل بيتي مسلم بن

عقيل » وأَمَرْتُهُ أنْ يكتب إليَّ بحالكم ، وأمركم ، ورأيكم فإنْ كَتَبَ إليَّ أنه قد اجتمع رأيُ ملئكم وذوي الحجىٰ منكم علىٰ مِثل ما قدمتْ به رسلكم أَقْدُم إليكم وشيكاً إنْ شاء الله . **فلعمري ما الامامُ إلا العاملُ بالكتاب ، والقائم بالقسط ، والدائن بدين الحق والسلام »** .

واجتمع ناسٌ من الشيعة بالبصرة في منزل آمرأةٍ من عبد القيس يقال لها « مارية بنت سعد » ، وكانت تتشيع وكان منزلها لهم مألفاً يتحدثون فيه .

فعزم يزيد بن نبيط علىٰ الخروج إلىٰ الحسين ـ وهو من عبد القيس ـ وكان له بنون عشرة فقال : أيكم يخرج معي ؟ فخرج معه ابنان له : عبدالله ، وعبيدالله فساروا فقدموا عليه بمكة ، ثم ساروا معه فقُتلوا معه ، ثم دعا الحسين مسلم بن عَقِيل فسيّره نحو الكوفة وأَمَرَه بتقوىٰ الله ، وكتمان أمرِهِ ، واللطف فإنْ رأىٰ الناس مجتمعين له عَجّل إليه بذلك .

فأقبل مسلم إلىٰ المدينة فصلىٰ في مسجد رسول الله ﷺ وودّع أهلَه ، واستأجر دليلين مِن قيس فأقبلا به فَضَلّا الطريق ، وعطشوا فمات الدليلان من العطش ، وقالا لمسلم : هذا الطريق إلى الماء فكتب مسلم إلىٰ الحسين : « إنّي أقبلتُ إلىٰ المدينة ، واستأجرتُ دليلَيْن فَضَلّا الطريق ، واشتد عليهما العطش فماتا وأقبلنا حتىٰ آنتهينا إلىٰ الماء فلم ننجُ إلا بحشاشة أنفسنا وذلك الماء بمكان يدعىٰ « المضيق » من بطن الخُبَيْت وقد تطيرتُ [من وجهي هذا] فإنْ رأيتَ أعفيتني ، وبعثتَ غيري .

فكتب إليه الحسين أما بعد ، فقد خشيتُ أنْ لا يكون حَمَلَك علىٰ الكتاب إليّ إلاّ الجبن فامضِ لوجهك والسلام .

فسار مسلم حتىٰ أتىٰ الكوفة ، ونزل في دار المختار ـ وقيل غيرها ـ وأقبلت الشيعةُ تختلفُ إليه فكلما اجتمعتْ إليه جماعة منهم قرأ عليهم كتاب الحسين فيبكون ، ويعدونه مِن أنفسهم القتال والنُّصْرَة ، واختلفتْ [إليه] الشيعةُ حتى علم بمكانه ، وبلغ ذلك النعمان بن بشير ـ وهو أمير الكوفة ـ فصعد المنبر فقال : (أما بعد : فلا تسارعوا إلىٰ الفتنة والفرقة فإن فيهما تهلكُ الرجال، وتُسفك الدماء، وتغصَب الأموال) وكان حليماً ناسكاً يحب العافية .

ثم قال : (إني لا أقاتلُ مَنْ لم يقاتِلني ، ولا أَثِبُ علىٰ من لا يثب عليّ ، ولا أنبه نائمكم ، ولا أتحرّش بكم ، ولا آخذ بالقرف[١] ، ولا الظنة ، ولا التهمة ، ولكنكم إنْ أبديتم صفحَتَكُم ونكثتم بيعتكم ، وخالفتم إمامكم فوالله الذي لا إله إلا غيره لأضربنكم بسيفي ما ثبتَ قائمه بيدي ، ولم يكن لي منكم ناصرٌ ولا مُعين ، أما إني أرجو أن يكونَ مَنْ يعرفُ الحق منكم أكثر ممن يُرْديه الباطل) .

فقام إليه عبدالله بن مسلم بن سعيد الحضرميّ حليف بني أمية فقال : (أنه لا يصلح ما ترىٰ إلا الغشم . إنّ هذا الذي أنت عليه رأيُ المستضعفين) . فقال : لأن أكون من المستضعفين في طاعة أحبُّ إليَّ من أن أكون من الأعزين في معصية الله) ونزل .

فكتب عبدالله بن مسلم إلىٰ يزيد يخبره بقدوم مسلم بن عقيل الكوفة ومبايعة الناس له ويقول له : « إنْ كان لك في الكوفة حاجة فابعثْ إليها رجلاً قوياً ينفذ أمرك ويعمل مثل عملك في عدوك فإنّ النعمان رجلٌ ضعيف أو هو يتضعف » وكان هو أول من كتب إليه .

ثم كتب إليه عمارة بن الوليد بن عقبة . وعَمرو بن سعد بن أبي وقاص بنحو ذلك ، فلما اجتمعت الكتبُ عند يزيد دعا سرجون مولىٰ معاوية فأقرأه الكتب واستشاره فيمن يوليه الكوفة وكان يزيد عاتباً علىٰ عبيدالله بن زياد فقال له سرجون : أرأيتَ لو نُشر لك معاوية كنتَ تأخذُ برأيه ؟ قال : نعم .

فأخرج عهد عبيدالله علىٰ الكوفة فقال : هذا رأيُ معاوية ، ومات وقد أمرَ بهذا الكتاب .

فأخذ برأيه وجمع الكوفة والبصرة لعبيدالله ، وكتب إليه بعهده ، وسيَّره إليه مع مسلم بن عمرو الباهلي والد قتيبة فأمره بطلب مسلم بن عقيل وبقتله أو نفيه ، فلما وَصَلَ كتابُه إلىٰ عبيدالله أمر بالتجهز ليبرز من الغد .

وكان الحسين قد كتب إلىٰ أهل البصرة نسخةً واحدةً إلىٰ الأشراف ، فكتب إلى

---

(١) قَرَفَه : اتهمه ، والقرف المصدر ، وقرفه بالشيء رماه به .

مالك بن مسمع البكريّ ، والأحنف بن قيس ، والمنذر بن الجارود ، ومسعود بن عمرو ، وقيس بن الهيثم ، وعمر بن عبيدالله بن معمر يدعوهم إلى كتاب الله وسنة رسوله ، وأنّ السنة قد ماتت ، والبدعة قد أحييت ، فكلهم كتموا كتابه إلّا المنذر بن الجارود فإنّه خاف أنْ يكون دسيساً من ابن زياد فأتاه بالرسول والكتاب فضرب عنقَ الرسول ، وخطب الناس ، وقال : « أمّا بعد فوالله ما بي تقرن الصعبة ، وما يقعقع لي بالشنان ، وإنّي لنكل لمن عاداني ، وسلم لمن حاربني ، وأنصف القارة مَنْ راماها يا أهل البصرة إنّ أمير المؤمنين قد ولّاني الكوفة ،وأنا غادٍ إليها بالغداةِ،وقد استخلفتُ[1] عليكم أخي عثمان بن زياد فإياكم الخلاف والإرجاف فوالله لئن بلغني عن رجلٍ منكم خلافٌ لأقتلنه ، وعريفه ، ووليه ، ولآخذن الأدنى بالأقصىٰ حتىٰ تستقيموا ، ولا يكون فيكم مخالف ولا مشاقّ ، وإنيّ انا ابن زياد أشبهته مِنْ بين مَنْ وطىء الحصىٰ فلم ينتزعني شبه خال ولا ابن عم » .

ثم خرج من البصرة ومعه مسلم بن عمرو الباهلي ، وشريك بن الأعور الحارثي ، وحشمه ، وأهل بيته ، وكان شريك شيعيّاً ـ وقيل : كان معه خمسمائة ـ فتساقطوا عنه فكان أوّل مَنْ سقط [في الناس] شريك ورجوا أنْ يقف عليهم ويسبقه الحسين إلىٰ الكوفة فلم يقف علىٰ أحدٍ منهم حتىٰ دخل الكوفة وحدَه فجعل يمرّ بالمجالس فلا يَشُكُّون أنّه الحسين فيقولون : « مرحبا بك يا بن رسول الله » وهو لا يكلمهم ، وخرج إليه الناس مِنْ دورهم فساءه ما رأىٰ منهم ، وسمِع النعمان فأغلق عليه الباب وهو لا يشكّ أنه الحسين ، وانتهىٰ إليه عبيدالله ومعه الخلق يصيحون فقال له النعمان : « أنشدك الله ، ألا تنحيت عني فوالله ما أنا بمسلم إليك أمانتي ، ومالي في قتالِك مِن حاجة » فدنا منه عبيدالله وقال له : « افتْح لا فتحتَ فسمِعها إنسانٌ خلفَه فرجع إلى الناس وقال لهم : « إنّه ابن مرجانة » ففتح له النعمان فدخل ، وأغلقوا البابَ ، وتفرَّق الناسُ ، وأصبح فجلسَ علىٰ المنبر ـ وقيل : بل خطبهم من يومه ـ فقال : أمّا بعد فإن أمير المؤمنين وَلّاني مِصْرَكم ، وثغركم ، وفيئكم ، وأمرني بإنصاف مظلومكم ، وإعطاء محرومكم ، وبالإحسان إلىٰ سامعكم ومطيعكم ، وبالشدة علىٰ مريبكم وعاصيكم ، وأنا متبعٌ فيكم أمرَه ، ومنفذ فيكم عهده ، فأنا لمحسنكم كالوالد

---

(١) في الأصل : (وقد استخلف) ـ وهو غلط . (م) .

البر ، ولمطيعكم كالأخ الشقيق ، وسيفي وسوطي علىٰ مَنْ ترك أمري وخالف عهدي ، فليبقِ امرؤ على نفسه » ثم نزل .

فأَخَذَ العرفاءَ والناسَ أخذاً شديداً ، وقال : « اكتبوا لي الغُرَبَاء ومَنْ فيكم مِن طلبةِ أمير المؤمنين ، ومَنْ فيكم مِنْ الحرورية وأهل الريب الذين رأيهم الخلاف والشقاق ، فَمَنْ كتبهم إليَّ فبرىء ، ومَنْ لم يكتب لنا أحداً فليضمن لنا ما في عرافته أنْ لا يخالفنا فيهم مخالف ، ولا يبغ علينا منهم باغ فمَنْ لم يفعل فبرئت منه الذمة وحلال لنا دمه وماله ، وأيمّا عريف وجد في عرافته مِنْ بغية أمير المؤمنين أحدٌ لم يرفعه إلينا صُلِبَ علىٰ باب داره ، وألغيت تلك العرافة من العطاء وسيّر إلىٰ موضع بعمان الزارة ثم نزل .

وسمع مسلم بمقالة عبيدالله فخرج من دار المختار ، وأتىٰ دار هانيء بن عُروة المراديّ فدخل بابه واستدعىٰ هانِئاً فخرج إليه فلمّا رآه كَرِهَ مكانَه فقال له مسلم : « أتيتُك لتُجيْرَني وتضيفني » . فقال له هانيء : لقد كلفتني شططاً ولولا دخولك داري لأحببتُ أن تنصرفَ عني غير أنّه يأخذني من ذلك ذمام[1] ، آدخل . فآواه ، فاختلفت الشيعة إليه في دار هانيء ، ودعا ابن زياد مولىٰ له وأعطاه ثلاثة آلاف درهم وقال له : اطلبْ مسلم بن عقيل وأصحابَه وأْلْفَهُم ، وآعطهم هذا المال ، وأعلمهم أنّك منهم ، وآعلم أخبارهم ففعل ذلك .

وأتى مسلم بن عوسجة الأسديّ بالمسجد فسمع الناس يقولون : هذا يبايع للحسين ـ وهو يصلي ـ فلما فرغ مِنْ صلاته قال له : يا عبدالله إنّي امرؤٌ مِنْ أهل الشام أَنْعَمَ الله عليَّ بحبِّ أهلِ هذا البيت ، وهذه ثلاثة آلاف درهم أردتُ بها لقاءَ رجلٍ منهم بلغني أنّه قدم الكوفة يبايع لابن بنت رسول الله ﷺ وقد سمعتُ نفراً يقولون أنك تعلم أمرَ هذا البيت ، وإني أتيتُك لتقبض المال وتدخلني علىٰ صاحبك أبايعه ، وإنْ شئت أخذتَ بيعتي له ، قَبْل لقائي إياه فقال : لقد سرني لقاؤك إياي لتنال الذي تحب وينصر الله بك أهل بيت نبيه ، وقد ساءني معرفة الناس هذا الأمر مني قبل أنْ يتمّ مخافة هذا الطاغية وسطوته ، فأخذ بيعته ، والمواثيق المعظّمة ليناصحن ، وليكتمن ، واختلف

---

(١) أي : ذَمّ .

اليه أياماً ليدخله علىٰ مسلم بن عقيل ، ومرض هانىء بن عروة فأتاه عبيدالله يعوده فقال له عمارة بن عبد السلولي : إنما جماعتنا وكيدنا قَتْل هذا الطاغية وقد أمكنك الله فاقتله . فقال هانىء : ما أحب أنْ يُقْتَلَ في داري .

وجاء ابن زياد فجلس عنده ثم خرج فما مكث إلّا جمعة حتىٰ مرض شريك بن الأعور وكان قد نزل علىٰ هانىء وكان كريماً على ابن زياد وعلىٰ غيره من الأمراء ، وكان شديد التشيّع قد شهد صفين مع عمار فأرسل إليه عبيدالله : إني رائحٌ إليك العشية . فقال لمسلم : إنّ هذا الفاجر عائدي العشيّة فإذا جلسَ آخرجْ إليه فآقتله ثم آقعدْ في القصر ليس أحدٌ يحولُ بينك وبينه فإنْ برئتُ مِن وجعي سرتُ إلىٰ البصرة حتىٰ أكفيك أمرَها .

فلما كان من العشيّ أتاه عبيدالله فقام مسلم بن عقيل ليدخل فقال له شريك : لا يفوتَنّك إذا جلس فقال هانىء بن عروة : لا أحبُّ أنْ يقتل في داري ، فجاء عبيدالله فجلس وسأل شريكاً عن مرضه فأطال ، فلما رأىٰ شريك أنّ مسلماً لا يخرج خشي أنْ يفوته فأخذ يقول :

مَا تَنْظُرُونَ بِسَلْمَىٰ لا تُحَيُّوهَا

اسقونيها وإنْ كانت بها نفسي . . . فقال ذلك مرتين أو ثلاثاً .

فقال عبيدالله : ما شأنه ترونه يُخَلِّط ! فقال له هانىء : نعم ما زال هذا دأبه قبيل الصبح حتىٰ ساعته هذه فآنصرفَ . وقيل : إنّ شريكاً لمّا قال : « اسقونيها » وخلط كلامه فَطِن به مهران فغمز عبيدالله فوثبَ فقال له شريك : أيها الأمير إني أريدُ أنْ أُوصِي إليك فقال : أعودُ إليك . فقال له مهران : إنّه أراد قتلك . فقال : وكيف مع إكرامي له في بيت هانىء ويد أبي عنده . فقال له مهران : هو ما قلت لك .

فلما قام ابن زياد خرج مسلم بن عقيل فقال له شريك : ما منعك مِنْ قتله ؟ قال : خَصلتان أما إحداهما فكراهية هانىء أنْ يقتل في منزله ، وأما الأخرى فحديث حدثه عليّ عن النبي ﷺ أنّ الإيمان قيد الفتك فلا يفتك مؤمنٌ بمؤمنٍ فقال له هانىء : لو قتلتَه لقتلتَ فاسقاً فاجراً كافراً غادراً .

ولبث شريك بعد ذلك ثلاثاً ثم مات ، فصلىٰ عليه عبيدالله ، فلما علم عبيدالله

أن شريكاً كان حرّض مسلماً على قتله قال : والله لا أصلي علىٰ جنازة عراقيّ أبداً ، ولولا أنّ قبر زياد فيهم لنبشت شريكاً .

ثم إنّ مولى ابن زياد الذي دسّه بالمال اختلف إلىٰ مسلم بن عوسجة بعد موت شريك فأدخله علىٰ مسلم بن عقيل فأخذ بيعته، وقبضَ مالـه، وجعل يختلف إليهم ويعلم أسرارهم وينقلها إلىٰ ابن زياد.

[مقتل هانيء بن عروة المرادي]

وكـان هانيء قـد انقطع عن عبيـدالله بعذُر المـرض فدعـا عبيدالله محمـد بن الأشعث ، وأسماء بن خارجة ـ وقيل : دعا معهما بعمرو بن الحجاج الزبيدي ـ فسألهم عن هانيء وانقطاعه فقالوا : إنّه مريض . فقال : بلغني أنه يجلس علىٰ باب داره وقد برأ فألقوه فمروه أنْ لا يدَعَ ما عليه في ذلك .

فأتوه فقالوا له : إنّ الأميرَ قد سأل عنك وقال: لو أعلم أنه شاكٍ لَعُدْتُهُ ، وقد بلغه أنّك تجلس علىٰ باب دارك وقد استبطأك والجفاء لا يحتمله السلطان . أقسمنا عليك لو ركبت معنا . فلبس ثيابه وركب معهم ، فلمّا دنا من القصر أحسّتْ نفسُه بالشرّ فقال لحسان بن أسماء بن خارجة : يا بنَ أخي إنّي لهذا الرجل لخائف فما ترىٰ ؟ فقال : ما أتخوفُ عليكِ شيئاً ، فلا تجعل علىٰ نفسِك سبيلاً ، ولم يعلم أسماء مما كان شيئاً ، وأما محمد بن الأشعث فإنّه علم به ، قال : فدخل القومُ علىٰ ابن زياد وهانيء معهم ، فلما رآه ابن زياد قال لشريح القاضي : **أتتك بحائن رجلاه** . فلما دنا منه قال عبيدالله :

أُرِيْـدُ حَيـاتَـه ويـريـدُ قَتْلِي ... عَذيرَكَ من خليلِك مِنْ مُرَادِ[1]

وكان ابن زياد مكرماً له فقال هانيء : وما ذاك . فقال : يا هانيء ما هذه الأمور التي تربص في دارِكِ لأمير المؤمنين والمسلمين ؟ جئتَ بمسلم فأدخلتَه دارَكَ وجمعتَ له السلاحَ والرجالَ وظننتَ أنّ ذلك يخفى [عليّ] لك ؟ قال : ما فعلتُ ؟ قال : بلىٰ . وطال بينهما النزاع ، فدعا ابن زياد مولاه ذاك العَيْن فجاء حتىٰ وقف بين يديه فقال: أتعرف هذا ؟ قال : نعم . وعلِم هانيء [عند ذلك] أنّه كان عَيْناً عليهم فسقط في يده ساعة ثم

---

(١) البيت لعمرو بن معد يكرب ـ انظر اللآلىء ١٣٨ .
وكذا في المطبوعة (حياته) !

راجعته نفسه قال : آسمع منّي وصدقني فوالله لا أكذبك والله ما دعوتُه ، ولا علمتُ بشيءٍ مِنْ أمره حتىٰ رأيتُه جالساً علىٰ بـابي يسألني النـزولَ عليّ فاستحييتُ مِنْ رَدِّه ولزمني مِنْ ذلك ذمام فأدخلته داري ، وضفته ، وقد كان مِنْ أمره الذي بلغك ، فإنْ شئتَ أعطيتُك الآنَ موثقاً تطمئنُّ به ورهينة تكونُ في يدك حتىٰ أنطلق وأخرجه من داري وأعودُ إليك فقال : لا والله لا تفارقني أبداً حتىٰ تأتيني به قال : لا آتيك بضيفي تقتله أبداً .

فلما كثُرَ الكلام قام مسلم بن عمرو الباهليّ ـ وليس بالكوفة شاميّ ولا بصريّ غيره ـ فقال : خلنّي وإيّاه حتىٰ أكلّمه لما رأىٰ من لجاجه ، وأخذ هانئاً وخَلاَ به ناحيةً من ابن زياد بحيث يراهما فقال له : يا هانيء أنشدكَ الله أنْ تقتل نفسك وتدخل البلاءَ على قومك . إنّ هذا الرجل ابن عم القوم وليسوا بقاتِليه ولا ضائريه فآدفعْه إليه فليس عليك بذلك مخزاة ولا منقصة ، إنّما تدفعه إلى السلطان . قال : بلى والله إنّ عليَّ في ذلك خزياً وعاراً . لا أدفع ضيفي وأنا صحيح شديدُ الساعد ، كثيرُ الأعوان والله لو كنتُ واحداً ليس لي ناصرٌ لم أدفعه حتىٰ أموت دونه .

فسمع ابنُ زياد ذلـك فقال: أدنـوه مني فأدنـوه منه فقـال: والله لتأتيني بـه أو لأضربنّ عنقك. قال: إذنْ والله تكثر البـارقةُ[1] حـولَ دارِك. وهو يـرىٰ أنّ عشيرتـه ستمنعه . فقال : أبالبارقةِ تخوفني ؟ وقيل : إنّ هانئاً لما رأىٰ ذلك الرجل الذي كان عيناً لعبيدالله علم أنّه قد أخبره الخبر فقال أيها الأمير قد كان الذي بلغك ، ولن أضيِّع يدك عندي وأنت آمنٌ وأهلك فسِرْ حيث شئتَ .

فأطرقَ عبيدالله عند ذلك ومهران قائمٌ علىٰ رأسه وفي يده معكزة فقال : واذلّاه ! هذا الحائكُ يؤمِّنُك في سلطانك . فقال : خُذه .

فأخذ مهران ضفيرتي هـانيء وأخذ عبيـدالله القضيب ، ولم يزل يضـرب أنفه وجبينَه وخدَّه حتىٰ كسَر أنفه ، وسيَّل الدماءَ علىٰ ثيابه ، ونثر لحم خديه وجبينه علىٰ لحيته حتىٰ كسر القضيب ، وضرب هانيء يدَه إلىٰ قائم سيف شرطيّ وجبذه فمنع منه فقال له عبيدالله : أَحَرُورِيٌّ! أحللتَ بنفسك وحَلَّ لنا قتلك. ثم أمرَ به فألقيَ في بيت

---

(١) أي السيوف .

وأغلق عليه ، فقام إليه أسماء بن خارجة فقال : أرسِلْه يا غادر أمرتَنا أنْ نجيئك بالرجل فلما أتيناك به هشمتَ وجهه وسيَّلت دماءَه وزعمت أنك تقتله : فأمر به عبيد الله فلُهِزَ وتُعْتِعَ ثم تُرِكَ فجلس[1] ، فأما ابن الأشعث فقال : رضينا بما رأىٰ الأميرُ لنا كان أو علينا .

وبلغ عمرو بن الحجاج أنّ هانئاً قد قُتل فأقبل في مذحج حتىٰ أحاطوا بالقصر ونادىٰ: «أنا عمرو بن الحجاج هذه فرسان مذحج ووجوهها لم نخلع طاعة ولم نفارق جماعة». فقال عبيدالله لشريح القاضي وكان حاضراً: آدخلْ علىٰ صاحبهم فآنظر إليه ثم آخرجْ إليهم فأعلمهم أنّه حَيٌّ ففعل شريح ، فلما دخل عليه قال لـه هانىء: «يـا للمسلمين أَهَلَكَتْ عشيرتي! أين أهلُ الدين! أين أهل النصر! أيحذرونني[2] عدوهم. وسمع الضجة فقال: «يا شريح : إنّي لأظنها أصوات مذحج وشيعتي مِن المسلمين إنه إنْ دخل عليَّ عشرة نفر أنقذوني».

فخرج شريح ومعه عين أرسله ابن زياد قال شريح : لولا مكان العين لأبلغتهم قول هانىء فلما خرج شريح إليهم قال : قد نظرتُ إلىٰ صاحبكم وإنّه حيٌ لم يُقتل . فقال عمرو : وأصحابه إذْ لم يقتل فالحمدُ لله . ثم انصرفوا .

وأتى الخبر مسلم بن عقيل فنادى في أصحابه يا منصور أمت وكان شعارهم وكان قد بايعه ثمانية عشر ألفاً وحوله في الدور أربعة آلاف فآجتمع إليه ناسٌ كثير فعقد مسلم لعبدالله بن عزيز الكنديّ على رُبع كندة وقال : سِرْ أمامي ، وعقد لمسلم بن عوسجة الأسديّ علىٰ رُبع مذحج واسد ، وعقد لأبي ثمـامة الصـائديّ علىٰ ربـع تميم ، وهمدان ، وعقد لعباس بن جعدة الجدليّ علىٰ ربع المدينة ، وأقبل نحو القصر .

فلما بلغ ابن زياد إقباله تحرّز في القصر ، وأغلق الباب ، وأحاط مسلم بالقصر ، وامتلاء المسجدُ والسوقُ من الناس ، وما زالوا يجتمعون حتىٰ المساء ، وضاق بعبيد الله أمرُه وليس معه في القصر إلاّ ثلاثون رجلاً من الشرط وعشرون رجلاً من الأشراف ، وأهل بيته ، ومواليه ، وأقبل أشراف الناس يأتون ابن زياد مِن قَبل الباب الذي يلي دار

---

(١) الطبري ٣٦٧/٥ : (ثم ترك فحبس) ـ وهي أوضح .

(٢) الطبري : (أيخلّوني وعدوهم) ـ وهي ظاهرة .

الروميين والناس يَسُبُّون ابن زياد وأباه، فدعا ابنُ زياد كثير بن شهاب الحارثيّ وأمره أنْ يخرج فيمن أطاعه مِن مذحج فيسير ويُخَذِّل الناس عن ابن عقيل ويخوّفهم، وأمر محمد بن الأشعث أنْ يخرج فيمن أطاعه مِن كندة وحضرموت فيرفع رايةَ أمان لمن جاءه مِن الناس، وقال مثل ذلك للقعقاع بن شور الذهليّ، وشبث بن ربعي التميمي، وحجار بن أبجر العجلي، وشمر بن ذي الجوشن الضبابي، وترك وجوه الناس عنده استئناساً بهم لقلة [عدد] مَنْ معه .

وخرج أولئك النفر يخذّلون الناس ، وأمر عبيدالله مَنْ عنده من الأشراف أنْ يُشرِفوا علىٰ الناس من القصر فيُمَنُّوا أهل الطاعة ، ويخوّفوا أهلَ المعصية ففعلوا ، فلما سمِع الناس مقالة أشرافهم أخذوا يتفرّقون حتىٰ إن المرأة تأتي ابنها وأخاها وتقول : انصرفْ ، الناسُ يكفونك ، ويفعل الرجلُ مثل ذلك ، فما زالوا يتفرّقون حتىٰ بقي ابن عقيل في المسجد في ثلاثين رجلًا ، فلما رأىٰ ذلك خرج متوجهاً نحو أبواب كندة فلما خرج إلىٰ الباب لم يبق معه أحدٌ فمضىٰ في أزقّة الكوفة لا يدري أين يذهب ، فانتهىٰ إلى باب امرأة من كندة يقال لها « طوعة » أمّ ولد كانت للأشعث، أعتقها فتزوجها أسيد الحضرميّ فولدتْ له بلالاً ، وكان بلال قد خرج مع الناس وهي تنتظره فسلّم عليها ابن عُقيل وطلبَ الماء فسقته فجلس فقالت له : يا عبدالله ألم تشرب ؟ قال : بلى قالت : فاذهبْ إلى أهلك ﺭ فسكت فقالت له ثلاثاً فلم يبرحْ فقالت : سبحان الله إنّي لا أحلُّ لك الجلوس علىٰ بابي . فقال لها ليس لي في هذا المِصْر منزلٌ ولا عشيرة . فهل لك إلىٰ أجرٍ ومعروف ولعلي أكافئك به بعد اليوم قالت: وما ذاك؟ قال: أنا مسلم بن عقيل كَذَبَنِي هؤلاء القوم وغرّوني . قالت : آدخل . فأدخلته بيتاً في دَارِها وعرضْت عليه العَشَاء فلم يتعشَّ ، وجاء ابنها فرآها تُكثِرُ الدخولَ في ذلك البيت فقال لها : إنّ لك لشأناً في ذلك البيت ، وسألها فلم تخبره فألحّ عليها فأخبرته واستكتمته وأخذتْ عليه الأيمان بذلك فسكت .

[مقتل مسلم بن عقيل][1]

وأما ابن زياد فلمّا لم يسمع الأصوات قال لأصحابه : انظروا هل ترون منهم أحداً ؟ .

---

(١) من زيادتنا .

فنظروا فلم يروا أحداً ، فنزل إلىٰ المسجد قبيل العتمة وأجلسَ أصحابَه حولَ المنبر ، وأمر فنودي : « برئت الذمة مِنْ رجل من الشُّرَط ، والعُرَفاء ، والمناكب ، والمقاتلة صلىٰ العتمة إلاّ في المسجد » فامتلأ المسجد فصلىٰ بالناس ثم قام فحمد الله ثم قال: أمّا بعد فإنّ ابن عقيل السفيه الجاهل قد أتىٰ ما رأيتم من الخلاف والشقاق فبرئتْ الذمة مِن رجلٍ وجدناه في دارِه، ومَنْ أتانا به فله ديته.

وأَمَرَهم بالطاعة ولزومها ، وأمر الحصين بن تميم أنْ يمسك أبوابَ السكك ثم يفتش الدور ـ وكان علىٰ الشرط وهو من بني تميم ، ودخل ابن زياد وعقد لعمرو بن حريث وجعله علىٰ الناس ، فلما أصبح جلس للناس .

ولما أصبح بلال ابن تلك العجوز التي آوتْ مسلم بن عقيل أتىٰ عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث فأخبره بمكان ابن عقيل فأتىٰ عبد الرحمن أباه وهو عند ابن زياد فأسرّه بذلك فأخبر به محمدٌ ابن زياد فقال له ابنُ زياد: قُمْ فأتني به الساعة وبعث معه عمرو بن عبيدالله بن عباس السلميّ في سبعين من قيس حتىٰ أتوا الدار التي فيها ابن عقيل، فلما سمعَ الأصوات عرف أنّه قد أتي، فخرج إليهم بسيفه حتىٰ أخرجهم مِن الدار ثم عادوا إليه فحملَ عليهم فأخرجهم مراراً، وضرب بكير بن حمران الأحمري فَمَ سلم فقطع شفتَه العليا وسقط ثنيتاه، وضربه مسلم علىٰ رأسه وثنىٰ بأخرىٰ علىٰ حبل العاتق كادتْ تطلع علىٰ جوفه، فلما رأوا ذلك أشرفوا على سطح البيتِ وجعلوا يرمونه بالحجارة ويلهبون النار في القَصَب ويلقونَها عليه، فلما رأىٰ ذلك خرج عليهم بسيفه فقاتَلهم في السكة فقال له محمد بن الأشعث: لك الأمان فلا تقتل نفسَك. فأقبل يقاتلهم وهو يقول:

أقْسَمْتُ لا أُقْتَلُ إلاّ حُرّا ... وإنْ رَأَيْتُ الموتَ شيئاً نُكْرَا

أو يُخلط البارد سُخْناً مُرّا ... رُد شُعاع الشمس فاستقرّا

كُلُّ امرىءٍ يوماً يلاقي شَرّا ... أخافُ أنْ أُكْذَبَ أو أُغَرّا

فقال له محمد : إنّك لا تُكْذَب ولا تُخْدَع [إنّ] القوم بنو عمّك وليسوا بقاتِلِيْك ولا ضارِبِيْك ـ وكان قد أُثْخِنَ بالحجارة، وعجز عن القتال فأسنَدَ ظهرَه إلىٰ حائط تلك الدار ـ فأمّنه ابنُ الأشعث والناسُ غير عَمرو بن عبيد الله السلميّ فإنّه قال: لا ناقةَ لي

في هذا ولا جمل، وأُتِيَ ببغلة فحُمل عليها وآنتزعوا سيفه فكأنّه أيسَ من نفسه فدمعتْ عيناه ثم قال: « **هذا أول الغدر** ». قال محمد: أرجو ألّا يكون عليك بأس. قال: **وما هو إلا الرجاء أين أمانكم** ؟ ثم بكىٰ فقال له عمرو بن عبيد الله بن عباس السلميّ : مَنْ يطلب مِثْلَ الذي تطلب إذا نزل به مثلَ الذي نزل بك لم يبك. فقال: **ما أبكي لنفسي، ولكني أبكي لأهلي المنقلبين إليكم. أبكي للحسين، وآل الحسين!**

ثم قال لمحمد بن الأشعث : إنّي أراك ستعجزُ عن أَمَاني ، فهل تستطيعُ أنْ تبعثَ مِنْ عندكَ رجلاً يخبرُ الحُسَيْن بحالي ويقولُ له عني ليرجع بأهل بيته ولا يغره أهل الكوفة فانهم أصحاب أبيك الذين كان يتمنى فراقهم بالموت أو القتل؟ فقال له ابن الأشعث : والله لافعلنّ، ثم كتب بما قال مسلم إلىٰ الحسين فَلَقِيَه الرسول بزبالة فأخبره فقال: كلُّ ما قُدِّر نازل، عند الله نحتسب أنفسنا وفسادَ أمتنا. وكان سبب مسيره مِن مكة كتاب مسلم إليه يخبره أنّه بايعه ثمانية عشر ألفاً ويستحثّه للقدوم[1] .

وأمّا مسلم فإنّ محمداً قدِم به القصر ودخل محمد علىٰ عبيد الله فأخبره الخبر وبأمانِه له فقال له عبيد الله : ما أنتَ والامان!ما أرسلناك لتؤمّنه، إنما أرسلناك لتأتينا به! فسكت محمد ولما جلس مسلم علىٰ باب القصر رأىٰ جَرَّةً فيها ماء بارد فقال: آسقوني مِن هذا الماء فقال له مسلم بن عمرو الباهلي: أتراها ما أبردها، واللهِ لا تذوق منها قطرة حتىٰ تذوقَ الحميم في نار جهنم، فقال له ابن عقيل: من أنت؟ قال: أنا مَنْ عرف الحق إذ تركتَه، ونصحَ الأمة والإمام إذْ غششتَه، وسمِع وأطاع إذْ عصيتَه. أنا مسلم بن عَمرو . فقال له ابن عقيل : لأمِّكَ الثكل! ما أَجْفَاكَ، وأفظّك، وأقسىٰ قلبك، وأغلظك! أنت يا ابن باهلة أولىٰ بالحميم والخلودِ في نارِ جهنم مني! قال: فدعا عمارة بن عقبة بماءٍ بارد فصبَّ له في قدح فأخذ ليشرب فامتلأ القدحُ دَماً ففعل ذلك ثلاثاً فقال: لو كان من الرزقِ المقسوم شربتُه. وأُدخلَ علىٰ ابن زياد فلم يُسلِّمْ عليه بالإمارة فقال له الحرسيّ: ألا تسلِّم علىٰ الأمير؟ فقال: إنْ كان يريدُ قتلي فما سلامي عليه؟! وإنْ كان لا يريدُ قَتْلي فليكثرنَّ تسليمي عليه. فقال له ابن زياد: لَعَمْري لَتُقْتَلَنِ فقال: كذلك. قال: نعم. قال: فدعني أوص إلىٰ بعضِ قومي. قال: آفعلْ. فقال لعمر بن سَعد : إنَّ بيني

---

(١) ونص كتابه : (أمّا بعد ، فإنّ الرائد لا يكذب أهله ، وقد بايعني من أهل الكوفة ثمانية عشر ألفاً ، فعجِّلْ الإقبال حين يأتيك كتابي فإن الناس كلهم معك ليس لهم في آل معاوية رأي ولا هوىٰ ـ والسلام) .

وبينك قرابة، ولي إليك حاجةً ـ وهي سِرّ ـ فلم يمكنه مِن ذكرها فقال له ابن زياد: لا تمتنع مِن حاجة ابن عمك. فقام معه فقال: إنَّ عليَّ بالكوفة ديناً استدنته. [منذ قدمتُ الكوفة] أنفقتُه سبعمائة درهم فاَقضها عني، وانظر جثتي فاستوهبها فوارِها، وابعثْ إلىٰ الحُسَيْن مَنْ يردّه. فقال عمر لابن زياد: إنّه قال كذا وكذا. فقال ابنُ زياد: لا يخونُك الأمين ولكن قد يُؤْتَمن الخائن. أمّا مالكُ فهو لك تصنعُ به ما شئتَ؛ وأما الحسين فإنْ لم يُرِدْنا لم نُرِدْه، وإنْ أرادنا لم نكفّ عنه، وأما جثّته فإنا لن نُشَفِّعَك فيها. وقيل: إنه قال: أما جثته فإنا إذا قتلناه لا نبالي مع صنع بها.

ثم قال لمسلم: يا بن عقيل أتيتَ الناسَ وأمرُهم جميع، وكلمتُهم واحدة لتشتت بينهم، وتفرقَ كلمتهم؟! فقال: كلا ولكن أهل هذا المِصْر زعموا أنّ أباك قَتَل خيارَهم، وسفك دمائهم، وعمل فيهم أعمال كسرىٰ وقيصر فأتيناهم لنأمرَ بالعدلِ، وندعوَ إلىٰ حكم الكتاب والسنة. فقال: وما أنت وذاك يا فاسق؟ ألم يكن يُعمل بذلك فيهم إذْ أنت تشربُ الخمر بالمدينة؟ قال: أنا أشربُ الخمر! واللهِ إنَّ الله يعلم أنك تعلمُ أنّك غير صادق وأنّي لستُ كما ذكرتَ وأنَّ أحق الناس بشربِ الخمر مني مَنْ بلغ في دماء المسلمين فيقتل النفس التي حَرَّمَ اللهُ قتلها علىٰ الغضب، والعداوة وهو يلهو ويلعب كأنّه لم يصنع شيئاً.

فقال له ابن زياد: قتلني اللهُ إنْ لم أقتلك قتلة لم يُقْتلها أحدٌ في الاسلام. قال: أما إنّك أحقّ مَنْ أحدَثَ في الإسلام ما ليس فيه. أما إنّك لا تَدَع سوءَ القتلة، وقُبح المثلة، وخبثَ السيرة، ولُؤم الغَلَبَة، ولا أحد مِن الناس أحقّ بها مِنك، فشتمه ابنُ زياد وشتمَ الحسين، وعليًّا، وعقيلا فلم يكلّمه مسلم، ثم أمر به فأُصعِد فوقَ القصر لتُضْرَبَ رقبته ويتبعوا رأسَه جسدَه فقال مسلم لابن الأشعث: واللهِ لولا أمانَك ما استسلمتُ. قُمْ بسيفك دوني قد أُخفِرَتْ ذمّتُك فأُصعِدَ مسلم فوق القصر وهو يستغفر ويسبّح، وأُشرِفَ به علىٰ موضع الحدائين[1] فضربتْ عُنُقُه، وكان الذي قَتَله بكير بن حمران الذي ضربه مسلم، ثم أُتبع رأسه جسده.

فلما نزل بكير قال له زياد: ما كان يقول وأنتم تصعدون به؟ قال: كان يسبّح الله،

---

(١) الطبري ٣٧٨/٥ : على موضع الجزارين اليوم .

ويستغفر، فلما قتلتُه قلتُ له: « آدنُ مني الحمدُ لله الذي أمكَنَ منك وأقادني منك » فضربتُه ضربةً لم تُغْن شيئاً فقال: أما ترىٰ في خدشٍ تخدشنيه وفاءً مِنْ دمك أيها العبد!. فقال ابن زياد: وفخراً عندَ الموت! قال: ثم ضربته الثانية فقتلتُه.

وقام محمد بن الأشعث فكلّم ابن زياد في هانىء وقال له: قد عرفتَ منزلتَه في المصر وبيته، وقد علم قومُه أنّي أنا وصاحبي سُقناه إليك فأنشدك الله لما وهبته لي فإنّي أكرهُ عداوةَ قومه، فوعده أنْ يفعل، فلما كان مِنْ مسلم ما كان بدا له [فيه وأبىٰ أن يفي له بما قال] فأمر بهانىء حين قُتل مسلم فأُخرجَ إلىٰ السوق فضربتْ عنقه قَتَله مولى تركيّ لابن زياد قال: فبصر به عبد الرحمن بن الحصين المراديّ بعد ذلك بخازر مع ابن زياد فقتله فقال عبد الله بن الزَّبِيْر الأسديّ في قتل هانىء ومسلم، وقيل: قاله الفرزدق:

(الزبير) بفتح الزاي وكسر الباء الموحدة:

فإنْ كُنْتِ لا تَدْرِيْنَ مَا المَوتُ فانظري ... إلىٰ هانىء في السوقِ وابنَ عقِيلِ
إلىٰ بَطَلٍ قَد هَشَّمَ السيفُ وَجْهَهُ ... وآخر يهْوِي مِنْ طَمار قَتِيلِ

وهي أبيات[1].

وبعث ابن زياد برأسَيْهما إلىٰ يزيد فكتب إليه يزيد يشكره ويقول له: وقد بلغني أنّ الحسين قد توجّه نحو العراق فضعْ المراصد، والمسالح واحترسْ، واحبسْ علىٰ التهمة، وخذْ علىٰ الظنة، غير أنْ لا تقتلْ إلاّ مَنْ قاتَلك.

قيل: وكان مخرج ابن عقيل بالكوفة لثمانِ ليالٍ مضَيْن مِنْ ذي الحجة سنة ستين، وقيل: لتسع مضين منه. وقيل: وكان فيمن خرج معه المختار بن أبي عُبَيْد، وعبد الله بن الحارث بن نوفل فطلبهما ابن زياد وحبسهما، وكان فيمن قاتل مسلماً محمد بن الأشعث، وشبث بن ربعي التميميّ، والقعقاع بن شور، وجعل شبث يقول: انتظروا بهم الليل لئلاّ يتفرّقوا. فقال له القعقاع : إنّك قد سددتَ عليهم وجهَ مهربهم فافرُجْ لهم يتفرقوا.

---

(١) أنظر الطبري ٥/٣٧٩ ؛ ٣٨٠ .

ذكر مسير الحسين إلىٰ الكوفة

قيل: لما أراد الحُسَين المسير إلىٰ الكوفة بكتب أهل العراق إليه أتاه عمر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام وهو بمكة فقال له: إنّي أتيتُك لحاجةٍ أريدُ ذكرها نصيحةً لك فإنْ كنتَ ترىٰ أنّك مستنصحي قلتُها وأدّيْتُ ما عليَّ مِن الحق فيها، وإنْ ظننتُ أنّك لا مستنصحي كففتُ عما أريد. فقال له: قُلْ فواللهِ ما أسْتَغشك وما أظنُّك بشيءٍ من الهوىٰ.

قال له: قد بلغني أنّك تريدُ العراقَ، وإنّي مشفقٌ عليك. إنّك تأتي بلداً فيه عماله، وأمراؤه ومعهم بيوت الأموال. وإنّما الناسُ عبيدُ الدينار والدرهم فلا آمنُ عليك أنْ يقاتِلك مَنْ وَعَدَك نصرَه ومَنْ أنتَ أحبّ إليه ممن يقاتلك معه. فقال له الحسين: جزاكَ اللهُ خيراً يا بن عم. فقد علمتُ أنّك مشيتَ بنصح، وتكلمتَ بعَقل، ومهمايُقض مِن أمرٍ يَكُنْ أخذتُ برأيك أو تركتُه فأنتَ عندي أحمد مشير، وأنصح ناصح.

قال: وأتاه عبد الله بن عباس فقال له: قد أرجفَ الناسُ أنّك سائرٌ إلىٰ العراق فبيِّنْ لي ما أنتَ صانع؟ فقال له: قد اجمعتُ السيرَ في أحد يوميَّ هٰذين إنْ شاء الله تعالى. فقال له ابن عباس: فإنّي أعيذكَ بالله مِن ذلك. خَبِّرْني رحمك الله أتسير إلىٰ قومٍ قتلوا أميرهم، وضبطوا بلادهم، ونفوا عدّوهم؟ فإنْ كانوا فعلوا ذلك فسِرْ إليهم، وإنْ كانوا إنّما دعوك إليهم وأميرهم عليهم قاهر لهم، وعماله تجبي بلادهم فإنّما دعوك إلىٰ الحرب ولا آمن عليك أنْ يغروك ويَكْذِبُوكِ ويخالفوك ويخذلوك ويستنفَروا إليك فيكونوا أشد الناس عليك. فقال الحسين: فإنّي استخيرُ الله وأنظرُ ما يكون.

فخرج ابن عباس وأتاه ابن الزبير فحدّثه ساعة ثم قال: ما أدري ما تَرْكُنا هؤلاء القوم وقد كففنَا عنهم ونحن أبناء المهاجرين، وولاة هذا الأمر دونهم خَبِّرْني ما تريدُ أنْ

تصنع؟ فقال الحسين : لقد حدثتُ نفسي بإتياني الكوفة، ولقد كتبتُ إلىٰ شيعتي بها، وأشراف الناس وأستخيرُ اللهَ. فقال له ابن الزبير : أما لو كان لي بها مثل شيعَتِك لما عدلتُ عنها. ثم خشيَ أنْ يتهمَه فقال له[1]: أما إنك لو أقمتَ بالحجاز ثم أردتَ هذا الأمر ها هنا لما خالفنا عليك، وساعدناك، وبايعناك، ونصحنا لك. فقال له الحسين : إنّ أبي حدثني أنّ لها كبشاً به تُسْتَحَلُّ حرمتها فما أحبُّ أنْ أكونَ أنا ذلك الكبش. قال: فأقِمْ إنْ شئتَ وتوليني أنا الأمرَ فتُطاع ولا تعصى. قال: ولا أريد هذا أيضاً. ثم إنّهما أخفيا كلامهما فآلتفتَ الحسين إلىٰ مَنْ هناك وقال: أتدرون ما يقول؟ قالوا: لا ندري جعلنا الله فداءك قال: إنّه يقول: أقِمْ في هذا المسجد أجمعُ لك الناس، ثم قال له الحسين: واللهِ لأن أُقتل خارجاً منها بشِبِرٍ أحبّ إليَّ مِنْ أنْ أُقتل فيها، ولأن أُقتل خارجاً منها بشبرَيْن أحبّ إليّ مِنْ أن أُقتل خارجاً منها بشبر، أحبّ إليَّ مِنْ أنْ أُقتل فيها، ولأن أُقتل خارجاً منها بشبرَيْن أحبّ إليّ مِنْ أن أُقتل خارجاً منها بشبر، وأيم الله لو كنتُ في حجر هامّة مِن هذه الهوامّ لاستخرجوني حتىٰ يقضوا بي حاجتَهم، واللهِ ليعتدُنّ عليّ كما اعتدتْ اليهودُ في السبت، فقام ابن الزبير فخرج مِن عنده فقال الحسين: إنّ هذا ليس شيءٌ مِن الدنيا أحبّ إليه مِنْ أن أخرج من الحجاز، وقد علم أنّ الناسَ لا يعدلونه بي فودَّ أنّي خرجتُ حتىٰ يخلو له[2].

قال: فلمّا كان مِن العَشِيّ أو مِن الغدّ أتاه ابن عباس فقال: يا بن عم إنّي أتصبّر ولا أصبر إنّي أتخوفُ عليك في هذا الوجه الهلاك والاستئصال. إنّ أهلَ العراق قومٌ غُدُر فلا تقربنهم. أقمْ في هذا البلد فإنّك سيد أهل الحجاز فإنْ كان أهل العراق يريدونك كما زعموا فآكتبْ إليهم فلينفوا عاملهم وعدوَّهم ثم آقدمْ عليهم، فإن أبيتَ إلاّ أنْ تخرج فسِرْ إلىٰ اليمن فإنّ بها حصوناً وشعاباً وهي أرض عريضة طويلة ولأبيك بها شيعة، وأنتَ عن الناس في عزلة فتكْتب إلىٰ الناس وترسل وتبثّ دعاتِك فإنّي أرجو أن يأتيَك عند ذلك الذي تحبّ في عافية.

فقال له الحسين: يا بن عم: إنّي لأعلم أنّك ناصحٌ مشفقٌ، وقد أزمعتُ

---

(١) لا يغرَّنك هذا الفخر في مثل هذه الروايات ، وقد سُجِّلَ هذا التاريخ في عهدٍ كان ابن الزبير وأمثاله يزمون بكل كبير .

(٢) أنظر التعليق السابق .

وأجمعتُ المسيرَ. فقال له ابن عباس: فإنْ كنتَ سائراً فلا تَسِرْ بنسائِك وصِبْيَتِك فإنّي لخائفٌ أنْ تُقتل كما قُتل عثمان ونساؤه وولده ينظرون إليه، ثم قال له ابن عباس: لقد أقررتَ عينَ ابن الزبير بخروجِك مِن الحجاز وهو اليوم لا ينظرُ إليه أحدٌ معك، واللهِ الذي لا إله إلا هو لو أعلم أنّي إنْ أخذتُ بشعرِك وناصيتِك حتىٰ يجتمعَ علينا الناس أطعتني فأقمتَ لفعلتُ ذلك ثم خرج ابنُ عباس مِنْ عنده فمرَّ بابن الزبير فقال: قرّتْ عينُك يا بنَ الزبير! ثم أنشد قائلاً:

يَا لَكِ مِنْ قُنبرة بمَعْمَر خَلاَ لَكِ الجوُّ فبيضِي واَصْفِرِي وَنقِّري ما شِئْتِ أنْ تُنَقِّرِي[1]

هذا الحسين يخرج إلى العراق ويخليك والحجاز، وقيل: وكان الحسين يقول: واللهِ لا يَدَعُوني حتىٰ يستخرجوا هذه العَلَقَة مِن جوفي فإذا فعلوا سَلَّط اللهُ عليهم مَنْ يذلّهم حتىٰ يكونوا أذلّ مِنْ فرام المرأة قال: و (الفرام) خرقة تجعلها المرأة في قُبُلِهَا إذا حاضت.

ثم خرج الحسين يوم التروية فاعترضه رُسُلُ عَمْرو بن سعيد بن العاص ـ وهو أمير علىٰ الحجاز ليزيد بن معاوية مع أخيه يحيى ـ يمنعونه فأبىٰ عليهم ومضىٰ، وتضاربوا بالسياط، وامتنع الحُسَيْن وأصحابُه وساروا فمرُّوا بالتنعيم فرأىٰ بها عيراً قد أقبلتْ من اليمن بُعِثَ بها بحير بن ريسان مِن اليمن إلىٰ يزيد بن معاوية وكان عامله علىٰ اليمن وعلىٰ العير الورس والحُلَل فأخذها الحسين وقال لأصحاب الإبل: مَنْ أحبَّ منكم أنْ يمضي معنا إلىٰ العراق أوفينا كراءه وأحسنّا صحبته، ومَنْ أحبَّ أنْ يفارقنا مِنْ مكاننا أعطيناه نصيبَه من الكراء. فمن فارق منهم أعطاه حقه، ومَنْ سار معه أعطاه كراءه وكَسَاه ثم سار.

فلما انتهى إلىٰ الصفاح لَقِيَه الفَرَزْدَق الشاعر فقال له: أعطاك الله سُؤْلَك وأَمَلَك فيما تحب فقال له الحسين: بَيِّنْ لي خبرَ الناس خلفك. قال: الخبيرَ سألتَ قلوبُ الناسِ معك وسيوفهم مع بني أمية، والقضاء ينزل من السماء، واللهُ يفعلُ ما يشاء، فقال الحسين: صدقتَ، للهِ الأمرُ يفعلُ ما يشاء، وكل يوم ربنا في شأن، إنْ نزل القضاءُ

---

(١) ينسب هذا الرجز لطرفة (انظر ملحق ديوانه ١٩٣).

بما نحبُّ فنحمدُ اللهَ علىٰ نعمائه وهو المستعان علىٰ أداءِ الشكر، وإنْ حالَ القضاءُ دونَ الرجاء فلم يعتدِ مَنْ كان الحق نيته والتقوىٰ سريرته.

قال: وأدرك الحسين كتابَ عبد الله بن جعفر مع ابنيه عون، ومحمد، وفيه: « أما بعد. فإني أسألك باللهِ لما انصرفتَ حينَ تقرأ كتابي هذا فإنّي مشفقٌ عليك مِن هذا الوجه أنْ يكون فيه هلاكك واستئصال أهل بيتك. إنْ هلكتَ اليومَ طُفِيءَ نورُ الأرض فإنّك عَلَمُ المهتدين، ورجاء المؤمنين، فلا تعجلْ بالسير فإنّي في أثر كتابي والسلام ».

قيل: وقام عبد الله بن جعفر إلىٰ عمرو بن سعيد [بن العاص] فقال له: آكتبْ للحسين كتاباً تجعل له الأمان فيه وتمنّيه فيه البر والصلة وآسأله الرجوع، وكان عمرو عامل يزيد علىٰ مكّة ففعل عمرو ذلك وأرسلَ الكتاب مع أخيه يحيى بن سعيد ومع عبد الله بن جعفر فلحقاه وقرآ عليه الكتاب وجَهَدا أنْ يرجِعَ فلم يفعل، وكان مما اعتذر به إليهما أنْ قال: « إنّي رأيتُ رؤيا، رأيتُ فيها رسولَ الله ﷺ وأمِرْتُ فيها بأمرٍ أنا ماضٍ له عليَّ كان أوْلي فقالا: ما تلك الرؤيا؟ قال: ما حدثتُ بها أحداً، وما أنا محدثٌ بها أحداً حتىٰ ألقىٰ ربي.

ولما بلغ ابن زياد مسير الحسين مِن مكة بعث الحصين بن نمير التميمي صاحب شرطته فنزل القادسية ونظم الخيل ما بين القادسية إلىٰ خفان وما بين القادسية إلىٰ القطقطانة وإلىٰ جبل لعلع، فلما بلغ الحسين الحاجر كتب إلىٰ أهل الكوفة مع قيس بن مسهر الصيداويّ يعرّفهم قدومه ويأمرهم بالجد في أمرهم، فلما انتهىٰ قيس إلىٰ القادسية أخذه الحصين فبعث به إلىٰ ابن زياد فقال له ابن زياد: آصعدْ القصر فسبَّ الكذاب ابن الكذاب الحسين بن عليّ. فصعد قيس فحمِدَ اللهَ وأثنىٰ عليه ثم قال: « إنَّ هذا الحسين بن عليّ خير خلق الله ابن فاطمة بنت رسول الله ﷺ أنا رسولُه إليكم، وقد فارقته بالحاجر فأجيبوه، ثم لعن ابن زياد، وأباه، واستغفر لعليّ، فأمر به ابن زياد فرميَ مِنْ أعلىٰ القصر فتقطّع فمات.

ثم أقبل الحسين يسير نحو الكوفة فانتهىٰ إلىٰ ماءٍ مِنْ مياه العرب فإذا عليه عبد الله بن مطيع فلما رآه قام إليه فقال: بأبي أنت وأمي يا بن رسول الله ما أقدمك؟ فاحتمله فأنزله فأخبره الحسين فقال له عبد الله: « أذكِّرُكَ الله يا بن رسول الله وحُرمة

الاسلام أنْ تنتهك أنشدك الله في حُرمة قريش، أنشدك الله في حرمة العرب فوالله لئن طَلَبْتَ ما في أيدي بني أميّة ليقتُلُنَّك، ولئن قتلوك لا يهابون بعدك أحداً أبداً، والله إنّها لحرمة الاسلام [تنتهك] وحرمة قريش وحرمة العرب فلا تفعلْ، ولا تأتِ الكوفة ولا تعرِّض نفسك لبني أمية ». فأبىٰ إلاّ أنْ يمضي.

وكان زهير بن القين البجليّ قد حجّ ـ وكان عثمانياً ـ فلما عاد جمعهما الطريق، وكان يساير الحسين مِن مكة إلاّ أنه لا ينزل معه فآستدعاه يوماً الحسين فشقّ عليه ذلك ثم أجابه علىٰ كُره، فلما عاد مِن عنده نقل ثقله إلىٰ ثقل الحسين ثم قال لأصحابه: مَنْ أحبَّ منكم أنْ يتبعني وإلاّ فإنّه آخرُ العهد، وسأحدثكم حديثاً: غزونا بلنجر ففُتِحَ علينا وأصبنا غنائم ففرحنا وكان معنا سلمان الفارسي فقال لنا: « إذا أدركتم سيدَ شبابِ أهلِ محمد فكونوا أشدَّ فرحاً بقتالِكم معه بما أصبتم اليوم مِن الغنائم ». فأما أنا فأستودعكم الله. ثم طَلَّق زوجَته وقال لها: آلحقي بأهلِك فإنّي لا أحبُّ أنْ يصيبَك في سببي إلاّ خَيْر، ولزِم الحسين حتىٰ قُتِل معه.

وأتاه خَبَر قَتْل مسلم بن عقيل بالثعلبية فقال له بعض أصحابه: ننشدك الله إلاّ رجعتَ مِنْ مكانك فإنه ليس لك بالكوفة ناصر ولا شيعة بل نتخوف عليك أنْ يكونوا عليك. فوثب بنو عقيل وقالوا: والله لا نبرح حتىٰ يدرك ثأرنا أو نذوق كما ذاق مسلم. فقال الحسين: لا خَيْرَ في العيشِ بعدَ هؤلاء. فقال له بعض أصحابه: إنك واللهِ ما أنتَ مثل مسلم بن عقيل، ولو قدمتَ الكوفة لكان الناس إليك أسرع.

ثم ارتحلوا فانتهوا إلىٰ زبالة، وكان لا يمر بماء[1] إلاّ اتبعه مَنْ عليه حتىٰ انتهىٰ إلىٰ زبالة فأتاه خبر مَقْتَل أخيه مِن الرضاعة «عبدالله بن بقطر» وكان سرحه إلىٰ مسلم بن عقيل من الطريق وهو لا يعلم بقتْله فأخذَتْه خيل الحصين فسيّره مِن القادسية إلىٰ ابن زياد فقال له: اصعد فوق القصر وآلعنْ الكذابَ ابن الكذاب ثم آنزل حتىٰ أرىٰ فيك رأيي. فصعد فأعلمَ الناسَ بقدوم الحسين، ولعن ابن زياد. وأباه فـألقاه مِن القصـر فتكسّرت عظامه وبقي به رَمَق، فأتاه رجلٌ يقال له: عبد الملك بن عمير اللخمي فذبحه فلما عيب ذلك عليه قال: إنّما أردتُ أنْ أُرِيْحَه، قال بعضهم: لم يكن الذي ذبحه عبد الملك بن عمير ولكنه رجل يشبه عبد الملك.

---

(١) الطبري: بأهل ماء.

فلما أتىٰ الحسين خبر قتل أخيه من الرضاعة، ومسلم بن عقيل أَعْلَمَ الناسَ ذلك وقال: قد خَذَلَنَا شِيْعَتُنَا فمن أحبَّ أنْ ينصرف فلينصرف ليس عليه مِنَّا ذمام. فتفرّقوا يميناً وشمالاً حتىٰ بقي في أصحابه الذين جاؤوا معه مِنْ مكّة[1] وإنما فعل ذلك لأنه عَلِم أنّ الأعراب ظنوا أنه يأتي بلداً قد استقامتْ له طاعة أهله فأراد أنْ يعلموا علىٰ مَ[2] يقدُمُون عليه.

ثم سار حتىٰ نزل بطن العقبة فلقيَه رجلٌ مِن العرب فقال له: أنشدك الله لما انصرفتَ فوالله ما تقدمُ إلاّ علىٰ الأسنة وَحَدّ السيوف إنّ هٰؤلاء الذي بعثوا إليك لو كانوا كَفُوك مؤنة القتال ووطأوا لك الأشياء فقدِمَت عليهم لكان ذلك رأياً فأما علىٰ هذه الحال التي تذكرها فلا أرىٰ [لك] أنْ تفعل. فقال: إنّه لا يخفىٰ عليّ ما ذكرتَ ولكنّ الله عز وجل لا يغلب علىٰ أمره ثم ارتحل منها.

---

(١) الطبري: جاؤوا معه من المدينة.

(٢) (ما) في الاستفهام تحذف أَلِفُهَا إذا جُرّتْ وهنا كذلك وقد تكتب (عَلاَمَ).

ذكر عدة حوادث

وفي هذه السنة حج بالناس عَمْرو بن سعيد بن العاص الأشدق، وكان العامل على مكة والمدينة. وفيها مات جرهد الأسلميّ له صحبة. وفي أيام معاوية مات حارثة بن النعمان الأنصاريّ وهو بدري. وفي أيامه أيضاً مات دحية بن خليفة الكلبيّ الذي كان يشبهه جبريل إذا نزل بالوحي. وفي أول خلافته مات رفاعة بن رافع بن مالك بن العجلان الأنصاريّ وكان بدريًّا وشهد مع عليّ الجمل، وصفين. وفي أيامه مات عمرو بن أمية الضمريّ بالمدينة، وفي أيامه مات عثمان بن حنيف الأنصاريّ، وعثمان بن أبي العاص الثقفي.

وفي أيامه مات عتبان بن مالك الأنصاريّ شهد بدراً. وفي أيام معاوية مات سهل بن الحنظلية ـ وهو ابن الربيع الأنصاريّ ـ بدمشق. وفي أيامه بعد سنة سبع وخمسين مات السائب بن أبي وداعة السهميّ، ومات في أيامه سراقة بن عمرو الأنصاري وهو بدري. وفي أيامه مات زياد بن لبيد الأنصاريّ في أولها وهو بدري. وفي أيامه مات معقل بن يسار المزني وإليه ينسب نهر معقل بالبصرة، وقيل: مات في أيام يزيد (معقل) بالعين المهملة والقاف و (يسار) بالياء المثناة والسين المهملة.

وفي أيامه مات ناجية بن جندب بن عمير صاحب بدن النبي ﷺ .وفيها مات نعيمان بن عمرو بن رفاعة الأنصاريّوهو الذي كان فيه مزاح ودعابة وشهد بدراً، وقيل: بل الذي مات ابنه. وفي آخر أيامه مات عبد الله بن مالك بن بُحَيْنة له صحبة. وفيها مات عبد الله بن مُغَفَّل بن عبد غنم المزني بالبصرة و (مغفل) بضم الميم وفتح الغين المعجمة وفتح الفاء المشددة.

وفي أيامه مات هند بن جارية بن هند الأسلميّ. وفي سنة ستين توفي حكيم بن

حزام وله مائة وعشرون سنة ستون في الجاهلية وستون في الإسلام[١] وفيها مات أبو أسيد الساعديّ واسمه مالك بن ربيعة وهو بدري، وقيل: مات سنة خمس وستين وهو آخر مَنْ مات من البدريين، وقيل: مات سنة ثلاثين ولا يصح. وفي أول أيام معاوية مات أبو بردة هانىء بن نيار البلوي حليف الأنصار وهو عَقَبِيّ بدريّ، وشهد مع عليّ حروبَه كلها. وفي أيامه مات أبو ثعلبة الخشنيّ له صحبة، وقيل: مات سنة خمس وسبعين.

وفي أيامه مات أبو جهم بن حذيفة العدويّ القرشيّ في آخرها، وقيل: شهد بنيان الكعبة أيام ابن الزبير وكان قد شهد قريشاً حين بنتها. وفي أول أيامه مات أبو حثمة الأنصاريّ والد سهل. وفي آخر أيامه مات أبو قيس الجهنيّ شهد الفتح. وفي سنة ستين توفي صفوان بن المعطّل السلمي بسميساط، وقيل: إنّه قتل شهيداً قبل هذا. وفيها توفيت الكلابية التي استعاذتْ من النبي صلى الله تعالى عليه وسلم حين تزوجها ففارَقَهَا وكانتْ قد أصابها جنون. وتوفي بلال بن الحارث المزنيّ أبو عبد الرحمن. وفي آخر أيامه مات وائل بن حُجر الحضرميّ، وأبو إدريس الخولاني.

(هند بن جارية) بالجيم والياء المثناة من تحتها و (حارثة) بن النعمان بالحاء المهملة والثاء المثلثة (أبو أُسَيْد) بضم الهمزة وفتح السين.

---

(١) انظر ص ٥٠٠ من هذا الجزء.

ثم دخلت سنة إحدى وستين

ذكر مقتل الحسين رضي الله عنه

وسار الحسين مِن شراف فلما انتصف النهار كَبَّرَ رجلٌ من أصحابه فقال له: ممَّ كبرتَ؟ قال: رأيتُ النخلَ. فقال رجلان من بني أسد: ما بهذه الأرض نخلةٌ قطّ. فقال الحسين: فما هو؟ فقالا: لا نراه إلّا هوادي الخيل فقال: وأنا أيضاً أراه ذلك. وقال لهما: أما لنا ملجأ نلجأ إليه نجعله في ظهورِنا ونستقبلُ القومَ مِن وجهٍ واحد؟ فقالا: بلىٰ هذا ذو حُسُم إلىٰ جنبك تميلُ إليه عن يسارك فإنْ سَبَقْتَ القومَ إليه فهو كما تريد فمال إليه فما كان بأسرع مِنْ أنْ طلعت الخيلُ وعدلوا إليهم فسبقهم الحسين إلى الجبل فنزل، وجاء القومُ وهم ألف فارس مع الحر بن يزيد التميمي ثم اليربوعي فوقفوا مقابل الحسين وأصحابه في نحر الظهيرة[١] فقال الحسين لأصحابه وفتيانه: اسقوا القومَ، ورشفوا الخيل ترشيفاً. ففعلوا، وكان مجيء الحر مِن القادسية أرسله الحصين بن نمير التميمي في هذه الألف يستقبل الحسين فلم يزل مواقفاً الحسين حتىٰ حضرتْ صلاةُ الظهر فأمر الحسين مؤذنه بالأذان فأذَّن، وخرج الحسين إليهم فحمد الله وأثنىٰ عليه ثم قال: «أيها الناس إنّها معذرةٌ إلىٰ الله وإليكم. إنّي لم آتِكم حتىٰ أتتني كتبكم ورسلكم أنْ اقدم إلينا فليس لنا إمام لعل الله أنْ يجعلنا بك علىٰ الهدىٰ، فقد جئتُكم فإنْ تعطوني ما أطمئن إليه مِنْ عهودكم أقدم مِصْرَكم، وإنْ لم تفعلوا أو كنتم بمقدمي كارِهين انصرفتُ عنكم إلىٰ المكان الذي أقبلتُ منه. فسكتوا وقالوا للمؤذن: أقمْ فأقام، وقال الحسين للحرّ: أتريدُ أنْ تصلي أنتَ بأصحابك؟ فقال: بل صلِّ أنتَ ونصلي بصلاتِك. فصلّىٰ بهم الحسين، ثم دخل واجتمع إليه أصحابُه وانصرف الحرّ إلىٰ مكانه، ثم صلىٰ بهم الحسينُ العصر ثم استقبلهم بوجهه فحمد الله وأثنىٰ عليه ثم قال: «أما بعد أيها

---

(١) الطبري: في حر الظهيرة.

الناس فإنكم إنْ تتقوا الله وتعرفوا الحق لأهله يكن أرضىٰ لله، ونحن أهل البيت أولىٰ بولايةِ هذا الأمر من هؤلاء المدَّعِين ما ليس لهم، والسائرين فيكم بالجور والعدوان، فإنْ أنتم كرهتمونا وجهلتم حَقَّنا وكان رأيكم غير ما أتتني به كتبكم ورسلكم انصرفتُ عنكم.

فقال الحر: إنّا واللهِ ما ندري ما هذه الكتب والرسل التي تذكر. فأخرجَ خرجين مملوءينِ صحفاً فنَثَرَها بين أيديهم. فقال الحرّ: فإنّا لسنا مِن هٰؤلاء الذين كتبوا إليك، وقد أُمِرْنَا أنّا إذا نحن لقيناك أنْ لا نفارقَك حتىٰ نقدمك الكوفة علىٰ عبيد الله بن زياد. فقال الحسين: الموتُ أدنىٰ إليك من ذلك. ثم أمر أصحابه فركبوا لينصرفوا فمنعهم الحرّ من ذلك، فقال له الحسين: ثَكِلَتْكَ أُمُّك. ما تريد؟ قال له: أما والله لو غَيْرُكَ مِن العرب يقولها [لي] ما تركتُ أمه بالثكل كائناً مَنْ كان، ولكني واللهِ ما لي إلىٰ ذكرِ أمك من سبيل إلّا بأحسنِ ما يقدرُ عليه، فقال له الحسين: ما تريد؟ قال الحر: أريدُ أنْ أنطلق بك إلىٰ ابن زياد. قال الحسين: إذنْ واللهِ لا أتبعك. قال الحر: إذنْ والله لا أدَعُك. فترادًا الكلام [ثلاث مرات] فقال له الحر: إنّي لم أؤمر بقتَالِك، وإنّما أمرتُ أنْ لا أفارقك حتىٰ أقدمك الكوفة [فإذا أبيتَ] فخُذْ طريقاً لا تُدْخِلك الكوفة ولا تردّك إلىٰ المدينة حتىٰ أكتبَ إلىٰ ابن زياد وتكتب أنتَ إلىٰ يزيد أو إلىٰ ابن زياد فلعل الله أنْ يأتيَ بأمرٍ يرزقني فيه العافية مِنْ أن أبتلىٰ بشيءٍ مِنْ أمرك.

فتياسر عن طريق العذيب، والقادسية والحر يسايره، ثم إنّ الحسين خَطَبهم فحمد الله وأثنىٰ عليه ثم قال: «أيها الناس إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «مَنْ رأىٰ سلطاناً جائراً مستحلًا لحرمِ الله، ناكثاً لعهدِ الله، مخالفاً لسنة رسول الله ﷺ يعمل في عبادِ الله بالإثمِ والعدوان فلم يغيّر ما عليه بفعلٍ ولا قَوْلٍ كان حقًّا علىٰ الله أنْ يدخله مدخله» ألا وإنّ هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان، وتركوا طاعة الرحمٰن، وأظهروا الفساد، وعطّلوا الحدود، واستأثروا بالفيء، وأحلوا حرام اللهِ، وحرموا حلاله، وأنا أحقّ مِنْ غيري، وقد أتتني كتبكم، ورسلكم ببيعتكم، وأنكم لا تسلموني، ولا تخذلوني فإنْ أقمتم علىٰ بيعتكم تصيبوا رشدكم، وأنا الحسين بن عليّ ابن فاطمة بنت رسول الله ﷺ نفسي مع نفسكم، وأهلي مع أهلِكم فلكم فِيّ أسوةٌ، وإنْ لم تفعلوا ونقضتم عهدي وخلعتم بيعتي فلعمري ما هي لكم بنكير لقد فعلتموها بأبي، وأخي، وابن عمي مسلم بن

عقيل، والمغرور مَنْ اغترّ بكم فحظكم أخطأتم، ونصيبكم ضيعتم، ومَنْ نكث فإنّما ينكثُ علىٰ نفسه، وسيغني الله عنكم والسلام». فقال له الحر: إنّي أُذكّرك الله في نفسك فإنّي أشهدُ لئن قاتلتَ لتُقتلن، [فلئن قوتلتَ لتهلكن فيما أرىٰ] فقال له الحسين: أبِالموت تخوفني! وهل يعدو بكم الخَطْبُ أنْ تقتلوني، وما أدري ما أقول لك ولكني أقول كما قال أخو الأوسيّ لابن عمه ـ وهو يريد نصرة رسول الله ﷺ ـ : اين تذهب فإنك مقتول؟ فقال:

سأمضِي وَمَا بِالموتِ عارٌ علىٰ الفتىٰ ... إذا مـا نَوىٰ خيـراً وجاهـدَ مسلما
وواسَى رِجَـالاً صـالِحين بنفسِـه ... وَخـالف مَثْبُوراً وفـارَق مُجْرِمَـا[1]
فإنْ عشتُ لم أندمْ وإنْ مِتُّ لم ألم ... كَفَىٰ بـك ذُلّاً أنْ تعيشَ وتـرغمَـا

فلما سمع ذلك الحرّ تنحىٰ عنه فكان يسير ناحية عنه حتى انتهى إلىٰ عذيب الهجانات، كان به هجائن النعمان ترعىٰ هناك فنسب إليها فإذا هو بأربعة نفر قد أقبلوا مِن الكوفة علىٰ رواحلهم يجنبون فرساً لنافع بن هلال يقال له: « الكامل » ومعهم دليلهم طَرِمّاح بن عدي فانتهوا إلىٰ الحسين فأقبل إليهم الحرّ وقال: إنّ هؤلاء النفر من أهل الكوفة وأنا حابسهم أو رادُّهم . فقال الحسين: لأمنعنّهم مما أمنعُ منه نفسي . إنّما هؤلاء أنصاري، وهم بمنزلة مَنْ جاء معي ، فإن تممت علىٰ ما كان بيني وبينك وإلا ناجزتُك .

فكفّ الحر عنهم فقال لهم الحسين : أخبروني خبرَ النـاسِ خلفَكم فقال له مجمع بن عبيدالله العامري ـ وهو أحدهم ـ أما أشراف الناس فقد أُعْظِمَتْ رشوتهم ، وملئت غرائرُهم فهم الب واحد عليك ، وأما سائر الناس بعدهم فإنّ قلوبهم تهوى إليك وسيوفهم غداً مشهورة عليك .

وسألهم عن رسوله قيس بن مسهر فأخبروه بقتله ، وما كان منه ، فترقرقت عيناه بالدموع ولم يملك دمعته ، ثم قرأ ﴿ فمنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نحبه وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِر وَمَا بَدَّلُوا

---

(١) الطبري ٥/٤٠٤ :

وآسى الرجال الصالحين بنفسه ... وفارق مثبوراً يغش ويرغما

والبيت الثالث غير موجود في الطبري .

تَبْدِيلاً ﴾[1] اللهم اجعل لنا ولهم الجنة وآجمع بيننا وبينهم في مستقر « رحمتك » وغائب مذخور ثوابك .

وقال له الطرماح بن عدي : والله ما أرىٰ معك كثير أحدٍ ، ولو لم يقاتِلْك إلاّ هؤلاء الذين أراهم ملازميك لكان كفى بهم ، ولقد رأيتَ قبل خروجي من الكوفة بيوم ظهر الكوفة وفيه مِن الناس ما لم تر عيناي جمعاً في صعيدٍ واحد أكثر منه قط ليسيروا إليك فأنشدك الله إنْ قدرتَ علىٰ أنْ تقدم إليهم شبراً فافعل ، فإن أردتَ أنْ تنزل بلداً يمنعك الله به حتىٰ ترىٰ رأيك ويستبين لك ما أنتَ صانع فسِرْ حتى انزلك جبلنا أجأ فهو والله جبلٌ امتنعنا به من ملوك غسان ، وحمير ، والنعمان بن المنـذر ، ومن الأحمر والأبيض ، والله ما إنْ دخل علينا ذلٌّ قَطْ فأسير معك حتىٰ أنزلك [القرية] ثم تبعث إلىٰ الرجال ممن بأجأ، وسلمى مِن طَيِّء فوالله لا يأتي عليك عشرة أيام حتىٰ يأتيك طيء رجالاً وركباناً ثم أقِمْ فينا ما بدا لك فإنْ هاجك هَيْجٌ فأنا زعيمٌ لك بعشرين ألف طائيّ يضربون بين يديك بأسيافهم ، فوالله لا يوصَل إليك أبداً وفيهم عَيْنٌ تطرف .

فقال له : جزاك الله وقومَك خيراً إنّه قد كان بيننا وبين هؤلاء القوم قولٌ لسنَا نقدِر معه علىٰ الانصراف ولا ندري على ما تتصرف بنا وبهم الأمور ، فودَّعه ، وسار إلى أهله ، ووعده أنْ يوصل الميرة إلىٰ أهله ويعود إلىٰ نَصْره ففعل ، ثم عاد إلىٰ الحسين فلمّا بلغ عذيب الهجانات لقيه خبر قتله فرجع إلىٰ أهله .

ثم سار الحسين حتىٰ بلغ قصر « بني مقاتل » [فنزل به] فرأىٰ فسطاطاً مضروباً فقال: لمن هذا ؟ فقيل : لعبيدالله بن الحرّ الجعفي . فقال : إدعوه لي . فلمّا أتاه الرسولُ يدعوه قال : إنّا لله وإنّا إليه راجعون والله ما خرجتُ من الكوفة إلاّ كراهيةَ أنْ يدخُلَها الحسين وأنا بها ، والله ما أريد أنْ أراه ولا يراني .

فعاد الرسولُ إلىٰ الحسين فأخبره فلبس الحسين نعليَه ثم جاء فسلَّم عليه ودعاه إلىٰ نصرِه فأعاد عليه ابنُ الحرّ تلك المقالة، قال: فإلاّ تنصرني فاتق الله أنْ تكونَ ممن يقاتلنا فوالله لا يسمع داعيتنا أحدٌ ثم لا ينصرنا إلاّ هلك . فقال له : أمّا هذا فلا يكون أبداً إنْ شاء الله تعالى .

---

(١) الأحزاب : ٢٣ .

ثم قام الحسين إلىٰ رحله ثم سار ليلاً ساعة فخفق برأسه خفقةً ثم انتبه وهو يقول : « إنّا لله وإنّا إليه راجعون والحمد لله رب العالمين » .

فأقبل إليه ابنه علي بن الحسين فقال : يا أبتِ جُعِلْتُ فداك مِمَّ حمدتَ واسترجعتَ ؟ قال: يا بني إنّي خفقتُ [برأسي] خفقةً فعَنَّ لي فارسٌ علىٰ فرسٍ فقال: « القومُ يسيرون والمنايا تسيرُ إليهم » ، فعلمتُ أنَّ أنفسَنَا نعيتْ إلينا، فقال: يا أبتِ لا أَرَاكَ الله سوءاً. ألسنا علىٰ الحق؟ قال: بلىٰ والذي يرجع إليه العباد قال : إذنْ لا نبالي أنْ نموت محقين .

فقال له : جزاك الله من ولدٍ خيراً ما جزىٰ ولداً عن والده .

فلما أصبح نزل فصلىٰ ثم عجل الركوب فأخذ يتياسر بأصحابه يريد أنْ يفرِّقهم فأتىٰ الحرّ فردّه وأصحابه فجعل إذا ردّهم نحو الكوفة ردّاً شديداً امتنعوا عليه وارتفعوا، فلم يزالوا يتياسرون حتىٰ انتهوا إلىٰ « نينوى » المكان الذي نزل به الحسين ، فلما نزلوا إذا راكبٌ مقبلٌ مِن الكوفة فوقفوا ينتظرونه فسلّم علىٰ الحر ولم يسلِّم على الحسين وأصحابه ودفع إلىٰ الحر كتاباً من ابن زياد فإذا فيه « أما بعد فجعجع[1] بالحسين حين يبلغكَ كتابي ويقدم عليك رسولي فلا تنزله إلاّ بالعراء في غير حصنٍ، وعلىٰ غير ماء، وقد أمرتُ رسولي أنْ يَلْزَمَك فلا يفارقك حتىٰ يأتيني بإنفاذك أمري والسلام».

فلما قرأ الكتاب قال لهم الحرّ : هذا كتاب الأمير يأمرني أنْ اجعجع بكم في المكان الذي يأتيني فيه كتابه ، وقد أمر رسوله أنْ لا يفارقني حتىٰ أنفذ رأيَه وأمره ، وأخذهم الحر بالنزل علىٰ غير ماء ولا في قرية فقالوا : دَعْنَا ننزل في نينوى ، أو الغاضرية أو شفية. فقال : لا استطيع ، هذا الرجلُ قد بعث عيناً عليّ . فقال زهير بن القين للحسين. إنّه لا يكون والله بعد ما ترون إلاّ ما هو أشدّ منه يا بن رسول الله وإنّ قتالَ هؤلاء الساعة أهون علينا مِنْ قتال مَنْ يأتينا مِنْ بعدهم فلعمري ليأتيننا مِنْ بعدهم مالاقِبَلَ لنا به . فقال الحسين: ما كنتُ لأبدأهم بالقتال . فقال له زهير : سِرْ بنا إلى هذه القرية حتىٰ نتزلها فإنّها حصينة ـ وهي على شاطىء الفرات ـ فإنْ منعونا قاتلناهم فقتالهم أهون علينا مِن قتال مَنْ يجيء بعدهم فقال الحسين : ما هي ؟ قال : العقر

---

(١) أي: ضيِّق عليه المكان .

قال : اللهم إنّي أعوذ بك مِن العقر . ثم نزل وذلك يوم الخميس الثاني من محرم سنة إحدى وستين .

فلما كان الغد قدم عليهم عمر بن سعد بن أبي وقاص من الكوفة في أربعة آلاف ، وكان سبب مسيره إليه أنّ عبيدالله بن زياد كان قد بعثه علىٰ أربعة آلاف إلىٰ دستبى وكانت الديلم قد خرجوا إليها وغلبوا عليها وكتب له عهده علىٰ الريّ فعسكر بالناس في حمام أعين ، فلما كان من أمر الحسين ما كان دعا ابنُ زياد عمر بن سعد وقال له : سِرْ إلىٰ الحسين فإذا فرغنا مما بيننا وبينه سرتَ إلىٰ عملك . فاستعفاه فقال : نعم علىٰ أنْ تردَّ عهدنا فلما قال له ذلك قال: أمهلني اليومَ حتىٰ أنظرَ، فاستشار نصحاءَه فكلهم نهاه ، وأتاه حمزةبن المغيرة بن شعبة ـ وهو ابن أخته ـ فقال : أنشدك الله يا خالي أنْ لا تسيرَ إلى الحسين فتأثم وتقطع رحمك ، فوالله لأنْ تخرج من دنياك ومالِك وسلطانِ الأرضِ لو كان لك خيرٌ مِنْ أنْ تلقىٰ الله بدم الحسين فقال : أفعلْ وباتَ ليلته مفكراً في أمره فسمع وهو يقول :

أأتركُ ملكَ الريّ والريّ رغبة ... أم أرجع مذموماً بقتل حُسَيْن
وفي قَتْلِهِ النارُ التي ليسَ دُونَها ... حجابٌ ومُلك الريّ قُرَّة عين

ثم أتىٰ ابن زياد فقال له : إنّك وليتني هذا العمل ، وسمع الناسُ به فإنْ رأيتَ أنْ تنفذَ لي ذلك فافعلْ ، وآبعثْ إلىٰ الحسين مِنْ أشراف الكوفة مَنْ لستُ أغنى في الحرب منه ، وسمىٰ أناساً . فقال له ابن زياد : لستُ أستأمرك فيمن أريد أنْ أبعثَ فإنْ سرتَ بجندِنا وإلاّ فابعث الينا بعهدنا . قال : فإنّي سائرٌ .

فأقبلَ في ذلك الجيش حتىٰ نزل بالحسين . فلما نزل به بعث إليه رسولاً يسأله ما الذي جاء به ؟ فقال الحسين: كَتَبَ إليَّ أهلُ مِصْرِكُم هذا أنْ أقدم عليهم فأمّا إذْ كرهوني فإنّي أنصرف عنهم فكتب عمر إلىٰ ابن زياد يعرّفه ذلك فلما قرأ ابنُ زياد الكتاب قال :

الآن إذْ عَلِقَتْ مَخالِبُنا بِه ... يرجو النجاةَ ولاتَ حين مَناصِ

ثم كتب إلىٰ عمر يأمره أنْ يعرض علىٰ الحسين بيعة يزيد فإذا فعل ذلك رأينا رأينا وأنْ يمنعه وَمَنْ معه الماء ، فأرسل عمر بن سعد عَمْرو بن الحجاج علىٰ خمسمائة

فارس فنزلوا علىٰ الشريعة وحالوا بين الحسين وبين الماء وذلك قبل قتل الحسين بثلاثة أيام ، ونادىٰ عبد الله بن أبي الحصين الأزديّ وعداده في بجيلة : « يا حُسَيْن : أما تنظر إلىٰ الماء [كأنّه كبد السماء والله] لا تذوق منه قطرة حتىٰ تموت عطشاً » فقال الحسين : اللهم ٱقتُلْهُ عطشاً ، ولا تغفرْ له أبداً . قال : فمرض فيما بعد فكان يشرب مـاء القلة ثم يقيء ، ثم يعود فيشرب حتىٰ يتغرغر ثم يقيء ثم يشرب فما يروى فما زال كذلك حتىٰ مات .

فلما اشتد العطش علىٰ الحسين وأصحابه أمر أخاه العباس بن عليّ فسار في عشرين راجلاً يحملون القِرَب وثلاثين فارساً فدنوا من الماء فقاتلوا عليه وملأوا القرب وعادوا .

ثم بعث الحسين إلىٰ عمر بن سعد عَمرو بن قرظة بن كعب الأنصاريّ أنْ ٱلقِني الليلة بين عسكري وعسكرِك فخرج إليه عمر فٱجتمعا وتحادثا طويلاً ثم انصرف كلّ واحد منهما إلىٰ عسكره ، وتحدّث الناسُ أنّ الحسين قال لعمر بن سعد : اخرج معي إلىٰ يزيد بن معاوية ونَدَع العسكَرْين فقال عمر : أخشىٰ أنْ تهدمَ داري . قال أبنيها لك خيراً منها . قال : تؤخذ ضياعي قال: أعطيك خيراً منها من مالي بالحجاز فكره ذلك عمر وتحدّث الناسُ بذلك ولم يسمعوه .

وقيل: بل قال له: ٱختاروا مني واحدة من ثلاث إمّا أنْ أرجعَ إلىٰ المكان الذي أقبلتُ منه ، وإمّا أنْ أضع يدي في يد يزيد بن معاوية فيرىٰ فيما بيني وبينه رأيه ، وإما أن تسيروا بي إلىٰ أي ثغر مِن ثغورِ المسلمين شئتم فأكون رجلاً من أهله لي ما لهم وعليّ ما عليهم .

وقد روي عن عقبة بن سمعان أنه قال : صحبتُ الحسين من المدينة إلىٰ مكة ومن مكة إلى العراق ولم أفارقه حتىٰ قتل ، وسمعت جميعَ مخاطباته الناسَ إلىٰ يوم مقتله فوالله ما أعطاهم ما يتذاكرُ به الناسَ مِنْ أنّه يضعُ يده في يد يزيد ، ولا أنْ يُسَيِّروه إلىٰ ثغرٍ مِنْ ثغور المسلمين ، ولكنه قال : دعوني أرجع إلىٰ المكان الذي أقبلتُ منه ، أو دعوني أذهب في هذه الأرض العريضة حتىٰ ننظرَ إلىٰ ما يصيرُ اليه أمرُ الناس فلم يفعلوا .

ثم التقى الحسين ، وعمر بن سعد مراراً ثلاثاً أو أربعاً فكتب عمر بن سعد إلىٰ عبيدالله بن زياد « أمّا بعد فإنّ الله أطفأ النائرة ، وجَمَعَ الكلمَة ، وقد أعطاني الحسين أنْ يرجعَ إلىٰ المكان الذي أقبلَ منه أو أنْ نسيِّره إلىٰ أيّ ثغر من الثغور شئنا ، أو أنْ يأتي يزيد أمير المؤمنين فيضعَ يده في يده وفي هذا لكم رضاً وللأمّة صلاح .

فلما قرأ ابن زياد الكتاب قال : هذا كتابُ رجلٍ ناصح لأميره مشفق علىٰ قومه . نعم قد قبِلْتُ ، فقام إليه شمر بن ذي الجوشن فقال: أتقبلُ هذا منه وقد نزل بأرضك وإلى جنبك ! والله لئن رحل مِن بلادك ولم يضعْ يده في يدك ليكونَنّ أولىٰ بالقوة والعزة ولتكوننَّ أولىٰ بالضعف والعجز ، [فلا تُعْطِهِ هذه المنزلة فإنها مِن الوهن] ، ولكن لينزل علىٰ حكمك هو وأصحابه فإنْ عاقبتَ كنتَ ولي العقوبة وإنْ عفوتَ كان ذلك لك . والله لقد بلغني أنّ الحسين وعمر يتحدثان عامَّةَ الليل بين العسكرين . فقال ابن زياد : نِعْمَ ما رأيتَ آخرجْ بهذا الكتاب إلىٰ عمر فليعرض علىٰ الحسين وأصحابه النزول علىٰ حكمي فإنْ فعلوا فليبعث بهم إليّ سلماً ، وإنْ أبوا فليقاتِلْهم ، وإنْ فعل فآسمعْ له وأطع ، وإنْ أبىٰ فأنتَ الأميرُ عليه وعلىٰ الناس وآضربْ عنقه وابعثْ إليّ برأسِه .

وكتب معه إلىٰ عمر بن سعد : « أمّا بعد: فإنّي لم ابعثْكَ إلىٰ الحسين لتكفّ عنه ، ولا لتمنيه ، ولا لتطاوله ، ولا لتقعد له عندي شافعاً آنظرْ فإنْ نزل الحسين وأصحابه علىٰ الحكم واستسلموا فآبعثْ بهم إليّ سلماً ، وإنْ أبوا فازحفْ اليهم حتىٰ تقتلهم وتُمَثّل بهم فإنهم لذلك مستحقون فإنْ قُتِلَ الحسين فأوطىء الخيلَ صَدْرَه وظَهْرَه فإنّه عاق شاق قاطِع ظلوم فإنْ أنت مضيتَ لأمرنا جزيناك جزاء السامع المطيع ، وإنْ أنتَ أبيتَ فاعتزلْ جندنا ، وخلِّ بين شمر وبين العسكر والسلام » .

فلما أخذ شمر الكتاب كان معه عبدالله بن أبي المحل بن حزام عند ابن زياد وكانت عمته أم البنين بنت حزام عند عليّ فولدت له العباس ، وعبدالله ، وجعفراً ، وعثمان فقال لابن زياد : إنْ رأيت أنْ تكتبَ لبني اختنا أماناً فآفعل. فكتب لهم أماناً فبعثَ به مع مولى له إليهم ، فلما رأوا الكتاب قالوا : « لا حاجةَ لنا في أمانكم ! أمانُ الله خيرٌ من أمان ابن سمية » .

فلما أتىٰ شمر بكتاب ابن زياد إلىٰ عمر قال له: ما لَكَ ويلَك قبّح الله ما جئتَ

به . والله إنّي لأظنُّك أنتَ ثنيته أنْ يقبَلَ ما كنتَ كتبتُ إليه به . أفسدتَ علينا أمراً كنّا رجونا أنْ يصلحَ . والله لا يستسلم الحسين أبداً . والله إنَّ نفسَ أبيه لبين جنبيه . فقال له شمر : ما أنتَ صانع ؟ قال : أتولىٰ ذلك ، ونهض إليه عشيةَ الخميس لتسع مضين من المحرم ، وجاء شمر فدعا العباس بن عليّ وإخوته فخرجوا إليه فقال: أنتم يابني أختي آمنون . فقالوا له : لعنك الله ولعنَ أمانك . لئن كنتَ خالنا اتؤمننا وابن رسول الله لا أمان له!

ثم ركب عُمر والناسُ معه بعد العصر والحسين جالس أمام بيته محتبياً بسيفه إذْ خفق برأسه علىٰ ركبته وسمعتْ أختُه زينب الضَّجة فدنت منه فأيقظته فرفعَ رأسَه فقال : إنّي رأيتُ رسول الله ﷺ في المنام فقال إنّك تروح إلينا . قال : فلطمتْ أخته وجهها وقالت : يا ويلتاه. قال : ليس لك الويل يا أخية آسكتي رحمك الله. قال له العباس أخوه : يا أخي أتاك القومُ فنهض فقال: يا أخي أركبُ بنفسي ؟ فقال له العباس : بل أروح أنا؟ فقال: آركب أنت حتىٰ تلقاهم فتقول: مالكم وما بدا لكم؟ وتسألهم عما جاء بهم .فأتاهم في نحو عشرين فارساً فيهم زهير بن القين فسألهم فقالوا : جاء [أمر] الأمير بكذا وكذا. قال: فلا تعجلوا حتىٰ أرجعَ إلىٰ أبي عبدالله فأعرضَ عليه ما ذكرتم. فوقفوا ورجع العباس إليه بالخبر ووقف أصحابُه يخاطبون القوم ويذكرونهم الله فلما أخبره العباس بقولهم قال له الحسين : ارجعْ إليهم فإنْ استطعتَ أنْ تؤخّرهم إلى غدوةٍ لعلنا نصلي لربنا هذه الليلة وندعوه ونستغفره فهو يعلم أنّي كنتُ أحبُّ الصلاة له ، وتلاوة كتابه ، وكثرة الدعاء والاستغفار . وأراد الحسين أيضاً أنْ يوصي أهله فرجع إليهم العباس وقال لهم : انصرفوا عنا العشية حتىٰ ننظرَ في هذا الأمر فإذا أصبحنا آلتقينا إنْ شاء الله فإما رضيناه وإما رددناه. فقال عمر بن سعد : ما ترى يا شمر ؟ قال: أنت الأمير . فأقبلَ علىٰ الناس فقال : ما تَرون ؟ فقال له عمرو بن الحجاج الزبيدي : سبحان الله والله لو كان من الديلم ثم سألكم هذه المسألة لكان ينبغي أن تجيبوهم . وقال قيس بن الأشعث بن قيس : أجِبْهم لعمري ليصبحنّك بالقتال غدوة . فقال : لو أعلم أنْ يفعلوا ما أخرتهم العشيّة ، ثم رجع عنهم فجمع الحسين أصحابه بعد رجوع عمر فقال : « أُثني علىٰ الله أحسنَ الثناءِ أحمده علىٰ السراءِ والضراءِ اللهم إنّي أحمدك علىٰ أن أكرمتنا بالنبوة ، وجعلت لنا أسماعاً وأبصاراً وأفئدة ، وعلمتنا القرآن ، وفقهتنا

في الدين ، فاجعلنا لك من الشاكرين أما بعد فإني لا أعلم أصحاباً أوفىٰ ولا أخير من أصحابي ، ولا أهل بيت أبرّ ، ولا أوصل ، من أهل بيتي فجزاكم الله جميعاً عني خيراً . ألا وإنّي لأظن يومنا مِنْ هؤلاء الأعداء غداً وإنّي قد أذنتُ لكم جميعاً فانطلقوا في حل ليس عليكم مني ذمام، هذا الليلُ قد غَشِيَكم فاتخذوه وليأخذْ كل رجلٍ منكم بيد رجلٍ من أهل بيتي فجزاكم الله جميعاً خيراً ثم تفرقوا في البلاد في سوادكم ومدائنكم حتىٰ يُفرِّجَ الله فإنّ القومَ يطلبوني ولو أصابوني لَهَوا عن طلب غيري . فقال له إخوته ، وأبناؤه، وأبناء إخوته ، وأبناء عبدالله بن جعفر ، لم نفعل هذا لنبقىٰ بعدك لا أرانا الله ذلك أبداً ، فقال الحسين : يا بني عقيل حسبكم من القتل بمسلم آذهبوا فقد أذنتُ لكم، قالوا :وما نقول للناس ؟ نقول : تركنا شيخنا وسيدنا وبني عمومتنا خير الأعمام ولم نَرْم معهم بسهم ولم نطعن معهم برمح ولم نضربْ بسيف ولا ندري ما صنعوا، لا والله لا نفعل ، ولكنا نفديك بأنفسنا ، وأموالنا ، وأهلينا ، ونقاتل معك حتى نرد موردك فقبّح الله العيشَ بعدك.

وقام إليه مسلم بن عوسجة الأسديّ فقال : أنحن نتخلىٰ عنك ولم نعذر إلىٰ الله في أداء حقك ! أما والله لا أفارقك حتىٰ أكسِرَ في صدورهم رمحي ، وأضربهم بسيفي ما ثبت قائمه بيدي ، والله لو لم يكن معي سلاحي لقذفتهم بالحجارة دونك حتىٰ أموت معك .

وتكلم أصحابه بنحو هذا فجزاهم الله خيراً ، وسمعته أخته زينب تلك العشية وهو في خباء له يقول وعنده حُوَى مولى أبي ذر الغفاريّ يعالج سيفه :

يا دهرُ أُفٍّ لك من خليلِ ... كم لك بالإشراقِ والأَصيل
مِن صاحبٍ أو طالبٍ قَتيل ... وَالدَّهرُ لا يقنعُ بالبَدِيل
وإنّما الأمرُ إلىٰ الجَليل ... وكلُّ حَيٍّ سَالكُ السبيل

فأعادها مرتين أو ثلاثاً فلما سمعته لم تملك نفسها أنْ وثبتْ تجرّ ثوبها حتىٰ آنتهتْ إليه ونادتْ : « واثكلاه ليت الموت أعدمني الحياة اليوم . ماتت فاطمة أمي ، وعليّ أبي ، وحسن[1] أخي . يا خليفة الماضي وثمال الباقي » فذهب فنظر إليها وقال :

---

(١) في الأصل: والحسين ، وهو غلط فإنها تذكر من مات لها . (م).

«يا أخيّة لا يذهبن حلمك الشيطان». قال : بـأبي أنت وأمي استقلت نفسي لنفسك الفداء فردد غصته وترقرقت عيناه ثم قال: لو ترك القطا [ليلاً] لنام. فلطمت وجهها وقالت : واويلتاه ، أفتغصبك نفسك اغتصاباً فذلك اقرح لقلبي ، وأشدّ علىٰ نفسي . ثم لطمت وجهها وشقت جيبها وخرت مغشية عليها[١] . فقام إليها الحسين فصبَّ الماءَ علىٰ وجهها وقال : اتقي الله وتعزي بعزاء الله ، واعلمي أنّ أهلَ الأرض يموتون ، وأهل السماء لا يبقون، وأنّ كل شيءٍهالك إلّا وجه الله ، أبي خيرٌ مني، وأمي خيرٌ مني ، وأخي خيرٌ مني ولي ولهم ولكل مسلم برسولِ الله أسوة .

فعزّاها بهذا ونحوه وقال لها : يا أخية إنّي أقسم عليك [فأبرّي قسمي] لا تَشُقّي عليَّ جيباً ، ولا تخمشي عليَّ وجهاً ، ولا تدعي عليَّ بالويل والثبور إن أنا هلكت.

ثم خرج إلى أصحابه فأمرهم أن يقربـوا بعض بيوتهم من بعض وأن يـدخلوا الأطناب بعضها في بعض ويكونوا بين يدي البيوت فـيستقبلوا القوم من وجه واحـد والبيوت على أيمانهم وعن شمائلهم ومن ورائهم. فلما أمـسوا قاموا الليل كله يصلون ويستغفرون ويتضرعون ويدعون .

[المعركة[٢]]

فلما صلى عمر بن سعد الغداة يوم السبت ـ وقيل: الجمعة ـ يوم عاشوراء خرج فيمن معه من الناس ، وعبأ الحسين أصحابهوصلى بهم صلاة الغداة وكان معه اثنان وثلاثون فارساً وأربعون راجلاً فجعل زهير بن القين في ميمنة أصحابـه ، وحبيب بن مطهر في ميسرتهم وأعطىٰ رايته العباس أخـاه وجعلوا البيوت في ظهـورهم ، وأمر بحطب وقصب فألقي في مكان منخفض من ورائهم كأنه ساقية عملوه في ساعة من الليل لئلا يؤتوا مِنْ ورائهم واضرم ناراً فنفعهم ذلك ، وجعل عمر بن سعد علىٰ ربع أهل المدينة عبدالله بن زهير الأزديّ ، وعلىٰ ربع ربيعة وكندة قيس بن الأشعث بن قيس ، وعلىٰ ربع مذحج ، وأسد عبـد الرحمن بن أبي سبـرة الجعفي ، وعلى ربع تميم ، وهمدان الحر بن يزيد الرياحي فشهد هؤلاء كلهم مقتل الحسين إلا الحر بن يزيد فإنه عدل إلىٰ الحسين وقُتِلَ معه .

---

(١) وهذه الرواية من الأباطيل المستبشعة ـ ولا حول ولا قوة إلا بالله .

(٢) من زيادتنا .

وجعل عمر على ميمنته عمرو بن الحجاج الزبيدي ؛ وعلى ميسرته شَمِر بن ذي الجوشن ، وعلىٰ الخيل عروة بن قيس الأحمسيّ ، وعلىٰ الرجال شبث بن ربعيّ اليربوعيّ التميميّ ، وأعطىٰ الراية دريداً[١] مولاه ، فلما دنوا من الحسين أمر فضرب له فسطاط، ثم أمر بمسك فميث في جفنة ، ثم دخل الحسين فاستعمل النورة ووقف عبد الرحمن بن عبد ربه ، وبرير بن حضير الهمداني علىٰ باب الفسطاط وازدحما أيهما يطلي بعده فجعل يزيد يهازل عبد الرحمن فقال له : والله ما هذه بساعة باطل . فقال يزيد : والله إنّ قومي لقد علموا أني ما أحببتُ الباطل شاباً ولا كهلاً ولكني مستبشر بما نحن لاقون ، والله ما بيننا وبين الحور العين إلاّ أنْ يميلَ هؤلاء علينا بأسيافهم .

فلما فرغ الحسين دَخَلَا ، ثم ركب الحسين دابته ودعا بمصحف فوضعه أمامه ، واقتتل أصحابه بين يديه فرفع يديه ثم قال : « اللهم أنت ثقتي في كل كرب ورجائي في كل شدة ،وأنت لي في كل أمر نزل بي ثقة وعدة كم مَنْ هم يضعف فيه الفؤاد وتقل فيه الحيلة ويخذل فيه الصديق ويشمت به العدو أنزلته بك وشكوته إليك، رغبة إليك عمن سواك ففرجته وكشفته وكفيتنيه فأنت ولي كل نعمة وصاحب كل حسنة ومنتهى كل رغبةٍ».

فلما رأىٰ أصحاب عمر النار تلتهب في القصب نادىٰ شمر الحسين تعجلتَ النارَ في الدنيا قبل القيامة .

فعَرفه الحسين فقال : أنتَ أولىٰ بها صلِيًّا ، ثم ركب الحسين راحلته وتقدم إلىٰ الناس ونادىٰ بصوتٍ عال يسمعه كل الناس فقال : « أيها الناس اسمعوا قولي ولا تعجلوني حتىٰ أعظكم بما يجب لكم عليَّ وحتى أعتذر إليكم مِنْ مقدمي عليكم فإنْ قبلتم عذري وصدقتم قولي وأنصفتموني كنتم بذلك أسعد ولم يكن لكم عليَّ سبيل ، وان لم تقبلوا مني العذر فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا إليَّ ولا تنظرون . إنَّ وليِّيَ اللهُ الذي نَزَّلَ الكتابَ وهو يتولىٰ الصالحين».

قال : فلما سمع أخواته قوله بكين وصِحْنَ وارتفعت أصواتهن فأرسل إليهن أخاه العباس . وابنه علياً ليسكتاهن وقال : « لعمري ليكثرن بكاؤهن » ، فلما ذهبا قال : « لا يبعد ابن عباس » وإنما قالها حين سمع بكاءَهُنّ لأنّه كان نهاه أنْ يَخرج بهن معه .

---

(١) الطبري : ذويدا مولاه ـ بالذال المعجمة .

فلما سكتن حمدالله وأثنىٰ عليه وصلىٰ علىٰ محمد وعلىٰ الملائكة والأنبياء وقال مالا يحصى كثرة فما سمع أبلغ منه ، ثم قال :

« أمّا بعد فانسبوني فأنظروا مَنْ أنا ، ثم راجِعوا أنفسكم فعاتِبوها ، وانظروا هل يصلح ويحلّ لكم قتلي ، وأنتهاك حرمتي ؟ ألستُ ابن بنت نبيكم ، وابن وصيه ، وابن عمه ، وأولى المؤمنين بالله ، والمصدق لرسوله ! أوليس حمزة سيد الشهداء عم أبي ؟ أو ليس جعفر الشهيد الطيار في الجنة عمي ، أو لم يبلغكم قولٌ مستفيضٌ أنّ رسول الله ﷺ قال لي ولأخي : « أنتما سيدا شباب أهل الجنّة ، وقرّة عين أهل السنة » فإنْ صدقتموني بما أقول وهو الحقّ والله ما تعمدتُ كذباً مذ علمتُ أنّ الله يمقتُ عليه ، وإنْ كذبتموني فإنّ فيكم مَنْ إنْ سألتموه عن ذلك أخبركم ، سَلُوا جابر بن عبدالله ، أو أبا سعيد ، أو سهل بن سعد، أو زيد بن أرقم، أو أنساً يخبروكم أنّهم سمعوه من رسول الله ﷺ ، أما في هذا حاجز يحجزكم عن سفك دمي؟ » .

فقال شمر ـ وهو يعبد الله علىٰ حرف ـ : إنْ كان يـدري ما يقـول ، فقال لـه حبيب بن مطهر[1] : والله إني أراك تعبدُ الله علىٰ سبعين حرفاً ، وإنّ الله قد طبع على قلبك فلا تدري ما تقول. ثم قال الحسين :فإنْ كنتم في شك مما أقول أو تشكون في أنّي ابن بنت نبيكم فوالله ما بين المشرق والمغرب ابن بنت نبيّ غيري منكم ولا من غيركم ، أخبروني أتطلبوني بقتيلٍ منكم قتلتُه ، أو بمالٍ لكم استهلكته ، أو قصاص مِنْ جراحة ! فلم يكلموه ، فنادىٰ يا شبث بن ربعي ، ويا حجار بن أبجر ، ويا قيس بن الأشعث ، ويا زيد بن الحارث ألم تكتبوا إليّ في القدوم عليكم ؟ قالوا: لم نفعل ، ثم قال : بلىٰ [والله لقد] فعلتم . ثم قال : أيها الناس إذْ كرهتموني فدَعُوني أنصرف إلىٰ مأمني من الأرض، قال: فقال له قيس بن الأشعث : أولا تنزل علىٰ حُكم ابن عَمِّك ـ يعني ابن زياد ـ فإنّك لن ترىٰ إلاّ ما تحب ؟ فقال له الحسين : أنت أخو أخيك ، أتريد أن يطلبك بنو هاشم بأكثر من دم مسلم بن عقيل ؟ لا والله ولا اعطيهم بيـدي إعطاء الذليل ، ولا أقر إقرار العبد ، عبادَ الله إني عذتُ بربي وربكم أنْ ترجموني . أعوذُ بربي وربكم مِنْ كل متكبرٍ لا يؤمنُ بيوم الحساب .

---

(١) الطبري : ابن مظاهر ـ وهكذا في كل موضع يأتي ذكر اسمه .

ثم أناخ راحلته ونزل عنها ، وخرج زهير بن القين علىٰ فرس له في السلاح فقال :يا أهل الكوفة: نذار[1] لكم من عذاب الله نذار ، إنّ حقاً علىٰ المسلم نصيحة المسلم ، ونحن حتىٰ الآن إخوة علىٰ دينٍ واحد ما لم يقع بيننا وبينكم السيف ، [وأنتم للنصيحة منا أهل] فإذا وقع السيفُ انقطعتْ العصمةُ وكنا نحن أمة وأنتم أمة ، إنّ الله قد ابتلانا وإياكم بذرية نبيه محمد ﷺ لينظر ما نحن وأنتم عاملون ، إنا ندعوكم إلى نصرهِ وخذلانِ الطاغية ابن الطاغية عبيدالله بن زياد فإنكم لا تدركون منهما إلا سوءاً يسملان أعينكم ويقطعان أيديكم وأرجلكم ويمثلان بكم ويرفعانكم علىٰ جذوع النخل ، ويقتلان أمثالكم وقراءكم أمثال حُجر بن عدي وأصحابه ، وهانىء بن عروة ، وأشباهه . قال: فسبُّوه ، وأثنوا علىٰ ابن زياد ، وقالوا : والله لا نبرح حتىٰ نقتل صاحبك ومن معه ، أو نبعث به وبأصحابه إلىٰ الأمير عبيد الله بن زياد سلماً . فقال لهم: يا عبادَ الله إنّ ولد فاطمة [رضوان الله عليها] أحقّ بالودّ والنصر من ابن سميّة فإنْ كنتم لم تنصروهم فأعيذكم بالله أنْ تقتلوهم خَلّوا بين الرجل وبين ابن عمه يزيد بن معاوية فلعمري إنّ يزيد ليرضىٰ مِنْ طاعتكم بدون قَتل الحسين ، فرماه شمر بسهم وقال : آسكتْ أسكت الله نأمتك، أبرمتنا بكثرة كلامك . فقال زهير : يا بن البوّال علىٰ عقبيه ما إياك أخاطب ، إنما أنت بهيمة ، والله ما أظنك تحكم من كتاب الله آيتين ، وأبشر بالخزي يوم القيامة ، والعذاب الأليم . فقال شمر : إنّ الله قاتِلك وصاحبك عن ساعة قال : أفبالموت تخوّفني والله للموتُ معه أحبّ إليّ من الخلدِ معكم ، ثم رفع صوته وقال : عبادَ الله لا يغرنّكم مِن دينكم هذا الجلف الجافي فوالله لا تنال شفاعة محمد قوماً أهرقوا دماءَ ذريته، وأهل بيته، وقتلوا مَنْ نصرهم، وذَبّ عن حريمهم. فأمره الحسين فرجع .

[انضمام الحر بن يزيد إلى الحسين عليه السلام[2]]

ولما زحف عمر نحو الحسين أتاه الحرّ بن يزيد فقال له : أصلحك الله أمقاتلٌ أنت هذا الرجل ؟ قال له :أي أي والله قتالاً أيسره أنْ تسقط الرؤوس وتطيح الأيدي .

(١) في الأصل: بدار ـ بالباء الموحدة ـ وهو تحريف (م).

(٢) من زيادتنا .

قال: أفما لكم في واحدةٍ من الخصالِ التي عَرَضَ عليكم رضا ؟ فقال عمر بن سعد : والله لو كان الأمر إليَّ لفعلتُ لكن أميرك قد أبىٰ ذلك .

فأقبل يدنو نحو الحسين قليلاً قليلاً وأخذته رعدة ، فقال له رجل من قومه يقال له المهاجر بن أوس : والله إنّ أمرك لمريب ، والله ما رأيتُ منك في موقفٍ قطّ مثل ما أراه الآن ، ولو قيل : مَنْ أشجع أهل الكوفة ؟ لما عدوتُك . فقال له : **إني والله أُخَيِّرُ نفسي بين الجنة والنار ولا اختارُ على الجنة شيئاً ولو قُطِّعْتُ وحُرِّقْتُ** . ثم ضرب فرسه فلحق بالحسين فقال له : جعلني اللّهُ فداك يا بن رسول الله أنا صاحِبُك الذي حبسْتُك عن الرجوع ، وسايرتُك في الطريق ، وجعجعتُ بك في هذا المكان ، **ووالله [الذي لا إله إلا هو] ما ظننتُ أنّ القوم يردّون عليك ما عرضتَ عليهم أبداً ولا يبلغون منك هذه المنزلة أبداً** فقلت في نفسي: لا أبالي أنْ أطيعَ القوم في بعض أمرهم ولا يرون أني خرجتُ من طاعتهم ، وأمّا هم فيقبلون بعض ما تدعوهم إليه ، ووالله لو ظننتُ أنهم لا يقبلونَها منك ما رَكِبْتُها منك ، وإنّي قد جئتُك تائباً مما كان مني إلىٰ ربي مواسياً لك بنفسي حتى أموت بين يديك أفترىٰ ذلك توبة ؟ قال : نعم ، يتوبُ الله عليك ويغفر لك ، وتقدّم الحر أمام أصحابه ثم قال : أيها القوم ألا تقبلون من الحسين خَصْلَةً مِنْ هذه الخصال التي عَرَضَ عليكم فيعافيكم اللّهُ مِنْ حربِهِ وقتاله ؟ فقال عمر : لقد حرصتُ لو وجدتُ إلىٰ ذلك سبيلاً .

فقال : « **يا أهل الكوفة لأمِّكُم الهبل والعُبْر ، أدعوتموه حتى إذا أتاكم أسلمتموه! وزعمتم أنّكم قاتلو أنفسكم دونه ثم عدوتم عليه لتقتلوه ! أمسكتم بنفسه وأحطتم به ومنعتموه مِن التوجّه في بلادِ الله العريضة حتىٰ يأمنَ ويأمنَ أهلُ بيته فأصبح كالأسير لا يملكُ لنفسه نفعاً ولا يدفع عنها ضُرّاً ، ومنعتموه ومَنْ معه عن ماء الفرات الجاري يشربه اليهودي، والنصرانيّ، والمجوسيّ ويتمرغ فيه خنازير السواد وكلابه وها هو وأهله قد صرعهم العطش!** بئسما خلفتم محمداً في ذريته لا سقاكم الله يومَ الظمأ إنْ لم تتوبوا وتنزعوا عما أنتم عليه»، فرموه بالنبل فرجع حتىٰ وقف أمام الحسين.

[المعركة][1]

ثم قدم عمر بن سعد برايته وأخذ سهماً فرمىٰ به وقال : « آشهدوا لي أنِّي أوّل

(١) من زيادتنا .

رامٍ » ثم رمى الناس ، وبرز يسار مولىٰ زياد ، وسالم مولىٰ عبيدالله وطلبا البراز فخرج إليهما عبدالله بن عمير الكلبيّ ـ وكان قد أتىٰ الحسين من الكوفة وسارتْ معه امرأته ـ فقالا له : مَنْ أنت ؟ فانتسب لهما فقالا : لا نعرفُك . ليخرج إلينا زهير بن القين ، أو حبيب بن مطهر ، أو برير بن خضير ، وكان يسار أمام سالم فقال له الكلبي ـ : « يا بن الزانية وبك رغبة عن مبارزة أحدٍ من الناس ! ولا يخرج إليك أحدٌ إلا وهو خير منك » ، ثم حمل عليه فضربه بسيفه حتىٰ برد فاشتغل به يضربه فحمل عليه سالم فلم يأبه له حتىٰ غشيه فضربه فاتقاه الكلبيّ بيده فأطار أصابع كفّه اليسرىٰ ثم مال عليه الكلبي فضربه حتىٰ قتله ، وأخذت امرأتُه عموداً وكانت تسمى « أم وهب » وأقبلت نحو زوجها وهي تقول : « فداك أبي وأمي قاتِل دون الطيبين ذرية محمد » فردّها نحو النساء فامتنعتْ وقالت : لن أدعك دون أنْ أموت معك فناداها الحسين فقال : جُزِيْتُم مِنْ أهل بيت خيراً آرجعي رَحِمَكِ الله ، ليس الجهادُ إلىٰ النساء فرجعت .

فزحف عمرو بن الحجاج في ميمنة عمر فلمّا دنا من الحسين جثوا لـه علىٰ الركب واشرعوا الرماح نحوهم فلم تقدم خيولهم علىٰ الرماح فذهبتْ الخيلُ لتـرجع فرشقوهم بالنبل فصرعوا منهم رجالاً ، وجرحوا آخرين ، وتقدم رجلٌ منهم يقال له : « ابن حوزة » فقال : أفيكم الحُسَيْن ؟ فلم يجبه أحد ، فقالها ثلاثاً فقالوا : نعم فما حاجتك ؟ قال : يا حسين أبشرْ بالنار . قال له : كذبتَ بل أقدُمُ علىٰ ربٍّ رحيم ، وشفيع مطاع ، فمن أنت ؟ قال : ابن حوزة .

فرفع الحسين يديه فقال : اللهم حُزْه إلىٰ النار . فغضب ابن حوزة فأقحم فرسه في نهرٍ بينهما فتعلقتْ قدمُه بالركاب وجالت به الفرس فسقط عنها فانقـطعتْ فَخِذُه وساقُه وقدمه وبقي جنبه الآخر متعلقاً بالركاب يضرب به كل حجر وشجر حتىٰ مات .

وكان مسروق بن وائـل الحضرمي قـد خرج معهم وقـال : لعلي أصيب رأسَ الحسين فأصيبُ به منزلةً عند ابن زياد فلما رأىٰ ما صنع الله بابن حوزة بدعاء الحسين رجع وقال : « لقد رأيتُ مِن أهل هذا البيت شيئاً لا أقاتلهم أبداً» .

ونشب القتال ، وخرج يزيد بن معقل حليف عبد القيس فقال : يا برير بن خضير كيف ترىٰ الله صنع بك ؟ قال : والله لقد صنع بي خيراً وصنع بك شراً ، فقال : كذبتَ وقبل اليوم ما كنتَ كذاباً ، وأنا أشهدُ أنّك من الضالين . فقال له ابن خضير : هل لك

أنْ أباهلَك أنْ يلعنَ الله الكاذبَ، ويقتلَ المُبْطل ثم أخرج أبارزك ؟ فخرجا فتباهلا أنْ يلعنَ الله الكاذب ، ويقتلَ المحقُّ المبطل ، ثم تبارزا فاختلفا ضربتين فضرب يزيد بن معقل برير بن خضير فلم يضرّه شيئاً ، وضربه ابن خضير ضربةً قدَّتْ المغفر ، وبلغتْ الدماغ ، فسقط والسيفُ في رأسه ، فحمل عليه « رضى بن منقذ العبديّ » ، فاعتنق ابن خضير فاعتركا ساعة ثم إنّ ابن خضير قعد علىٰ صدره فحمل كعب بن جابر الأزدي عليه بالرمح فوضعه في ظهره حتىٰ غَيَّبَ السنانَ فيه ، فلما وجد مسَّ الرمح نزل عن رضى فعضّ أنفه وقطع طرفه ، وأقبل إليه كعب بن جابر فضربه بسيفه حتىٰ قتله ، وقام رضى ينفض التراب عن قبائه ، فلما رجع كعب قالتْ له امرأته : « أعنتَ علىٰ ابن فاطمة وقتلتَ بريراً سَيِّدَ القرَّاء ! لا أكلمك أبداً» .

وخرج عمرو بن قرظة الأنصاريّ وقاتـل دون الحسين فقُتل ، وكـان أخوه مـع عمر بن سعد فنادىٰ : « يا حسين ، يا كذاب ابن الكذاب أضللتَ أخي وغررتَه حتىٰ قتلتَه » .

فقال : إنّ الله لم يضل أخاك بل هداه وأضلك ، قال : قتلني الله إنْ لم أقتلك أو أموت دونك فحمل ، واعترضه نافع بن هلال المراديّ فطعنه فصرعه ، فحمل أصحابه فاستنقذوه [فدُووِي بعدُ] فبرأ .

وقاتل الحر بن يزيد مع الحسين قتالاً شديداً ، وبرز إليه يزيد بن سفيان فقتله الحر ، وقاتل نافع بن هلال مع الحسين أيضاً فبرز إليه مزاحم بن حريث فقتله نافع ، فصاح عمرو بن الحجاج بالناس : أتدرونَ مَن تقاتلون ؟ فرسان المصر قوماً مستميتين لا يبرز إليهم منكم أحدٌ فإنهم قليل وقلما يبقون ، والله لو لم ترموهم إلا بالحجـارة لقتلتموهم ، يا أهل الكوفة آلزموا طاعتكم وجماعتكم لا ترتابوا في قتل مَنْ مَرَقَ من الدين وخالف الإمام . فقال عمر: الرأي ما رأيتَ ، ومنع الناس من المبارزة ، قال : وسمعه الحسين فقال : يا عمرو بن الحجاج أعليَّ تحرضُ الناسَ ؟! أنحن مرقنا مِن الدين أم أنتم ! والله لتعلمن لو قبضت أرواحكم ومتم علىٰ أعمالكم أينا المارق ؟ .

ثم حمل عَمرو بن الحجاج علىٰ الحسين مِن نحو الفرات فآضطربوا ساعةً فصُرِع مسلم بن عوسجة الأسديّ وانصرف عمرو ، ومسلم صريع فمشىٰ إليه الحسين وبه رَمَق فقال : رحِمك الله يا مسلم بن عوسجة « منهم مَنْ قضىٰ نحبه ومنهم مَنْ ينتظر » ، ودنا

منه حبيب بن مطهر وقال : عَزَّ عليَّ مصرعُك أبشر بالجنة ، ولولا أنّي أعلم أنّني في أثرك لاحق بك لأحببتُ أنْ توصيني حتىٰ أحفظك بما أنت له أهل .

فقال : أوصيك بهذا رحمك الله .وأومأ بيده نحو الحسين أنْ تموت دونه فقال : أفعلُ ، ثم مات مسلم ، وصاحت جاريةٌ له فقالت: « يا بن عوسجة » . فنادىٰ أصحابُ عمرو : «قتلنا مسلماً» ، فقال شبث لبعض مَنْ حوله : ثكلتكم أُمهّاتكم إنما تقتلون أنفسكم بأيديكم وتذلون أنفسكم لغيركم أتفرحون بقتل مثل مسلم أما والذي أسلمتُ له لرُبَّ موقف له قد رأيتُه في المسلمين فلقد رأيته يوم سلق أذربيجان قتل ستة مِن المشركين قبل أنْ تنام خيول المسلمين أفيُقْتَلُ مثله وتفرحون ؟ .

وكان مِن الذين قتلهم مسلم بن عبدالله الضبابي . وعبد الرحمن بن أبي خشكارة البجليّ .

وحمل شمر في الميسرة فثبتوا له ، وحملوا علىٰ الحسين وأصحابه مِنْ كل جانب فقُتل الكلبيّ وقد قتل رجلين بعد الرجلين الأولين . وقاتل قتالاً شديداً فقتله هانىء بن ثبيت الحضرمي ، وبكير بن حي التيمي من تيم الله بن ثعلبة ، وقاتل أصحاب الحسين قتالاً شديداً وهم اثنان وثلاثون فارساً فلم تحمل علىٰ جانب مِنْ خيل الكوفة إلّا كشفته ، فلما رأى ذلك عُروة بن قيس ـ وهو علىٰ خيل الكوفة ـ بعث إلىٰ عمر فقال : ألا ترىٰ ما تلقىٰ خيلي هذا اليوم مِن هذه العدة اليسيرة ! آبعث إليهم الرجال والرماة . فقال لشبث بن ربعي : ألا تقدم إليهم ؟ فقال : سبحان الله شيخ مضر وأهل المصر عامة تبعثه في الرماة ! لم تجد لهذا غيري ! ولم يزالوا يرون مِن شبث الكراهة للقتال حتىٰ أنّه كان يقول في إمارة مصعب : لا يعطي الله أهلَ هذا المصر خيراً أبداً ، ولا يسددهم لرشد . ألا تعجبون أنّا قاتلنا مع عليّ بن أبي طالب ومع ابنه الحسن آل أبي سفيان خمس سنين ثم عَدَوْنَا علىٰ ابنه وهو خير أهل الأرض نقاتِله مع آل معاوية ، وابن سمية الزانية ، ضلال يالك مِنْ ضلال!

فلما قال شبث ذلك دعا عمر بن سعد الحصين بن نمير فبعث معه المجففة وخمسمائة مِنْ المرامية ، فلما دنوا من الحسين وأصحابه رشقوهم بالنبل فلم يلبثوا أنْ عقروا خيولهم وصاروا رجالة كلهم ، وقاتل الحر بن يزيد راجلاً قتالاً شديداً فقاتلوهم إلىٰ أنْ انتصف النهار أشد قتال خلقه الله لا يقدرون أنْ يأتوهم إلّا من وجهٍ واحد

لاجتماع مضاربهم ، فلما رأىٰ ذلك عمر أرسل رجالاً يقوضون البيوت عن أيمانهم وشمائلهم ليحيطوا بهم فكان النفر من أصحاب الحسين الثلاثة والأربعة يتخللون البيوت فيقتلون الرجل وهو يقوض وينهب ويرمونه مِنْ قريب أو يعقرونه فأمر بها عمر بن سعد فأحرقت ، فقال لهم الحسين : دعوهم فليحرقوها فإنّهم إذا أحرقوها لا يستطيعون أنْ يجوزوا إليكم منها فكان كذلك .

وخرجت امرأة الكلبي [تمشي إلىٰ زوجها] فجلستْ عند رأسه تمسح التراب عن وجهه وتقول :«هنيئاً لك الجنة » فأمر شمر غلاماً اسمه رستم فضرب رأسها بالعمود [فشدخه] فماتت مكانها .

وحمل شمر حتىٰ بلغ فسطاط الحسين ونادى :عليَّ بالنار حتىٰ أحرق هذا البيت علىٰ أهله ، فصاحت النساء وخرجْنَ ، وصاح به الحسين : « أنت تحرق بيتي علىٰ أهلي أحرقك الله بالنار » .

فقال حميد بن مسلم لشمر : إنّ هذا لا يصلح تعذب بعذابِ الله وتقتل الولدان والنساء ! والله إنّ في قَتْل الرجال لَمَا يرضىٰ به أميرُك . فلم يقبل منه ، فجاءه شبث بن ربعيّ فنهاه فانتهىٰ ، وذهب لينصرف فحمل عليه زهير بن القين في عشرة فكشفهم عن البيوت وقتلوا أبا عزة الضبابيّ وكان من أصحاب شمر ، وعطف الناسُ عليهم فكثروهم ، وكانوا إذا قُتل منهم الرجل والرجلان يبين فيهم لقلتهم وإذا قُتل في أولئك لا يبين فيهم لكثرتهم .

ولما حضر وقت الصلاة قال أبو ثمامة الصائديّ للحسين : نفسي لنفسك الفداء أرىٰ هؤلاء قد اقتربوا منك والله لا تُقتل حتىٰ أُقْتَلَ دونك وأحب أنْ ألقىٰ ربي وقد صليتُ هذه الصلاة [التي قد دنا وقتُها] فرفع الحسينُ رأسَه وقال : ذكرتَ الصلاة جعلك الله من المصلين الذاكرين نعم هذا أول وقتها، ثم قال: سلوهم أنْ يكفُّوا عنا حتىٰ نصلي ففعلوا فقال لهم الحصين : إنّها لا تُقبل .

فقال له حبيب بن مطهر : زعمتَ أنْ لا تُقبل الصلاة مِن آل رسولِ الله ﷺ وتُقبل منك يا حمار . فحمل عليه الحصين وخرج إليه حبيب فضرب وجه فرسه بالسيف فشب فسقط عنه الحصين فاستنقذه أصحابهُ ، وقاتل حبيب قتالاً شديداً فَقَتَلَ رجلاً مِنْ بني ،

تميم اسمه بديل بن صريم ، وحمل عليه آخر من تميم فطعنه فذهب ليقوم فضربه الحصين علىٰ رأسه بالسيف فوقع ونزل إليه التميميّ فاحتزّ رأسه فقال له الحصين : أنا شريكك في قتله .

فقال الآخر لا والله . فقال له الحصين : اعطنيه أعلقه في عنق فرسي كيما يرىٰ الناسُ أنّي شركتُ في قتله ، ثم خذه وامض به الى ابن زياد فلا حاجة لي فيما تعطاه . ففعل ، وجال به في الناس ثم دفعه إليه ، فلما رجعوا إلى الكوفة أخذ الرأس وجعله في عنق فرسه ثم أقبل به إلى ابن زياد في القصر فبصر به القاسم بن حبيب وقد راهق فأقبل مع الفارس لا يفارقه فارتاب به الرجل فسأله عن حاله فاخبره وطلب الرأس ليدفنه فقال : إنّ الأمير لا يرضىٰ أنْ يدفن وأرجو أنْ يثيبني الأمير .

فقال له : لكن الله لا يثيبك إلاّ أسوأ الثواب . ولم يزل يطلب غرة قاتل ابيه حتى كان زمان مصعب وغزا مصعب باخميرا دخل القاسم عسكره فإذا قاتل أبيه في فسطاطِهِ فدخل عليه نصف النهار فقتله .

فلما قتل حبيب هدّ ذلك الحسين وقال عند ذلك: أحتسبُ حماة أصحابي ، وحمل الحر ، وزهير بن القين فقاتلا قتالاً شديداً وكان إذا حمل أحدهما وغاص فيهم حمل الآخر حتىٰ يخلّصه فَعَلاَ ذلك ساعة ، ثم إن رجالة حملتْ علىٰ الحر بن يزيد فقتلته ، وقتل أبو ثمامة الصائدي ابن عم له كان عدوه .

ثم صلوا الظهر صلىٰ بهم الحسين صلاةَ الخوف ، ثم اقتتلوا بعدَ الظهر فاشتد قتالهم ، ووصلوا إلىٰ الحُسَين فاستقدم الحنفيّ أمامه فاستهدف لهم يرمونه بالنبل وهو بين يديه حتىٰ سقط ، وقاتل زهير بن القيم قتالاً شديداً فحمل عليه كثير بن عبيدالله الشعبي ، ومهاجر بن أوس فقتلاه .

وكان نافع بن هلال البجلي قد كتب اسمه علىٰ فوق نبلة وكانت مسمومة فقتل بها اثني عشر رجلاً سوىٰ مَنْ جرح فضرب حتىٰ كسرتْ عضداه وأُخذ أسيراً فأخذه شمر بن ذي الجوشن فأتىٰ به عمر بن سعد ـ والدم علىٰ وجهه ـ وهو يقول : لقد قتلتُ منكم اثني عشر رجلاً سوىٰ مَنْ جَرَحْتُ ولو بقيتْ لي عضدٌ وساعد ما أسرتموني ، فانتضى شمر سيفه ليقتله فقال له نافع : والله لو كنتَ من المسلمين لعظم عليك أنْ تلقىٰ الله بدمائِنا، فالحمدُ لله الذي جعل منايانا علىٰ يدي شرار خلقه، فقتله شمر.

ثم حمل علىٰ أصحاب الحسين فلما رأوا أنهم قد كثروا وأنهم لا يقدرون أنْ يمنعوا الحسين ولا أنفسهم تنافسوا أنْ يُقْتَلُوا بين يديه فجاء عبدالله، وعبد الرحمن ابنا عروة الغِفَارِيان إليه فقالا : قد حازنا الناسُ إليك فجعلا يقاتِلان بين يديه ، وأتاه الفتيان الجابريان وهما سيف بن الحارث بن سريع ؛ ومالك بن عبد بن سريع وهما ابنا عم وأخوان لأم وهما يبكيان فقال لهما : ما يبكيكما؟ إني لأرجو أنْ تكونوا عن ساعة قريري عين فقالا : واللهِ ما علىٰ أنفسنا نبكي ولكن نبكي عليك ، نراك قد أُحيطَ بك ولا نقدر أنْ نمنعك .

فقال : جزاكما الله جزاء المتقين .

وجاء حنظلة بن أسعد الشبامي فوقف بين يدي الحسين وجعل ينادي « يا قوم إنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِم وَمَا الله يُرِيْدُ ظُلْماً لِلعِبَادِ يَا قَوْمِ إنِّي أَخَافُ عَلَيْكم يومَ التَّنادِ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِيْنَ مَالَكُمْ مِن الله مِنْ عَاصِمٍ ، وَمَنْ يُضْلل اللهِ فماله مِنْ هاد » يا قوم لا تقتلوا الحسين فيسحتكم الله بعذابٍ وقد خابَ مَنْ افترىٰ .

فقال له الحسين: رحمك الله إنهم قد استوجبوا العذابَ حين ردوا ما دعوتهم إليه من الحق ، ونهضوا ليستبيحوك وأصحابك فكيف بهم الآن وقد قتلوا إخوانك الصالحين .

فسلّم علىٰ الحسين وصلىٰ عليه ، وعلى أهل بيته وتقدّمْ وقاتل حتىٰ قُتل .

وتقدّم الفَتَيان الجابريان فودَّعَا الحسين وقاتلا حتىٰ قُتِلَا .

وجاء عابس بن أبي شبيب الشاكريّ ، وشوذب مولىٰ شاكر إلىٰ الحسين فسلما عليه ، وتقدما فقاتَلا فقتل شوذب ، وأما عابس فطلب البراز فتحاماه الناس لشجاعته فقال لهم عمر: ارموه بالحجارة فرموه من كل جانب فلما رأىٰ ذلك ألقىٰ درعه ومغفره وحمل علىٰ الناس فهزمهم بين يديه ثم رجعوا عليه فقتلوه وادعىٰ قتله جماعة .

وجاء الضحاك بن عبدالله المشرفي[١] إلىٰ الحسين فقال: يا بن رسول الله قد

---

(١) الطبري : المشرقي ـ بميم مكسورة وشين معجمة آخره قاف .

علمتَ إني قلتُ لك أني أقاتلُ عنك ما رأيتُ مقاتلاً فإذا لم أر مقاتلاً فأنا في حِلٍّ من الانصراف فقال له الحسين: صدقتَ وكيف لك بالنجاة؟ إنْ قدرتَ عليه فأنت في حل قال: فأقبلتُ إلىٰ فرسي وكنتُ قد تركتُه في خباء حيث رأيتُ خيل أصحابنا تُعقر وقاتلتُ راجلاً وقتلتُ رجلين وقطعتُ يد آخر، ودعا إلى الحسين مراراً قال: واستخرجتُ فرسي واستويتُ عليه، وحملتُ علىٰ عرض القوم فأفرجوا لي وتبعني منهم خمسة عشر رجلاً ففُتُّهم وسَلِمْتُ.

وجثا أبو الشعثاء الكنديّ ـ وهو يزيد بن أبي زياد ـ بين يدي الحسين فرمىٰ بمائة سهم ما سقط منها خمسة أسهم وكلما رمىٰ يقول له الحسين: «اللهم سدِّدْ رميَتَه، واجعل ثوابه الجنة». وكان يزيد هذا فيمن خرج مع عمر بن سعد فلمّا ردوا الشروط علىٰ الحسين عدل إليه فقاتل بين يديه وكان أول مَنْ قُتل. وأما الصيداويّ عمرو بن خالد، وجبار بن الحارث السلماني وسعد مولى عمرو بن خالد ومجمع بن عبيدالله العائذيّ فإنهم قاتلوا أول القتال فلما وغلوا فيهم عطفوا إليهم فقطعوهم عن أصحابهم فحمل العباس بن علي فاستنقذهم وقد جُرِحُوا فلما دنا منهم عدوهم حملوا عليهم فقاتلوا فقتلوا في أول الأمر في مكان واحد.

وكان آخر مَنْ بقي من أصحاب الحسين سويد بن أبي المطاع الخثعمي.

[مقتل آل بني أبي طالب مع[1] الحسين رضي الله عنهم]

وكان أول مَنْ قُتل من آل بني أبي طالب يومئذ عليّ الأكبر بن الحسين وأمه ليلىٰ بنت أبي مرة بن عروة بن مسعود الثقفية، وذلك أنّه حمل عليهم وهو يقول:

أنَـا عَـلِيُّ بنُ الـحُسَيْنِ بـن عَلِيّ ... نحنُ وربِّ البَيْـتِ أولَىٰ بـالـنبيّ

تَاللهِ لا يَحْكُمُ فينا ابن الدَّعِيّ

ففعل ذلك مراراً فحمل عليه مرة بن منقذ العبدي فطعنه فصُرع، وقطعه الناس بسيوفهم، فلما رآه الحسين قال: «قَتَلَ اللهُ قوماً قتلوك يا بني ما أجرأهم علىٰ الله وعلىٰ

---

(١) من زيادتنا.

انتهاكِ حرمةِ الرسول ، علىٰ الدنيا بعدك العفاء» ، وأقبلَ الحسين إليه ومعه فتيانه فقال : « احملوا أخاكم » فحملوه حتىٰ وضعوه بين يدي الفسطاط الذي كانوا يقاتِلون أمامه ، ثم إنّ عمرو بن صبيح الصدائي رمىٰ عبدالله بن مسلم بن عقيل بسهم فوضع كَفَّه علىٰ جبهته فلم يستطع أنْ يحرِّكَهَا ، ثم رماه بسهمٍ آخر فقتله .

وحمل الناسُ عليهم من كل جانب ، فحمل عبدالله بن قطبة الطائي علىٰ عون بن عبدالله بن جعفر فقتله ، وحمل عثمان بن خالد بن أسير الجهني ، وبشر بن سوط الهمداني علىٰ عبد الرحمن بن عقيل بن أبي طالب فقتلاه ، ورمىٰ عبدالله بن عروة الخثعمي جعفر بن عقيل فقتله ، ثم حمل القاسم بن الحسن بن عليٍّ وبيده السيف فحمل عليه عمرو بن سعد بنِ نفيل الأزديّ فضرب رأسه بالسيف فسقط القاسم إلىٰ الأرض لوجهه وقال : « يا عماه » فانقضَّ الحسينُ إليه كالصقر ثم شَدّ شَدَّةَ ليثٍ أغْضِب فضرب عَمْراً بالسيف ، فاتقاه بيده فقطع يَدَه مِن المرفق فصاحَ وحملت خيلُ الكوفة ليستنقذوا عَمْراً فاستقبلته بصدورها وجالتْ عليه فوطئته حتىٰ مات .

وانجلت الغَبَرَة والحسينُ واقف علىٰ رأس القاسم وهو يفحص برجليه والحسين يقول :

« بعْداً لقومٍ قَتَلُوك ، ومَنْ خَصْمُهُم يوم القيامة فيك جدك » . ثم قال : « عَزَّ واللهِ علىٰ عَمِّكَ أنْ تَدْعُوَه فلا يجيبك أو يجيبك ثم لا ينفعك صوتُه . والله هذا يومٌ كَثُرَ واتِرُه وقَلَّ ناصِرُهُ » .

ثم احتمله علىٰ صدره حتىٰ ألقاه مع ابنه عليّ ومَنْ قُتِلَ معه مِن أهلِ بيته، ومكث الحسينُ طويلاً مِن النهار كلما انتهىٰ إليه رجلٌ مِن الناس رجعَ وَكرِهَ أنْ يتولّىٰ قَتْلَه وعِظَمَ إثمه، ثم إنّ رجلاً مِنْ كندة يقال له: «مالك بن النسير» أتاه فضربه علىٰ رأسِهِ بالسيف فقطع البرنس وأدمىٰ رأسه، وامتلأ البرنُس دماً فقال له الحسين : «لا أكلتَ بها ولا شربت، وحشرك اللّهُ مع الظالمين» وألقىٰ البرنس، ولبس القلنسوة، وأخذ الكنديّ البرنس فلما قدِم علىٰ أهله أخذ البرنس يغسل الدم عنه فقالت له امرأته: «أسلب ابن رسول الله تُدْخِلُ بيتي! أخرجه عني». قال: فلم يزل ذلك الرجل فقيراً بشَرٍّ حتىٰ مات.

ودعا الحسين بابنه عبدالله وهو صغير فأجلسه في حجره فرماه رجلٌ من بني أسد فذبحه فأخذ الحسين من دمه فصبَّه في الأرض ثم قال :

« رَبِّ إنْ تَكُنْ حَبَسْتَ عنَّا النصرَ مِن السماءِ فاجعلْ ذلك لما هو خير ،وانتقم مِنْ هؤلاء الظالمين » .

ورمى عبدالله بن عقبة الغنوي **أبا بكر بن الحسين بن علي** بسهمٍ فَقَتَلَه .

وقال العباس بن عليّ لإخوته من أمه : **عبدالله** ، **وجعفر** ، **وعثمان** : « تقدموا حتىٰ أرِثَكُم فإنّه لا ولد لكم » ففعلوا فقُتِلُوا .

وحمل هانىء بن ثبيت الحضرميّ علىٰ **عبدالله بن علي** فقتله ، ثم حمل علىٰ **جعفر بن علي** فقتله ، ورمىٰ خولي بن يزيد الأصبحي **عثمان بن علي** ، ثم حمل عليه رجل من بني أبان بن دارم فقتله وجاء برأسه ، ورمى رجلٌ من بني أبان أيضاً **محمد بن علي بن أبي طالب** فقتله وجاء برأسه .

وخرج غلامٌ من خباء من تلك الأخبية فأخذ بعودٍ من عيدانه وهو ينظر كأنه مذعور فحمل عليه رجل قيل: إنه هانىء بن ثبيت الحضرميّ فقتله .

[مقتل الإمام الحسين رضي الله عنه[1]]

واشتدّ عطش الحسين فدنا من الفرات ليشرب فرماه حصين بن نمير بسهم فوقع في فمه فجعل يتلقىٰ الدم بيده ورمىٰ به إلى السماء ، ثم حمد الله وأثنىٰ عليه ثم قال:

«اللهم أشكو إليك ما يُصْنَعُ بابنِ بنتِ نبيك. اللهم أحصِهِمْ عَدَداً، وآقتُلْهم بَدَداً، ولا تُبقِ منهم أحداً».

وقيل : الذي رماه رجلٌ مِنْ بني أبان بن دارم فمكث ذلك الرجل يسيراً ثم صبَّ الله عليه الظمأ فجعل لا يروىٰ فكان يروح عنه ويبرد له الماء فيه السكر وعساس فيها اللبن ويقول : اسقوني فيعطىٰ القلة أو العس فيشربه فإذا شربه اضطجع هنيهة ثم يقول : « اسقوني قتلني الظمأ » فما لبث إلّا يسيراً حتىٰ انقدتْ بطنُه انقداد بطن البعير .

ثم إنّ شمر بن ذي الجوشن أقبل في نفرٍ نحوَ عشرة مِنْ رجالهم نحو منزل الحسين فحالوا بينه وبين رحله فقال لهم الحسين :

---

(١) من زيادتنا .

ويلكم إنْ لم يكن لكم دين ولا تخافون يوم المعاد فكونوا أحراراً ذوي أحساب ، آمنعوا رحلي وأهلي مِنْ طُغَاتِكم وجُهَّالكم ، فقالوا : ذلك لك يا بن فاطمة .

وأقدم عليه شمر برجاله منهم أبو الجنوب واسمه عبد الرحمن الجعفي ، والقشعم بن نذير الجعفي [١]، وصالح بن وهب اليزني ، وسنان بن أنس النخعي ، وخوليّ بن يزيد الأصبحي ، وجعل شمر يحرِّضهم علىٰ الحسين وهو يحمل عليهم فينكشفون عنه ، ثم إنهم أحاطوا به وأقبل إلىٰ الحسين غلامٌ مِن أهله فقام إلىٰ جنبه ، وقد أهوىٰ بحر بن كعب بن تيم الله بن ثعلبة إلىٰ الحسين بالسيف فقال الغلام : «يا بن الخبيثة أتقتلُ عمِّي؟ فضربه بالسيف فاتقاه الغلام بيده فأطنها إلى الجلدة [٢] فنادىٰ الغلامُ : «يا أمتاه» . فاعتنقه الحسينُ وقال له : يا بن أخي آصبرْ علىٰ ما نزلَ بك فإنّ الله يلحقك بآبائك الطاهرين الصالحين برسول الله ﷺ وعلي ، وحمزة ، وجعفر ، والحسن» .

وقال الحسين : «اللهم أمسك عنهم قطر السماء ، وآمنعهم بركات الأرض . اللهم فإنْ متعتهم إلىٰ حين ففرِّقْهم فرقاً ، واجعلهم طرائق قدداً ، ولا ترضِ عنهم الولاة أبداً فإنهم دَعونَا لينصرونا فعدوا علينا فقتلونا» .

ثم ضارب الرجالة حتىٰ انكشفوا عنه .

ولما بقي الحسين في ثلاثة أو أربعة دعا بسراويل ففزره ونكثه لئلا يسلبه فقال له بعضهم : لو لبستَ تحته التبان قال : ذلك ثوب مَذَلّة ولا ينبغي [لي] أنْ ألبسه ، فلما قُتل سلبه بحر بن كعب ، وكانت يداه في الشتاء تنضحان بالماء وفي الصيف تيبسان كأنهما عود .

وحمل الناسُ عليه عن يمينه وشماله فحمل علىٰ الذين عن يمينه فتفرقوا ثم حمل علىٰ الذين عن يساره فتفرقوا فما رُئي مكثور قط قد قُتل ولده ، وأهل بيته ، وأصحابه أربط جأشاً منه ، ولا أمضىٰ جناناً ولا أجرأ مقدماً منه ، إنْ كانت الرجالة لتنكشف عن يمينه وشماله انكشافَ المعزى إذا شَدَّ فيها الذئب ، فبينما هو كذلك إذْ خرجت زينب

---

(١) الطبري : والقشعم بن عمرو بن يزيد الجعفيّ .

(٢) الطبري : فاطنها إلا الجلدة فإذا يده معلقة .

وهي تقول: ليتَ السماء انطبقتْ علىٰ الأرض ـ وقد دنا عمر بن سعد فقالت : يا عمر أيُقْتَلُ أبـو عبدالله وأنت تنظرُ [إليه] !

فدمعتْ عيناه حتىٰ سالتْ دموعه علىٰ خَدَّيه ولحيته وصرف وجهه عنها .

وكان علىٰ الحسين جُبَّة من خزّ وكان معتماً مخضوباً بالوسمة وقاتل راجلاً قتال الفارس الشجاع يتقي الرمية ويفترص العورة ، ويشدّ علىٰ الخيل وهو يقول :

أعلىٰ قتلي تجتمعون ! أما والله لا تَقْتُلُونَ بعدي عبداً مِن عبادِ الله أسخط عليكم لقتله مني . وايم الله إنّي لأرجو أنْ يكرمني الله بهوانِكم ثم ينتقمَ لي منكم من حيثُ لا تشعرون .

« أما والله لو قتلتموني لألقىٰ الله بأسكم بينكم ، وسفك دماءكم ثم لا يرضى بذلك منكم حتىٰ يضاعفَ لكم العذابَ الأليم » قال :

ومكث طويلاً من النهار ولو شاء الناسُ أن يقتلوه لقتلوه ولكنهم كان يتقي بعضُهم ببعض ويحب هؤلاء أنْ يكفيهم هؤلاء فنادىٰ شمر في الناس، ويحكم ماذا تنتظرون بالرجل! اقتلوه ثكِلتكم أمهاتُكم.

فحملوا عليه مِن كل جانب، فضرب زرعة بن شريك التميمي علىٰ كفه اليسرىٰ، وضرب أيضاً عـلىٰ عاتقه ، ثم انصرفوا عنه وهو يقوم ويكبو ، وحمل عليه في تلك الحال سنان بن أنس النخعي فطعنه بالرمح فوقع وقال لخولي بن يزيد الأصبحيّ : احتزَّ رأسه . فأراد أنْ يفعل فضعف وأرعد ، فقال له : سنان : فَتَّ الله عضدك . ونزل إليه فذبحه واحتزّ رأسه فدفعه إلى خولي ، وسُلِب الحسين ما كان عليه فأخذ سراويله بحر بن كعب ، وأخذ قيس بن الأشعث قطيفته وهي من خز فكان يسمى بعـده قيس قطيفة ، وأخذ نعليه الأسود الأوديّ ، وأخذ سيفه رجلٌ من دارم ، ومال الناسُ علىٰ الفرش، والحلل، والإبل فانتهبوها، ونهبوا ثقله، ومتاعه، ومـا علىٰ النساء حتىٰ إنْ كانت المرأةُ لتنزع ثوبها من ظهرها فيؤخذ منها.

ووُجِدَ بالحسين ثلاث وثلاثون طعنة وأربع وثلاثون ضربة غير الرمية.

وأما سويد بن المطاع فـكان قد صـرع فوقـع بين القتلىٰ مثخناً بـالجراحات

فسمعهم يقولون (قتل الحسين) فوجد خِفَّة فوثب ومعه سكين وكان سيفه قد أُخِذ فقاتلهم بسكينه ساعة ثم قُتل قَتَلَه عروة بن بطان الثعلبي ، وزيد بن رقاد الجبنيّ ، وكان آخر مَنْ قُتل من أصحاب الحسين .

ثم انتهوا إلىٰ عليّ بن الحسين زين العابدين فأراد شمر قَتْله فقال له حميد بن مسلم ؛ سبحان الله أتقتل الصبيان ؟ ـ وكان مريضاً ، وجاء عمر بن سعد فقال : لا يدخلن بيت هذه النسوة أحدٌ ، ولا يعرضنّ لهذا الغلام المريض ، ومن أخذ من متاعهم شيئاً فليرده فلم يرد أحدٌ شيئاً . فقال الناسُ لسنان بن أنس النخعي :

قتلتَ الحسين بن علي وابن فاطمة بنت رسول الله ﷺ ! قتلتَ أعظم العرب خطراً أراد يزيل ملك هؤلاء فأتتِ أمراءك فاطلب ثوابَك منهم فإنّهم لو أعطوك بيوت أموالهم في قتله كان قليلاً . فأقبل علىٰ فرسه وكان شجاعاً شاعراً به لوثة حتىٰ وقف علىٰ باب فسطاط عمر بن سعد ثم نادىٰ بأعلىٰ صوته :

أَوْقِرْ ركابي فضَّةً وذَهَبا ... إنّي قتلتُ السيدَ المحجَّبا
قتلتُ خيرَ الناس أُمّاً وأبا ... وخيرَهم إذْ ينسبون نَسَبا

فقال عمر بن سعد : اشهد أنك مجنون أدخلوه عليّ فلما دخل حَذَفَه بالقضيب وقال : يا مجنون أتتكلم بهذا الكلام ؟ والله لو سَمِعَك ابنُ زياد لضرب عنقك .

وأخذَ عمر بن سعد عقبةَ بن سمعان مولىٰ الرباب ابنة امرىء القيس الكلبية امرأة الحسين فقال : ما أنت ؟ فقال: أنا عبدٌ مملوك فخلىٰ سبيله ، فلم ينج منهم غيره ، وغير المرقع بن ثمامة الأسدي ، وكان قد نثر نبله فقاتل فجاء نفرٌ فأمّنوه فخرج إليهم ، فلما أخبر ابن زياد خبره نفاه إلىٰ الزارة ، ثم نادىٰ عمر بن سعد في أصحابه : مَنْ ينتدب إلىٰ الحسين فيوطئه فرسه . فانتدب عشرة منهم اسحاق بن حيوة الحضرمي ـ وهو الذي سلب قميص الحسين فبرص بعد ـ فأتوا فداسوا الحسين بخيولهم حتىٰ رَضُّوا ظهره وصدره .

وكان عدة مَنْ قتل من أصحاب الحسين اثنين وسبعين رجلاً ، ودفن الحسين وأصحابه أهل الغاضرية من بني أسد بعد قتلهم بيوم .

وقُتل من أصحاب عمر بن سعد ثمانية وثمانون رجلاً سوىٰ الجرحىٰ ، فصلى عليهم عمر ودفنهم .

ولما قُتل الحسين أرسل رأسَه ورؤوس أصحابه إلىٰ ابن زياد مع خوليّ بن يزيد ، وحميد بن مسلم الأزديّ فوجد خوليّ القصر مغلقاً فأتىٰ منزله فوضع الرأس تحت إجانة في منزله ودخل فراشه وقال لامرأته النوار: «جئتك بغنىٰ الدهر. هذا رأس الحسين معك في الدار» فقالت: «**ويلك جاء الناس بالذهب والفضة وجئتَ برأسِ ابن رسول الله ﷺ! والله لا يجمع رأسي ورأسك بيتٌ أبداً**». وقامتْ من الفراش فخرجتْ إلى الدار قالت: فما زلت أنظرُ إلىٰ نور يسطع مثل العمود من السماء إلىٰ الإجانة ورأيتُ طيراً ابيض يرفرف حولها فلما أصبح غدا بالرأس إلىٰ ابن زياد.

وقيل : بل الذي حمل الرؤوس كان شمر ، وقيس بن الأشعث ، وعمرو بن الحجاج ، وعروة بن قيس ـ فجلس ابن زياد وأذِن للناسِ فأحضرتْ الرؤوس بين يديه وهو ينكتَ بقضب بين ثنيتيه ساعةً فلما رآه زيد بن الأرقم لا يرفع قضيبه قال : **أعل هذا القضيب عن هاتين الثنيتين فوالذي لا إله غيره لقد رأيتُ شفتي رسول الله ﷺ علىٰ هاتين الشفتين يقبّلهما ثم بكى** فقال له ابن زياد : ابكىٰ الله عينيك فوالله لولا أنّك شيخٌ قد خرفت وذهبَ عَقْلُك لضربتُ عنقكَ فخرج وهو يقول :

أنتم يا معشر العرب العبيد بعد اليوم قتلتم ابن فاطمة وأمّرتم ابن مرجانة فهو يقتل خياركم ويستعبد شراركم فرضيتم بالذل فبعداً لمن يرضىٰ بالذل .

فأقام عمر بعد قتله يومين ، ثم ارتحل إلىٰ الكوفة وحمل معه بنات الحسين وأخواته ومن كان معه من الصبيان وعليّ بن الحسين مريض فاجتازوا بهم علىٰ الحسين وأصحابه صرعىٰ فصاح النساءُ ولطمن خدودهن ، وصاحتْ زينب أخته ؟

يا محمداه صلىٰ عليك ملائكة السماء ، هذا الحسين بالعراء . مُزَمَّلٌ بالدماء . مقطعُ الأعضاء وبناتُك سبايا . وذريتك مُقَتَّلَة . تسفى عليها الصبا . فأبكت كل عدو وصديق .

فلما أدخلوهم علىٰ ابن زياد لبستْ زينب أرذَل ثيابهَا وتنكّرتوحفّت بها إماؤها فقال عبيدالله : مَنْ هذه الجالسة ؟ فلم تكَلِّمْه ، فقال ذلك ثلاثاً وهي لا تكلمه فقال

بعض إمائها : هذه زينب بنت فاطمة . فقال لها ابن زياد :

« الحمدُ لله الذي فضحكُم ، وقتلكم ، وأكذبَ أحدوثتكم . فقالت : الحمدُ لله الذي أكرمنا بمحمد ﷺ ، وطهرنا تطهيراً ، لا كما تقول [أنت] ، وإنما يفتضحُ الفاسق ، ويكذب الفاجر . فقال : فكيفَ رأيتِ صنعَ الله بأهل بيتك ؟ قالت : كُتِبَ عليهم القتل فبرزوا إلىٰ مضاجِعِهِم ، وسيجمعُ الله بينك وبينهم فتختصمون عنده .

فغضب ابن زياد [واستشاط] وقال : قد شفىٰ الله غيظي مِن طاغيتك والعصاة المَرَدَة مِنْ أهل بيتك .

فبكتْ وقالت : لَعَمْرِي لقد قتلتَ كهلي وأبرزتَ أهلي[1] وقطعتَ فرعي ، واجتثثت أصْلِي فإنْ يشفك هذا فقد اشتفيتَ .

فقال لها: هذه شَجَاعَة لَعَمْرِي لقد كان أبوكِ شجاعاً . فقالت: ما للمرأة والشجاعة .

ولما نظر ابن زياد إلىٰ عليّ بن الحسين قال: ما اسمك؟ قال : عَليّ بن الحسين ؟ قال: أو لم يَقْتُلْ الله عليّ بن الحسين ؟ فسكت فقال : مالك لا تتكلم؟ فقال : كان لي أخ يقال له أيضاً عليّ فقتله الناس فقال : إنّ الله قتله . فسكَت عليّ فقال: مالك لا تتكلم ؟ فقال : الله يتوفىٰ الأنفَس حين موتها ، وما كان لنفسٍ أنْ تموت إلاّ بإذن الله . قال : أنتَ والله منهم ، ثم قال لرجل : ويحك انظرْ هذا هل أدرك ؟ إنّي لأحسبه رجلاً ، قال : فكشف عنه مري بن معاذ الأحمري فقال : نعم قد أدرك قال: اقتلْه ، فقال عليّ: مَنْ تُوكل بهذه النسوة. وتعلّقت به زينب فقالت : يابن زياد حسبُك مِنّا. أما رويت مِنْ دمائِنا، وهل أبقيت منا أحداً، واعتنقَتْه وقالت: أسألك بالله إنْ كنتَ مؤمناً إنْ قتلته لما تقتلني معه . وقال له عليّ : يا بن زياد إنْ كانت بينك وبينهن قرابة فأبعثْ معهن رجلاً تقيّاً يصحبهن بصحبةِ الإسلام فنظر إليها ساعة ثم قال : عجباً للرحم والله إنّي لأظنُّها وَدَّتْ لو أنّي قتلته أنّي قتلتها معه دعوا الغلام ينطلق مع نسائه . ثم نادىٰ الصلاة جامعة فأجتمعَ الناسُ ، فصعد المنبر فخطبهم وقال :

---

(١) الطبري : وأبرت أهلي ـ وهي أوضح .

«الحمدُ لله الذي أَظْهَرَ الحقَّ وأهله، ونصر أميرَ المؤمنين يزيد وحزبه[٢] وقَتَلَ الكذاب ابن الكذاب الحسين بن عليّ وشيعته».

فوثب إليه عبدالله بن عفيف الأزديّ ثم الوالبّي ـ وكان ضريراً قد ذهبتْ إحدى عينيه يوم الجمل مع عليّ والأخرىٰ بصفين معه أيضاً وكان لا يفارق المسجد يصلي فيه إلىٰ الليل ثم ينصرف ـ فلما سمع مقالة ابن زياد قال :

« يا بن مرجانة إنّ الكذاب ابن الكذاب أنت وأبوك والذي ولاك وأبوه ، يا بن مرجانة أتقتلون أبناء النبيين وتتكلمون بكلام الصديقين » ! فقال : عليَّ به ، فأخذوه فنادىٰ بشعار الأزد : « يا مبرور » فوثبَ إليه فتيةٌ مِن الأزد فانتزعوه [فأتوا به أهله] فأرسل إليه مَنْ أتاه به فقتله وأمر بصلْبه في المسجد فصُلب رحمه الله .

وأمر ابن زياد برأس الحسين فطِيف به في الكوفة وكان رأسه أوّل رأس حُمِل في الإسلام على خَشَبَة في قول ، والصحيح أنّ أول رأس حمل في الإسلام رأس عمرو بن الحمق .

ثم أرسل ابن زياد رأس الحسين ورؤوس أصحابه مع زحر بن قيس إلىٰ الشام إلىٰ يزيد ومعه جماعة ، وقيل : مع شمر وجماعة معه ، وأرسل معه النساء والصبيان وفيهم عليّ بن الحُسيْن قد جعل ابن زياد الغلّ في يديه ورقبته وحملهم علىٰ الأقتاب فلم يكلّمهم عليّ بن الحسين في الطريق حتىٰ بلغوا الشام ، فدخل زحر بن قيس على يزيد فقال : ما وراء ك .

فقال : أبشر يا أمير المؤمنين بفَتْح الله وبنصره . وَرَدَ علينا الحسين بن عليّ في ثمانية عشر مِنْ أهل بيته وستين مِنْ شيعته فسِرْنَا إليهم فسألناهم أنْ ينزلوا علىٰ حكم الأمير عبيدالله أو القتال فاختاروا القتال فَغَدْونَا عليهم مع شروق الشمس فأحطنا بهم مِنْ كل ناحية حتى إذا أخذت السيوف مأخذها مِنْ هام القوم جعلوا يهربون[١] إلى غير وزر ويلوذون بالآكام والحفر كما لاذ الحمائم مِنْ صقر ، فوالله ما كان إلّا جزر جزور أو نومة قائل حتىٰ أتينا علىٰ آخرهم فهاتيك أجسادهم مجرَّدة، وثيابهم مرمّلة ،

---

(١) هذا هو الفخر المزيف والكذب الصريح فإن كل المؤرخين يذكرون لمن كان مع الحسين وله ثباتاً لا يضارعه ثبات وإباء وشمما قل أن يريد لمكثور ناصره وكثر واتروه (م) .

وخدودهم معفرة ، تصهرهم الشمس وتسفي عليهم الريح ، زوارهم العقبان . والرخم بقاع سبسب .

قال : فدمعتْ عَيْنَا يزيد وقال : كنتُ أرضىٰ مِنْ طاعتكم بدون قتل الحسين . لَعَنَ الله ابنَ سمية ، أما والله لو أني صاحبه لعفوتُ عنه فرحم الله الحسين ولم يصله بشيء .

وقيل : إنّ آل الحسين لما وصلوا إلى الكوفة حبسهم ابن زياد وأرسل إلىٰ يزيد بالخبر فبينما هم في الحبس إذْ سقط عليهم حَجَر فيه كتابٌ مربوط ، وفيه أنّ البريد سار بأمركم إلىٰ يزيد فيصل يوم كذا ويعود يوم كذا فإنْ سمعتم التكبير فأيقنوا بالقتل[1] وإنْ لم تسمعوا تكبير فهو الأمان [إنْ شاء الله] ، فلما كان قبل قدوم البريد بيومين أو ثلاثة إذا حجر قد ألقي وفيه كتاب يقول فيه : أوصوا واعهدوا فقد قارب وصول البريد ، ثم جاء البريد بأمر يزيد بإرسالهم إليه فدعا ابن زياد مُحَفر بن ثعلبة ، وشمر بن ذي الجوشن وسيّرهما بالثقل والرأس ، فلما وصلوا إلىٰ دمشق نادىٰ محفر بن ثعلبة علىٰ باب يزيد : جئنا برأس أحمق الناس وألأمهم .

فقال يزيد : ما ولدتْ أم محفر ألأم وأحمق منه ، ولكنه قاطع ظالم .

ثم دخلوا علىٰ يزيد فوضعوا الرأس بين يديه وحَدَّثوه فَسَمِعَتْ الحديث هند بنت عبدالله بن عامر بن كريز ـ وكانت تحت يزيد ـ فتقنعتْ بثوبها وخرجتْ فقالت : يا أمير المؤمنين أرأس الحسين بن عليّ ابن فاطمة بنت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ؟ قال ؛ نعم فأعولي عليه وحدِّي علىٰ ابن بنت رسول الله ﷺ وصريحة قريش عجل عليه ابن زياد فقتله قتله الله .

ثم أَذِنَ للناس فدخلوا عليه والرأس بين يديه ومعه قضيب وهو ينكت به ثغره ثم قال : إنّ هذا وإيّانا كما قال الحصين بن الحمام :

أَبَىٰ قومنا أن ينصفونا فانصفت ... قواضب في أيماننا تقطر الدما
يفلِّقن هاماً مِن رجالٍ أعزَّةٍ ... علينا وهم كانوا أعقَّ وأظلَما

---

(١) في الأصل : فايفدوا بالقتل ـ وهو غلط .

فقال له أبو برزة الأسلميّ : « أتنكتُ بقضيبك في ثغرِ الحسين ! أما لقد أخذ قضيبُك في ثغره مـأخذاً لربما رأيتُ رسولَ الله ﷺ يرشفه . أما أنك يا يزيد تجيء يوم القيامة وابن زياد شفيعُك ويجيء هذا ومحمد شفيعه » . ثم قام فولى .

فقال يزيد : والله يا حسين لو كنتُ أنا صاحبُك ما قتلتُك .

ثم قال : أتدرون مِنْ أين أتىٰ هذا ؟ قال : أبي عليّ خيرٌ من أبيه ، وفاطمة أمي خيرٌ من أمه ، وجدي رسول الله خيرٌ من جده ، وأنا خيرٌ منه وأحق بهذا الأمر منه ، فأمّا قوله أبوه خيرٌ من أبي فقد تحاجّ أبي وأبوه إلىٰ الله وعلم الناسُ أيهما حُكِمَ له ، وأما قوله : أمي خيرٌ من أمه فلعمري فاطمة بنت رسول الله خيرٌ من أمي ، وأما قوله : جدي رسول الله خير من جده فلعمري ما أحدٌ يؤمن بالله واليوم الأخر يرىٰ لرسول الله فينا عدلاً ولا نِدّاً ولكنه أنما أتىٰ مِنْ قِبَل فقهه ولم يقرأ ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ المُلْكِ﴾[1] .

ثم أُدخل نساء الحسين عليه والرأس بين يديه فجعلت فاطمة ، وسُكَيْنـة ابنتا الحسين يتطاولان لينظرا إلىٰ الرأس ؛ وجعل يزيد يتطاول ليستر عنهما الرأس ، فلما رأَيْنَ الرأسَ صِحْنَ فصاح نساءُ يزيد وولولتْ بناتُ معاوية فقالت فاطمة بنت الحسين ـ وكانت أكبر مِنْ سُكَيْنة ـ : أبنات رسول الله سبايا يا يزيد؟

فقال : يا ابنة أخي أنا لهذا كنتُ أكره قالتْ : والله ما تُرِكَ لنا خرص فقال : ما أتى إليكن أعظم مما أُخِذَ منكن .

فقام رجل من أهل الشام فقال : هَبْ لي هذه ـ يعني فاطمة ـ فأخذتْ بثيـابِ أختها زينب ـ وكانت أكبر منها ـ فقالت زينب : كذبتَ ولؤمت مـا ذلك لـك ولا له. فغضب يزيد وقال: كذبتِ واللهِ إنّ ذلك لي ، ولو شئتُ أن أفعله لفعلته .

قالت : كلّا واللهِ ما جعل اللهُ لك ذلك إلاّ أنْ تخرجَ مِنْ مِلَّتِنا وتدين بغير ديننا فغضب يزيد واستطار ، ثم قال : إياي تستقبلين بهذا ! إنمـا خرج مِن الـدين أبوكِ وأخوك .

---

(١) آل عمران : ٢٦ .

وهذه كلها حجج باطلة فاسدة ، فما ولي يزيد إلا ببيعة أجبر معاوية المسلمين عليها ، وما كان يزيد بذي وزن ولا قدر لو أنصف الحق فَمَنْ هذا وخيرة المسلمين في كل مكان .

قالت زينب : بدينِ اللهِ ودين أبي وأخي وجَدِّي اهتديتَ أنتَ وأبوك وجدك . قال : كذبتِ يا عدوة الله قالت : أنتَ أمير تشتُم ظالماً ، وتقهر بلسطانك ، فاستحىٰ وسكت ، ثم أُخْرِجْنَ وأُدْخِلْنَ دور يزيد فلم تبق امرأة مِنْ آل يزيد إلّا اتتهن واقمن المأتم وسألهن عما أُخِذَ منهنّ فأضعفه لهنّ فكانت سُكَيْنَة تقول: **ما رأيتُ كافراً بالله خيراً من يزيد بن معاوية .**

ثم أمر بعلي بن الحسين فأدخل مغلولاً فقال : لو رآنا رسولُ الله ﷺ مغلولين لفكَّ عنا قال : صدقتَ . وأمرَ بفكِّ غله عنه . فقال علي : لو رآنا رسول الله ﷺ بُعَدَاء لأحبَّ أنْ يقربنا ، فأمر به فقُرِّب منه وقال له يزيد : إيه يا عليّ بن الحسين أبوك الذي قطعَ رحمي ، وجهل حقي ، ونازعني سلطاني فصنع الله به ما رأيتَ .

فقال علي : ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيْبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي أَنْفُسِكِم إلَّا في كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَىٰ اللهِ يَسِير لِكَيْلا تَأْسَوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُم وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُم واللهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مختالٍ فَخُور ﴾ .

فقال يزيد : ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِنْ مُصِيْبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُم﴾[1] ثم سكت عنه وأمر بإنزاله وإنزال نسائه في دارٍ علىٰ حدة .

وكان يزيد لا يتغدىٰ ولا يتعشىٰ إلّا دعا عليّاً إليه ، فدعاه ذات يوم ومعه عمرو بن الحسن وهو غلام صغير فقال لعمرو : أتقاتل هذا ، يعني خالد بن يزيد . فقال عمرو : أعطني سكيناً وآعطه سكيناً حتىٰ آقاتِلَه . فضَمَّه يزيد إليه وقال : شنشنةٌ أعرِفُهَا مِنْ أخزَم هل تلدُ الحيةُ إلَّا حَيَّة !

وقيل : لما وصـل رأسُ الحسين إلىٰ يزيـد حسنتْ حال ابـن زيـاد عنده ، ووصله ، وسَرَّه ما فعل ثم لم يلبث إلّا يسيراً حتىٰ بلغه بُغض الناس له ، ولعنهم ، وسبهم فندِم علىٰ قتل الحسين فكان يقول : « ومـا عليَّ لو آحتملتُ الأذىٰ وأنـزلتُ الحسين معي في داري وحكَّمته فيما يريد وإنْ كانَعلي في ذلك وهن في سلطاني حفظاً لرسول الله ﷺ ورعاية لحقه وقرابته ! لعنَ اللهُ ابنَ مرجانة فإنّه اضطره ، وقد سأله أنْ يضعَ يده في يدي أو يلحق بثغر حتىٰ يتوفاه الله فلم يجبه إلىٰ ذلك فقتله فبغضني بقتله إلىٰ

---

(١) الشورى : ٣٠ .

المسلمين ، وزرع في قلوبهم العداوة فأبغضني البَرُّ والفاجر بما استعظموه مِنْ قتل الحسين ، مالي ولابن مرجانة لعنة الله وغضب عليه » .

ولما أراد أنْ يسيِّرهم إلىٰ المدينة أمر يزيد النعمان بن بشير أنْ يجهّزهم بما يصلحهم ، ويُسَيِّر معهم رجلاً أميناً من أهل الشام ومعه خيل يسير بهم إلىٰ المدينة ، ودعا عليّاً ليودعَه وقال له : « لعنَ اللهُ ابنَ مرجانة . أما والله لو أنّي صاحبه ما سألني خصلة أبداً إلاّ أعطيته إياها ولدفعتُ الحتفَ عنه بكل ما استطعت ولو بهلاك بعض ولدي ولكن قضىٰ اللهُ ما رأيتَ . يا بُنّي كاتبني حاجة تكونُ لك » .

وأوصىٰ بهم هذا الرسول فخرج بهم فكان يسايرهم ليلاً فيكونون أمامه بحيث لا يفوتون طرفه فإذا نزلوا تنحىٰ عنهم هو وأصحابه فكانوا حولهم كهيئة الحرس ، وكان يسألهم عن حاجتهم ويلطف بهم حتىٰ دخلوا المدينة فقالت فاطمة بنت عليّ لأختها زينب : لقد أحسنَ هذا الرجل إلينا فهل لك أنْ نصِله بشيء ؟ فقالت : والله ما معنا ما نصِله به إلاّ حلينا . فأخرجتا سوارَيْن ودملَجَيْن لهما فبعثتا به إليه واعتذرتا فردّ الجميع وقال : لو كان الذي صنعتُ للدنيا لكان في هذا ما يرضيني [ودونه] ولكن واللهِ ما فعلتُه إلاّ لله ولقرابتِكم من رسول الله ﷺ .

وكان مع الحسين امرأته الرباب بنت امرىء القيس وهي أم ابنته سُكَيْنَة وحملتْ إلىٰ الشام فيمن حُمْل مِن أهله ثم عادتْ إلى المدينة فخطبها الأشرافُ من قريش فقالت : ما كنتُ لأتّخذ حَمْواً بعد رسول الله ﷺ . وبقيتْ بعده سنة لم يظلّها سقفُ بيت حتىٰ بليت وماتت كَمَداً ، وقيل : إنها أقامتْ علىٰ قبره سنة وعادتْ إلىٰ المدينة فماتت أَسَفَاً عليه .

وأرسل عبيدالله بن زياد مُبَشِّراً إلىٰ المدينة بقَتْل الحسين إلىٰ عمرو بن سعيد فلقيه رجلٌ من قريش فقال : ما الخبر ؟ فقال : الخبر عند الأمير . فقال القرشيّ : إنا لله وإنّا إليه راجعون قُتِلَ الحَسْين.

ودخل البشير علىٰ عمرو بن سعيد فقال: ما وراءك ؟ قال ما سَرَّ الأمير . قُتل الحسين بن علي : فقال : نادِ بِقَتْله . فنادىٰ فصاح نساءُ بني هاشم ، وخرجتْ ابنة عَقِيل بن أبي طالب ومعها نساؤها حاسرة تلوي بثيابها وهي تقول :

مَاذا تَقُولُـونَ إنْ قَالَ النَّبِيُّ لَكُم ... مَــاذَا فَعَلْتُم وَأَنْتُم آخِـرُ الأُمَمِ
بِعِتْـرتِي وَبِأَهْلِي بَعْـد مُفْتَقَـدِي ... منهم أسارىٰ وقتلىٰ ضُرِّجُوا بدم
ما كان هذا جزائي إذ نصحتُ لكم ... أنْ تخلفوني بسوءٍ في ذوي رَحِمِي

فلما سمع عمرو أصواتهم ضحك وقال :

عَجَّتْ نســاءُ بني زيـاد عجــة ... كعجيـج نسـوتنـا غـداة الأرنب

والأر نب: وقعة كانت لبني زبيد علىٰ بني زياد من بني الحارث بن كعب، وهذا البيت لعمرو بن معد يكرب ثم قال عمرو: ناعية كناعية عثمان، ثم صعد المنبر فأعلم الناس قتله.

ولما بلغ عبدالله بن جعفر قتل ابنيه مع الحسين دخل عليه بعض مواليه يعزيه والناس يعزونه فقال مولاه : هذا ما لقيناه من الحسين ، فحذفه ابنُ جعفر بنعله وقال : يا بن اللخناء أللحسين تقول هذا؟والله لوشهدتهُ لاحببتُ أنْ لا أفارقه حتىٰ أُقتل معه ، والله إنه لمما يسخي بنفسي عنهما ويهون علي المصاب بهما أنهما أصيبا مع أخي وابن عمي مواسيين له صابرين معه ثم قال : إنْ لم تكن آست الحسين يدي فقد آساه ولدي ؛ ولما وفد أهل الكوفة بالرأس إلى الشام ودخلوا مسجد دمشق أتاهم مروان بن الحكم فسألهم كيف صنعوا ؟ فاخبروه فقام عنهم ، ثم أتاهم أخوه يحيى بن الحكم فسألهم فأعادوا عليه الكلام فقال : حجبتم عن محمد ﷺ يقوم القيامة لن أجامعكم على أمر أبداً ، ثم انصرف عنهم فلما دخلوا على يزيد قال يحيى بن الحكم :

لهـام بجنب الـطف أدنى قــرابـة ... من ابن زياد العبد ذي الحسب الوغل
سميـة أمسى نسلها عـدد الحصى ... وليس لآل المصطفى اليوم من نسل

فضرب يزيد في صدره ، وقال : اسكت ، قيل : وسمع بعض أهل المدينة ليلة قتل الحسين منادياً ينادي :

أيهـا القـاتلون جهـلاً حسينـا ... أبشـروا بـالعـذاب والـتنكيـل
كـل أهـل السمـاء يـدعـو عليكم ... مــن نــبـي ومـلأك وقـبـيـل
قــد لعنتم عـلى لســان ابـن داو ... د ومــوسى وصــاحب الانـجيـل

ومكث الناس شهرين أو ثلاثة كأنما تلطخ الحوائط بالدماء ساعة تطلع الشمس حتى ترتفع قال رأس جالوت ذلك الزمان : ما مررت بكربلاء إلا وأنا أركض دابتي حتى أخلف المكان لانا كنا نتحدث أن ولد نبي يقتل بذلك المكان فكنت أخاف ، فلما قتل الحسين آمنت فكنت أسير ولا أركض ، قيل : وكان عمر الحسين يوم قتل خمساً وخمسين سنة ، وقيل : قتل وهو ابن إحدى وستين وليس بشيء ، وكان قتله يوم عاشوراء سنة إحدى وستين .

(برير بن خضير) بضم الباء الموحدة وفتح الراء المهملة وسكون الياء المثناة من تحتها وآخره راء، و (خضير) بالخاء والضاد المعجمتين ((وثبيت) بضم الثاء المثلثة وفتح الباء الموحدة وسكون الياء المثناة من تحتها وآخره تاء مثناة من فوقها (محفر) بضم الميم وفتح الحاء المهملة وتشديد الفاء المكسورة وآخره راء. وقال التيمي تيم مرة يرثي الحسين وأهله وكان منقطعاً إلى بني هاشم :

مررت على أبيات آل محمد ... فلم أرها أمثالها يوم حلت
فلا يبعد الله الديار وأهلها ... وان اصبحت من أهلها قد تخلت
وإن قتيل الطف من آل هاشم ... أذل رقاب المسلمين فذلت
وكانوا رجاء ثم أضحوا رزية ... لقد عظمت تلك الرزايا وجلت
وعند غني قطرة من دمائنا ... سنجزيهم يوماً بها حيث حلت
إذا افتقرت قيس جبرنا فقيرها ... وتقتلنا قيس إذا النعل زلت

ذكر أسماء من قتل معه

قال سليمان : لما قتل الحسين ومن معه حملت رؤوسهم الى ابن زياد فجاءت كندة بثلاثة عشر رأساً وصاحبهم قيس بن الأشعث ، وجاءت هوازن بعشرين رأساً وصاحبهم شمر بن ذي الجوشن الضبابي ، وجاءت بنو تميم بسبعة عشر رأساً ، وجاءت بنو أسد بستة أرؤوس ، وجاءت مذحج بسبعة أرؤوس ، وجاء سائر الجيش بسبعة أرؤوس فذلك سبعون رأساً ، وقتل الحسين وقتله سنان بن أنس النخعي لعنه الله ، وقتل العباس بن علي وأمه أم البنين بنت حزام قتله زيد بن داود الجنبي وحكيم بن الطفيل السنبسي ، وقتل جعفر بن علي وأمه أم البنين أيضاً ، وقتل عبدالله بن علي

وأمه أم البنين أيضاً ، وقتل عثمان بن علي وأمه أم البنين أيضاً رماه خولي بن يزيد بسهم فقتله ، وقتل محمد بن علي وأمه أم ولد قتله رجل من بني دارم ، وقتل أبو بكر بن علي وأمه ليلى بنت مسعود الدارمية وقد شك في قتله ، وقتل علي بن الحسين بن علي وأمه ليلى ابنة أبي مرة بن عروة الثقفي وأمها ميمونة ابنة أبي سفيان بن حرب قتله منقذ بن النعمان العبدي ، وقتل عبدالله بن الحسين بن علي وأمه الرباب ابنة امرىء القيس الكلبي قتله هانىء بن ثبيت الحضرمي ، وقتل أبو بكر ابن أخيه الحسن أيضاً وأمه أم ولد قتله حرملة بن الكاهن رماه بسهم ، وقتل القاسم بن الحسن أيضاً قتله سعد بن عمرو بن نفيل الأزدي، وقتل عون بن أبي جعفر بن أبي طالب وأمه جمانة بنت المسيب بن نجية الفزاري قتله عبدالله بن قطبة الطائي ، وقتل محمد بن عبدالله بن جعفر وأمه الخوصاء بنت خصفة بن تيم الله بن ثعلبة قتله عامر بن نهشل التيمي ، وقتل جعفر بن عقيل بن أبي طالب وأمه أم بنين ابنة الشقر بن الهضاب قتله بشر بن الخوط الهمداني ، وقتل عبد الرحمن بن عقيل وأمه أم ولد قتله عثمان بن خالد الجهني ، وقتل عبدالله بن عقيل وأمه أم ولد رماه عمرو بن صبيح الصيداوي بسهم فقتله، وقتل مسلم بن عقيل بالكوفة وأمه أم ولد ، وقتل عبدالله بن مسلم بن عقيل وأمه رقية ابنة علي بن أبي طالب قتله عمرو بن صبيح الصيداوي ، ويقال : قتله مالك بن أسيد الحضرمي ، وقتل محمد بن أبي سعيد بن عقيل وأمه أم ولد قتله لقيط بن ياسر الجهني ، واستصغر الحسن بن الحسن بن علي وأمه خولة بنت منظور بن زياد الفزاري ، واستصغر عمرو بن الحسن وأمه أم ولد فلم يقتلا ، وقتل من الموالي [سليماً مولى] الحسين قتله سليمان بن عوف الحضرمي ، وقتل منجح مولى الحسين أيضاً ؛ وقتل عبدالله بن بقطر رضيع الحسين، قال ابن عباس : رأيت النبي ﷺ الليلة التي قتل فيها الحسين وبيده قارورة وهو يجمع فيها دماً فقلت : يا رسول الله ما هذا ؟ قال : هذه دماء الحسين وأصحابه أرفعها إلى الله تعالى فاصبح ابن عباس فاعلم الناس بقتل الحسين وقص رؤياه فوجد قد قتل في ذلك اليوم . وروى أن النبي ﷺ أعطى أم سلمة تراباً من تربة الحسين حمله اليه جبريل فقال النبي ﷺ لأم سلمة : إذا صار هذا التراب دماً فقد قتل الحسين فحفظت أم سلمة ذلك التراب في قارورة عندها فلما قتل الحسين صار التراب دماً فأعلمت الناس بقتله أيضاً ، وهذا يستقيم على قول من يقول : أم سلمة توفيت بعد الحسين ، ثم إن ابن زياد قال لعمر بن سعد بعد عوده من قتل الحسين:

يا عمر ائتني بالكتاب الذي كتبته إليك في قتل الحسين قال: مضيت لأمرك وضاع الكتاب قال: لتجئني به قال: ضاع. قال: لتجئني به قال: ترك والله يقرأ على عجائز قريش بالمدينة اعتذاراً إليهن أما والله لقد نصحتك في الحسين نصيحة لو نصحتها أبي سعد بن أبي وقاص لكنت قد أديت حقه فقال عثمان بن زياد أخو عبيدالله: صدق والله لوددت أنه ليس من بني زياد رجل إلا وفي أنفه خزامة إلى يوم القيامة وأن الحسين لم يقتل فما أنكر ذلك عبيدالله بن زياد (آخر المقتل).

ذكر مقتل أبي بلال مرداس بن حدير الحنظلي

قد تقدم ذكر سبب خروجه وتوجيه عبيدالله بن زياد العساكر اليه في الفي رجل فالتقائهم بآسك وهزيمة عسكر ابن زياد، فلما هزمهم أبو بلال وبلغ ذلك ابن زياد أرسل اليه ثلاثة آلاف عليهم عباد بن الأخضر، والأخضر زوج أمه نسب اليه وهو عباد بن علقمة بن عباد التميمي فاتبعه حتى لحقه بتوج فصف له عباد وحمل عليهم أبو بلال فيمن معه فثبتوا واشتد القتال حتى دخل وقت العصر فقال أبو بلال: هذا يوم جمعة وهو يوم عظيم وهذا وقت العصر فدعونا حتى نصلي، فاجابهم ابن الأخضر وتحاجزوا فعجل ابن الأخضر الصلاة، وقيل: قطعها والخوارج يصلون فشد عليهم هو وأصحابه وهم ما بين قائم وراكع وساجد لم يتغير منهم أحد من حاله فقتلوا من آخرهم، وأخذ رأس أبي بلال ورجع عباد إلى البصرة فرصد بها عبيدة بن هلال ومعه ثلاثة نفر فأقبل عباد يريد قصر الإمارة وهو مردف ابناً صغيراً له فقالوا له: قف حتى نستفتيك فوقف فقالوا: نحن أخوة أربعة قتل أخونا فما ترى؟ قال: استعدوا الأمير قالوا: قد استعديناه فلم يعدنا قال: فاقتلوه قتله الله فوثبوا عليه وحكموا به فالقي ابنه فنجا وقتل هو فاجتمع الناس على الخوارج فقتلوا غير عبيدة، ولما قتل ابن عباد كان ابن زياد بالكوفة ونائبه بالبصرةعبيدالله بن أبي بكرة فكتب اليه يأمره أن يتبع الخوارج ففعل ذلك وجعل يأخذهم فاذا شفع في أحدهم ضمنه إلى أن يقدم ابن زياد ومن لم يكفله أحد حبسه، وأتى بعروة بن أدية فاطلقه وقال: أنا كفيلك، فلما قدم ابن زياد أخذ من في الحبس من الخوارج فقتلهم وطلب الكفلاء بمن كفلوا به فمن أتى بخارجي أطلقه وقتل الخارجي ومن لم يأت بالخارجي قتله، ثم طلب عبيدالله بن أبي بكرة بعروة بن أدية قال: لا أقدر عليه فقال: اذن أقتلك به فلم يزل يبحث عنه حتى ظفر به وأحضره عند ابن زياد فقال له

ابن زياد : لأمثلن بك فقال : اختر لنفسك من القصاص ما شئت به فامر به فقطعت يداه ورجلاه وصلبه : وقيل : إنه قتل سنة ثمان وخمسين

ذكر ولاية سلم بن زياد على خراسان ، وسجستان

قيل : في هذه السنة استعمل يزيد سلم بن زياد على خراسان ، وسبب ذلك أن سلماً قدم على يزيد فقال له يزيد : يا أبا حرب أوليك عمل أخويك عبد الرحمن ، وعباد ؟ فقال: ما أحب أمير المؤمنين فولاه خراسان ، وسجستان . فوجه سلم الحرث بن معاوية الحارثي جد عيسى بن شبيب إلى خراسان وقدم سلم البصرة فتجهز منها فوجه أخاه يزيد إلى سجستان فكتب عبيدالله بن زياد إلى أخيه عباد يخبره بولاية سلم فقسم عباد ما في بيت المال على عبيده وفضل فضل فنادى من أراد سلفاً فليأخذ فأسلف كل من أتاه ، وخرج عباد من سجستان فلما كان بجيرفت بلغه مكان سلم وكان بينهما جبل فعدل عنه فذهب لعباد تلك الليلة ألف مملوك أقل ما مع أحدهم عشرة آلاف ، وسار عباد على فارس فقدم على يزيد فسأله عن المال فقال : كنت صاحب ثغر فقسمت ما أصبت بين الناس ، ولما سار سلم إلى خراسان كتب معه يزيد إلى أخيه عبيدالله بن زياد ينتخب له ستة آلاف فارس ، وقيل : ألفي فارس وكان سلم ينتخب الوجوه فخرج معه عمران بن الفضيل البرجمي . والمهلب بن أبي صفرة . وعبدالله بن خازم السلمي . وطلحة بن عبدالله بن خلف الخزاعي . وحنظلة بن عرادة . ويحيى بن يعمر العدواني . وصلة بن أشيم العدوي . وغيرهم ، وسار سلم إلى خراسان وعبر النهر غازياً ، وكان عمال خراسان قبله يغزون فاذا دخل الشتاء رجعوا إلى مرو الشاهجان فإذا انصرف المسلمون اجتمع ملوك خراسان بمدينة مما يلي خوارزم فيتعاقدون أن لا يغزو بعضهم بعضاً ويتشاورون في أمورهم ، فكان المسلمون يطلبون إلى أمرائهم غزو تلك المدينة فيأبون عليهم ، فلما قدم سلم غزا فشتا في بعض مغازيه فألح عليه المهلب بن أبي صفرة وسأله التوجه إلى تلك المدينة فوجهه في ستة آلاف ، وقيل : أربعة آلاف فحاصرهم فطلبوا أن يصالحهم على أن يفدوا أنفسهم فأجابهم إلى ذلك وصالحوه على نيف وعشرين ألف ألف ، وكان في صلحهم أن يأخذ منهم عروضاً فكان يأخذ الرأس ، والدابة ، والمتاع بنصف ثمنه فبلغت قيمة ما أخذ منهم خمسين الف الف فحظي بها المهلب عند سلم ، وأخذ سلم من ذلك ما أعجبه

وبعث به الى يزيد ،وغزا سلم سمرقند وعبرت معه النهر امرأته أم محمد ابنة عبدالله بن عثمان بن أبي العاص الثقفية وهي أول امرأة من العرب قطع بها النهر فولدت له ابناً سماه صغدي ، واستعارت امرأته من امرأة صاحب الصغد حليها فلم تعده اليها وذهبت به ، ووجه جيشاً الى خجندة فيهم أعشى همدان فهزموا فقال أعشى :

ليت خيلي يـوم الخجنـدة لم تهـ ـزم وغـودرت في المكـر سليبـا
تحضـر الـطير مصـرعي وتـروحـ ـت الى الله بـالـدمـاء خضيبـا

ذكر ولاية يزيد بن زياد وطلحة الطّلحات سجستان

ولما استعمل يزيد بن معاوية سلم بن زياد على خراسان ، استعمل أخاه يزيد عـلى سجستـان فغدر أهل كابل فنكثوا وأسروا أبا عبيدة بن زياد . فسار إليهم يزيد بن زياد في جيش فاقتتلوا وانهزم المسلمون وقتل منهم كثير . فممن قتل يزيد بن عبدالله بن أبي مليكة ، وصلة بن أُشْيَم أبو الصهباء العدوي زوج مُعاذة العَدَوية ، فلما بلغ الخبر سلم بن زياد سير طلحة بن عبدالله بن خلف الخزاعي ـ وهو طلحة الطلحات ـ ففدى أبا عبيدة بن زياد بخمسمائة ألف درهم ، وسار طلحة من كابل إلى سجستان والياً عليها ، فجبىٰ المال وأعطى زوّارَهُ ، ومات بسجستان واستخلف رجلاً من بني يَشْكُر فأخرجته المُضَرية ووقعت العصبية ، فطمع فيهم رتبيل .

ذكر ولاية الوليد بن عتبة المدينة والحجاز وعزل عمرو بن سعيد

قيل : وفي هذه السنة عزل يزيدُ عمرَو بن سعيد عن المدينة وولاها الوليد بن عتبة بن أبي سفيان . وكان سبب ذلك أن عبدالله بن الزبير أَظهر الخلاف على يزيد ، وبويع بمكة بعد قتل الحسين . فإنه لما بلغه قتل الحسين قام في الناس فعظّم قتله وعابَ أهلَ الكوفة خاصة وأهل العراق عامة فقال ، بعد حمد الله والصلاة على رسول الله ﷺ : إن أهل العراق غدراء فجراء[١] إلا قليلاً وإن أهل الكوفة شرارُ أهلِ العراق وإنهم دعوا الحسين لينصروه ويولوه عليهم ، فلما قدم عليهم ثاروا عليه فقالوا : إما أَنْ

---

(١) في الطبري : «غُدُرٌ فُجُرٌ» .

تضعَ يدَكَ في أيدينا فنبعث بك إلى ابن زياد بن سُميَّة فيمضي فيك حكمه ، وإما أن تحارب . فرأى والله أنه هو وأصحابه قليل في كثير فإن كان الله لم يُطلع على الغيب أحداً أنه مقتول ، ولكنه اختار الميتة الكريمة على الحياة الذميمة ، فرحم الله الحسين وأخزى قاتله لَعمري لقد كان من خلافهم إياه وعصيانهم بما كان في مثله واعظ وناهٍ عنهم ولكنه ما قرر[١] نازل وإذا أراد الله أمراً لم يدفع . أفبعد الحسين نطمئن إلى هؤلاء القوم ونصدق قولهم ونقبلُ لهم عهداً ؟ لا والله لا نراهم لذلك أهلاً . أما والله لقد قتلوه ، طويلاً بالليل قيامُه ، كثيراً في النهار صيامُهُ . أحق بما هم فيه منهم وأولى به في الدين والفضل . أما والله ما كان يبدل القرآن غياً ولا بالبكاء من خشية الله حداً[٢] ولا بالصيام شرب الخمر ولا بالمجالس في حَلَق الذكر بكلاب الصيد ـ يعرض بيزيد ـ ﴿فسوف يلقون غياً﴾ [٣] فثار إليه أصحابه وقالوا : أظهِر بيعتك فإنك لم يَبْقَ أحدٌ إذ هلك الحسين ينازعكَ هذا الأمر . وقد كان يبايع سراً ويظهر أنه عائذ بالبيت فقال لهم : لا تعجلوا . وعمرو بن سعيد يومئذ عامل مكة وهو أشد شيء على ابن الزبير وهو مع ذلك يداري ويرفق .

فلما استقر عند يزيد ما قد جمع ابن الزبير بمكة من الجموع أعطى الله عهداً لَيُوَثِّقنهُ في سلسلة فبعث إليه سلسلة من فضة مع ابن عطاء الأشعري ، وسعد ، وأصحابهما ليأتوه به فيها ، وبعث معهم برنس خز ليلبسوه عليها لئلا تظهر للناس فاجتاز ابن عطاء بالمدينة وبها مروان بن الحكم فأخبره ما قدم له فأرسل مروان معه ولدين له أحدهما عبد العزيز وقال : إذا بلغته رسل يزيد فتعرضا له وليتمثل أحدكما بهذا القول فقال :

فَخُذْها فليستْ للعزيزِ بخطَّةٍ ... وفيها فعال لامرىءٍ مُتَذَلِّلِ [٤]
أعامرُ إنَّ القومَ سامُوكَ خطَّةً ... وذلك في الجيرانِ غزلاً بمغزلِ
أراك إذا ما كنتَ للقومِ ناصحاً ... يقالُ له بالدلو أدْبِرْ وأقبلِ [٥]

---

(١) في الطبري «ما حُمَّ» .

(٢) في الطبري «ما كان يبدل بالقرآن الغناء ولا بالبكاء من خشية الله الحداء » وهي أوضح وأظهر .

(٣) سورة مريم ٥٩ .

(٤) في الطبري «لامرىء متضعف» .

(٥) ضبطنا هذه الأبيات من الطبري .

فلما بلغه الرسول الرسالة قال عبد العزيز الأبيات فقال ابن الزبير: يا ابني مروان قد سمعت ما قلتما فأخبرا أباكما :

إني لمن نبعـةٍ صُمٍّ مكاسِـرُها إذا تناوَحَتِ البكاءُ والعُشَـرُ[١]

فـلا ألين لغيـرِ الحقِّ أســألُـهُ حتى يلينَ لِضِرسِ الماضِغِ الحَجَرُ

وامتنع ابن الزبير من رسل يزيد فقال الوليد بن عتبة ، وناس من بني أمية ليزيد: لو شاء عمرو لأخذ ابن الزبير وسرّحه إليك . فعزل عَمراً وولى الوليد الحجاز ، وأخذ الوليد غلمان عمرو ومواليه فحبسهم فكلمه عمرو فأبى أن يخليهم فسار عن المدينة ليلتين وأرسل إلى غلمانه بعدّتهم من الإبل فكسروا الحبس وساروا إليه فلحقوه عند وصوله إلى الشام ، فدخل على يزيد وأعلمه ما كان فيه من مكابدة ابن الزبير فعذره وعلم صدقه .

ذكر عدة حوادث

حج بالناس الوليد هذه السنة ، وكان الأمير بالعراق عبيدالله بن زيـاد ، وعلى خراسان سَلَم بن زياد ، وعلى قضاء الكوفة شُريح ، وعلى قضـاء البصرة هشـام بن هُبيرة . وفي هذه السنة مات علقمة بن قيس النخعي صاحب ابن مسعود ، وقيل : سنة اثنتين ، وقيل : خمس وله تسعون سنة ، وفيها توفي المنـذر بن الجارود العبـدي ، وجابر بن عُتيك الأنصاري[٢]، وقيل : حر وكان عمره إحدى وتسعين سنة وشهد بدراً . وفيها مات حمزة بن عمرو الأسلمي وعمره إحدى وسبعون سنة ، وقيل : ثمانون سنة له صحبة[٣] . وفيها توفي خالد بن عرفطة الليثي ، وقيل : العذري حليف بني زهرة ، وقيل : مات سنة ستين وله صحبة .

---

(١) في الطبري «إذا تناوحت القصباء والعشر».

(٢) وكان حامل راية الأنصار يوم الفتح ، ووقع في البداية والنهاية أنه توفي عن احدى وسبعين سنة بالباء الموحدة.

(٣) روى البخاري في التاريخ بإسناد جيد عنه أنه قال : «كنا مع رسول الله ﷺ في ليلة مظلمة فأضاءت لي أصابعي حتى جمعت عليها كل متاع كان للقوم».

ثم دخلت سنة اثنتين وستين

ذكر وفد أهل المدينة إلى الشام

لما وَلِي الوليد الحجاز أقام يريد غرّة ابن الزبير فلا يجده إلا محترزاً ممتنعاً ، وثار نَجْدة بن عامر النخعي باليمامة حينَ قتل الحسين ، وثار ابن الزبير بالحجاز ، وكان الوليد يُفيض من المُعَرَّفِ ويفيض معه سائر الناس وابن الزبير واقف في أصحابه . ونَجدة واقف في أصحابه . ثم يفيض ابن الزبير بأصحابه ، ونجدة بأصحابه . وكان نجدة يلقى ابن الزبير فيُكثر حتى ظن أكثر الناس أنه سيبايعه ، ثم إن ابن الزبير عمل بالمكر في أمر الوليد، فكتب إلى يزيد: إنك بعثت إلينا رجلاً أخرقَ لا ينجد[1] لرشد ولا يرعوي لعِظة الحكيم ، فلو بعثت رجلاً سهلَ الخُلُق رجوتُ أن يسهُل من الأمور ما استوعر منها وأن يجتمعِ ما تفرّق ، فعزل يزيد الوليد وولى عثمان بن محمد بن أبي سفيان وهو فتى غرٌّ حَدَثٌ لم يجربِ الأمور ، ولم يحنكه السِّن ، لا يكاد ينظر في شيء من سلطانه ولا عمله ، فبعث إلى يزيد وفداً من أهل المدينة فيهم عبدالله بن حنظلة غسيل الملائكة ، وعبدالله بن أبي عمرو بن حفص بن المغيرة المخزومي ، والمنذر بن الزبير ورجالاً كثيرة من أشراف أهل المدينة ، فقدموا على يزيد فأكرمهم وأحسن إليهم وأعظم جوائزهم فأعطى عبدالله بن حنظلة ـ وكان شريفاً فاضلاً عابداً سيداً ـ مائة ألف درهم ، وكان معه ثمانية بنين فأعطى كل ولد عشرة آلاف ، فلما رجعوا قدموا المدينة كلهم إلا المنذر بن الزبير فإنه قدم العراق على ابن زياد وكان يزيد قد أجازه بمائة ألف ، فلما قدم أولئك النفر الوفد المدينة قاموا فيهم فأظهروا شتم يزيد وعيبه[2] وقالوا : قدمنا من عند رجل ليس له دين يشرب الخمر ويضرب بالطنابير

---

(١) في الطبري : «لا يتجه».

(٢) في الطبري : «وعتبه».

ويعزف عنده القيان ، ويلعب بالكلاب ويسمر عنده الخراب ـ وهم اللصوص ـ وإنا نُشهدكم أنّا قد خلعناه ، وقام عبدالله بن حنظلة الغسيل فقال : جئتكم من عند رجل لو لم أجد إلا بني هؤلاء لجاهدته بهم وقد أعطاني وأكرمني وما قبلت منه عطاءه إلا لأتقوى به فخلعه الناس وبايعوا عبدالله بن حنظلة الغسيل على خلع يزيد وولوه عليهم .

وأما المنذر بن الزبير فإنه قدم على ابن زياد فأكرمه وأحسن إليه وكان صديق زياد ، فأتاه كتاب يزيد حيث بلغه أمر المدينة يأمره بحبس المنذر ، فكره ذلك لأنه ضيفه وصديق أبيه فدعاه وأخبره بالكتاب فقال له : إذا اجتمع الناس عندي فقُمْ وقُلْ : ائذن لي لأنصرف إلى بلادي فإذا قلت : بل تُقِم عندي فلك الكرامة والمواساة فقل : إن لي ضيعة وشغلاً ولا أجد بدّاً لي من الانصراف فإني آذن لك في الانصراف فتلحق بأهلك . فلما اجتمع الناس على ابن زياد فعل المنذر ذلك فأذن له في الانصراف فقدم المدينة فكان ممن يحرض الناس على يزيد وقال : إنه قد أجازني بمائة ألف ولا يمنعني ما صنع بي أن أخبركم خبره وأصدقكم عنه والله إنه ليشرب الخمر والله إنه ليسكر حتى يدع الصلاة وعابه بمثل ما عابه به أصحابه وأشد . فبعث يزيد النعمان بن بشير الأنصاري وقال له : إن عدد الناس بالمدينة قومك فإنهم ما يمنعهم شيء عما يريدون فإنهم إن لم ينهضوا في هذا الأمر لم يجترىء الناس على خلافي ، فأقبل النعمان فأتى قومه فأمرهم بلزوم الطاعة وخوفهم الفتنة وقال لهم : إنكم لا طاقة لكم بأهل الشام فقال عبدالله بن مطيع العدوي : يا نعمان ما عملك على فساد ما أصلح الله من أمرنا وتفريق جماعتنا ؟ فقال النعمان : والله لكأني بك لو نزل بك الجموع وقامت لك على الركب تضرب مفارق القوم وجباههم بالسيف ودارت رحى الموت بين الفريقين قد ركبت بغلتك إلى مكة وخلفت هؤلاء المساكين ـ يعني الأنصار ـ يقتلون في سككهم ومساجدهم وعلى أبواب دورهم فعصاه الناس وانصرف وكان الأمر كما قال .

ذكر ولاية عقبة بن نافع إفريقية ثانية وما افتتحه فيها وقتله

قد ذكرنا عزل عقبة عن إفريقية وعوده إلى الشام . فلما وصل إلى معاوية وعده بإعادته إلى إفريقية، وتوفي معاوية ـ وعقبة بالشام ـ فاستعمله يزيد على إفريقية في هذه السنة وأرسله إليها فوصل إلى القيروان مجدّاً . وقبض أبا المهاجر أميرها وأوثقه في الحديد وترك بالقيروان جنداً مع الذراري والأموال واستخلف بها زهير بن قيس البلوي

وأحضر أولاده فقال لهم : إني قد بعث نفسي من الله عز وجل فلا أزال أجاهد من كفر بالله وأوصى بما يفعل بعده . ثم سار في عسكر عظيم حتى دخل مدينة باغاية[١] وقد اجتمع بها خلق كثير من الروم ، فقاتلوه قتالاً شديداً وانهزموا عنه وقتل فيهم قتلاً ذريعاً وغنم منهم غنائم كثيرة . ودخل المنهزمون المدينة وحاصرهم عقبة . ثم كره المقام عليهم فسار إلى بلاد الزاب وهي بلاد واسعة فيها عدة مدن وقرى كثيرة فقصد مدينتها العظمى واسمها أَرَبَة[٢] فامتنع بها من هناك من الروم والنصارى وهرب بعضهم إلى الجبال فاقتتل المسلمون ومن بالمدينة من النصارى عدة دفعات ثم انهزم النصارى وقتل كثير من فرسانهم ، ورحل إلى تاهرت ، فلما بلغ الروم خبره استعانوا بالبربر فأجابوهم ونصروهم فاجتمعوا في جمع كثير والتقوا واقتتلوا قتالاً شديداً واشتد الأمر على المسلمين لكثرة العدو ، ثم إن الله تعالى نصرهم فانهزمت الروم والبربر وأخذهم السيف وكثر فيهم القتل وغنم المسلمون أموالهم وسلاحهم .

ثم سار حتى نزل على طنجة فلقيه بَطْريق من الروم اسمه يليان ، فأهدى له هدية حسنة ونزل على حكمه ، ثم سأله عن الأندلس فعظم الأمر عليه ، فسأله عن البربر فقال: هم كثيرون لا يعلم عددهم إلا الله وهم بالسوس الأدنى وهم كفار لم يدخلوا في النصرانية ولهم بأس شديد . فسار عقبة إليهم نحو السوس الأدنى وهو مغرب طنجة فانتهى إلى أوائل البربر فلقوه في جمع كثير فقتل فيهم قتلاً ذريعاً وبعث خيله في كل مكان هربوا إليه ، وسار هو حتى وصل إلى السوس الأقصى وقد اجتمع له البربر في عالم لا يُحصى فلقيهم وقاتلهم وهزمهم وقتل المسلمون فيهم حتى ملوا وغنموا منهم وسبوا سبياً كثيراً ، وسار حتى بلغ ماليان ورأى البحر المحيط فقال : يا رب ، لولا هذا البحر لمضيت في البلاد مجاهداً في سبيلك ، ثم عاد فنفر الروم والبربر عن طريقه خوفاً منه ، واجتاز بمكان يعرف اليوم بماء الفرس فنزله ولم يكن به ماء فلحق الناس عطش كثير أشرفوا على الهلاك ، فصلى عقبة ركعتين ودعا فبحث فرس له الأرض بيديه فكشف له عن صفاة فانفجر الماء فنادى عقبة في الناس فحفروا أحساء كثيرة وشربوا فسمي ماء الفرس . فلما وصل إلى مدينة طبنة وبينها وبين القيروان ثمانية

---

(١) هي مدينة كبيرة في أقصى إفريقية بين مجانة وقسطنطينة الهواء.

(٢) بفتح الراء والباء الموحدة، اسم مدينة بالمغرب من أعمال الزاب.

أيام ، أمر أصحابه أن يتقدموا فوجاً فوجاً ثقة منه بما نال من العدو وأنه لم يَبق أحد يخشاه ، وسار إلى تهوذا لينظر إليها في نفر يسير فلما رآه الروم في قلة طمعوا فيه فأغلقوا باب الحصن وشتموه وقاتلوه وهو يدعوهم إلى الإسلام فلم يقبلوا منه .

ذكر خروج كسيلة بن كمرم البربري على عقبة

هذا كسيلة بن كمرم البربري كان قد أسلم لما ولي أبو المهاجر إفريقية وحسن إسلامه وهو من أكابر البربر وأبعدهم صوتاً[1] وصحب أبا المهاجر، فلما ولي عقبة عرفه أبو المهاجر محل كسيلة وأمره بحفظه فلم يقبل واستخف به ، وأتى عقبة بغنم فأمر كسيلة بذبحها وسلخها مع السلاخين فقال كسيلة : هؤلاء فتياني وغلماني يكفونني المؤنة فشتمه وأمره بسلخها ففعل ، فقبح أبو المهاجر هذا عند عقبة فلم يرجع فقال له : أوثق الرجل فإني أخاف عليك منه ، فتهاون به عقبة فأضمر كسيلة الغدر .

فلما كان الآن ورأى الروم قلة من مع عقبة فأرسلوا إلى كسيلة وأعلموه حاله وكان في عسكر عقبة مضمِراً للغدر ـ وقد أعلم الروم ذلك وأطمعهم ـ فلما راسلوه أظهر ما كان يضمره وجمع أهله وبني عمه وقصد عقبة فقال أبو المهاجر : عاجله قبل أن يقوى جمعه ـ وكان أبو المهاجر موثقاً في الحديد مع عقبة ـ فزحف عقبة إلى كسيلة فتنحى كسيلة عن طريقه ليكثر جمعه ، فلما رأى أبو المهاجر ذلك تمثل بقول أبي محجن الثقفي :

كفى حَزَناً أن ترتدي الخيلُ بالقَنَا وَأُتْرَكَ مشدوداً عليَّ وثاقيا
إذا قمتُ عَنَّاني الحديدُ وَأُغْلِقَتْ مَصَارِعُ مِنْ دوني تُصِمُّ المناديا

فبلغ عقبة ذلك فأطلقه فقال له : الحق بالمسلمين وقم بأمرهم وأنا أغتنم الشهادة فلم يفعل ، وقال : وأنا أيضاً أريد الشهادة فكسر عقبة والمسلمون أجفان سيوفهم وتقدموا إلى البربر وقاتلوهم فقتل المسلمون جميعهم لم يفلت منهم أحد ، وأسر محمد بن أوس الأنصاري في نفر يسير فخلصهم صاحب قفصة وبعث بهم إلى القيروان فعزم زهير بن قيس البلوي على القتال فخالفه جيش الصنعاني وعاد إلى مصر فتبعه أكثر الناس فاضطر زهير إلى العود معهم فسار إلى برقة وأقام بها ، وأما كسيلة فاجتمع إليه

---

(١) في الأصل «وأبعدهم صوباً».

جمع أهل إفريقية وقصد إفريقية وبها أصحاب الأنفال والذراري من المسلمين ، فطلبوا الأمان من كسيلة فأمنهم ودخل القيروان واستولى على إفريقية وأقام بها إلى أن قوي أمر عبد الملك بن مروان فاستعمل على إفريقية زهير بن قيس البلوي وكان مقيماً ببرقة مرابطاً .

ذكر ولاية زهير بن قيس إفريقية وقتله ، وقتل كسيلة

لما ولي عبد الملك بن مروان ذكر عنده من بالقيروان من المسلمين وأشار عليه أصحابه بإنفاذ الجيوش إلى إفريقية لاستنقاذهم ، فكتب إلى زهير بن قيس البلوي بولاية إفريقية وجهز له جيشاً كثيراً فسار سنة تسع وستين إلى إفريقية ، فبلغ خبره إلى كسيلة فاحتفل وجمع وحشد البربر والروم وأحضر أشراف أصحابه وقال : قد رأيت أن أرحل إلى ممش فأنزلها فإن بالقيروان خلقاً كثيراً من المسلمين ولهم علينا عهد فلا نغدر بهم ونخاف إن قاتلنا زهيراً أن يثب هؤلاء من ورائنا فإذا نزلنا ممش أمناهم وقاتلنا زهيراً فإن ظفرنا بهم تبعناهم إلى طرابلس وقطعنا أثرهم من إفريقية ، وإن ظفروا بنا تعلقنا بالجبال ونجونا فأجابوه إلى ذلك . ورحل إلى ممش وبلغ ذلك زهيراً فلم يدخل القيروان بل أقام ظاهرها ثلاثة أيام حتى أراح واستراح ورحل في طلب كسيلة ، فلما قاربه نزل وعبى أصحابه وركب إليه فالتقى العسكران واشتد القتال وكثر القتل في الفريقين حتى أيس الناس من الحياة، فلم يزالوا كذلك أكثر النهار ثم نصر الله المسلمين وانهزم كسيلة وأصحابه وقتل هو وجماعة من أعيان أصحابه بممش ، وتبع المسلمون البربر والروم فقتلوا من أدركوا منهم فأكثروا . وفي هذه الوقعة ذهب رجال البربر، والروم، وملوكهم، وأشرافهم. وعاد زهير إلى القيروان .

ثم إن زهيراً رأى بإفريقية ملكاً عظيماً فأبى أن يقيم وقال : إنما قدمت للجهاد فأخاف أن أميل إلى الدنيا فأهلك وكان عابداً زاهداً فترك بالقيروان عسكراً وهم آمنون لخلو البلاد من عدو أو ذي شوكة ورحل في جمع كثير إلى مصر وكان قد بلغ الروم بالقسطنطينية مسير زهير من برقة إلى إفريقية لقتال كسيلة فاغتنموا خلوها فخرجوا إليها في مراكب كثيرة وقوة قوية من جزيرة صقلية ، وأغاروا على برقة فأصابوا منها سبياً كثيراً وقتلوا ونهبوا ووافق ذلك قدوم زهير من إفريقية إلى برقة ، فأخبر الخبر فأمر العسكر بالسرعة والجد في قتالهم ورحل هو ومن معه وكان الروم خلقاً كثيراً ، فلما رآه المسلمون استغاثوا به فلم يمكنه الرجوع وباشر القتال واشتد الأمر وعظم الخطب وتكاثر

الروم عليهم فقتلوا زهيراً وأصحابه ولم ينجُ منهم أحد ، وعـاد الروم بمـا غنموا إلى القسطنطينية ، ولما سمع عبد الملك بن مروان بقتل زهير عظم عليه واشتد ثم سير إلى إفريقية حسان بن النعمان الغساني وسنذكره سنة أربع وسبعين إن شاء الله ، وكان ينبغي أن نذكر ولاية زهير وقتله سنة تسع وستين وإنما ذكرناه ههنا ليتصل خبر كسيلة ومقتله فإن الحادثة واحدة وإذا تفرقت لم تعلم حقيقتها.

ذكر عدة حوادث

حج بالناس هذه السنة الوليد بن عتبة؛ وفيها ولد محمد بن علي بن عبدالله بن عباس والد السفاح والمنصور . وفيها توفي عبد المطلب بن ربيعة بن الحرث بن عبد المطلب بن هاشم الهاشمي وله صحبة ، ومسلمة بن مخلد الأنصاري وكان عمره لما مات النبي ﷺ عشر سنين ، وتوفي بمصر مسروق بن الأجدع ، وقيل : توفي سنة ثلاث وستين ، مخلد : بضم الميم وفتح الخاء المعجمة وفتح اللام وتشديدها[1] .

---

(١) وممن مات في هذه السنة ـ على ما حكاه ابن كثير ـ بـريدة بن الخصيب الأسلمي اسلم قـديماً فشهـد المشاهد كلها وأقام بالمدينة ثم خرج إلى غزو خراسان فمات بمرو ، وعقبة بن نافع الفهري قتل شهيداً بإفريقية وكان أميراً على غزوها ، وعمرو بن حزم صحابي جليل استعمله رسول الله ﷺ على نجران وعمره سبع عشرة سنة وأدرك أيام يزيد بن معاوية . ونوفل بن معاوية الديلمي صحابي جليل شهد بدراً، وأحداً . والخندق مع المشركين وكانت له في المسلمين نكاية ثم اسلم وحسن إسلامه ، والرباب بنت أنيف امرأة الحسين بن علي رضي الله عنهما.

ثم دخلت سنة ثلاث وستين

ذكر وقعة الحرّة

كان أول وقعة الحرة ما تقدم من خلع يزيد ، فلما كانت هذه السنة أخرج أهل المدينة عثمان بن محمد بن أبي سفيان عامل يزيد وحصروا بني أمية بعد بيعتهم عبدالله بن حنظلة ، فاجتمع بنو أمية ومواليهم ومن يرىٰ رأيهم في ألف رجل حتى نزلوا دارَ مروان بن الحكم ، فكتبوا إلى يزيد يستغيثون به فقدم الرسول إليه وهو جالس على كرسي وقد وضع قدميه في طشت فيه ماء لنقرس كان بهما قرأ الكتاب تمثل :

لقد بَدَّلُوا الحكَم[1] الذي في سَجِيَّتي فَبَدَّلْتُ قَوْمي غِلْظَةً بِلِيانِ

ثم قال: أما يكون بنو أمية ومواليهم ألف رجل؟ فقال الرسول: بلى والله وأكثر قال : فما استطاعوا أن يقاتلوا ساعة من النهار ، فبعث إلى عمرو بن سعيد فاقرأه الكتاب وأمره أن يسير إليهم في الناس فقال : قد كنت ضبطت لك الأمور والبلاد فأما الآن إذا صارت دماء قريش تهرق بالصعيد فلا أحب أن أتولى ذلك ، وبعث إلى عبيدالله بن زياد يأمره بالمسير إلى المدينة ومحاصرة ابن الزبير بمكة فقال : والله لا جَمَعْتُهُما للفاسق : قتل ابن رسول الله ، وغزو الكعبة ، ثم أرسل إليه يعتذر . فبعث إلى مسلم بن عقبة المرِّي وهو الذي سمى مسرفاً وهو شيخ كبير مريض فأخبره الخبر فقال : أما يكون بنو أمية ألف رجل ؟ فقال الرسول : بلى قال : فما استطاعوا أن يقاتلوا ساعة من النهار ليس هؤلاء بأهل أن ينصروا فإنهم الأذلاء دعهم يا أمير المؤمنين حتى يجهدوا أنفسهم في جهاد عدوهم ويتبين لك من يقاتل على طاعتك ومن يستسلم، قال : ويحك إنه لا خير في العيش بعدهم فاخرج بالناس ، وقيل : إن معاوية قال

---

(١) في الطبري «لقد بدلوا الحلم» وهي أظهر.

ليزيد : إن لك من أهل المدينة يوماً فإن فعلوا فارمهم بمسلم بن عقبة فإنه رجل قد عرفت نصيحته ، فلما خلع أهل المدينة أمر مسلماً بالمسير إليهم فنادى في الناس بالتجهز إلى الحجاز وأن يأخذوا عطاءهم ومعونة مائة دينار ، فانتدب لذلك اثنا عشر ألفاً وخرج يزيد يعرضهم وهو متقلد سيفاً متنكب قوساً عربية وهو يقول :

أَبْلِغْ أبا بكرٍ إذا الليلُ سَرَى ... وَهَبَطَ القَوْمُ على وادي القرى
أَجمعَ سكرانَ من القوم ترى ... أم جمعَ يقظان نفى عنه الكرى
يا عجباً من ملحد يا عجبا ... مخادعٍ بالدينِ يعفو بالعرى[1]

وسار الجيش وعليهم مسلم فقال له يزيد : إن حدث بك حدث فاستخلف الحصين بن نمير السكوني وقال له : ادع القوم ثلاثاً فإن أجابوك والا فقاتلهم فإذا ظهرت عليهم فأبحها ثلاثاً فكل ما فيها من مال أو دابة أو سلاح أو طعام فهو للجند فإذا مضت الثلاث فاكفف عن الناس وانظر علي بن الحسين فاكفف عنه واستوص به خيراً فإنه لم يدخل مع الناس وإنه قد أتاني كتابه ، وقد كان مروان بن الحكم كلم ابن عمر لما اخرج أهل المدينة عامل يزيد . وبني أمية في أن يغيب أهله عنده فلم يفعل فكلم علي بن الحسين فقال : إن لي حرماً وحرمي يكون مع حرمك . فقال : أفعل . فبعث بامرأته وهي عائشة ابنة عثمان بن عفان وحرمه إلى علي بن الحسين فخرج علي بحرمه وحرم مروان إلى ينبع . وقيل : بل أرسل حرم مروان وأرسل معهم ابنه عبد الله بن علي إلى الطائف ، ولما سمع عبد الملك بن مروان أن يزيد قد سير الجنود إلى المدينة قال : ليت السماء وقعت على الأرض إعظاماً لذلك ، ثم إنه ابتلى بعد ذلك بأن وجه الحجاج فحصر مكة ، ورمى الكعبة بالمنجنيق ، وقتل ابن الزبير .

وأما مسلم فإنه أقبل بالجيش فبلغ أهل المدينة خبرهم فاشتد حصارهم لبني أمية بدار مروان وقالوا : والله لا نكف عنكم حتى نستنزلكم ونضرب أعناقكم أو تعطونا عهد الله وميثاقه أن لا تبغونا غائلة ولا تدلوا لنا على عورة ولا تظاهروا علينا عدوّاً ، فنكف عنكم ونخرجكم عنا فعاهدوهم على ذلك فأخرجوهم من المدينة . وكان أهل المدينة قد جعلوا في كل منهل بينهم وبين الشام زقاً من قطران فأرسل الله السماء عليهم فلم

(١) في الطبري «يقفو بالعرى» وحذف هنا شطر بيت ذكر في الطبري وهو عشرون ألفاً بين كهل وفتى.

يستقوا بذلو حتى وردوا المدينة ، فلما أخرج أهل المدينة بني أمية ساروا بأثقالهم حتى لقوا مسلم بن عقبة بوادي القرى فدعا بعمرو بن عثمان بن عفان أوّل الناس فقال له : خبرني ما وراءك وأشر علي . فقال : لا استطيع قد أخذ علينا العهود والمواثيق أن لا ندل على عورة ولا نظاهر عدوّنا فانتهره وقال : والله لولا أنك ابن عثمان لضربت عنقك وايم الله لا أقيلها قرشياً بعدك فخرج إلى أصحابه فأخبرهم خبره فقال مروان بن الحكم لابنه عبد الملك : ادخل قبلي لعله يجتزي بك عني فدخل عبد الملك فقال : هات ما عندك فقال : نعم أرى ان تسير بمن معك فإذا انتهيت إلى ذي نخلة نزلت فاستظل الناس في ظله فأكلوا من صقره فإذا أصبحت من الغد مضيت وتركت المدينة ذات اليسار ، ثم درت بها حتى تأتيهم من قبل الحرة مشرقاً . ثم تستقبل القوم فإذا استقبلتهم وقد اشرقت عليهم الشمس طلعت بين أكتاف أصحابك فلا تؤذيهم ويصيبهم أذاها ، ويرون من ائتلاق بيضكم وأسنة رماحكم وسيوفكم ودروعكم ما لا ترونه انتم ما داموا مغربين ثم قاتلهم واستعن الله عليهم فقال له مسلم : لله أبوك أي امرىء ولد ، ثم إن مروان دخل عليه فقال له : إيه فقال : أليس قد دخل عليك عبد الملك ؟ قال : بلى وأي رجل عبد الملك قلما كلمت من رجال قريش رجلاً شبيهاً به ؟ فقال مروان : إذا لقيت عبد الملك فقد لقيتني ، ثم إنه صار في كل مكان يصنع ما أمر به عبد الملك فجاءهم من قبل المشرق ثم دعاهم مسلم فقال : إن أمير المؤمنين يزعم أنكم الأصل وإني أكره إراقة دمائكم وإني أؤجلكم ثلاثاً فمن ارعوى وراجع الحق قبلنا منه وانصرفت عنكم وسرت إلى هذا المحل[1] الذي بمكة وان أبيتم كنا قد اعتذرنا إليكم . فلما مضت الثلاث قال : يا أهل المدينة ما تصنعون أتسالمون أم تحاربون ؟ فقالوا : بل نحارب فقال لهم : لا تفعلوا بل ادخلوا في الطاعة ونجعل جدنا وشوكتنا على أهل هذا الملحد الذي قد جمع إليه المرّاق والفسّاق من كل أوب ـ يعني ابن الزبير ـ . فقالوا له : يا أعداء الله لو أردتم أن تجوزوا إليه ما تركناكم نحن قد نعلم ان تأتوا بيت الله الحرام فتخيفوا أهله وتلحدوا فيه وتستحلوا حرمته لا والله لا نفعل .

وكان أهل المدينة قد اتخذوا خندقاً وعليه جمع منهم وكان عليه عبد الرحمن بن زهير بن عبد عوف وهو ابن عم عبد الرحمن بن عوف ، وكان عبد الله بن مطيع على

---

(١) في الطبري «إلى هذا الملحد» يعني ابن الزبير.

ربع آخر وهم قريش في جانب المدينة ، وكان معقل بن سنـان الأشجعي ـ وهو من الصحابة ـ على ربع آخر وهم المهاجرون ، وكان أمير جماعتهم عبد الله بن حنـظلة الغسيل الأنصاري في أعظم تلك الأرباع وهم الأنصار وصمد مسلم فيمن معه فأقبل من ناحية الحرة حتى ضرب فسطاطه على طريق الكوفة وكان مريضاً فأمر فوضع له كرسي بين الصفين وقال : يا أهل الشام قاتلوا عن أميركم أو دعوا فأخذوا لا يقصدون ربعاً من تلك الأرباع إلا هزموه ، ثم وجه الخيل نحو ابن الغسيل فحمل عليهم ابن الغسيل فيمن معه فكشفهم فانتهوا إلى مسلم فنهض في وجوههم بالرجال وصاح بهم فقاتلوا قتالاً شديداً .

ثم إن الفضل بن عباس بن ربيعـة بن الحرث بن عبـد المطلب جـاء إلى ابن الغسيل فقاتل معه في نحو من عشرين فارساً قتالاً حسناً ثم قال لابن الغسيل : من كان معك فارساً فليأتني فليقف معي فإذا حملت فليحملوا . فوالله لا أنتهي حتى أبلغ مسلماً فأقتله أو أقتل دونه ، ففعل ذلك وجمع الخيل إليه فحمل بهم الفضل على أهل الشام فانكشفوا فقال لأصحابه : احملوا أخرى جعلت فداءكم فوالله لئن عاينت أميرهم لأقتلنّه أو أقتل دونه إنه ليس بعد الصبر إلا النصر ، ثم حمل وحمل أصحابه فانفجرت خيل الشام عن مسلم بن عقبة ومعه نحو خمسمائة راجل جثاة على الركب ، مشرعي الأسنة نحو القوم .

ومضى الفضل كما هو نحو راية مسلم فضرب رأس صاحبها فقطَّ المغفر ، وفلق هامته ، وخرَّ ميتاً ، وقال : خذها مني وأنا ابن عبد المطلب ، وظن أنه مسلم ، فقال : قتلت طاغية القوم ورب الكعبة ، فقال : أخطأت استك الحفرة ، وإنما كان ذلك غلاماً رومياً ، وكان شجاعاً ، فأخذ مسلم رايته وحرض أهل الشام وقال : شدوا مـع هذه الراية ، فمشى برايته ، وشدت تلك الرجال أمام الراية ، فصرع الفضل بن عباس ، فقتل ـ وما بينه وبين أطناب مسلم بن عقبة إلا نحو من عشرة أذرع ـ وقتل معه زيد بن عبد الرحمن بن عوف ، وأقبلت خيل مسلم ورجالته نحو ابن الغسيل ، وهو يحرض أصحابه ، ويذم أهل المدينة ، ويقدم أصحابه إلى ابن الغسيل ، فلم يقـدم عليهم للرماح التي بأيديهم والسيوف ، وكانت تتفرق عنهم ، فنادى مسلم الحصين بن نمير ، وعبد الله بن عضاه الأشعري ، وأمرهما أن ينزلا في جندهما ، ففعلا وتقدما إليهم ، فقال ابن الغسيل لأصحابه : إن عدوكم قد أصاب وجه القتـال الذي كـان ينبغي أن

يقاتلكم به ، وإني قد ظننت أن لا يلبثوا إلا ساعة حتى يفصل الله بينكم وبينهم إما لكم وإما عليكم ، أما إنكم أهل النصرة ودار الهجرة ، وما أظن ربكم أصبح عن أهل بلد من بلدان المسلمين بأرضى منه عنكم ولا على أهل بلد من بلدان العرب بأسخط منه على هؤلاء الذين يقاتلونكم ، وإن لكل امرىء منكم ميتة وهو ميت بها لا محالة ، ووالله ما ميتة أفضل من ميتة الشهادة وقد ساقها الله إليكم فاغتنموها . ثم دنا بعضهم من بعض ، فأخذ أهل الشام يرمونهم بالنبل ، فقال ابن الغسيل لأصحابه : عليهم تستهدفون لهم من أراد التعجيل إلى الجنة فليلزم هذه الراية ، فقام إليه كل مستميت ، فنهض بعضهم إلى بعض فاقتتلوا أشد قتال رؤي لأهل هذا القتال ، وأخذ ابن الغسيل يقدم بنيه واحداً واحداً حتى قتلوا بين يديه وهو يضرب ويقول :

بعــداً لمن رامَ الفســادَ وطغى وجــانبَ الحقَّ وآيــاتِ الهــدى

لا يبعدُ الرَّحمنُ إلّا من عصى

ثم قتل ، وقتل معه أخوه لأمّه محمد بن ثابت بن قيس بن شماس ، فقال : ما أحب أن الديلم قتلوني مكان هؤلاء القوم ؛ وقتل معـه عبد الله بن زيـد بن عاصم . ومحمد بن عمرو بن حزم الأنصاري ، فمر به مروان بن الحكم فقال : رحمك الله ربَّ السارية ، قد رأيتك تطيل القيام في الصلاة إلى جنبها ، وانهزم الناس وكان فيمن انهزم محمد بن سعد بن أبي وقاص بعدما أبلى ، وأباح مسلم المدينة ثلاثاً يقتلون الناس ، ويأخذون المتاع والأموال ، فافزع ذلك من بها من الصحابة .

فخرج أبو سعيد الخدري حتى دخل في كهف الجبل ، فتبعه رجل من أهل الشام فاقتحم عليه الغار فانتضى أبو سعيد سيفه يخوِّف به الشامي فلم ينصرف عنه فعاد أبو سعيد وأغمد سيفه وقال : ﴿ لئن بسطت يدك إلي لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك ﴾[1] فقال : من أنت ؟ قال : أنا أبو سعيد الخدري . قال : صاحب رسول الله ﷺ ؟ قال : نعم . فتركه ومضى .

وقيل : إن مسلماً لما نزل بأهل المدينة خرج إليه أهلهـا بجموع كثيـرة وهيئة حسنة ، فهابهم أهل الشام وكرهوا أن يقاتلوهم ، فلما رآهم مسلم ، وكان شديد الوجع

---

(١) سورة المائدة ٢٨ .

سبِّهم وذمهم وحرّضهم ، فقاتلوهم ، فبينما الناس في قتالهم إذ سمعوا تكبيراً من خلفهم في جوف المدينة ، وكان سببه أن بني حارثة أدخلوا أهل الشام المدينة فانهزم الناس ، فكان من أصيب في الخندق أكثر ممن قتل ، ودعا مسلم الناس إلى البيعة ليزيد على أنهم خول له يحكم في دمائهم وأموالهم وأهليهم ما شاء ، فمن امتنع من ذلك قتله ، وطلب الأمان ليزيد بن عبد الله بن ربيعة بن الأسود ، ولمحمد بن أبي الجهم بن حذيفة ، ولمعقل بن سنان الأشجعي فأتى بهم بعد الوقعة بيوم فقال : بايعوا على الشرط ، فقال القرشيان : نبايعك على كتاب الله وسنة رسوله ، فضرب أعناقهما ، فقال مروان : سبحان الله أتقتل رجلين من قريش أتيا بأمان ؟ فطعن بخاصرته بالقضيب فقال : وأنت والله لو قلت بمقالتهما لقتلتك .

وجاء معقل بن سنان فجلس مع القوم فدعا بشراب ليسقى فقال له مسلم : أي الشراب أحب إليك ؟ قال : العسل . قال : اسقوه ، فشرب حتى ارتوى فقال له : أرويت ؟ قال : نعم . قال : والله لا تشرب بعدها شربة إلا في نار جهنم فقال : أنشدك الله والرحم فقال له : أنت الذي لقيتني بطبرية ليلة خرجت من عند يزيد فقلت : سرنا شهراً ورجعنا شهراً وأصبحت صفراً فنرجع إلى المدينة فنخلع هذا الفاسق ابن الفاسق ونبايع لرجل من المهاجرين أو الأنصار فيم غطفان ، واشجع من الخلق[1] والخلافة اني آليت بيمين لا ألقاك في حرب أقدر منه على قتلك[2] إلا فعلت ثم أمر به فقتل ، وأتى بيزيد بن وهب فقال له : بايع قال : أبايعك على الكتاب والسنة قال : اقتلوه قال : أنا أبايعك قال : لا والله فتكلم فيه مروان لصهر كان بينهما فأمر بمروان فوجئت أنفه[3] ثم قتل يزيد ، ثم أتى مروان بعلي بن الحسين فجاء يمشي بين مروان وابنه عبد الملك حتى جلس بينهما عنده ، فدعا مروان بشراب ليحترم[4] بذلك فشرب منه يسيراً ثم ناوله علي بن الحسين فلما وقع في يده قال له مسلم : لا تشرب من شرابنا فارتعد كفه ولم يأمنه على نفسه وأمسك القدح بكفه لا يشربه ولا يضعه فقال له :

---

(١) في الطبري «من الخلع».
(٢) في الطبري «أقدر فيه على ضرب عنقك».
(٣) في الطبري «فوجئت عنقه» وهي أوضح .
(٤) في الطبري «ليتحرم».

أجئت تمشي بين هؤلاء لتأمن عندي ؟ والله لو كان إليهما أمر لقتلتك ولكن أمير المؤمنين أوصاني بك وأخبرني أنك كاتبته فإن شئت فاشرب فشرب ثم أجلسه معه على السرير ثم قال له : لعل أهلك فزعوا قال : أي والله فأمر بدابة[1] فأسرجت له فحمله عليها فرده ولم يلزمه بالبيعة ليزيد على ما شرط على أهل المدينة ، وأحضر علي بن عبد الله بن عباس ليبايع فقال الحصين بن نمير السكوني : لا يبايع ابن أختنا إلا كبيعة علي بن الحسين وكانت أم علي بن عبد الله كندية فقامت كندة مع الحصين فتركه مسلم فقال علي :

أبي العباسُ قَرْمُ بني قصيٍّ ... وأخوالي الملوكُ بنو وَلِيعةْ
هموا منعوا ذماري يومَ جاءت ... كتائبُ مسرفٍ وبنو اللكيعةْ
أرادوني التي لا عزَّ فيها ... فحالت دونهُ أيدٍ سريعةْ

يعني بقوله : مسرف مسلم بن عقبة فإنه سمي بعد وقعة الحرة مسرفاً ، وبنووليعة بطن من كندة منهم أمه ، واللكيعة أم أمه . وقيل : إن عمرو بن عثمان بن عفان لم يكن فيمن خرج من بني أمية فأتى به يومئذ إلى مسلم فقال : يا أهل الشام تعرفون هذا ؟ قالوا : لا . قال : هذا خبيث بن الطيب هذا عمرو بن عثمان هي يا عمرو إذا ظهر أهل المدينة قلت : أنا رجل منكم وإن ظهر أهل الشام . قلت : أنا ابن أمير المؤمنين عثمان فأمر به فنتفت لحيته ثم قال : يا أهل الشام إن أم هذا كانت تدخل الجعل في فيها ثم تقول : يا أمير المؤمنين حاجيتك ما في فمي وفي فمها ما شاهى وباهى[2] وكانت من دوس ثم خلى سبيله ، وكانت وقعة الحرة لليلتين بقيتا من ذي الحجة سنة ثلاث وستين .

قال محمد بن عمارة : قدمت الشام في تجارة فقال لي رجل : من أين أنت ؟ فقلت : من المدينة فقال : خبيثة فقلت : يسميها رسول الله ﷺ طيبة وتسميها خبيثة فقال : إن لي ولها لشأناً ، لما خرج الناس إلى وقعة الحرة رأيت في المنام اني قتلت رجلاً اسمه محمد أدخل بقتله النار فاجتهدت في أني لا أسير معهم فلم يقبل مني فسرت

---

(١) في الطبري «فأمر بدابته».

(٢) في الطبري «ما ساءها وناءها».

معهم ولم أقاتل حتى انقضت الوقعة فمررت برجل في القتلى به رمق فقال : تنح يا كلب فأنفت من كلامه وقتلته ثم ذكرت رؤياي فجئت برجل من أهل المدينة يتصفح القتلى فلما رأى الرجل الذي قتلته قال : انا لله لا يدخل قاتل هذا الجنة قلت : ومن هذا ؟ قال : هو محمد بن عمرو بن حزم وُلد على عهد رسول الله ﷺ فسماه محمداً وكناه أبا عبد الملك ، فأتيت أهله فعرضت عليهم أن يقتلوني ، فلم يفعلوا وعرضت عليهم الدية فلم يأخذوا .

وممن قتل بالحرة عبد الله بن عاصم الأنصاري وليس بصاحب الأذان ذاك ابن زيد بن ثعلبة . وقتل أيضاً فيها عبيد الله بن عبدالله بن موهب ، ووهب بن عبد الله بن زمعة بن الأسود ، وعبد الله بن عبد الرحمن بن حاطب ، وزبير بن عبد الرحمن بن عوف ، وعبد الله بن نوفل بن الحرث بن عبد المطلب[1] .

ذكر عدة حوادث

وفي هذه السنة توفي الربيع بن خثيم[2] الكوفي الزاهد . وحج بالناس هذه السنة عبد الله بن الزبير ـ وكان يسمى يومئذ العائذ ـ وكانوا يرون الأمر شورىٰ ، وأتاه الخبر بوقعة الحرة هلال المحرم مع مولى المسور بن مخرمة ، فجاءه أمرٌ عظيم فأعد هو وأصحابه واستعدوا وعرفوا أن مسلماً نازل بهم .

---

(١) قال ابن كثير في تاريخه : وأرسلت سعدى بنت عوف المرية إلى مسلم بن عقبة تقول له : أنا بنت عمك فمر أصحابك أن لا يتعرضوا لإبلنا بمكان كذا وكذا فقال لأصحابه : لا تبدؤوا إلا بأخذ إبلها أولاً ، وجاءت امرأة فقالت : أنا مولاتك وابني في الأسارى فقال : عجلوه لها فضربت عنقه وقال : أعطوها رأسه أما ترضين أن لا يقتل حتى تتكلمي في ابنك ، ووقعوا على النساء حتىّ قيل : إنه حبلت ألف امرأة في تلك الأيام من غير زوج ، وجيء إلى مسلم بسعيد بن المسيب فقال له : بايع فقال : أبايع على سيرة أبي بكر ، وعمر . فأمر بضرب عنقه فشهد رجل أنه مجنون فخلّى سبيله . وسئل الزهري : كم كان القتلى يوم الحرة؟ قال : سبعمائة من وجوه الناس من المهاجرين والأنصار ، ووجوه الموالي وممن لا أعرف من حرّ وعبد وغيرهم عشرة آلاف .

(٢) بالخاء المعجمة المضمومة وثاء مثلثة مفتوحة ، ووقع في بعض النسخ ـ خيثم ـ بتقديم الياء على التاء المثلثة وهو تصحيف .

ثم دخلت سنة أربع وستين

ذكر مسير مسلم لحصار ابن الزبير وموته

فلما فرغ مسلم من قتال أهل المدينة ونهبها شخص بمن معه نحو مكة يريد ابن الزبير، ومن معه، واستخلف على المدينة رَوْح بن زنباع الجذامي، وقيل: استخلف عمرو بن مخرمة الأشجعي[١]، فلما انتهى إلى المشلل نزل به الموت، وقيل: مات بثينة هَرْشَىٰ، فلما حضره الموت أحضر الحصين بن نمير وقال له: يا ابن برذعة الحمار لو كان الأمر إلي ما وليتك هذا الجند، ولكن أمير المؤمنين ولاك بعدي خذ عني أربعاً، أسرع السير. وعجّل المناجزة وعم الأخبار[٢] ولا تمكن قريشاً من أذنك، ثم قال: اللهم إني لم أعمل قط بعد شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله عملاً أحب إلي من قتلي أهل المدينة ولا أرجى عندي في الآخرة، فلما مات سار الحصين بالناس فقدم مكة لأربع بقين من المحرم سنة أربع وستين وقد بايع أهلها وأهل الحجاز عبد الله بن الزبير واجتمعوا عليه، ولحق به المنهزمون من أهل المدينة، وقدم عليه نجدة بن عامر الحنفي في الناس من الخوارج يمنعون البيت، وخرج ابن الزبير إلى لقاء أهل الشام ومعه أخوه المنذر فبارز المنذر رجلاً من أهل الشام فضرب كل واحد منهما صاحبه ضربة مات منها. ثم حمل أهل الشام عليهم حملة انكشفت منها أصحاب عبد الله، وعثرت بغلة عبد الله فقال: تعساً، ثم نزل فصاح بأصحابه إليّ فأقبل إليه المسور بن مخرمة، ومصعب بن عبد الرحمن بن عوف

---

(١) في الطبري «عمرو بن محرز الأشجعي».

(٢) الزيادة من الطبري، وفي رواية أخرى فاحفظ ما أوصيك به: عم الأخبار، ولا ترعَ سمعك قريشاً أبداً، ولا تردن أهل الشام عن عدوهم، ولا تقيمن إلا ثلاثاً حتى تناجز ابن الزبير الفاسق.

فقاتلا حتى قتلا جميعاً ، وضاربهم[١] ابن الزبير إلى الليل ثم انصرفوا عنه هذا في الحصر الأول ، ثم أقاموا عليه يقاتلونه بقية المحرم وصفر كله حتى إذا مضت ثلاثة أيام من شهر ربيع الأول سنة أربع وستين[٢] رموا البيت بالمجانيق وحرقوه بالنار وأخذوا يرتجزون ويقولون :

خطارة مثل الفنيق المزبد نرمي بها أعواد هذا المسجد

وقيل : إن الكعبة احترقت من نار كان يوقدها أصحاب عبد الله حول الكعبة وأقبلت شرارة هبت بها الريح فاحترقت ثياب الكعبة واحترق خشب البيت ، والأول أصح لأن البخاري قد ذكر في صحيحه ان ابن الزبير ترك الكعبة ليراها الناس محترقة يحرضهم على أهل الشام ، وأقام أهل الشام يحاصرون ابن الزبير حتى بلغهم نعي يزيد بن معاوية لهلال ربيع الآخر .

ذكر وفاة يزيد بن معاوية

وفي هذه السنة توفي يزيد بن معاوية بحُوّارين[٣] من أرض الشام لأربع عشرة خلت من شهر ربيع الأول وهو ابن ثمان وثلاثين سنة في قول بعضهم ، وقيل : تسع وثلاثين ، وكانت ولايته ثلاث سنين وستة أشهر ، وقيل ثمانية أشهر ، وقيل توفي في ربيع الأول سنة ثلاث وستين وكان عمره خمساً وثلاثين سنة وكانت خلافته سنتين وثمانية أشهر والأول أصح ، وأمه ميسون بنت بحدل بن أنيف الكلبية ، وكان له من الولد معاوية وكنيته أبو عبد الرحمن ، وأبو ليلى وهو الذي وُلي بعده، وخالد ويكنى أبا هاشم يقال : إنه أصاب علم الكيمياء ولا يصح ذلك لأحد ، وأبو سفيان ، وأمهم[٤] أم هاشم بنت أبي هاشم بن عتبة بن ربيعة تزوجها بعده مروان بن الحكم، ،وله أيضاً عبد الله بن يزيد[٥] كان أرمى العرب ، وأمه أم كلثوم بنت عبد الله بن عامر وهو

---

(١) في الطبري «وصابرهم».

(٢) عند الطبري اليوم : وهو يوم السبت.

(٣) حوارين بالضم وتشديد الواو،ويختلف في الراء فمنهم من يكسرها ومنهم من يفتحها، وياء ساكنة ونون وهي قرية من قرى حمص من أرض الشام.

(٤)في الطبري : والبداية والنهاية «وأمهما أم هاشم» الخ .

(٥)في البداية والنهاية «عبد العزيز بن يزيد» وهو تحريف.

الأسوار . وعبد الله الأصغر ، وعمر ، وأبو بكر ، وعتبة ، وحرب ، وعبد الرحمن ، ومحمد لأمهات شتى [١] .

ذكر بعض سيرته وأخباره

قال محمد بن عبيدالله بن عمرو العتبي : نظر معاوية ومعه امرأته ابنة قرظة [٢] إلى يزيد وأمه ترجله فلما فرغت منه قبلته بين عينيه فقالت ابنة قرظة : لعن الله سواد ساقي أمك . فقال معاوية : أما والله لما تفرجت عنه وركاها خير مما تفرجت عنه وركاك ، وكان لمعاوية من ابنة قرظة عبد الله وكان أحمق فقالت : لا والله ولكنك تؤثر هذا عليه فقال : سوف أبين لك ذلك فأمر فدعي له عبد الله فلما حضر قال : أي بني إني أردت أن أعطيك ما أنت أهله ولست بسائلٍ شيئاً إلا أجبتك إليه فقال : حاجتي أن تشتري كلباً فارهاً وحماراً فقال : أي بني أنت حمار واشتري لك حماراً قم فأخرج ، ثم أحضر يزيد وقال له مثل قوله لأخيه فخر ساجداً ثم قال حين رفع رأسه : الحمد لله الذي بلغ أمير المؤمنين هذه المدة وأراه في هذا الرأي حاجتي أن تعتقني من النار لأن من ولي أمر الأمة ثلاثة أيام اعتقه الله من النار فتعقد لي العهد بعدك وتوليني العام الصائفة وتأذن لي في الحج إذا رجعت وتوليني الموسم وتزيد لأهل الشام كل رجل عشرة دنانير وتفرض لأيتام بني جمح [٣] وبني سهم ، وبني عدي لأنهم حلفائي . فقال معاوية : قد فعلت ، وقبل وجهه فقال لامرأته ابنة قرظة : كيف رأيت ؟ قالت : أوصه به يا أمير المؤمنين ففعل ، وقال عمر بن سبيئة : حج يزيد في حياة أبيه فلما بلغ المدينة جلس على شراب له فاستأذن عليه ابن عباس ، والحسين فقيل له : ان ابن عباس ان وجد ريح الشراب عرفه فحجبه وأذن للحسين فلما دخل وجد رائحة الشراب مع الطيب فقال : لله در طيبك ما أطيبه فما هذا ؟ قال : هو طيب يصنع بالشام ثم دعا بقدح فشربه ثم دعا بآخر فقال : اسق أبا عبد الله فقال له الحسين : عليك شرابك أيها المرء لا عين عليك مني فقال يزيد :

---

(١) ذكر هنا ليزيد أحد عشر ولداً ذكراً، وذكر الطبري له اثني عشر ولداً ذكراً زاد واحداً وهو الربيع، وقال ابن كثير في البداية والنهاية بعد ما سرد أسماء أولاده الذكور. فهؤلاء خمسة عشر ذكراً، إلا أنه لم يذكر إلا أربعة عشر اسماً زاد على الطبري ولدين وهما يزيد. وعثمان، وله من البنات خمس عاتكة، ورملة. وأم عبد الرحمن. وأم يزيد: وأم محمد، وقد انقرضوا كافة فلم يبق ليزيد عقب.

(٢) واسمها فاختة وكانت ممن حظين عنده في المنظرة.

(٣) جمح كزفر.

ألا يا صاح للعجب دعوتُك ذا ولم تجبِ
إلى الفتياتِ والشَّهَوَا تِ والصهباءِ والطربِ
وباطيةٍ مكلَّلة عليها سادةُ العربِ
وفيهن التي تَبَلَتْ فؤادَكَ ثم لم تَتُبِ[١]

فنهض الحسين وقال : بل فؤادك يا ابن معاوية تبلت . وقال شقيق بن سلمة : لما قتل الحسين ثار عبد الله بن الزبير فدعا ابن عباس إلى بيعته فامتنع وظن يزيد أن امتناعه تمسك منه ببيعته فكتب إليه : أما بعد ، فقد بلغني أن الملحد ابن الزبير دعاك إلى بيعته وأنك اعتصمت ببيعتنا وفاء منك لنا فجزاك الله من ذي رحم خير ما يجزي المواصلين لأرحامهم الموفين بعهودهم فما أنسى من الأشياء فلست بناس برَّك وتعجيل صلتك بالذي أنت له أهل ، فانظر من طلع عليك من الآفاق ممن سحرهم ابن الزبير بلسانه فأعلمهم بحاله فإنهم منك أسمع الناس ولك أطوع منهم للمحل .

فكتب إليه ابن عباس : أما بعد ، فقد جاءني كتابك ؛ فأما تركي بيعة ابن الزبير فوالله ما أرجو بذلك برَّك ولا حمدَك ، ولكن الله بالذي أنوي عليم . وزعمت أنك لست بناس برّي فاحبس أيها الانسان برّك عني فإني حابس عنك برّي . وسألت أن أحبب الناس إليك وأبغضهم وأخذلهم لابن الزبير فلا ولا سرور ولا كرامة كيف وقد قتلت حسيناً ، وفتيان عبد المطلب مصابيح الهدى ونجوم الأعلام ؟ غادرتهم خيولك بأمرك في صعيد واحد مرملين بالدماء ، مسلوبين بالعراء مقتولين بالظماء ، لا مكفنين ولا مسودين ، تُسفي عليهم الرياح ويُنشى بهم عرج البطاح ، حتى أتاح الله بقوم لم يشركوا في دمائهم كفنوهم وأجنوهم ، وبي وبهم لو عزت وجلست مجلسك الذي جلست فما أنسىٰ من الأشياء فلست بناس آطرادك حسيناً من حرم رسول الله ﷺ إلى حرم الله . وتسييرك الخيول إليه فما زلت بذلك حتى أشخصته إلى العراق[٢] فخرج خائفاً يترقب ،

---

(١) اعتقد أن هذه الأبيات مصنوعة منحولة فلم يكن يزيد من البلاهة بحيث يعرض ذلك على الحسين ويوجد عليه مقالاً ، وإذا نظرنا من جهة أخرى إلى أن معاوية إنما ولى ابنه الحج لتشيع عنه قالة الخير ويوصف بالدين والتقوى فإنا نشك في أن يزيد كان في حجه يتسمت ويظهر التمسك بالدين وهذا ينافي هذه الرواية . وقد أحسن ابن جرير كل الإحسان في أهمالها ولعلها اخترعت بعد زمانه .

(٢) من الظلم ان يقال أن يزيد أشخص حسيناً إلى العراق فإن حسيناً ذهب إلى العراق مختاراً مغتراً بما جاءه من أهل العراق وبما يعتده لنجاحه من قرابة رسول الله ﷺ .

فنزلت به خيلك عداوة منك لله ولرسوله ولأهل بيته الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً ، فطلب إليكم الموادعة وسألكم الرجعة فاغتنمتم قلة أنصاره واستئصال أهل بيته وتعاونتم عليه كأنكم قتلتم أهل بيت من الترك والكفر ، فلا شيء أعجب عندي من طلبتك ودي وقد قتلت ولد أبي وسيفك يقطر من دمي وأنت أحد ثاري ، ولا يعجبك ان ظفرت بنا اليوم فلنظفرن بك يوماً والسلام[1] .

قال الشريف أبو يَعَلى حمزة بن محمد بن أحمد بن جعفر العلوي وقد جرى عنده ذكر يزيد : أنا لا أكفر يزيد لقول رسول الله ﷺ : « إني سألت الله أن لا يسلط على بني أحداً من غيرهم فأعطاني ذلك » .

ذكر بيعة معاوية بن يزيد بن معاوية وعبدالله بن الزبير

في هذه السنة بويع لمعاوية بن يزيد بالخلافة بالشام ولعبد الله بن الزبير بالحجاز ، ولما هلك يزيد بلغ الخبر عبد الله بن الزبير بمكة قبل أن يعلم الحصين بن نمير ومن معه من عسكر الشام ـ وكان الحصار قد اشتد من الشاميين على ابن الزبير ـ فناداهم ابن الزبير وأهل مكة : علام تقاتلون وقد هلك طاغيتكم ؟ فلم يصدقوهم ، فلما بلغ الحصين خبر موته بعث إلى ابن الزبير فقال : موعد ما بيننا الليلة الابطح فالتقيا وتحادثا فراث فرس الحصين فجاء حمام الحرم يلتقط روث الفرس فكف الحصين فرسه عنهن وقال : أخاف أن يقتل فرسي حمام الحرم فقال ابن الزبير : تتحرجون من هذا وأنتم تقتلون المسلمين في الحرم ، فكان فيما قال له الحصين : أنت أحق بهذا الأمر هلم فلنبايعك ثم اخرج معنا إلى الشام فإن هذا الجند الذين معي هم وجوه الشام وفرسانهم فوالله لا يختلف عليك اثنان وتؤمن الناس وتهدر هذه الدماء التي كانت بيننا وبينك وبين أهل الحرم . فقال له : أنا لا أهدر الدماء والله لا أرضى أن أقتل بكل رجل منهم عشرة منكم ، وأخذ الحصين يكلمه سراً وهو يجهر ويقول : والله لا أفعل ، فقال له الحصين : قبح الله من يعدك بعد ذاهباً وآيباً[2] قد كنت أظن أن لك رأياً وأنا أكلمك سراً وتكلمني جهراً وأدعوك إلى الخلافة وأنت لا تريد إلا القتل والهلكة ثم فارقه ورحل

---

(١) إني أحسب هذه المقالة مفتعلة وما كان ابن عباس يهدد يزيد والقوة في يده وجنده على تعبية لأن ابن عباس أكيس من أن يفعل ذلك وأقل ما فيه أن يجعله من همه ويصطلحه .

(٢) في الطبري «قبح الله من بعدك بعد هذه داهياً قط أو أريباً».

هو وأصحابه نحو المدينة ، وندم ابن الزبير على ما صنع فأرسل إليه : أما المسير الى الشام فلا أفعله ولكن بايعوا لي هناك فإني مؤمنكم وعادل فيكم ، فقال الحصين : إن لم تقدم بنفسك لا يتم الأمر فإن هناك ناساً من بني أمية يطلبون هذا الأمر .

ثم سار الحصين إلى المدينة فاجترأ أهل المدينة على أهل الشام فكان لا ينفرد منهم أحد إلا أخذت دابته فلم يتفرقوا . وخرج معهم بنو أمية من المدينة إلى الشام ولو خرج معهم ابن الزبير لم يختلف عليه أحد ، فوصل أهل الشام دمشق وقد بويع معاوية بن يزيد ، فلم يمكث إلا ثلاثة أشهر حتى هلك ، وقيل بل ملك أربعين يوماً ومات وعمره احدى وعشرون سنة وثمانية عشر يوماً ، ولما كان في آخر امارته أمر فنودي الصلاة جامعة فاجتمع الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أما بعد فإني ضعفت عن أمركم فابتغيت لكم مثل عمر بن الخطاب حين استخلفه أبو بكر فلم أجده ، فابتغيت ستة مثل ستة الشورى فلم أجدهم فأنتم أولى بأمركم فاختاروا له من أحببتم ، ثم دخل منزله وتغيب حتى مات ، وقيل : إنه مات مسموماً وصلى عليه الوليد بن عتبة بن أبي سفيان ثم أصابه الطاعون من يومه فمات أيضاً ، وقيل : لم يمت وكان معاوية أوصى أن يصلي الضحاك بن قيس بالناس حتى يقوم لهم خليفة ؛ وقيل لمعاوية : لو استخلفت فقال : لا أتزود مرارتها واترك لبني أمية حلاوتها .

ذكر حال ابن زياد بعد موت يزيد

لما مات يزيد وأتى الخبر عبيدالله بن زياد مع مولاه حمران ، وكان رسوله إلى معاوية بن أبي سفيان ثم إلى يزيد بعده ، فلما أتاه الخبر أسرّه إليه وأخبره باختلاف الناس في الشام فأمر فنودي الصلاة جامعة فاجتمع الناس وصعد المنبر فنعى يزيد وثلبه فقال الأحنف : انه قد كانت ليزيد في أعناقنا بيعة ويقال في المثل : أعرض عن ذي فترة فأعرض عنه عبيد الله وقال : يا أهل البصرة إن مهاجرنا إليكم ودارنا فيكم ومولدي فيكم ولقد وليتكم وما يحصى ديوان مقاتليكم إلا سبعين ألفاً ولقد أحصى اليوم مائة ألف ، وما كان يحصى ديوان عمالكم إلا تسعين الفاً ولقد أحصى اليوم مائة وأربعين ألفاً ، وما تركت لكم قاطبة من أخافه عليكم إلا وهو في سجنكم ، وإن يزيد قد توفي وقد اختلف الناس بالشام وأنتم أليوم أكثر الناس عدداً وأعرضهم فناء وأغنى عن الناس وأوسعهم بلاداً فاختاروا لأنفسكم رجلاً ترضونه لدينكم وجماعتكم فانا أول راض من رضيتموه فإن اجتمع أهل الشام على رجل ترضونه لدينكم وجماعتكم دخلتم فيما دخل فيه

المسلمون ، وإن كرهتم ذلك كنتم على أحد يليكم حتى تقضوا حاجتكم فما بكم إلى أحد من أهل البلدان حاجة ولا يستغني الناس عنكم . فقام خطباء أهل البصرة وقالوا : قد سمعنا مقالتك وما نعلم أحداً أقوى عليها منك فهلم فلنبايعك فقال : لا حاجة لي في ذلك فكرروا عليه فأبى عليهم ثلاثاً ثم بسط يده فبايعوه ثم انصرفوا ومسحوا أيديهم بالحيطان وقالوا : أيظن ابن مرجانة اننا ننقاد له في الجماعة والفرقة .

فلما بايعوه أرسل إلى أهل الكوفة مع عمرو بن مسمع ، وسعد بن القرحاء التميمي يعلمهم ما صنع أهل البصرة ويدعوهم إلى البيعة له ، فلما وصلا إلى الكوفة وكان خليفته عليها عمرو بن حريث جمع الناس وقام الرسولان فخطبا أهل الكوفة وذكرا لهم ذلك ، فقال يزيد بن الحرث بن يزيد الشيباني ـ وهو ابن رويم ـ فقال : الحمد لله الذي أراحنا من ابن سمية أنحن نبايعه ؟ لا ولا كرامة ، وحصبهما أول الناس ثم حصبهما الناس بعده ، فشرفت تلك الفعلة يزيد بن رويم في الكوفة ورفعته ، ورجع الرسولان إلى البصرة فأعلماه الحال فقال أهل البصرة : أيخلعه أهل الكوفة ونوليه نحن ؟ فضعف سلطانه عندهم فكان يأمر بالأمر فلا يقضى ويرى الرأي فيرد عليه ويأمر بحبس المخطىء فيحال بين أعوانه وبينه ، ثم جاء إلى البصرة سلمة بن ذؤيب الحنظلي التميمي فوقف في السوق وبيده لواء ، وقال: أيُّها الناس هلموا إليَّ ، إني أدعوكم إلى ما لم يدْعُكم إليه أحد ، أدعوكم إلى العائذ بالحرم ـ يعني عبدالله بن الزبير ـ فاجتمع إليه ناس وجعلوا يصفقون على يديه يبايعونه ، فبلغ الخبر ابن زياد فجمع الناس فخطبهم وذكر لهم أمره معهم وأنه دعاهم إلى من يرتضونه فبايعه منهم أهل البصرة وأنهم أبوا غيره وقال: إني بلغني أنكم مسحتم أكفكم بالحيطان وباب الدار وقلتم ما قلتم وإني آمر بالأمر فلا ينفذ ويرد علي رأيي ويحال بين أعواني وبين طلبتي ، ثم إن هذا سلمة بن ذؤيب يدعو إلى الخلاف عليكم ليفرق جماعتكم ويضرب بعضكم رقاب بعض بالسيف . فقال الأحنف والناس : نحن نأتيك بسلمة فأتوه بسلمة فإذا جمعه قد كثف والفتق قد اتسع ، فلما رأوا ذلك قعدوا عن ابن زياد فلم يأتوه فدعا عبيد الله رؤساء محاربة السلطان[1] وأرادهم ليقاتلوا معه قالوا: إنْ أمرنا قوادُنا فعلنا فقال له إخوته : ما لنا خليفة فنقاتل عنه فإن هُزمت رجعتَ إليه فأمدك ولعل الحرب تكون عليك وقد اتخذنا

---

(١) في الطبري «رؤساء خاصّة السلطان».

بين هؤلاء القوم أموالاً فإن ظفروا بنا أهلكونا وأهلكوها فلم تبق لك بقية .

فلما رأى ذلك أرسل إلى الحرث بن قيس بن صُهباء الجَهضمي الأزدي[١] فأحضره وقال له: يا حرث إن أبي أوصاني أني إنْ احتجتُ إلى العرب يوماً أن أختارَكم . فقال الحرث : إن قومي قد اختبروا أباك فلم يجدوا عنده مكاناً ولا عندك مكافأة ولا أردك إذا اخترتنا ما أدري كيف أماني لك إن أخرجتك نهاراً أخاف أن تُقتل وأُقتل ، ولكني أقيم معك إلى الليل ثم أردفك خلفي لئلا تُعرف. فقال عبيد الله : نعم ما رأيت فأقام عنده فلما كان الليل حمله خلفه وكان في بيت المال تسعة عشر ألف ألف ففرق ابن زياد بعضها في مواليه وآدخر الباقي لآل زياد، وسار الحرث بعبيد الله بن زياد فكان يمر به على الناس وهم يتحارسون مخافة الحرورية. وعبيد الله يسأله : أين نحن ؟ والحرث يخبره ، فلما كانوا في بني سُليم قال : أين نحن ؟ قال: في بني سُليم فقال : سلمنا إن شاء الله ، فلما أتى بني ناجية قال : أين نحن ؟ قال : في بني ناجية . قال : نجونا إن شاء الله . فقال بنو ناجية : من أنت ؟ قال: الحرث بن قيس ، وكان يعرف رجل منهم عبيد الله فقال : ابن مرجانة وأرسل سهماً فوقع في عمامته، ومضى به الحرث فأنزله في داره نفسه في الجهاضم فقال له ابن زياد : يا حرث إنك أحسنتَ فاصنعْ ما أشير به عليك ، قد علمت منزلة مسعود بن عمرو في قومه وشرفه وسنه وطاعة قومه له ، فهل لك أن تذهب بي إليه فأكون في داره فهي في وسط الأزد ؟ فإنك إن لم تفعل فرق عليك أمر قومك ، فأخذه الحرث ودخلا على مسعود ولم يشعر وهو جالس يصلح خفاً له ، فلما رآهما عرفهما فقال للحرث : أعوذ بالله من شر ما طرقتني به . قال : ما طرقتك إلا بخير قد علمت ان قومك أنجوا زياداً ووفوا له فصارت مكرمة يفتخرون بها على العرب، وقد بايعتم عبيد الله بيعة الرضا من مشورة وبيعة أخرى قبل هذه ـ يعني بيعة الجماعة ـ فقال مسعود : أترى لناأن نعادي أهل مصرنا في عبيد الله ولم نجد من أبيه مكافأة ولا شكراً فيما صنعنا معه ؟ فقال الحرث : إنه لا يعاديك أحد على الوفاء على بيعتك حتى تبلغه مأمنه أفتخرجه من بيتك بعدما دخله عليك ؟ فأمره مسعود فدخل بيت أخيه عبد الغافر بن عمرو .

ثم ركب مسعود من ليلته ومعه الحرث وجماعة من قومه فطافوا في الأزد فقالوا :

---

(١) في الطبري «حارث بن قيس بن صهبان».

إن ابن زياد فقد وإنا لا نأمن أن تلطخوا به فاصبحوا في السلاح وفقد الناس ابن زياد فقالوا : ما هو إلا في الأزد . وقيل : إن الحرث لم يكلم مسعوداً بل أمر عبيد الله فحمل معه مائة ألف وأتى بها أم بسطام امرأة مسعود وهي بنت عمرو بن الحرث ومعه عبيد الله فاستأذن عليها فأذنت له فقال لها : قد أتيتك بأمر تسودين به نساء العرب وتتعجلين به الغنى وأخبرها الخبر وأمرها أن تدخل ابن زياد البيت وتلبسه ثوباً من ثياب مسعود ففعلت فلما جاء مسعود أخذ برأسها يضربها فخرج عبيد الله والحرث عليه وقال له : قد أجارتني وهذا ثوبك علي وطعامك في بطني وشهد الحرث وتلطفوا به حتى رضي ، فلم يزل ابن زياد في بيته حتى قتل مسعود فسار إلى الشام . ولما فقد ابن زياد بقي أهل البصرة في غير أمير فاختلفوا فيمن يؤمّرون عليهم ثم تراضوا بقيس بن الهيثم السلمي ، وبالنعمان بن سفيان الراسبي الحرمي ليختارا من يرضيان لهم ، وكان رأي قيس في بني أمية ورأي النعمان في بني هاشم ، فقال النعمان : ما أرى أحداً أحق بهذا الأمر من فلان لرجل من بني أمية ، وقيل : بل ذكر له عبد الله بن الأسود الزهري وكان هوى قيس فيه ، وإنما قال النعمان ذلك خديعة ومكراً بقيس فقال قيس : قد قلدتك أمري ورضيت من رضيت ثم خرجا إلى الناس فقال قيس : قد رضيت من رضي النعمان .

ذكر ولاية عبد الله بن الحرث البصرة

لما اتفق قيس والنعمان ورضي قيس بمن يؤمره النعمان أشهد عليه النعمان بذلك وأخذ على قيس وعلى الناس العهود بالرضا ، ثم أتى عبد الله بن الأسود وأخذ بيده واشترط عليه حتى ظن الناس أنه بايعه ثم تركه وأخذ بيد عبد الله بن الحرث بن نوفل بن الحرث بن عبد المطلب الملقب ببة واشترط عليه مثل ذلك ، ثم حمد الله وأثنى عليه وذكر النبي ﷺ وحق أهل بيته وقرابته وقال : أيّها الناس ما تنقمون من رجل من بني عم نبيكم وأمه هند بنت أبي سفيان فقد كان الأمر فيهم فهو ابن أختكم ثم أخذ بيده وقال : رضيت لكم به فنادوه قد رضينا وبايعوه وأقبلوا به إلى دار الإمارة حتى نزلها ،وذلك أول جمادى الآخرة سنة أربع وستين ، وقال الفرزدق في بيعته :

وبايعت أقواماً وفيت بعهدِهم ... وببة قد بايعته غيرَ نادمِ

ذكر هرب ابن زياد إلى الشام

ثم إن الأزد وربيعة جددوا الحلف الذي كان بينهم وبين الجماعة وأنفق ابن زياد

مالاً كثيراً فيهم حتى تم الحلف، وكتبوا بذلك بينهم كتابين فكان أحدهما عند مسعود بن عمرو ، فلما سمع الأحنف أن الأزد طلبت إلى ربيعة ذلك قال : لا يزالون لهم اتباعاً إذا أتوهم ، فلما تحالفوا اتفقوا على أن يردوا ابن زياد إلى دار الامارة فساروا ورئيسهم مسعود بن عمرو وقالوا لابن زياد : سر معنا فلم يفعل وأرسل معه مواليه على الخيل وقال لهم : لا تتحدثوا بخير ولا بشر إلا أتيتموني به، فجعل مسعود لا يأتي سكة ولا يتجاوز قبيلة إلا أتى بعض أولئك الغلمان ابن زياد بالخبر ، وسارت ربيعة وعليهم مالك بن مسمع فأخذوا سكة المربد ، وجاء مسعود فدخل المسجد فصعد المنبر وعبد الله بن الحرث في دار الامارة فقيل له : إن مسعوداً وأهل اليمن وربيعة قد ساروا وسيهيج بين الناس شرٌّ فلو أصلحت بينهم وركبت في بني تميم فقال : أبعدهم الله لا والله لا أفسد نفسي في اصلاحهم ، وجعل رجل من أصحاب مسعود يقول :

لأنكحن بَبَّهْ جارية في قُبَّهْ تمشط رأس لُعْبَهْ

هذا قول الأزد ، وأما مضر فيقولون : إن أمه كانت ترقصه وتقول هذا .

وصعد مسعود المنبر وسار مالك بن مسمع نحو دور بني تميم حتى دخل سكة بني العدوية فحرق دورهم لما في نفسه لاستعراض ابن خازم ربيعة بهراة ، وجاء بنو تميم إلى الأحنف فقالوا : يا أبا بحر إن ربيعة والأزد قد تحالفوا وقد ساروا إلى الرحبة فدخلوها فقال : لستم بأحق بالمسجد منهم ، فقالوا : قد دخلوا الدار فقال : لستم بأحق بالدار منهم فأتته امرأة بمجمر وقالت له : ما لك وللرياسة إنما أنت امرأة تتجمر فقال : است امرأة أحق بالمِجمر منك فما سمع منه كلمة أسوأ منها ، ثم أتوه فقالوا : إن امرأة منا قد نزعت خلخالها وقد قفلوا الضياع الذي على طريقك وقفلوا المقعد الذي على باب المسجد[1] ، وقد دخل مالك بن مسمع سكة بني العدوية فحرق. فقال الأحنف : أقيموا البينة على هذا ففي دون هذا ما يحل قتالهم فشهدوا عنده على ذلك . فقال الأحنف : أجاء عباد بن الحصين ؟ قالوا : لا ـ وهو عباد بن الحصين بن يزيد بن عمرو بن أوس من بني عمرو بن تميم ـ ثم قال : أجاء عباد ؟ قالوا : لا، قال : أههنا عَبس بن طلق بن ربيعة الصريمي من بني سعد بن زيد مناة بن تميم ؟ قالوا : نعم ، فدعاه فانتزع معجراً في رأسه فعقده في رمح ثم دفعه إليه وقال : سر، فلما ولى قال :

---

(١) في الطبري « وقالوا : قتلوا الصباغ الذي على طريقك وقتلوا المقعد الذي كان على باب المسجد » .

اللهم إن لم تخزها اليوم فإنك لم تخزها فيما مضى ، وصاح الناس هاجت زبرا وهي أمة الأحنف كنوا بها عنه. فسار عبس إلى المسجد فلما سار عبس جاء عباد فقال : ما صنع الناس ؟ فقيل : سار بهم عبس فقال : لا أسير تحت لواء عبس وعاد إلى بيته ومعه ستون فارساً . فلما وصل عبس إلى المسجد قاتل الأزد على أبوابه ـ ومسعود على المنبر يحضض الناس ـ فقاتل غطفان بن أنيف التميمي وهو يقول :

يــال تميم إنها مذكورَهْ إن فات مسعودٌ بها مشهورهْ فاستمسكوا بجانب المقصورَهْ

أي لا يهرب فيفوت وأتوا مسعوداً وهـو على المنبر فـاستنزلـوه وقتلوه ، وذلك أول شوال سنة أربع وستين وانهزم أصحابه ، وهـرب أشيم بن شقيق بن ثور فـطعنه أحدهم فنجا بها فقال الفرزدق :

لــو أنَّ أشْيَمَ لم يسبق أسِـنَّتَـنَــا ... وأخْـطأ البـابَ إذ نيـرانُنـا تَقِـدُ
إذاً لصـاحبَ مسعـوداً وصـاحبـه ... وقـد تهافتت الأعفـاج والكبِـدُ

ولما صعد مسعود المنبر أتى ابن زياد فقيل له ذلك فتهيأ ليجيء إلى دار الامارة فأتوه وقالوا له : إنه قتل مسعود فركب ولحق بالشام ، فأما مالك بن مسمع فأتاه ناس من مضر فحضروه في داره وحرقوا داره . ولما هرب ابن زياد تبعوه فاعجزهم فنهبوا ما وجدوا له ، وفي ذلك يقول واقد[1] بن خليفة التميمي :

يــا ربَّ جبارٍ شـديـدٍ كَلَبُــهْ ... قـد صارَ فينا تـاجُـهُ وَسَلَبُـهْ
منهم عُبَيْـدُ اللَّهِ يـومَ نَسْلِبُـهْ[2] ... جِـيــادَهُ وَبـزَّهُ وَنَـنْـهَـبُـهْ
يــومَ التقى مِقْنَبُنَـا وَمِقْنَبُـهْ ... لَـوْ لَمْ يُنَـجِّ ابنَ زيـادٍ هَـرَبُـهْ

وقد قيل في قتل مسعود ومسير ابن زياد غير ما تقدم ، وهو أنه لما استجار ابن زياد بمسعود بن عمرو أجاره ، ثم سار ابن زياد إلى الشام وأرسل معه مسعود مائة من الأزد عليهم قرة بن عمرو بن قيس حتى قدموا به إلى الشام ، فبينما هو يسير ذات ليلة قال : قد ثقل علي ركوب الإبل فوطئوا لي على ذي حافر فجعلوا له قطيفة على حمار فركبه ثم سار وسكت طويلاً . قال مسافر بن شريح اليشكري : فقلت في نفسي لئن كان نائماً

---

(١) في الطبري « وافد » بالفاء .

(٢) في الطبري « حين نسلبه » .

لأوقظن[١] عليه نومه فقلت : أنائم أنت؟ قال: لا ، كنت أحدث نفسي ، قلت : أفلا أحدثك بما كنت تحدث به نفسك ؟ قال: هات، قلت: كنت تقول : ليتني كنت لم أقتل حسيناً قال : وماذا ؟ قلت : تقول ليتني لم أكن قتلت من قتلت قال : وماذا قلت ؟ تقول : ليتني لم أكن لمست البيضاء[٢] قال : وماذا ؟ قلت : تقول ليتني لم أكن استعملت الدهاقين . قال : وماذا؟ قلت : تقول ليتني كنت أسخى مما كنت قال : والله ما نطقت بصواب ولا سكت عن خطأ أما قتلي الحسين فإنه أشار علي يزيد بقتله أو قتلي فآخترت قتله[٣] . وأما البيضاء فإني اشتريتها من عبد الله بن عثمان الثقفي وأرسل إلي يزيد بألف ألف فأنفقتها عليها فإن بقيت فلأهلي وإن هلكت لم آس عليها .

وأما استعمال الدهاقين فإن عبد الرحمن بن أبي بكرة أراد أن يروج فوقع[٤] فيّ عند معاوية وبلغ خراج العراق مائة ألف ألف فخيرني معاوية بين العزل والضمان فكرهت العزل فكنت إذا استعملت العربي كسر الخراج فإن اغرمت عشيرته أو طالبته أوغرت صدورهم وإن تركته تركت مال الله ، وأنا أعرف مكانه فوجدت الدهاقين أبصر بالجباية وأوفى بالأمانة وأهون بالمطالبة منكم مع أني قد جعلتكم أمناء عليهم لئلا يظلموا أحداً .

وأما قولك في السخاء فما كان لي مال فأجود به عليكم ولو شئت لأخذت بعض ما لكم فخصصت به بعضكم دون بعض فيقولون : ما أسخاه . وأما قولك : ليتني لم أكن قتلت من قتلت فما عملت بعد كلمة الاخلاص عملاً هو أقرب إلى الله عندي من قتل من قتلت من الخوارج ولكني سأخبرك بما حدثت به نفسي قلت: ليتني كنت قاتلت أهل البصرة فإنهم بايعوني طائعين ولقد حرصت على ذلك ولكن بني زياد قالوا : إن قاتلتهم فظهروا عليك لم يبقوا منا أحداً وإن تركتهم يغيب الرجل منا عند أخواله وأصهاره فرفقت بهم .

وكنت أقول: ليتني أخرجت أهل السجن فضربت أعناقهم ، وأما إذ فاتت هاتان فليتني أقدم الشام ولم يبرموا أمراً . قال : فقدم الشام ولم يبرموا أمراً فكان معه صبيان[٥] وقيل : بل قدم وقد أبرموا فنقض عليهم ما أبرموا فلما سار من البصرة استخلف مسعوداً عليها فقال : بنو تميم وقيس : لا نرضى به ولا نولي إلا رجلاً ترضاه جماعتنا ،فقال مسعود:

---

(١) في الطبري « لا نغصن » .

(٢) في الطبري « بنيت البيضاء » .

(٣) في الطبري « فإنه سار إلي يريد قتلي واخترت قتله على أن يقتلني » .

(٤) في الطبري « فإن عبد الرحمن بن أبي بكرة ، وزاذان فروخ وقعا في » الخ .

(٥) في الطبري « فكأنما كانوا معه صبياناً » .

قد استخلفني ولا أدع ذلك أبداً ، وخرج حتى انتهى إلى القصر ودخله . واجتمعت تميم إلى الأحنف فقالوا له: إن الأزد قد دخلوا المسجد قال : إنما هو لهم ولكم . قالوا : قد دخلوا القصر وصعد مسعود المنبر ، وكانت خوارج قد خرجوا فنزلوا نهر الأساورة حين خرج عبيد الله إلى الشام فزعم الناس أن الأحنف بعث إليهم إن هذا الرجل الذي قد دخل القصر هو لنا ولكم عدو فما يمنعكم عنه أن تبدؤوا به فجاءت عصابة منهم حتى دخلوا المسجد ومسعود على المنبر يبايع من أتاه فرماه علج يقال له مسلم من أهل فارس دخل البصرة فأسلم ثم دخل في الخوارج فأصاب قلبه فقتله فقال الناس : قتله الخوارج فخرجت الأزد إلى تلك الخوارج فقتلوا منهم وجرحوا فطردوهم عن البصرة، ثم قيل للأزد : إن تميماً قتلوا مسعوداً فأرسلوا يسألون فإذا ناس من تميم تقوله ، فاجتمعت الأزد عند ذلك فرأسوا عليهم زياد بن عمرو أخا مسعود بن عمرو ومعهم مالك بن مسمع في ربيعة .

وجاءت تميم إلى الأحنف يقولون: قد خرج القوم وهو يتمكث لا يخف للفتنة، فجاءته امرأة بمجمر فقالت : اجلس على هذا أي إنما أنت امرأة ، فخرج الأحنف في بني تميم ومعهم من بالبصرة من قيس فالتقوا فقتل بينهم قتلى كثيرة فقال لهم بنو تميم : الله الله يا معشر الأزد في دمائنا ودمائكم بيننا وبينكم القرآن ومن شئتم من أهل الإسلام فإن كان لكم علينا بينة فاختاروا أفضل رجل فينا فاقتلوه وإن لم تكن لكم بينة فإنّا نحلف بالله ما قتلنا ولا أمرنا ولا نعلم له قاتلاً وإن لم تريدوا ذلك فنحن ندي صاحبكم بمائة ألف درهم ، وأتاهم الأحنف واعتذر إليهم مما قيل ، وسفر بهم عمر بن عبيد الله بن معمر ، وعبد الرحمن بن الحرث بن هشام فطلبوا عشر ديات فأجابهم إلى ذلك واصطلحوا عليه . وأما عبد الله بن الحرث ببة فإنه أقام يصلي بينهم حتى قدم عليهم عمر بن عبيد الله بن معمر أميراً من قبل ابن الزبير . وقيل : بل كتب ابن الزبير إلى عمر بعهده على البصرة فأتاه الكتاب وهو متوجه إلى العمرة ، فكتب عمر إلى أخيه عبيد الله يأمره أن يصلي بالناس فصلى بهم حتى قدم عمر فبقي عمر أميراً شهراً حتى قدم الحرث بن عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي بعزله ووليها الحرث وهو القباع . وقيل : اعتزل عبيد الله بن الحرث ببة أهل البصرة بعد قتل مسعود بسبب العصبية وانتشار الخوارج فكتب أهل البصرة إلى ابن الزبير فكتب ابن الزبير إلى أنس بن مالك يأمره أن يصلي بالناس فصلى بهم أربعين يوماً ، وكان عبيد الله بن الحرث يقول : ما أحب أن

أصلح الناس بفساد نفسي وكان يتدين ، وفي أيامه سار نافع بن الأزرق إلى الأهواز من البصرة .

وأما أهل الكوفة فإنهم لما ردوا رسل ابن زياد على ما ذكرناه قبل عزلوا خليفته عليهم وهو عمرو بن حريث واجتمع الناس وقالوا : نؤمِّر علينا رجلاً إلى أن يجتمع الناس على خليفة فاجتمعوا على عمر بن سعد ، فجاءت نساء همدان يبكين الحسين ورجالهم متقلدو السيوف فأطافوا بالمنبر فقال محمد بن الأشعث : جاء أمر غير ما كنا فيه ، وكانت كندة تقوم بأمر عمر بن سعد لأنهم أخواله فاجتمعوا على عامر بن مسعود ابن أمية بن خلف بن وهب بن حذافة الجمحي فخطب أهل الكوفة فقال : إن لكل قوم اشربة ولذات فاطلبوها في مظانها وعليكم بما يحل ويحمد واكسروا شرابكم بالماء وتواروا عني بهذه الجدران فقال ابن همام :

اشربْ شرابَكَ وانْعَمْ غير محسودِ ... واكسِرْهُ بالماءِ لا تَعْصِ ابنَ مسعود
إنَّ الأميرَ له في الخمر مأربةٌ ... فاشربْ هنيئاً مريئاً غيرَ مرصودِ
من ذا يُحَرِّمُ ماءَ المزنِ خالطه ... في قَعْرِ خابِيةٍ ماء العناقيدِ
إني لأكْرَهُ تشديدَ الرواةِ لنا ... فيها وَيُعْجِبُني قولُ ابنِ مسعودِ

ولما بايعه أهل الكوفة وكتبوا بذلك إلى ابن الزبير أقره عليها ، وكان يلقب دحروجة الجعل ، وكان قصيراً فمكث ثلاثة أشهر من مهلك يزيد بن معاوية ، ثم قدم عليهم عبد الله بن يزيد الخطمي الأنصاري على الصلاة . وابراهيم بن محمد بن طليحة[1] على الخراج من عند ابن الزبير ، واستعمل محمد بن الأشعث بن قيس على الموصل ، فاجتمع لابن الزبير أهل الكوفة ، والبصرة ، ومن بالقبلة من العرب ، وأهل الجزيرة ، وأهل الشام إلا أهل الأردن في امارة عمر بن عبيد الله بن معمر ، وكان طاعون الجارف بالبصرة فماتت أمه فما وجد لها من يحملها حتى استأجروا لها أربعة أعلاج فحملوها .

ذكر خلاف أهل الرّي

في هذه السنة بعد موت يزيد خالف أهل الري وكان عليهم الفرخان الرازي ؛

---

(١) في الطبري « طلحة » .

فوجه إليهم عامر بن مسعود وهو أمير الكوفة محمد بن عمير بن عطارد بن حاجب بن زرارة بن عدس التميمي فلقيه أهل الري فانهزم محمد ، فبعث إليهم عامر عتاب بن ورقاء الرياحي التميمي فاقتتلوا قتالاً شديداً فقتل الفرخان وانهزم المشركون ، وكان محمد بن عمير هذا مع علي بصفين على تميم الكوفة ثم عاش بعد ذلك فلما وَلي الحجاج الكوفة فارقها وسار إلى الشام لكراهته ولاية الحجاج .

ذكر بيعة مروان بن الحكم

في هذه السنة بويع مروان بن الحكم بالشام ، وكان السبب فيها أن ابن الزبير لما بويع له بالخلافة ولى عبيد الله بن الزبير المدينة ، وعبد الرحمن بن جحدم الفهري مصر ، وأخرج بني أمية . ومروان بن الحكم إلى الشام ، وعبد الملك بن مروان يومئذ ابن ثمان وعشرين سنة ، فلما قدم الحصين بن نمير ومن معه إلى الشام أخبر مروان بما كان بينه وبين ابن الزبير وقال له ولبني أمية : نراكم في اختلاط فأقيموا أميركم قبل أن يدخل عليكم شأنكم فتكون فتنة عمياء صماء .

وكان من رأي مروان أن يسير إلى ابن الزبير فيبايعه بالخلافة، فقدم ابن زياد من العراق وبلغه ما يريد مروان أن يفعل فقال له : قد استحييت لك من ذلك أنت كبير قريش وسيدها تمضي إلى أبي خبيب فتبايعه ـ يعني ابن الزبير ـ لأنه كان يكنى بابنه خبيب فقال : ما فات شيء بعد ، فقام إليه بنو أمية ومواليهم وتجمع إليه أهل اليمن فسار إلى دمشق وهو يقول : ما فات شيء بعد ، فقدم دمشق والضحاك بن قيس قد بايعه أهلها على أن يصلي بهم ويقيم لهم أمرهم حتى يجتمع الناس وهو يدعو إلى ابن الزبير سراً ، وكان زفر بن الحرث الكلابي بقنسرين يبايع لابن الزبير ، والنعمان بن بشير بحمص يبايع له أيضاً ، وكان حسان بن مالك بن بحدل الكلبي بفلسطين عاملاً لمعاوية ولابنه يزيد وهو يريد بني أمية فسار إلى الأردن واستخلف على فلسطين روح بن زنباع الجذامي ، فثار ناتل بن قيس بروح فأخرجه من فلسطين وبايع لابن الزبير ، وكان حسان في الأردن يدعو إلى بني أمية فقال لأهل الأردن : ما شهادتكم على ابن الزبير . وقتلى الحرة ؟ قالوا : نشهد أنه منافق وأن قتلى الحرة في النار قال : فما شهادتكم على يزيد وقتلاكم بالحرة ؟ قالوا : نشهد أنه على الحق وإن قتلانا في الجنة قال : فأنا أشهد لئن كان يزيد وشيعته على حق إنهم اليوم على حق ولئن كان ابن الزبير وشيعته على باطل إنهم اليوم عليه قالوا له : صدقت نحن نبايعك على أن نقاتل من خالفك وأطاع

ابن الزبير على أن تجنبنا هذين الغلامين يعنون ابني يزيد: عبدالله وخـالداً فإنا نكره أن يأتينا الناس بشيخ ونأتيهم بصبي .

وكتب حسان إلى الضحاك كتاباً يعظم فيه حق بني أمية وحسن بلائهم عنده ويذم ابن الزبير وأنه خلع خليفتين وأمره أن يقرأ كتابه على الناس ، وكتب كتاباً آخر وسلمه إلى الرسول ـ واسمه ناغضة ـ وقال له : إن قرأ كتابي على الناس والا فاقـرأهذا الكتاب عليهم ، وكتب حسان إلى بني أمية يأمرهم أن يحضروا ذلك فقدم ناغضة فدفع كتاب الضحاك إليه وكتاب بني أمية إليهم ، فلما كانت الجمعة صعد الضحاك المنبر فقال له ناغضة : لتقرأ كتاب حسان على الناس فقال له الضحاك : اجلس فقام إليه الثانية . والثالثة وهو يقول له : اجلس فأخرج ناغضة الكتاب وقرأه على الناس فقال الوليد بن عتبة بن أبي سفيان : صدق حسان وكذب ابن الزبير وشتمه .

وقيل: كان الوليد قد مات بعد موت معاوية بن يزيد، وقام يزيد بن أبي الغمس[١] الغساني ، وسفيان بن الأبرد ، الكلبي فصدقا حسانا وشتما ابن الزبير ، وقام عمرو بن يزيد الحكمي فشتم حساناً واثنى على ابن الزبير ، فأمر الضحاك بالوليد ويزيد بن أبي الغمس وسفيان فحبسوا، وجـال الناس ووثبت كلب على عمـرو بن يزيـد الحكمي فضربوه ومزقوا ثيابه ، وقام خالد بن يزيد فصعد مرقاتين من المنبـر وسكن الناس[٢] ونزل الضحاك فصلى الجمعة ودخل القصر ، فجاءت كلب فأخرجوا سفيان ، وجاءت غسان فاخرجوا يزيد ، وجاء خالد بن يزيد ، وأخوه عبد الله معهما اخوالهما من كلب فأخرجوا الوليد بن عتبة ، وكان أهل الشام يسمون ذلك اليوم يوم جيرون الأوّل ، ثم خرج الضحاك إلى المسجد فجلس فيه وذكر يزيد بن معاوية فسبه ، فقام إليه شاب من كلب فضربه بعصا ، فقام الناس بعضهم إلى بعض فاقتتلوا ، قيس تدعو إلى ابن الزبير ونصرة الضحاك ، وكلب تدعو إلى بني أمية ثم إلى خالد بن يزيد لأنه ابن أختهم ، ودخل الضحاك دار الامارة ولم يخرج من الغد إلى صلاة الفجر ، وبعث إلى بني أمية فاعتذر إليهم وأنه لا يريد ما يكرهون ، وأمرهم أن يكتبوا إلى حسان ويكتب معهم ليسير من الأردن إلى الجابية ويسيروا هم من دمشق فيجتمعوا معه بالجابية ويبايعوا الرجل من

---

(١) في الطبري « أبي النمس » بالنون .

(٢) في الطبري « فتكلم خالد بن يزيد بكلام وأوجز فيه لم يسمع مثله وسكن الناس » .

بني أمية فرضوا وكتبوا إلى حسان .

وسار الضحاك ، وبنو أمية نحو الجابية فأتاه ثور بن معن السلمي فقال : دعوتنا إلى ابن الزبير فبايعناك على ذلك وأنت تسير إلى هذا الاعرابي من كلب تستخلف ابن أخته خالد بن يزيد ، فقال الضحاك : فما الرأي ؟ قال : الرأي أن تُظهر ما كنا نكتم وتدعو إلى ابن الزبير ، فرجع الضحاك ومن معه من الناس فنزل بمرج راهط ودمشق بيده، واجتمع بنو أمية وحسان وغيرهم بالجابية ، فكان حسان يصلي بهم أربعين يوماً والناس يتشاورون ، وكان مالك بن هبيرة السكوني يهوى خالد بن يزيد ، والحصين بن نمير يميل إلى مروان ، فقال مالك للحصين : هل نبايع هذا الغلام الذي نحن ولدنا أباه وقد عرفت منزلتنا من أبيه فإنه يحملنا على رقاب العرب غداً ـ يعني خالداً فقال الحصين : لا والله لا تأتينا العرب بشيخ ونأتيها بصبي فقال مالك : والله لئن استخلفت مروان ليحسدك على سوطك وشراك نعلك وظل شجرة تستظل بها ان مروان أبو عشيرة وأخو عشيرة فإن بايعتموه كنتم عبيداً لهم ولكن عليكم بابن أختكم ، فقال الحسين : إني رأيت في المنام قنديلاً معلقاً من السماء وإن من يلي الخلافة يتناوله فلم ينله أحد إلا مروان والله لنستخلفنه ، وقام روح بن زنباع الجذامي فقال : أيها الناس إنكم تذكرون عبد الله بن عمر وصحبته وقدمه في الإسلام وهو كما تذكرون ولكنه ضعيف وليس بصاحب أمر أمة محمد الضعيف ، وتذكرون ابن الزبير وهو كما تذكرون أنه ابن حواري رسول الله ﷺ وأنه ابن ذات النطاقين ولكنه منافق قد خلع خليفتين يزيد وابنه معاوية وسفك الدماء وشق عصا المسلمين وليس المنافق بصاحب أمة محمد ، وأما مروان بن الحكم فوالله ما كان في الاسلام صدع إلا كان ممن يشعبه وهو الذي قاتل علي بن أبي طالب يوم الجمل وإنا نرى للناس أن يبايعوا الكبير ويستشيروا[1] الصغير ـ يعني بالكبير مروان وبالصغير خالد بن يزيد ـ فاجتمع رأيهم على البيعة لمروان بن الحكم ثم لخالد بن يزيد ثم لعمرو بن سعيد بن العاص من بعد خالد على أن امرة دمشق لعمرو وإمرة حمص لخالد بن يزيد ، فدعا حسان خالداً فقال : يا ابن أختي إن الناس قد أبوك لحداثة سنك وإني والله ما أريد هذا الأمر إلا لك ولأهل بيتك وما أبايع مروان إلا نظراً لكم ، فقال خالد : بل عجزت عنا . قال : والله ما عجزت عنكم ولكن

---

(١) في الطبري « ويستشبوا » .

الرأي لك ما رأيت ، ثم بايعوا مروان لثلاث خلون من ذي القعدة سنة أربع وستين . وقال مروان حين بويع له :

لـمـا رأيتُ الأمـرَ أمـراً نـهبـا ... يَسَّـرْتُ غسـانـاً لـهم وكـلبـا
والسكسكيين رجـالاً غُـلْبـا ... وطـيِّئـاً يـأبـاه إلا ضَـرْبـا
والقَيْنَ يمشي في الحـديـدِ نكبا ... ومن تنـوخ مشمـخـرًا صعبـا
لا يـأخـذون الملك إلا غصبـا ... فـإن دنت قيس فقل لا قـربـا

(خبيب) بضم الخاء المعجمة وفتح الباء الموحدة وسكون الياء تحتها نقطتان وآخره باء موحدة .

ذكر وقعة مرج راهط وقتل الضحاك ، والنعمان بن بشير

ثم إن مروان لما بايعه الناس سار من الجابية إلى مرج راهط وبه الضحاك بن قيس ومعه ألف فارس ، وكان قد استمد الضحاك النعمان بن بشير وهو على حمص فأمده بشرحبيل بن ذي الكلاع، واستمد أيضاً زفر بن الحرث ـ وهو على قنسرين ـ فأمده بأهل قنسرين ، وأمده ناتل بأهل فلسطين فاجتمعوا عنده ، واجتمع على مروان كلب ، وغسان، والسكاسك ، والسكون ، وجعل على ميمنته عمرو بن سعيد، وعلى ميسرته عبيد الله بن زياد ، وكان يزيد بن أبي الغمس الغساني مختفياً بدمشق لم يشهد الجابية فغلب على دمشق وأخرج عامل الضحاك بن قيس وغلب على الخزائن وبيت المال وبايع لمروان وأمده بالأموال والرجال والسلاح ، فكان أوّل فتح على بني أمية ، وتحارب مروان والضحاك بمرج راهط عشرين ليلة واقتتلوا قتالاً شديداً فقتل الضحاك قتله دحية بن عبد الله وقتل معه ثمانون رجلاً من أشراف أهل الشام ، وقتل أهل الشام مقتلة عظيمة ، وقتلت قيس مقتلة لم يقتل مثلها في موطن قط ، وكان فيمن قتل هانىء بن قبيصة النميري سيد قومه كان مع الضحاك قتله وازع بن ذؤالة الكلبي ، فلما سقط جريحاً قال :

تعست ابن ذات النوف[1] أجهزْ على امرىء ... يرى الموتَ خيـراً من فرارٍ وألـزما
ولا تـتـركني بـالـحشـاشـة إنـني ... صبـورٌ إذا مـا النكس مثلك أحجمـا

---

(١) النوف ما تقطعه الخافضة من المرأة .

فعاد إليه وازع فقتله، وكانت الوقعة في المحرم سنة خمس وستين ، وقيل : بل كانت في آخر سنة أربع وستين ، ولما رأى مروان رأس الضحاك ساءه ذلك وقال : الآن حين كبرت سني ودق عظمي وصرت في مثل طم[١] الحمار أقبلت بالكتائب أضرب بعضها ببعض ، ولما انهزم الناس من المرج لحقوا بأجنادهم فانتهى أهل حمص إليها وعليها النعمان بن بشير ، فلما بلغه الخبر خرج هارباً ليلاً ومعه امرأته نائلة بنت عمارة الكلبية وثقله وأولاده فتحير ليلته كلها وأصبح أهل حمص فطلبوه ، وكان الذي طلبه عمرو بن الجلي[٢] الكلاعي فقتله ورد أهله والرأس معه ، وجاءت كلب من أهل حمص فاخذوا نائلة وولدها معها ، ولما بلغت الهزيمة زفر بن الحرث الكلابي بقنسرين هرب منها فلحق بقرقيسيا وعليها عياض الحرسي كان يزيد ولاه إياها فطلب منه أن يدخل الحمام ويحلف له بالطلاق والعتاق على أنه لما يخرج من الحمام لا يقيم بها فأذن له فدخلها فغلب عليها وتحصن بها ولم يدخل حمامها فاجتمعت إليه قيس ، وهرب ناتل بن قيس الجذامي من فلسطين فلحق بابن الزبير بمكة ، واستعمل مروان بعده على فلسطين روح بن زنباع ، واستوثق الشام لمروان واستعمل عماله عليها .

وقيل : إن عبيد الله بن زياد إنما جاء إلى بني أمية وهم بتدمر ومروان يريد أن يسير إلى ابن الزبير ليبايعه ويأخذ منه الأمان لبني أمية فرده عن ذلك وأمره أن يسير بأهل تدمر إلى الضحاك فيقاتله ووافقه عمرو بن سعيد، وأشار على مروان بأن يتزوج أم خالد بن يزيد ليسقط من أعين الناس فتزوجها وهي فاختة ابنة أبي هشام بن عتبة ، ثم جمع بني أمية فبايعوه وبايعه أهل تدمر .

وسار إلى الضحاك في جمع عظيم فخرج الضحاك إليه فتقاتلا فانهزم الضحاك ومن معه وقتل الضحاك ، وسار زفر بن الحرث إلى قرقيسيا واجتمعت عليه قيس وصحبه في هزيمته إلى قرقيسيا شابان من بني سليم فجاءت خيل مروان تطلبهم فقال الشابان لزفر : انج بنفسك فإنا نحن نقتل فمضى زفر وتركهما فقتلا ، وقال زفر في ذلك :

أريني سلاحي لا أبالكِ إنني ... أرى[٣] الحربَ لا تزدادُ إلا تماديا

---

(١) ظمء والمعنى أن مدة بقائي قصيرة .

(٢) في الطبري « عمرو بن الخلي » بالخاء المعجمة .

(٣) في الأصل «اذا » .

أتـانيَ عن مـروان بـالـغيبِ أنـه مُقِيـدٌ دَمِي أو قـاطـعٌ مِنْ لسـانيـا
ففي العيش منجاةٌ وفي الأرض مَهْرَبٌ إذا نحنُ رَفعْنـا لهنَّ الـمثـانيـا[١]
فـلا تحسبـوني إنْ تَغَيَّبْتُ غـافـلاً ولا تَفْـرَحُـوا إن جئتُكُمْ بلقـائِيـا
فقـدينْبُتُ المـرعى على دِمَنِ الثَّرَى لـه وَرَقٌ من تَحْتِـهِ الشَّـرُّ باديـا[٢]
وتمضي ولا يبقى على الأرض دمنة وتبقى حزازات النفـوس كما هيـا
لعمـري لقـد أبقت وقيعـةُ راهِطٍ لحسّـانَ صـدعـاً بَيِّنـاً متنـائيـا
فـلم تـرَ مني نبـوةً قبـلَ هـذه فـرارِي وتـركي صاحبيَّ ورائيـا
عشيـة أدعـو في القـران فـلا أرى من النـاس إلا من عَـلَيَّ ولا ليـا
أيـذهـبُ يـومٌ واحـدٌ إن أسـأتـه بصـالـح أيـامي وَحُسْنِ بـلائيـا
فلا صلحَ حتى تَشْحَطَ الخيلُ بالقنا وتثـأرَ من نسـوانِ كلبٍ نسـائيـاً
ألا ليت شعـري هـل تصيبنَّ غـارتي تنـوخـاً وَحَيَّ طَيِّءٍ من شقـائيـا

فأجابه جواس بن القعطل :

لعمـري لقـد أبقـت وقيعـةُ راهطٍ على زُفَـرٍ مُـرّاً[٣] من الـداء باقيـا
مقيمـاً ثـوى بيـن الضـلوع مَحَـلُّهُ وبين الحشـا أعيا الـطبيبَ المـداويـا
تُـبكِّي على قَـتْلَى سـليمٍ وعـامـرٍ وذبيـانَ معـذوراً وَتَبْكِي البـواكيـا
دعـا بـالسِّـلاح[٥] ثم أحجمَ إذ رأى سيـوفَ جنـابٍ والـطوالَ المـذاكيـا
عليهـا كـأُسْدِ الغـابِ فتيـانُ نَجْـدَةٍ إذا شَـرَعُـوا نحـوَ الـطِّوالِ العَـوَالِيـا

وقال عمرو بن الجلي الكلبي :

بكى زُفَـرُ القيسيُّ من هُلْكِ قَـوْمِـهِ بِعَبْـرَةِ عَيْنٍ مـا يَجِفُّ سُجُـومُهـا
يُبَكِّي على قَـتْلَى أُصِيبَـتْ بِـرَاهِطٍ تجـاوبُهـا هـامُ القفـارِ وبـومُهـا
أَبَحْنـا حِمى لـلحيِّ قيسٍ بـراهطٍ وَوَلَّتْ شـلالا واستُبِيـحَ حَـريمُهـا

---

(١) في الأصل «المبانيا» .
(٢) الشطرة الثانية من البيت غير موجودة في الطبري، وكذلك الشطرة الأولى من البيت الذي بعده.
(٣) في الطبري «داء» .
(٤) في الطبري « بسلاح».

يُبَكِّيهِمُ حَـرَّانَ تجـري دمـوعُـهُ　　تَـرَجِّي نـزاراً أن تؤوبَ حُلُومُهـا
فمتْ كمداً أو عِشْ ذليلاً مُهَضَّمـاً　　بحَسْـرَةِ نفسٍ لا تنـامُ هُمُـومُهـا

في أبيات.

(يزيد بن أبي الغمس[1]) بالسين المهملة ، وقيل : بالشين المعجمة ، وكان قد ارتدعن الاسلام ودخل الروم مع جبلة بن الأيهم ثم عاود الإسلام وشهد صفين مع معاوية وعاش إلى أيام عبد الملك بن مروان ، و (ناتل) بالنون والتاء المعجمة من فوق باثنتين .

ذكر فتح مروان مصر

فلما قتل الضحاك وأصحابه واستقر الشام لمروان سار إلى مصر فقدمها وعليها عبد الرحمن بن جحدم القرشي يدعو إلى ابن الزبير ، فخرج إلى مروان فيمن معه وبعث مروان عمرو بن سعيد من ورائه حتى دخل مصر فقيل لابن جحدم ذلك فرجع وبايع الناس مروان ورجع إلى دمشق فلما دنا منه بلغه أن ابن الزبير قد بعث إليه أخاه مصعباً في جيش فأرسل إليه مروان عمرو بن سعيد قبل أن يدخل الشام فقاتله فانهزم مصعب . وأصحابه وكان مصعب شجاعاً ثم عاد مروان إلى دمشق واستقر بها ، وقد كان الحصين بن نمير ، ومالك بن هبيرة قد اشترطا على مروان شروطاً لهما ولخالد بن يزيد ، فلما توطن ملكه قال ذات يوم ومالك عنده : إن قوماً يدعون شروطاً منهم عطارة مكحلة ـ يعني مالكاً ـ وكان يتطيب ويتكحل ، فقال مالك هذا : ولما تردى تهامة ويبلغ الحزام الطبيين فقال مروان : مهلاً يا أبا سليمان إنما داعبناك فقال : هو ذاك .

ذكر بيعة أهل خراسان سلم بن زياد وأمر عبد الله بن خازم

ولما بلغ سلم بن زياد ـ وهو بخراسان ـ موت يزيد كتم ذلك فقال ابن عرادة:

يـا أيُّهـا الملكُ المغلّقُ بـابَـهُ　　حَـدَثَتْ أمـورٌ شـأنُهُنَّ عـظيمُ
قتلى بحـرَّة والـذينَ بكـابُـلٍ　　ويـزيـدُ أُغْلِقَ بـابُـهُ المكتـومُ
أبـني أميـةَ إنَّ آخـرَ مُـلْكِكُـمْ　　جَـسَـدٌ بحـوارينَ ثـمَّ مُـقِيـمُ

---

(١) في الطبري «النمس» .

طَـرِقت مَنِيَّتُـهُ وعِـنْـدَ وِسـادِهِ   كُـوبُ وَزِقٌّ راعِـفُ مَـرْثُـومُ(١)
وَمُـرِنَّـةٍ تَبْكِي على نَشْـوانِـهِ   بـالصُّبْـح تَقْعُـدُ مَـرَّةً وتـقـومُ(٢)

فلما أظهر شعره أظهر سلم موت يزيد بن معاوية وابنه معاوية بن يزيد ودعا الناس إلى البيعة على الرضا حتى يستقيم أمر الناس على خليفة فبايعوه ثم نكثوا به بعد شهرين وكان محسناً إليهم محبوباً فيهم ، فلما خلع عنهم استخلف عليهم المهلب بن أبي صفرة ، ولما كان بسرخس لقيه سليمان بن مرثد أحد بني قيس بن ثعلبة بن ربيعة فقال له : ضاقت عليك نزار حتى خلفت على خراسان رجلاً من اليمن ـ يعني المهلب ـ وكان أزدياً والأزد من اليمن فولاه مرو الروذ، والفارياب ، والطالقان ، والجوزجان . وولي أوس بن ثعلبة بن زفر ـ وهو صاحب قصر أوس بالبصرة ـ هراة ، فلما وصل إلى نيسابور لقيه عبد الله بن خازم فقال : من وليت خراسان ؟ فأخبره فقال : أما وجدت في المصر من تستعمله حتى فرقت خراسان بين بكر بن وائل واليمن اكتب لي عهداً على خراسان ، فكتب له وأعطاه مائة ألف درهم ، وسار ابن خازم إلى مرو وبلغ خبره المهلب فاقبل واستخلف رجلاً من بني جشم بن سعد بن زيد مناة بن تميم ، فلما وصلها ابن خازم منعه الجشمي وجرت بينهما مناوشة فأصابت الجشمي رمية بحجر في جبهته وتحاجزوا ودخلها ابن خازم ومات الجشمي بعد ذلك بيومين .

ثم سار ابن خازم إلى سليمان بن مرثد بمرو الروذ فقاتله أياماً فقتل سليمان ، ثم سار إلى عمرو بن مرثد وهو بالطالقان ، فاقتتلوا طويلاً فقتل عمرو بن مرثد وانهزم أصحابه فلحقوا بهراة بأوس بن ثعلبة ، ورجع ابن خازم إلى مرو وهرب من كان بمرو الروذ من بكر بن وائل إلى هراة وانضم إليها من كان بكور خراسان من بكر وكثر جمعهم وقالوا لأوس بن ثعلبة : نبايعك على أن تسير إلى ابن خازم وتخرج مضر من خراسان فأبى عليهم فقال له بنو صهيب ـ وهم موالي بني جحدم ـ : لا نرضى أن نكون نحن ومضر في بلد واحد وقد قتلوا سليمان وعمراً ابني مرثد ، فإما أن تبايعنا على هذا وإلا بايعنا غيرك فأجابهم فبايعوه، فسار إليهم ابن خازم فنزل على وادٍ بينه وبين هراة . فأشار

---

(١) مرثوم بالثاء المثلثة قال في القاموس . رثم أنفه وفاه يرثمه فهو مرثوم ورثيم كسره حتى تقطر منه الدم اهـ وكانه في البيت شبه سيلان الخمر من فم الرق بسيلان الدم من فم المرثوم.

(٢) في الطبري :

ومـرنـة تبكي على نـشـوانهـا   بـالصبـح تقعـد مـرة وتـقـوم   وهو أوضح

البكريون بالخروج من هراة وعمل خندق ، فقال أوس : بل نلزم المدينة فإنها حصينة ونطاول ابن خازم ليضجر ويعطينا ما نريد فأبوا عليه فخرجوا وخندقوا خندقاً ، وقاتلهم ابن خازم نحو سنة ، وقال له هلال الضبي : إنما تقاتل إخوتك وبني أبيك فإن نلت منهم الذي تريد فما في العيش خير فلو أعطيتهم شيئاً يرضون به وأصلحت هذا الأمر ، وقال : والله لو خرجنا لهم من خراسان ما رضوا قال هلال : والله لا أقاتل معك أنا ولا رجل أو تطيعني حتى تعذر إليهم قال : فأنت رسولي إليهم فأرضهم ، فأتى هلال أوس بن ثعلبة فناشده الله والقرابة في نزار وأن يحفظ ولاءها، فقال: هل لقيت بني صهيب ؟ قال : لا . قال : فألقهم قال : فخرج فلقي جماعة من رؤساء أصحابه فأخبرهم ما أتى له فقالوا له : هل لقيت بني صهيب ؟ فقال : لقد عظم أمر بني صهيب عندكم فأتاهم فكلمهم فقالوا :لولا أنك رسول لقتلناك، قال:فهل يرضيكم شيء؟ قالوا: واحدة من اثنتين اما أن تخرجوا من خراسان وإما أن تقيموا وتخرجوا لنا عن كل سلاح وكراع وذهب وفضة ، فرجع إلى ابن خازم فقال : ما عندك ؟ فأخبره فقال : إن ربيعة لم تزل غضاباً على ربها منذ بعث نبيه من مضر ، وأقام ابن خازم يقاتلهم فقال يوماً لأصحابه : قد طال مقامنا وناداهم : يا معشر ربيعة أرضيتم من خراسان بخندقكم فأحفظهم ذلك فتنادوا للقتال فنهاهم أوس بن ثعلبة عن الخروج بجماعتهم وأن يقاتلوا كما كانوا يقاتلون فعصوه ، فقال ابن خازم لأصحابه : آجعلوه يومكم فيكون الملك لمن غلب وإذا لقيتم الخيل فأطعنوها في مناخرها . فاقتتلوا ساعة وانهزمت بكر بن وائل حتى انتهوا إلى خندقهم وتفرقوا يميناً وشمالاً وسقط الناس في الخندق وقتلوا قتلاً ذريعاً، وهرب أوس بن ثعلبة إلى سجستان فمات بها أو قريباً منها .

وقتل من بكر يومئذ ثمانية آلاف ، وغلب ابن خازم على هراة واستعمل عليها ابنه محمداً وضم إليه شماس بن دثار العطاردي ، وجعل بكير بن وشاح الثقفي على شرطته ، ورجع ابن خازم إلى مرو وأغارت الترك على قصر أسفاد ـ وابن خازم على هراة ـ وكان فيه ناس من الأزد فحصروهم فأرسلوا إلى ابن خازم فوجه إليهم زهير بن حيان في بني تميم وقال له : إياك مشاولة[1] الترك إذا رأيتموهم فاحملوا عليهم فوافاهم

---

(١) مشاولة بالشين المعجمة ، شالت نعامته خف وغضب ثم سكن ، فيكون المعنى إياكم أن تشدوا عليهم ثم تسكتوا بل استمروا إلى أن تهزموهم .

في يوم بارد . فلما التقوا حمل عليهم فانهزمت الترك واتبعوهم حتى مضى عامة الليل ، فرجع زهير وقد يبست يده على رمحه من البرد فجعلوا يسخنون الشحم فيضعه على يده ودهنوه، وأوقدوا له ناراً فانتفخت يده ثم رجع إلى هراة ، فقال في ذلك ثابت قطنة :

فَدَتْ نفسي فوارسَ من تميمٍ ... على ما كان من ضَنْكِ المقامِ
بقصرِ الباهليِّ وقد أراني ... أحامي حِينَ قلَّ بهِ المحامي
بسيفي بعد كسر الرّمْحِ فيهم ... أذودُهُمُ بذي شُطَبٍ حُسَامِ
أكسرُّ عَلَيْهِمُ اليحمومَ كرّاً ... ككَرِّ الشرْبِ آنيةَ المُدامِ
فلولا اللّهُ لَيْسَ له شريكٌ ... وضربي قَوْنَسَ الملكِ الهُمَامِ
إذا فاضَتْ نِساءُ بني دثارٍ ... أمامَ التُّرْكِ بادية الخدامِ

ذكر أمر التوابين

قيل : لما قتل الحسين ورجع ابن زياد من معسكره بالنخيلة ودخل الكوفة تلاقته الشيعة بالتلاوة والمنادمة[١] ورأت أن قد أخطأت خطأ كبيراً بدعائهم الحسين وتركهم نصرته . وإجابته حتى قتل إلى جانبهم ، ورأوا أنه لا يغسل عارهم والإثم عليهم إلا قتل من قتله والقتل فيهم ، فاجتمعوا بالكوفة إلى خمسة نفر من رؤساء الشيعة إلى سليمان بن صرد الخزاعي وكانت له صحبة وإلى المسيب بن نجبة الفزاري وكان من أصحاب علي ، وإلى عبد الله بن سعد بن نفيل الأزدي ، وإلى عبد الله بن وأل التيمي تيم بكر بن وائل ، وإلى رفاعة بن شداد البجلي وكانوا من خيار أصحاب علي ، فاجتمعوا في منزل سليمان بن صرد الخزاعي فبدأهم المسيب بن نجبة فقال بعد حمد الله : أما بعد فإنا ابتلينا بطول العمر والتعرض لأنواع الفتن فنرغب إلى ربنا أن لا يجعلنا ممن يقول له غداً : (أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير) فإن أمير المؤمنين علياً قال : العمر الذي أعذر الله فيه إلى ابن آدم ستون سنة ، وليس فينا رجل إلا وقد بلغه وقد كنا مغرمين بتزكية أنفسنا فوجدنا الله كاذبين في كل موطن من مواطن ابن بنت نبيه ﷺ، وقد بلغنا قبل ذلك كتبه ورسله واعذر إلينا فسألنا نصره عوداً وبدءاً وعلانية فبخلنا عنه بأنفسنا حتى قتل إلى جانبنا لا نحن نصرناه بأيدينا ، ولا جادلنا عنه بألسنتنا ولا قويناه بأموالنا ولا طلبنا له النصرة إلى عشائرنا فما عذرنا عند ربنا وعند لقاء

---

(١) في الطبري « بالتلاوم والتنديم » .

نبينا ، وقد قتل فينا ولد حبيبه وذريته ونسله لا والله لا عذر دون أن تقتلوا قاتله ، والموالين عليه أو تقتلوا في طلب ذلك فعسى ربنا أن يرضى عنا عند ذلك ولا أنا بعد لقائه لعقوبته بآمن ، أيها القوم ولوا عليكم رجلاً منكم فإنه لا بد لكم من أمير تفزعون إليه وراية تحفون بها .

وقام رفاعة بن شداد وقال : أما بعد فإن الله قد هداك لأصوب القول وبدأت بأرشد الأمور بدعائك إلى جهاد الفاسقين وإلى التوبة من الذنب العظيم ، فمسموع منك مستجاب إلى قولك ، وقلت: ولوا أمركم رجلاً تفزعون إليه وتحفون برايته ، وقد رأينا مثل الذي رأيت فإن تكن أنت ذلك الرجل تكن عندنا مرضياً وفينا منتصحاً وفي جماعتنا محبوباً، وإن رأيت ورأى أصحابنا ذلك ولينا هذا الأمر شيخ الشيعة وصاحب رسول الله ﷺ وذا السابقة والقدم سليمان بن صرد الخزاعي المحمود في بأسه ودينه الموثوق بحزمه ، وتكلم عبد الله بن سعد بنحو ذلك وأثنيا على المسيب . وسليمان ، فقال المسيب : قد أصبتم فولوا أمركم سليمان بن صرد ، فتكلم سليمان فقال بعد حمد الله : أما بعد فإني لخائف أن لا يكون أخرنا إلى هذا الدهر الذي نكدت فيه المعيشة وعظمت فيه الرزية ، وشمل فيه الجور أولي الفضل من هذه الشيعة لما هو خير، إنا كنا نمد أعناقنا إلى قدوم آل بيت نبينا محمد ﷺ نمنيهم النصر ونحثهم على القدوم ، فلما قدموا ونينا وعجزنا وأدهنا وتربصنا حتى قتل فينا ولد نبينا وسلالته وعصارته وبضعة من لحمه ودمه ، إذ جعل يستصرخ ويسأل النصف فلا يعطى اتخذه الفاسقون غرضاً للنبل ودريئة للرماح حتى أقصدوه وعدوا عليه فسلبوه. ألا انهضوا فقد سخط عليكم ربكم ولا ترجعوا إلى الحلائل والأبناء حتى يرضى الله ، والله ما أظنه راضياً دون أن تناجزوا من قتله ، ألا لا تهابوا الموت فما هابه أحد قط إلا ذلّ وكونوا كبني اسرائيل إذ قال لهم نبيهم : إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ، ففعلوا وجثوا على الركب ومدّوا الأعناق حين علموا أنهم لا ينجيهم من عظيم الذنب إلا القتل فكيف بكم لو دعيتم إلى ما دعوا ، أحدّوا السيوف وركّبوا الأسنة ، وأعِدّوا لهم ما استطعتم من القوّة ومن رباط الخيل ، حتى تدعوا وتستنفروا ، فقال خالد بن سعد بن نفيل : أما أنا فوالله لو أعلم أنه ينجيني من ذنبي ويرضى ربي عني قتلي نفسي لقتلتها ، وأنا أشهد كل من حضر ، أن كل ما أصبحت أملكه سوى سلاحي الذي أقاتل به عدوي صدقة على المسلمين أقويهم به على قتال

الفاسقين . قال أبو المعتمر بن حنش بن ربيعة الكناني مثل ذلك ، فقال سليمان : حسبكم من أراد من هذا شيئاً فليأت به عبد الله بن وأل التيمي فإذا اجتمع عنده كل ما تريدون اخراجه جهزنا به ذوي الخلة والمسكنة من أشياعكم ، وكتب سليمان بن صرد إلى سعد بن حذيفة بن اليمان يعلمه بما عزموا عليه ويدعوه إلى مساعدتهم ومن معه من الشيعة بالمدائن فقرأ سعد بن حذيفة الكتاب على من بالمدائن من الشيعة فأجابوا إلى ذلك، فكتبوا إلى سليمان بن صرد يعلمونه أنهم على الحركة إليه والمساعدة له وكتب سليمان أيضاً كتاباً إلى المثنى بن مخربة العبدي بالبصرة مثل ما كتب إلى سعد بن حذيفة فأجابه المثنى اننا معشر الشيعة حمدنا الله على ما عزمتم عليه ونحن موافوك ان شاء الله للاجل الذي ضربت، وكتب في أسفل الكتاب :

تبصر كأني قد أتيتك معلماً ... على أتلع الهادي أجشّ هزيم
طويل القرى نهد الشواءِ مقلص ... ملحٍ على فأس اللجام أزوم
بكلّ فتى لا يملأ الروعُ قَلْبَهُ ... مِحشٌ[1] لنارِ الحربِ غير سؤومِ
أخي ثقةٍ ينوي الإلٰه بسعيهِ ... ضروب بنصلِ السَّيْفِ غير أثيمِ

فكان أوّل ما ابتدؤوا به أمرهم بعد قتل الحسين سنة إحدى وستين فما زالوا بجمع آلة الحرب ودعاء الناس في السر إلى الطلب بدم الحسين فكان يجيبهم النفر بعد النفر ، ولم يزالوا على ذلك إلى أن هلك يزيد بن معاوية سنة أربع وستين . فلما مات يزيد جاء إلى سليمان أصحابه فقالوا : قد هلك هذا الطاغية والأمر ضعيف فإن شئت وثبنا على عمرو بن حريث وكان خليفة ابن زياد على الكوفة ثم أظهرنا الطلب بدم الحسين وتتبعنا قتلته ودعونا الناس إلى أهل هذا البيت المستأثر عليهم المدفوعين عن حقهم ، فقال سليمان بن صرد : لا تعجلوا إني قد نظرت فيما ذكرتم ، فرأيت أن قتلة الحسين هم أشراف الكوفة ، وفرسان العرب ، وهم المطالبون بدمه ومتى علموا ما تريدون كانوا أشد الناس عليكم ، ونظرت فيمن تبعني منكم فعلمت أنهم لو خرجوا لم يدركوا ثأرهم ولم يشفوا نفوسهم وكانوا جزراً لعدوّهم ولكن بثوا دعاتكم في المصر وادعوا إلى أمركم هذا شيعتكم وغير شيعتكم ففعلوا واستجاب لهم ناس كثير بعد هلاك يزيد .

---

(١) المحش بالشين المعجمة حديدة تحش بها النار أي تحرك.

ثم إن أهل الكوفة أخرجوا عمرو بن حريث وبايعوا لابن الزبير . وسليمان وأصحابه يدعون الناس ، فلما مضت ستة أشهر بعد هلاك يزيد قدم المختار بن أبي عبيد الكوفة في النصف من رمضان[١] وقدم عبدالله بن يزيد الأنصاري أميراً على الكوفة من قبل ابن الزبير لثمان بقين من رمضان ، وقدم إبراهيم بن محمد بن طلحة معه على خراج الكوفة ، فأخذ المختار يدعو الناس إلى قتال قتلة الحسين ويقول : جئتكم من عند المهدي محمد بن الحنفية وزيراً أميناً فرجع إليه طائفة من الشيعة وكان يقول : إنما يريد سليمان أن يخرج فيقتل نفسه ـ ومن معه وليس له بصرة بالحرب ، وبلغ الخبر عبدالله بن يزيد بالخروج عليه بالكوفة في هذه الأيام وقيل له ليحبسه وخوف عاقبة أمره إن تركه ، فقال عبدالله : إن هم قاتلونا قاتلناهم وإن تركونا لم نطلبهم إن هؤلاء القوم يطلبون بدم الحسين بن علي فرحم الله هؤلاء القوم آمنون فليخرجوا ظاهرين وليسيروا إلى من قاتل الحسين فقد أقبل إليهم ـ يعني ابن زياد ـ وأنا لهم ظهير هذا ابن زياد قاتل الحسين وقاتل أخياركم وأمثالكم قد توجه إليكم وقد فارقوه على ليلة من جسر منبج فالقتال والاستعداد إليه أولى من أن تجعلوا بأسكم بينكم فيقتل بعضكم بعضاً فيلقاكم عدوكم وقد ضعفتم وتلك أمنيته ، وقد قدم عليكم أعدى خلق الله لكم من وَلي عليكم هو وأبوه سبع سنين لا يقلعان عن قتل أهل العفاف والدين ، هو الذي من قبله أتيتم والذي قتل من تنادون بدمه[٢] قد جاءكم فاستقبلوه بحدكم وشوكتكم واجعلوها به ولا تجعلوها بأنفسكم إني لكم ناصح ، وكان مروان قد سير ابن زياد إلى الجزيرة ثم إذا فرغ منها سار إلى العراق ، فلما فرغ عبدالله بن يزيد من قوله قال إبراهيم بن محمد بن طلحة : أيها الناس لا يَغُرَّنَّكُم من السيف والغشم مقالة هذا الداهن ، والله لئن خرج علينا خارج لنقتلنه ولئن استيقنا ان قوماً يريدون الخروج علينا لنأخذن الوالد بولده والمولود بوالده والحميم بالحميم والعريف بما في عرافته حتى يدينوا للحق ويذللوا للطاعة ، فوثب إليه المسيب بن نجبة فقطع عليه منطقه ثم قال : يا ابن الناكثين[٣] أنت تهددنا بسيفك وغشمك أنت والله أذل من ذلك إنا لا نلومك على بغضنا وقد قتلنا أباك وجدك وأما أنت أيها الأمير فقد قلت قولاً سديداً فقال إبراهيم : والله لتقتلن وقد أدهن

---

(١) عند الطبري اليوم الذي قدم فيه المختار وهو يوم الجمعة .
(٢) في الطبري «هو الذي قتلكم ومن قبله أو تيتم والذي قتل من تثأرون بدمه» .
(٣) في الأصل «ابن الساكنين وهي غلط» .

هذا ـ يعني عبدالله بن يزيد ـ فقال له عبدالله بن وأل : ما اعتراضك فيما بيننا وبين أميرنا ما أنت علينا بأمير إنما أنت أمير هذه الجزية فأقبل على خراجك ولئن أفسدت أمر هذه الأمة فقد أفسده والداك وكانت عليهما دائرة السوء ، فشتمهم جماعة ممن مع إبراهيم فشاتموه فنزل الأمير من على المنبر وتهدده إبراهيم بأنه يكتب إلى ابن الزبير يشكوه فجاءه عبدالله في منزله واعتذر إليه فقبل عذره ، ثم ان أصحاب سليمان خرجوا يشترون السلاح[١] ظاهرين ويتجهزون .

ذكر فراق الخوارج عبدالله بن الزبير وما كان منهم

وفي هذه السنة فارق الخوارج الذين كانوا قدموا مكة عبدالله بن الزبير وكانوا قد قاتلوا معه أهل الشام ، وكان سبب قدومهم عليه أنهم لما اشتد عليهم ابن زياد بعد قتل أبي بلال اجتمعوا فتذاكروا ذلك فقال لهم نافع بن الأزرق : إن الله قد أنزل عليكم الكتاب وفرض عليكم الجهاد واحتج عليكم بالبيان وقد جرد أهل الظلم فيكم السيوف فاخرجوا بنا إلى هذا الذي قد ثار بمكة ، فإن كان على رأينا جاهدنا معه ، وإن يكن على غير رأينا دافعناه عن البيت ، وكان عسكر الشام قد سار نحو ابن الزبير فسار الخوارج حتى قدموا على ابن الزبير فسر بمقدمهم وأخبرهم أنه على مثل رأيهم من غير تفتيش ، فقاتلوا معه أهل الشام حتى مات يزيد بن معاوية وانصرف أهل الشام ، ثم انهم اجتمعوا وقالوا : إن الذي صنعتم أمس لغير رأي تقاتلون مع رجل لا تدرون لعله ليس على مثل رأيكم وقد كان أمس يقاتلكم هو وأبوه وينادي : يا ثارات عثمان فأتوه واسألوه عن عثمان فإن برىء منه كان وليكم وإن أبى كان عدوكم فأتوه فسألوه فنظر فإذا أصحابه حوله قليل فقال : إنكم أتيتموني حين أردت القيام ولكن روحوا العشية حتى أعلمكم . فانصرفوا وبعث إلى أصحابه فجمعهم حوله بالسلاح وجاءت الخوارج وأصحابه حوله وعلى رأسه وبأيديهم العمد ، فقال ابن الأزرق لأصحابه : إن الرجل قد أزمع خلافكم فتقدم إليه نافع بن الأزرق ، وعبيدة بن هلال فقال عبيدة بعد حمد الله : أما بعد فإن الله بعث محمداً يدعو إلى عبادته وإخلاص الذي له[٢] فدعا إلى ذلك فأجابه المسلمون فعمل فيهم بكتاب الله حتى قبضه الله واستخلف الناس أبا بكر واستخلف أبو

---

(١) في الطبري «ينشرون السلاح» ولعلها أظهر.

(٢) في الطبري «وإخلاص الدين» وما هنا فيه تحريف.

بكر عمر ، فكلاهما عملا بكتاب الله وسنة نبيه ، ثم اَن الناس استخلفوا عثمان فحمى الاحمـاء ، وآثر القـربى ، واستعمل الغنى ، ورفـع الدرة ووضـع السـوط ، ومـزق الكتاب ، وضرب منكر الجور ، وآوى طريد رسول الله ﷺ . وضرب السابقين بالفضل وحرمهم . وأخذ فيء الله الذي أفاء عليهم فقسمه في فساق قـريش ومجان العـرب فسارت إليه طائفة فقتلوه فنحن لهم أولياء ومن ابن عفان وأوليائه برآء فما تقول أنت يا ابن الزبير؟ فقال: قد فهمت الذي ذكرت به النبي ﷺ فهو فوق ما ذكرت وفوق ما وصفت وفهمت ما ذكرت به أبا بكر وعمر وقد وفقت وأصبت وفهمت الذي ذكرت به عثمان وإني لا أعلم مكان أحد من خلق الله اليوم أعلم بآبن عفان ، وأمره مني كنت معه حيث نقم القـوم عليـه واستعتبوه فلم يدع شيئاً إلا أعتبهم ثم رجعوا إليه بكتاب له يزعمون أنه كتبه يأمر فيه بقتلهم فقال لهم : ما كتبته فإن شئتم فهاتوا بينتكم فإن لم تكن حلفت لكم فوالله ما جاؤوه ببينة ولا استحلفوه ووثبوا عليه فقتلوه وقد سمعت ما عبته به فليس كذلك بل هو لكل خير أهل ، وأنا أشهدكم ومن حضرني إني ولي لابن عفان وعدو أعدائه فبرىء الله منكم .

وتفرق القوم فأقبل نافع بن الأزرق الحنظلي ، وعبدالله بن الصفار السعدي ، وعبدالله بن أباض ، وحنظلة بن بيهس ، وبنو الماحوز عبدالله ، وعبيدالله ، والزبير من بني سليط بن يربوع ، وكلهم من تميم ، حتى أتوا البصرة ، وانطلق أبو طالوت من بني بكـر بن وائل ، وأبـو فديـك عبدالله بن ثـور بن قيس بن ثعلبة ، وعـطية بن الأسـود اليشكري إلى اليمامة ، فوثبوا بها مع أبي طالوت ، ثم أجمعوا بعد ذلك على نجدة بن عامر الحنفي وتركوا أبا طالوت ، فأما نافع وأصحابه فإنهم قدموا البصرة وهم على رأي أبي بلال واجتمعوا وتذاكروا فضيلة الجهاد فخرج نافع على ثلاثمائة وذلك عند وثوب الناس بابن زياد وكسر الخوارج باب السجن وخـرجوا واشتغـل الناس عنهم بحـرب الأزد ، وربيعة ، وتميم .

فلما خرج نافع تبعوه واصطلح أهل البصرة على عبدالله بن الحرث فتجرّد الناس للخوارج وأخافوهم فلحق نافع بالأهواز في شوّال سنة أربع وستين وخرج من بقي منهم بالبصرة إلى ابن الأزرق إلا من لم يرد لخروج يومه ذلك منهم عبدالله بن الصفـار ، وعبدالله بن أباض ، ورجال معهما على رأيهما . ونظر نافع فرأى أن ولاية من تخلف عن الجهاد من الذين قعدوا من الخوارج لا تحلّ له ، وإن من تخلف عنه لا نجاة له .

فقال لأصحابه ذلك ودعاهم إلى البراءة منهم وأنهم لا يحل لهم مناكحتهم ولا أكل ذبائحهم ولا يجوز قبول شهادتهم وأخذ علم الدين عنهم ولا يحل ميراثهم ، ورأى قتل الأطفال والاستعراض ، وأن جميع المسلمين كفار مثل كفار العرب لا يقبل منهم إلا الإسلام أو القتل ، فأجابه إلى ذلك بعضهم وفارقه بعضهم ، وممن فارقه نجدة بن عامر وسار إلى اليمامة فأطاعه الخوارج الذين بها وتركوا أبا طالوت ، فكتب نافع إلى ابن أباض ، وابن الصفار يدعوهما ومن معهما إلى ذلك ؛ فقرأ ابن الصفار الكتاب ولم يقرأه على أصحابه خشية أن يتفرقوا ويختلفوا فأخذه ابن أباض فقرأه فقال : قاتله الله أي رأي رأى؟ صدق نافع لو كان القوم مشركين كان أصوب الناس رأياً وكانت سيرته كسيرته في المشركين ولكنه قد كذب فيما يقول : إن القوم برآء من الشرك ولكنهما كفار بالنعم والأحكام ولا يحلّ لنا إلا دماؤهم وما سوى ذلك فهو حرام علينا فقال له ابن الصفار : برىء الله منك فقد قصرت وبرىء الله من ابن الأزرق فقد غلا . فقال الآخر : برىء الله منك ومنه ، فتفرق القوم واشتدت شوكة ابن الأزرق وكثرت جموعه وأقام بالأهواز يجبي الخراج ويتقوى به ، ثم أقبل نحو البصرة حتى دنا من الجسر فبعث إليه عبدالله بن الحرث مسلم بن عبيس بن كريز بن ربيعة من أهل البصرة (عبيس) بالعين المهملة المضمومة والباء الموحدة والياء المثناة من تحت وبالسين المهملة ، و (عبيدة بن بلال) بضم العين المهملة والباء الموحدة .

ذكر قدوم المختار الكوفة

كانت الشيعة تسب المختار وتعيبه[1] لما كان منه في أمر الحسن بن علي حين طعن في ساباط وحمل إلى أبيض المدائن حتى كان زمن الحسين ، وبعث الحسين مسلم بن عقيل إلى الكوفة كان المختار في قرية له تدعى لفغا[2] فجاءه خبر ابن عقيل عند الظهر أنه قد ظهر ولم يكن خروجه عن ميعاد كما سبق ، فأقبل المختار في مواليه فانتهى إلى باب الفيل بعد المغرب ، وقد أقعد عبيدالله بن زياد عمرو بن حريث بالمسجد ومعه راية فوقف المختار لا يدري ما يصنع ، فبلغ خبره عمراً فاستدعاه وآمنه فحضر عنده ، فلما كان الغد ذكر عمارة بن الوليد بن عقبة أمره لعبيدالله فأحضره فيمن

---

(١) في الطبري «وتعتبه».

(٢) في الطبري «لقفا» وضبطه الحازمي بفتح أوله وسكون ثانيه .

دخل وقال له : أنت المقبل في الجموع لتنصر ابن عقيل قال : لم أفعل ولكني أقبلت ونزلت تحت راية عمرو فشهد له عمرو فضرب وجه المختار فشتر عينه وقال : لـولا شهادة عمرو لقتلتك ، ثم حبسه حتى قتل الحسين ، ثم أن المختار بعث إلى عبدالله بن عمر بن الخطاب يسأله أن يشفع فيه ، وكان ابن عمر تزوج أخت المختار صفية بنت أبي عبيد ، فكتب ابن عمر إلى يزيد يشفع فيه فأرسل يزيد إلى ابن زياد يأمره بإطلاقه فأطلقه وأمره أن لا يقيم غير ثلاث، فخرج المختار إلى الحجاز فلقيه ابن العرق[1] وراء واقصة فسلم عليه وسأله عن عينه فقال : خبطها ابن الزانية بالقضيب فصارت كما ترى ، ثم قال : قتلني الله إن لم أقطع أنامله وأعضاءه إرباً إربا .

ثم سأله المختارَ عن ابن الزبير فقال : إنه عائذ بالبيت وإنه يبايع سراً ولو اشتدت شوكته وكثرت رجاله لظهر ، فقال المختار : إنه رجل العرب اليوم وإن اتبع رأيي أكفه أمر الناس ، إن الفتنة أرعدت وأبرقت ـ وكان قد آنبعث ـ فإذا سمعت بمكان قد ظهرت به في عصابة من المسلمين أطلب بدم الشهيد المظلوم المقتول بالطف سيد المسلمين وابن بنت سيد المرسلين وابن سيدها الحسين بن علي فَوَرَبِك لأقتلن بقتله عدة من قتل على دم يحيى بن زكريا، ثم سار وابن العرق يعجب من قوله ، قال ابن العرق : فوالله لقد رأيت ما ذكره وحدثت به الحجاج بن يوسف فضحك وقال : لله دره أي رجل دنيا ومسعر حرب ومقارع أعداء كان ، ثم قدم المختار على ابن الزبير فكتم عنه ابن الزبير أمره ففارقه وغاب عنه سنة ثم سأل عنه ابن الزبير فقيل : إنه بالطائف وإنه يزعم أنه صاحب الغضب ومسير الجبارين فقال ابن الزبير: ما له قاتله الله لقد انبعث[2] كذاباً متكهناً ان يهلك الله الجبارين يكن المختار أوّلهم ، فهو في حديثه إذ دخل المختار المسجد فطاف وصلى ركعتين وجلس فأتاه معارفه يحدثونه ولم يأت ابن الزبير فوضع ابن الزبير عليه عباس بن سهل بن مسعر فأتاه وسأله عن حاله ثم قال له : مثلك يغيب عن الذي قد اجتمع عليه الأشراف من قريش ، والأنصار ، وثقيف ، ولم تبق قبيلة إلا وقد أتاه زعيمها فبايع هذا الرجل فقال : إني أتيته العام الماضي وكتم عني خبره فلما استغنى عني أحببت أن أريه أني مستغن عنه فقال له العباس : القه الليلة وأنا معك فأجابه إلى ذلك .

---

(١) ضبط في الطبري بكسر العين المهملة وسكون الراء وهو رجل من موالي ثقيف .

(٢) في الأصل «لقد اتبع» وهو تحريف .

ثم حضر عند ابن الزبير بعد العتمة فقال المختار : أبايعك على أن لا تقضي الأمور دوني وعلى أن أكون أول داخل وإذا ظهرت استعنت بي على أفضل عملك فقال ابن الزبير : أبايعك على كتاب الله وسنة رسوله فقال : وشر غلماني تبايعه على ذلك والله لا أبايعك أبداً إلا على ذلك فبايعه فأقام عنده وشهد معه قتال الحصين بن نمير وأبلى أحسن بلاء ، وقاتل أشد قتال ، وكان أشد الناس على أهل الشام ، فلما هلك يزيد بن معاوية وأطاع أهل العراق ابن الزبير أقام عنده خمسة أشهر فلما رآه لا يستعمله جعل لا يقدم عليه أحد من أهل الكوفة إلا سأله عن حال الناس فأخبره هانىء بن جبة[١] الوداعي باتساق أهل الكوفة على طاعة ابن الزبير ، إلا أن طائفة من الناس هم عدد أهلها لو كان لهم من يجمعهم على رأيهم أكل بهم الأرض إلى يوم ما فقال المختار : أنا أبو إسحاق أنا والله لهم أن أجمعهم على الحق ، وألقى[٢] بهم ركبان الباطل وأهلك بهم كل جبار عنيد ، ثم ركب راحلته نحو الكوفة فوصل إلى نهر الحيرة يوم الجمعة فاغتسل ولبس ثيابه ثم ركب ، فمر بمسجد السكون وجبانة كندة لا يمر على مجلس إلا سلم على أهله وقال: ابشروا بالنصرة والفلج ، أتاكم ما تحبون ؛ ومر ببني بدء[٣] فلقي عبيدة بن عمرو البدئي[٤] من كندة فسلم عليه ، وقال له : ابشر بالنصر والفلج[٥] أنك أبو عمرو على رأي حسن لن يدع الله لك معه إثماً إلا غفره لك ولا ذنباً إلا ستره ، وكان عبيدة من أشجع الناس وأشعرهم وأشدهم تشيعاً وحباً لعلي وكان لا يصبر عن الشراب فقال له : بشرك الله بالخير فهل أنت مبين[٦] لنا ؟ قال : نعم القني الليلة ، ثم مر ببني هند فلقي اسماعيل بن كثير فرحب به وقال له : القني أنت وأخوك الليلة فقد أتيتكم بما تحبون ، ومر على حلقة من همدان فقال : قد قدمت عليكم بما يسركم ، ثم أتى المسجد واستشرف له الناس فقام إلى سارية فصلى عندها حتى أقيمت الصلاة ، وصلى مع الناس ثم صلى ما بين الجمعة والعصر ثم انصرف إلى داره واختلف إليه الشيعة ، وأتى اسماعيل بن كثير ، وأخوه ، وعبيدة بن عمرو فسألهم فأخبروه خبر

(١) في الطبري «ابن أبي حية» بالحاء المهملة والياء المثناة من تحت.

(٢) في الطبري «وانفي بهم» وهي محرفة.

(٣) في الطبري «بداء» بتشديد الدال مفتوحة فألف بعدها همزة.

(٤) في الطبري «البدي».

(٥) الفلج ـ بسكون اللام ـ الفوز والظفر.

(٦) في الطبري «مفسر».

سليمان بن صرد وأنه على المنبر فحمد الله ثم قال : إن المهدي بن الوصي بعثني إليكم أميناً ووزيراً ومشيحاً (٢) وأميراً وأمرني بقتل الملحدين والطلب بدم أهل بيته والدفع عن الضعفاء ، فكونوا أول خلق الله إجابة فضربوا على يده وبايعوه ، وبعث إلى الشيعة وقد اجتمعت عند سليمان بن صرد وقال لهم نحو ذلك وقال لهم : إن سليمان ليس له بصر بالحرب ولا تجربة بالأمور وإنما يريد أن يخرجكم فيقتلكم ويقتل نفسه ، وأنا أعمل على مثال مثل لي وأمر بين لي أعين وليكم وأقتل عدوكم وأشفي صدوركم فاسمعوا قولي وأطيعوا أمري ثم انتشروا وما زال بهذا ونحوه حتى استمال طائفة من الشيعة وصاروا يختلفون إليه ويعظمونه ، وعظماء الشيعة مع سليمان لا يعدلون به أحداً وهو أثقل خلق الله على المختار وهو ينظر إلى ما يصير إليه أمر سليمان .

فلما خرج سليمان نحو الجزيرة قال عمر بن سعد ، وشبث بن ربعي ، وزيد بن الحرث بن رويم لعبدالله بن يزيد الخطمي ، وابراهيم بن محمد بن طلحة : إن المختار أشد عليكم من سليمان إنما خرج يقاتل عدوكم ، وإن المختار يريد أن يثب عليكم في مصركم فسيروا إليه فأوثقوه واسجنوه حتى يستقيم أمر الناس فأتوه فأخذوه بغتة ، فلما رآهم قال : مالكم ؟ فوالله ما ظفرت أكفكم ، فقال إبراهيم بن محمد بن طلحة لعبدالله : شده كتافاً ومشه حافياً فقال عبدالله : ما كنت لأفعل هذا برجل لم يظهر لنا غدره إنما أخذناه على الظن فقال إبراهيم : ليس هذا بعشك فادرجي ، ما هذا الذي بلغنا عنك ياابن أبي عبيد؟ فقال : ما بلغك عني إلا باطل وأعوذ بالله من غش كغش أبيك وجدك ثم حمل إلى السجن غير مقيد ، وقيل : بل كان مقيداً فكان يقول في السجن : أما ورب البحار ، والنخيل ، والأشجار ، والمهامه ، والقفار ، والملائكة الأبرار ، والمصطفين الأخيار لأقتلن كل جبار بكل لدن خطار ومهند بتار بجموع الأنصار ليس بمثل أغمار ولا بعزل أشرار ، حتى إذا أقمت عمود الدين وزايلت شعب صدع المسلمين وشفيت غليل صدور المؤمنين وأدركت ثار النبيين لم يكبر عليّ زوال الدنيا ولم أحفل بالموت إذا أتى ، وقيل في خروج المختار إلى الكوفة وسببه غير ما تقدم ، وهو أن المختار قال لابن الزبير ـ وهو عنده ـ إني لأعلم قوماً لو أن لهم رجلاً له فقه وعلم بما يأتي ويذر لاستخرج لك منهم جنداً تقاتل بهم أهل الشام قال : من هم ؟ قال : شيعة علي بالكوفة قال : فكن أنت ذلك الرجل ، فبعثه إلى الكوفة فنزل ناحية منها

---

(١) في الطبري «ومنتخبا».

يبكي على الحسين ويذكر مصابه حتى لقوه وأحبوه فنقلوه إلى وسط الكوفة ، وأتاه منهم بشر كثير فلما قوي أمره سار إلى ابن مطيع .

ذكر عدة حوادث

حج بالناس هذه السنة عبدالله بن الزبير ، وكان عامله على المدينة فيها أخوه عبيدة بن الزبير ، وعلى الكوفة عبدالله بن يزيد الخطمي ، وعلى قضائها هشام بن هبيرة ، وعلى البصرة عمر بن عبيدالله بن عمر التيمي ، وعلى خراسان عبدالله بن خازم . وفيها مات شداد بن أوس بن ثابت وهو ابن أخي حسان بن ثابت. وفيها توفي المسوَّر بن مَخْرَمَة بمكة في اليوم الذي ورد فيه خبر موت يزيد بن معاوية ، وكان سبب موته أن أصابته فلقة حجر منجنيق في جانب وجهه فمرض أياماً ومات . وفيها توفي أبو برزة الأشهلي بخراسان . وفيها توفي الوليد بن عتبة بن أبي سفيان في قول ، وفي أيام يزيد مات أبو ثعلبة الخشني ، وقيل : مات سنة خمس وسبعين له صحبة ، وفي أيامه أيضاً مات عائذ بن عمرو المزني بالبصرة وشهد بيعة الرضوان . وفي أيام ابن زياد بالكوفة مات قيس بن خرشة وهو صحابي ، وخبر موته عجيب مع ابن زياد لأنه كان قوّالاً بالحق ، وفي أيامه مات نوفل بن معاوية بن عمرو الدؤلي ، وفي أيامه مات أبو خيثمة الأنصاري شهد أحداً وذكره في تبوك مشهور ، وفي أيامه مات عتبان بن مالك وهو بدري . وفي هذه السنة توفي شقيق بن ثور السدوسي .

الفهرس